مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة

١٣٤٣هـ - ١٣٨٥هـ

المجموعة الثانية

الجزء الثالث

جمع وترتيب

أحمد بن عبد العزيز الجماز

عبد العزيز بن صالح الطويل

دار أطلس الخضراء

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مقالات كبار العلماء
في
الصحف السعودية القديمة

٣

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

دار أطلس الخضراء
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
هاتف: ٤٢٦٦١٠٤ - ٤٢٦٦٩٦٣ فاكس: ٤٢٥٧٩٠٦
www.facebook.com/DARATLAS
twitter: @ dar-atlas
dar-atlas@hotmail.com

مقالات الشيخ

عبد اللَّه بن عبد الغني الخياط رحمه الله

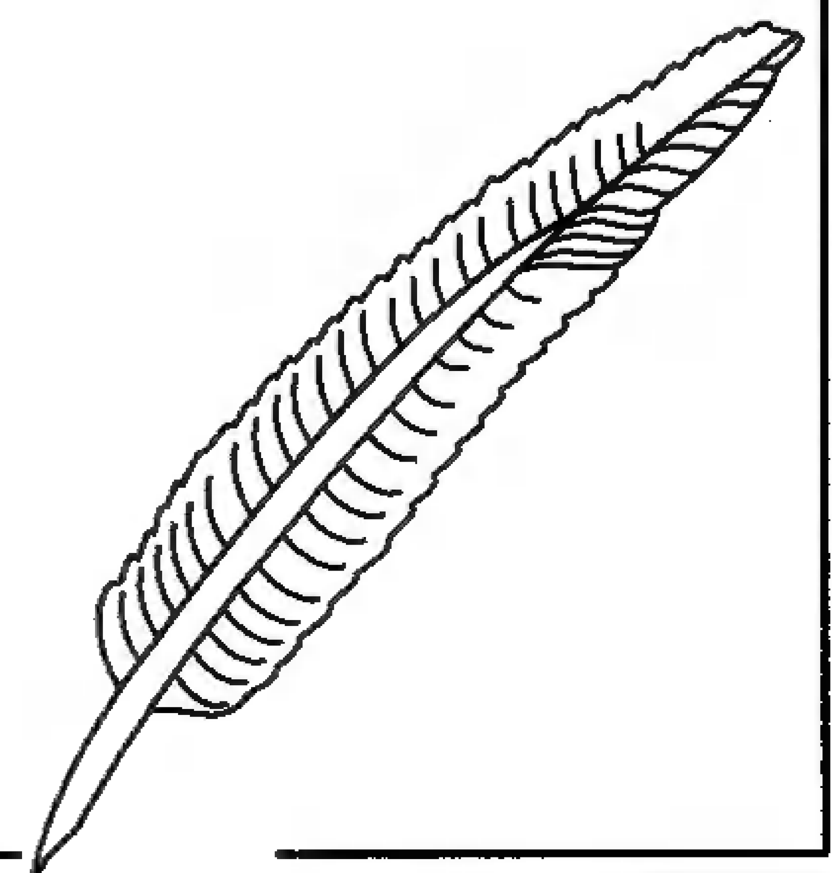
١٣٢٦هـ - ١٤١٥هـ

« أنا شغوف بقراءة ما يكتبه فضيلته ؛ لأني أجد في كلماته حماس الخطيب ، وتفكير العالم ، واستنباط الفقيه ، وهذا ناشئ عن الصدق في النصح ، والإخلاص في الدعوة ».

الشيخ عبد اللَّه البسام

« صحيفة البلاد السعودية »

العدد (٢٧٢٢) في ١٣٧٧/٩/١٨هـ



مقالات الشيخ عبد الله بن عبد الغني خياط[(١)]

للتدبر والموعظة ...[(٢)]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۞ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ١- ٤] .

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن عبد الغني خياط بن محمد . ولد في مكة المكرمة شوال عام ١٣٢٦هـ . درس على علماء المسجد الحرام، وحفظ القرآن الكريم . ثم التحق بالمعهد العلمي السعودي بمكة .
أخذ العلم عن عدد كبير من العلماء منهم : الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ ، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح ، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، والشيخ أبو بكر خوقير ، والشيخ سليمان الحمدان، والشيخ محمد حامد الفقي .
صدر الأمر الملكي بتعيينه إمامًا في المسجد الحرام عام ١٣٥٦هـ وكان يساعد الشيخ عبد الظاهر أبو السمح في صلاة التراويح وينفرد بصلاة القيام آخر الليل .كما عين عضوًا في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومدرسًا بالمدرسة الفيصلية بمكة . واختاره الملك عبد العزيز ليكون معلمًا لأنجاله وعينه مديرًا لمدرسة الأمراءبالرياضعام ١٣٥٦هـ . واستمر في هذا العمل حتى وفاة الملك عبد العزيز عام١٣٧٣هـ . ثم انتقل إلى الحجاز وعين مستشارًا للتعليم في مكة . ثم أسندت إليه إدارة كلية الشريعة بمكة بالإضافة إلى عمله كمستشار ، ثمكلف بالإشراف على إدارة التعليم بمكة بالإضافة إلى عمله كمستشار .وقد عين إمامًا وخطيبًا للمسجد الحراماوستمر في هذا العمل حتى عام ١٤٠٤هـ حيث طلب من جلالة الملك إعفائه لظروفه الصحية . هذا إضافة إلى كونه عضوًا في هيئة كبار العلماء منذ تأسيسها في ١٣٩١/٧/٨هـ .
له من المؤلفات : « التفسير الميسّر »، « الخطب في المسجد الحرام »، « دليل المسلم في الاعتقاد »، « اعتقاد السلف »، .« ما يجب أن يعرفه المسلم عن دينه » وغيرها .
توفي في مكة المكرمة في ٧ / ٩ / ١٤١٥هـ وصلي عليه بالمسجد الحرام . رحمه الله برحمته الواسعة .

(٢) مجلة الحج- ربيع ثان- ١٣٧٧هـ .

لسورة (طه) حديث عظيم يذكرنا على الدوام بالفتح الجديد في الإسلام ؛ إذ دخل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في حظيرته ، وانضم إلى حزبه . ونترك هذه القصة كيفما سجلها التاريخ ترويها الأجيال ..

ولنعرض لتفسير (طه) ، والقول في تفسير طه واسع مديد، غير أن أمثل ما فسرت به : أنها من الحروف المقطَّعة التي استهل اللَّه تعالى بها بعض السور، مثل : (يس)، و(ألم)، و(ألر)، وغيرها ، واللَّه أعلم بمراده في افتتاح بعض سور القرآن بأمثال هذه الحروف ..

ولقد أنزل اللَّه تبارك وتعالى كتابه على عبده محمد هدايةً للبشر ، وقبسًا يستضاء به في كلِّ ما ادلهم من أمورهم .

وبذل رسول اللَّه ﷺ ما في وسع بشر أن يبذله من الدلالة والبيان، وتأدية الرسالة على الوجه الأتم ، إلا أن ذلك لم يصادف قدرًا مقدورًا لاستجابة بعض صناديد قومه إليه ، وانصياع نفر من رؤسائهم ، وذوي المكانة فيهم إلى دعوته ؛ كأبي جهل ، وأبي لهب ، وعقبة بن أبي معيط ، وغيرهم ، فلقي منهم آذانًا صمًّا ، وقلوبًا غلفًا ، لا تسمع الحق أو تعيه .

وكان ذلك مما يكرث[1] رسول اللَّه ﷺ ، ويزيد من متاعب نفسه ؛ إذ كان حريصًا على هدايتهم أجمعين .

فأوضح اللَّه تعالى له أن مهمته تنحصر في البلاغ والتذكرة لمن خاف اللَّه وراقبه واهتدى بهداه ، وليس عليه الهداية ، ليس له أن يتعب نفسه بفرط الأسف على كفر قومه ، والحسرة على عدم إيمانهم ؛ وإنما تكون التذكرة والهداية بالقرآن المنزل من رب السماء والأرض والخلق أجمعين ، ذلك هو الرحمن جل جلاله ، مَنْ على عرشه استوى ، صاحب العلو المطلق : علو الذات ،

---

(١) كرثه الغم : اشتد عليه . « القاموس المحيط » : (الكراث) .

وعلو القدر، وعلو القهر.

والاستواء على العرش صفةٌ من صفات اللَّه تعالى، تليقُ بجلاله وعظمته، يجب إثباتها على الحقيقة، والإيمان بها كما جاءت، دون التعرض لها بالأقيسة والكيف والتأويل، والتمثيل والتعطيل؛ إذ إن اللَّه ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

هذا الرب العظيم جلَّ جلاله؛ كلُّ ما في السماوات والأرض وما بينهما من مخلوقات، ملكٌ له، وعبيدٌ مربوبون تحت قهره وتصرفه، وما وراء ذلك مما اكتنزته الأرض من خيراتها على شتى ألوان هذه الخيرات كله في علم اللَّه وملكه، وفي قبضته، مذلل وميسر بأمره.

وهذا الرب العظيم جل جلاله، من صفاته: العلمُ الواسع العظيم، يعلمُ ما يسرُّه العبد في نفسه، وما هو أخفى من ذلك مما لم يكن عِلِمه العبد، وسيخطر على باله في مستقبل أيامه. ومن كان هذا شأنه فالجهر له والإسرار بالدعاء سواءٌ عنده.

وله سبحانه من الأسماء والصفات أكملها وأحسنها، فلا يدعى إلا بأسمائه الحسنى، ولا يوصف إلا بصفاته التي وصف بها نفسه.

وهو الإله المعبود حقًّا، والذي تألهه القلوب محبةً وإجلالًا، وذلًّا وخضوعًا، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٥- ٨].

وانتقلت الآيات بعد ذلك تحكي لونًا من التسلية لرسول اللَّه ﷺ، وتذكر له قصة نبي اللَّه موسى، وما كان فيها من العبر؛ ليكون له منها إلى جانب التسلية تأس في الصبر على الدعوة، وتحمل المشاق في سبيلها.

وتبدأ قصة موسى في هذه الآيات بالفترة التي سبقت اصطفاءه لرسالة ربه ، وكانت توطئةً لها ، وهي الفترة التي قدِم فيها موسى عليه السلام من « مدين » بالقرب من « معان » ؛ راجعًا إلى مصر ، بعد أن غاب عنها زمنًا طويلًا ، فأضل الطريق في ليلة شاتية مظلمة ، ومعه زوجه ، وكان في حاجة للدفء وإصلاح شأن أهله .

فرأى على بعدٍ منه نارًا تتأجج ، وظن أنه قد ظفر بالمرغوب . واستأذن أهله في الشخوص صوب النار ، وطلب منهم التريث ، ريثما يعود إليهم ؛ إما بشعلة من نار يستدفئون بها ، وإما بخبر عن الطريق وهداية إلى الجادة ممن يجلس إلى تلك النار المتأججة ، وفي ذلك يقول اللّه تعالى لرسوله : ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ٩، ١٠] .

بعد هذا تبدأ نقطة التحول في حياة موسى عليه السلام ؛ إذ انتقل من بشر عادي إلى نبي ورسول مكلَّمٍ ، يخاطبه اللهُ ربُّ العزة ويناديه ، فيجيب دون ما واسطة ملَك ، كما هو المعروف في طريقة الوحي مع غيره من المرسلين ، ويعرِّفه بنفسه سبحانه وأنه رب جميع العباد ، وخالق الأكوان ، ثم يأمره بخلع نعليه، فيستجيب .

وهل كان الأمر له بخلع النعل للتأدب مع اللّه ، أو لأن النعل كانت نجسة ؛ أو لأن موسى كان يطأ بها الأرض المقدسة فناسب أن يخلعها ؟ كل ذلك جائز إلا أنه ثانوي بالنسبة للأمر العظيم ، ولنقطة التحول هذه التي أصبح بعدها موسى- عندما اقترب من مصدر النار- أصبح أهلًا لأن يختاره لنبوته يستمع لوحيه ، ويستجيب له ، إذ أمره بعبادته وحده دون سواه ، ويقيم له الصلاة ؛ ليذكره فيها ، أو ليقيمها عند ذكره ، وليعد نفسه ليوم الحساب في يوم الحساب ، يوم يقوم

الناس من قبورهم لرب العالمين لجزائه وثوابه ، وأن يوم الحساب ، أو كما عبرت الآية : أن الساعة مع تحقق إتيانها تقضي حكمة اللَّه تعالى ألَّا يعلم بها وبوقت مجيئها غيرُ اللَّه تعالى ، وفي ذلك باعثٌ لاستدامة الخوف والخشية من أن يفاجأ بها العباد ، وفي هذا الخوف المستديم ما يحفز إلى الاستباق في ميادين الخير ، والكف عن الرذيلة في كل صورها ؛ ليكون السعي حميدًا ، والجزاء عليه جميلًا .

وفي توجيه اللَّه لعبده موسى ، أو توجيه العباد جميعًا في شخص موسى ، بأخذ الأهبة للحساب ، والاستعداد لقيام الساعة ، وعدم الركون إلى طول الأمل ، واستبطاء وعد اللَّه ، ونهيه عن الأخذ بأقوال المنكرين الجاحدين ليوم المعاد المتبعين للهوى ؛ في ذلك كله ما يشعر باهتمام بالغ أقصى الحدود في الإيمان بالبعث ، وتوجيه الأنظار إلى القدرة الإلهية على إعادة الخلق ، كما بدأه اللَّه أول مرة ، وإلى أن من يكون في نفسه شيء من ذلك يهلك ويكون من الخاسرين . قال اللَّه تعالى : ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١١- ١٦] .

بعد هذه المناجاة وهذا التشريف العظيم لموسى باصطفائه لرسالة ربه ، وأمره بتوحيده ، وإقام الصلاة ، أراد اللَّه تعالى أن يعده إعدادًا خاصًّا ؛ لتحمل أعباء الرسالة ، والقيام بتكاليفها ، فكان أن أظهر اللَّه جملة من الخوارق والمعجزات على يديه ؛ لكي تكون له آية توجب تصديقه والإيمان برسالته .

فعصاه التي كان يعتمد عليها في سيره ، ويهز بها الشجر كي يتساقط ورقه ، فترعاه غنمه ، ويستخدمها في مصالح أخرى له ، يأمره اللَّه بإلقائها على الأرض

فتنقلب بأمر اللّه ثعبانًا عظيمًا مفزعًا يسعى فيرعب موسى ، ثم يأمره اللّه بضمه إليه فيعود عصًا كما كانت ، وتلك إحدى المعجزات ، ويده يأمره اللّه تعالى بإدخالها ناحية جنبه وعضده ، ثم يخرجها مغايرة لجسمه الأسمر ، فإذا هي بيضاء ناصعة البياض ، تتلألأ ليس فيها برص ولا شين ، وتلك معجزة أخرى ، وهي مع سابقتها من آيات اللّه العظمى التي أراها اللّه لموسى وأيده بها ، قال تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ١٧- ٢٣] .

عندئذ قويت نفسية موسى عليه السلام ، واطمأن إلى تأييد اللّه له ، بأمثال هذه المعجزات ، فأمره اللّه بالذهاب إلى فرعون الجبار ملك مصر ؛ لدعوته إلى اللّه ، ورده عن طغيانه ومجاوزته لحدوده كعبد مربوب ، لا فرق بينه وبين غيره من سائر العبيد .

ولكن موسى من باب الاستعداد ، وأخذ الأهبة للقيام بالمهمة ، لجأ إلى اللّه داعيًا لائذًا بجنابه ؛ ليحقق له أمورًا أربعة يرتكز عليها نجاح الدعوة :

الأمر الأول : أن يشرح اللّه له صدره ؛ ليستمع للحق ، ويصمد أمام جبروت فرعون وعنجهيته وطيشه فلا يخافه .

الأمر الثاني : أن ييسر له أمر تبليغ الرسالة .

الأمر الثالث : أن يحل حبسة لسانه ، لعلها كانت من حادث وقع له في الصغر ؛ ليفقه عنه فرعون وقومه مهمته وأهداف رسالته .

الأمر الرابع : أن يشرك معه أخاه هارون في تبليغ الرسالة ؛ ليتقوى بها ظهره ، ويشاوره في أمره ، ويشترك وإياه في تسبيح اللّه وتمجيده وحمده على منة

اصطفائهما للرسالة، فهو سبحانه السميع البصير العليم بأحوالهما، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٤- ٣٥].

وتقص الآيات بعد ذلك استجابةَ اللَّه سبحانه لدعاء عبده موسى، ثم تحكي طرفًا من منن اللَّه عليه في مستهل حياته، فحينما كان طفلًا، وكان الجبار فرعون يقتل الأطفال، ألهم أمه، وأوقع في نفسها أن تضعه في صندوق، ثم تلقيه في النيل، وتلك خير طريقة لخلاصه من فرعون، وحينما دخل الصندوق إلى دار فرعون، إذ كان للنيل فرع إلى بيته، أو ألقاه الموج على الشاطئ، فأخذه فرعون عدو اللَّه وعدو موسى، رباه في بيته، وحببه اللَّه إلى خلقه، فلا يراه أحد إلا أحبه، وفي طليعة المحبين امرأة فرعون.

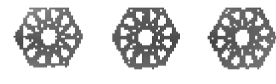
وكل هذا الصنيع والتربية الحسنة بمرأى من اللَّه، وهو غاية اللطف والرعاية. وحينما التمس له الرضعاء دلتهم أخت موسى على البيت الذي ينصح له، ويعنى بأمر رضاعته، وهو بيت أم موسى، فقرت بعودته إليها عينها، وسكن ولهها، وذهب حزنها.

وحينما اكتملت رجولته وسهل له أمر الشخوص إلى مدين فنجا بذلك من سطوة فرعون واقتصاصه، وذهب بارتحاله إلى مدين غمه وكمده.

وتلك جملة من الابتلاءات والفتن والاختبارات لموسى ظهر فيها فيض من نعم اللَّه ومننه عليه قبل أن يخصه برسالته، وهي ما تسرده الآيات التالية:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ

يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٣٦- ٤٠].



شعائر الله[1]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المَائدة: الآية ٢] .

[قرآن كريم]

يذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية حادثةً معينة ، وهي : أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ ، وسأله عما يدعو إليه ، ثم خرج من عنده ، فمر بالماشية ترعى في أطراف المدينة ، فاستاقها وهرب بها ، وطلبه أهلها فلم يدركوه ، فلما كان العام القابل خرج حاجًا مقلدًا للهدي على عادة العرب في جاهليتهم ، وخرج معه بتجارة يطلب فيها الربح ، فطلب الصحابة من رسول اللّه ﷺ أن يسمح لهم في الاقتصاص من الرجل ، وأن يخلي بينهم وبينه ، فأبى عليهم ذلك رسول اللّه وقال : « إنه قلد الهدي » . قالوا : يا رسول اللّه ، هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية . وكرروا عليه الطلب في التخلية بينهم وبين الرجل فأبى ، وأنزل اللّه تعالى قوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المَائدة: الآية ٢] الآية[2] .

أما معنى « الشعائر » ، فقد روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، ومجاهد أنها : مناسك الحج[3] .

وقد ذهب المفسرون في تفسيرها إلى أوجه متعددة كلها صحيحة ، والبعض منها متقاربة :

فمن قائل : إن شعائر اللّه هي الهدايا المشعَرة- بفتح العين- والإشعار من الشعار ، وهي العلامة . وإشعارها : إعلامها ؛ ليعرف أنها هدي ، والإشعار

(١) مجلة الحج- ذو الحجة- ١٣٧٧هـ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٨، وتفسير القرطبي ٦/ ٤٣، وتفسير الخازن ٢/ ٤.

(٣) أخرجهما الطبري في تفسيره ٩/ ٤٦٣.

المقصود هنا هو أن يطعن البعير في سنامه بحديدة حتى يسيل الدم .

ومن قائل : الشعائر اسم لما أشعر ، أي جعل شعارًا ، أو علمًا للنسك ؛ من مواقف الحج ، ومرامي الجمار ، والمطاف ، والمسعى ، وكذا الأفعال التي هي علامات للحاج يعرف بها ، كالإحرام ، والطواف ، والسعي ، والحلق ، والنحر ، وما إلى ذلك من أعمال الحج التي تكون علمًا على الحاج يعرف بها .

وكلا القولين صحيح ومقصود ، فإشعار الهدي على الصفة المذكورة آنفًا وردت به السنة ، فقد صح الحديث عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما : أن رسول اللّٰه ﷺ صلى الظهر بذي الحليفة ، أي عندما أزمع الحج ، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن ، وسلت الدم عنها ، وقلدها نعلين ، ثم ركب راحلته[١] . وفي رواية عن عائشة رضي اللّٰه عنها قالت : فتلت قلائد بدن النبي ﷺ ، ثم أشعرها وقلدها ، ثم بعث بها إلى البيت ، فما حرم عليه شيء كان له حلالًا ، أخرجاه في الصحيحين[٢] .

وهذه السنَّة ؛ سنة الإشعار خاصة في الإبل . وقال البغوي : قاس الشافعي البقر في الإشعار على الإبل . أما الغنم فلا تشعر بالجرح ، فإنها لا تحتمل الجرح ؛ لضعفها[٣] .

وعلى القول الثاني : أن الإشعار اسم أشعر ، أي : جعل علمًا للنسك من مواقف الحج ، أو الأعمال التي هي علامات على الحاج ، فهو أيضًا مقصود .

ومعنى (لا تحلوا) على هذا التفسير : لا تنتهكوا مواقف الحج بالحيلولة بينها وبين المتنسكين بإحداث حدث في أشهر الحج يصد الناس عن زيارتها ،

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٤، وأبو داود (١٧٥٢) ، وابن خزيمة (٢٦٠٩) . وصححه الألباني .

(٢) أخرجه البخاري (١٦٩٦) ، ومسلم (٣٦٢/١٣٢١) .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٨.

ويقعدهم عن قصدها ، وانتهاك حرمة الأعمال التي جعلت علامة للحاج ، يكون باستحلال المحرم والمحظور ، حين يتلبس الحاج بأحد الأنساك ، فارتكاب المحرم والمحظور أمر فظيع في كل حال ، وهو من الحاج في حالة إحرامه أشد فظاعة .

يؤيد هذا : ما نقل عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما- في رواية أخرى- عند تفسير قوله تعالى : ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة: الآية ٢] قال : أن تصيد وأنت محرم[١] . ومثل الصيد سائر المحظورات التي يرتكبها الحاج عمدًا .

وعلى القول بأن الشعائر هي البدن المشعرة- بفتح العين- يكون معنى (لا تحلوا) أي : لا تعرضوا بالأذى للبدن المسوقة إلى البيت الحرام هديًا لتذبح تقربًا إلى اللَّه ، على اسمه يوم النحر في الحرم ، ويشمل الأذى اغتصابها ، أو الصد لها عن بلوغ المنحر .

وقيل أيضًا في معنى الشعائر : إنها الفرائض التي افترضها اللَّه على العباد ، ومعنى : ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة: الآية ٢] أي : لا تحلوا شيئًا من فرائضه التي افترضها عليكم ، واجتنبوا نواهيه .

والخلاصة : أن كل عمل يعد انتهاكًا لحرمة شعائر اللَّه ، على أي معنى من المعاني السالفة ، فهو إثم يجب الترفع عنه ، ومحظور بنص الآية ، يجب اجتنابه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: الآية ٢] أي : لا تستحلوا انتهاك حرمة الشهر الحرام بإنشاء القتال فيه ابتداء .

وذكر ابن كثير[٢] النقل عن الجمهور أن ذلك منسوخ ؛ محتجين بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٥] .

---

(١) أخرجه الطبري ٩/ ٤٦٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٥.

وليس هذا موضع تحقيق هذه المسألة ، وإنما الغرض أن اللّٰه نهى عن القتال في الأشهر الحرم ، ولم يقصد شهرًا بعينه ، وإنما قصد الشهور الأربعة المحرمة : رجبًا ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، والمحرم .

وكما يكون الاستحلال بالقتال يكون بارتكاب المعاصي ، فالمعصية في كل الشهور قبيحة ، وهي في الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، أشد فظاعة ؛ لأنها تجمع إلى ارتكاب المحرم الجرأة على اللّٰه ، والاستهتار بأوامره في أحب الأشهر ، أو البلدان إليه ، وليس سواء من يعصي الملك ، وهو بعيد عنه ، كمن يعصيه وهو على بساطه ، وبالقرب منه ، وللّٰه المثل الأعلى .

وشمل النهي في الآية ، التعرض للهدي بالأذى ، كما تقدم . والهدي : ما يهدى به إلى الحرم من إبل وبقر وغنم ؛ لغرض ذبحه ، قربة إلى اللّٰه تعالى ، وهو سنة . قال تعالى : ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٦] أي : ثواب في الآخرة .

وصح في الحديث عن أم المؤمنين عائشة رضي اللّٰه عنها أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « ما عمل ابن آدم يوم النحر عملًا أحب إلى اللّٰه من إهراق دم ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من اللّٰه بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفسًا » . رواه الترمذي وحسنه[١] . وعن ابن عباس قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد »[٢] .

فهذه الهدايا التي جعلها اللّٰه من شعائر الدين ، ورتب على إهدائها الأجر العظيم ، نهى عن التعرض لها بأي لون من الأذى ؛ لكي لا تتعطل هذه الشعيرة ،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٩٣) . وضعفه الألباني .

(٢) أخرجه الطبراني (١٠٨٩٤) ، وابن عدي ١/ ٢٨٨ ، والدارقطني ٤/ ٢٨٢ ، والبيهقي ٩/ ٢٦١ . وقال الألباني في الضعيفة (٥٢٤) : ضعيف جدًا .

ويحرم المهدي الثواب عليها .

وخص سبحانه في الآية من بين الهدي : القلائد . أي : ذوات القلائد . أي : الهدى الذي قلده أهله في عنقه قلادة من نعل ، أو عروة مزادة ، أو لحا شجر ، أو غير ذلك ، ليعرف أنه هدي فيحترم ، ولا يعرض له أحد بسوء ، حتى يصل إلى المنحر الذي شرع أن ينحر فيه وهو الحرم ، ومنى من الحرم ، وهو موضع ذبح الهدي .

وهذا الهدي المقلد هو من أشرف الهدي ؛ ولذلك خصه اللَّه بالذكر بعد أن دخل ضمنًا في الآية تحت مسمى الهدي المنهي عن التعرض له .

وختم سبحانه المنهيات في هذه الآية بالنهي عن التعرض لقاصدي البيت الحرام ، والحيلولة بينهم وبين البيت ، وقضاء النسك ، والقيام بفريضة الإسلام .

ولقد قيل في حكمة تحريم الأشهر الحرم ، وجعلها ثلاثة أشهر متتالية : أنها تأمين لقاصدي البيت في حجهم ؛ ليتمكنوا من أداء النسك ، ثم العودة إلى ديارهم ، وهم في أمان اللَّه ، وفي الأشهر التي حرم اللَّه فيها القتال والأذى . وكانت العرب تحترمها ، فلا تقدم فيها على شر ، وكان ذلك عندما كانت الغارات والثارات .

أما الآن فقد أمن اللَّه السبل إلى بلده ، يفد إليه قاصده في أي وقت شاء ، ويؤدي الحجيج النسك في أمان واطمئنان ، ويجد في البلد الأمين ما وعد اللَّه به أهل الحرم من الأرزاق والثمار تجبى إليه من كل صوب ، لا تضيق بالوافدين ، مهما كثر عددهم ومهما تزايدت نفوسهم .

وتلك هي المعجزة الخالدة ، والبركة التي جعلها اللَّه في أرزاق هذا البلد ، فليشكر العباد هذه النعمة .

وذكر اللَّه سبحانه أن آمي البيت الحرام يؤمونه لغرضين :

الغرض الأول : ما نص عليه بقوله : ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [المَائدة: الآية ٢] أي : يطلبون في هذا الوجه التجارة والربح .

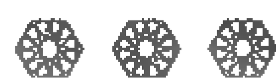
والغرض الثاني : ما ذكره بقوله : (ورضوانًا) أي : يطلبون إلى جانب التجارة رضوان الله فيما يقومون به من الحج .

وكان المسلمون والمشركون يحجون في السابق معًا حتى نزل قوله تعالى : ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ، وقوله : ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التّوبَة: الآية ٢٨] وهو عام تسع من الهجرة حين بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ؛ لينادي بالنيابة عنه : « أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان »(١) .

فأما الغرض الأول ؛ وهو ابتغاء فضل الله بالتجارة ، فهو حاصل للمؤمنين والمشركين جميعًا .

وأما الغرض الثاني ؛ وهو ابتغاء رضوان الله ، فلا يحصل إلا للمؤمنين خاصة ؛ لأن ما يعمله الكافر من عمل صالح فهو مردود عليه لا يقبله الله منه ، ولا يناله عليه أجر ، قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفُرقان: الآية ٢٣] .

وقال بعض مفسري السلف : ابتغاء الرضوان بالنسبة للكافرين معناه : أن يصلح الله لهم المعايش في الدنيا ، ولا يعجل عليهم بالعقوبة فيها . والله أعلم .



(١) أخرجه البخاري (٣٦٩، ٤٦٥٥، ٤٦٥٦) .

تعقيب .. حول «تفسير المراغي»(١)

[١]

فضيلة الأستاذ الكبير أحمد مصطفى المراغي، أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية بكلية دار العلوم سابقًا ، هو علم من أعلام الكنانة ، وعالم بارز ، وحجة محقق ، ما في ذلك شك ولا ريب ، ولست على ذلك في حاجة إلى التدليل ، فجولاته العلمية في ميدان الثقافة والتهذيب ، ومؤلفاته القيمة ، وإنتاجه الضخم ، كل ذلك يشهد له بطول الباع ، وسعة الأفق العلمي ، والبروز في مجالات التحقيق .

وإن من أبرز إنتاجه ، وأعظم جولاته العلمية ، تفسيره للقرآن الكريم في ثلاثين جزءًا ؛ تفسيرًا كان الهدف منه ، والحافز عليه ، ما ألمع إليه المؤلف في مقدمته حيث يقول :

« رأينا مسيس الحاجة إلى وضع تفسير للكتاب العزيز يشاكل حاجة الناس في عصرنا في أسلوبه وطريق رصفه ووضعه ، ويكون داني القطوف ، سهل المأخذ ، يحوي ما تطمئن إليه النفس من تحقيق علمي ، تدعمه الحجة والبرهان ، وتؤيده التجربة والاختبار ، ويضم إلى آراء مؤلفه آراء أهل الذكر من الباحثين في مختلف الفنون التي ألمع إليها القرآن على نحو ما أثبته العلم في عصرنا » .

وإنه لكذلك حقًّا ، فلقد جلت في الجزء الأول منه جولة عابرة ، فتحققت صحة ما ذكره فضيلته في تيسير الأسلوب ، وتسهيل المأخذ ، وتدعيم التحقيق بالحجة والبرهان ، إلى غير ذلك مما يعجز الواصفون أن يصفوا به هذا الجهد العظيم ، والعمل النافع المجيد ، ويوفوه حقه من التقريظ ، والثناء العاطر ، والإطراء

---

(١) مجلة الحج - محرم- ١٣٧٣هـ .

البالغ ، أقصى حدود الحمد والمدح .

ولقد عن لي أن أتصفح جميع أجزاء التفسير المذكور معلقًا بعض التعليقات على مواضيع قد تسترعي الانتباه ، وتلفت نظر الباحث ، وقد يكون في درس هذه التعليقات ومناقشتها تمحيص للحقيقة ، وإبداء وجهة نظر ، قد تغاير ما جنح إليه الأستاذ المؤلف وهداه إليه جده وكدحه ، ولن يقلل ذلك من مجهود المؤلف ، أو يصغر من شأنه وخطورته ، فالميدان خلو من المنافس ، وقد كان فضيلته فيه هو المجلي وأحرز قصب السبق .

هذا وسوف أكشف للقارئ الكريم- بادئ ذي بدء- ما علقته على آيتي ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٧] وعلى لفظة : « آمين » :

١- فسر فضيلة المؤلف (المغضوب عليهم) تفسيرًا عامًّا مطلقًا ، لا يروي ظمأ المستفيد ، أو ينقع غلة المسترشد ، حيث قال : إنهم « هم الذين بلغهم الدين الحق الذي شرعه الله لعباده، فرفضوه ونبذوه وراءهم ظهريًا ، وانصرفوا عن النظر في الأدلة ؛ تقليدًا لما ورثوه عن الآباء والأجداد » .

وهذا القول مجمل ، يصح أن يكون عامًّا في كل من حاد عن الطريق السوي بأي لون من ألوان الحيدة، واختط خطة غير رشيدة ، أو سلك سبيلًا ملتويًا غير سبيل المؤمنين ؛ كأن كان داعية إلى ضلالة ، أو صاحب بدعة مثلًا ، أو غير ذلك ، فهو بذلك قد نبذ دين الله وراءه ، وانصرف عنه إلى بدعته وضلاله .

وذلك وإن كان مرادًا ضمنًا من معنى الآية ، إلا أنه ليس في طليعة ما تعنيه ، أو يكون له الصدارة في تفسيرها ، وإنما المعنى والمقصود بالذات في معنى (المغضوب عليهم) : هم اليهود ؛ إذ قد نص على ذلك أئمة التفسير ؛ مستدلين بما ورد في ذلك عن رسول الله ﷺ في جملة أحاديث منها : حديث عدي بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل عن المغضوب عليهم ؟

قال : هم اليهود . رواه الترمذي[١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس اللّٰه روحه ، عندما عرض لبسط موضوع المغضوب عليهم ، وأورد حديث عدي المذكور بطريق آخر ، قال[٢] : وقد دل كتاب اللّٰه على معنى هذا الحديث ، قال سبحانه : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: الآية ٦٠] والضمير عائد إلى اليهود ، والخطاب معهم ، كما دل عليه سياق الكلام ، وقال : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٢] ، وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم . اهـ .

٢- وقال فضيلة الأستاذ في تفسير (الضالين) ما نصه : « والضالون هم الذين لم يعرفوا الحق ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح ، وهؤلاء هم الذين لم تبلغهم رسالة ، أو بلغتهم على وجه لم يستبن لهم فيه الحق ، فهم تائهون في عماية ، لا يهتدون معها إلى مطلوب تعترضهم الشبهات التي تلبس الحق بالباطل ، والصواب بالخطأ ، إن لم يضلوا في شئون الدنيا ضلوا في شئون الحياة الأخرى ، فمن حرم الدين ظهر أثر الاضطراب عليه في أحواله المعيشية ، وحلت به الرزايا ، وهم غير مكلفين بشريعة ، ولا يعذبون في الآخرة ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: الآية ١٥] » .

وهذا أيضًا قول لم يتحدد الغرض به ، ولم يتعين منه أي لون من الناس يقصد المؤلف ، والذي يتبادر إلى الذهن من قوله : وهؤلاء هم الذين لم تبلغهم رسالة- يتبادر إلى الذهن أنه يعني أهل الفترة- أي : الذين عاشوا وماتوا في فترة درس فيها

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) . وصححه الألباني .
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٤ .

الدين، وطمست معالمه، فلم يكونوا على هدي بين، أو دين قويم، بدليل قوله: وهم غير مكلفين بشريعة، ولا يعذبون في الآخرة. وباحتجاجه بآية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥].

وليس هذا موضوع البحث، فنعمد إلى المناقشة، وبحث أحوال أهل الفترة، وهل هم ضمن إطار التكليف مؤاخذون أم غير معذبين في الآخرة على اعتبارهم غير مكلفين بشريعة، كما صرح فضيلته؟ فإن لذلك بحثًا آخر، وفرصة قد تؤاتي لطرق هذا الموضوع وإشباعه درسًا.

وإنما المراد تحديد المعنى المراد به (الضالين) وبيان من وصمهم اللَّه تعالى بهذه الوصمة، وذكر الفوارق بينهم وبين غيرهم، ممن تكون ضلالتهم لا تشبه ضلال الفريق المعني في الآية؛ إذ إن كل حائد عن حق أو دِين- بكسر الدال- أو طريق يدخل في حيز الضلال، وهو معنى رحب، له مدلولات واسعة، وصور شتى، تشمله الآية ضمنًا.

أما الفريق المقصود والذي تعنيه الآية فهو فريق النصارى؛ إذ ضلوا السبيل، وجاوزوا الحق بتأليه عيسى، وعقيدة التثليث، وضلال ما بعده من ضلال، وفرية لعنهم اللَّه عليها وأكذبهم وكفرهم في غير ما آية من كتابه، هذا إلى جانب ما اخترعوه وابتدعوه في دين اللَّه من عبادات لم يأذن بها اللَّه، ولم يشرعها لهم، شقوا على أنفسهم بها، ثم نبذوها وضيعوها؛ ولذا قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: الآية ٢٧].

قال الحافظ ابن كثير(١) عند قول اللَّه تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ﴾ [الحديد: الآية ٢٧] أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين:

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣١٥.

أحدهما : الابتداع في دين اللَّه ما لم يأمر به اللَّه تعالى .

والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه يقربهم إلى اللَّه عز وجل .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)] في تحديد معنى الضالين ، قال : وقال تعالى في النصارى : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المَائدة: الآية ٧٣] إلى قوله : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المَائدة: الآية ٧٧] وهذا خطاب للنصارى ، كما دل عليه السياق ؛ ولهذا نهاهم عن الغلو ، وهو مجاوز الحد ، كما نهاهم عنه في قوله : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النِّساء: الآية ١٧١] واليهود مقصرون عن الحق ، والنصارى غالون فيه .

وجماع ذلك أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم ، فهم يعلمون الحق ولا يتبعون قولًا أو عملًا ، أو لا قولًا ولا عملًا ، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم ، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من اللَّه ، ويقولون على اللَّه ما لا يعلمون . انتهى كلام شيخ الإسلام .

٣- عندما عرض فضيلته لتفسير « آمين » وأورد ما جاء في فضلها ، وسرد اختلاف الأئمة في قولها في الصلاة وغير ذلك ، قال ما نصه : « ويرى بعض علماء الآثار المصرية في العصر الحاضر أن كلمة (آمين) معناها : (الله) فكأنها ذكرت في آخر الفاتحة للختم باسمه تعالى ؛ إشارة إلى أن المرجع كله إليه . ويعقدون موازنة بين « مينو، وآمون، وآمين » ويرى الثقات من علماء اللغات السامية رأيهم ، ويقولون : إنها ذكرت آخر الفاتحة للترنم بها بعد قراءة السورة التي

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٥.

تضمنت الإشارة إلى أغراض الكتاب الكريم ، ويؤيدون رأيهم بأن المزامير ختمت بكلمة (سلاه) للترنم بها على هذا النحو ، ويكون المعنى العام : إنا نتوجه إليك يا إلهنا فإليك المرجع » . اهـ .

وليت شعري ما قيمة رأي علماء الآثار وموازنتهم[(١)] بجانب آراء العلماء المحققين أصحاب الشأن في الموضوع ؟! ولو أن فضيلته أعفانا من إقحام آراء علماء الآثار وغيرهم من علماء اللغات السامية لكان أوفق وأحكم ، إذ إن هؤلاء وأولئك يعدون أجانب بالنسبة لهذه الأبحاث العلمية الموقوفة على علماء الدين ، وهي من اختصاصهم وحدهم دون سواهم ، أما علماء الآثار وعلماء اللغات السامية فلا يستفتون ، أو يقبل قولهم إلا فيما عنوا به ، مما أوقفوا أنفسهم لاستخراج مكنونه ، والبحث عن مجهوله . وفيما سرده الأستاذ من تفسير « آمين » الغنية عن أي موازنة وفلسفة لا تنسجم أو توائم نسق الآيات ومناسبة الربط بينها ، وأن في ختم الفاتحة بآمين أو في ذكر آمين في نهاية الفاتحة مناسبة أي مناسبة ؛ إذ إن قسمًا من الفاتحة دعاء ، يقتضي طلب إجابته ، ولفظة : « آمين » تؤدي هذا الطلب ، حيث كان معناها : استجب .

أما رأي علماء اللغات السامية في أن (آمين) ذكرت للترنم ، كما ختمت المزامير (بسلاه) ! فرأي ضحل لا يعتد به ؛ ذلك أن القرآن لم يك على غرار مزامير داود ؛ رقائق وتمجيدات وتحميدات فحسب ، بل هو أوامر ونواه وتوجيهات وزواجر وضرب أمثلة وحكاية قصص للغابرين للعبرة والاتعاظ وما إليه . فهو متنوع الأغراض ، يحوي جميع ما في الكتب السماوية قبله ، فلا مناسبة للترنم مع مجموع هذه الأغراض ، ولا داعي لربط الشبه بين القرآن وبين رقائق المزامير وطقوسها المصطلح عليها والطريقة التي تؤدى بها .

---

(١) في الأصل : « وموزانتهم » .

تعقيب .. حول تفسير الأستاذ المراغي[1]

[٢]

وعند تفسير فضيلته لقول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٢] الآية أورد فيها فضيلته التفسير المشهور ؛ ثم قال بعد ذلك : « قال الإمام الغزالي : إن الناس في شأن بعثة النبي ﷺ أصناف ثلاثة ، من لم يعلم بها بالمرة ، وهذا ناج حتمًا » . اهـ .

وليت شعري هل له على هذا الجزم دليل ينير به السبيل ويكون حجة قاطعة في الموضوع ؟

والذي أعلمه أن للعلماء رحمهم الله بسطًا في المسألة على أساس اعتبار الصنف الذي ذكره الغزالي هم أهل الفترة . أي : عاشوا وماتوا ولم يطرق آذانهم دعوة رسول البتة .

قال الحافظ ابن كثير[2] في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: الآية ١٥] إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه .. وأورد جملة آيات في هذا المعنى ، ثم أورد جملة أحاديث تشرح مصير أربعة أصناف من الناس ، وهم : الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ، والمجنون ، والأصم ، والشيخ الخرف ، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة ؛ وهذا الأخير هو موضوع البحث .

وقال ابن كثير : قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي : حدثنا سعيد بن سليمان ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

---

(١) مجلة الحج - ربيع الثاني - ١٣٧٥هـ علما بأنه لم يتيسر العثور على الحلقتين الثانية والثالثة فاكتفينا بما وجد ؛ طلبًا للفائدة .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨، ٣٠.

قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « الهالك في الفترة ، والمعتوه ، والمولود . يقول الهالك في الفترة : لم يأتني كتاب . ويقول المعتوه : رب لم يجعل لي عقلًا أعقل به خيرًا ولا شرًّا . ويقول المولود : رب لم أدرك العقل . فترفع لهم نار فيقال لهم : رِدُوها . قال : فيَردها من كان في علم اللّٰه سعيدًا لو أدرك العمل ، ويمسك عنها من كان في علم اللّٰه شقيًّا لو أدرك العمل . فيقول : إياي عصيتم عصيتم ، فكيف لو أن رسلي أتتكم ؟[1] » . وكذا رواه البزار[2] وقال في آخره : فيقول اللّٰه : « إياي عصيتم ، فكيف برسلي بالغيب » . ومثله حديث معاذ عند أحمد[3] وقريب منه حديث ثوبان[4] .

قال الحافظ ابن كثير في رده على ابن عبد البر : إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح ، كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء ، ومنها ما هو حسن ، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن ، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا ، أفادت الحجة عند الناظر فيها .

ونستخلص مما تقدم : أن أهل الفترة يمتحنون في الدار الآخرة ، كما يمتحن أولاد المشركين وغيرهم ممن سلف ذكرهم ، فمن سبقت له السعادة في علم اللّٰه بدخول الجنة دخلها ، ومن سبقت له الشقاوة دخل النار ، ولا يعذر بدعوى عدم إرسال رسول ؛ فإن اللّٰه جلت حكمته لم يدع أمة دون أن يرسل فيها رسولًا ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: الآية ٧] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى

(١) أخرجه البغوي في الجعديات (٢٠٣٨) من طريق فضيل بن مرزوق به .
(٢) أخرجه البزار (٢١٧٦ - كشف) .
(٣) أخرجه الطبراني (١٥٨) ، وفي الأوسط (٧٩٥٥) . ولم نجده في المسند ، وانظر الصحيحة (٢٤٦٨) .
(٤) أخرجه البزار في مسنده (٤١٦٩) .

كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: الآية ٣٦] .

فإذا بعث الرسول بقيت آثار نذارته ودعوته في أمته حتى إذا ما اندرست معالم الدين بعث اللَّه رسولًا آخر مجددًا ما اندرس ، وداعيًا إلى اللَّه ، ومن ثم كانت آثار النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وآثار نذارة محمد ﷺ باقية إلى قيام الساعة ، أنه خاتم الرسل ، لا نبي بعده ، دينه هو الدين الخالد .

أما إذا كان المعنيون في قول الغزالي غير أهل الفترة، كأن كانوا ممن تأخر بهم الزمن كثيرًا في عهد الرسالة ، أو كانوا في المجاهيل مثلًا ، أو من القبائل المتوحشة ، فهؤلاء أقل أحوالهم أنهم كأهل الفترة من حيث امتحانهم في الآخرة كما مر ذكره آنفًا ؛ لأنهم في وضع لا يسمح ببلوغهم أية دعوة وسماعهم صوت أي نذير ، ودليلنا على ذلك قول اللَّه تبارك وتعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] .

قال المفسرون ، وفي طليعتهم ابن جرير[١] : من بلغه القرآن فهو له نذير . وسئل الليث : هل بقي أحد لم تبلغه الدعوة ؟ قال : كان مجاهد يقول : حيثما يأتي القرآن فهو داع ، وهو نذير ، ثم قرأ : ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] .

ومفهوم ذلك أن من لم يبلغه القرآن ، كالأصناف التي ألمحت إليها ، لا يتم إنذاره ولا تقوم عليه الحجة ، ولذا ورد الترغيب في التبليغ ، بل الأمر به ، فقد ثبت عن رسول اللَّه ﷺ في الحديث المروي عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال : « بلغوا عني ولو آية »[٢] . وفي رواية : « بلغوا عن اللَّه ، فمن بلغته آية من كتاب اللَّه فقد بلغه أمر اللَّه »[٣] . قال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١١/ ٢٩١.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٥، والطبري ١١/ ٢٩٠ عن قتادة مرسلًا. وينظر الدر المنثور ٣/ ٢٥٧.

اللَّه أن يدعو كالذي دعا رسول اللَّه ، وأن ينذر بالذي أنذر[1] . وما ذاك إلا رغبة في انتشار الدعوة وبلوغها أوسع بقعة في المعمور ؛ لقيام الحجة .

ثم ذكر الصنف الثاني الذي قال الغزالي بمؤاخذته فقال : « هو من بلغته الدعوة على وجهها ، ولم ينظر في أدلتها إهمالًا أو عنادًا واستكبارًا .. قال : وهذا مؤاخذ حتمًا » . اهـ .

قلت : ولا جدال في ذلك .

ثم أورد الصنف الثالث ، وألحقه بالصنف الأول ، فقال : « وصنف ثالث بين الدرجتين ؛ بلغهم اسم محمد ولم يبلغهم نعته ووصفه ، بل سمعوا منذ الصبا أن كذابًا مدلسًا اسمه محمد ادعى النبوة ، كما سمع صبياننا أن كذابًا يقال له : ابن المقفع تحدى بالنبوة كاذبًا ، فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول ، فإن أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه ، وهؤلاء سمعوا ، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب » . اهـ .

وليت شعري أي صنف هذا الذي بقي صامًّا آذانه عن جلجلة الدعوة وصوتها الصارخ ولم يعرها أي اهتمام ؟ وكأنها شيء تافه لا يهمه النظر فيه ، والبحث عن حقيقته ، ولم يلق بالًا لصوت النذير الذي طبق الآفاق ذكره ، وكتب عنه خصومه وأعداء دينه فيما كتبوا أنه صنع بيتًا ، ويعنون به الدين الإسلامي ، راسخ الأساس ، لم يتطرق إليه البلى ، ولم يتصدع فيه البنيان ، بل بقي متماسكًا ، كل هذه الحقبة من الزمن ، والتي بلغت أربعة عشر قرنًا تقريبًا ، ويستدلون بذلك على صدقه .

قلت : وهذه المدة كافية للتمحيص وبيان الزيف فيما لو كان ثمة زيف أو ادعاء باطل وزور ، مع تسليمي جدلًا بوجود فريق من الناس على هذا النحو الذي ذكره الغزالي ، فهو ملحق بالصنف الأول ، لا من حيث النجاة ، كما ذكر ، بل

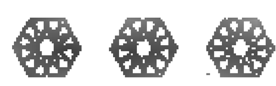
---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٤٣٤.

على العكس من حيث المؤاخذة على التفريط في التبصر والبحث وطلب الحقيقة ، ومن حيث قيام الحجة عليه بإنزال كتاب سماوي خالد هو القرآن ؛ هو البرهان القاطع بصدق الرسول ﷺ ، وفيه إخبار الأمم السابقة وعبر الماضين .

وخاتمة البحث : أن الله تعالى أرسل رسله مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، كما أخبر سبحانه بذلك ، وقطع عذر من استحق العذاب بقوله : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: الآية ٣٧] واعترف الكفار عند دخولهم النار أنهم يستحقون ذلك ، وما ظلمهم الله شيئًا ، كما قال تعالى : ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك : ٨- ١٠] ، وقال : ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: الآية ٧٦] .

أما أن فلانًا المعين قد قامت عليه الحجة أو لم تقم ، وهل هو من أهل النار أم لا ؟ فهذا شأن الله ، وحق ربوبيته ، ليس لنا أن ننازع الله تعالى فيه ، فالعباد عباده ، وهو رب العالمين ؛ نعم إن من مات ببلد الكفر ولم نعلم بإسلامه أجرينا عليه أحكام الكفار ، وأمره في آخرته إلى الله تعالى ، ومن مات مظهرًا الإسلام أجرينا عليه أحكام الإسلام ، وباطنه في الآخرة إلى الله تعالى .



تنبيه وتعقيب

رد على : تنبيه وتعقيب[(١)]

قرأنا في « جريدة البلاد السعودية » الغراء عدد (١٧٥٩) مقالًا نفيسًا لفضيلة مستشار التعليم لوزارة المعارف الأستاذ عبد الله الخياط في إثبات نبوة آدم بالكتاب والسنة ، جوابًا للسؤال عن ذلك ، قد أفاد الأستاذ وأجاد من جهة الاستدلال بالكتاب على نبوة آدم عليه السلام .

أما من جهة السنة فقد استدل الأستاذ بحديث لا يحسن الاستدلال به على فهم مثل هذا الموضوع ، وهو حديث أبي ذر الذي كان من .. كلام أئمة الجرح والتعديل في رواية إبراهيم بن هشام ، كما صرح به ابن كثير في « تفسيره »[(٢)] مرجع الأستاذ ، حيث قال : ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث .

يقول الكاتب : فممن تكلم فيه من أولئك الأئمة إلى غاية الجزم بأنه كذاب : عبد الرحمن بن أبي حاتم ، وأبو زرعة ، وعلي بن الحسين بن الجنيد ، وغيرهم ، وقد تلقى كلامهم بالقبول الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي .

فجزم بكون هذا الحديث موضوعًا ، ولم يلتفت إلى تساهل ابن حبان بذكر راويه المذكور في كتابه « الثقات » ، لأنه تساهل من ابن حبان يعتريه في بعض المرات ، وقد تبرأ الحافظ الذهبي من هذا التساهل ، كما تبرأ منه ابن الجوزي ، حيث قال الذهبي في ترجمة يحيى بن سعيد القرشي ، في إبراهيم بن هشام : وهذا أحد المتروكين الذين مشاهم ابن حبان ، فلم يصب .

---

(١) جريدة البلاد السعودية في ٩- ٧- ١٣٧٤هـ. وهذا المقال من مقالات الشيخ إسماعيل الأنصاري متعقبا الشيخ عبد الله خياط أوردناه هنا لتعلقه بما بعده .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨٦.

أقول : مما لم يصب فيه ابن حبان نفس هذا الحديث المذكور ، فإنه عزاه إلى عبد الرحمن بن هشام ، فقال فيما يفيده « الميزان »[١] : وأشبه ما روي فيه حديث عبد الرحمن بن هشام بن يحيى الغساني ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي إدريس ، عن أبي ذر . هكذا قال ابن حبان ، وهو غلط ، والصواب : إبراهيم بن هشام ، لا عبد الرحمن ، كما في « الميزان » .

وقد حصل في الكلام على هذا الحديث للأستاذ أشياء لابد من التنبيه عليها .

١- أنه ذكر أن الإمام أحمد روى هذا الحديث بسند ، وساقه بسياق قال فيهما الحافظ ابن كثير : وسياق رواية الإمام أحمد ، أثبت وأولى بالصحة ، ورجال هذا الحديث لا بأس بهم .

وهذا مما اشتبه على الأستاذ ؛ فإن رواية الإمام أحمد لحديث أبي ذر عند ابن كثير متسلسلة بالضعفاء ، وهم : معان بن رفاعة ، وعلي بن يزيد ، والقاسم . وقد ضعفهم ابن كثير قبل ذكر هذا الحديث بكثير في تفسير الآية التي استطرد هذا البحث فيها ، ومن مراجعة « الميزان » و« اللسان » يعلم قدر تفاوتهم في الضعف ، وأن أضعفهم علي بن يزيد ، فقد اتفقت الأئمة الأجلاء ، البخاري ، والنسائي ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، وابن عدي ، على تضعيفه . وقال فيه الدار قطني : متروك . وأما .. القاسم ، فقد ذكر الأثرم أنه لما ذكر لأحمد حديثًا عنه ، حمل الإمام أحمد حملة المستنكر على القاسم ، وقال الذهبي في « الميزان » عن أحمد : روى عنه علي بن يزيد أعاجيب ، لا أراها إلا من قبل القاسم . أما العبارة التي ذكرها الأستاذ عن ابن كثير ، فإنما ذكرها ابن كثير عقب حديث آخر ، لم يتعرض لنبوة آدم ، وإنما تعرض لعدد الأنبياء ، وإنذارهم بالدجال ، ووصفهم له ، ففي هذا الحديث اختلفت رواية الإمام أحمد ، ورواية[٢] أبي يعلي بعض

(١) ميزان الاعتدال ٤/ ٣٧٨.

(٢) في الأصل : « وراية » ولعل المثبت هو الصواب .

الاختلاف سندًا ومتنًا ، فقال الحافظ ابن كثير بعد ما ذكر رواية الإمام : وسياق رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة ورجال هذا الحديث لا بأس بهم . يعني ذلك الحديث ، لا حديث أبي ذر ، كما ظن الأستاذ .

٢- أنه ذكر أن طرق في هذا الحديث يؤيد بعضها بعضًا وطرقه في الضعف إلى الغاية فإنها ثلاثة : طريقة إبراهيم بن هشام المتهم بوضعها . وطريقة الضعفاء معان ، وعلي والقاسم ، وطريقة يحيى بن سعيد القرشي ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير . وقد استنكرها ابن عدي ، وجزم ابن حبان بأن راويها يحيى المذكور لا يجوز الاحتجاج به كما في « الميزان » .

٣- أن رواية الإمام أحمد التي ذكر الأستاذ أنها رواها ما ذكرها ولفظه : فذكر أمر الصلاة والصيام والصدقة ، وفضل آية الكرسي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأفضل الشهداء ، وأفضل الرقاب ، ونبوة آدم .

ليست حديثًا كما ظنها الأستاذ ، وضمير « ذكر » راجع إلى الإمام أحمد ، أين ذكر الإمام أحمد في روايته من أمر الصلاة وغيرها ، كما ذكره من تقدم ، ويدل على ذلك قول ابن كثير ، كنحوما تقدم . هذا ما ظهر لي مما يجب التنبيه عليه من كلام الأستاذ ؛ إحقاقًا للحق ، ووضعًا للأحاديث النبوية في موازينها ، وأرى أن أحاديث الإسراء ، وحديث ابن حبان في « صحيحه » عن أبي أمامة ، أن رجلًا قال : يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟ قال : نعم . قال : فكم بينه وبين نوح ؟ قال : « عشرة قرون » . وهو حديث وافق عليه الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية »[1] ابن حبان في تصحيحه ، بل قال ابن كثير : هو على شرط مسلم ولم يخرجه . وعزى نحوه الحافظ الهيثمي في « مجمع[2] الزوائد » إلى الطبراني

(١) « البداية والنهاية » ١/ ٢٣٧.

(٢) في الأصل : « مجموعه » .

وقال : رجاله رجال الصحيح غير خليل[1] الحلبي ، وهو ثقة ، أرى أن هذه النصوص تكفينا عن حديث مشكوك أو مجزوم بوضعه ، فإن الحديث الضعيف الذي لا يصل إلى هذه الدرجة لا يحتج به في العقائد ، كما بينه غير واحد من أئمة الحديث وغيرهم ، والله الموفق للصواب .

إسماعيل الأنصاري
بالمعهد العلمي
بالرياض



(١) كذا في الأصل، وفي « مجمع الزوائد : ٨/ ٣٨٥: غير أحمد بن خليل الحلبي » .

رد على: تنبيه وتعقيب[١]

لا أحب أن أدخل مع الأستاذ الأنصاري في تفاصيل قد نشغل بها القرّاء، سيما ونحن متفقون على أساس الموضوع، وهو إثبات نبوة آدم عليه السلام، وقد خالفني الأستاذ في الاستدلال عليها، بحديث أبي ذر؛ لكلام أئمة الجرح والتعديل على رجاله، ولم تفتني هذه الملاحظة، فقد ألمحت إليها في كلمتي الأولى، وقد اعتمدت على تصحيح ابن حبان للحديث المذكور، ولم ألتفت إلى ما ذكره ابن الجوزي؛ حيث عدَّ حديث أبي ذر من الموضوعات، ووجهة نظري في ذلك أن قول ابن الجوزي ليس بحجة قاطعة، فقد تعقبه الحفاظ على كثير من أمثال ذلك؛ كالحافظ ابن حجر في «القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد».

وقد استفدت، كما استفاد القراء، وصاحب السؤال دليلين آخرين من تعقيب الأستاذ الأنصاري في إثبات نبوة آدم، يعضدان حديث أبي ذر؛ هما: حديث الإسراء، وإن كانت لا تفهم منه نبوة آدم إلا تلويحًا لا صراحة، وقياسًا لا نصًّا. وحديث أبي أمامة عند ابن حبان.

قال الأستاذ الأنصاري: وأرى أن أحاديث الإسراء، وحديث ابن حبان[٢] في صحيحه عن أبي أمامة، أن رجلًا قال: يا رسول اللّٰه، أنبي كان آدم؟ قال: «نعم، مكلَّم». قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون». وهو حديث وافق الحافظ ابنُ كثيرٍ في «البداية والنهاية»[٣]، ابنَ حبانَ في تصحيحه،

---

(١) صحيفة البلاد السعودية- في ١٣٧٤/٧/٩هـ. وجاء في الأصل: «عرضنا مقالًا للأستاذ إسماعيل الأنصاري ردًّا على فضيلة الأستاذ عبد اللّٰه خياط، فأجاب بما يلي، ونحن نكتفي بهذا الرد؛ لنقفل باب النقاش».

(٢) أخرجه ابن حبان (٦١٩٠). وانظر الصحيحة (٢٦٦٨).

(٣) البداية والنهاية ١/ ١١٣.

بل قال ابن كثير : هو على شرط مسلم ، ولم يخرجه . وعزا نحوه الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد »[١] إلى الطبراني[٢] ، وقال : ورجاله رجال الصحيح ، غير خليد[٣] الحلبي ، وهو ثقة . قلت : وهو كذلك .

وبعد ، فشكري للأستاذ الأنصاري على توجيهاته .



---

(١) مجمع الزوائد ١/ ١١٣.

(٢) أخرجه الطبراني (٧٥٤٥) .

(٣) كذا ، والذي في المجمع : أحمد بن خليد الحلبي .

حول نزول المسيح[(١)]

قرأت ما كتبه الأخ محمد علي راوا في موضوع نزول عيسى عليه السلام بالعدد (٢٤٥) من « جريدة الندوة » وتأييده بما كتبه سلفه ، الأخ فؤاد توفيق ، في رده على ما جاء في كتاب الأستاذ محمد عبد الله السمان في إنكاره نزول عيسى عليه السلام ، وأنا لم أقف على كتاب السمان ، ولكني أهتم بهذا المذهب منذ أمد بعيد ، وقد رد عليه العلماء ، وأقحموا أنصاره ، وأعرف أن على مذهب السمان في إنكار نزول عيسى ، من لا يتهم في دينه وعلمه ، ولكن كانت منه شطحة قلم ، وزلة عالم .

وحجتهم في هذا المذهب : أن التوفي لغة : هو أخذ الشيء وافيًا تامًا ، ومن ثم استعمل- يعني الإماتة- قال الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٢] والمتبادر في قوله تعالى : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥] أي : مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي ، ويقولون أيضًا : إن الرفع هو رفع الروح ، فإن الروح هي حقيقة الإنسان ، والجسد كالثوب ، ولهم في نزول عيسى طريقتان :

الأولى : أن ما ورد من الأحاديث في ذلك ، أحاديث آحاد ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي ، وليس ثمة حديث متواتر .

الثانية : تأويل نزوله ، وحكمه في الأرض ، بغلبة روحه وسر رسالته على الناس ، وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرجعة والأخذ بمقاصد الشريعة ، دون الوقوف عند ظواهرها .

الدجال وقتل عيسى : وقالوا عن الدجال ، وقتل عيسى له : إن الدجال رمز

(١) صحيفة الندوة- في ١٣٧٩/٦/٥هـ .

للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها . وكل ذلك زعم باطل وتقديرات وتأويلات لا ترتكز على دعامة صحيحة ، ولا تقف أمام النصوص الواردة في إثبات رفع عيسى ونزوله في آخر الزمان ، ووفاته بعد ذلك .

وحجتنا في دحض كل ما تقدم : كتاب اللّه ، وما فسره به السلف ، وهم أعلم الأمة بمقاصد القرآن واتجاهاته ، والناس عالة عليهم ، وتبع لهم .

وحجتنا أيضًا : سنة رسول اللّه ﷺ التي تناقلها العدول ، ورووها باللفظ أو المعنى ، والناقل للمعنى ينقل ما فهمه ، ولو رددنا أحاديث الآحاد- على زعم من يقول بذلك- لهدمنا معظم الدين ، والصحابة كلهم عدول ، فما صح عنهم وجب قبوله .

قصة رفع عيسى : وقصة عيسى عليه السلام ، إلى السماء ، ونزوله في آخر الزمان ، كقصة خلقه وإيجاده من غير أب - أية من آيات اللّه ، وخارقة من الخوارق- يجب الإيمان بها ؛ إذ قد صح فيها النقل ، ولنستعرض ما ورد في القرآن من قصة رفع عيسى ، ونعقب بالنسبة فيما يختص بإيضاح نزوله .

يقول اللّه تعالى في سورة آل عمران : ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥] . أورد ابن كثير رحمه اللّه ، قول قتادة وغيره من مفسري السلف ، قال[1] : هذا من المتقدم المؤخر ، تقديره : إني رافعك إلي ومتوفيك . وأورد البغوي[2] رواية ابن جريج ، عن الحسن قال : إني قابضك ورافعك إلي من غير موت .

يدل عليه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ [المَائدة: الآية ١١٧] أي : قبضتني إلى السماء ، أي أن الحسن يقرر أنه لم تكن وفاة ، وإنما المقصود بالوفاة القبض ،

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٦.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٥.

وهو تفسير بأصل المعنى، وهو الأخذ والقبض.

وقد قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧]. وقال أيضًا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النِّساء: ١٥٧، ١٥٨]. فهذه الآيات تتحدث عن دحض أقوال اليهود في قتل عيسى وصلبه. ثم قال تعالى في السورة نفسها: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٩].

جاء في تفسيرها عن الحسن، من رواية ابن جرير(١)، قال الحسن: قبل موت عيسى، والله إنه لحي(٢) الآن عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به. وروي هذا التفسير أيضًا عن قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من مفسري السلف.

قال ابن كثير: وهو الحق، كما سنبينه بالدليل القاطع- إن شاء الله- وقال ابن جرير أيضًا، بعد أن سرد الأقوال في تفسير الآية: وأولى الأقوال بالصحة: القول الأول؛ وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى، عليه السلام، إلا آمن به قبل موت عيسى. ثم عقب ابن كثير على ابن جرير بقوله: ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى. إلى أن قال: فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك- أي في دعوى اليهود- وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبه، وهم لا يبينون ذلك، ثم إن الله رفعه إليه، وأنه باق حي، وأنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة.

رأي ابن كثير: فقرر ابن كثير- وناهيك بابن كثير- أن الأحاديث متواترة في

(١) أخرجه ابن جرير ٧/ ٦٦٥.

(٢) في الأصل: «لحق». والمثبت من مصدر التخريج.

إثبات نزول عيسى، خلافًا لما زعمه السمان وغيرهم ممن يذهب مذهبه . وقرر ابن جرير- نقلًا عن أئمة التفسير من السلف : أن اللَّه سبحانه رفع عيسى، وهي حي عند اللَّه، إلى أن يحين وقت نزوله في آخر الزمان، على ما سيأتي بيانه في الأحاديث .

والخارقة والمعجزة، أن يكون الرفع والنزول بالروح والجسد، لا بالروح فقط، كما يزعم ذلك من يزعمه .

وفي قول اللَّه تعالى في سورة الزخرف : ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزّخرُف: الآية ٦١] نص صريح واضح، ينطق بنزول عيسى، سيما وقد وردت قراءة عن ابن عباس وأبي هريرة- بفتح اللام والعين- ﴿لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزّخرُف: الآية ٦١] .

قال ابن كثير في تفسير الآية، بعد أن أورد ما جاء في تفسيرها مرجحًا ناحية الصواب : بل الصحيح أنه- أي : الضمير- في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٠] عائد على عيسى، فإن السياق في ذكره .

ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٩] أي : قبل موت عيسى، ويؤيد هذا المعنى : القراءة الأخرى : « وإنه لعلم الساعة » أي : أمارة ودليل على وقوع الساعة . انتهى ما ذكره ابن كثير .

وليت شعري، هل كان المتأخرون- كالسمان، ومن على رأي السمان- أعلم من السلف ومفسري التابعين بمقاصد القرآن، وهل يصح في العقول أن من جاء في أعقاب الزمن الذي ازدحمت فيه الفتن واختلط فيه الحق بالباطل، أكثر ممن كان في خير القرون علمًا، وأغزر منهم فقهًا، وأشد ورعًا ؟! اللهم لا .

الأحاديث المتواترة : أما الأحاديث المتواترة الواردة في فقه نزول عيسى، والتي تلقاها أهل السنة بالقبول، ولم يطعن فيها طاعن، فهي كثيرة، تضيق بنا

السطور لو أردنا استقصاءها ، وحسبنا منها الإلمامة ، وأن نورد بعضها على سبيل الإشارة ، لا الحصر ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ [الكهف: الآية ٢٩] ، و﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عِمران: الآية ٧٣] ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القَصَص: الآية ٥٠] .

أورد ابن كثير رحمه الله ، عند تفسير قول الله تعالى : ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٧] الآيات .

أورد جملة من الأحاديث في الموضوع فقال(١) : قال البخاري رحمه الله ، في كتاب ذكر الأنبياء صحيحه- المتلقى بالقبول- نزول عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، ثم أورد السند إلى أبي(٢) هريرة قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال(٣) حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة خيرًا له من الدنيا وما فيها » الحديث .

وكذا رواه مسلم عن الحسن الحلواني وعبد بن حميد ، كلاهما عن يعقوب به . وأخرجه البخاري ومسلم أيضًا من حديث سفيان بن عيينة ، عن الزهري به . وأخرجاه من طريق الليث ، عن الزهري ، إلى آخر ما ذكره ابن كثير في تعداد هذا الحديث ، فيقال بعد هذا : إنه لم يرد في نزول عيسى حديث متواتر .

طريق آخر : قال البخاري : حدثنا ابن بكير(٤)- وساق السند إلى مولى(٥) أبي قتادة الأنصاري- عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف بكم إذا نزل

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٨.
(٢) في الأصل : « ابن » .
(٣) في الأصل : « الماء » .
(٤) في الأصل : « أبو بكر » . والمثبت من مصدر التخريج . والحديث عند البخاري (٣٤٤٩) .
(٥) سقطت من الأصل، والمثبت من مصدر التخريج .

فيكم المسيح ابن مريم، وإمامكم منكم». وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرزاق، عن معمر، و[(١)] عن عثمان بن عمر، عن ابن أبي ذئب، كلاهما عن الزهري به. وأخرجه مسلم من رواية يونس والأوزاعي وابن أبي ذئب به. وأخذ ابن كثير يسرد بقية الأحاديث في نزول عيسى، عليه السلام، وفي صفة نزوله، وموضع نزوله، وفي قتله للدجال، وصفة قتله له، إلى أن قال في نهاية ذلك: فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة، وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنواس بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومجمع بن جارية[(٢)]، وأبي سريحة[(٣)] حذيفة بن أسيد رضي الله عنهم، وفيها دلالة على نزوله ومكانه من أنه بالشام، بل بدمشق عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح. إلى أن قال: فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام، كما تقدم في الصحيحين، وهذا إخبار من النبي ﷺ بذلك، وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان؛ حيث تنزاح عللهم، وترتفع شبههم من أنفسهم، ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعين لعيسى عليه السلام، وعلى يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٩] الآية. إلى أن قال: وذلك لأنه ينزل بعد خروج الدجال فيقتله الله على يديه، كما ثبت في الصحيح. اهـ.

وما قرره السلف- ونحن نقر ما قرره السلف، ونؤمن بنزول عيسى، كما صحت بذلك الأحاديث، وقرره القرآن، وتناقله العدول، وصحت به الرواية،

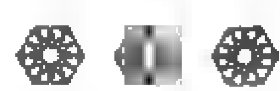
(١) في الأصل: «معمر عن عثمان». وهو خطأ. والصواب ما أثبتناه من مصدر التخريج. والحديث عند أحمد ١٣/١٠٨، ١٤/١٥٢ (٧٦٨٠، ٨٤٣١).

(٢) في الأصل: «حارثة». وهو خطأ. وانظر «الإصابة في تمييز الصحابة». ٩/ ٥٢٦، و«تبصير المنتبه» ١/ ٢٣١.

(٣) في الأصل: «أبي شريحة وحذيفة»، والمثبت الإصابة ١٥/ ٥٢٥، وتبصير المنتبه ١/ ٤٢٤.

ونقرر ما قلناه آنفًا- : أن عيسى عليه السلام ، آية من آيات اللّٰه ، وخارقة في خلقه من غير أب ، وفي رفعه إلى السماء ، وفي نزوله إلى الأرض في آخر الزمان ، وأن اللّٰه سبحانه سوف يتوفاه ويموت كما يموت البشر ، كما جاء مصرحًا به في بعض الروايات ، والحق أحق أن يتبع ، والشبه لا حد لها ولا نهاية ، والناس في زمن يوشك أن يكون القابض فيه على دينه ، كالقابض على الجمر ؛ لكثرة الفتن التي اطلعت رؤوسها ، والتي تحدث عنها الصادق المصدوق ، حيث يقول : « بادروا بالأعمال قبل أن تأتي فتن كقطع الليل المظلم ؛ يصبح الرجل مؤمنًا ، ويمسي كافرًا ، أو يمسي مؤمنًا ، ويصبح كافرًا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا »(١) .

نسأل اللّٰه الثبات على الإيمان ، والوفاة عليه ، غير مفتونين ، ولا ضالين ، أو مضلين ، وصلى اللّٰه على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع طريقه إلى يوم الدين .



(١) أخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه .

بحوث متسلسلة قيمة

من كنوز السنة[١]

روى مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد اللَّه إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى ههنا- ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه، وماله، وعرضه»[٢].

ولمسلم عن أبي هريرة أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر اللَّه عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره اللَّه في الدنيا والآخرة، واللَّه في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»[٣].

* المعنى اللغوي:

الحسد: تمنى زوال النعمة عن المحسود. النجش: الزيادة في ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها. التدابر: التقاطع والتهاجر. يظلمه: أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه. يخذله: يترك عونه ونصرته. يكذبه: يجعله كاذبًا. التقوى: مخافة اللَّه والعمل بطاعته. الحسب: بفتح الحاء وسكون السين، مصدر، الكفاية، وتزاد عليه الباء، فيقال: بحسب فلان كذا. أي: يكفيه. حقره يحقره: استصغر شأنه، وهان عليه. العرض: بكسر العين وسكون الراء؛

---

(١) مجلة المنهل - جمادى الأولى- ١٣٧٧هـ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

الحسب أو النفس، أو ما يفتخر به المرء من حسب وشرف . نفس : بفتح النون وتشديد الفاء وفتحها ؛ فرَّج . الكربة : جمع كرب ؛ الحزن والمشقة . يسر : سهل . واليسر : ضد العسر . المعسر : قليل ذات اليد . ستر : غطى . العون[١] .

*** معنى الجمل :**

« لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تدابروا » : ينهى ﷺ أمته عن أن يصموا أنفسهم بخصال الضعة والنقص المذكورة في الحديث ، وهي : الحسد ، والتناجش ، وأن يبغض بعضهم بعضًا ، بغضًا يحملهم على الهجر والتقاطع وفل الروابط .

« ولا يبع بعضكم على بيع بعض » : لا يبع أحدكم السلعة، فيعرض بائع آخر للمشتري يغريه بفسخ البيع على أن يبيعه نفس السلعة أو خيرًا منها بأقل من الثمن الأول ؛ وذلك باعث للأحقاد والضغائن بين أفراد الجماعة الإسلامية ، ومجلبة للتباغض والتدابر .

« وكونوا عباد الله إخوانا » : أمر صلى الله عيه وسلم بتوثيق عرى الإخاء الإسلامي بالترفع عن كل ما يخدشه أو يؤثر فيه ، ثم أوضح واجب الإخوة فقال :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه » : لا يتجنى عليه فيسلب ماله بالطرق الملتوية ، أو يهدر دمه ، فيجرأ على سفكه ، أو يهتك عرضه بالنيل منه والوقيعة فيه .

« ولا يخذله » : لا يترك عونه ونصرته ، وهو قادر على ذلك ، وعند أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر .

« ولا يكذبه » : لا يجبهه ويكذبه سرًّا أو جهرًا ؛ ليكسر من نفسيته ، ويقلل من معنويته .

(١) لم يورد الشيخ لها معنى .

« ولا يحقره » أي : لا يهون من أمره ويستصغر شأنه ويتعاظم عليه، ويرى نفسه أنه خير منه .

« التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات » أي : مخافة اللَّه والشعور بجلاله وعظمته، محل ذلك ومصدره القلب ، فإذا استشعر القلب عظمة اللَّه كمن فيه الحب للَّه والرغبة في طاعته ، فصلحت الجوارح بصلاح القلب ، كما ورد في الحديث : « إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، ألا وهي القلب »[١] .

« بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » : أي : يكفي المحقر لأخيه المتعاظم عليه أن يناله عقوبة هذا التعاظم والتحقير ؛ فإنها عقوبة قد أضمرها الشرع ؛ زيادة في الوعيد والتهويل .

« كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه » : للمسلم على أخيه حرمة الدم، فلا يحل له أن يسفك دم أخيه ، وله عليه حرمة المال ، فلا يحل له أن ينتهب ماله أو يختلسه بالطرق الملتوية ؛ ومن ذلك الرشوة ، والغش ، وما إليه . وله عليه حرمة العرض ، فلا يحل لمسلم أن يهتك عرض أخيه بالنيل منه في غيبته ، أو حضوره ، أو يقدح في شرفه وحسبه ، وما يصونه من نفسه .

« من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة » . أي : من فرج هم محزون ، أو سرى عن مكروب ، أو أعانه على نائبة من نوائب الدهر ، عامله اللَّه بإحسانه وجزاه من جنس عمله ، ففرج عنه كربة يوم تشتبك الكروب يوم القيامة ، وخلصه من همه يوم تشتد الهموم وتدلهم الخطوب . ومن يسر على معسر يسر اللَّه عليه في الدنيا والآخرة . من أنظر المعسر ولم يكرثه بالمطالبة ، ولم يحرجه في سداد الدين الذي له عليه ، أو أقرضه إن كان

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٠٧/١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي اللَّه عنه .

يطلب ذلك، يسر اللّه له كل أمر يهمه في دنياه، وسهل عليه شدائد الآخرة وموقف الحساب.

« ومن ستر مسلمًا ستره اللّه في الدنيا والآخرة »: من رأى أخاه المسلم على ما يكرهه من ذنب ارتكبه أو معصية زلقت بها رجله، فعليه أن يسبل عليه ثوب الإغضاء، ولا يشهر به، أو يفضحه بين الناس، بل ينصحه في عدم العودة، ففي ذلك ستر له، وسوف يستر اللّه عليه عيبه في الدنيا، كما ستر على أخيه، ويستر عليه ذنوبه في الآخرة، ولا يفضحه على رؤوس الأشهاد، بل يجعله تحت كنفه فيقرره بذنوبه ثم يغفرها له جزاء وفاقا.

* **الشرح:**

إن مما صح به النقل وسلمت فيه الرواية عن إمام المصلحين وخير الهداة والمرشدين محمد بن عبد اللّه، صلوات اللّه وسلامه عليه، هذين الحديثين الشريفين الجامعين للتوجيه الحصيف، والمعاني العامرة، والإرشاد إلى خير المثل وأقوم المناهج، وما أحوجنا إلى أمثال هذه التوجيهات الرفيعة في عصر طغت فيه المادة على كل المقدرات والقيم الروحية، وهيمنت فيه على الشعور العام، وسيطرت على السواد الأعظم من الناس، وتجلت في كل مجال من مجالاتهم. وكل مظهر من مظاهرهم مما يدفع بالعاقل الحصيف أن ينشد السمو الخلقي في أمثال هذين الحديثين، وينتهج النهج الذي ترسمه، فهو نهج درج عليه خيار الأمة في عصرهم الذهبي؛ فدانت لهم الدنيا، وامتلكوا أمهات المدن، كما امتلكوا زمام النفوس، وقادوها إلى الخير والفلاح.

إن الحسد؛ وهو أبرز صفات الأنانية، والتناجش؛ وهو مدرج من مدارج الإسفاف والتردي، والتباغض والتدابر؛ وهما معولا هدم للأواصر والوشائج، وظاهرتا فشل ونذير خراب، وبيع المسلم على المسلم؛ وهو مظهر من مظاهر

حب الذات والأنانية المفرطة، ووسيلة قذرة للكسب بالطرق الملتوية؛ كل أولئك لمما يفقد الأمة الروح الجماعية والتعاون في كل مجالاته، ويفل الروابط، وينفصم به عرى الأخوة الإسلامية التي أكدها اللَّه للمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠] ومثل لها النبي ﷺ بالجسد الواحد الذي لا يتجزأ والذي إذا أهيض جناحه ارتفعت بقية الأجزاء بالشكوى: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[١]. «مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٢].

وشجع رسول اللَّه ﷺ على هذه الأخوة بعد سرد جملة من أمراض المجتمع في هذا الحديث بقوله: «وكونوا عباد اللَّه إخوانًا».

ثم عقب بذكر أمور من شأنها أن ترفع من هذه الأخوة وتجعلها على طراز نموذجي للمجتمع الإسلامي الصالح والتكافل الاجتماعي، فقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره».

وكفى بالظلم والخذلان والتكذيب، كفى بذلك، اتجاهات خطرة تنذر بهلهلة المجتمع وهزيمة المثل العليا في ميدان الفضائح.

ثم قرر ﷺ في نهاية الحديث حق المسلم من حيث وضعه كفرد في المجموعة الإسلامية له من الحصانة المالية، وحرمة الدم والعرض، ما يكون به في مأمن من الإهدار وانتهاك سياجه، واستباحة حريمه، فقال: «كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه، وماله، وعرضه». وهو عين ما قرره حين قام في الناس خطيبًا في حجة الوداع، وقرر أصول الدين، وأوصد المداخل، وأحكم الرتاج، وقال في النهاية قولته الخالدة: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا؛ كتاب

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الشعري رضي اللَّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي اللَّه عنه.

اللَّه »[١] . وجاء فيها مما نحن بصدده قوله : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا »[٢] .

ويعجبني فيما قرأته مما يتصل بهذا الموضوع أيضًا قول أحد العلماء المعاصرين : ليس هناك كالجنس الإنساني في تفاوت أفراده ؛ كمالًا ونقصًا ، وكرمًا ولؤمًا ، ومع ذلك التباين الشاسع بين الأفراد فهم متساوون أمام الحقوق والواجبات العامة ، وأمام فرائض الدين ، والتزامات القانون . ليس لذكي أن يسفك دم غبي ، وليس لمتفوق أن يتسلط على متأخر تسلط جور وافتئات ، والأسرة الواحدة قد يكون فيها الغصن العالي والغصن القريب ، وهذا لا يعني تنكر بعض لبعض .

بل الواجب يقضي بأن يأخذ القوي بيد الضعيف ، وأن يسلط عليه جناح رحمته ما ظل محتاجًا إليها ، وجمهرة تعاليم الدين تقوم على هذا الأساس المتين ، ثم هي تنظر إلى حقوق هذه الأخوة ، حين تأمر بالبر والتواصل ، وحين تنهى عن الظلم والقطيعة والعقوق ، فالأخوة العامة كما رأيت ، هدف يسعى الإسلام لتحقيقه ، ويصنع له البيئة التي تلائمه ، ويأبى أن يكون للفوارق المادية أثر يهدمه .

وهذا البيان المسهب مما يلقي ضوءًا على حديث أبي هريرة الثاني ، ويبسط أهدافه ، ويشرح مراميه ، وهو لا يختلف عن الحديث الأول من حيث التوجيه إلى أقوم السبل في معاملة المسلم لأخيه ، وانتشاله من كابوس المحن والرزايا ، والتخفيف من متاعبه ما استطاع ، ومواساة جراحه ، وإسدال الستر على زلته إن زلت به القدم ، واستجاب لصبواته ونزواته وتقويمه بالحكمة ، وإسداء النصيحة

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧/١٢١٨) من حديث جابر رضي اللَّه عنه ، مطولًا .

(٢) أخرجه البخاري (٦٧/ ١٠٥) ، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي اللَّه عنه . وأخرجه البخاري (١٧٣٩) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما ، و(١٧٤٢) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما .

له ، مجانبًا الوقيعة فيه ، والتشهير به ، أو التجني عليه ، واستعراض مثالبه .

وإلى جانب ذلك في الحديث وعد بحسن الجزاء وعظيم المثوبة ؛ مقابلة للإحسان بمثله ، وجزاء وفاقًا للعمل المشكور والصنيع المبرور ، ومن منا لا تستشرف نفسه لهذه المناقب الحميدة فيضع نفسه موضع اليد العليا تنفس عن المكروب كربه ، وتيسر على المعسر إعساره ، وتستر على المسف زلته ، وترعى فيه حق أخوة الإسلام المؤسسة على نور من اللّٰه وقبس من هدي النبوة الوضاء ؟! .. واللّٰه الموفق .



بحث قيم متسلسل :
من كنوز السنة[1]

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . رواه البخاري ومسلم[2] .

*** اللغة :**

النفاق : ستر الواقع ، وإظهار خلاف الحقيقة والباطن . أصله من : نافقاء اليربوع ، وهو إحدى حجراته يسترها ويظهر غيرها . (خصلة) : خلة . (ائتمن) : اتخذه الناس أمينًا ، وهو ضد الخائن . (حدث) : نقل الحديث عن غيره . (كذب) : أخبر بخلاف الواقع ونقل غير الحقيقة . (عاهد) : أعطى الميثاق وعاقد . (غدر) : خان ولم يف بما عاهد عليه . (خاصم) : تنازع . (فجر) : عدل عن الحق وحاد عنه .

*** معنى الجمل :**

« كان منافقًا خالصًا » : أي ستر حقيقته، مع أنه منافق لا شبهة أو لبس في نفاقه .

« ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها » : من كانت فيه خلة من النفاق تنازعه عاملان : عامل الخير ، بقدر ما فيه من الخير . وعامل الشر ، بقدر ما فيه من نفاق حتى يتخلص من كل شبهة نفاق ، ويكون مظهره كمخبره .

---

(١) مجلة المنهل -شعبان- ١٣٧٧هـ .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤، ٢٤٥٩) ، ومسلم (٥٨/١٠٦) .

« إذا ائتمن خان » : إذا وضعت عنده الودائع ، وكان للناس به ثقة لم ينصح في أداء الأمانة لأربابها ، بل يسلك الطرق الملتوية لجحدها .

« إذا حدث كذب » : لا يتحرى الصدق فيما ينقله ويرويه ، بل يختلق ويحكي خلاف الواقع .

« إذا عاهد غدر » : إذا قطع عهدًا أو ميثاقًا ، أو تعاقد على أمر من الأمور، لم يف بما قطعه على نفسه ، ولم يقم بالتزاماته .

« إذا خاصم فجر » ، إذا تنازع في أمر ما ، خرج عن جادة الحق ، وحاد عن السبيل السوي ، وارتكب الزلل في نصر دعواه ولو بالباطل .

*** الشرح :**

المجتمع الإسلامي المثالي يتطلب من أفراده التكمل الذاتي مظهرًا ومخبرًا ، والترفع عن الإثم والرذيلة ظاهرًا وباطنًا ، فهو يرسم مناهج الإصلاح للتهذيب في كل مجال لتصلح الأخلاق إلى جانب صلاح العقيدة ، ولينظم الصلة بين الخالق والمخلوق ، إلى جانب تنظيمها بين أفراد المجتمع ؛ بحيث لا يبغي أحد على أحد ، وبحيث يرى المسلم لغيره ما يراه لنفسه من حقوق وواجبات والتزامات ، والحديث الذي نحن بصدد شرحه جمع بين جملة من الخصال التي يجب الترفع عنها ؛ لأنها تحول دون التكمل ، بل تخدش في مقومات المسلم وتصمه بالنفاق والتلون .

فالخيانة في أداء الأمانات ، ومطل صاحبها بغية أكلها غنيمة باردة ، كل ذلك مما يستثير الحفائظ ، ويقدح في أخوة الإسلام ، ويورث الضغائن والأحقاد ، ويدفع إلى ارتكاب الجريمة ؛ لاسترداد الحق المغصوب والأمانة المسلوبة ، وحسب الخائن أنه خالف أمر اللَّه ، ولم يستجب لقوله ؛ إذ يقول في محكم كتابه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: الآية ٥٨] . وروى

البيهقي عن ابن مسعود قال: يؤتي بالعبد يوم القيامة، وإن قتل في سبيل الله، فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا، فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلقون به إليها، فتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت له، فيراها ويعرفها، فيهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وعدد أشياء، وأشد ذلك الودائع[١].

ومن ذلك يعلم أن شرائع الدين كلها أمانات، فمن قصر في أدائها على الوجه المشروع فقد قصر في أداء الأمانة.

والودائع- بنوع أخص- أفردت بالتوصية؛ لأنها حق الآدميين، لا يسقط إلا بالإبراء أو الأداء.

أما الكذب وتصوير غير الواقع في نقل الرواية، أو اختلاق الحديث من أساسه فهو فساد في التصوير، يشعر بتفاهة الكاذب، وضعف نفسيته، وانحلال أخلاقه. ولقد نفى الرسول الكريم عن المسلم أن يكون كذابًا، وأن يوصم بهذه الخلة الذميمة عندما سأله بعض الصحابة قائلين: هل المؤمن يكون جبانًا؟ قال: «نعم». قيل: ويكون بخيلًا؟ قال: «نعم». قيل: ويكون كذابًا؟ قال: «لا»[٢]. وما ذاك إلا لأن الكذب وصمة عار تهدم شخصية المسلم في المجتمع، وتعرضه لعقاب الله، وأليم عذابه، يوم تبيض وجوه الصادقين، وتغبر وجوه الكاذبين. كما تحدث عن ذلك الكتاب العزيز فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: الآية ١٠٥].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٢٦٦). وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٦٣).

(٢) أخرجه مالك ٢/٩٩٠ - ومن طريقه البيهقي في الشعب (٤٨١٢) عن صفوان بن سليم مرسلًا. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٧٥٢).

وكما تحدث الصادق المصدوق ، عليه صلوات اللّه وسلامه ، حيث يقول : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند اللّه كذابًا »[(١)] . الحديث . وحسب الكاذب نكالًا أن ينبذه مجتمعه ، ويكتب عند اللّه من الكاذبين .

ولقد أحسن الشاعر فن تصوير واقع الكاذب فقال :

لي حيلة فيمن ينم وليس لي في الكذاب حيلة
من كان يختلق الحديث فحيلتي فيه قليلة

وما دمنا بصدد الحديث عن الكذب ، فإن لنا أن نعرض لما يسميه البعض : « كذبة إبريل » ! يعمد البعض في مستهل هذا الشهر الإفرنجي لافتراء الكذب واختلاق الحديث ؛ تقليدًا للكفرة الفاسقين ، وهم في زعمهم إنما يقصدون الاستظراف والمتعة والتفكه ، وليس فيما حرمه اللّه طرافة أو ملحة ، وإنما هو جرأة على اللّه وتجن على عباده .

أما الغدر بعد الأمان ، ونقض العهد بعد الإبرام ، وعدم القيام بالوفاء بما تعاقد عليه المرء من التزامات وواجبات ، أقول : ليس ذلك من خلق المسلم ، بل هو إثم فظيع وحوب كبير ، وقد نص القرآن صراحة على ضرورة الوفاء بالعهد كأمر له خطره : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٤] . وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: الآية ١] .

وقال رسول اللّه ﷺ ، مبديًا الوعيد الشديد في حق الغادر : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر »[(٢)] . الحديث . وقال أيضًا : « إذا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه .
(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٧، ٢٢٧٠) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .

جمع اللّه الأولين والآخرين يوم القيامة ، يرفع لكل غادر لواء يقال : هذه غدرة فلان بن فلان »[١] . وإنه لوعيد شديد وخزي للغادرين يدفع كل ذي لب سليم إلى البعد عن هذه الخلة والتخلق بها .

أما الفجور في الخصومة ، فهو مجانبة العدل فيها والتجني على الخصم والادعاء عليه بالباطل ، وليس ذلك بسديد ولا طريق سليم للمطالبة بحق ، أو لتقرير وجهة نظر ، ولقد ذم اللّه في كتابه من يجنح إلى اللدد في الخصومة ، حيث يقول في محكم التنزيل : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٤] أي : شديد الخصومة ، كاذب في القول ، مجادل بالباطل ، ورسم الطريق السديد والنهج الرشيد ؛ حيث أمر بالعدل وعدم التأثر بالحب والبغض في معاملة العدو والصديق ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: الآية ٨] أي : لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم لعدائهم ، بل يجب أن يكون العدل قائمًا بين الجميع ، وفي حالات الخصومة يجب أن يضع المتخاصمان العدل نصب أعينهم بحيث لا يبغي أحد على أحد .

وجملة القول : أن هذا الحديث الشريف الذي تناولته بالبسط ، وهو مخبر لخلق المسلم ومحك لمسلكه ، فإن جانب المسلم ما نص عليه الحديث من الخيانة في الأمانة ، والكذب في تصوير الواقع ، والغدر بعد توثيق العهود والفجور في الخصومة ؛ إن جانب ذلك كله سلم له دينه ، وبرئ من النفاق العملي ، وكان في عداد المفلحين ، وإن كانت الأخرى فليستصلح من اعوجاج نفسه ، وليتب إلى اللّه ربه ، ولا يجعل النفاق يتطرق إليه في أي لون من ألوانه فيكون له ديدنًا وخلقًا دائمًا يجره إلى ما هو أفظع وأبشع .. واللّه الموفق .

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٧، ٦١٧٨) ، ومسلم (١٧٣٥) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنهما .

من كنوز السنة :

التكافل الاجتماعي في الإسلام(١)

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلته فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » . فذكر أصنافًا في المال ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل » . رواه مسلم(٢) .

* **معنى الفقرات :**

« يصرف بصره يمينًا وشمالًا » : يحوله مرة جهة اليمين ، وأخرى جهة الشمال ؛ كالفاقد لحاجة أو المهتم لأمر .

« من كان معه فضل ظهر » أي : من فضل معه مركوب زائد عن حاجته .

« فليعد به على من لا ظهر له » أي : ليرجع به ويدفعه إلى من يحتاج إليه .

« ومن كان معه فضل زاد » : من كان معه طعام زائد عن حاجته .

« فليعد به على من لا زاد له » أي : ليرجع به ويدفعه إلى من يحتاج إليه من فقير ومسكين وأرملة ويتيم وأمثالهم .

« فذكر من أصناف المال ما ذكر » أي : عدد رسول الله ﷺ الشيء الكثير من أصناف الأموال الفاضلة عن حاجة أصحابها .

« حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل » : حتى عقلنا عنه أنه لا حق لصاحب مال أن يحتجز ما زاد عن حاجته من صنوف الأموال ، بل عليه أن يصرفه

---

(١) مجلة المنهل - محرم - ١٣٧٨هـ .

(٢) أخرجه مسلم (١٧٢٨) .

إلى إخوانه المستحقين في حدود ما شرعه اللّٰه وافترضه الشرع.

هذا الحديث أصل عظيم، يضع به رسول الهدى ﷺ مبدأ التكافل الاجتماعي، ويقرر فيه ضمان حق المسلم الفقير والبائس المسكين؛ فردًا كان أو جماعة ويرسي به لبنات الإخاء الإسلامي، ويوجه الأنظار إلى عوامل التراحم والتعاون؛ بحيث يشعر الغني بشعور الفقير، ويتألم لآلامه وينتشله من وهدة الفقر وذل الحاجة بقدر ما في وسعه، وبفضول أمواله، ويمسح عنه دموع الأسى والحرمان بالعطف عليه، فيشعر الفقير بارتفاع نفسيته، وبأن له في المجتمع مكانته كعضو وكفرد له حق الرعاية، وكأخ في الإسلام تربطه بالجماعة الإسلامية رابطة تفضل كل الروابط، وآصرة تحقق له سياجًا من العطف والرحمة والإحسان والحرمة.

وقد رسم رسول الهدى ﷺ لذلك أوضح المناهج حين عرض له الرجل آنف الذكر الذي أسكته الفقر، وحيرته الحاجة، فأخذ يتلفت يمنة ويسرة كالمشدوه يتطلب حلًا لأزمته، وإن أمثاله لكثيرون ممن يستدرون العطف بضروراتهم، ولا يخلو منهم زمان أو مكان؛ إذ قد اقتضت حكمة اللّٰه أن يكون في الناس أغنياء وفقراء، وأن يكون بهذا المزيج من الطبقتين عمارة الكون وصلاح أمر المجموع، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف: الآية ٣٢].

جاء في تفسير هذه الآية على ما ذكره البغوي[١] رحمه اللّٰه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الزخرف: الآية ٣٢] أي: جعلنا هذا غنيًا وهذا فقيرًا، وهذا ملكًا وهذا مملوكًا ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: الآية ٣٢] بالغنى والمال ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف: الآية ٣٢]

(١) تفسير البغوي ٧/ ٢١١، ٢١٢.

ليستخدم بعضهم بعضًا، فيسخر الأغنياء الأجراء الفقراء بالعمل ، فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش ؛ هذا بماله ، وهذا بأعماله ، فيلتئم قوام أمر العالم .

فنشاط الطبقة الفقيرة في كسب رزقها والحصول على أجر كدها هو بلا مراء تسخير إلاهي ، ثم في تضامن الأغنياء مع الفقراء في تسيير المصالح وتهيئة الفرص لخوض معركة الحياة جنبًا إلى جنب ، كما ذكر البغوي ، رحمه اللّه ، الأغنياء بأموالهم ، والفقراء بكدهم ونشاطهم ، في ذلك ضمان لاستقلال الجماعة الإسلامية في كل ما تحتاج إليه من أمر المعاش .

ولما كان المال هو عصب الحياة، وهو المحور الذي يدور عليه عامة النشاط في مختلف اتجاهاته، قيد التصرف فيه والانتفاع به بقيود لا مندوحة عن الأخذ بها بعين الاعتبار، بحيث يصبح من يخرج عنها عاص للّه ، فجعل فيه الزكاة فرضًا لازمًا يأثم الأغنياء في تأخيره وعدم إخراجه لمستحقه ، والزكاة إسهام في إنعاش حالة الفقراء ومعونة فعالة ، لها قيمتها في تدعيم التعاون بين الطبقة الفقيرة والأغنياء .

وجعل سبحانه وراء الزكاة نفحات ينفحها الأغنياء لإخوانهم عن طيب نفس ؛ إيذانًا بالشعور الطيب الذي يشعرون به نحو الفقراء قال تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: الآية ٨] وشجع على الماضي في هذا المضمار بترتيب الجزاء العظيم على البذل والإنفاق في سبيله ، قال تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٦١] .

بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك ؛ حيث جعل الأغنياء كحراس للمال ، مستخلفين فيه ينفقونه في طاعته ، وفي الأوجه التي أمر بأن ينفق فيها فقال : ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: الآية ٧] .

قال ابن كثير[١] رحمه الله عند تفسير هذه الآية : وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ، أي : مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ، ثم صار إليكم ، فأرشد إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته ، فإن لم يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم على ترك الواجب فيه .

وإلى جانب هذا التشجيع على البذل ، وإنفاق المال في سبيله ، وطاعته ، والتوعد عن الإحجام في إخراج الواجب فيه ، نهى عن الشح بالمال ، وتكديسه ، أو تبذيره وتبديده ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٩] ، ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٧] .

بهذه القيود التي قيد بها رب العزة الانتفاع بالمال ، وهذه الاتجاهات التي رسمها العليم الخبير لعباده في التصرف فيه كأداة للإصلاح ، ووسيلة لتكاتف المجتمع ، وترابط أفراده ، يستقيم أمر الجماعة ، كما أسلفت ، لو روعي تطبيق تلك القيود ، وتلك الاتجاهات ، واندفع الناس إلى الأخذ بها كمبدأ قرره الدين قبل أن يتمشدق به أنصار المبادئ الهدامة الذين يركبون رؤوسهم ، ويسرفون في الدعوة لتطبيق مبدأ المساواة بين الطبقات ، لدرجة لا يقرها منطق ولا دين .. أقول : لو اندفع الناس إلى الأخذ بتلك القيود والاتجاهات كمبدأ ونظر الأغنياء إلى الفقراء نظرهم إلى جزء متمم لكيانهم وعنصر له قيمته الحيوية في تسيير مصالحهم وكعضو عامل في مجتمعهم لما أصبح في الناس جائع بين ممتلئين ، وعار بين مكتسين ، ولانطبق على هذا المجتمع المثالي المثل الرائع الذي ضربه رسول الهدى لواقع المؤمنين ، حيث يقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٥.

والحمى »[١] .. وحيث يقول أيضًا : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا »[٢] . أي : أنه في تماسكه وترابطه وتشابكه كالبناء القوي المتماسك يشد قويه ضعيفه ، ويأخذ غنيه بيد فقيره ، ويمضي الجميع قدمًا بخطى ثابتة إلى حيث تجني الجماعة الإسلامية ثمرة هذا التماسك فتقهر عدوها ، وتقدم مصالحها وتستقل بحاجاتها ، وتحمد اللَّه أن رضي لها خير الأديان دينًا يجمع بتعاليمه شتاتها ، ويحزم بمبادئه أمرها ، ويستقيم به في مجموعه أمر دينها ودنياها ، وصدق اللَّه العظيم إذ يقول : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: الآية ٣] .



(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي اللَّه عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦) ، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه . وتقدم تخريجهما قريبًا .

من كنوز السنة

الإنسان، والأرض، والغيث، في الحديث النبوي الشريف[١]

«مثل ما بعثني اللّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية؛ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب؛ أمسكت الماء فنفع اللّه بها الناس، فشربوا، واستقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى؛ إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقه في دين اللّه، ونفعه ما بعثني اللّه به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به»[٢].

يضرب رسول اللّه ﷺ المثل بهذا الحديث في فضل العلم بوصفه علم الإنسانية. ويوضح أهدافه ومدى انتفاع الناس منه، وقد قسمهم في ذلك إلى قسمين، وشبههم في هذه القسمة بطبيعة الأرض من حيث تربتها، أو فسادها وانتفاعها بما يهطل عليها من مطر، وعدم إفادتها منه.

فكما أن التربة الطيبة إذا تتابع عليها هطول الأمطار اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج؛ كذلك النفوس الطيبة المتعطشة للعلم، المستقبلة للهدى والنور تتفتح له وتنتفع به أيما انتفاع حين يشع في جوانبها؛ فيكتسح فيها ظلمة الجهل ووحشة الجدب، ويعم النفع غيرها بالعمل على إشاعة ما عرفته. وعلى العكس من ذلك التربة الرخوة السبخة، إنها لا تنتفع بهطول الغيث عليها مهما تتابع انصبابه وكثر نقيعه. إنها لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فهي مثل للنفوس جامحة النفور مهما تسلط عليها إشعاع علم، وامتد فيها رواقه، وبذرت فيها بذور خير لن

(١) مجلة المنهل - شعبان - ١٣٨٢هـ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه.

تنتفع ولن تأتي بثمار، أو يكون منها ظلال .

وفي دراستنا لهذا الحديث دراسة بحث واستفادة واستقصاء، نلحظ ما انطوى عليه من مناهج الخير وأسس الإصلاح وما يهدف إليه من بعث نهضة علمية بين المجموعة الإسلامية والترغيب في إيجاد المعلم الصالح المصلح الناجح الذي عِلِم عن وعي وعلَّم عن دراية، وفهم فنفع وانتفع، والذي كان من آيات نجاحه تخير التربة الصالحة للبذر، التي تنتفع بما يلقيه فيها من العلم وتنتعش بما يصيبها من هدى ونور، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، كما تنبت الأرض النقية الصالحة الكلأ والعشب الكثير والثمار؛ فتزدهر الحياة ويعم الخير .

هذا الفريق من الناس الذي حمل العلم وأشاعه وعلِمه وعلَّمه كشف عن واقعه الرسول ﷺ في المثل الذي ضربه آنفًا بقوله : « فذلك مثل من فقه في دين اللَّه ونفعه ما بعثني اللَّه به فعلم وعلم » .

وثمة صورة أخرى ترتسم في الذهن لفريق آخر يلحظ من قوله ﷺ : « وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع اللَّه بها الناس فشربوا واستقوا وزرعوا » .

وهو مثل لمن يعلم ولا يعمل بعلمه وينفع غيره، وليس لنفسه من هدايته للغير نصيب، وصف واقعه الشاعر الحكيم بقوله :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

ويعيب رب العزة صنيع هذا الصنف من الناس بقوله : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٤] .

وقد يكون في الناس من يحتكر العلم لنفسه كاحتكار الطعام؛ جريًا وراء

مغنم مادي يطلبه ، ويسرف في ذلك لدرجة التهالك المزري ، أو ضنًّا بما لا يصح الضن به ، بل يجب أن يكون مُشاعًا بين المجموع ، كزاد يتزود به ، ونور يستضاء بسناه ، يلحظ هذا الصنف في قوله ﷺ : « فعلم وعلم » . أي : لم يكن انتهازيًّا محتكرًا للعلم أو ضنينًا به على غيره .

بقي الصنف الثاني الذي خصه الرسول الكريم بالذكر وضرب له المثل بقيعان الأرض ؛ وهي السبخة الرخوة التي لا تمسك الماء إذا تتابع عليها هطول الغيث ، ولا يكون لها منه انتعاش ، أو تفيد الناس ثمارًا يانعة ، أو أكلًا طيبًا ، أو زهرات تكون بهجة للناظر ، وسلوة للخاطر .

إنها مثل لفريق أظلمت جوانب نفسه ، وانحطت همته عن الاستشراف للأخذ بالعلم ؛ ليرفع به رأسه ، بل قبل أن ينحط إلى دركات الحضيض أشبه بالعجماوات ، همه كل الإمكانيات متوافرة لديه . وقد يغلو في العماية ، ويسرف في الضلالة ، ويتطرف في الإعراض عن إشعاع العلم ، بل قد يعادي العلم والعلماء ، ويقف بكل صراط ليصد عن سبيل اللّٰه ، ويبغي بها عوجًا . أولئكم من وصف واقعهم رسول الهدى بقوله : « ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا » . أي : بالعلم ، « ولم يقبل هدى اللّٰه الذي جئت به » إنهم همل قد خفضوا رؤوسهم بالجهل ، وصدوا أنفسهم عن مناهج الخير ، وأعشاهم النور المتألق الوضاء ، نور الحق والهدى فغدوا في عمه في البصيرة وعمى عن صراط اللّٰه السوي .

وفي ختام القول يجدر بنا أن نتساءل عن العلم الذي ضرب له المثل رسول الهدى ، وقسم الناس في طلبه والانتفاع به إلى قسمين ، هل هو علم مخصوص محدود في إطار لا يعدوه ؟ أم هو الإشعاع العام الذي ينتظم ألوانًا من العلوم في شتى الميادين وفي مختلف الاتجاهات ؟! والذي يتبادر من لفظ الحديث وأهدافه أن الرسول الكريم ﷺ إنما يقصد علمًا مخصوصًا ، وأوضح المعالم بقوله ﷺ

في معرض المثل: « فذلك من فقه في دين اللَّه ونفعه ما بعثني اللَّه به ».

ومن قوله في نهاية الحديث: « ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى اللَّه الذي أرسلت به »، تصحيح مذهب من يجنح إلى أن المراد بالعلم ما يفقه في الدين في أوسع مجالات التفقه؛ يشمل ذلك العلم بالحلال والحرام، ومعرفة استنباط الأحكام، وفهم أسرار الشريعة، وما جاء فيها من مبادئ وعقائد وآداب، وتكملات مما يشق به العبد طريقه في الحياة كعالم يسير على ضوء العلم، ويحرز به السعادة في الحياة الأخرى إلى جانب البررة والمقربين الذين رفع اللَّه لهم الدرجات في أعلى عليين، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: الآية ١١].

وثمة من يقول من العلماء بإطلاق العلم دون تقييده بنوع معين، أو وقف مدلوله على العلم الشرعي الذي يكون له أبرز الأثر في صقل النفوس، وهو من تراث النبوة، اللهم إلا أن يكون علمًا ضارًّا بالأمة.

ولعل في هذا التجوز والإطلاق لمدلول العلم مجانبة للواقع الملحوظ من قوله ﷺ: « مثل ما بعثني اللَّه به » ولم يبعثه اللَّه إلا بالقرآن الذي وصفه اللَّه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: الآية ٩] أي: إلى أعدل الطرق وأقوم المناهج، وفيه العلم بمعناه الشرعي، وهو في هدايته لا يحتمل إثبات النظريات الهندسية، أو المعادلات الجبرية، أو الإشارة إلى المستكشفات الحديثة على اعتبار أنها من العلم الذي بعث اللَّه به رسوله، ومن لم يأخذ به لم يقبل هدى اللَّه الذي أرسل به رسوله .. إنها وأمثالها علوم مفيدة يشق بها المرء طريقه في الحياة الدنيا، ويعلو بها كعبه.

أما الآخرة، وأما العلوم التي ترسم الطريق إليها، فهي علوم الدين، لا شك في ذلك ولا ارتياب، وهي الموصلة إلى صراط اللَّه المستقيم ففيها يجب التنافس،

ومجالاتها حلبة سباق للمتفقهين، وطريق لاحب[1] للراغبين، وفي العناية بها وتقوية مناهجها وحفز همم الطلاب بالمغريات للإقبال عليها، واختيار المدرسين الأكفاء؛ للتشويق إليها بحسن العرض والتوجيه في ذلك كله غرس للروح الدينية في نفوس النشء، وصقل لجوهرهم، وتهذيب لأخلاقهم، وفيه إلى جانب ذلك أجر التعاون على البر، وفضيلة الدلالة على الخير، كما جاء في الحديث: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[2]. واللّه الموفق.



(١) كذا بالأصل.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي اللّه عنه.

من كنوز السنة

حديث قيم(١)

توطئة :

راق لي في جملة ما يروق المتطلع والمنقب عن التراث الإسلامي المجيد ما تعنى به بعض المجلات العربية ، وخاصة التي تصطبغ بالطابع الديني ، راقني ما تعنى به من تخصيص صفحات خاصة للمباحث العلمية الدينية المستقاة من القرآن أو السنة تحت عناوين جذابة تعالج مشاكل الإنسانية وتوجهها التوجيه الصالح الرشيد .

ولقد رغبت رغبة صادقة في أن تنحو مجلتنا (المنهل) هذا المنحى ، وتجول جولة في هذا المضمار ، وتستبق هذه الحلبة ؛ إذ كانت مجلة العلوم والآداب تصدر من مهبط الوحي أول بلد شع فيه نور العلم والعرفان والهداية ؛ لتكون بذلك من خير من يهدي إلى السبيل ، ولتضم إلى جانب مواضيعها العلمية والأدبية الطريفة ثروة ضخمة وكنزًا من كنوز السنة المطهرة تتنوع فيه الأغراض ، ويلتمس منه التوجيه الكريم ، والحكمة الخالدة ، والإصلاح الروحي والنفسي في أوسع النطق .

وها أنذا أبدأ هذه المحاولة ، وأسهم في هذا المشروع ، بتقديم الحديث التالي ؛ راجيًا أن أوفق إلى حد ما في بسط موضوعه ، وشرح غامضه ، وتوجيه الأنظار إليه ، وحفز الهمم ؛ لتأثره ، وانتهاج نهجه ؛ عملًا بحديث : « لأن يهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم »(٢) .

---

(١) مجلة المنهل- .

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٢) من حديث سهل بن سعد رضي اللَّه عنه .

الحديث :

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : « إن مما أخاف عليكم بعدي ما يُفْتَحُ من زهرة الدنيا وزينتها » . فقال رجل : أو يأتي الخير بالشر يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله ﷺ ، فقيل : ما شأنك ، تكلم رسول الله ولا يكلمك ؟ قال : ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق يمسح عنه الرُّحضاء ، وقال : « أين هذا السائل ؟ » وكأنه حمده فقال : « إنه لا يأتي الخير بالشر » وفي رواية . فقال : « أين السائل آنفًا ؟ أو خَيْرٌ هو » ؟ قالها ثلاثًا ، إن الخير لا يأتي إلا بالخير ، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حَبَطًا أو يُلِمُّ إلا آكلة الخضر ، فإنها أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فَثَلَطَتْ وبالت ثم رتعت ، وإن هذا المال خَضِرٌ حلو ، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شاهدًا يوم القيامة »(1) . اهـ .

المعنى اللغوي :

« زهرة الدنيا » : نضارتها وحسنها . « ما شأنك » : ما أمرك وما حالك . « ينزل عليه » بضم الياء وسكون النون : يوحى إليه . « الرُّحضاء » : العرق الكثير يغسل الجلد . « حَمِده » بفتح الحاء وكسر الميم : أثنى عليه . « آنفًا » : سابقًا ومنذ ساعة قريبة « الربيع » : من معانيه المطر . « حبطًا » بفتح الحاء والباء . الحبط : ألَمٌ ببطن البعير ، وانتفاخ من كثرة الرعي . « يُلِمُّ بضم الياء وكسر اللام : يقرب . « الخَضِر » بفتح الخاء وكسر الضاد : نوع من البقول ليس بالجيد . « ثلطت » بفتح الثاء واللام والطاء : أخرجت فضلات بطنها سهلًا لينا .

---

(1) أخرجه البخاري (١٤٦٥، ٢٨٤٢، ٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢/١٢٣).

« خاصرتاها » : مثنى خاصرة ، وهي الجنب . « رَتعت » : رَعت ما شاءت .
« خَضِر حلو » : ناضر ناعم منعش .

إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح من زهرة الدنيا وزينتها- أي إن أخوف ما يخافه رسول اللَّه ﷺ على أمته بعد لحاقه بربه ما يفتح اللَّه به عليهم من المال فيلهيهم بريقه عما خلقوا له من العبادة ، ويصدهم عما أعده اللَّه لهم من الحياة الناعمة في الآخرة ، ويكون سببًا في فصم الأواصر بينهم .

المعنى الإجمالي :

« أو يأتي الخبر بالشر؟ » : أي : أيكون من وراء هذا المال شر نتجرع غصصه؟ ورأينا أنه ينزل عليه .. لاحظ الصحابة رضوان اللَّه عليهم أن الرسول ﷺ يوحى إليه بعد سؤال السائل ، فأفاق يمسح عنه الرحضاء . أي : انتهت الحالة التي كانت تعتري الرسول ﷺ حالة نزول الوحي ، وأخذ يمسح عن نفسه العرق الذي كان يتصبب منه ؛ من جراء ما كان يعاني من شدة الوحي ، ولم يشأ رسول اللَّه ﷺ أن يجيب بشيء من عنديات نفسه ؛ إذ كان الجواب من قسم الغيب الذي استأثر اللَّه بعلمه وبعد أن أوحي إليه سأل عن السائل ، وطرح عليه الإجابة في قالب سؤال ؛ لتكون أوقع في النفس وأشد رسوخًا ، كما جاء في الرواية الثانية قائلًا :

« أوَ خَيْرٌ هو ؟ » أي : أترى هذا المال خيرًا كله لا مغمز فيه ، أو مطعن ، كما يبدو للرائي السطحي ؟ .

أما الرواية الأخرى ، فقد صرح فيها للسائل عقب الوحي قائلًا :

« إنه لا يأتي الخير بالشر » . أي : لا يصح أن يكون هذا المال ، وهذه النعمة التي تنعمون بها جالبة ومدعاة للشر ، وكأن الجواب يستدعي بيانًا أكثر وتفصيلًا أعم ؛ إذ إن الإجابة بالفقرة السابقة مقتضبة لا تقنع أو تكون باعث اطمئنان مما

اضطر رسول اللّٰه ﷺ أن يضرب المثل التالي قائلًا : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يُلمّ » . أي : أن بعض ما ينبته الربيع بتوالي أمطاره من العشب والبقول يستهوي الماشية بنضرته وطعمه ؛ فتكثر منه ، فيقتلها بالانتفاخ ، وسد المنافذ ، وتنشق أمعاؤها فتهلك ، أو تقارب درجة الخطر .

« إلا آكلة الخضر » أي : إلا الماشية التي تأكل النوع الرديء من البقول والعشب فلا تستمرئه ، وترعى منه بقدر حاجتها ؛ إذ إن هذا النوع تضطر إليه الماشية بعد أن يذوي نبت الربيع ويتصوح .

« فإنها أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت » . أي : أنها إذا رعت ذلق البقل وأحست بامتلاء معدتها ؛ تركت الرعي ، وتعرضت للشمس ، واسترخت واستسلمت للراحة ، وأخذت تجتر ما أكلته وتستمرئه حتى خرج منها فضلاته سهلًا هينًا ، وعندئذ يزول عنها خطر الامتلاء والانتفاخ بعد الهضم فانتفعت بما رعته ثم عاودت الرعي .

« ونعم صاحب المسلم هو » أي : حبذا المال يؤخذ من حله ويكون في قبضة المسلم يعينه على وجوه البر ، وإنفاقه في سبيل الخير التي وضحها بقوله : « لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل » .

ومن هذا المثل الذي ضربه رسول اللّٰه ﷺ يظهر بجلاء معنى قوله : « إنه لا يأتي الخير بالشر » . إذ هو مثل حسي أبرز به حال المفرط والمقتصد في مجالات المادة ، فمن أخذ منها بقَدْرٍ وَحيْطة فهو المقتصد ، ومن شره عليها ونهم فيها فهو المفرط ، وهو من عناه بقوله : « وإنه مَن يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه يوم القيامة » .

الشرح :

هذا الحديث هو بحق كنز من كنوز السنة ، تتفجر البلاغة من ينبوعه الثر ،

ويتجه بنا إلى إمكانيات رفيعة ، وهدف في المعاملة رصين ، ومنحًى في المثالية ، قد يعتبره الماديون غلوًا في المجان ، وتطرفًا في النافلة والعُرف ، وهو علم من أعلام النبوة ؛ إذ قد لمح من طرف خفي بما يكون في الأجيال بعد عصر النبوة من فتنة بالمال ، وتكالب عليه ، وحرص في جمعه ، واكتسابه ، ومنع حق اللَّه فيه ، وهي الحالقة ، والشر المستطير ، والوباء الفتاك الذي يعصف بالأمة ، ويذهب ريحها ، ويحدث فيها التصدع والفرقة .

ومن أجل ذلك كان المال زهرة الدنيا أخوف ما يخافه رسول اللَّه ﷺ على أمته من بعده . وقد جمع له بين وصفين يشفان عن إغراء ومتعة ، وينمان عن بهاء ورواء وجمال رونق ونضارة ، حيث قال : « وإن هذا المال خضر حلو » . ففي الخضرة معنى الإنعاش والبهاء والنضارة مما يفسر خفض العيش وناعم الحياة وكمال السعادة .. وفي مزج الخضرة بالحلاوة معنى آخر ؛ لتذوق برد الراحة والهناء ، والركون إلى هذا العيش الرخي الناعم ، ومن وراء ذلك تكون الفتنة ويتغلب حب المال وجمعه والتلذذ به والحرص عليه على كل المقدرات والقيم المعنوية فينشأ في النفوس الطمع والجشع والأنانية ، ويكون تطرف الناس على المادة ويعظم سلطانها ؛ فيكون التناكر ، والتقاطع ، والتدابر ، وقطع الأواصر ، وما إلى ذلك من النقائص والتدهور الخلقي والإفلاس الديني والأدبي بكل معانيه ، وهو مصداق قول الرسول الأكرم صلوات اللَّه وسلامه عليه ، حيث يقول : « واللَّه ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على الذين من قبلكم ؛ فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم »(١) . ومن ثم كان تساؤل رسول اللَّه ﷺ عن المال ثلاثًا قائلًا : « أو خَيْرٌ هو ؟ » . لأن ما كان هذا وضعه ، وتلك ملابساته لا يكون خيرًا بحال إلا إذا استوفى الشروط فكان

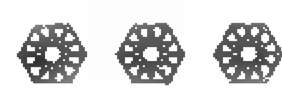
---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨) ، ومسلم (٢٩٦١) من حديث عمرو بن عوف رضي اللَّه عنه .

كسبًا حلالًا، وبعرق الجبين والكدح، لا بالطرق الملتوية، والمخادعات، والرشوة، وكان إنفاقه كما يريد اللّٰه تعالى في النفقة العادلة المشروعة دون البذخ والإسراف، وعلى الأقارب، والمعوزين، وفي جوه البر، وعندئذ يكون نعم الصاحب للمسلم، كما جاء ملحوظًا، والعاقبة به محمودة.

أما إذا انعكست الآية، فكان الكسب حرامًا أي لون من ألوان الكسب الحرام، وكيفما كانت طرقه ودوافعه وبلغ به النهم مبلغ النزق والطيش المادي، وقصر إنفاقه على المتع الرخيصة، والملذات الطائشة، والشهوات البهيمية الحقيرة. فبئس القرين، وبئس الصاحب، وبئس الجامع وما جمع، والكاسب وما كسب، وما اكتسب، إذ هو الموصوف في الحديث الشريف بأنه كالذي يأكل ولا يشبع، والذي أخبر عنه الصادق المصدوق أن ما جمعه واكتسبه يكون شاهدًا عليه ببواره وسوء حاله.

نعوذ باللّٰه من شرور النفس وسيئات الأعمال.



الإسلام دين الفطرة[١]

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرّوم: الآية ٣٠]

أومه الوجه للدين الحق، بحيث يبدو ذلك في الإعراض عن كل ما سوى اللَّه، والإقبال على اللَّه.

هذا المسلك السديد الراشد هو المسلك الذي يجب أن يتجه إليه كل حصيف، إذ هو المسلك الذي يتوافق مع الفطرة التي فطر اللَّه عليها الخليقة، كما جاء في الحديث[٢] عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه» وكما جاء في حديث قدسي: «خلقت عبادي حنفاء». أي: مائلين بفطرهم إلى الدين الحق، دين الإسلام، مقبلين على توحيد اللَّه الواحد الأحد، معرضين عن تأليه ما سواه -«فاجتالتهم الشياطين»[٣]- أي: حولتهم عن هذه الفطرة السليمة والهدي المستقيم، إلى طرائق مختلفة، واتجاهات متباينة، عكست فيهم الفطرة، وقلبت الوضع السليم، فكان هذا التحول وهذا الانعكاس، باعث إرسال الرسل للهداية إلى سبيل اللَّه الذي لا عوج فيه.

والعود بالبشرية إلى دين الفطرة الذي ارتضاه اللَّه لعباده، وفطر الناس عليه إلى الملة المستقيمة التي من رغب عنها، فقد سفه نفسه، وقد قام رسل اللَّه -صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين- بما أوجبه اللَّه عليهم من تأدية الأمانة وتبليغ الرسالة والتقويم، وكان الصراع بينهم وبين خصومهم، اتباع الشياطين وأنصار الباطل

(١) صحيفة القصيم العدد (٢٦) ٦/١٢/ ١٣٧٩.
(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي اللَّه عنه.

على أشده، لا تخمد له جذوة، ولا تخبوا له أوار، ثم كانت العاقبة الحميدة للحق وأنصاره، والرسل وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: الآية ٥١]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: الآية ٤٠] وبذلك قامت الحجة، وأثبت هذا الدين- دين الإسلام- أنه يعلو وينتصر شأن الحق دائمًا.

وأبرز ما يصور هذا الواقع -واقع انهزام الباطل، وعلو الحق، وهيمنته، والعاقبة الحميدة له -قصص الرسل، صلوات اللّٰه عليهم، مع قومهم، ففي قصة نوح - مثلًا- والصراع الطويل الذي دام بينه وبينهم، كما أخبر اللّٰه تعالى عن ذلك في كتابه، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: الآية ١٤] وكانت النهاية والغلبة والنصر عليهم، وانتقام اللّٰه لرسوله منهم، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ١٤] وفي سورة القصص يفصل اللّٰه تعالى قصة الانتقام، ويسجل نصره لنوح، ورعايته له فيقول: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١١- ١٦].

وقصة هود مع قومه، عبرة أخرى، حيث كانت الخاتمة بعد الجدل الطويل والمحاجة، وتنكب خصومه للسبيل: النصر والغلبة وتأييد اللّٰه لرسوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٩- ١٦].

وفي قصة صالح وقومه، كانت العاقبة له عليهم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: الآية ٣١].

وفي قصة موسى مع الطاغية فرعون، كانت العاقبة لموسى، ومن معه من

المؤمنين، حيث انتقم اللَّه من فرعون، فأغرقه وأتباعه على مرأى من موسى وشيعته ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: الآية ٤٠].

ثم في أخبار رسوله وحبيبه محمد ﷺ مع قومه وما كان منهم من تكذيبه ورميه بالسحر والجنون، إلى آخر ما صنعوا معه، وتجنوا به عليه، كانت الغلبة له عليهم. وهكذا وفي كل مجال يصطرع فيه الحق مع الباطل، وينازل الإسلام الكفر، تكون الغلبة للحق وأهله، والنصر للإسلام وأتباعه، وما ذاك إلا لأن الحق من شأنه أن يعلو وينتصر، وأن الإسلام قد كتب اللَّه له الخلود والظهور ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: الآية ٣٣] أي: في كل زمان، وعلى أيدي المسلمين، على اختلاف ألوانهم، وتباين جنسياتهم. فالإسلام كما هو دين العرب الذي بعث فيهم رسول الإسلام، فهو دين لكل من دان به من غيرهم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ٦٤]. ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ [الحج: الآية ٣٤].

ولا يختلف الإسلام في أصله وجوهر موضوعه، في كل دعوه يوجه به رسول إلى قومه منذ أن بعث اللَّه الرسل إلى الأمم إلى أن ختمها برسالة سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد اللَّه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] وقال رسول اللَّه ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء، أبناء علات، ديننا واحد»[١] أي: الرسل جميعًا يتحدون في الأصل، وهو عبادة اللَّه وحده، وذلك ما يوافق الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

وأصل دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه. فسر رسول الله ﷺ الإسلام في بعض الأحاديث فقال: «أن تسلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلى الله».(١) فمن أسلم قلبه وولى وجهه إلى الله تعالى، تعلق قلبه بالله، وأعرض عن كل ما سواه، فوافق الفطرة، واستقام على الملة التي يريدها الله ملة إمام الحنفاء إبراهيم وجميع رسل الله، والله الهادي إلى سواء السبيل.



(١) أخرجه أحمد ٢٢٥/٣٣٠ (٢٠٠٢٢) من حديث معاوية القشيري رضي الله عنه. وصححه الألباني في التعليقات الحسان (١٦٠).

العلم والأدب والتاريخ والاجتماع[1]

« لا تسبوا الدهر فإن اللَّه هو الدهر »

طلع علينا العدد الثاني عشر من جريدة « صوت الحجاز » الغراء، واطلعت على مقال فيه تحت عنوان « ذكرى عام ١٣٥٠ السيئة » !.

وكم كنت متألمًا عند تلاوتي ذلك المقال، وكم نالني من الاستغراب والدهشة عند مروري بتلك الألفاظ والعبارات، عبارات الشتم والسب واللعن للعام المنصرم، وألفاظ اللوم والتقريع لأيامه؛ ذلك لأني- وايم الحق- ما كنت أظن، ولم أكن أتوقع أن أحدًا من أدبائنا المثقفين وشبابنا الناهض وأبناء جلدتنا المخلصين لدينهم والمتأدبين بآدابه والناشئين في عهد الإسلام يجرؤ على الاعتراض على الخالق جل وعلا، ويتبرم بقضائه، ويسخط على قدره في بلده ومهبط وحيه، وعلى مسمع من أوليائه وخلقه.

يقول الكاتب بعد أن ذكرَ تشاؤمه بعام ١٣٥٠: وإنه عام جدير باهتمام رجال التاريخ؛ لأنه مشؤوم منحوس: « والخلاصة أيها العام! أنت لا تستحق مني سوى اللعنات، فإلى الهاوية والجحيم يذهب من كان على شاكلتك نحسًا باردًا ثقيلًا » !. هكذا.

وإني لمورد بعض ما يتيسر لي من الأحاديث وأقوال العلماء في رد قول الكاتب، ومن كان على شاكلته، ممن يتشاءمون بالأيام والسنين، ويتطيرون منها، وينوحون باللائمة عليها، ويعودون بالسباب واللعائن على الدهور والأعوام، وما الدهر والأعوام والسنون والأيام إلا ظروف لأعمال اللَّه، وهو المتصرف فيها:

(١) صحيفة صوت الحجاز في ١٣٥١/٣/٢٨هـ.

روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال: قال النبي ﷺ: «قال اللّٰه تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»[١]. انتهى. وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن اللّٰه هو الدهر»[٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه اللّٰه تعالى في تفسيره[٣]: قال الشافعي، وأبو عبيدة، وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن اللّٰه هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو اللّٰه تعالى؛ فكأنهم إنما سبوا اللّٰه عز وجل... إلخ.

وما عام الألف والثلثمائة والخمسين إلا جزءٌ من الدهر، وحلقة من حلقاته، أجرى اللّٰه فيه ما شاء على خلقه من ضروب النعم والنقم والمصائب والأكدار؛ ليبتلي المؤمنين، وينظر الشاكر نعمه والكافر بها، والصابر على أقداره والمتبرم بها، ولسوف يشهد علينا العام بما أودعناه من خير وشر، فهل يجوز للكاتب أن يقول مخاطبًا العام: إنك لا تستحق مني سوى اللعنات... إلخ؟!.

وما ذنب العام؟ وأي سيئة اجترحها ما دام اللّٰه هو العامل فيه والمدبر لأموره؟

وإني أجل الكاتب عن هذا السباب وتلك اللعائن، التي كان قدوته فيها جهلة الأعراب والمتفلسفون الدهريون، وكان من الواجب عليه وعلى كل منتسب للحنيفية، أن يستسلم للّٰه ربه، ويصبر على قضائه، ويرضى بقدره، وليعلم أنه إن رضي بما أصابه من الضيق، وما ناله من العسر، وما أدركه من الفاقة، كان ذلك

---

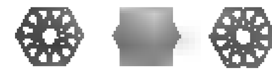
(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦، ٧٤٩١)، ومسلم (٢/٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٨١)، ومسلم (٥/٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١٥١.

أدعى لمحبة اللَّه له ورضائه عنه . فلقد ثبت في الحديث عن الصادق المصدوق ، صلوات اللَّه وسلامه عليه ، قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن اللَّه إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط »[(١)] . وقال علقمة في قوله تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: الآية ١١] قال : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند اللَّه فيرضى ويسلم[(٢)] .

وفيما ذكرته كفاية لمن شرح اللَّه صدره لسماعه ، وأرعاه قلبه وسمعه . واللَّه الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد .



(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي اللَّه عنه . وحسنه الألباني في الصحيحة (١٤٦) .

(٢) أخرجه البيهقي ٤/٦٦، وفي الشعب (٩٩٧٦) .

خرافة(١)

« لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ... »(٢)

[حديث شريف]

ليس من شك أن الخرافة كمبدأ يحتضن، وكعقيدة لا تقر المناقشة، وكقضية لا تقبل الفحص أو العرض على مجهر الحقيقة، ليس من شك أنها خطر داهم، وفشل ذريع في ميدان المبادئ، وانهيار مؤلم يثلم العزة، ويقضي على العزمات، ويجرع الغصص. والإسلام دين الفطرة أشد الأديان محاربة للخرافة، وأصلب الشرائع في مناهضة الأباطيل والأضاليل، وهو الدين الذي ختم الله به الأديان، وارتضاه لخلقه، ولا يقبل من أحد دينًا سواه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣] وتكفل الله بحفظه من عبث العابثين، وتحريف الغالين والمبطلين، وبدع المضللين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩].

ولقد قام رسول الهداية ﷺ بحكم وظيفته في البلاغ وتأدية الأمانة والرسالة على الوجه الأتم، قام بحماية جانب التوحيد، وصيانة سياجه، وسد مداخل الشرك، والبعد بالأمة عن مظانه، والترفع بها عن أوضاره؛ فصح عنه ﷺ أنه رد على من تجاوز به الحد وأسرف في الخطاب، فقال: إنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك. رد عليه ﷺ بقوله: « ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله

(١) مجلة الحج - صفر - ١٣٧٢هـ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠/ ١٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أعظم من ذلك ؛ إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه »[١].

ورد على من اتبع في خطابه سنة الملوك والعظماء ، وقال : أنت سيدنا وابن سيدنا . رد عليه بقوله : « السيد الله » . مع أنه ﷺ سيد ولد آدم بلا مراء .

وقال لمن استرسلوا في تمجيده وإطرائه وقالوا : أنت أفضلنا فضلًا ، وأعظمنا طولًا . قال : « قولوا بقولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل »[٢] .

وقال لمن أجمعوا أمرهم على الاستغاثة به من منافق كان يؤذي المؤمنين : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله »[٣] . ولقد كان في مقدوره ﷺ أن يستجيب لرغبتهم ويثأر لهم من عدوهم ؛ إذ كان قادرًا حيًّا بين أظهرهم .

وأنكر ﷺ على من ارتفع به عن درجة المخلوق ، وأشركه بالخالق في المشيئة فقال : ما شاء الله وشئت . أنكر عليه بقوله : « أجعلتني لله ندًّا ، قل ما شاء الله وحده »[٤] .

كل ذلك إمعان منه ﷺ في الحيطة، وارتفاع بالإنسانية عن مظاهر العبودية

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه . وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٦٣٩) .

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٤، وأبو داود (٤٨٠٦) ، والنسائي في الكبرى (١٠٠٧٤) من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه . وأخرجه أحمد ٣/ ١٥٣، والنسائي في الكبرى (١٠٠٧٧، ١٠٠٧٨) من حديث أنس رضي الله عنه . وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩٧، ١٥٧٢) .

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٧، والطبراني في الكبير - كما في المجمع ١٠/ ١٥٩ - واللفظ له . وقال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة ، وهو حسن الحديث . وانظر تضعيف الحديث في الدر النضيد في تخريج كتاب التوحيد (٢٩) لصالح العصيمي .

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) تعليقًا ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والاستخذاء وهيمنة المخلوق دون الخالق، والتعلق بالأوهام والخيالات الكاذبة التي ليس لها في واقع الإسلام سند ولا عميد.

وفي الحديث المصدر به المقال نفي لون من الأضاليل تشبث بها العرب في جاهليتهم ضمن ما تشبثوا به من حماقات دخلت عليهم فيما دخل، إذ غيروا وبدلوا دين إبراهيم واتخذوا البحائر، وسيبوا السوائب، وتطيروا بالسوانح والبوارح، والقعيد والقاعد، والنطيح والناطح؛ من الطيور والظباء، وغيرها من الأوهام مما لا يرتكز على خلق سليم أو يقره عقل حصيف.

وتنقلت الأجيال فيما مضى أمثال هذه الخرافة، وقلد الخلف فيها السلف دون تبصر وتعقل ودون درس أو تمحيص، فندد القرآن بصنيعهم وحمل عليهم حملة شعواء؛ لإعادتهم إلى السبيل، وعاب عليهم تقليد الآباء والتشبث بعقائد الشيوخ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٠]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٢٣] وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: الآية ٢١].

وأفسح القرآن المجال للنشاط الفكري؛ كي يحلق في أجواء واسعة من العلم والمعرفة، ليخلص بعد التفكير والتدبر والاستنتاج إلى النتيجة الحتمية من ضرورة التدين بدين صحيح سالم من الشوائب، بعيد عن الالتواء والتعقيد، يبني قواعده على أسس منطقية ثابتة واضحة لا لبس فيها ولا تضليل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَٰشًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ

رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: الآية ٣١]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: الآية ١٩]، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: الآية ٢٩]، ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: الآية ٥٤]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: الآية ٦٧]، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: الآية ٢٤]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٤].

إلى غير ذلك من الآيات الحافزة إلى اتجاه سليم ومنحى نظيف، والركون إلى مبدأ قويم ونهج واضح المعالم، يحمده الساري ويطمئن إليه المدلج، مبدأ توحيد القصد والطلب والإرادة؛ بحيث تكون هذه الأمور الثلاثة الهدف الأسمى الذي تتضافر الجهود على تحقيقها، وتنحصر الإمكانيات ضمن نطاقها. وفي معنى هذا التحقيق، بل وفي طليعة أغراض هذا التوحيد: طرد الوهم والخيالات، والبعد عن الشعوذة والأباطيل والخزعبلات، والقضاء على المنازع الفاسدة الفاشلة المناهضة لنظام الكون الدقيق في ربط الأسباب بالمسببات، والخارجة عن نواميسه العادلة.

وليست مظاهر الذل والاستخذاء والاستعباد للوهم والاستسلام للأضاليل الذي مني به العرب في جاهليتهم إلا فشل عن تحقيق الغرض الأسمى من هذا التوحيد الإرادي الطلبي الكامل.

ولنعرض الآن لبسط موضوع العدوى والتطير، وذكر نقطة الضعف التي انهزمت فيها الشجاعة العربية آنذاك:

قال المحققون: إن أحسن ما قيل في نفي العدوى هو قول البيهقي، وابن الصلاح، وابن القيم، وابن رجب، وابن مفلح، وغيرهم: أن قوله ﷺ: «لا عدوى». على الوجه الذي اعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير اللّه تعالى، وأن هذه الأمور - أي: الجذام، والطاعون، والأمراض السارية ذات الجراثيم الفتاكة- يعتقد الجاهليون أنها تعدي بطبعها.. قالوا: وإلا فقد يجعل اللّه بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سببًا لحدوث ذلك، ولهذا قال: «فر من المجذوم كما تفر من الأسد»[(١)]. وقال: «لا يورد ممرض على مصح»[(٢)]. وقال في الطاعون: «من سمع به في أرض فلا يقدم عليه»[(٣)]. وكل ذلك بتقدير اللّه تعالى.

ولأحمد، والترمذي، عن ابن مسعود مرفوعًا: «لا يعدي شيء». قالها ثلاثًا. فقال أعرابي: يا رسول اللّه، إن النقبة[(٤)] تكون بمشقر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها. فقال رسول اللّه ﷺ: «فمن أجرب الأول؟ لا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) تعليقًا من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١/١٠٤) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٧٣، ٥٧٢٨)، ومسلم (٢٢١٨) من حديث أسامة بن زيد رضي اللّه عنه.

(٤) النقبة: بضم النون وسكون القاف، أول ما يظهر من الجرب؛ سميت بذلك لأنها تنقب الجلد.

عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر، خلق اللَّه كل نفس، وكتب حياتها ومصائبها ورزقها»[١].

فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء اللَّه وقدره، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية، فكما يؤمر أن لا يلقي نفسه في النار وفي الماء، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب المرض والتلف، وأنه سبحانه خالق الأسباب ومسبباتها.

أما الطيرة- بتشديد الطاء وكسرها وفتح الباء- فهي: التشاؤم. وقد كانت العرب، كما أسلفت، تتشاءم بالطيور والغربان وغيرها، واصطلحت على أوضاع خاصة لحركات العجماوات كانت نقطة ارتكاز عملية التشاؤم ومدار نشاطه.

قال ابن القيم رحمه اللَّه عند عرضه لشرح معنى التطير: يحتمل أن يكون قوله ﷺ في الحديث: «لا طيرة». نفيًا أو نهيًا أي: لا تطيروا. ولكن قوله: «لا عدوى، ولا هامة، ولا صفر» يدل أن المراد النفي، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها. والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك، وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه[٢]. وفي صحيح مسلم[٣] عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول اللَّه ﷺ: ومنا أناس يتطيرون. قال: «ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم». فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره، ويصده لما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمته الأمر،

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٤٤٠، والترمذي (٢١٤٣). وصححه الألباني. وأصل الحديث عند البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠/١٠١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٢) مفتاح دار السعادة ٣/ ٢٨٠.

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧/١٢١).

وبين فساد الطيرة؛ ليعلموا أن اللّٰه سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه. اهـ.

وفي صحيح ابن حبان[(١)] عن أنس رضي اللّٰه عنه عن النبي ﷺ: «لا طيرة، والطيرة على من تطير».

وأورد الحافظ ابن رجب قول الصحابي عبد اللّٰه بن مسعود رضي اللّٰه عنه قال: لا تضر الطيرة إلا من تطير[(٢)]. قال ابن رجب: ومعنى هذا من تطير تطيرًا منهيًا عنه؛ وهو أن يعتمد على ما يسمعه، أو يراه، مما يتطير به حتى يمنعه مما يريد من حاجته فإنه قد يصيبه ما يكرهه، فأما من توكل على اللّٰه ووثق به؛ بحيث علق قلبه باللّٰه، وقطعه عن هذه الأسباب المخوفة، ومضى، فإنه لا يضره ذلك.

والهامة- بفتح الميم وتخفيفها- قيل: كانت العرب تعتقد أن عظام الموتى أو أرواحها تتحول طيرًا، وتقيم على قبر القتيل، تمد به، وتستحث بأخذ الثأر.

وقيل: هي البوم كانت العرب تتشاءم بها إذا وقعت على بيت أحدهم، وكأنها تنعيه لنفسه، أو تنذر بموت أحد من أهل الدار؛ فتدخل بذلك الشؤم في نفوس أهلها.

ومن المؤسف أنه لا تزال لهذه الخرافة باقية عالقة في نفوس البعض حتى الآن، فإذا ما طرق أسماعهم صوت بوم في الليل قاموا ضده بحملة هوجاء. سلاح المقاومة فيها القباقيب تصعك في بعضها بعمل عامل، فتحدث أصواتًا منكرة تؤذي السامعين.

وصفر؛ قيل في معناه: إنه حية في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب، فنفى الحديث عدواها. وقيل: المراد به شهر صفر.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦١٢٣) وحسنه محققه.

(٢) أخرجه مسدد - كما في إتحاف الخيرة المهرة (٥٤٠٦)، والمطالب العالية (٢٤٥٥).

وللنفي الوارد في الحديث معنيان :

أحدهما : ما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، فيحلون المحرم، ويحرمون صفر مكانه .

المعنى الثاني : وهو أكثر انسجامًا مع بقية العناصر المنفية في الحديث ؛ إذ فيه نفي المنحى الذي كانت الجاهلية تنحوه في شهر صفر ، حين كانوا يستثقلون ظله ، ويتوقعون الأحداث والكوارث فيه ، ويقولون : إنه شهر مشئوم ميئوس من رجاء الخير في أيامه ولياليه .

وكل ذلك أضاليل وأباطيل وأوضاع شاذة ليس لتبريرها من مسوغ ، وليس لهضمها والاقتناع برسومها من سبيل . ذلك أن اللَّه تعالى خلق الخلق ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، وما يعترضهم من متاعب ومصائب ، وما يكتنفهم من منغصات ، وما يصادفونه في حياتهم العملية من نجاح وفلاح ، أو فشل وخيبة ، وتعثر ، كل ذلك كتبه اللَّه وقدره ، والوليد لما يزل في دور التكوين لم يبرز إلى عالم الوجود ، يقول رسول اللَّه ﷺ في الحديث الصحيح عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، ويؤمر بأربع كلمات ؛ بكتب رزقه ، وأجله ، وشقي ، أو سعيد»[1] . ويقول اللَّه تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: الآية ٢٢] أي : من قبل أن نخلق المصيبة . ويقول : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النّساء: الآية ٧٩]، ويقول : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: الآية ٥٣] ، ويقول : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: الآية ٣٠] أي : من الذنوب والمعاصي ، وذلك بتقدير اللَّه سبحانه .

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢) ، ومسلم (٢٦٤٣).

وجاء في حديث ابن عباس الطويل: « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّٰه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّٰه عليك »[(١)]. وجاء أيضًا: « إن أول ما خلق اللّٰه القلم، قال له: اكتب. قال: ما أكتب. قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصحف »[(٢)].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الواضحة الدالة على بطلان مزاعم الجاهلين، وفساد مذاهبهم في التعلق بالأوهام، والجمود على معتقدات الآباء المهلهلة المرقعة، وخرافاتهم وأضاليلهم التي ما أنزل اللّٰه بها من سلطان، ولئن كان ذلك مرعيًا في غابر الأزمان وقديمها حين كان مبدأ القوم هو التقليد والجري على سنن الأسلاف، فما بالنا وقد وضح السبيل نرى نفس الأدوار تتمثل حذو النعل بالنعل، مع وجود الفارق العظيم في العصر والعقلية ولون الحياة وأساليب العيش ؟

ما بالنا يرى من البعض التقطيب والتعبيس والنظرة التشاؤمية المنحرفة تتجه نحو بعض الأيام والشهور، وبعض الأوضاع والحوادث، وبعض المخلوقات والتصرفات، كمظهر يعبر عن دحيلة[(٣)] النفس ومدى تأثرها بفعل الخرافة ومبلغ تجنيها على الواقع ؟

وهذا شهر صفر سوف تتجلى فيه النظرية السخيفة بأجلى مظاهرها حين نرى

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، والترمذي (٢٥١٦). وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٧، وأبو داود (٤٧٠٠). من حديث عبادة بن الصامت، وفيهما: أن ما أصابك لم يكن ليخطئك من كلام عبادة موقوفًا عليه. وصححه الألباني.

(٣) الدحيلة: حفرة تكون في الأرض ضيقة الأعالي واسعة الأسافل. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ١٠٥، والمعجم الوسيط: (دحل).

من ذلك البعض الإحجام عن إمضاء عقود الزواج بدعوى الفشل في هذا المشروع وبتقدير أسوأ المصير لحياة الزوجية لو تمت في غضون هذا الشهر.

وهو نظير تشاؤم الجاهليين بشهر شوال، وعدم تزويج بناتهم فيه؛ إذ كانوا يعتقدون فيه الشؤم، وسبب ذلك كما نقله بعض العلماء: أن طاعونًا وقع في إحدى السنين في شوال مات فيه كثير من العرائس، فكان ذلك مبدأ تشاؤمهم. فشهر بشهر، وتقليد بتقليد، وخرافة بخرافة، سواء بسواء.

قالت عائشة رضي الله عنها في رد شبهتهم، وإبطال نظريتهم: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نسائه كان أحظى مني؟ وكانت تستحب أن تدخل نساءها في شوال[1]. وتزوج النبي ﷺ أم سلمة في شوال[2].

وتتمثل فكرة التشاؤم أيضًا في يوم الأربعاء، والأربعاء من آخر صفر بنوع أخص؛ إذ يمتاز بمظاهر خاصة، تكاد تكون الطابع الخاص لهذا اليوم من بين أيام صفر، وتدعيمًا للفكرة، تناقلوا في الموضوع حديثًا نصه: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»[3]. قال فيه الحافظ ابن رجب[4]: إنه لا يصح، بل صح عكسه في «المسند» عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ دعا على الأحزاب يوم الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الظهر والعصر، قال جابر: فما نزل بي أمر مهم إلا توخيت ذلك الوقت فدعوت الله فيه فرأيت الإجابة[5].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٩٩١) عن عبد الملك بن الحارث، عن أبيه مرسلًا. وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٣٥٠).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٩٧)، والبيهقي ١٠/١٧٠ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وانظر التلخيص الحبير ٤/٢٠٦، والضعيفة (١٥٨١).

(٤) لطائف المعارف ص ١٠٥.

(٥) أخرجه أحمد ٣/٣٣٢. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٨٥).

وتتمثل فكرة التشاؤم أيضًا في اختلاج بعض الجوارح كالعين اليسرى، أو الجفن الأعلى منها، على الأصح، وفي طنين الأذن اليسرى، وبرؤية الأعور، وصاحب العاهة؛ كالعرج، والعمى، والشلل، وما إليه.

ويبلغ الإسفاف غايته إذ يكون التشاؤم ببعض سور القرآن وآياته؛ وذلك كتشاؤم العامة بسورة (عبس) وغيرها من آيات الوعيد كآية: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٥] كل ذلك وأضرابه سخف وضلال مبين، واتجاه معاكس لنظرية الدين والتعاليم الإسلامية، وهزيمة للتوكل واتباع غير سبيل المؤمنين.

بقي أن نعرض لأمرين هما في الصميم واللباب من حيث ارتباطهما بموضوع التشاؤم:

أولهما: الفأل، وهو الكلمة الطيبة تأتي عفوًا، يسمعها المنطلق في أمر حزبه؛ فيتفاءل بها، ويستبشر، وذلك كأن يسمع المريض من يقول: يا سالم- فيتفاءل ببرئه، أو يسمع من ينشد ضالة قائلًا. يقول: يا واجد- فيستبشر- أو نحو ذلك مما لا تحصره الأمثلة فهو لون خارج عن مسمى الطيرة ومدلولها؛ يؤيد ذلك ما رواه أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة ويعجبني الفأل». قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»[1].

قال المحققون عند شرح هذا الحديث: إنما أحب الفأل؛ لأن الناس إذا أملوا فائدة الله ورجو عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى، كان ذلك من الشر، وأما الطيرة فإنها سوء الظن بالله وتوقع البلاء. اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٦، ٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

وروى الترمذي[١] عن أنس أيضًا أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجة يحب أن يسمع : يا نجيح ، يا راشد . وخرج الإمام أحمد وأبو داود[٢] من حديث عروة بن عامر القرشي قال : ذكرت الطيرة عند رسول اللّه ﷺ فقال : « أحسنها الفأل ولا ترد مسلمًا ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فصرح ﷺ أن الفأل من قسيم الطيرة من حيث إنه يحدث في نفس السامع الاستبشار والفرح ، أو العكس إلا أن المسلم بصدق توكله وقوة إيمانه وثقته باللّه ربه، يتفاءل ولا يتطير ، ويمضي لأمره . ولو فرض أنه بحكم الطبيعة البشرية ، أو بحكم العادات الموروثة المتأصلة ، وقع في نفسه شيء من التطير صرفه بتلاوة الدعاء المذكور ؛ إذ فيه نفي تعلق القلب بغير اللّه في جلب النفع ودفع الضر ، وذلك هو التوحيد الكامل .

الأمر الثاني : ما ورد في بعض الأحاديث من التصريح بوجود الشؤم في ثلاث : المرأة ، والدار ، والدابة . وبيان ذلك وإيضاحه نقف[٣] على ما نقله العلماء من شراح الحديث ، وما استنبطوه باجتهادهم ، وسعة اطلاعهم ، وما جنحوا إليه من طرق الجمع بين الأحاديث ، ولنستمع إلى الحافظ ابن رجب[٤] يبسط البحث في الموضوع فيقول :

أما قول النبي ﷺ : « لا عدوى ، ولا طيرة ، والشؤم في ثلاث : في المرأة ،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦١٦) . وصححه الألباني .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٩) عن أحمد بن حنبل بإسناده عن عروة بن عامر ، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٦١٩) . ولم نجده في المسند ، ولم يرقم له ابن حجر في الأطراف ، وينظر المسند الجامع ١٢/ ٥٥٠.

(٣) في الأصل : « وقف » .

(٤) لطائف المعارف ص ١٠٦.

والدار، والدابة»(١). فقد اختلف الناس في معناه؛ فروي عن عائشة رضي اللّٰه عنها أنها أنكرت هذا الحديث أن يكون من كلام النبي ﷺ، وقالت: إنما قال :- تعني النبي- : كان أهل الجاهلية يقولون ذلك. خرجه الإمام أحمد(٢).
وقال معمر: سمعت من يفسر هذا الحديث يقول: شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يكن يغزى عليه في سبيل اللّٰه، وشؤم الدار جار السوء(٣).

إلى أن قال: والتحقيق أن يقال في إثبات الشؤم في هذي الثلاث ما ذكرناه في النهي عن إيراد المريض على الصحيح، والفرار من المجذوم، ومن أرض الطاعون: إن هذه الثلاث أسباب يقدر اللّٰه بها الشؤم واليمن، ويقرنه؛ ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة، أو أمة، أو دابة، أن يسأل اللّٰه تعالى من خيرها، وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ به من شرها، وشر ما جبلت عليه، وكذلك ينبغي لمن سكن دارًا أن يفعل ذلك. اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رحمه اللّٰه(٤): إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة، ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها اللّٰه سبحانه، وإنما غايته أن اللّٰه سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشئومة على من قاربها وساكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي اللّٰه سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا؛ يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولدًا مشئومًا؛ يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها فكذلك الدار والمرأة والفرس.

واللّٰه سبحانه خالق الخير والشر، والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٢)، ومسلم (٢٢٢٥).
(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٢٤٠، ٢٤٦. وانظر الصحيحة (٩٩٣).
(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٢٧).
(٤) مفتاح دار السعادة ٣/٣٤٢- ٣٤٣.

الأعيان سعودًا مباركة ، ويقضي بسعادة من قاربها ، وحصول اليمن والبركة له ، ويخلق بعضها نحوسًا يتنحس بها من قاربها ، وكل ذلك بقضائه وقدره ، كما خلق سائر الأسباب ، وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة ، كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ، ولذذ بها من قاربها من الناس ، وخلق ضدها وجعلها سببًا لألم من قاربها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس ، فكذلك الديار ، والنساء ، والخيل ، فهذا لون ، والطيرة الشركية لون . اهـ .

أما بعد ، فإن في هذا البسط لغنية لمسترشد ، وفيما تعبد اللَّه به العباد من طاعة ، وما ألزمهم به من تكاليف ، وما شرعه لهم من دين سمح واضح ، إن في ذلك لمندوحة عن الابتداع ، والتخريف ، وعافية عن التخبط والالتواء ، وسدادًا للوصول إلى الغاية والسير على صراط مستقيم .



الغلـو[(١)]

« إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو ... »[(٢)]

[حديث شريف]

لهذا الحديث قصة إن دلت على شيء فإنما تدل على مبلغ ما يهدف إليه النبي الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، من التمسك والمحافظة على المنقول من شعائر الدين وأحكامه ، وعدم إطلاق العنان للتخيل وسد باب الاستحسانات ، وفرض الفروض التي تباعد عن سماحة الدين ويسره ، وتضع الأغلال والآصار في طريق معتنقيه .

والحديث مروي في البخاري[(٣)] عن ابن عباس ؛ وهو صاحب القصة فيه ، نستمع إليه وهو يسردها فيقول :

قال رسول الله ﷺ غداة جمع : « هلمّ ، القط لي » . فلقطت له حصيات هنّ حصى الخذف ، فلما وضعتهن في يده قال : « نعم بأمثال هؤلاء فارموا ، وإياكم والغلو في الدين ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين » . وهذه رواية الإمام أحمد[(٤)] .

والغلو هو : مجاوزة الحد والتطرف في تقدير الأشياء ، والخروج بها عن الحد المعقول والمتعارف ، وإذا كان رسول الله ﷺ لم يرخص أن نغلو في تقدير

(١) مجلة الحج - جمادي الأولى ١٣٧١هـ.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢١٥، ٣٤٧، وابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٨٣) .

(٣) لم نجده عند البخاري ، وينظر تحفة الأشراف ٦/ ٢٠٩، والمسند الجامع ٦/ ٩٤.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٢١٥، ٣٤٧، وابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٨٣) .

حصيات الجمار أو نتنطع[١] في اختيارها من حيث الحجم ، وهو عمل من الأعمال خارج عن نطاق الاعتقادات ، فكيف بما هو في الصميم واللباب ، مما قامت الشرائع كلها على صيانته وحماية سياجه . وبعث اللّٰه جميع رسله لدعوة الناس إليه وتصحيحه والبعد به عن المهاوي ومزالق الأقدام- ألا وهو توحيد العبادة- توحيد القصد والطلب ، توحيد الإرادة والتعلق والنية والعمل . وهو ما تعبر عنه الآية الكريمة التالية وكثير غيرها من آي الكتاب العزيز ، تعبر أصرح تعبير وأتمه : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

هذا الاتجاه كيف يجوز لنا أن نلتوي فيه، ونعرض عن هداية القرآن ونوره الوضاء وبيانه الواضح المشرق ، ونعطف على غير نهج ، ونركن إلى ركن غير ركين، ونعتذر عن رأي غير سديد . وفي اعتقادي أنا نسير إلى غير طريق، أو ولجًا في مداخل لم ندرك مداها ، ودلجًا في غياهب لم نستهد فيها بمعالم ، ولم يكن لنا فيها سوى أن[٢] نتتبع بها خطوات من درجوا قبلنا على هدى وبصيرة وسنن قويم .

أسوق هذه المقدمة كتوطئة بين يدي موضوعي ؛ ذلك أني قرأت فيما عنَّ لي أن أقرأه منذ شهور خلت في بعض المجلات المرموقة التي تصدر بأرض الكنانة ترجمة لشخصية من الشخصيات ، قدمها لقراء المجلة أحد أساتذة اللغة العربية ، نقل فيها أبياتًا من الشعر للمترجم له ، هي الباطل ، وقد أزيح عنه قناع الرياء ، وهي الشرك الصريح ؛ الذي لا يحتمل التأويل والتضليل والشك والمواربة ، وهي القولة الطائشة ، والإثم المبين ! !

(١) في الأصل : « طنع » .
(٢) سقطت « أن » من الأصل .

وقد رأيت كشفًا للحقيقة وإزالة للشبهة ، وإنارة للرأي ، ونصحًا لدين اللَّه أن أسرد الأبيات مع تعليق المترجم، ثم أفند ما انطوت عليه من تطرف وخروج عن الحق ومجازفة في القول وغلو في المنطق، وإلى القارئ الكريم نص الأبيات :

إليكَ شكايتي من كلِّ ذنبٍ وحِصنُ حِماكَ لي حرزٌ منيع
ومن يرجوكَ يُسعَفُ بالأماني ومن قصدَ المشفَّع لا يضيع
ملأت سرادقات الكون فضلا وجاهك سيدي جاه رفيع
فمن للمذنبين سواكَ يُرجى إذا ما استعظم الهولُ الفظيع

قال المترجم : وهو شعر سهل رصينٌ تتمثل فيه روح الشاعر المؤمن ؛ يلتمس عند رسول اللَّه ﷺ أن يكون له حرزًا منيعًا وشفيعًا يغفر به كل ذنب ، وإن كان في نفسي شيء من اللفظ الأخير (الفظيع) ! ! . اهـ .

ففي البيت الأول والثاني شكوى من الذنوب إلى رسول اللَّه ﷺ ، ولياذٌ به من دون اللَّه ، ورجاء وقصد له فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه من تحقيق الأماني والظفر بالرغائب !

ومن المعلوم أن ذلك حقٌّ صُرف إلى غير أهله ، فليس لأحد أن يضرع ويجأر بالشكوى من ذنوبه إلا للَّه وحده ؛ فهو الكفيل بغفرانها ، ومحو أثرها ، إن صدقت التوبة ، وتبديلها بالحسنات ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٠] ، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٥] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣] .

وقد أمر سبحانه أن نرجع إليه وحده بتوبتنا ، ونسأله غفر ذنوبنا ، فقال : ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٤] . أما الرسول ﷺ فليس له من

الأمر شيء ، وقد كان يقرر هذه الحقيقة ، وينادي بأعلى صوته في الملأ من قومه فيهم ، ويخص ، ويقول عندما أنزل اللَّه تعالى عليه : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٤] يقول : « يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من اللَّه شيئًا ، ويا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من اللَّه شيئًا »(١) . وإنه ليجد في القيامة أناسًا من أمته يذادون عن حوضه فيعرض لهم ويقول : « أصحابي أو أمتي » . أي : فعلام يذادون عن حوضي ؟ فيقال له : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك »(٢) . أفبعد هذا يصح لأحد أن يشكو إليه ذنوبه ويرجوه في إسعافه بأماني ، ويقصده في تفريج الكروب ، ويحتمي به ، ويلجأ إليه ، ويقول : وحصن حماك لي حرز منيع- سبحانك هذا بهتان عظيم .

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٨] ، ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢] ، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: الآية ١١٠] .

وقد يقال : إن الناظم إنما يقصد أن يتخذ من الرسول وسيطًا له عند ربه، وشفيعًا يتوسل به في غفران ذنوبه .

وجوابنا عن هذه الشبهة والتلبيس : أن موضوع الشفعاء واتخاذ الوسطاء هو لون من الشرك قد أبطله القرآن وأنكره على مبتدعيه من أئمة الكفر وشيوخ الضلال

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦/ ٣٥١، ٣٥٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٢) أخرجه البخاري عقب (٦٥٨٣) ، ومسلم (٢٤٧) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، وعند البخاري تعليقًا ، ووصله الإسماعيلي وأبو عوانة وأبو نعيم - كما في تغليق التعليق ١٨٦/٥ - ١٨٨. وأخرجه البخاري (٦٥٧٦، ٦٥٨٢)، ومسلم (٢٢٩٧، ٢٣٠٤٢) من حديث ابن مسعود وأنس رضي اللَّه عنهم .

الذين شبهوا اللّٰه بخلقه في ضرورة اتخاذ الوسطاء للتأثير بهم وبلوغ المأمول بشفاعتهم ، قال اللّٰه تعالى : ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] أي : ما قصدناهم إلا ليقربونا إلى اللّٰه .

فهم بذلك أنزلوا الخالق منزلة المخلوق من حيث العجز والنقص والافتقار إلى الأعوان الذين يكملون نقصه ، ويسترون عجزه ، وهو تحت تأثير هذه العوامل مضطر إلى قبول وساطة الوسطاء والنزول على رغبة الشفعاء ، تعالى اللّٰه عن ذلك علوًا كبيرًا .

أما أن الرسول ﷺ شافع مشفع ، وله المقام الذي يحمده عليه الأولون والآخرون ، وبشفاعته يوضع الحد لمتاعب الموقف وأهواله ، فذلك ما لا ينكره مسلم ؛ إذ إنه ثابت بالنص . وليس معنى هذا أن نغلو فيه أو نرفعه إلى منزلة الخالق ونتوجه إليه بشيء من عباداتنا ، أو نجنح إلى سؤاله الشفاعة ، وهو لا يملكها إلا يوم القيامة عندما يأذن اللّٰه له أن يشفع ، وعندما يسجد تحت العرش يستأذن في الشفاعة ، ويقال له : ارفع رأسك ، وسل تعط ، واشفع تشفع .

وحسنٌ أن يسأل العبد ربه أن يشفِّعَ فيه نبيَّه ، فذلك أدعى للإجابة ، وأحرى لبلوغ الأمل ؛ إذ إن الشفاعة ملك للّٰه ، ولا تكون إلا من بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع فيه ، قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سَبَأ: الآية ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النَّجم: الآية ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤] ،

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٨] وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد والدين الخالص من الشوائب المترفع من عبث العابثين، وبدع المبتدعين وتوسلات المتوسلين بغير ما شرع اللّٰه، وبغير ما سنه رسوله.

سأل أبو هريرة رسول اللّٰه ﷺ فقال: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال لا اللّٰه إلا اللّٰه خالصًا من قلبه». وهذه رواية البخاري، والنسائي[1]. وفي رواية الإمام أحمد قال: «وشفاعتي لمن قال: لا اللّٰه إلا اللّٰه مخلصًا يصدق قلبه لسانه، ولسانه قلبه»[2]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء اللّٰه من مات لا يشرك باللّٰه شيئًا»[3].

ومن مجموع هذه الروايات نستخلص أن نقطة التركيز في موضوع الشفاعة محورها الإخلاص والتوحيد، فمن توفرا فيه فقد رضي اللّٰه عنه، وأرضى عنه، وحظي بشفاعة سيد الشفعاء صلوات اللّٰه وسلامه عليه. وأمل من الخير بعد هذا الاستطراد، الذي هو بلا شك، من أهداف موضوعنا أن نستعرض أقسامًا لشفاعة الرسول الأعظم ذكرها العلامة ابن القيم رحمه اللّٰه، وأثبتها في البحث هنا كتتمة له.

قال رحمه اللّٰه[4]: **الشفاعة ستة أنواع:**

الأول: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: «أنا لها». وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء؛

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩)، والنسائي في الكبرى (٥٨٤٢).

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٨، ١٩٩).

(٤) تهذيب سنن أبي داود ١٣/ ٥٥، ٥٦.

ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف ، وهذه شفاعة يختص بها ، لا يشركه فيها أحد .

الثاني : شفاعته لأهل الجنة في دخولها ، وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه .

الثالث : شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم ألا يدخلوها .

الرابع : شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم ، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة ، وبدَّعوا من أنكرها ، وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال .

الخامس : شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم ، وهذه مما لم ينازع فيها أحد ، وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله وليًا ولا شفيعًا ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: الآية ٥١] .

السادس : شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه ، وهذه خاصة بأبي طالب وحده .

ونعود الآن إلى البيت الثالث من المجموعة إياها ؛ فنلقي عليه نظرة فاحصة ، فإذا بنا نجده صنوًا لأبيات للبوصيري ، وعلى نهجها ، ولا يختلف عنها من حيث الهدف . وقد انبرى المحققون المرد على البوصيري ، وأوضحوا بطلان ما انطوت عليه أبياته من الشرك العظيم ، والغلو البالغ ، أقصى حدوده .

ولئن أسعفني البيان وأسلس لي البحث قياده فلست بالغًا درجة أولئكم الجهابذة الأفذاذ الذين جردوا أقلامهم للذود عن الدين ونفي شبه الجاحدين ، وتحريف الغاليين ؛ لذا أكتفي بموازنة بين أبيات البوصيري وبين البيت المنوه

عنه ، أتطرق بذكر لمح من ردود العلماء ، رحمهم اللّٰه ، تفصح عن مدى غلو الناظمين ومجازفتها في القول وتطرفها في الغلو .

يقول الناظم :

فمن للمذنبين سواك يرجى إذا ما استعظم الهول الفظيع

ويقول البوصيري :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

فكلا الناظمين يهدفان إلى غرض واحد هو اللياذ برسول اللّٰه ﷺ إذا ما ادلهم الخطب ، وكثرت الأهوال عن أنيابها يوم الجزاء والمعاد ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٨] ، ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعَارج: الآية ١٠] ، و﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عَبَسَ: الآية ٣٧] ، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: الآية ١٩] .

ولنستعرض الآن نبذا من كتاب (بيان الحجة) تدفع إلى ما نحن بصدده من الرد على البوصيري وضمنًا ؛ لنستعرض منها الرد على ناظمنا ؛ إذ إن الغرض كما أسلفت واحد والهدف محدود .

قال المؤلف : والذي نهى عنه النبي ﷺ من الإطراء طابقته الأبيات من قوله : يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك .. إلى آخرها .

فقد تضمنت غاية الإطراء والغلو الذي وقعت فيه النصارى وأمثالهم ، فإنه قصر عليه خصائص الإلهية والربوبية التي قصرها اللّٰه على نفسه ، وقصرها عليه رسوله ﷺ . وجمع في أبياته الاستغاثة والاستعانة بغير اللّٰه ، والالتجاء والرغبة إلى غير اللّٰه .

وغاية ما يقع من المستغيث والمستعين والراغب إنما هو الدعاء واللياذ

بالقلب واللسان ، وهذه هي أنواع العبادة، ذكرها الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه ...[١] لمن قصرها عليه بوعده على ذلك الإجابة والإنابة ؛ كقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: الآية ٦٥] ، وقوله : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة ، وهذا هو الدين الذي بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ ، وأمره أن يقول : ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجنّ: الآية ٢٠] فقصر الدعاء على ربه هو توحيد الألوهية .

وقوله : إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي .. مناف لقوله تعالى : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧- ١٩] ، وقوله : ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجنّ: الآية ٢١] ، وقوله : ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يُونس: الآية ٤٩] فتأمل ما بين هذا وبين قول الناظم من التضاد والتباين ، ثم المصادمة لما ذكره تعالى ولما ذكره رسوله في غير آية أو حديث ، كقوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٨] الآية . اهـ .

وقال رحمه الله في « شرح كتاب التوحيد »[٢] عند نقده لأبيات البوصيري ، وهو يستعرض نماذج للغلو : وقد اشتهر في نظم البوصيري قوله : يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به .. وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات وأعظم الاضطرار لغير الله ، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة ، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة ؛ وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٢) فتح المجيد ص ٢١٥.

وتعظيمه ، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه اللّٰه به في قالب تنقيصه .

وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه والاهتداء بهديه ، واتباع سنته ، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ، ونصرته وموالاة من عمل به ، ومعاداة من خالفه . اهـ .

وإن لهذين البيتين أشباهًا ونظائر من أقوال العلماء الأعلام ، عمدت إلى تركها ؛ رغبة في الاختصار وخشية الإطالة وكلها تتفق في المنحى والاتجاه وتشديد النكير على البوصيري ، ومن لف لفه كناظمنا وتأثره في الخلط في توحيد الإلهية ، والعدول به إلى المخلوق دون الخالق .

هذا وقد طويت كشحًا عن تعليق المترجم ، مكتفيًا بما سردته من النصوص وأقوال العلماء ؛ بيد أني لا أكتم القارئَ الكريم عجبي من أستاذ اللغة العربية يتجاهل أغراضها ومدلولاتها وينساق لعواطفه فيصوب نظرية الناظم في التعلق بالرسول واللجوء إليه ، ولم يلفت نظره ويسترعي انتباهه إلا لفظة (الفظيع) من ذيل البيت الأخير وإن طلاب المدارس الأولية بحمد اللّٰه لينكرون بداهة هذا الاتجاه إذ إنهم يعلمون ، ومن البسائط لديهم معرفة أن غفران الذنوب من حق الإله المعبود والحرز المنيع هو حرزه الذي من اعتصم به قطع الطريق ووصل إلى الغاية ورشد وهدي إلى الصراط المستقيم .

أما الرسول ﷺ فمن حقه حبه أكثر من حب النفس والمال والوالد والولد والناس جميعًا ، والصلاة عليه أجل القرب ، ومتابعته وإحياء سنته والتضحية من أجلها بالنفس والنفيس والغالي والثمين .

وحسبنا اللّٰه ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العلي العظيم ، وصلى اللّٰه على نبيه المصطفى صلاة دائمة إلى يوم الدين .

التشــاؤم[١]

يطيب الحديث في هذا الشهر- شهر صفر- عن التشاؤم ؛ تذكيرًا بالواجب ؛ واجب التناصح المفروض بين المسلمين ، وإظهارًا للحق الذي يجب أن يتبع عندما يلتبس على الناس الحق بالباطل ، وتنفيرًا من الاتجاهات الفاشلة الخطرة ، التي قد يتجه إليها البعض من الناس ؛ تقليدًا أو تصويبًا ، وأقول : الاتجاهات الفاشلة الخطرة ؛ لأن من يتجه إليها سوف يمنى بالفشل ، بل سوف يخسر أثمن شيء ، كان من الواجب المفروض أن يصونه ، ويعتز به ، سوف يخسر عقيدته حين يلتاث[٢] عليه الأمر ، فيمضي مندفعًا في تقليده ، ويوغل في الإثم لو كان هذا التقليد عن اقتناع وإصرار وتصويب .

والتشاؤم بمعناه اللغوي : ضد التيمن والتفاؤل ، تقول : تشاءم به ، واستشأم . أي : تطير . والتطير والتشاؤم بمعنى واحد .

والتشاؤم والتطير شرك ينافي كمال التوحيد . وحافزه ودوافعه وسوسة الشيطان وتخويفه لضعفاء العقول من أن يصابوا بما يكرهونه إذا صادفهم ما يتطيرون به عادة ؛ كتطير الجاهليين بالسوانح والبوارح من الظباء والطيور وغيرهما .

وقد جاء الإسلام بإبطال ذلك كله ، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع أو دفع ضر .

إن مما امتاز به دين الإسلام أنه دين الفطرة ، والفطرة صفاء في العقيدة ، ومضاء على العزيمة ، وصفاء العقيدة يقتضي أن يسلم المرء وجهه لله ، وأن يتحرر

---

(١) مجلة الحج- صفر- ١٣٧٨هـ .

(٢) يلتاث : يختلط ، يقال : لاثته بالدهن . أي : خلطته . انظر تاج العروس ٥/ ٣٤٦، والمعجم الوسيط : (لوث) .

من قيود الذل والعبودية إلا لله ، والمضاء على العزيمة يقتضي أن يثبت على مبدئه ، ويترك التذبذب ، ويمضي مقتنعًا بصحة مذهبه ، يصور ذلك بوضوح ما حكاه الله تعالى عن خليله إبراهيم حين اهتدى بفطرته إلى خالقه ، وقويت عزيمته على توحيده ، والاتجاه إليه ، وأعرض عن آلهة قومه قائلًا : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: الآية ٧٩] أي : مقبلًا على الله ، معرضًا عما سواه ، مقبلًا على الله حبًا وإجلالًا ، ورغبة وخضوعًا ، وتعظيمًا وتوكلًا ورجاءً ، ومعرضًا عما سواه بغضًا وتحقيرًا ، وعداء وبراءة ، وتلك هي البراهين على صفاء العقيدة ، والمضاء على العزيمة ، والدلائل على الإقبال على الله والإعراض عن سواه .

وكانت الأسوة به في الدين سبيل المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين ، كما قال تعالى في معرض المدح والثناء على خليله : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النّحل: الآية ١٢٠] ، إلى أن قال : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النّحل: الآية ١٢٣] .

وإن من ملة إبراهيم التي ورثها عنه الأنبياء إبطال التشاؤم في كل صوره وأشكاله ؛ لأنه كما تقدم شرك ينافي كمال التوحيد .

وقد نقم الله على آل فرعون في جملة ما نقمه عليهم ؛ أنهم كانوا إذا نزل بهم بلاء من قحط وغيره من مختلف ألوان البلاء تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: الآية ١٣١] أي : إذا جاءهم الخصب والسعة والعافية ، كما فسره مجاهد وغيره ، قالوا : نحن أهله ، والجديرون به . ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [النّساء: الآية ٧٨] أي : بلاء وقحط ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٣١] يقولون : أصابنا البلاء بشؤم موسى وأصحابه ، فرد الله عليهم هذه الفرية ، وأوضح أن ما نزل عليهم من

البلاء هو من اللّٰه بسبب كفرهم، وتكذيبهم بآيات اللّٰه ورسوله، وأبطل سبحانه نظريتهم في التشاؤم، ونسبتهم الشؤم إلى المخلوق؛ ذلك لأن المخلوق ليس له تأثير في قضاء اللّٰه النافذ وقدره المقدور.

وقد ورث الجاهليون هذا المبدأ الفاشل من أسلافهم وأشباههم في الجاهلية والكفر، فكانوا يتطيرون، كما أسلفت، بالسوانح والبوارح، والنطيح والناطح، والقعيد والقاعد.

قال المدائني: سألت رؤبة بن العجاج قلت: ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره، والذي يجيء من أمامك هو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك هو القاعد والقعيد[1].

اصطلاحات وأوضاع تعارفوا عليها؛ جريًا وراء النزعة التشاؤمية الموروثة، والتي قلد الأبناء فيها الآباء، وأضحت راسخة ثابتة لا يحيدون عنها، أو يتحولون، حتى جاء الإسلام مجددًا ما اندرس من معالم الحنيفية ملة إبراهيم، فأبطل في جملة ما أبطله من قواعد الجاهلية وعقائدها، أبطل هذه النظرة التشاؤمية، فلم يقرهم على هذا العبث، ولم يقبل منهم إلا النزوع إلى عبادة الواحد الأحد، لم يقبل منهم غير صفاء العقيدة، والمضاء على العزيمة، وأبطل إلى جانب هذه النظرة التشاؤمية جميع ما كانوا يتعلقون به من خرافة وأوهام؛ يصور ذلك قوله ﷺ عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر». أخرجه البخاري ومسلم[2]. وزاد مسلم: «ولا نوء ولا غول»[3].

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة ٣/ ٢٦٩.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠/ ١٠٢) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه وقد تقدم تخريجه قريبًا في مقال بعنوان «خرافة».

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٢٠/ ١٠٦، ١٠٧).

ولسنا في هذا المقام بصدد الحديث عن أوهام الجاهلية وأباطيلها، ولكنا بصدد التطير، فلا نخرج عنه إلى غيره، ففي هذا الحديث الشريف ينفي ﷺ ما كان يفعله الجاهليون من التطير في كل اتجاهاته، وينص على صفر؛ لأنهم كانوا يتشاءمون به، وهو من جنس تطيرهم بالسوانح والبوارح، ومثله التشاؤم بيوم الأربعاء، وكانوا يتشاءمون بشهر شوال، فلا يزوجون فيه بناتهم.

قال ابن القيم رحمه الله تعليقًا على هذا الحديث عند قوله[1]: «ولا طيرة»: يحتمل أن يكون نفيًا أو نهيًا. أي: لا تطيروا. ولكن قوله في الحديث: «لا عدوى، ولا صفر، ولا هامة». يدل على أن المراد النفي، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك، وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه.

ولقد بقي في نفوس البعض من الناس رواسب لهذه النظرة التشاؤمية، لا في الحاضر فقط، بل في الماضي أيضًا؛ نتيجة للتعود، أو بتأثير التقليد الموروث والوسط، ففي القديم نقل عن عكرمة قال: كنا جلوسًا عند ابن عباس فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير. فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر[2].

قال العلماء في إنكار ابن عباس على الرجل تشاؤمه: بادره بالإنكار؛ لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر. وبعبارة أوضح: أنكر ابن عباس على الرجل ما ترسب في نفسه من عقائد الجاهلية، وأوضح له أن هذه النظرة التشاؤمية ليست مما يقره الإسلام، فالخير والشر بيد الله، لا دخل في ذلك لصوت طائر، أو حركة سانح، أو بارح، على ما كان يعتقده الجاهليون.

ونقل عن بعض التابعين أنه خرج في سفر ومعه صاحب له فصاح غراب،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص١٠٨.

فقال الرجل: خير، فقال له التابعي: أي خير عند هذا ؟!- بتشديد الياء وضمها- ثم انسلخ عنه ولم يصحبه.

وكذلك يجب أن يصنع العلماء، فعليهم وحدهم تقع المسئولية في بقاء رواسب الجهل وشطحات الجاهلية. من واجب العلماء أن لا يكتموا علمًا يعلمونه، وخاصة فيما يتعلق بأساس الدين وتطهير المعتقد، ومن واجبهم أن ينكروا صنيع العامة فيما تجنح إليه من التقاليد الموروثة والعادات المتأصلة، وبنوع أخص فيما له صلة بالدين وصلاح العقيدة.

أما رواسب التشاؤم في الحاضر فبالإضافة إلى ما كان يتشاءم به الجاهليون كشهر صفر، ويوم الأربعاء، والغربان، والبوم، تلحظ أمورًا أخرى هي في الواقع امتداد لنظرية الجاهلين في التشاؤم، ومطابقة لما كانوا عليه من نسبة الشؤم إلى المخلوق، وتركيزه في أمور معينة؛ وذلك كالتشاؤم بصباح كريم العين، وبقدوم القادم، وباختلاج بعض أعضاء الجسم؛ كالعين اليسرى، وبالكلمة يسمعها المرء عن بعد، ولا يكون معنيًا بها، كمن يسمع من يقول: لك الخيبة- لن تنال مطلوبك- الموت يا غافل- وأمثال ذلك فيحز ذلك في نفس المتشائم.. وكأنه المعني بما سمع، ويمضي طوال يومه مهمومًا متكدرًا.

وقد عالج رسول الهدى ﷺ هذه الرواسب، وبقايا أوضار الجاهلية البائدة، بأمرين مهمين لا مندوحة عن الأخذ بهما؛ تصريفًا لنزعة التشاؤم:

الأمر الأول: عدم الالتفات لما قد يجده المرء في نفسه من رواسب التشاؤم؛ كمن يظن أنه إذا اختلجت عينه اليسرى لابد أن يصاب بمكروه، أو من يسمع بومة تصرخ على بيته؛ فيتوهم أنها تنذر بالخراب، فإذا وجد المرء ذلك في نفسه، وتحركت فيه عوامل التشاؤم، فعليه أن لا يلتفت إلى تلك الهواجس، بل عليه أن يصرفها إلى أمر ذي بال، يشغل نفسه به، أو عمل يعود عليه بالنفع..

روى مسلم في صحيحه[١] عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ: ومنا أناس يتطيرون . قال أي- رسول الله ﷺ: « ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه ، فلا يصدنكم » .

قال العلماء رحمهم الله تعليقًا على هذا الحديث : فأوضح ﷺ لأمته الأمر ، وبين فساد الطيرة . أي : التشاؤم ؛ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه ، إلى آخر ما علقوا به .

الأمر الثاني الذي عالج به رسول الهدى رواسب التشاؤم : اللجوء إلى الله ، وتذكير النفوس بأنه لا يأتي بالخير ، ولا يدفع الشر غير الله ؛ لتسكن وتطمئن إلى قضاء الله وتدبيره ، وتصرف عنها نزعة التشاؤم .. روى أبو داود[٢] بسند صحيح ، عن عروة بن عامر قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « أحسنها الفأل » . أي : الفأل الحسن ، ولا ترد مسلمًا ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت[٣] ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

قال العلماء في شرح هذا الحديث : أي : لا تأتي الطيرة بالحسنات ، ولا تدفع المكروهات ، بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات ، وتدفع السيئات ، والحسنات هنا النعم ، والسيئات المصائب .. ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع ، أو دفع ضر ، وهذا هو التوحيد . وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة ، وتصريح بأنها لا تجلب نفعًا ، ولا تدفع ضررًا .

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧/ ١٢١) وتقدم تخريجه .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٩) . وضعفه الألباني . وتقدم تخريجه .

(٣) في الأصل : « وأنت » . وهو خطأ .

وحسبي هذه الإلمامة في الموضوع كإسهام دعت إليه مناسبة شهر صفر ، وما يكون من رواسب التشاؤم بشهر صفر عند البعض من الناس ، وأرجو أن يكون فيها الكفاية ، واللَّه الموفق ، والهادي إلى سواء السبيل .



الإسلام والتطير[1]

التطير ضعف في العزيمة، ونكسة في الخلق القويم، وعجز من مجابهة الواقع، وسبيل الشعوذة والتضليل. وقد احتضنه العرب في الجاهلية كمبدأ للتحول في الميول والاتجاهات والمقاصد والرغبات ونقطة للتركيز في حياتهم العملية. وتواضع عرفهم على وضع قواعد له، ومصطلحات أشبه بضوابط في حدودها يستجلي الغامض، وضمن نطاقها يظهر المخبأ والمكنون.

فاصطلحوا على أن «السانح» من الطير والظباء وغيرهما مما يتطيرون به هو ما ولى المتطير ميامنه. «والبارح» ما ولاه مياسره، وما يأتي من الأمام هو «النطيح والناطح»، ومن الخلف هو «القعيد والقاعد»، وكان ذلك مدار تنبؤاتهم ومحور تكهناتهم.

فالمرء يزمع القيام بمشروع ما؛ كتجارة، أو زراعة، أو زواج، أو ضرب في الأرض لغرض من الأغراض، ثم لا يلبث أن تتزلزل إرادته، وينثني عزمه، ويفقد السيطرة على شجاعته وملكاته؛ لمجرد تطيره بغراب ينعق، أو بومة تهوي على داره، أو بارح أو قعيد يمر من بين يديه ومن خلفه، وعكس ذلك إذا تيمن- بما جرى عرفهم- أن يتيمنوا به، فإنه ينطلق يعالج مشروعه منشرحًا متفائلًا جازمًا بالنجاح وبلوغ المأمول.

وقد جاء الإسلام بإبطال ذلك كله؛ إذ كان معول هدم للدين والخلق، ونذير شر باستعباد الإنسانية للوهم والأضاليل، عدا الفأل الحسن، كما سيأتي بيانه.

قال اللّه تعالى في ذم آل فرعون وتطيرهم برسولهم موسى ومن معه من

(١) مجلة الحج- ٦/٤- صفر- ١٣٧٠هـ.

المؤمنين : ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣١] فطائرهم شؤمهم ، وما قضى عليهم من العذاب والابتلاء . عقوبة من عند اللّه بسبب كفرهم وتكذيبهم وعصيانهم ، ليس لموسى يد في ذلك .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر »(١) . قال جملة من شراح الحديث ما خلاصته : المراد بنفي العدوى ما كان يعتقده الجاهليون من سريان العلة بطبعها دون دخل للتقدير الإلهي ومشيئة اللّه ، ومن ذلك قوله ﷺ للأعرابي الذي سأله عن عدوى الجرب ، وأنه يظهر في بعير واحد ، ثم لا يلبث أن يصيب كل ما لامسه من الأباعر . قال ﷺ : « فمن أعدى الأول » ..الحديث(٢) .

والتطير : ما كانت تعانيه العرب من فشل المحاولة وانعكاس القصد وفل العزيمة بالمؤثر الوهمي وكابوس التشاؤم ، قال عكرمة : كنا جلوس عند ابن عباس فمر طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير ، قال له ابن عباس : لا خير ولا شر . وخرج طاوس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل : خير . فقال طاوس : وأي خير عند هذا ؟! لا تصحبني .

وحد التطير والقدر المنهي عنه ما كان على سنة المشركين وطريقتهم ، وقد أوضحه النبي ﷺ بقوله لمعاوية بن الحكم حين قال للرسول ﷺ : ومنا أناس يتطيرون . قال : « ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه ، فلا يصدنكم »(٣) . وبقوله

(١) تقدم تخريجه قريبًا .

(٢) أخرجه البخاري (٥٧١٧، ٥٧٧٠) ، ومسلم (٢٢٢٠/١٠١) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .

(٣) تقدم تخريجه قريبًا .

للفضل بن العباس رضي الله عنهما : « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك »[(١)] .

فكل ما يقع في النفس من غير أن يؤثر في عمل الإنسان أو اعتقاده فليس بتطير ، ومن ثم خرج الفأل- وهو الكلمة الحسنة يسمعها المرء فيستبشر بها ، كأن يسمع من حزبه أمر من الأمور قائلًا يقول : (يا ميسر) أو : (يا قاضي الحاجات) أو يسمع المريض من يقول : (جاءك الفرج) (أبشر) أو نحو هذا مما يفسح الأمل ويضفي على النفوس الطمأنينة ويبعث على الارتياح ، فليس ذلك من الطيرة المذمومة في شيء- نص على هذا حديث أنس رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ، ولا طيرة ، ويعجبني الفأل » . قالوا : وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الطيبة »[(٢)] . قال ابن القيم رحمه الله تعالى[(٣)] : ليس في الإعجاب بالفأل شيء من الشرك ، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة ، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها .

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه- عند أبي داود ونصه : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلمًا »[(٤)] . يقول ابن القيم أيضًا[(٥)] : أخبر النبي ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها . فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ، ولكنه خيرها ، ففصل بين الفأل والطيرة ؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع أحدهما ، ومضرة الآخر . انتهى .

وفي حديث أبي هريرة المتقدم- نفي الهامة وصفر- والهامة كان العرب

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٣، وضعفه محققو المسند .

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٦، ٥٧٧٦) ، ومسلم (٢٢٢٤) . وتقدم تخريجه .

(٣) مفتاح دار السعادة ٣/ ٣٠٦.

(٤) تقدم تخريجه من حديث عروة بن عامر ، وليس عن عقبة بن عامر ، وانظر الضعيفة (٦١٩) ، والإصابة ٧/ ١٥٤.

(٥) مفتاح دار السعادة ٣/ ٣٠٨.

تعتقد أن روح القتيل تتشكل في شكل طائر، وتقوم على قبره تستحث لأخذ الثأر. قال شاعرهم:

يا عمرو إن لم تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقيل أيضًا: هي البومة كانت العرب تتشاءم بها إذا وقعت على دار أحدهم، تزعم أنها تنعى رب الدار، أو أحد[1] من سكانها. وترسخ في أذهانهم هذا الوهم لاعتيادهم رؤية البومة تسكن مواطن الخراب؛ فجعلوها تدبر الشؤم ورسول الدمار، وهي خرافة واضحة البطلان؛ إذ إن اللّٰه سبحانه كتب الأجل منذ أن برأ النسمة، ومنذ أن كان الوليد مضغة في بطن أمه، والعلم بانقضاء الأجل مما استأثر اللّٰه به ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: الآية ٢٦]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٨] الآيات.

(وصفر): قيل: إنه داء في البطن يصيب الماشية والناس، وهو أعدى من الجرب عند العرب، وقيل: المراد شهر (صفر) والمعنى ما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسئ من إحلال المحرم وتحريم (صفر)

ولعل من أمثل ما يناسب المقام، ويتناسب مع موضوع الحديث وأغراضه في نفي التشاؤم، وبطلان التعلق بأهداب الخيال ترجيح رأي من ذهب من العلماء إلى أن المراد بصفر هو الشهر المعلوم، وقد كانت العرب تعده شهر شؤم وبلاء، تستثقل طلعته، وتخشى مفاجآت أيامه، وأحداث لياليه، كما كانت تتشاءم بيوم الأربعاء، وبالنكاح في شهر شوال، قالت عائشة رضي اللّٰه عنها: تزوجت في شوال[2]. وكانت العرب تتشاءم بالزواج فيه، ثم أثنت على زواجها خيرًا.

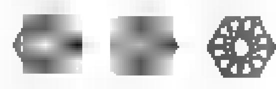
---

(١) كذا بالأصل.

(٢) تقدم تخريجه.

وإن من بواعث الأسف ومزيد الأسى أن تبقى لهذه الحماقات بقية لم تعصف بها يد الزمن، ولم تتغلب عليها الثقافات والدراسات العميقة، ولم يمحها من الأذهان تيقظ الوعي ونضج التفكير، ولا هذه التوجيهات الدينية الرائعة، فلا يزال في الناس من يتشاءم تشاؤم الجاهلية الأولى، ويتطير بالأشباح والأشكال، والنقص الخلقي، والكلمة المبتورة، أو المجهولة الغاية، وبالطيور كالغربان، والبوم، وبالأيام؛ كيوم الأربعاء، وبالشهور كشهر (صفر) وبالأرقام كرقم (١٣) محاكاة للغربيين في ذلك، وبالزواج في شهري جمادي الأولى والثانية، وبالأولاد، وبمقدم القادم، وزيارة الزائر، وغير ذلك مما لا يتفق مع روح العصر وعقلية رجل القرن العشرين، بله الدين وتعاليمه، والنصوص الواردة في تسفيه رأي المتطيرين، وإبطال حجج المضللين المأفونين.

هدانا الله جميعًا إلى سواء السبيل



همسة وعتب[1]

اطلعت في العدد الثاني لمجلة « الزيت » الصادر في ربيع الأول سنة ٧٤ على مقال ضافٍ للأديب الأستاذ شكيب الأموي تحت عنوان : (ما الذي يدعونا إلى بيتك العتيق يا الله) .

والأستاذ شكيب لا يخفى على القراء لكثرة جولاته الكتابية ، ولكثرة ما يطرقه من مواضيع شيقة وطريفة ، تملأ الكثير من صحفنا المحلية ومجلاتنا ، وبحثه هذا كالبحوث السابقة من حيث الطرافة ، ومن حيث تسجيل معلومات مفيدة على مكة وجغرافيتها وارتفاع جبالِها ، وما إلى ذلك مما يجب أن يُعرف عن مكة كبلد إسلامي ، تهوى إليه أفئدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

إلا أني لحظت في جملة ما سرده الأستاذ عن ذكريات جبل ثور ، عبارة ، شط بها القلم عن الواقع الصحيح ، ويصح أن تعتبر خشنة بالنسبة لمقام النبوة ، ولعل الأستاذ قد اندفع متأثرًا بتعبير المؤرخين العصريين الذين يتحدثون عن شخصية الرسول ﷺ كإنسان عادي ، لا أقل ولا أكثر ، ذلك أنه عندما عرض لهجرة الرسول ﷺ التي كانت الفيصل بين الحق والباطل ، وكانت سلاح المقاومة السلبي العنيف في وجه خصوم دعوته ، قال عنها بالحرف الواحد : (ولعل أشهر ما مر بتاريخ مكة هرب محمد منها ، والتجاؤه بغار ثور) .

والهمسة التي أهمسها في أذن الأستاذ ، هي أن محمدًا رسول اللّه ﷺ لا يصح أن نصمه بوصمة الهرب ، ونصوره بصورة الجبان الرعديد ؛ الذي يختلس الخطى ، ويفر من مقابله وخصمه ؛ لتسلم له روحه ، ويخلص بعد الهرب إلى الراحة من عناء المقاومة والنضال .

(١) مجلة الحج- رمضان- ١٣٧٤ هـ .

لا يا أستاذ ، إن محمدًا رسول اللَّه ﷺ رسم خطة المقاومة بوحي من ربه ، وبدأ بالتنفيذ في الليلة التي أذن اللَّه له فيها بالهجرة ؛ ليضع بها الحد من طغيان قومه ، وخرج على خصومه الذين بيتوا الفتك ، وهم وقوف بالباب ، ووضع على رأس كل واحد منهم التراب ، فأعمى اللَّه أبصارهم عنه ، وليس ذلك بصنيع الهارب .

أما كونه لبث في الغار ثلاثة أيام ؛ ليكف عنه الطلب ، فليس في ذلك مغمز ، بل هو من مكر اللَّه تعالى لرسوله ، حيث أبطل كيد الماكرين ، وحمى رسوله منهم ، ومن كيدهم ، وأخرجه على أعينهم ، وسلمه من شرهم ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] .

فأيام الغار كانت مكيدة من المكائد ، ونكاية في الخصوم ، زادت من بلبالهم واضطرابهم ، وأثبت اللَّه بها عجزهم عن بلوغ ما أرادوا من النيل بالرسول ، هي حسب تصميمهم ، ونتج عنها أيضًا البشارة للمسلمين بالنصر على أعظم دولة معاصرة للعرب ، وهي دولة الأكاسرة ، حيث بشر الرسول سراقة بن مالك ، رائد خصومه آنذاك ، بشره بسواري كسرى ، تقع في حوزته[1] ، وذلك علم من أعلام النبوة ، كان التريث بالغار نتيجة لظهوره .

أما عتبنا على الأستاذ فعلى مسألة قد سرت فيها العدوى كسابقتها لأكثرية الكُتَّاب المعاصرين ، وهي ذكر اسم الرسول ﷺ جافًا دون أن يردفوه بالصلاة والتسليم عليه ، كما هو الواجب على كل مسلم ، وكما هو مأمور به شرعًا .

وبعد ، فهذه كلمة عابرة ، دافعها النصح والتذكرة ، والخير أردت ، سدد اللَّه الخطى .

---

(١) أخرجه البيهقي (٦/٣٥٧) ، وفي دلائل النبوة (٦/٣٢٥) ، وفي معرفة السنن (٤٠١٤) .

نقد وتوضيح(١)

روى البخاري، ومسلم، والترمذي، عن ابن عمر مرفوعًا: «إن اللّه لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من قلوب العباد، ولكن يقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤسًا جهالًا، فسئِلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»(٢).

أستهل المقال بهذا الحديث العظيم لما بينه وبين موضوعي من التوافق والمطابقة، ولما يكشف عنه من خطر عظيم يهدد كيان الإسلام، وما أكثر ما تعاني المجموعة الإسلامية من أنصاف المتعلمين، وأدعياء العلم، والمتهجمين على الدين، الذين يهرفون بما لا يعرفون، ويزعمون أنهم على شيء من الهدى والحق، وهم في الواقع متطفلون، ومتقولون على اللّه ما لا يعلمون.

أقول هذا لمناسبة فتوى مهلهلة مجنحة لها الصبغة الدينية، وقفت عليها في أحد أعداد «مجلة العرفان» التي تصدر بصيدا(٣) تحت عنوان «سأل سائل»، أثبتها بنصها وفصها، وأقصها بعجرها وبجرها؛ ليعلم القارئ الكريم أنه لا يزال في الناس سطحيون وبسطاء؛ لا يعلمون من أمر دينهم النزر اليسير، الذي به قوام الدين، وصحة العقائد، وسلامة الأعمال مما يحبطها، وفي الناس أيضًا كما أسلفت أدعياء، يفتون بما لا يعلمون، ويحاولون التحليق في أجواء تعوزهم فيها الأجنحة، وينقصهم الرصيد العلمي، ويصدق عليهم الحديث الشريف:

---

(١) مجلة الحج- صفر- ١٣٧٠هـ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، والترمذي (٢٦٥٢) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما، لا من حديث ابن عمر.

(٣) صيدا مدينة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، كما ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان ٢/ ٤٦٩.

« فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

ونص الاستفتاء هو : « أن أحد أقاربي في المهجر قد نذر مبلغًا من المال للست زينب ، عليها السلام ، وقد كلفني أن أستفسر له ، هل يجوز نفقة هذا المبلغ للفقراء والمتحاجين عندنا ، أم بوضعه في مكان الست في دمشق ، أرجو الإفادة عن ذلك » .

ونص الجواب كما يلي :

إذا كان النذر لمقام الست زينب ، فيصرف في مصالحه ، كتعميره ، وضيائه ، وفراشه ، أو يعطى للمشرفين على المقام ، من رئيس الخدمة ، أو الخدمة أنفسهم ، وأما لو كان النذر للسيدة زينب فيجوز صرفه في سبيل الخير عامة ، بقصد رجوع ثوابه إليها ، من غير فرق بين صرفه على الفقراء والمساكين ، ومعونة الزائرين ، أو صرفه على بناء مسجد ، أو مستشفى ، وما يشبه ذلك من وجوه الخير والإحسان ، هذا إذا لم يقصد الناذر جهة خاصة ، فإنه لو قصدها يقتصر على تلك الجهة الخاصة المقصودة .

أقول : إن هذه الإجابة المهلهلة ، أو الفتوى الركيكة الجامحة ، حائدة عن دين اللَّه وشرعه ، بعيدة عن تعاليم الإسلام وروحه ، محادة لهدي المرسلين وأتباعهم من خيرة الخلق وصفوة الأمة ؛ ذلك لأنها لم تبن على أسس قويمة من الوحيين ، ولم ترتكز على قول الثقات من أئمة الهدى ، وحملة الدين ، بل بنيت على الهوى والتقليد الأعمى ، وروعي فيها جانب السواد من الطغام الذين قال اللَّه تعالى فيهم : ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦]، وقال : ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٣] ، وقال : ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٠٢] ، وصح الخبر عن الصادق المصدوق ، صلوات

اللّٰه وسلامه عليه : « إن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون »(١) .

وكل ذلك مما يشعر أن الخير قلة في المجموع ، وأنه لا عبرة بالسواد الأعظم بجانب هذه القلة ، إذ هم غثاء كغثاء السيل ، وإن دين اللّٰه وتشريعه ليس مصدره الحدس والتخمين، ولا الظن والتخيل والرجم بالغيب ، وإنما هو الحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة ، والآيات البينات ، والبيان الشافي ، والمنطق الرصين ؛ ذلك لأنه مُنزَّل من حكيمٍ عليم ، وتبليغ رسول أمين ، لا ينطق عن الهوى ، أو يتقول على ذي الجلال ، أو يتصرف بغير وحي وتوجيه .

والعبادات كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّٰه مبناها على الاتباع لا على الابتداع ، وكما قال الفقهاء : مبناها على التوقيف . فليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به اللّٰه ، قال اللّٰه تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: الآية ٢١] .

وفي الصحيحين(٢) عن عائشة أم المؤمنين رضي اللّٰه عنها عن النبي ﷺ قال : « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » . أي : مردود على صاحبه عليه وزره ووزر من عمل به .

والنذر لا يشك عاقل سليم التفكير أنه طاعة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له ؛ رغبة في الحصول على المرغوب ، أو دفعًا لشر مرهوب ، فإن توجه بهذه الطاعة للّٰه أو العبادة بعبارة أصرح ، كان قد عرف الحق لأهله ، ولم يتنكب السبيل ، وإن سلك الطرق الملتوية وتوجه بنذره للمخلوق ، كائنًا من كان ؛ ملكًا ، أو وليًا ، أو صالحًا من الصالحين ، أو صديقًا من الصديقين ، فقد ضل السبيل ، وكان من الهالكين .

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ، و(٢٩٤٠) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو رضي اللّٰه عنهم .

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .

ودليلنا على أن هذا اللون من التصرف عبادة ، لا مراء فيه ، قول اللّٰه تعالى مادحًا عباده المؤمنين في محكم التنزيل ؛ لمسارعتهم إلى مرضاته ، والتقرب إليه بما تعبدهم به ، وشرعه لهم ، مع الخوف من عقابه ، وأليم عذابه : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: الآية ٧] .

قال الحافظ ابن كثير ، رحمه اللّٰه ، عند تفسير هذه الآية : أي : يتعبدون اللّٰه تعالى فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر .

وقال تعالى في آية أخرى : ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٠] ، وفسر هذه الآية أيضًا الإمام ابن كثير بقوله : يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يعمله[١] العاملون من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين ابتغاء وجهه[٢] .

ولا مندوحة لنا الآن عن استعراض قسم من أقوال العلماء المحققين في الموضوع ملخص ببعض تصرف من كتاب « الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة »[٣] ومن غيره من كتب الأئمة الأعلام لنزيل الشبهة ، وندحض حجج المتخرصين والمتقولين ، ونلفت نظر القارئ الكريم إلى ضرورة التمحيص والتدقيق في أمور الدين ، وأخذ العقائد بنوع أخص عن طريق الوحيين ، والاستقاء من منهلهما الصافي النمير ، فبهما بلُّ الصدا ، وفيهما إرواء الغليل ، وشفاء العليل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللّٰه روحه[٤] : وأما النذر لغير اللّٰه كالنذر

(١) في الأصل : « يعلمه » . وفي مصدر التخريج « يفعله » . فلعل المثبت هو المناسب للسياق .
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٢، ٤/٤٥٤) .
(٣) الكلمات النافعة ص ٣٣٤.
(٤) ينظر اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣١٥، وجامع المسائل (٣/٤٠) .

للأصنام والشمس والقمر والقبور وغير ذلك فهو شرك .

وبدهي أن يكون مقام السيدة زينب ومقام غيرها مما عناه الشيخ ؛ إذ لا فرق بين قبر وقبر ، ومقام وآخر .

وقال أيضًا فيمن نذر للقبور دهنًا لتنور به ، ويقول : إنها تقبل النذر ، كما يقوله بعض المشركين : فهذا النذر معصية باتفاق المسلمين ، لا يجوز الوفاء به ، وكذلك إذا نذر مالًا للسدنة ، والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية ، وفيه شبه من النذر لسدنة الأصنام والمجاورين عندها ؛ وذلك لأن الناذر للّه وحده علق رغبته به وحده ؛ لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وتوحيد القصد هو توحيد العبادة ، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره ، طاعة للّه ، والعبادة إذا صرفت لغير اللّه صار ذلك شركًا باللّه ؛ لالتفاته إلى غيره فيما يرغب فيه ، أو يرهب منه .

وقال الرافعي في « شرح المنهاج » : وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي ، أو شيخ ، أو على اسم أحد من الأولياء ، فهذا النزر باطل لا ينعقد .

وقال الشيخ قاسم الحنفي في « شرح درر البحار » : النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد ، كأن يكون لإنسان غائب ، أو مريض ، أو له حاجة ، فيأتي إلى بعض الصلحاء ويقول : يا سيدي فلان ، إن رد اللّه غائبي ، أو قضيت حاجتي ، فلك من الذهب كذا ، أو من الطعام كذا ، فهذا باطل بالإجماع ؛ **لوجوه :**

منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ؛ لأنه عبادة ، والعبادة لا تكون لمخلوق .

ومنها : أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك شيئًا .

ومنها : أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون اللّه عز وجل ، واعتقاد

ذلك كفر .

إلى أن قال : إذا علمت هذا ، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ، وينقل إلى ضرائح الأولياء ؛ تقربًا إليهم ، فحرام بإجماع المسلمين ، نقله عنه ابن نجيم في « البحر الرائق »[1] ، ونقله المرشدي في تذكرته ، وغيرهما عنه .

وقال الشيخ صنع اللَّه الحلبي الحنفي رحمه اللَّه في « الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء » : هذا الذبح إن كان على اسم فلان « فهو لغير اللَّه تعالى ، فيكون باطلًا ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٢١] ، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٢] » والنذر لغير اللَّه إشراك مع اللَّه « كالذبح لغيره .

وحسبنا هذا العرض الوجيز لأقوال الأعلام من المحققين ، وهذه السطور المشرقة التي كشفت لنا شمس الحقيقة ، وأوضحت أهداف هذا اللون من العبادة ، وأن توجهيه لغير اللَّه شرك ، ما في ذلك شك ولا ارتياب ، وعلى ضوئها يصح لنا أن نجزم ببطلان الفتوى الآنفة الذكر ؛ إذ لا فرق بين النذر المقدم للسيدة زينب وبين سواها من مقامات الأولياء والمشاهد وقبور الصالحين والأولياء المقربين » والنذر لها ولسواها مناف لتوحيد القصد ، الذي هو توحيد العبادة ، ومناهض لمبدأ تركيز الجهود في عبادة إله واحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، ولفكرة تحرير القلوب والعقول من الاستخدام للأوهام والتملق بالخيالات وتقديس الصور والأشباح .

ثم إن تعمير المقامات الذي أباحه مفتي مجلة العرفان ، وإيقاد السرج عليها ، وفرشها ، ودفع النذور للمشرفين عليها ، وسدنتها ، كل ذلك لا ينهض عليه دليل من كتاب أو سنة أو فعل إمام راشد ، بل هو محادة للحنيفية السمحة ، ونقض

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٢/٣٢٠) .

لعرى الإسلام، وإحياء لعهود الوثنية المريرة، وإشادة بمعالم الشرك البغيض.

روى أهل السنن عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما قال: لعن رسول اللّٰه ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج[١].

قال العلامة ابن القيم رحمه اللّٰه[٢]: ومن جمع بين سنة رسول اللّٰه ﷺ في القبور، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضادًا للآخر، فنهى ﷺ عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ونهى عن تسريجها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

كأن هذا على عهد الشيخ، أما الآن فقد احتلت أربات[٣] الكهرباء محل القناديل، ونهى أن تتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا، وأمر بتسويتها، كما في صحيح مسلم[٤] عن علي رضي اللّٰه عنه، وهؤلاء يرفعونها، ويجعلون عليها القباب، ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما في صحيح مسلم[٥] عن جابر رضي اللّٰه عنه، ونهى عن الكتابة عليها، كما رواه الترمذي[٦] في صحيحه عن جابر، ونهى ألَّا يزاد عليها غير ترابها، كما رواه أبو داود[٧] عن جابر، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن، ويزيدون على ترابها بالجص والآجور والأحجار.

وقال أيضًا رحمه اللّٰه: رأيت لأبي الوفاء ابن عقيل، فصلًا حسنًا، فذكرته

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وابن ماجه (١٥٧٥)، والنسائي (٢٠٤٣)، وعند ابن ماجه مختصر. وضعفه الألباني في الإرواء (٧٦١)، والضعيفة (٢٢٥).

(٢) إغاثة اللهفان (١/١٩٥).

(٣) غير واضحة في الأصل.

(٤) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٥) أخرجه مسلم (٩٧٠).

(٦) أخرجه الترمذي (١٠٥٢) وصححه الألباني.

(٧) أخرجه أبو داود (٣٢٢٦). وصححه الألباني.

بلفظه . قال : لما صعُبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم ،إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم . مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد السرج عليها ، وتقبيلها ، وتخليقها ، وخطاب أهلها بالحوائج ، وأخذ تربتها تبركًا ، وإفاضة الطيب عليها ، وشد الرحال إليها .

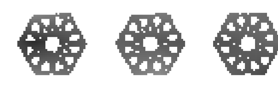
بقي أن نعرف وجهة نظر الشرع في الأموال والنذور المتجمدة ، والأوقاف المحبوسة على المقامات وأصحاب القبور كالسيدة زينب وغيرها من المشاهد ، ولنستمع مرة أخرى إلى العلامة ابن القيم فنجده قد وفَّى الموضوع حقه من البسط . عندما أفاض في غزوة رسول اللَّه ﷺ للطائف ، واستنبط منها جملة أحكام فقهية ، فقال[1] : ومنها جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى المشاهد والطواغيت في الجهاد ، ومصالح المسلمين ، كما أخذ النبي ﷺ أموال اللات وأعطاها أبا سفيان ، يتألفه بها ، وقضى منها دين عروة والأسود ، وكذلك الحكم في أوقافها ، فإن الوقف عليها باطل ، ومال ضائع ؛ ولأن الوقف لا يصح إلا في قربة ، وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام ومن اتبع سبيلهم . اهـ .

وعلى هذا الأساس فنحن نوافق مفتي العرفان على جواز صرف الأموال والنذور المجتمعة للسيدة زينب على سبيل الخير عامة من غير تفريق بين صرفها على الفقراء والمساكين ، أو صرفها على بناء مسجد أو مستشفى ، وما أشبه ذلك من وجه الخير ، ونخالفه في قصد السيدة برجوع ثواب ذلك إليها ؛ إذ إن الميت لا ينفعه إلا ما قدَّم في حياته من الأعمال ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النّجم: الآية ٣٩] ، وقال رسول اللَّه ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[2] .

(١) زاد المعاد (٣/٥٠٧) .

وأوضح العلماء رحمهم الله هذه الأغراض الثلاثة ، فمثلوا للصدقة الجارية بحفر الآبار ، وإجراء العيون ، وبناء المساجد ، والمستشفيات ، والملاجئ ، وحبس الأموال على الفقراء ، وطلاب العلم ، وما إلى ذلك مما فيه ترفيه عن الإنسانية وخدمة للصالح العام ، ومثلوا للعلم الذي ينتفع به بتخريج فريق من المتعلمين ، يقتفون أثر مشائخهم في إشاعة التعليم ، وكتأليف المصنفات النافعة التي تستهدي بها الأجيال من بعدهم ، ودعاء الولد الصالح مفهوم بالبداهة لا يحتاج إلى بيان وتطويل شرح .

نسأل الله السداد والتوفيق والهداية إلى أقوم السبيل .



(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

العواصم من القواصم[1]

« العواصم من القواصم » اسم كتاب ألفه الإمام أبو بكر ابن العربي المالكي كبير علماء المالكية في القرن السادس الهجري وهو في ...[2] متوسطي الحجم ، ولم يقع تحت يدي غير ...[2] التي أقدمها للقارئ الكريم وهي من القسم الثاني وتعنى بالدفاع عن صحابة رسول اللَّه ﷺ ، ورد فرية المفترين عليهم ، وإبطال كيد الكائدين والمغرضين .

وقبل البدء في موضوع الكتاب أبدي أسفي الشديد على المنحى الذي نحاه المؤلف تجاه صفات الرب جل وعلا ، وانتهاجه فيها نهج .....[2] المعطلة ، وهذا وإن كان ليس من موضوع ....[2] إلا أن الإلماع إليه واجب محتوم خشية ....[2] وتقديس كل آراء المؤلف حين قام بالدفاع عن الصحابة رضوان اللَّه عليهم ....[2] على جهوده بهذا الصدد هو من باب ..[2] واقع الحق ، والحكمة ضالة المؤمن ، والحق أحق أن يتبع ، فنأخذ بقوله في الدفاع عن صحابة رسول اللَّه ﷺ إذا كان حقًا لا لبس فيه ، ونرفض قوله في الصفات ، إذ قد انحرف به عن الجادة ، وكل يؤخذ من قوله ويترك .

وقد رد عليه العلامة ابن قيم الجوزية فيمن رد عليهم بكتابه « مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » .

هذا وقد زاد كتاب « العواصم من القواصم » متعة وإشراقًا تعليقات الأستاذ محب الدين الخطيب الضافية القيمة الزاخرة بالمعلومات الصحيحة ، مستقاة من أوثق المصادر ، وأشهر المراجع الإسلامية المعتمدة ؛ إذ قد كشف بها الأستاذ الخطيب عما لعله أن يكون هنالك من غموض أو حقيقة مستورة في تضاعيف

---

(١) مجلة الحج- رجب- ١٣٧٣ هـ .

(٢) كلمة غير واضحة .

عبارات المؤلف ، أو تحريف غير مقصود من الناسخ ، فقام بأكبر مجهود في هذه السبيل ، وأسدى إلى الكتاب ، بل وإلى المطالعين ، خدمة علمية عظمى تستحق الرعاية والتقدير .

وفي الحق أن هذه المجموعة التي نحن بصدد الحديث عنها من كتاب « العواصم من القواصم » قد سدت ثلمة ، كانت ولا تزال في حاجة إلى الرتق في صفحات التاريخ الإسلامي ، وأزاحت عن أبطال الإسلام ورجالاته في خير القرون تهمًا طالما ألصقها بهم أعداء الإسلام ، ممن وتروا بالإسلام ، إذ قوض معالم وثنيتهم وداس رجاله بأقدامهم كسروية كسرى وقيصرية قيصر ، فكان لهذا الصنيع رد فعل في النفوس المريضة التي لم تخالط بشاشة الإسلام قلوبها ، بل دخلت فيه حقنًا للدم ، وصيانة للمال ، ورم ما فسد من أمرهم ، ولمّ ما تفرق من شعثهم ، فكان منهم الكيد والدس على الإسلام بكل ما أوتوا من حيلة ، والنيل من أبطاله بكل ما في وسعهم من وسيلة ، وعلى حد تعبير الأستاذ الخطيب في مقدمته لهذا الكتاب : .. إن في المنسوبين إلى الإسلام من يغض حتى الخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، ويقلب جميع حسناته سيئات . وإن أحد الذين شاهدوا عدل عمر وزهده في متع الدنيا ، وإنصافه لجميع الناس لم يستطع أن يمنع الحقد الذي في فؤاده على الإسلام من أن يمُد يده إلى طعنه بالسكين ، دون أن يسيء إليه .

وفي قومِ طاعنِ عمرَ بالسكين مَن يؤلِّفون المؤلفات إلى يومنا هذا في تشويه حسنات هذا المثل الأعلى للعدل والإنسانية والخير . اهـ .

هذا وإن من الأماني العذاب التي ما برحت تحوك في النفس ويتشبث بها الخيال كحلم معسول تتراكض صوره في دنيا الأحلام ، وهي أن يهيئ الله لهذا التراث الإسلامي وتاريخ الأمة في عصورها الذهبية ، يهيئ له عدولًا يغربلونه ، ويحققون وقائعه ، ويصورون قصصه وأحداثه ، بيضاء نقية من دس الدساسين ،

وأفن المغرضين، ووضع الوُضّاعِ الحانقين، وينفون عنه تلك الروايات السخيفة الدخيلة عليه، والواقعات المفتعلة الموضوعة، لغاية خسيسة، كما وفق إلى حد كبير في هذا المضمار صاحب كتاب «العواصم من القواصم» ولعلنا نرى تحقيق هذه الأمنية على أيدي الشباب المثقف ممن لهم ولع وميول؛ خاصة نحو البحث والدرس والتحقيق.

بعد هذا نعود إلى زيادة بسط في موضوع الكتاب، أو القسم الذي نحن بصدده منه، هو الخاص بالدفاع عن صحابة رسول اللّٰه ﷺ.

قسم المؤلف أبحاث هذه المجموعة إلى أقسام، عنون لها بعنوان واحد، أو عنوانين متغايرين على الأصح هما: «عاصمة» و«قاصمة» ويعني بالعاصمة: ما تعصم من الزلل، وتمنع من الخطل. وبالقاصمة: ما تقصم الظهر، وتوقع في الهلكة.

وتحت هذين العنوانين يُسرد المؤلف الحوادث التاريخية حسب ما احتوتها كتب التاريخ، وسردتها المصادر، ويعقب بتحقيقاته، ومهاجمة الروايات الزائفة مع الإدلاء بالحجج الدامغة، وقد بلغ تعداد القواصم في هذا القسم من الكتاب ثمانية، ومثلها العواصم، ولنبدأ الآن باستعراضها واحدة واحدة؛ لنأخذ فكرة واضحة ...[1] عن مبلغ الدفاع الذي قام به المؤلف ...[2] فيه.

وبدأ القاصمة الأولى بوفاة الرسول ﷺ، وكان من اضطراب الحال، وذلك كتمهيد ..[3] أول البحث من مبدئه، ثم سرد ما كان من خوض الصحابة في قضية موته، وانقسامهم ما بين مصدق ومكذب ومتأول، وما كان من اجتماع الأنصار للمداولة في اختيار الخليفة، وما كانت تتعرض له الجماعات الإسلامية من التصدع. والفشل وذهاب ريحها. وإلى هنا انتهى موضوع القاصمة الأولى،

---

(١) كلمة غير واضحة.

عقب عليها بقوله تحت عنوان: «عاصمة»: فتدارك الله الإسلام والأنام، وانجابت الغمة إنجياب الغمام[1] بأبي بكر الصديق رضي الله عنه. أي: بخلافته- وجمع الله به الكلمة ...[2] لخطبته، وموقفه في السقيفة ولإنفاذه جيش أسامة، وموقفه تجاه مانع الزكاة، وسياسته لاختيار الأمراء، وتنصيصهم في المراكز وعلى الأجناد.

ثم ألمع بعد ذلك إلى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في عبارات موجزة فقال: "ثم استخلف عمر فظهرت بركة الإسلام، ونفذ الوعد الصادق في الخليفتين.

قال صاحب التعليق: ولقد وعد الله عز وجل في سورة النور ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [النُّور: الآية ٥٥] الآية..

وعرض لموضوع الشورى التي وضعها أبو بكر رضي الله عنه لاختيار الخليفة بعده، وما كان من أمر عبد الرحمن بن عوف في تقديم عثمان للخلافة، وقال- يعني الخليفة عثمان: "فكان عند حُسن الظن به؛ ما خالف عهدًا، ولا نكث عقدًا، ولا اقتحم مكروها، ولا خالف سنة.. ولما صحت إمامته قُتِلَ مظلومًا؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، ما نصب حربًا، ولا جيش عسكرًا- أي: للدفاع عن نفسه- ولا سعى إلى فتنة، زلا دعا إلى بيعة، ولا نازعه ولا حاربه من هو من أضرابه ولا أشكاله، ولا كان يرجوها لنفسه..

وعرض بعد ذلك لما كان من أمر الفتنة التي قامت على عثمان رضي الله عنه، والتي كان باعثها إحن ودوافع كان للشيطان منها أكبر نصيب.

---

(١) كذا بالأصل. وفي العواصم من القواصم ص ٦٠: «ونفذ وعد الله باستئثار رسول الله وإقامة دينه على التمام، وإن كان قد أصاب ما أصاب من الرزية الإسلام».

(٢) كلمة غير واضحة.

وعقب بالدفاع عن التُّهم الموجهة للخليفة المظلوم من قبل شذاذ الآفاق، وممن أكل الحقد قلوبهم عليه، وهي تُّهم تبدو لأول وهلة أنها متهافتة مغرضة، لا تثبت تحت مجهرالنقد والتمحيص؛ إذ لم ترتكز على نقل ثابت، أو سندٍ صحيح، بل إن بعضَها يُعد منقبةً من مناقب عثمان رضي اللَّه عنه، وحسنة من حسناته على الإسلام وأهله، على ما سيأتي بيانه في دفاع المؤلف عن جَمع الخليفة عثمان للقرآن الكريم.

وبدأ المؤلف مهاجمته بعد سرد التهم بقوله: هذا كله باطل سندًا ومتنًا.

وذكر صاحب التعليق قول ابن مسعود عندما ولي عثمان: لقد بايعنا خيرنا ولم نأل[١]. وذلك ما يبريء ساحة ابن مسعود من أن يكون قد اضطغن على عثمان، أو كان بينه وبينه ترة.

ونقل أيضًا في تعليقه عن شيخ الإسلام ابن تيمية مختصرًا ببعض تصرف: أن ابن مسعود رضي اللَّه عنه كان يود لو أن كتابة المصحف نيطت به، ويود لو بقي مصحفه الذي كان يكتبه لنفسه فيما مضى، وكان معدودًا من المصاحف المعروفة، فجاء عمل عثمان في جمع القرآن، وتحريق المصاحف الأخرى المغايرة للمصحف (الإمام) جاء على خلاف ما كان يود ابن مسعود في الحالتين، ولعل بعض الدساسين استغلوا هذا الظرف، فكان منهم إشاعة قالة السوء؛ لتغيير القلوب على عثمان لضربه ابن مسعود، فيما زعموا، ومنعه عطاءه.

فرد المؤلف فريتهم بقوله: وأما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه فزور.

قال المعلق بعد تفصيل القصة التي ألمعت إليها: وعلى كل حال فإن عثمان لم يضرب ابن مسعود، ولم يمنعه عطاءه، وبقي يعرف له قدره، كما بقي ابن

(١) ذكره المزي في تهذيبه (١٩/٤٥٠).

مسعود على طاعته لإمامه الذي بايع له، وهو يعتقد أنه خير المسلمين أ هـ.

قال المؤلف في دفع الفرية الأخرى، ودعوى ضرب الخليفة عثمان لعمار رضي اللّه عنه: وضربه لعمار إفك مثله، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبدًا- أي عثمان- فإنهم يزعمون أنه ضرب عمارًا حتى فتق أمعاءه، وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لا ينبغي أن نشتغل بها؛ لأنها مبنية على باطل، ولا يبنى حق على باطل أ.هـ.

والمؤلف قد اكتفى برده المنطقي على هذه الفرية، حيث قال آنفا: ولو فتق أمعاءه ما عاش أبدا. أما صاحب التعليق فيورد قصة الضرب نقلًا عن الطبري[1]، وأنه كان لغرض التأديب من أجل خلاف نشب بين عمار وعباس بن عتبة بن أبي لهب.

ثم عقب بقوله: وهذا مما يفعله ولي الأمر في مثل هذه الأحوال قبل عثمان وبعده، وكم فعل عمر مثل ذلك بما له من حق الولاية. اهـ.

قلت: ومع تسليمنا لوقوع هذا التأديب؛ فإن لعمار رضي اللّه عنه شريكًا فيه، ولم ينقل أنه فتقت أمعاؤه من الضرب، حتى نتأكد من دعوى فتق أمعاء عمار.

أما اعتذار العلماء الذي ألمع إليه المؤلف فهو على افتراض صحة رواية الضرب، وقد كذّب المؤلف القصة، فتداعت معها الاعتذارات، وعلى حد قوله: ولا يبنى حق على باطل.

ثم أجاب المؤلف عن زعم الابتداع لجمع الخليفة عثمان للقرآن الكريم، أنها حسنة عظمى، وتحقيق لوعد اللّه بحفظ القرآن على يديه، وأخذ يعرض أساس الفكرة، وأنها كانت مختمرة ومبينة منذ عهد الصديق، ولم يكتب لها التحقيق والظهور إلا على يد الخليفة عثمان رضي اللّه عنه، وهي بلا شك مأثرة ادخرها

(١) تاريخ الأمم والملوك (٢/٦٨٠).

اللَّه له ، جديرة بالثناء والحمد ، لا الجحود والنكران والقدح ودفع النكير على عثمان رضي اللَّه عنه في حمايته الحمى ، بقوله : وأما الحمى فكان قديمًا . ويقال : إن عثمان زاد فيه لما زادت الرعية . وإذا جاز أصله للحاجة إليه ، جازت الزيادة لزيادة الحاجة . اهـ .

قال صاحب التعليق : ويكون الاعتراض عليه اعتراضًا على أمر داخل في التشريع الإسلامي اهـ .

ثم أورد دفاع الخليفة عثمان نفسه عن هذه القضية على ملأ من الصحابة ، وأنه رأى الخليفة اقتصر فيه على صدقات المسلمين ، وأن من وضعهم من ...[1] في الحمى ما منعوا ولا نحوا أحدًا ، وذكر عن نفسه أنه كان قبل أن يلي الخلافة أكثر العرب بعيرًا وشاة ، ثم أمسى وليس له غير بعيرين لحجه .

ورد تهمة أبي ذر إلى الربذة، وإخراج أبي الدرداء من الشام، ردًا صريحًا قاطعًا قائلًا لأولى ما خلاصته : إن أبا ذر نفسه هو الذي طلب من عثمان أن يعتزل بالربذة عندما رأى انصراف الناس عن دعوته في عدم احتجاز شيء من الثروة بعد إخراج الزكاة منها ، وعندما وجد من يناهض فكرته هذه كابن عمر مثلًا ، حيث كان يقول : إن ما أديت فيه الزكاة فليس بكنز . ومعنى ذلك ألا عيب على المحتجزين ما زاد عن حاجتهم .

وفي التعليق زيادة بسط للموضوع ...[1] رواية استئذان أبي ذر في اعتزاله ، وفيه : أن أبا ذر صارح عثمان بوصية رسول اللَّه ﷺ له في العزلة قائلًا : إن رسول اللَّه ﷺ أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعًا .

فهو إذن حافز لأبي ذر للعزلة ، مدفوع إليه أبو ذر ؛ لتحقيق وصية رسول اللَّه ﷺ وتنفيذ أمره ، لم ير بدًّا عثمان من الإذن له ، وقد حباه قطعة من الإبل ،

(١) كلمة غير واضحة .

وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه رزقًا، وكان أبو ذر يتعاهد المدينة؛ وكل ذلك مما يقطع مزاعم من يقول بالنفي والإبعاد والاضطغان على أبي ذر رضي اللّٰه عنه.

وقال المؤلف في التهمة الثانية: إن أبا الدرداء كان قاضيًا بالشام، فأراد حمل الناس على طريقة الفاروق عمر رضي اللّٰه عنه ونهجه، ولما لم يحتملوها للفارق بين العهدين، وعدم المشاكلة بين البيئتين، عزلوه، فعاد إلى المدينة.

ثم قال في نهاية القصتين، قصة أبي ذر، وأبي الدرداء: وهذه كلها مصالح لا تقدح في الدين، ولا تؤثر في منزلة أحد من المسلمين بحال، وأبو الدرداء وأبو ذر بريئان من عاب. وعثمان بريء أعظم براءة وأكثر نزاهة. فمن روى أنه نفي، وروى سببًا فهو كله باطل.

وهاجم قضية رد عثمان للحكم[1]، وقد نفاه رسول اللّٰه ﷺ بقوله: «وما كان عثمان ليصل مهجور رسول اللّٰه ﷺ، ولو كان أباه، ولا لينقض حكمه».

وإنما كان رده على أساس أن رسول اللّٰه ﷺ أذن في رده بعد أن استشفع عثمان فيه، غير أن أبا بكر وعمر لم يمضيا هذا الإذن؛ لعدم وجود قرينة لدى عثمان يثبت بها إذن الرسول، وبقي الأمر معلقًا حتى خلافته فأجازه. فأبو بكر وعمر رضي اللّٰه عنهما مجتهدان، وعثمان رضي اللّٰه عنه محق في إجازته إذن رسول اللّٰه ﷺ، ولم يأت من الأمر إدًّا.

هذا مع التسليم بصحة رواية النفي، ولو تعمقنا في البحث ورجعنا إلى أقوال المحققين لوجدنا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّٰه قولًا جزلًا في تضعيف قصة النفي وتوهينها، نقله صاحب التعليق من كتاب «منهاج السنة» ونورده هنا في صلب المقال كتتمة للدفاع عن تصرف الخليفة عثمان في هذه القصة، التي اتخذها الخصوم غرضًا للنقد ومثارًا للفتنة.

---

(١) أي: الحكم بن أبي العاص.

قال شيخ الإسلام رحمه الله[1] : وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه- أي في نفي النبي ﷺ للحكم . وقالوا : ذهب باختياره . وقصة نفي الحكم ليست في الصحاح ، ولا لها إسناد يعرف به أمرها .

ثم قال : لم تكن الطلقاء تسكن المدينة ، فإن كان طرده ، فإنما طرده من مكة لا من المدينة ، ولو طرده من المدينة لكان يرسله إلى مكة ..

إلى أن قال : وإذا كان النبي ﷺ قد عزر رجلًا بالنفي ، لم يلزم أن يبقى منفيًا طوال الزمان ، فإن هذا لا يعرف في شيء من الذنوب ، ولم تأت الشريعة بذنب يبقي صاحبه منفيًا دائمًا .. وقد كان عثمان شفع في عبد الله بن عامر سعد بن أبي سرح فقبل ﷺ شفاعته فيه وبايعه ،فكيف لا يقبل شفاعته في الحكم؟ وقد رووا : أن عثمان سأله أن يرده ، فأذن له في ذلك ، ونحن نعلم أن ذنبه دون ذنب عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقصة عبد الله ثابتة معروفة الإسناد ، وأما قصة الحكم فإنما ذكرت مرسلة ، وقد ذكرها المؤرخون الذين يكثر الكذب فيما يروونه ، فلم يكن هناك نقل ثابت يوجب القدح فيمن هو دون عثمان . والمعلوم من فضائل عثمان ومحبة النبي ﷺ له ، وثنائه عليه ، وتخصيصه بابنتيه ، وشهادته له بالجنة ، وتقديم الصحابة له في الخلافة .... وأمثال ذلك مما يوجب العلم القطعي بأنه من كبار أولياء الله المتقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، فلا يدفع هذا بنقل لا يثبت إسناده ولا يعرف ، كيف وقع ويجعل لعثمان ذنب بأمر لا تعرف حقيقته ... إلى آخر ما قاله رحمه الله ، فقد أشفى ووفى الموضوع حقه .

وهكذا استمر مؤلف « العواصم من القواصم » في تتبع التهم ورد المفتريات على الخليفة عثمان ، ودحض الشبه بهذا اللون من الدفاع المجيد ، وهذا الأسلوب المنطقي الرائع ،حتى أتى على آخرها ، ولو تابعناه بالتحليل والملاحظة

(١) منهاج السنة النبوية ٦/٢٦٥- ٢٦٨.

والوقوف عند كل نقطة لطال بنا المقام، ولأضجرنا القارئ الكريم، وذهبنا بالكثير من وقته، ولكنا آثرنا الإيماء والإشارة بما قدمناه؛ لنأخذ فكرة عن مبلغ تجني الوضَّاعين والمغرضين، ومدى سترِهم للحقائق وإلباسهم الحق لباس الباطل، وإذا كانوا قد اجترأوا على خليفة راشد وإمام مهدي فلفقوا عليه التهم وزيفوا الأحداث والوقائع، فكيف بمن هو دونه ممن تقلدوا الزعامة الإسلامية في أي لون من ألوانها وبعد بهم العهد كثيرًا من عهد عثمان، ولا بدع إذن أن نرى صفحات التاريخ مطوية على المآسي الدامية والعظائم والعنجهيات منسوبة إلى رجالات الإسلام وفي ديار الإسلام، والواقع الصحيح يشهد لهم بالبراءة وبافتعال كل ما نسب إليهم.

وفي المقال الآتي سوف نعرض، إن شاء اللّٰه، لبقية أحداث هذا القسم من كتاب «العواصم من القواصم» مبتدئين بخلافة الإمام علي رضي اللّٰه عنه، فإلى العدد القادم إن شاء اللّٰه.



ما هكذا يا سعد ....![1]

« تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك »[2]

[حديث شريف]

ليس سعد هنا هو صاحب القصة المشهورة والمثل المعروف ، وإنما سعد المعني في هذا المقال هو على ما أعتقد رجلٌ من أصحاب الفضيلة حملة العلم ومصابيح الدجى الذين لهم بحكم وضعهم في المجتمع حق السيطرة والنفوذ الأدبي ، ولهم في كل قلب مقام مرموق ، ومنزلة لا تدانى ، وكيف لا يكون لهم هذا الحق ، وقد خصهم اللَّه تعالى بمزيد المدح والتشريف في محكم كتابه العزيز حيث يقول : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: الآية ١١] .

وقال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: الآية ٢٨] .

وقال : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُمَر: الآية ٩] .

وقال : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢] .

ونحى النبي ﷺ هذا المنحى القرآني في الإشادة وتقرير الفضل ، فقال : « إن الأنبياء لم يُورِّثوا درهمًا ولا دينارًا ، وإنما ورَّثوا العلم »[3] . وقال : « العلماء ورثة

---

(١) مجلة الحج- ربيع الثاني- ١٣٧٢ هـ .

(٢) أخرجه أحمد (١٢٦/٤) ، وابن ماجه (٤٣، ٤٤) من حديث العرباض بن سارية ، رضي اللَّه عنه . وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٧) .

(٣) أخرجه أحمد (١٩٦/٥) ، وأبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء رضي اللَّه عنه . وصححه الألباني .

الأنبياء »[١] . وناهيك بها من تركة ، وحسبك به من ميراث ، وقال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله »[٢] .

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي ترفع بأصحاب الفضيلة إلى المستوى اللائق بهم بوصفهم الوارثين الحقيقيين لميراث النبوة الخالد ، والمتصدين للهداية ، والدلالة إلى النهج الفاضل وصراط اللّٰه السوي .

غير أنه رغم هذه الميزات والفوارق التي اختص بها أصحاب الفضيلة ، ورغم ما لهم في عنق المجموع من حق الرعاية والتقدير والتبجيل .

أقول : رغم ذلك لا يجمل بنا ، وقد أسفر الصبح لذي عينين ، وغدونا في عصر النور- كما يقولون- عصر حل العقول من عقالها ، وفك إسار النفوس من قيود التقليد الأعمى ، لا يجمل بنا أن نقبل القضايا دون درس أو تمحيص ، ودون تدليل وإقناع .

وبعبارة أصرح : لا يجمل بنا أن يبلغ حسن الظن بأصحاب الفضيلة أن نرفعهم إلى درجة المشرعين في دين اللّٰه ، ولا أن نغلو في تقديسهم لدرجة عدم محاسبتهم فيما يقولون وما يفعلون ، وعدم مناقشتهم فيما يروون وما ينقلون ؛ ذلك لأنهم بشر ، قبل أي اعتبار ، يخطئون كما يخطئ البشر ، وتعتورهم علل البشرية ؛ إذ كانوا غير معصومين . ومسايرتهم في الخطأ وقبول قولهم على علاته تقديسًا لهم واحترامًا لمقامهم ، هو تقليد جاهلي موروث ، جاء الإسلام بهدمه ، وتسفيه رأي أشياعه .

(١) أخرجه أحمد (١٩٦/٥) ، وأبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء رضي اللّٰه عنه . وصححه الألباني .

(٢) أخرجه البيهقي ٢٠٩/١٠ من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري ، وأخرجه الطبراني في الشاميين (٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٨) .

دخل عدي بن حاتم على رسول اللَّه ﷺ، وعدي إذ ذاك على شركه، فقرأ عليه رسول اللَّه ﷺ قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٣١] الآية. قال عدي: إنا لم نكن نتخذهم أربابًا. فقال له رسول اللَّه ﷺ: «أليسوا يحلون لكم ما حرم اللَّه فتحلونه، ويحرمون لكم ما أحل اللَّه فتحرمونه»؟ قال: بلى. قال رسول اللَّه ﷺ: «فتلك عبادتكم إياهم»[١].

من أجل ذلك وخروجًا عن هذا التقليد الجاهلي المذموم، يجب ألَّا نسرف في التقديس، ويجب أن نتحلل من القيود، فلا نقبل قولًا بدون دليل، ولا نقر عملًا بدون تمحيص، ومصدر الأدلة: كتاب اللَّه، أو سنة سنها رسول اللَّه ﷺ، أو عمل خليفة من خلفائه الراشدين المشهود لهم بالهداية؛ لنبني عباداتنا وتديننا على أسس متينة، ودعائم ثابتة، ويقين بصحة المذهب، ولنتمشى مع روح وعقلية العصر الذي نعيش فيه. وفي كتاب اللَّه والسنة شفاء العليل، وجماع الهدى والنور، وصلاح أمر العاجلة والآجلة، قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: الآية ٨٩]. وقال رسول اللَّه ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا؛ كتاب اللَّه»[٢]. وقال: «تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[٣].

بعد هذه المقدمة التي لا بد منها كتوطئة للموضوع، أعرض لمقال نشر في

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) من حديث عدي رضي اللَّه عنه. وحسنه الألباني. وتقدم تخريجه في أوائل المقالات للشيخ رحمه اللَّه.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨/١٤٧) من حديث جابر رضي اللَّه عنه، الطويل في صفة الحج. وأخرجه الترمذي (٣٧٨٨) من حديث زيد بن أرقم رضي اللَّه عنه، بنحوه.

(٣) تقدم تخريجه في أول المقال.

مجلة (المسلمون) الصادرة في ذي الحجة سنة ١٣٧١هـ لم يشأ الكاتب أن يعلن اسمه، كما يعلن الكاتبون، ولكن البحث يدل دلالة واضحة أن كاتبه من أصحاب الفضيلة، كما أسلفت، فهم الذين لهم وحدهم الحق في طرق أمثال هذه المواضيع العلمية، ومعالجتها وقف عليهم، وهي لا تؤخذ إلا عنهم ومنهم، والمقال تحت عنوان: (كيف تحج وتزور)

عرض الكاتب بأسلوبه الجذاب البارع لموضوع زيارة البيت، وما ترمز إليه من إعداد النفس إلى رحلة كبرى، تشبه إلى حد كبير رحلة الحج، بما فيها من مفارقة الأهل والديار، ثم تطرق إلى ذكر ما يجب أن يكون عليه الحاج في بلد اللّه من التجرد عن الماديات والاشتغال ...[1] أصدق تصوير لها أنها مسلك صوفي ...[1] ليس هذا موضوع المناقشة، ومثار البحث المقصود ما بعد ذلك، حين عرض للزيارة الرسول ﷺ فأبعد النجعة وشطح شطحة بعيدة المدى عن واقع الزيارة الشرعية المأثورة، وقد حصرت نقطة الخلاف في أمرين:

أولهما: الغلو في مقام الرسول الكريم.

الثاني: تجويز المجيء إلى القبر لغرض الاستغفار.

أما الغلو فيلحظ في الفقرات التالية من المقال المشار إليه:

«فيجب أن يكون قصدنا إلى ساحته؛ كالملهوف الباكي على ما أسلف من ذنب. نعم قصد الملهوف الذي انكشف لبصيرته ...[1] مأخوذ لا محالة أخذ عزيز مقتدر ..».

«أما قدوم العاطفة الآمنة المدللة، فهو والعياذ باللّه، ضرب من الحجاب وشارة الحرمان مما يساق إلى تلك الساحة من بركات، كيف وقد سربل ... بغير شعار الذل والخوف والحاجة إلى فضل اللّه وعفوه، وهو الشعار الذي كشفت

(١) كلمة غير واضحة.

عنه الآية ، قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] كما يجيء العبد الآبق الذي ألقى السلم ، وأعطى من نفسه كل سمع وطاعة إن لم يجد فرارًا من سيده إلا إليه .» .

« ونحن أمام عهد من اللَّه أن يغفر لنا لا محالة إذا تحققنا بكل ما تأخذنا به الآية الشريفة من حق هذا المقام ، وهو عهد يرفع لإبصاره خصوصية امتاز بها مقام رسول اللَّه ﷺ ، وتفردت به حضرته الشريفة دون سائر البقاع » .

وتطرف الكاتب ، وأطلق لقلمه العنان حتى صور مذهب الحلولية ، وقرر أن اللَّه يحل بذاته في الحضرة النبوية ، فيطوي مرحلة الرجاء ، ويغفر ويتوب ، ويرحم كل من قصد القبر الشريف ؛ راغبًا في ذلك- تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا-

يقول الكاتب بالنص : « فإن المعهود أن يستغفر المرء ربه ، وهو يرجو أن يقبل استغفاره ، أما في هذا المقام فقد طوى اللَّه مرحلة الرجاء ، وحل بذاته في الحضرة المطهرة بكل ما يبغي عباده التائبون من غفران ورحمة وتوبة ، وذلك هو منطوق الآية ، وظاهر لفظها ونصها ، فلو كشف عنهم الغطاء لأبصروا ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولتحققوا عين اليقين ؛ مدلول قوله سبحانه : ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] » .

ثم سرد قصة العتبي ، وسأعرض لبسطها عند مناقشة الكاتب على النقطة الثانية ،

وقال بعد ذلك : « ولست أدري إذا لم نزر قبر الرسول لمثل هذه الأغراض الروحية السامية ، فيم تكون الزيارة ؟ إنه قبر كسائر القبور ، ولكن صاحبه ليس كسائر الموتى ، وهذا ما يوجب شد الرحال إلى ساحته المقدسة ، ولو كان ساكنه بشرًا عاديًا لأغنى عن النصب في سبيله ، وشد الرحل إليه ، أن نزور أي قبر من ملايين القبور ، كلما نشأت في نفوسنا حاجة إلى الاعتبار بذكر الموتى سائر

البقاع، كما ذكرت، فيجب أن تستشعر نفوسنا من ألوان الشعور والتأثرات، وصفاء الوجد، ورقة النجوى، ما يكفل لها حظها الموفور من الفوز بأرقى الكمالات». اهـ.

وليس من الغلو ما يحمد كيفما كان وضعه، ومهما كانت الدوافع الحافزة إليه، والظروف الحاملة عليه؛ ذلك لأنه مبدأ تحول وارتكاس في صميم العقيدة يفضي إلى الهلكة ويبعد عن الصراط المستقيم.

ولقد كان الغلو فاتحة عهد التقديس والتألية للمخلوق وتشريكه مع الخالق في خصائص الألوهية وحق الرب المعبود سبحانه، وكان أول بادرة في تغيير الأديان وتبديلها وطمس معالم الحق والهدى واستبدال الرشد بالغي والضلالة.

ذكر جملة من مفسري السلف في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: الآية ٢٣] قالوا: إن هؤلاء أسماء رجال صالحين في قوم نوح تدرج الشيطان بقومهم بعد موتهم من العكوف على قبورهم إلى تصويرهم ثم عبادتهم[(١)]. ومثل ذلك قيل في آية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ [النجم: الآية ١٩] قالوا: كان رجلًا صالحًا يلت السَّويق، فلما مات عكفوا على قبره[(٢)]. أي: لعبادته.

وكذلك إن الغلو في نبي الله عيسى وأمه؛ أصل عبادتهم وتأليههم، ولتفادي ذلك وترفعًا بالأمة الإسلامية عن مظان الشرك ومزالقه، جاءت الأدلة صارخة بإطراح الغلو ونبذه وعدم الإفراط، قال تعالى مخاطبًا أهل الكتاب، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عليه. وينظر تفسير الطبري (٦٣٩/٢٣).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٥٣٣/٢٢).

﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النِّساء: الآية ١٧١].

وعن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا: عبدُ اللّه ورسوله»[١]. وقال لمن قال له: أنت سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان، أنا محمد، عبد اللّه ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني اللّه»[٢].

فإذا كان هذا هديه ﷺ، وتلك سنته وطريقته التي رسمها لأمته في حياته فأبعدهم بها حتى عن المبالغة مما لم يعد الحقيقة فيه؛ مخافة أن تزل بهم القدم ويقعوا في المحذور، فكيف يجوز لعاقل حصيف في قلبه مثقال ذرة من المحبة والإجلال للرسول الكريم، أن يجنح إلى مخالفة سنته، وإطراح أمره، ويعرض عن هديه، ويعمد إلى اتخاذ أوضاع خاصة يلتزمها عند زيارة قبره ﷺ، فيها الكثير من مظاهر الذل والخوف والرغبة والرهبة والخشوع، وما إلى ذلك مما هو من خصائص الألوهية، ولا يصح أن يكون إلا للّه الواحد الأحد سبحانه، ذلك ما لا يقره منطق سليم، فضلًا عن أدلة النهي الصريحة في ذلك.

قال شيخ الإسلام[٣] في حديث: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو». هذا عام في جميع أنواع الاعتقادات والأعمال. يفسر هذا المنحى ما عمد إليه الصحابة رضوان اللّه عليهم من سد ذلك بتعميتهم قبر دانيال، وقد وجدوه في الفتح ...[٤] لبلاد فارس وجدوه ميتًا منذ ثلاثمائة سنة، ولم يتغير،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣، ٢٤٩) من حديث أنس رضي اللّه عنه. وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩٧، ١٥٧٢).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٠٦، ٣٨٦.

(٤) كلمة غير واضحة.

فخشوا أن يفتتن الناس به إذا تقادم ...[١] عزا لنا صح ، وبقطع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه للشجرة التي بويع رسول اللّٰه ﷺ ...[١] يأمن الغلو فيها ، وبإنكاره رضي اللّٰه عنه على من رآه يعمد إلى الصلاة في مسجد قيل : إن رسول اللّٰه ﷺ صلى فيه . فقال : إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا ؛ كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ، فمن أدرك الصلاة منكم في المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ، ولا يتعمدها[٢] .

وروى الإمام مالك في الموطأ[٣] أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد ، اشتد غضب اللّٰه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . قال المحققون : وبتحريق علي- كرم اللّٰه وجهه- لمن غلا فيه من الرافضة ، بأخاديد خدت لهم عند باب كندة ، فقذفهم فيها . واتفق الصحابة على قتلهم ، غير أن ابن عباس يذهب إلى القتل دون التحريق .

فأنت أيها القارئ الكريم فيما مر بك من أدلة .. ومن عمل خلفاء رسول اللّٰه رضوان اللّٰه عليهم وصحابته الكرام ، أنت ترى مبلغ الخوف والتحذير من الغلو وتجافيهم عنه ، وسد الذرائع دونه ؛ تفاديًا من الإنزلاق والتورط فيه ، وصحابة رسول اللّٰه ﷺ والتابعون لهم بإحسان هم القدوة ؛ إذ كانوا أعلم الأمة بأهداف الشريعة ومقاصدها وأشد الناس حبًا لرسول اللّٰه ﷺ ، وأكثرهم معرفة بمقامه ، وتمسكًا بسنته ، وغيرة على دينه ، ولم يصح عن أحد منهم أنه التزم ما حث عليه كاتبنا عند زيارة الرسول من التسربل بشعار الذل واستشعار ألوان من التأثرات على حد تعبيره ، ولو كان ذلك مشروعًا لحرصوا عليه ، ونقلوه إلينا .

---

(١) كلمة غير واضحة .

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٧٣٤) وغيره . وصححه الألباني في حجة النبي ﷺ ص ١٠٩، وتحذير الساجد ص ٨٢.

(٣) الموطأ (١٧٢/١) . وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٧٥٠) .

إذًا ليس من الخير، ولا من الرشد أن ننحو غير منحاهم، أو نسلك غير سبيلهم، أو نتجه اتجاهًا مغايرًا لما درجوا عليه، بل يسعنا ما وسعهم، قال الإمام مالك رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها[(١)] . وقد نقل عنه في زيارة الرسول ﷺ قوله: لا أرى أن يقف الزائر عند قبر النبي، ولكن يصلي ويسلم. وذكر عنه أصحابه: أن المسلم يدنو من القبر فيسلم على النبي، ثم يدعو مستقبل القبلة، وما ذاك إلا تأسيًا بفعل السلف في خير القرون؛ ولئلا يجر الوقوف والدعاء عند القبر إلى المحذور من الغلو فيه ﷺ، وسوف تأتي، إن شاء الله، زيادة بسط لموضوع الزيارة الشرعية عند مناقشة الكاتب على النقطة الثانية من مقاله، وهي تجويز قصد القبر الشريف؛ لغرض الاستغفار، فإلى العدد القادم إن شاء الله.



(١) ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٧٥، ٢٧/١١٧- ١١٨).

ما هكذا يا سعد ... ![1]

[٢]

« تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك »

[حديث شريف]

وعدت في مقالي الأسبق بزيادة بسط لموضوع زيارة مسجد الرسول ﷺ، وقبل البدء ...[2] لا مندوحة لي عن القيام بعرض موجز ..[2] عن الأحاديث في زيارة القبور عامة أخلص ...[2] تقرير الزيارة الشرعية المنصوص عليها ..[2] إلينا من فعل السلف رضوان اللّٰه عليهم أجمعين.

روى الإمام أحمد، والنسائي، عن بريدة رضي اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فمن أراد أن يزور فليزر، ولا تقولوا هجرًا »[3]. وفي رواية للإمام أحمد عن علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه، عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها؛ فإنها دار الآخرة »[4]. وفي وراية له عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها؛ فإن فيها عبرة »[5]. ولابن ماجه عن ابن مسعود رضي اللّٰه عنه، عن رسول اللّٰه ﷺ قال: « كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور؛ فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر الآخرة »[6]. وفي صحيح

(١) مجلة الحج - جمادى الأولى - ١٣٧٢هـ.

(٢) كلمة غير واضحة.

(٣) أخرجه أحمد (٥/٣٦١)، والنسائي (٢٠٣٣). وصححه الألباني. والحديث عند مسلم (٩٧٧/١٠٦) بشطره الأول.

(٤) أخرجه أحمد (١/١٤٥). وانظر السلسلة الصحيحة تحت حديث (٨٨٦).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨، ٦٣). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٤٣).

(٦) أخرجه ابن ماجه (١٥٧١). وضعفه الألباني.

مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « زوروا القبور ؛ فإنها تذكر الموت »[١] . وعن ابن عباس رضي اللَّه عنهما ، قال : مر رسول اللَّه ﷺ بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه ، وقال : « السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر اللَّه لنا ولكم [٢]أنتم سلفنا[٢] ونحن بالأثر » ، رواه الإمام أحمد ، والترمذي وحسنه[٣] .

ففي الحديث الأول ، حديث بريدة ، الترخيص في زيارة القبور ، والنهي عن قول الهجر ، وهو ما لا يجمل من الندب ، وشق الجيوب ، ولطم الخدود ، وتجديد الأحزان ، وغير ذلك .

ومن الهجر وما لا يجمل بالزائر ، بل هو مما ابتدع عند زيارة القبور : الصلاة والدعاء عندها ، على اعتبار أنها بقعة فاضلة ، تستجاب فيها الدعوات ، وتتضاعف أجور الأعمال الصالحة ، وخاصة إذا كان المقبور رجلًا صالحًا ، أو وليًا مقربًا ، أو نبيًا له عند اللَّه رفيع المنازل .

ومن الهجر أيضًا : سؤال اللَّه تعالى بالميت والتوسل به أو بجاهه .

وأعظم من ذلك كله : دعاء الميت نفسه ، والاستغاثة به في دفع كربة ، أو كشف ملمة ، فذلك أعظم الهجر وأفظعه ؛ إذ كان خروجًا عن المشروع المسنون في زيارة القبور ، بل هو صريح الشرك في العبادة ، وصرف حق الخالق للمخلوق ، والرب للمربوب ؛ ومن أجله كان النهي عن زيارة القبور في المبدأ ، ثم جاء الترخيص فيها عندما تمكن التوحيد في القلوب ، ورسخت جذوره ، وزال الخوف من الفتنة بالقبور والمقبورين .

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٨/٩٧٦) .

(٢ - ٢) سقط من الأصل . وأثبتناه من مصادر التخريج .

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٥٣) وقال : حسن غريب . وضعفه الألباني . والحديث لم أجده في مسند أحمد ، ولا في أطرافه لابن حجر . وينظر المسند الجامع (٥٣٤/٨ - ٥٣٥) .

وفي الحديث الثاني، حديث علي بن أبي طالب، ذكر علة الترخيص في زيارة القبور، وهي أنها تذكر الآخرة.

وفي حديث ابن مسعود زيادة في التعليل إلى جانب التذكير بالآخرة، التزهيد في الدنيا، وفي حديث أبي سعيد زيادة أخرى في العلة، وهي أخذ العبرة والعظة.

وفي حديث أبي هريرة زيادة غير ما ذكر في الأحاديث قبله، وهي التذكير بالموت.

وفي حديث ابن عباس الأخير زيادة إيضاح، كيفية الزيارة بتقرير فعل الرسول ﷺ، وفي أحاديث آخر، غير ما سردته، أمره ﷺ للزائر بالدعاء لأصحاب القبور، وكل الأحاديث الواردة في الزيارة تنحو هذا المنحى، وتحصر مشروعيتها في الأغراض المنوه عنها، وهي:

التذكير بالآخرة، التذكير بالموت، التزهيد في الدنيا، أخذ العبرة، الدعاء والاستغفار للمقبورين، وسؤال الله لهم العافية.

وهي أغراض تكبح جماح النفس عن الركون لطول الأمل والاغترار بالعاجلة الفانية؛ إذ كان هذا هو المصير والنهاية المحتومة التي يستوي فيها كل من دب على الغبراء، وكتب عليه الموت.

ولعل القارئ الكريم يلحظ فيما مر به من الأحاديث، أن وضع الزيارة لم يتغير، وأنه لا فرق فيها، أو تنويع بين أن تكون لمقبور عادي من الناس، أو تكون لولي، أو رجل صالح، وقريب مقرب من نبي وصديق؛ فاتحاد في المسميات واتحاد في الأغراض يوجب اتحاد المنحى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، عندما عرض لموضوع زيارة القبور، على نحو ما سردته، قال[1]: فهذا أو نحوه مما كان عليه النبي ﷺ يفعله ويأمر به أمته عند

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٢٦.

قبور المسلمين عقب الدفن، وعند زيارتهم، أو المرور بهم؛ إنما هو تحية للميت، كما يحي الحي، ويدعي له إذا صلى عليه قبل الدفن أو بعده، وفي ضمن الدعاء للميت دعاء الحي لنفسه ولسائر المسلمين وتخصيص الميت بالدعاء له. وهذا كله، وما كان مثله، من سنة رسول اللَّه ﷺ وما كان عليه السابقون الأولون هو المشروع للمسلمين في ذلك، وهو الذي كانوا يفعلونه عند قبر النبي ﷺ وغيره. اهـ.

هذه هي وجهة نظر شيخ الإسلام، رحمه اللَّه، في زيارة القبور بما فيها القبر الشريف؛ قبر رسول اللَّه ﷺ، وهي لا تخرج عن مدلولات النصوص وفعل السلف.

أما كاتبنا فله وجهة نظر خاصة في الموضوع، لم يدعمها بدليل، لا يشايعه عليها إلا من لف لفه، ونحى منحاه ...[1] وجوب التزام وضع خاص لزيارة القبر الشريف ...[1] في تقرير أغراض أخرى غير ما رسمته الأحاديث النبوية بهذا الصدد- أغراض تتجلى فيها المنازع الغامضة والشطحات الصوفية المتطرفة للتصورات الغريبة المنحرفة، وذلك مسلك شائك، وزلة قدم يربأ بنفسه عنها الحصيف.

ولقد كان يثلج صدري، وأنا أكتب هذه المناقشة، وأستعرض المراجع، أن أعثر على ما كتبه اللواء إبراهيم ...[1] أحد أمراء الحج المصري في مؤلفه «مرآة العين» تحت عنوان «آداب زيارة الرسول ﷺ». يقول بالنص الحرفي: يحسن بنا في هذا المقام أن نورد نبذة مما كتبه في مناسك الحج، شيخ الإسلام ابن تيمية عن الزيارة الشرعية والزيارة البدعية.. وطفق يسرد فصلًا ضافيًا في الموضوع، وذكر قسمًا منه، وعجبت من رجل عسكري ...[1] الحق لأهله

(١) كلمة غير واضحة.

ويتجه هذا الاتجاه، فيقرر الحقيقة صريحة دون مواربة، أو مجاملة، ودون التواء، أو تضليل.

ولنستمع الآن لشيخ الإسلام رحمه اللّٰه، وهو يحدد الزيارة الشرعية بالضبط، ويرد ضمنًا على من سلك سبيل كاتبنا في تجويز شد الرحال إلى القبر، مدعمًا ذلك بدليل، ويفرق في وضع الزائر إذا وقف للسلام على الرسول ﷺ، أو وقف للدعاء، فيذكر رأي الأئمة في جواز استقبال الحجرة في الأولى، واستدبارها، أو جعلها عن يسار الزائر، واستقبال القبلة حالة الدعاء، قال رحمه اللّٰه[١]: وإذا دخل[٢] المدينة قبل الحج أو بعده، فإنه يأتي مسجد النبي ﷺ ويصلي فيه، والصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، ولا تشد الرحال إلا إليه، وإلى المسجد الأقصى، هكذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة[٣]، وأبي سعيد[٤] وهو مروي من طرق أخر.

ثم يسلم على النبي ﷺ، وصاحبيه، فإنه قال: «ما من رجل يسلم عليّ إلا رد اللّٰه عليّ روحي حتى أرد عليه السلام» رواه أبو داود وغيره[٥]- وكان عبد اللّٰه بن عمر يقول إذا دخل المسجد: السلام عليك يا رسول اللّٰه، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبت. ثم ينصرف.

وهكذا كان الصحابة يسلمون عليه، ويسلمون عليه مستقبلي الحجرة، مستدبري القبلة، عند أكثر العلماء؛ كمالك والشافعي وأحمد. وأبو حنيفة قال: يستقبل القبلة. ومن أصحابه من قال: يستدبر الحجرة. ومنهم من قال: يجعلها

(١) مجموع الفتاوى (١٤٥/٢٦) وما بعدها.

(٢) في الأصل: «أدخل».

(٣) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (١١٩٧)، ومسلم (٩٧٥/٢) (٤١٥/٨٢٧).

(٥) أخرجه أبو داود (٢٠٤١). وهو في مسند أحمد (٥٢٧/٢) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه. وانظر الصحيحة (٢٢٦٦).

عن يساره. واتفقوا على أنه لا يستلم الحجرة، ولا يقبلها، ولا يطوف بها، ولا يصلي إليها، وإذا قال في سلامه: السلام عليك يا رسول الله- يا نبي الله- يا خيرة الله من خلقه- يا أكرم الخلق على ربه- يا إمام المتقين، فهذا كله من صفاته، بأبي هو وأمي، ﷺ، وكذلك إذا صلى عليه مع السلام، فهذا مما أمر الله به، ولا يدعو هناك مستقبل الحجرة؛ فإن هذا كله منهي عنه باتفاق الأئمة، ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك، ولا يقف عند القبر للدعاء لنفسه، فإن هذا بدعة، لم يكن يفعلها الصحابة، إنما كانوا يستقبلون القبلة، ويدعون في مسجده. اهـ.

وأريد بعد هذا الإسهاب في موضوع الزيارة أن أقول كلمة ختامية هي جماع الأمر وقاعدته: ذلك أن زيارة القبور عامة، وزيارة قبر رسول الله ﷺ بنوع أخص، هي من الأمور التوقيفية التي لا معدى لنا عن الاتباع فيها، شأننا في كل أمر مشروع، ليس للاستحسانات والظنون والتخرصات فيه مدخل، وقد حصر الله تعالى محبته في مدى الاتباع لرسوله، حيث يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] وبين سبحانه في آية أخرى ماهية هذا الاتباع وحده، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحَشر: الآية ٧].

وقد كان من أمره ﷺ لأمته زيارة القبور للأغراض السالفة، ومن نهيه لها قول الهجر، وهو ما لا يجمل من القول والفعل عند الزيارة، واتخاذ رسوم مخصوصة عند زيارة قبره تخرجها عن الحد المشروع.

فعلى الكيس الحصيف أن يستبرئ لدينه، وأن يتجنب مواطن الزلل باتباع الوارد المأثور، وإطراح المنهي عنه والمحظور؛ طاعة لله ربه، وامتثالاً لأمر رسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٩].

ننتقل الآن إلى مناقشة الكاتب في النقطة الثانية من مقاله وهي : قصد القبر الشريف لغرض طلب المغفرة عنده ، واستدلاله على جواز ذلك بآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] ، وبقصة منامية للعتبي نقلها عن أحد الأعراب .

ولنبدأ بتفسير الآية المذكورة ، وذكر سبب نزولها ، إذ إن ذلك مما يعين على فهم الغرض منها ، وبيان ما سيقت إليه ، وهي مرتبطة بالآيات قبلها في حادثة خاصة ، وقصة أوردها المفسرون في سبب النزول ، وفصل الآية عن سابقاتها يبعد عن فهم الغرض ؛ ومبدأ القصة قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّساء: الآية ٦٠] الآيات .

ذكر المفسرون(١) نقلًا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة ، فقال اليهودي : ننطلق إلى محمد . أي : يتحاكمان إليه . وقال المنافق : بل ننطلق إلى كعب بن الأشرف ، وهو الذي سماه الله الطاغوت ، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ ، فقضى رسول الله ﷺ لليهودي .

فلما خرجا من عنده لزمه المنافق ، وقال : انطلق بنا إلى عمر ، فأتيا عمر ، فقال اليهودي : اختصمت أنا وهذا إلى محمد ، فقضى لي عليه ، فلم يرض بقضائه ، وزعم أنه مخاصمي إليك . فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ فقال : نعم . فقال لهما عمر : رويدًا ، حتى أخرج إليكما . فدخل عمر البيت وأخذ السيف ، واشتمل عليه ، ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد . وقال هكذا يقضى بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله . فنزلت هذه الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

(١) ينظر تفسير الطبري (٥١١/٨) ، وتفسير البغوي (٢٤٢/٢) .

﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النِّساء: الآية ٦٠] إلى نهاية القصة.

ويذكر المفسرون[1] أيضًا قصة أخرى في سبب النزول مماثلة لهذه القصة، تدور حول تخاصم فريق من مسلمي اليهود، وفريق من منافقيهم في التحاكم إلى رسول اللَّه، أو التحاكم إلى أحد طواغيتهم، ثم انطلق المنافقون منهم إلى أبي بردة الكاهن، وتركوا رسول اللَّه ﷺ، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النِّساء: الآية ٦٠] أي: من الهدى والنبوة ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ٦٠] أي: يريدون التحاكم إلى كعب بن الأشرف، في قول ابن عباس، أو إلى أبي بردة الكاهن، في قول السدي، سماه اللَّه طاغوتًا؛ لإفراطه في الطغيان، وعداوة رسول اللَّه، ومن لازم الإيمان باللَّه والنبي الكفر بالطاغوت ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٠] يعني: المنافقين المتحاكمين إلى أئمة الضلال التاركين حكم رسول اللَّه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [النِّساء: الآية ٦١] أي: هلموا إلى حكم اللَّه الذي أنزله في كتابه، وإلى الرسول ليحكم بينكم ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النِّساء: الآية ٦١] أي: يعرضون عنك، وعن حكمك إعراضًا. ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ٦٢] أي: فكيف حال هؤلاء المنافقين، وكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة يعجزون عنها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٥] يعني: تصيبهم عقوبة بسبب ما قدمت أيديهم، وهو التحاكم إلى غير رسول اللَّه ﷺ، وهذا وعيد لهم على سوء صنيعهم ورضاهم بحكم الطاغوت دون حكم رسول اللَّه ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ

(١) ينظر تفسير الطبري (٥١١/٨)، وتفسير البغوي (٢٤٢/٢).

إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٢] يعني: المنافقين حين تنزل بهم المصائب، يجيئون يعتذرون إليك، ويحلفون أنهم ما أرادوا بذهابهم وتحاكمهم إلى غيرك إلا الإحسان والتوفيق بين المتخاصمين والمصائبة، لا اعتقادًا في صحة الحكومة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النِّساء: الآية ٦٣] أي: يعلم الله ما في قلوبهم من النفاق، فلا تعنفهم على ما في قلوبهم، وقيل: أعرض عن عقوبتهم، وقبول عذرهم، وانههم عن النفاق، وخوفهم بالله، وتوعدهم بالعقوبة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] أي: فرضت طاعة الرسول على من أرسل إليهم، ففيه توبيخ وتقريع للمنافقين الذين تركوا حكم رسول الله ﷺ ورضوا بحكم الطاغوت ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] يعني: الذين تحاكموا إلى الطاغوت ظلموا أنفسهم بالتحاكم إليه ﴿جَآءُوكَ﴾ [النِّساء: الآية ٦٢] يعني: جاءوك تائبين من النفاق والتحاكم إلى الطاغوت، متنصلين مما ارتكبوا من المخالفة ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] يعني: من ذلك الذنب، وبالغوا في الاعتذار إليك برد حكمك والتحاكم إلى غيرك ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] يعني: من مخالفته والتحاكم إلى غيره، وإنما قال: واستغفر لهم الرسول. ولم يقل: واستغفرت لهم؛ إجلالًا لرسول الله ﷺ وتعظيمًا لاستغفاره، وأنهم إذا جاءوه فقد جاءوا من خصه الله برسالته، وجعله سفيرًا بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإن الله تعالى لا يرد شفاعته وطلبه المغفرة لمن جاءه نادمًا تائبًا إلى الله فيما فرط منه ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] يعني: لو تابوا من نفاقهم، واستغفرت لهم لعلموا أن الله يتوب عليهم، ويتجاوز عنهم ويرحمهم.

هذا هو التفسير الواضح الجلي الذي قال به مفسرو السلف، ويؤيده المنطق

والواقع ، ويتمشى مع تساوق الآيات ، وانسجام المعنى ، ومنه نستخلص ما يأتي :

أولًا : أن الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] الآية . هي جزء من جملة آيات نزلت جملة واحدة في حادثة خاصة ، ففصلها عن بقية الآيات التي سيقت معها ، وهي مرتبطة بها ، لغرض واحد في السياق ، والهدف والمدلول ، تعسف وتضليل .

ثانيًا : أن الحادثة التي نزلت من أجلها الآية المذكورة ، وما قبلها من الآيات ، وقعت في حياة الرسول ﷺ ، وكان مشروعًا إذ ذاك المجيء إلى شخص الرسول ﷺ ، والتوبة على يديه والطلب منه أن يستغفر للمذنبين ، ومن تخلف عن ذلك منافقًا بين النفاق .

ثالثًا : بعد أن التحق رسول اللَّه ﷺ بالرفيق الأعلا ، لم يبق مجال أو مبرر لمذنب أو تائب أو مستغفر أن يقصد قبر الرسول ﷺ ، ويفعل ما كان معمولًا به في حياة الرسول من التوبة على يديه ، وطلب أن يستغفر له ؛ بدليل أن صحابة رسول اللَّه ﷺ ، وهم القدوة ، لم يكونوا يفعلون ذلك ، ولو كان مشروعًا لما توانوا عنه ، ولنقل إلينا بطرق صحيحة ، كما نقل غيره من أقوالهم وأفعالهم .

رابعًا : أن مدلول قوله تعالى : ﴿جَآءُوكَ﴾ [النِّساء: الآية ٦٢] يفصح أن المجيء كان إلى شخصه في حياته لا إلى قبره ، وبعد وفاته ، ولو كان ذلك مقصودًا لأوضحه رسول اللَّه ﷺ وأرشد إليه ؛ إذ إن ذلك مما يستدعي البيان والبسط ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة نقص في البلاغ ، ومعاذ اللَّه أن يكون ذلك ، فقد بلغ رسول اللَّه ﷺ البلاغ المبين .

فتحصل معنا إذًا من كل ما تقدم بطلان الاحتجاج بالآية الكريمة : ﴿أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٦٤] في جواز المجيء إلى القبر الشريف لغرض الاستغفار عنده ، كما كان في حياة رسول اللَّه ﷺ ، والإتيان إليه للغرض المذكور .

يبقى أن نتناول القصة التي أوردها الكاتب في مقال آخر على صحة ما ذهب إليه في الموضوع إياه ...[١] أو نصها : أن العتبي كان جالسًا عند قبر النبي ، فجاءه أعرابي ، وقال : السلام عليك يا رسول الله ، إن الله يقول : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النّساء: الآية ٦٤] الآية . وقد جئتك مستغفرًا من ذنبي، مستشفعًا بك إلى ربي . ثم أنشد :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي ، فغلبتني عيني ، فرأيت النبي ﷺ في النوم ، فقال : يا عتبي[٢] ، ألحق الأعرابي ، وبشره أن الله قد غفر له[٣] .

وهذه القصة على فرض صحتها لا تصلح للاحتجاج :

أولًا : لأنها تقرر واقعًا لا يتفق مع صريح ...[١] من هدي رسول الله ﷺ ، وفعل صحابته ...[١] والهدى والعرفان في هذا الباب .

ثانيًا : العمدة فيها منام ، لرجل راوية أشعار ...[١] وطرف ، وشرع الله ليس مصدره المنامات ، وإنما هو وحي يوحى ، وبلاغ من رسول كريم .

ثالثًا : بطل القصة ، والتي تدور عليه فصولها (أعرابي) وهل بلغ الدين من الهوان والضعة ، أن نقبل فيه فعل الأعراب ، ونتخذه أساسًا للاحتجاج وقدوة للعمل ؟! إن فعل أصلح الصالحين وأزهد الزهاد إذا لم يؤيد بالدليل القاطع من

---

(١) كلمة غير واضحة .

(٢) العتبى هو محمد بن عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان . صخر بن حرب ، بينه وبين سفيان خمسة آباء ، توفى سنه ثمان وعشرين ولم يكن معروفا برواية الحديث ، ولا هو منها ، وإنما كان معروفا بالفصاحة ورواية أخبار ...والظرفاء .

(٣) ينظر اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٩٧، والصارم المنكي في الرد على السبكي ص٢٥٢ - ٢٥٣، ٢٦٥.

كتاب أو سنة وإجماع لا يعتد به ، ولا يرفع به رأس ، فضلًا عن جفاة الأعراب .

ولنستمع الآن إلى أقوال المحققين في هلهلة القصة ، وبيان زيفها ، والتحقيق في وضعها واختلاقها :

قال صاحب « مصباح الظلام »(١) : هذه القصة ذكرها طائفة من متأخري الفقهاء ، ولم يذكرها غيرهم ممن يعتد به ؛ كالأئمة المتبوعين ، وأكابر أصحابهم ، وأهل الوجوه في مذاهبهم ؛ كأشهب ، وابن القاسم ، وسحنون ، وابن وهب ، وعبد الملك ، وابنه ، والقاضي إسماعيل من المالكية ، ولا من الشافعية ؛ كالمزني ، والبويطي ، وابن عبد الحكم ، ومن بعدهم كابن خزيمة ، وابن سريج ، وأمثالهم ونظرائهم ، وكأبي يوسف من أصحاب أبي حنيفة ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وزفر بن الهذيل ، ومن بعدهم كالطحاوي حامل لواء المذهب ، وكذلك أصحاب أحمد ، وأهل الوجوه في مذهبه ، لم يذكرها أحد منهم كعبد الله ، وصالح ، والخلال ، والأثرم ، وأبي بكر بن عبد العزيز ، والمروذي ، وأبي الخطاب ، ومن بعدهم كابن عقيل ، وابن بطة .

وبعض من ذكر هذه الحكاية يرويها بلا إسناد ، وبعضهم عن محمد بن حرب الهلالي ، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب ، عن أبي الحسن الزعفراني ، عن الأعرابي ، وقد ذكرها البيهقي(٢) بإسناد مظلم عن محمد بن روح بن يزيد البصري ، حدثني أبو حرب الهلالي ، قال : حج أعرابي . فذكر تمام القصة ، ووضع لها بعض الكذابين إسنادًا إلى علي بن أبي طالب ، كما روى أبو الحسن الكرخي ، عن علي بن محمد بن علي ، حدثنا أحمد بن محمد بن الهثيم

---

(١) مصباح الظلام في الرد على من افترى على الشيخ الإمام ص ٣٩٣. للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤١٧٨) . وانظر السلسلة الصحيحة تحت حديث رقم (٢٩٢٨) فقد أبطلها سندًا ومتنًا .

الطائي ، قال : حدثنا أبي ، عن أبيه سلمة بن كهيل ، عن أبي صادق ، عن علي بن أبي طالب . فذكر نحو ما تقدم في القصة . قال الحافظ ابن عبد الهادي عن[١] علماء القرن الثامن : هذا الخبر منكر موضوع ، لا يصلح الاعتماد عليه ، ولا يحسن المصير إليه ، وإسناده ظلمات بعضها فوق بعض . والهيثم جد أحمد بن محمد بن الهيثم أظنه ابن عدي الطائي ، فإن يكن هو فهو كذاب متروك ، وإلا فمجهول . وقال عباس الدوري : سمعت يحيى بن معين يقول : الهيثم بن عدي كوفي ليس بثقة ، كان يكذب . وقال العجلي ، وأبو داود : هو كذاب . وقال أبو حاتم الرازي ، والنسائي ، والدولابي ، والأزدي : متروك الحديث . وقال ابن المديني : ساقط قد كشف قناعه . وقال أبو زرعة : ليس بشيء . وقال ابن عدي : ما أقل ما له في المسند ، وإنما هو صاحب ، أخبار وأسماء ، ونسب ، وأشعار . وقال الحاكم أبو عبد الله : الهيثم بن عدي الطائي حدث عن جماعة من الثقات أحاديث منكرة . وقال العباس بن محمد : سمعت بعض أصحابنا يقول : قالت جارية الهيثم : كان مولاي يقوم عامة الليل يصلي ، فإذا أصبح جلس يكذب . اهـ .

هذا ما قاله المحققون في قصة العتبي وإغرابه ، ومنه نلحظ وضع القصة وزيفها ؛ ذلك أنها لم ترو عن الثقات من الأئمة وتابعيهم ، ولو كانت ثابتة صحيحة لما غفلوا عن نقلها ، وحتى لو فرض صحة ...[٢] بالسند ، فالسند منكر لا يعتد به ؛ إذ إن أهل الجرح والتعديل قد كشفوا عن توهين رجاله ، فهم بين متروك لجهالته ، أو متروك لاختلافه ووضعه ، وليس في حديث المجاهيل ورواية الكذابين غير الإيهام والتضليل .

---

(١) كذا في الأصل ، ولعل الصواب : « من » .

(٢) كلمة غير واضحة .

وبعدُ ؛ فلعل في هذا القدر من البسط والبيان ما يقنع ويسد حاجة الباحث المنصف وطالب الحق والمتلمس للحقيقة ، وفي الطليعة صاحب الفضيلة ... الذي أتاح لي فرصة هذا النقاش وحملني على كتابة هذا البحث ، والخير أردت ، وما توفيقي إلا باللّٰه عليه توكلت واليه أنيب .



كفاح دين(١)

« كفاح دين » اسم لكتاب ظهر حديثًا لمؤلفه الأستاذ محمد الغزالي الكاتب الإسلامي المصري المعروف، سبقه جملة من المؤلفات درس فيها المؤلف نواحي إسلامية كانت بالأمس مجهولة لدى الكثيرين، ومن ذلك كتابه- (الإسلام والأوضاع الاقتصادية- الإسلام والمناهج الاشتراكية- تأملات في الدين والحياة- الإسلام المفترى عليه) وغيرها من المؤلفات نهج فيها المؤلف نهجًا خاصًا بأسلوبه الرصين الجذاب.

و« كفاح دين » اسم على مسمى، أما الدين فهو طبعًا الدين الإسلامي، يكشف لنا الأستاذ الغزالي عن كفاحه بين أهله، وكفاحه بين خصومه الذين أحدقوا به من كل جانب من صليبيين ومستعمرين، يريدون بذلك إطفاء نوره وإخماد جذورته في النفوس ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصَّف: الآية ٨].

قرأت فصولًا من هذا الكتاب، ولم تف ظروفي باستعراض كل أبوابه، فأعجبت بما قرأت أي إعجاب، ورأيت أن أشرك معي قراء « مجلة المنهل » في المتعة الروحية التي وجدتها، والتي سوف تزداد بزيادتي في القراءة والدرس لبحوث الكتاب.

رأيت أن أنقل لقراء المنهل فصولًا، أو بعض فقرات، يصور فيها المؤلف كفاح الإسلام في وجه خصومه؛ ليثبت أن البقاء للأصلح، وأنه الدين الخالد الصالح لكل زمان ومكان، الذي ارتضاه رب العالمين لعباده، ولا يقبل من أحد دينًا سواه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥] .. الدين الذي يرميه خصومه بالتعصب والأنانية

---

(١) مجلة الحج- رجب- ١٣٧٩ هـ.

والتطرف . دين السماحة ، والديمقراطية الحقة ، والاعتدال في كل المناحي ، وما يرسمه من الاتجاهات في كل تشريعاته ، وفي جميع مذاهبه وتوجيهاته ، إنه دين الفطرة وكفى ، دين إبراهيم أبي الأنبياء ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٦٧] .

قدم المؤلف بمقدمة عرض فيها لموقف الغرب نحو الإسلام واضطغانه عليه ، واتخاذه من شخصية عيسى عليه السلام ، ومن الصراع بينه وبين المسيحية في الحروب الصليبية تكأة يعتمد عليها في استجازة ما يصنعه بالإسلام وأهله من كيد وظلم واستبداد ومصادرة للحقوق والحريات .

استمع إليه وهو يقول : ليس عجيبًا أن يظل الغرب مع تفوقه العلمي صريع أحقاد قديمة وأفكار بالية .. إنه ما زال يخاصمنا دون وعي .. إنه يتابع سلوك الأسلاف في العصور الوسطى فما يعمل إلا طالبًا لثأر مزعوم ، أو متحركًا بترة يتخللها ، ومن ثم ...[١] في سياسته ضغائن صليبية ، تقطر سمًّا علي الإسلام وأهله وعلى العروبة ...[١] وجنسها ، إن هذه السياسة تتخذ من الإنسان النبيل عيسي ابن مريم تكأة تعتمد عليها (وتتذرع بها إلى فعل الكثير) .

ثم انتقل إلى التحدث عن العروبة ، وتيقظ الوعي في الشرقين الأوسط والأدنى ؛ للمطالبة بحق العروبة المسلوب ، وإحاطتها بسياج من القوة والمنعة ؛ إذ في إعزازها عزة الإسلام وشعائر الدين .

يقول : وفي أقطار شتى من الشرق الأوسط والأدنى نسمع أصداء متجاوبة تتحدث عن العروبة ويقظتها وآمالها وحقوقها ، كما ترى المد الاستعماري ينحسر عن بقاع شتى ظل بها أمدًا ، إنها حركة ناجحة ، وإن زحف الأفراد ليأخذ طريقه إلى الأمام » وإعزاز العروبة من شعائر الإسلام .

---

(١) كلمة غير واضحة .

وأخذ يورد بعض النصوص الواردة كأدلة من السنة على التزام حب العرب ورعاية حقوقهم، ثم قال: فما من مسلم إلا وله من دينه دوافع تجعله- ولو كان هنديًا، أو فارسيًا، أو تركيًا- يحب العروبة ويحمي بيضتها ويصون حماها.

وأخذ يدلل بعد ذلك بالأدلة المنطقية على ...(١) دوافع بعض الاستعمار للقومية العربية، دوافع دينية مؤسسة على أحقاد قديمة منذ أمد بعيد؛ لأن الاستعمار يرى في القومية العربية المنافس الذي يعيد للإسلام كيانه ومجده التليد وعظمته الخالدة ...(١) استمع إليه وهو يدلي ببرهانه على ذلك ويقول:

(والعربي المسيحي لن يكره جنسه ما دام مستقيمًا مع طبيعته، بل هو لن يكره محمدًا ﷺ أو يضيق باتباعه- إنه يؤمن برسالته- وهنا يتدخل الاستعمار، أو من هنا حاول بث مكايده وتأمين مئاربه وإشباع ضغائنه.

وماذا يبغي- يبغي القضاء على الإسلام- وفي سبيل القضاء عليه يجب أن تموت العروبة- فإذا قدرت- له أو لها حياة، فيجب أن يتدخل؛ ليجعل الدين عنوانًا بلا موضوع، وليجعل العروبة جسمًا بلا روح. ومن الكذب على الله وعلى الناس الزعم بأن الاستعمار لم يكن مدفوعًا في هذه العداوة بأسباب دينية يخفيها حينًا ويبديها حينًا آخر وفق الظروف التي تعرض له.

وأنا رجل عربي الجنس أدين بالإسلام، وهناك نصارى عرب لا يوافقوني في معتقدي، وأعرف أن القومية العربية تشملني وتشملهم، وأن دائرتها تجعلني وإياهم في نطاق واحد.

وماذا في ذلك؟ أو أي ضير عليّ أو عليهم، لكن الاستعمار يرفض هذا، ويغتاظ له، إنه يريد القضاء على الإسلام، وإيصاد الأبواب أمام معتنقيه ...(١) إنه لو أبقى العروبة العامة وبقي معها إسلام عربي ومسيحية عربية فإن أمنيته الآثمة في

(١) كلمة غير واضحة.

الفتك بهذا الدين لم تتحقق.

فلابد إذن من القضاء على العروبة حتى لو كلف العرب المسيحيين أن يتخلوا عن جنسيتهم، ويتبرءوا من دينهم، ويفصموا الأواصر بينهم وبين ماضيهم وحاضرهم). وطفق يندد بمحاولة الغرب فصل المسلمين العرب عن مواطنيهم من المسيحيين العرب، وفل رابطة القومية العربية، ويوضح ما أفادته رابطة القومية العربية من تسلمها لزمام الأمر في بعض أقطار الشرق، وكبتها للنعرات الإقليمية الضيقة، وإخراسها للمتهجمين على اللغة العربية وآدابها وإنعاشها للمقومات العربية الخاصة والكيان المادي والأدبي واستعادة الأمجاد التاريخية، إلى أن قال: وتمكن المسلمون أن يعملوا بدينهم، وأن يحيوا وفق نظمه، وأن يعيدوا إليه المكانة التي اجتهد الاستعمار في إسقاطها، أو التي خلق أجيالاً لا تعترف بها.

إلى أن قال في نهاية مقدمته: وهذا الكتاب للبناء لا للهدم، وللوحدة لا للتفرقة، لقد أظهرت فيه ما يقع على الإسلام وأهله من أذى، حيث تنجح سياسة الاستعمار، وسيرى القارئ من فضائح الغل الديني ما يجعله يوقن بضرورة إنهاء المئاسي التي خلقها الاستعمار.

وقد ذكرت أمثلة موجزة ونماذج متنوعة، فلست أملك وسائل الحصر والاستقراء.

ونحن إذن نقدم للمكتبة العربية هذا الكتاب، إنما نقوم بواجب التعريف والدلالة على كنز من الكنوز، يجب ألا يغفل عنه ويطرح، بل يستفاد منه ويعنى بأمر دراسته، لا سيما وأن لكاتبه من البراعة في التصوير والتعبير ما يجعل الكتاب في طليعة الكتب الأدبية الرفيعة التي تجمع بين الدسامة في المادة والروعة في الأسلوب ... وقد أتابع المؤلف في جميع فصول الكتاب، فأقدم منها للقراء نماذج للتشويق، فلعل الفرصة تتيح لي ما أريد.

كفاح دين[١]

[٢]

يتابع المؤلف الأستاذ محمد الغزالي في الحلقة الأولى من كتابه « كفاح دين » وهي : (تعاون بين الإسلام والمسيحية) فنلحظ أن الأستاذ يرى من السماحة، أو مما تقتضيه الضرورة، المعايشة بين أتباع الدينين (الإسلام والمسيحية) أن يسود بينهما الوئام، وأن ...[١] التعصب لأحد الدينين، وأن تقوم منهما مودة صافية بعيدة كل البعد عن النعرات والنزعات.

بل إنه يذهب إلى ضرورة إيجاد التفاهم الحسن، التعايش من المسلمين والخرافيين بين المسلمين وأصحاب سائر النحل الباطلة والعقائد الفاسدة.

استمع إليه وهو يقول : إنني مستعد ...[١] كل امرئ يؤمن بأن الأرض ...[١] على قرن ثور، ومستعد لموادة كل امرئ يوقن بقداسة العجول ونسبتها ..[١] إلى الآلهة.

وأنا رجل مسلم وثيق الصلة بديني، راسخ القدم فيه، عنيف الغضب لما يوجه إليه من إساءات، مطمئن القلب إلى أن غيره من ديانات قد اعوجت به السبل، وأفلت منه الحق، ومع إيماني التام بأن النصرانية لا تنطوي على أخطاء جسام في تصورها وإنفاذها لحكمه وفهمها لأمره، مع ذلك فلست أرى أبدًا أن طريق المعايشة السلمية ضيقة باتباع الدينيين.

ولا أستغرب أبدًا أن تقوم مودة صافية بين رجلين يؤمن أحدهما بأن الله واحد، ويؤمن الآخر بأن الله ثلاثة.

---

(١) مجلة الحج- شعبان- ١٣٧٩ هـ.

(١) كلمة غير واضحة.

ويمضي الأستاذ في سرد نظريته، ويقرر أن الخلاف بين الإسلام والمسيحية، بل وبين عموم أصحاب النحل خلاف عقلي، سوف يبقى إلى أن يلقى الناس ربهم، وهنالك يكون الفصل بين المتنازعين.

استمع إليه وهو يقرر ذلك ويقول: (إن الخلاف العقلي في مثل هذه الشئون لن تفصل فيه محكمة تؤلف اليوم أو غدًا، إنه خلاف سيبقى حتى يلقى الناس ربهم.

وعندما تتلاقى كل هاتيك الفرق المتنازعة، وتمثل بين يدي اللّٰه، حينئذ فحسب يعرف المخطئ سر انحرافه.

وإن كنا إلى جانب رأي الأستاذ، نرى رأيًا آخر في كون الخلاف بين اليهودية والنصرانية وبين الإسلام وأرباب النحل والملل الأخرى خلاف عقلي، أي خلاف في المفاهيم فقط، لا في المعتقدات، وأنه لا ضير أن يصادق المسلم اليهودي أو النصراني، أو أي صاحب نحلة تتعارض مع الإسلام ...[1] وتتنافى مع تعاليمه واتجاهاته.

ورأينا أن الخلاف بين الإسلام والمسيحية خلاف في المعتقدات لا في المفاهيم.. وأن المسلم مدفوع بعقيدته إلى إقامة سلب دائم بينه وبين كل صاحب نحلة أو ملة لا تتفق والإسلام في اتجاهاته وأهدافه وتعاليمه، مدفوع للذود عن عقيدته، والدفاع عنها، ومحاربة من حاربها، ومسالمة من سالمها دون مجاملة أو مصانعة.

كيف يصح لمسلم وثيق الصلة بدينه أن تقوم مودة صافية بينه وبين من يعتبرهم دينه أعداء لقضيته، خصومًا لهديه.

كيف يصح لمسلم يتلو كتاب اللّٰه ويجد فيه قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا

(١) كلمة غير واضحة.

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] وقوله في تبرئة إبراهيم من أبيه وقومه ومجاهرتهم بالعداء لتباعدهم عن دينه : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] ....

وقد جعل الله الأسوة الحسنة فيه ، والقدوة الصالحة به ، حيث يقول : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٤] .

نص القرآن صريح واضح في إبقاء السلب قائمًا بين المسلمين والصليبيين وغيرهم من أرباب النحل والملل المناهضة للإسلام ، والتي تكون وإياه على طرفي نقيض ، حتى يؤمنوا بالله ويتركوا عبادة ما سواه .

صحيح أن الكافر غير المحارب ليس للمسلم مضايقته وإخراجه ومنع الخير والرغد عنه ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٨] لأن العدل واجب في شرعة الإسلام حتى بين المسلم والكافر ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ [المَائدة: الآية ٨] ولأن البر والإحسان المطلق يشمل العدو والصديق ، إذا كانا في حاجة إلى ذلك ، لما جاء في الحديث : « وفي كل كبد رطبة أجر »(١) . « واليد العليا خير من اليد السفلى »(٢) ولكن ليس معنى ذلك التصافي وتصفية الحساب بين أهل الأديان والمشي جنبًا إلى جنب ، ولو كان مقصودًا لما أصبح

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٣، ٢٤٦٦) ، ومسلم (١٥٣/٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٩) ، ومسلم (٩٤/١٠٣٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

للبراءة المنصوص عليها في القرآن قيمة، والتي أوضحها إبراهيم بفعله مع أبيه وقومه، وأوضحها نوح في البراءة من أبيه، وأوضحتها امرأة فرعون ببراءتها من زوجها وقرين حياتها، وأوضحها المؤمنون في الصدر الأول بالبراءة من ذوي قرباهم والتنكر لهم، لدرجة العداء السافر، حتى أنزل الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [المُمتحنَة: الآية ٨] الآية.

ذلك لأن أوثق عرى الإيمان، كما جاء في الحديث: «الحب في الله والبغض في الله»[1] ولا يجتمع في قلب واحد نقيضان حب وبغض.. فبغض أعداء الله كيفما كانوا؛ صليبيين، أو وثنيين، أو من أي ملة غير الإسلام، واجب مفروض، وبديهي أن يقابل الخصوم هذا السلب بمثله، بل وبأكثر منه، فتقوم في كل قطر ومصر، غلب عليه المستعمرون محاكم التفتيش للتنكيل مادامت لهم الصولة والدولة..

ونحن مع الأستاذ في أن مردَّ الفصل في الخلافات المذهبية والنزعات الدينية إلى الله في الآخرة، ولكن يجب أن نقيم معالم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دنيانا، وفي طليعة النهي عن المنكر، حمل أصحاب الأديان الأخرى على احترام الإسلام، والاعتراف به كدين سماوي له مكانته.

وطريقة حمل أصحاب الأديان على احترام الإسلام تختلف حسب اختلاف درجات النهي عن المنكر في مراحله الثلاث.. فإذا كان للإسلام دولة وصولة فيجب أن يكون حمل الناس على احترامه بالقوة وإقامة علم الجهاد، وإذا ضعف الإسلام وتخاذل أهله عن نصرته فلا أقل من أن يكون حمل الناس على احترامه

(١) أخرجه الطيالسي (٧٨٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٨)، والإيمان لابن تيمية ص ١١٩.

بالدعوة السلمية؛ باللسان والأقلام، وإذا بلغ الضعف نهاية حده؛ وتعذرت الدعوة السلمية تحتم على المسلمين إقامة سلب دائم بينهم وبين أهل الباطل، لا أن تقوم بينهم صداقات ومودات بدعوة المعايشة والمصانعة والمجاملة.



كفاح دين[1]

[٣]

نتابع الأستاذ الغزالي في فصله الأول (التعاون بين الإسلام والمسيحية) من كتاب « كفاح دين » ونلحظ أنه بعد أن قرر في الصفحات السابقة ضرورة إيجاد تعاون وإقامة صلات وثيقة بين المسيحية والإسلام وبين أصحاب الملل والنحل الأخرى ، نلحظ أنه وضع قواعد وأسسًا لهذا التعاون والصلات ؛ ضمانًا للسلام المنشود ، وهي :

أولًا : الاعتراف المتبادل بحق الحياة الشريفة لأصحاب العقائد المتباينة .

ثانيًا : منح كل دين الحرية المعقولة ؛ ليبين عن نفسه ، ويذود عن معناه .

ثالثًا : تأمين الأتباع على أموالهم وأغراضهم ودمائهم ، فلا يضارون في شيء منها لإيثارهم دينًا على آخر ، وكل ذلك جميل لو أمكن تنفيذه والأخذ به ، إلا أنه كما أسلفت في المقال الأسبق لا يصح أن تقوم به صداقات بين أهل الأديان كافة ، بحيث تصبح أخوة الإسلام التي وثقها الدين ، وجعلها أوثق عرى من أخوة النسب ، تصبح مبذولة لعدو الدين ، والذي نكون وإياه على طرفي نقيض في المبادئ والعقائد .

ويستمر بعد ذلك الأستاذ في إنحائه باللائمة على أتباع الديانات المختلفة فيقول : ومرجح ذلك- يقصد التعصب للدين على حد تعبيره- ليس المبالغة في إرضاء اللَّه تعالى كما يعتقد الجائرون المتعصبون ، بل هو ضيق العقل واستحكام الهوى .

ورأينا أن التعصب للإسلام والسير على ما رسمه في البراءة من أعداء اللَّه وإقامة

---

(١) مجلة الحج - ذو القعدة - ١٣٧٩هـ .

سلب دائم محمود مشروع، كما أسلفت في كلمتي السالفة ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ٨٥].

وأما بالنسبة لغير الإسلام، فنحن مع الأستاذ في أن الباعث عليه: هو ضيق العقل واستحكام الهوى، فلا عذر بعد وضوح الحق ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشّورى: الآية ٤٦] ويستمر الأستاذ في مهاجمة أتباع المسيحية، ويعقد الشبه بين الماضي والحاضر، فيقول: ولنعد إلى الماضي البعيد نستبين أحداثه، وكم من مشابهة غريبة بينه وبين الحاضر القريب، لقد ظهرت المسيحية قبل الإسلام بنحو ستة قرون، وقامت باسمها حكومات مرهوبة الجانب، لقد ظهر الرومان، وهم في ذلك العصر أصحاب السلطان باسم النصرانية، نظروا إلى الإسلام لا على أنه دين يعاون على هداية البشر، بل على أنه منافس محذور النجاح، والنصرانية من هذه الزاوية معذورة في كراهيتها للإسلام، بيد أننا نتساءل: أكل جديد في ميدان العلم والمال والرأي والفقه ينبغي أن يصد عنه؟ لكن رجال المسيحية، كما سنرى من استعراض التاريخ في الماضي والحاضر، يأبون على الإسلام أن يحيا، ويرفضون في بغضاء عميقة، أن يرتفع له لواء. وخبثهم الاستعماري في هذا العصر تجديد لسيرتهم الأولى أيام رسول اللَّه ﷺ وصحابته لم تتغير فيه الوسائل.

ويمضي الأستاذ في حديثه يشجع، بل ويدعو إلى تعاون إسلامي مسيحي، يتصالح فيه الدينان (المسلمون والمسيحيون) على ترك العناصر المشتركة بين الدينيين تسير طليقة. ثم أوضح هذا الغرض بقوله: (ينفرد كل فريق بما اختص به يدعو اللَّه على حدة، فمثلًا يجب أن ندعم جميعًا عقيدة الإيمان باللَّه واليوم الآخر، وأن نحارب جميعًا دعوة الإلحاد والفساد).

ثم من حقنا نحن المسلمين بعد ذلك أن نُفهم الجميع بأن اللَّه وحده، لا ولد

له ، ولا والدة ، وأن تتاح لنا فرص الدعاية لما ندين به ، على أن تتاح هذه الفرص نفسها لمن يرون أن اللَّه مكون من ثلاثة أقانيم ، كما تتكون الأصبع من ثلاث عقد ، كل واحدة منها آلة ، وكلها كذلك آلة . اهـ .

تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا- أظن أن أي مسلم مهما بلغ من التسامح والطيبة يرى من الطعن عليه في دينه أن يعرض أي صاحب نحلة إلى الذات العلية بهذه التجزئة السخيفة التي لا ترتكز على أساس من الدين في شيء ، وإذا كانت الطعنة في الصميم ، وموجهة إلى الدين فبديهي أن لا يقر لكلا الفريقين قرار ، وأن لا تخمد بينهما الأحداث ؛ قد يكون الاختلاف في الرأي والمفاهيم محتملًا إلى حد ما ، أما الاختلاف في الدين واختلاف العقائد والمبادئ لا يحتمل بحال ؛ مهما دلل على إمكان الائتلاف أصحاب مبدأ التعاون الإسلامي المسيحي ؛ لأنه مبدأ تقوم أسسه على كثبان من الرمل ، وسرعان ما تنهار الرمال عند هبوب الريح .

بعد ذلك أخذ الأستاذ يسرد المآسي التي لحقت بالمسلمين في الحاضر ، عندما كان أصحاب فكرة التعاون الإسلامي المسيحي يدعون إلى عقد مؤتمر لها تظهر به الفكرة إلى حيز العمل .

فذكر أولًا : مأساة فلسطين ، وتآمر دول النصرانية على طرد العرب منها ، وتوريثها لليهود .

ثانيًا : وبعد تسع سنوات من هذا التآمر وقع الهجوم الثلاثي على مصر .

ثالثا : محاولة الدول الكبرى فك الحصار عن إسرائيل وتيسير الملاحة لها في خليج العقبة ، تريد بذلك إذلال المسلمين وتهديدهم في البقاع الحساسة .

ويستعرض بيانًا نشرته الهيئة العربية العليا لفلسطين عن خليج العقبة ، جاء فيه : أن المطامع الاستعمارية فيه ليست وليدة اليوم ، ولكنها منذ الحروب الصليبية ... فقد قامت حملة البرنس أرناط عام ٥٧٩هـ من العقبة ، وهاجمت

شواطئ البحر الأحمر على الجانبين، ونزلت في أرض الحجاز، حتى كادت تطرق أبواب المدينة المنورة، فصدتها الحملة التأديبية بقيادة الأمير حسام الدين قائد أسطول مصر في عهد صلاح الدين، فقضى عليها.

وعرض الأستاذ أيضًا لما قاله: (لامانس الشيوعي عن خليج العقبة، وموقع العقبة في نظر لامانس أرناط) قائد الحملة الصليبية، وأنه شق الطريق إليها أمام الاستعمار الأوربي بعده.

واستمر الأستاذ في سرده للوقائع والأحداث، والتحدث عن السياسة المرسومة؛ للتضييق على المسلمين، والتمكين لليهود، وتثبيت أقدامهم في فلسطين، وعرضه للخطط التي اتخذت لذلك من قبل الدول الكبرى، والاحتجاجات التي قوبلت بها من قبل الملك عبد العزيز رحمه الله، والمؤتمر الإسلامي المنعقد في مكة. ثم عاد لفكرة التعاون الإسلامي، فقال في هذا الأفق المكفهر: ظهرت فكرة التعاون المسيحي والإسلامي.. إن الأوضاع السياسية الجائرة ما زالت آخذة بخناق المسلمين، توشك أن تكتم أنفاسهم وتجهز على دينهم.

فأنى توجد صداقة مع هذه الحال؟

إلى أن قال:

إن حقد الصليبية على الإسلام وأهله مشكلة يجب أن تحل، وحلها في مؤتمرات السلام أولى من حلها في ميادين النضال.

لنقل للنصارى: ما الذي يريبكم منا لنتركه؟ ما الذي يهيجكم علينا لنبتعد عنه؟

اطلبوا كل شيء إلا أن ندع ديننا، فإنكم أن أصررتم على هذا الطلب المنكر، لن تجف من الأرض الدماء، ووزرها عليكم لا علينا.

إن الإسلام أرحب الأديان حضارة ، وألينها عريكة ، وأرحمها معاملة ، وأحناها على مخالف وجاهل .

وإذا كان يؤخذ على المسلمين شيء ؛ فهو أنهم أشد إحساسًا بمطالب غيرهم من إحساسهم بمطالبهم الخاصة .

إن الحرية الدينية أهم ركن في حرية الأفراد ، كما أنها إحدى الأسس التي قامت عليها الديمقراطية ، ولكنها ترى الآن أن الحرية الدينية قد حددت لدرجة لا يمكن مقارنتها بأي قرن من القرون الماضية .

وأفاض في تحديد وإيضاح الحرية الدينية اتجاهاتها والصراع الواقع بين النصرانية وأتباعها .

واستشهد بكلام للدكتور (هتشنسون) (الذي اشتد)[1] به التعصب المسيحي ، والاضطهادات التي نجمت عن ذلك ، ويوجه الأنظار إلى ثلاث نقاط بارزة منه ، وهي :

١- أن الكنيسة انتحلت لنفسها سلطة الإشراف على الدولة ، وتسيير دفة الحكم ، وذلك خلاف ما توحي به النصوص الدينية عند القوم .

٢- أن في هذا التسلط استغلالًا سيئًا في الاضطهاد والفتنة وإشاعة الأهواء والمظالم .

٣- أن بناء الإيمان لم يلزم خطة الإقناع والمنطق ، بل جنح الكهنة فيه إلى القسر وإذلال الخصوم .

وعقب على ذلك بذكر ما كتبه أحد المؤرخين الكاثوليك في دائرة معارف العلوم الاجتماعية بسطًا لما أجمله (هتشنسون) وإيضاحًا لواقع التعصب المسيحي ، وتقريرًا لضرورة فصل الدين عن الدولة .

---

(١) غير واضحة بالأصل.

وختم الأستاذ الغزالي هذا الفصل بهذه الخاتمة المنطقية الدفاعية المعتدلة، فأصاب كبد الحقيقة وأشفى، وصور الواقع المرير، واقع المسلمين، لسماحهم بانفصال الدين عن الدولة مما نتج عنه إيجاد ثلمة للعدو والمستعمر يخلص منها إلى ديار الإسلام، ويمتد كالأخطبوط في كل صوب، وإلى كل اتجاه، وفي كل ناحية منها له أهداف وأطماع، يقول الأستاذ:

والحجة الأولى والأخيرة أن المسيحية حكمت فأعنت وملكت السلطة، فصادرت الحرية، ووضعت يدها على الدولة، فأصابت حقوق الأفراد والشعوب بشر كبير.

وإذن فيجب تجريد كل دين من سلطان الدولة، ويجب تجريد الإسلام بالذات- من كل إسناد حكومي. وهذا الكلام لا يمكن غض النظر عما فيه من تهاون واضطراب.

فإن قياس دين بدين، ونتيجة بنتيجة، لا يجيئان بهذه السهولة.

بيد إن الريبة العظمى تملأ قلوبنا حين نسمع الكلام المذكور في وقت تتضافر فيه قوى الأمريكان والإنكليز والفرنسيين ومن وراءهم يستميتون في حق الإسلام وتدويخ أهله.

إن هؤلاء الناس- حكومات وشعوبًا- لا يدعون فرصة تمر دون بسط اليد بأي أذى يمكن إلحاقه بنا أو بديننا.

فكيف نستطيع المقاومة الناجحة إذا كانت العقائد المعتدية تظاهرها قوى كبيرة على حين يطلب من الإسلام ومن معتنقيه أن لا يفكروا أبدًا في إقامة دولة ما؟

إن هذا الكلام ليس بحثًا علميًا خاصًا، بل هو أشبه بالاحتيال الثقافي- أو هو تسويغ لما يصنعه الغربيون بنا- ونحن في حل من رفضه دون تردد.

إن الإسلام لو كان دينًا نظريًا أو فلسفة خيالية لكان عليه- كي يحتفظ بحياته- أن يواجه المواقف الآتية:

١- قيام دول مادية تمثل الإلحاد المسلح، وتنشر مبادئه في كل مكان.

٢- قيام حكومات بادية القوة، تشتغل بنهب الأقطار المتخلفة، واسترقاق أبنائها، ووضع العوائق للحيلولة دون ارتقائهم.

٣- قيام حضارات تعتمد على الشهوات الإنسانية، وتبني تعاليمها على توهين صلة الأرض بالسماء، أو تزييف هذه الصلة ودفعها في مجرى يصبغ العالم بجاهلية حديثة.

٤- انفجار الأحقاد ضد الإسلام- من الصهيونية- التي حملت السلاح علانية ضد العرب، ومن الصليبية التي تستخفي حينًا، وتكشر عن نابها أحيانًا.

فهل تلك الأهوال المخوفة هي المقدمات المعقولة التي تنتج انسلاخ الإسلام عن الدولة، ووجوب تجرد الدين من كل سلطة تنافح عنه وتشرب روحه وتقيم حدوده وتذود عنه المعتدين.

إن أركان الدولة جزء من تعاليم الإسلام، كما يعلم ذلك أي دارس للقرآن الكريم والسنة المطهرة.

وتكليف الإسلام أن يتفق مع النصرانية على حذف الدولة من رسالته لا يليق.. وهو أشبه ما يكون بتكليف شخصين يملك أحدهما مائة قرش، والآخر يملك ألف جنيه، أن يتبرعا بما معهما؟

إن الغرم كله واقع على المكثر لا على المقل.

واهتمامنا بأمر الدولة يرجع إلى أن هناك أحكامًا تتفق الأديان على ضرورة إقامتها... فرط فيها غيرنا، مع علمه بأمر اللّٰه تعالى فيها، فلماذا يفرض علينا أن نفرط فيها نحن الآخرين؟

وذلك كحرمة الربا، والزنا.

فإن الدولة المسيحية تكاد تجمع على استباحتها، وتسن القوانين المالية

والاجتماعية، وفيها إغضاء مطلق عن هذا التحريم.

ونحن نعتقد أن من وظيفة الدولة تنظيف المجتمع من هذه الأوبئة، ولا نرى فصل الدين عن الدولة في تلك الشؤون.

على أن للإسلام غايات يسعى إليها، ومثلًا عليًا يحتضنها؛ كإقامة الإيمان، وحمايته، وحفظ الصلة الآلية بين اللّٰه وخلقه، والاهتمام بأمر الصلاة، والزكاة، والحق، والخير، والإسهام مع أي فرد أو جماعة في إقامة حضارة تحترم العدالة وتقر الإنصاف وتسعد البشر.

فلماذا تبتر الدولة من تعاليم الإسلام؟

وهي التي تحمل هذا العبء في الوقت الذي تقوم فيه عشرات الدول المسيحية بشن حملات مترادفة على الإسلام؛ لتوهن قواه، وتبدد شمله، وتذيق أهله الأمرين.

إن كان لأحد أن يعض بنان الندم ألف مرة على ما صنع بنفسه، فنحن المسلمين الذين نعلق مرارة الحسرة؛ لأننا سمحنا للدين أن ينفصل عن الدولة، أو بتعبير أصح سمحنا للاستعمار أن يغزونا في عقر دارنا، فكانت تلك المآسي السود في ديار الإسلام التي لا تزال محتلة بالأجانب، أو في الديار التي جلوا عنها، وبقيت آثارهم فيها تحتاج إلى تطهير ممض طويل.

ومن البدهي أن حرية الدعوة إلى اللّٰه واعتناق دياناته المختلفة شيء لا يتنافي مع بقاء الدولة في أحضان الإسلام.

إن تجارب أربعة عشر قرنًا مضت تهتف بأن الحكم الإسلامي لم يستغل السلطة يومًا في الإكراه على الدين، أو التحويل عن مذهب.

وسجلات التاريخ تعي النقائص في هذا المضمار بالنسبة إلى المسيحية ومذاهبها الكثيرة.

فلسطين ؟!![1]

فلسطين محط أنظار المسلمين، وملتقى آمالهم؛ لأن بها المسجد المفضل؛ أول قبلة للمسلمين، وفيها أجل ذكريات الإسلام ورسول الهدى ﷺ، أخص منها قصة المعراج، تلك المعجزة الخارقة، التي حيرت عقول الجاحدين، وازداد بها المؤمنون إيمانًا، وكلما تجددت ذكراها بمرور الزمن، يذكر المسلمون إلى جانبها فلسطين وبيت المقدس، وما لفلسطين في أعناقهم من دين، وما يجب عليهم من الوفاء بهذا الدين، وخاصة وقد أصبحت جريحة منكوبة مرارة، مهبطة الجناح، تستصرخ للنصرة، وتدعو للنجدة، وتطلب الأخذ بالثأر من الظالمين، ومن واجب كل مسلم أن يلبي النداء، ويهرع للنصرة ويمد يديه بالنجدة، وفاءً بدين فلسطين، وقيامًا بالتزامات المسلم نحو فريضة الجهاد التي افترضها اللّه على المسلمين جميعًا، حين يجد الجد ويتسلط الكفر على بلاد الإسلام، وأي جهاد أعظم من جهاد اليهود؛ لإخراجهم من فلسطين وإبعادهم عن حوزتها، ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: الآية ٤١].

إن الجهاد المقدس الذي لا شبهة فيه، والذي قال عنه رب العزة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: الآية ١١١].

هو جهاد أعداء اللّه، ووقوف المسلمين مؤتلفين من جميع بقاع الدنيا، محطمين للقيود التي كبلهم بها الاستعمار، متجاوزين للفواصل الإقليمية التي فصلهم بها، ليباعد بين قلوبهم ويفل رابطتهم التي وثقها اللّه بينهم، ويقعدهم عن

---

(١) صحيفة الندوة - في ١٣٨٠/٨/٢٥هـ.

التفكير في الجهاد المفروض عليهم ضد الاستعمار ولقيطه إسرائيل ، وإزاحتها من الوجود . وإن جهاد أعداء الدين لن ينتهي زمنه ، وبن ينقضي أمده ، بل إنه يتجدد بتجدد الحاجة إليه ، وإن الحاجة إلى الجهاد ما برحت قائمة ، ما دام في الدنيا إسرائيل تعيش على حساب شعب فلسطين ، وتشريد أهل فلسطين ، وضياع قضية فلسطين بين ذئاب متآمرين ، وعصبة للسلب والإقطاع متزعمين .

وبتضافر جهود المسلمين ، ووقوفهم صفًا متراصًا لا يختلف على بعضه ، وحشدًا متكاتفًا لا ينفصل عن جمعه ، ويدًا واحدة لا تنفك عن مدده ؛ بذلك وحده- إذا شاء الله- يمكن استعادة الحق السليب ، وحل قضية فلسطين ، وإيواء أهلها المشردين ، وإنها حياة التذبذب والبؤس ، ولو بعد الاثنى عشر المنصرمة من السنين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٤٧] وفي « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال : « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر : يا مسلم ، هذا يهودي ورائي ، فاقتله »(١) .

وتلك هي الغاية الثانية ؛ فإن فلسطين ما هي إلا خطوة أولى للغزو العاتي الذي مثلته إسرائيل ، صنيعة الاستعمار على أرض فلسطين الشهيدة المظلومة . ولئن طال الزمن وتقادم العهد ، ولم يعمل المسلمون على استرداد فلسطين بالقوة ، فإن أطماع إسرائيل لن تقف عند حد ، إنها تبني عش أحلامها المنهار على بعث بني قريظة وبني قينقاع وبني النضير ، وامتداد سلطانها إلى أبعد مدى ، تستطيع معه السيطرة على رقاع الإسلام ، وإذلال المسلمين ؛ بمساعدة المستعمرين ، كما فعلت في اللد والرملة وغيرهما ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المَائدة: الآية ٨٢] .

ففلسطين هي الخطوة الأولى بالنسبة لليهود ، لها ما بعدها ، وهي خط الدفاع

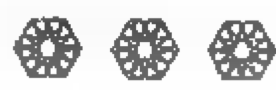
---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٢١) . وهو عند البخاري (٢٩٢٥) .

الأول بالنسبة للمسلمين ، فإن أفلحوا في استردادها ، وتضافرت منهم الجهود وصدقت النية على إنقاذها من محنتها ، وإزاحة كابوس إسرائيل عنها ، فقد قضوا بذلك على أطماع إسرائيل وخطط إسرائيل ، وإن تقاعسوا عن ذلك وتخاذلوا ، واقتصر دفاعهم عن فلسطين على الكلام وتحبير المقالات وإذاعة الخطب وتنظيم الاحتفالات للاحتجاج ، صدق عليهم قول الرسول ﷺ- فيما أخبر به من أعلام نبوته- : « يوشك أن تداعي عليكم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » . قيل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن اللّٰه من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن »[١] .

وحينئذ- لا قدر الله- بسوء على الإسلام وديار الإسلام السلام .

وبعد ، فإن رغبة رئيس التحرير في توخي الإيجاز- ما أمكن- قعدت بي عن تسطير كل ما يجيش في النفس عن فلسطين من آلام وآمال ، غير أن خير الكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيمل ، واللّٰه من وراء القصد .



(١) أخرجه أحمد ٨٢/٢٧ (٢٢٣٩٧) من حديث ثوبا رضي اللّٰه عنه . وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٨) .

حركة التأليف والنشر

«بين الشيوعية والإسلام»[(١)]

...[(٢)] طلع أخيرًا في دنيا الكتب والمطبوعات كتاب (بين الشيوعية والإسلام) لمؤلفيه العالمين الفاضلين الأستاذين محمد النواوي شيخ معهد منوف الديني، والأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي، الأستاذ بكلية اللغة العربية بالأزهر. وناهيك بعلمين من أعلام الدين والأدب، وعالمين، كرسا جهودهما للبحث والدرس وأوقفا حياتهما للتأليف وتنسيق المصنفات الهادفة، وكان لإنتاجهما العلمي أبرز الأثر في إنارة السبيل والكشف عن ...[(٢)] وتثقيف الأذهان والدفاع عن الحقيقة.

وكتابهما الذي نحن بصدد تقديمه للقراء (بين الشيوعية والإسلام) أصدق ما يصور المجهود العلمي ...[(٢)]، حيث حاولا فيه، كما جاء في مقدمة الكتاب، البحث والموازنة، وشرح موقف الإسلام من المبادئ ...[(٢)] عليه، والنظم الوضعية، وتوجيه الأنظار إلى ما يهدف إليه الإسلام من إصلاح شامل، وسلام دائم، وتعاون ...[(٢)] لخير البشرية، وإلى ما توحي به المبادئ الأخرى من ثورة متطرفة، ومذهب يؤمن بالطغيان، وصراع الديانات والإلحاد والمادية، ويثير الاضطراب في الحياة.

ومقدمة الكتاب بحث ضاف عن ضرورة الإيمان بإله قادر صانع حكيم، دلت عليه الفطر، وهدى إليه العقل، وقال به الحكماء، واتفق العقلاء على وجوده، واتصافه بصفات الكمال، وتنزيهه عن النقص.

---

(١) مجلة الحج - محرم - ١٣٨٠هـ.

(٢) كلمة غير واضحة.

وفيها عرض ...[١] لمذهب الوجودية ، وأنه نسيج وحده في التحلل ، وتجديد لكل نعرة فاشلة يقوم بها بعض ذوي ...[١] الضالة من عباد الأهواء والشهوات ، وتسلل من الإنسانية إلى الحيوانية ، حيث يغلب على أصحابه التمتع بالشهوة واللذة المحرمة فيكونون كالأنعام ؛ حياتهم الأكل والتمتع ، لا ترتفع نفوسهم إلى المجد الذي هو مجموعة من وسائل تتمثل في رياضة النفس على العدل والإحسان والعفة والنزاهة والصدق والشجاعة والكرامة وما إلى ذلك من كريم الخلال التي كفل الدين وحده ، لمن اتصف بها ، والتمسك بأهدابها ، الرفعة والعزة والمجد ...[١] التحرر .

وحفز المؤلفان لعقد مقارنة لصحة ذلك بماضي المسلمين ؛ عندما اتخذوا من الدين إمامًا وقدوة ساد ..[١] العالم ، وبحاضرهم حين انحرفوا عن الحق ، وأعرضوا عن هداية القرآن ، وأطلقوا لشهواتهم العنان ..[١] مشاكلهم ، وتعقدت أمورهم ، وقنطوا من رحمة الله ، فكانت حياتهم شقاء وتعاسة .

وأردف المؤلفان المقدمة بثلاثة وعشرين بحثًا صوَّرا فيها الاتجاه الإسلامي الصحيح ، الذي يهدم كل مبدأ ينهاضه ، وكل نظام يعارضه ، بيسر مبادئه ، وسماحة أحكامه ، ويوضح وجهة نظر الإسلام فيما حاول خصومه أن يوجدوا منه ثغرة لمطاعنهم وفجوة للنيل منه والطعن في أوضاعه ، وذلك كمسألة إباحة الإسلام لتعدد الزوجات ، وعدم إعطاء المرأة الحقوق الكاملة كالرجل ، بزعمهم .

وبعدُ : فإذا كان الكتاب يُقرأ من عنوانه ، فإن فيما أسلفته من الحديث عن مقدمة الكتاب ما يشعر بأهميته ، ودسامة مباحثه ، وقيامه بأوفر نصيب من التوجيه ، وبسط النظريات الإسلامية ، وتفنيد المزاعم الشيوعية وتوجيه الأنظار

---

(١) كلمة غير واضحة .

إلى جلال الإسلام وعظمته وخلوده، وأنه الدين الذي يصلح لقيادة البشرية، وتوجيه الشعوب والأمم في العصر الراهن، وجهة الحق والخير.



حركة التأليف والنشر

تفسير القرآن الكريم(١)

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

هذا هو اسم كتاب ألفه العلامة والأديب البارز الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي صاحب التآليف العظيمة، والمجالات الواسعة في دنيا العلم والأدب والتاريخ.

وقع في يدي صدفة الجزء الثالث من كتاب «تفسير القرآن الكريم» حيث تفضل بإهدائه إلى الصديق الكريم الأستاذ محمد سعيد العامودي، وكنت أكتب بحثًا في الشفاعة، فكان يهمني أن أقف على مصادر موثوق بها، تجمع بين صحة النقل، ورجاحة التصوير والتصويب، وترتفع عن المآخذ، فكان الجزء الثالث من تفسير القرآن الحكيم هو ضالتي المنشودة.

قرأت فيه تفسير قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٤] فأثلج صدري، وارتاحت إليه نفسي، وتابعت المؤلف في تفسير آية الكرسي- فألفيته كتب فيها ما يقرب من تسع صحائف، كتابة عالم محقق باحث خبير، لم يفته فيها فائت، فلم يهمل الوارد فيها من السنة والآثار، حتى ما يمكن أن يستشهد به من العقليات في تفسير الآية أورده، بالإضافة إلى التفسير الواضح لكل كلمة، والإشارة إلى كل مدلول فيها.

وبعد أن فرغ من آية الكرسي، استمع إليه وهو يشرح الطاغوت بأسلوبه الخاص بالمعنى الذي شرحه به المحققون قديمًا، مما يعطى الصورة الواضحة

(١) مجلة الحج - رجب - ١٣٧٩هـ.

للمنحى الذي اتجه إليه الأستاذ في تفسيره : والطاغوت هو كل ما تكون عبادته والإيمان به سببًا للطغيان ، والخروج عن الحق ؛ من مخلوق يعبد ، أو زعيم يسجد له ، أو هوى يتبع .

وهو نفس الاتجاه الذي اتجه إليه المحققون من العلماء في تفسير الطاغوت .

ولم أجد من الوقت متسعًا لمتابعة الأستاذ في كل أبحاث الجزء الثالث ، ولكني مررت على بعضها ، حتى أتيت على آخر الجزء ، فكان فرحي بنهايته لا يقل عن سروري ببدايته ؛ ذلك لأن المؤلف بعد أن أوضح وفسر وعلق بآرائه المستقلة ، وقارن ، وذكر المأثور والمنقول ، وأعطى القارئ فكرة واضحة عن كل مجموعة من الآيات ، عقد فصلًا مستقلًا تحت عنوان : (نظرات في الجزء الثالث) ضمنه خلاصة لما حواه الجزء الثالث من أحكام وآداب وأسباب للنزول ، وذكر المناسبات والملابسات ، وما إلى ذلك مما يلخص للقارئ مجموع ما قرأه .

إن كان لي من مأخذ على المؤلف مما أرجو أن يتلافاه ويستدركه في الطبعات أو الأجزاء المقبلة فهو :

أولًا : سرد أقوال المفسرين من السلف والخلف في بعض الآيات دون ترجيح ، فمثلًا عند تفسير قوله في قصة عيسى : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٥] أورد تفسير من يقول بوفاته وفاة حقيقية وأن معنى الوفاة هو نهاية الأجل ، وأورد الأقوال المعارضة التي تنص على أن الرفع لم يكن يقصد به الوفاة ، وأن الوفاة تكون بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان- وهو رأي الجمهور- ولكن لم يعقب برأيه ، وما يجب الأخذ به من الروايتين ، وإن كان من المعلوم بداهة أن قول السلف الذي أخذ به الجمهور- هو الراجح- .

ثانيًا : عدم تقريره لمذهب السلف فيما يتصل بصفات الرب جل وعلا ،

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى : ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] . قال : حب اللَّه : ثناؤه عليهم ، وثوابه لهم ، ومغفرته لذنوبهم .

وهذا المعنى وإن كان مما يتبادر من معنى ؛ إلا أنه كان من المناسب تقرير مذهب السلف ، وهو أن المحبة صفة للَّه تليق بجلاله وعظمته ، وليست لمخلوق ، فليس للَّه مثيل في صفاته وأفعاله وأسمائه .

ولن يقدح هذان المأخذان في قيمة الكتاب العلمية ، ولا يمنعان من الانتفاع به ، فهو من خير ما ألف في ...[١] غنى للعالم والمتعلم من اقتنائه والإفادة من أبحاثه .



(١) كلمة غير واضحة .

الطوفان .. ولا هذا[1]

كتبت منذ عهد ليس بالبعيد كلمة في صفحات هذه الجريدة من موضوع مما احتواه كتاب خالد محمد خالد يعارض به النقل، ركب به الواقع في إنكار وجود الشياطين تؤز إلى طريق الغواية، وتصد عن طريق اللّٰه، ومنبع الرشد والهدى، وصرف ذي الشواغل عن السير مع الأديب اللامع في رحلته الكتابية ومتابعة التعقيب عليه في بحوثه المطوية تحت عنوان: « هذا أو الطوفان ».

ولكني ما برحت عاقدًا العزم على مواصلة السير في الطريق الذي رسمته في إتمام المشروع الذي بدأته والمعني في ركب تيارات طوفانه الجارف، وعبد طغيانه عن أن يقذف ببذور التشكيك على أقدس مقدساتنا وأفضل ما نعتز به ونغار عليه؛ ألا وهو الدين وتعاليم الفطرة.

ومقال اليوم هو الحلقة الثانية في التعقيب، وفيه الكشف عن نحلة صاحب لطوفان في نفيه لأقدار اللّٰه، وتهكمه بالنهج المثالي، الذي درج عليه مؤمنو الأمة وصالحوا العباد في إسناد كل من الخير والشر إلى قضاء اللّٰه وتدبيره، ثم سخريته من صحابة رسول اللّٰه ﷺ إذ ذهبوا إلى الرسول ﷺ يستوضحونه موضوع تقديرات العباد، ويقولون له: ففيم العمل، وما منا من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة.

ويصور لنا صاحب الطوفان مسلكين لا ثالث لهما، عبر عنهما: بالتصوير الديني، يعني به، ما درج عليه خيار الخلق، منذ أن عرفوا الحق واهتدوا بهداه، من ضرورة التسليم لأقدار اللّٰه واعتقاد أن ما يصدر من العباد من خير أو شر هو في علم اللّٰه وبقضائه.

---

(١) صحيفة البلاد السعودية (١١٠٠) في ١٣٧٣/١١/١٨هـ.

والمسلك الثاني : عبر عنه : بالتصوير العلمي التجريبي ، يعني به نفي الأقدار ، وإرجاع كل تصرف للخلق إلى تكوينهم الجسمي والنفسي وفعل البيئة .

ويقول بالنص الحرفي : ونحن نختار الثاني ؛ معتقدين أن اللَّه ذاته يزكي هذا الاختيار .

ويعلق على نحلة اختيارها هذا المسلك ، بقوله : إنه يتيح الفرصة للكشف عن المصادر الحقيقة لأخلاق الناس وسلوكهم ، تلك السنن التي تمثل في تكوينهم الجسدي والنفسي والبيئي .

ويمعن في تدعيم هذا المسلك فيقول : إن التصور العلمي يهب بالناس أن يتضاعفوا من جهدهم المبذول في سبيل تربية النفس ، وإعلاء بطبيعتها ما دنست الرذيلة التي ...(١) ليست قدرًا مكتوبًا ، وما دنست وليدة عوامل ، الممكن إزاحتها والتخلص منها . إن تسعين في المائة لا يعرفون من السلوك الإنساني إلا أنه (المقدر المكتوب) ويعبرون عن منابع هذا السلوك بآية من القرآن ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: الآية ١٧] .

ويمعن في التحدث على هذا المنوال فيقول : إن الكثرة الكاثرة من الناس تعتقد أن هذا الذي يسير في موكب الغوايا نشوان وقد خلق لهذا ، والذي يسير في موكب الصلاح قد خلق لهذا ، وإن الوعاظ ليتلون على مسامعهم آناء الليل وأطراف النهار نبأ الرسول حين خرج على أصحابه وفي يده كتابان طوح الذي في يده اليمنى وقال : إن أهل الجنة في كتاب مثل هذا ، قد علمهم اللَّه فكتب أسماءهم وما سيعملون . ثم طوح الذي في يده اليسرى قائلًا : وإن أهل النار في كتاب مثل هذا قد علمهم اللَّه فكتب أسماءهم وما سيعملون ، جفت الأقلام وطويت الصحف . وسأله أصحابه : إذن فيم العمل؟ فأجابهم : « اعملوا فكل

(١) كلمة غير واضحة .

ميسر لما خلق له »[1] .اهـ .

ولعل القارئ الكريم يلحظ مدى السخرية التي لوح بها الكاتب في إيراده الحديث بغير وضعه ومن غير أن يسنده ، ومن قوله : « طوح بالذي في يده اليمنى » . ومن قوله : « فكتب أسماءهم » . وليته اقتصر على هذا ، بل لقد أمعن في الاستهتار ، حيث علق على الحديث بقوله : إن الحيرة اعتلت في وجنات أصحاب الرسول ، والتي عبروا عنها بسؤالهم الذاهل المبهوت : « فيم العمل » . هي التي تجعلنا نرثي لأنفسنا حين نقيس السلوك الإنساني بهذا المقياس . إن عبارتهم : « فيم العمل » . عقبة ...[2] توضع في طريق التسامي والإعلاء ، وهي نتيجة محتومة للامتحان ، إن اللّه قد اختار لكل إنسان نوع سلوكه . اهـ .

ونحن نحصر التعقيب على الكاتب في ثلاث نقط :

أولاها : التنكر للأقدار ، مبتدئين بذكر نص الحديث الذي شوه معالمه الكاتب بأسلوبه الساحر ، وبقوة تصرفه في نقله عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » . قالوا : يا رسول اللّه ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسره لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسره لعمل أهل الشقاوة » . ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠] . متفق عليه[3] .

وفي معناه أحاديث أخرى مروية بغير هذا الوجه في أكثر كتب السنة ، ليس

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا .

(٢) كلمة غير واضحة .

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٤٥- ٤٩٤٧) ، ومسلم (٢٦٤٧) .

فيها « طوح » ، وليس فيها « كتب أسمائهم » مما يشعر بالسخرية والتهكم منها .

ومما ورد من آي الكتاب العزيز تكونت عقيدة المسلم في باب القدر ، وخلاصتها : أن اللَّه تبارك وتعالى كتب في الأزل أقدار الخلائق من خير وشر ، وسعادة وشقاوة ، وخلق العباد وأفعالهم، وعلم ما هم عاملون ومكتسبون من صالح وخبيث ورشد وقبيح ، فكل الطاعات والمعاصي ، وكل الإيمان والكفر ، والفسوق ، وزندقة المتزندقين ، وإلحاد الملحدين ، وما هو كائن في ملك اللَّه إلى يوم الدين ، هو واقع بمشيئة اللَّه تعالى وتقديره ، ما شاء اللَّه كان ، وما لم يشاء لم يكن ، واللَّه سبحانه قد جعل الاختيار للعبد في كسبه ، كما قال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البَلَد: الآية ١٠] . أي : أوضحنا له طريق الخير والشر ، وجعل له قدره على اختيار أحد المسلكين ...[1] وأرسل رسله ، وأنزل كتبه ؛ لإقامة الحجة على العباد ، فلا عذر بعد رسولٍ ؛ ولا حجة مع إنزال كتاب .

هذا هو مجمل عقيدة المسلم في باب أقدار اللَّه تعالى ، وقد تنكر الكاتب ، كما أسلفت ؛ تمشيًا مع النزعة المادية الطاغية ، وجريًا مع أساليبها ، واستجابة لغريزة حب الظهور ، فنسب كل تصرف للعبد ، وكل كسب للتكوين الجسدي والنفسي والبيئي ، على حد تعبيره ، ولا دخل في مذهبه لمشيئة خالق أراد ما الخلق فاعلون ، يهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته ، لا يسأل عما يفعل سبحانه .

وفي رأي الكاتب كلما اكتمل التكوين الجسمي والنفسي والبيئي ارتفع المخلوق إلى أعلى درجات الكمال واطمئن .

وأبرز ما يطالعنا به على صحة هذا الاتجاه ضرب المثل بساسة الغرب ؛ نوابغ المخترعين والمبتدعين من رجاله ، كيف بلغوا شأنًا بعيدًا في الحنكة وبعد النظر ،

(١) كلمة غير واضحة .

وكيف برزوا بمواهبهم وصحة تكوينهم إلى حدٍ مكنهم من اختراع القنبلة الذرية والهيدروجينيا التي حيرت العقلية البشرية في حد نطاق عقولها، وحصر سيطرتها في التجريب، وما ذاك إلا بتأثير صلاح ثالوث التكوين، على زعمه!!

وقد تجاهل الكاتب، أو غاب عن ذهنه، ما قصه اللَّه علينا في محكم كتابه من نعوت المنافقين وعذوبة منطقهم، حيث يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: الآية ٤]. وهم إلى جانب ذلك في بيئة أشرق فيها نور خير البرية، ومع ذلك قصَّ اللَّه خبرهم، وأنهم في الدرك الأسفل من النار، لم تغن عنهم سنهم ولا ضخامة أجسامهم وعذوبة منطقهم من اللَّه شيئًا، ولا كانت سببًا في هدايتهم إذا أضلهم اللَّه.

ولقد تردد في القرآن في غير ما آية ذكر قوم في الماضين، كانوا من أشد الناس قوة وآثارًا، ولكن ذلك لم يجد في هدايتهم وتقويمهم، بل كان سببًا في حلول النقمة بهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: الآية ٩].

وإذن فقد انهار زعم الكاتب في نسبة تصرفات العباد للتكوين الجسدي والنفسي والبيئي، بما أسلفت من أدلة فاصلة، وأنها لنظرة مادية، لا أقل ولا أكثر، استولت على الكاتب فسدت عليه المسالك، وحرمته من تحسس نور الحق وضيائه.

النقطة الثانية في النقاش: ما سماه الكاتب بالكشف عن المعايير الصحيحة للفضيلة!

وهي في الواقع الارتكاس والخذلان في تقرير معايير الفضيلة. وآية ذلك:

وصف الكاتب وتمثله للرجل الزاهد بأنه بليد[١] في حقيقته ، ووصف القنوع بأنه عاجز في حقيقته ! وعلى العكس وصف الضال بأنه على خير عظيم . ويتساءل بعد هذا التمثيل والوصف الجائر قائلًا : فما سر هذا التباين ؟ ثم رد على تساؤله بقوله : سره أن تصورنا الدين للسلوك لا يساير القواعد التي استجلها له العلم من أعمال التجربة الإنسانية .

ثم نجده بعد هذا يضرب لنا المثل بنجيب الريحاني في الهداية المجسدة ، وأن فنَّهُ لجامعة تلقي على المجتمع أبلغ الدروس ، وتوجهه نحو أسمى الفضائل ؛ ذلك أن العلم لم يجد في الريحاني سوى فنان يعكس على المسرح في سخرية مما تأتيه حياتنا الواقعة في تبجح . يقول هذا وهو يحاول أن يكشف لنا عن المعايير للفضيلة .

ثم يعود إلى تهكمه بالمتدينين والمحافظين فيقول في موقع آخر : إذا نظرنا إليه- ويعني الريحاني الممثل- من تصورنا الديني للأشياء حكمنا عليه بأنه فاسق . أليس يفرض عليه موضوع القصة أحيانًا أن ...[٢] نظرنا إليه من زاوية التصور العلمي هتفنا في إعجاب صادق بالفيلسوف الساخر .

وكأن الكاتب يرى في نجاح الممثلين والروائيين على المسرح دروسًا عملية يجب أن تتخذ معايير الفضيلة كما يرسمها أبطال التمثيل ، ويجب أن تحتذى ؛ كوسيلة فعالة في التقويم ، والدلالة على السلوك الراشد ، وليت شعري متى كانت المهازل والسخريات ومجالس اللهو والعبث والتهريج طريق رشاد ، أو سبيل فلاح ونجاح . وإذن فقد كان لزامًا على الأزهر ودور العلم ، بل ورجال الوعظ والإرشاد أن يستنجدوا بالممثلين وأبطال المسارح للتأثير على الجمهور في تصوير المواعظ

---

(١) في الأصل : « يلبد » .

(٢) كلمة غير واضحة .

والدروس بشكل يسترعي الانتباه ، ويحفز على الغيرة .

ولست أدري على أي منطق يعتمد الكاتب في رفع العابثين والهازلين الماجنين في مدارج السالكين من الهداة والمرشدين والعارفين من حملة العلم والدين ، ولنفرض جدلًا أن الصور التي يرسمها الفنان على المسرح تنعكس في نفوس النظارة دروسًا أخلاقية لا تنسى ، كما يقول الكاتب فيها : يكفي مجرد هذا الانعكاس والانعطاف في جوانب النفس لحمل الناظرين على الهداية الإرغواء عن سبل الغواية والانحراف في السلوك .

أظن أن الكاتب أراد أن يوغل في التجني ، ويمعن في الاستهتار بأصحاب الفضيلة ، فيخفض بهم حتى عن درجة الممثلين الماجنين والمهرجين ، ألهذا القدر بأصحاب الفضيلة ؛ تهجم على أقداركم ، وسخرية بالدين ، وتجن على الفضيلة .

بقي أن نناقش الكاتب في النقطة الثالثة ؛ وهي نهاية مرحلة النقاش : ونعني بها ما سماه : بدراسة النفس دراسة تجريبية لا دراسة لاهوتية- على حد تعبيره- أتدري أيها القارئ إلام يهدف الكاتب بهذه الدراسة ؟ إنه يهدف إلى التحلل السافر بكل معانيه ، ولا يهولنك هذا ، فأنا لست بهازل ، كما يهزل صاحب الطوفان ، ولكني مثلك في الدهشة والاستغراب ، ووضع علامات الاستفهام الكبيرة .

وتعال معي نستمع إلى المثل المنحرف الذي ضربه الكاتب ، يدعو إليه من عملية التجربة الفاشلة ، والتي يستنهض الهمم للأخذ بها ؛ كمحاولة ناجحة في التقويم ، يقول بالنص الحرفي : أعرف عابسًا اضطربت حياته الانفعالية الجنسية اضطرابًا وجه سلوكه وجهًا منحرفة شاذة ، وكان من حسن حظه أن استمع إلى نصيحة ...[1] أن يتعلم فنَّ الرقص ويمارسه كهواية دائمة ، وجاءت النتيجة بما لم

(١) كلمة غير واضحة .

يكن منتظرًا من الفضيلة والاستقامة والتسامي ، فلو أن النصيحة التي ألقيت إلى الشاب كانت عبارة عن موجز لأجدى الخطب المنبرية التي تدعو إلى التقوى وتنهى عن الإثم ، وهو ما يتوصل به تصورنا الديني . إذن لكان هذاالتعس قد سجل رقمًا قياسيًا في الاستجابة لتوازع علته وعقدته .ا.هـ .

فما معنى هذا يا أمة محمد ؟ أظن من الواضح الذي لا لبس فيه ولا غموض أن هذه العملية ؛ عملية التجربة الآثمة الفاجرة لا تقف عند حد لو تحجزها حواجز ، وكما تكون على المثل الذي سرده الكاتب ، تكون في ألوان من الأمثلة بعيدة الحصر كثيرة التشكيلات ، فمن رقص وخلاعة إلى زمر وخمر إلى تجارب أخرى تنهار بها الأخلاق ، وتبلغ بها النهاية في دركات الإثم والرذيلة والإسفاف ، وتكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وكل ذلك نزولًا على قانون التجربة الذي رسمه لنا صاحب الطوفان بمثله السالف . وهذه هي ثالثة ثلاثًا ؛ في بدايتها : التنكر للأقدار ، وثانيها : الارتكاس في تقنين معايير الفضيلة ، والثالثة : التحلل السافر المقيت ، وكلها والله ، قواصم للظهر ، ومجالب النقمة ، وبوادر الشقاء ، وعندي أن طوفانًا كطوفان نوح أهون ون من هذه الإباحية النكراء والانسلاخ الطائش ، ففي الطوفان تطهير للأرض من إلحاد الملحدين وعبرة للجاحدين والمتزندقين ، نعوذ بالله من شرور النفس وسيئات الأعمال .



إصعاد الصواريخ إلى القمر[١]

قبل مدة من الزمن وعندما أذيع في العالم نبأ الأقمار الصناعية والصاروخ الروسي، أو القمر الروسي، وأنه تجاوز القمر بعد إطلاقه ودخل في جاذبية الشمس.. خاض الناس في ذلك كثيرًا، وكتب الكاتبون والعلماء بين مثبت وناف، والذي يعنينا فيما كتب، مقال لعالم مواطن نشر في جريدة «الندوة» يقول فيه بعد تقدمة فلكية: وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا﴾ [الصافات: ٦-٩].

ثم علق على الآية بقوله: فأفادت الآية أن الكواكب ومنها الشمس والقمر وغيرها تحت السماء الدنيا، وإذن فالسموات جميعها وراء النجوم والكواكب جميعها. فإن صح هذا الاستدلال، وهو أقرب إلى الحقيقة، فلا ضير أن يصل ما سمي بالقمر الروسي أو الصاروخ الروسي أو غيرهما إلى القمر، ما دام القمر يبعد كثيرًا عن السماء التي حفظها الله من مردة الشياطين، والتي يستقر فيها الملائكة المقربون، ثم إن الدين الإسلامي لم يعن بالكشف عن ماهية القمر، ولا عن طبيعته، ولا عن الجاذبية بينه وبين غيره من الكواكب، ولا عن إمكان الوصول إليه من عدمه؛ لأن ذلك فضول لا يترتب على معرفته كبير فائدة للمسلم، وإنما عني بتوضيح ما تحصل به الفائدة حيث وجه الأنظار إلى أن الشمس والقمر من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله، وكمال عظمته وجلاله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: الآية ٣٧] أي: لا يحملنكم عظمة هذه الآيات أن تعبدوها، بل اعبدوا خالقها

(١) مجلة المنهل- في ١٣٧٩/٤/٢٤هـ.

المتصرف فيها ، ففي عبادة اللَّه نفع للعبد وسعادة في حياته .

وعنى بتوضيح إتقان خلق هاتين الآيتين العظيمتين ، حيث سيرها بنظام دقيق لا يختلف أو يضطرب فيختلف ويضطرب نظام الكون باختلافه ، كما قال تعالى في سورة الرعد : ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرّعد: الآية ٢] أي : إلى نهاية الدنيا . كما قال ذلك أيضًا في سورة لقمان ، وفي سورة فاطر ، وفي سورة الروم .

وعني أيضًا بإيضاح هاتين الآيتين في الكون ، حيث قال في سورة يونس : ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يُونس: الآية ٥] أي : جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورًا ، وهيأ للقمر منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها ، فبالشمس يعرف حساب الأيام ، وبسير القمر يعرف حساب الشهور والأعوام ، وهو المراد من قوله سبحانه : ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يُونس: الآية ٥] . أي : لتعلموا عدد دخول السنين ، وانقضاءها ، وحساب الشهور والأيام والساعات- ففي الآية الأولى : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٧] بيان حكمة خلق الشمس والقمر للاستدلال بعظم خلقهما على عظمة خالقهما ؛ ليعبد وحده فلا يعصى ، ويحمد فيشكر ولا يكفر .

وفي الآيات الأخرى بعد ذلك أي آية الرعد ، ولقمان ، وفاطر ، والزمر ، بيان الدقة والإحكام في الصنعة ، وهي أيضًا من دلائل عظمة الصانع العظيم ، وعدم مماثلة أحد له من المعبودين ؛ ليفرد وحده بالعبادة ، كما هو فرد في الخلق والتدبير .

وفي آية يونس : ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يُونس: الآية ٥] الآية . بيان منافع العباد والمصالح التي تدور على إيجاد هاتين الآيتين العظيمتين .

أما ما عدا ذلك ، فليس في توضيحه ، أو الحديث عنه ، فائدة أو عائدة تعود على المسلم من أجل ذلك لم يعن الإسلام به .

وفي عصر التنزيل سأل سائل عن الهلال ما باله يبدو دقيقًا ، ثم يزيد حتى يمتلئ نورًا ، ثم يعود دقيقًا كما بدا ، ولا يكون على حاله ؟ فصرفه اللّٰه عن هذا السؤال ووجهه إلى ما فيه نفع له ، حيث أوضح سبحانه الحكمة من إيجاد الأهلة ، فقال : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: الآية ١٨٩] . أي : جعلها اللّٰه مواقيت لصوم المسلمين ، وإفطارهم ، وعدة نسائهم ، وأوقات حجهم ، واستيفاء ديونهم ، مما يشعر بوضوح أن الإسلام في أصوله وفروعه ، وفي أحكامه وقضاياه ، لم يعن إلا باللباب والجوهر ويترك القشور والفضول ، لا يشغل بال المسلمين بها ، وحتى القصص في القرآن لم يعن بتفاصيل القصة حين يسردها ولا يذكر ملابساتها وتعداد فصولها ، وسرد أسماء أبطالها ، وإنما عني بأخذ العبرة والعظة منها ؛ فذلك أنفع للعباد ، وأصلح لتقويم السلوك .

وإن ما طالعتنا به الصحف أخيرًا وأذيع وأشيع في العالم من وصول ما سمي بالقمر الروسي إلى القمر ، واستقراره عليه ، لا يترتب على الوقوف على حقائق وتفاصيل البحث فيه فائدة للمسلم ، كما أنه لا يترتب على الإيمان به ، وتصديقه ، أو جحده ، والتكذيب به ، إقامة الدين أو هدمه ، فليس الإيمان به ، أو جحده إيمانًا بأصل من أصول الدين ، أو جحدًا لمبدأ من مبادئه ، فيجب أن لا نطالب الدين ، وقد أوضح اللّٰه أهدافه واتجاهاته والأغراض التي تبنى عليها أحكامه ، يجب أن لا نطالبه بالكشف عن حقيقة كل صنعة ، وتوضيح وجهة نظره في كل اختراع ، وتفسير كل ظاهرة تظهر في الوجود ، وإذا لم نجد فيه مطلبنا ؛ لأن مطلبنا خارج عن حدود ما رسمه الدين من العناية بما فيه مصلحة العباد دينًا ودنيا رمينا الدين بالعجز والجمود ، لا ، ليس ذلك بالمسلك السديد

الرشيد، وليعلم المسلم الصادق في إسلامه أن مما يخدش الإيمان أن يتوهم متوهم أن أية ظاهرة في الكون، أو أي تأثير يحدث فيه، لم يكن في سابق علم اللَّه الأزلي مما يؤدي إلى اعتقاد أن يكون في ملك اللَّه ما لا يريد، وذلك اعتقاد باطل، بل يجب أن يؤمن المسلم إيمانًا، لا شك فيه ولا ارتياب، أن هذه الظواهر التي تبدو في الكون، ويتحدث عنها الناس، من أقمار، وصواريخ صناعية، أو قنابل ذرية، وهيدروجينية، أو طائرات نفاثة، أو غير ذلك، مما لعله أن يطالعنا به المستقبل، كل ذلك مما علمه اللَّه بعلمه القديم الأزلي.

وأن كل ما في السماوات والأرض من حركة وسكون هو بمشيئة اللَّه وتقديره، لا يكون في ملك اللَّه ما لا يريده.

وأنه ما من مخلوق في السماء ولا في الأرض إلا اللَّه موجده وخالقه كيف شاء، وأن للخلق قدرة على أعمالهم فهم فاعلون حقيقة، كل ما قدروا على فعله من طاعات ومعاص ومن اكتشافات ومخترعات وصناعات، وما إليه، واللَّه سبحانه خالقهم وخالق أفعالهم.

وما دام ذلك كذلك فليس بغريب أن يسقط ما سمي بالقمر الروسي المصنوع بأيدي البشر على القمر المخلوق بقدرة اللَّه، فكلاهما مخلوق للَّه، وكلاهما من آثار صنع اللَّه ومن دلائل عظمة اللَّه، وكل ما اخترع وتفتقت عنه أذهان البشر من غرائب وعجائب وصنائع إلى يوم القيامة، هو مما يقوي الإيمان باللَّه؛ لأنه من دلائل قدرته، فهو في الواقع الخالق الذي أقدر العباد على صنع ما اقتضت حكمته إيجاده وعمله.

بقي أن نعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦] لما له من وثيق الارتباط بموضوعنا.

قال الحسن رحمه اللّٰه في تفسيرها : يعني في السماء الدنيا، كما تقول : أتيت بني تميم . وإنما أتى بعضهم[(١)] . وقال عبد اللّٰه بن عمر رضي اللّٰه عنهما : إن الشمس والقمر وجوههما إلى السموات ، وأقفيتهما إلى الأرض[(٢)] . فمن قول ابن عمر يتضح أن الشمس والقمر ليسا بملاصقين للسموات ، بل نورهما هو الذي يصل السماوات والأرض .

ومن قول الحسن يتضح أن نور القمر في السماء الدنيا ، وقد أوضح ذلك بالمثال الذي ضربه للتقريب إلى الأذهان - يقال : أتيت بني تميم ، وإنما أتى بعضهم ، وعلى هذا فلا تعارض بين قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦، ٧] ، وبين قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦] .

فالقمر من الكواكب ، وهو في السماء ، بمعنى نوره في السماء الدنيا ، وهي مزينة به في جملة ما زينها اللّٰه به من الكواكب ، وليس معنى ذلك الملاصقة ، ومن ثم يظهر بوضوح أن ما سمي بالقمر الصناعي ، إن صح وصوله إلى القمر ، فلن يصل إلى السماء مسكن الملائكة التي حفظها اللّٰه من مردة الشياطين ، وسوف يحفظها من عموم البشر .

وبعد ، فهذه إجابة لصاحب « المنهل » على سؤاله ، فإن أصبت فيها فمن اللّٰه ، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان ، وفوق كل ذي علم عليم ، أسأل اللّٰه لي ولإخواني المسلمين الثبات على الإيمان والوفاة عليه من غير فتنة مضلة أو محنة صارفة .

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٢٣/ ٦٣٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٣/ ٣١٩، والطبري في تفسيرها ٢٣/٦٣٧ لكن عن عبد اللّٰه بن عمرو.

أنت تسأل ؟ ونحن نجيب[1]

كان أحد القراء قد تقدم إلى الجريدة بكلمة يسأل عن جواز دخول المسجد بالنعل ، وقد أحيل السؤال إلى فضيلة الشيخ عبد الله خياط ، إمام وخطيب المسجد الحرام ، فتفضل فضيلته بالإجابة عليه ، ولم يترك فيه زيادة لمستزيد ، ولكن بعض قرائنا من أصدقاء الجريدة بدا لهم أن يستوضحوا عن نقاط أخرى ، فكتبوا إلى الجريدة بذلك ، وقد أحالتها الجريدة بدورها إلى فضيلته ، فتفضل بالإجابة التالية ، ونحن ننشرها مؤملين ألا نحتاج بعدها إلى أخذ ورد في شئون كان الدين قد قررها بصورة قاطعة .

حضرة الفاضل : رئيس تحرير « جريدة الندوة » . المحترم . بعد التحية :

وقفت على الكتابين المبعوث بهما إليَّ من قبلكم للنظر فيهما والتعليق على ما جاء بها ، وخلاصة ما جاء في الكتاب الأول : أن الكاتب يرى أن الأحاديث التي أوردتها في مقالي الأسبق ، في موضوع الانتعال في المسجد ، قيلت في زمن كان الناس فيه من شدة احترامهم لدينهم ، يتبرزون بعيدًا عن منازلهم ومساجدهم .

أما في عصرنا ، فإن في الناس من يتبول على جدار المسجد ، ويتغوط على ناصية الطريق ، فمن يضمن ، والحالة هذه ، أن نعل المصلي ستكون طاهرة عند دخوله للمسجد .

ويمضي الكاتب في حديثه فيقول : فهذه الفوارق بين الماضي والحاضر ، وما طرأ على المسلمين في آدابهم وعلمهم وأخلاقهم توجب تحريم دخول المصلين للمساجد منتعلين إن لم يكن هذا التحريم عرفًا أو نظامًا تستدعيه الضرورة ، فليكن من باب آداب المساجد واحترام بيوت الله .

---

(١) صحيفة الندوة - في ١٠/١١/١٣٧٧هـ .

ويمضي أيضًا قدمًا فيقول : هل يقر سيادته الدخول للمسجد بحذاء فيه مخاط ، باعتبار أنه ليس بنجاسة ، ثم أسير به بين أروقة المساجد وعلى سجاجيد الصلاة .

ثم يختم كتابه بالحث على ضرورة مجارات العصر الحالي ، وملاحظة الفوارق التي استجدت بعد العصر النبوي ، ويقول بالنص الحرفي : إن السماح للمصلين بانتعال أحذيتهم يتنافى مع الآداب الإسلامية ، وإن لم يمنعه الشرع فليمنعه العرف والتقاليد المحمودة .

وقبل أن أبدأ التعليق على النقط الجوهرية في هذا الكتاب ، أشكر للكاتب غيرته الدينية وتحمسه ولنظافة المساجد واحترام بيوت اللّٰه . ثم أحصر التعليق على ما جاء في كتابه في نقطتين ، وغرضي من هذا التعليق : التوضيح وإنارة السبيل ، لا الجدل .

النقطة الأولى : التحريم والتحليل وإقحام العرف والتقاليد في ذلك .

والنقطة الثانية : ضرورة مسايرة العصر وملاحظة تطور الزمن .

أما التحريم والتحليل، فهو من اختصاص المشرع بإذن اللّٰه ووحيه ، والمبلغ عن اللّٰه أشرف الخلق محمد بن عبد اللّٰه ﷺ ، وليس لأحد من الخلق مهما لمع نجمه ، وحلق في أجواء من العلم والمعرفة أن يقول : هذا حلال وهذا حرام . فضلًا عن أن يكون للتقاليد والعرف دخل في ذلك ، فمن اجترأ على اللّٰه وحرم ما أحله اللّٰه ، أو أحل ما حرمه اللّٰه دون تدليل مستمد من أحد الوحيين ، فقد أعظم الفرية على اللّٰه ، وتقدم بين يدي اللّٰه ورسوله .

وموضوع الصلاة في النعل ، أو دخول المصلي إلى المسجد منتعلًا ، رخص فيه رسول اللّٰه ﷺ قولًا ، وشجع عليه عملًا ، كما أوردت على ذلك الأحاديث في مقالي الأسبق .

وليس لمسلم أن يحكم هواه وتقاليد بلده في شيء قرر الشرع جوازه ، بل يجب عليه القبول والاطمئنان والعمل ، ولن يستقيم أمر الدين إلا بذلك ، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »[1] .

قال النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث : إن الشخص يجب عليه أن يعرض عمله على الكتاب والسنة ، ويخالف هواه ، ويتبع ما جاء به ﷺ ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦] . فليس لأحد مع الله عز وجل ورسوله أمر ولا نهي . اهـ .

ونحن هنا وفي موضوع الصلاة بالنعل ، ودخول المصلي المسجد منتعلًا بعد التأكد من طهارتها ، ونظافتها بدلكها في التراب ، واطراح الوسواس ، تقرر ما قرره النووي رحمه الله ، ولا نجعل لنا قولًا أو فعلًا ، أو أمرًا ، أو نهيًا ، مع قول رسول الله ﷺ وأمره وفعله ، وأن رب العزة الذي شرع لرسوله ﷺ لأمته الصلاة في النعال ، هو أعلم بحرمة المساجد والطريقة التي تصان بها في كل زمان ومكان ، وهو العليم بمصالح عباده ، يشرع لهم من الدين ما يصلح به شئونهم دينًا ودنيا .

النقطة الثانية : وهي ضرورة مسايرة العصر وملاحظة تطور الزمن ، وأن طابع الدين الإسلامي الذي كتب له الخلود ، هو مسايرته للزمن ، فهو الدين الصالح لكل زمان ومكان ، يعمل به البدوي في بيدائه قديمًا وحديثًا ، كما يعمل المتدين في أوربا والبلاد المتحضرة في كل عصر وكل زمن من الأزمان ، وقد تكفل الله بحفظه وحفظ كتابه ، وهو الدستور الذي تتبع منه تشريعاته ، ليبقى أبدًا على

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥) ، والبغوي في شرح السنة (١٠٤) . وضعفه الألباني في ظلال الجنة (١٥) .

جدته ، لا يتطرق إلى تعاليمه البلى على كر العصور ومر الأزمان ، ولا يحتاج الناس في زمن ما إلى إدخال تعديلات على تشريعاته ، وهذا هو التطور والتجديد . وبذلك أصبح يساير الزمن في تطوراته .

أما تطور الناس في عقيدتهم وتقاليدهم وأوضاعهم التي تعارفوا عليها ، فيجب أن يكون ذلك خاضعًا للدين وتوجيهاته ؛ لأن لكل بلد وكل أمة عادات وتقاليد وأوضاعًا تختلف عن غيرها ، وسوف يستحسن هذا البلد ، وهذا العنصر ما يستهجنه الآخر .

ثم لو أخذنا جدلًا بفكرة التجديد والتطور في التقاليد والعرف ، لهدمنا الكثير من تعاليم الدين ؛ لأن من لازم ذلك أن كل تشريع لا يوافق التقاليد وتطور الزمن ، في نظر ما يجب أن نعمل فيه التطوير والتعديل ؛ ليصبح خاضعًا لتطور الزمن وتقاليد الناس . فالنساء- مثلًا- يجب أن يخرجن إلى مجامع الرجال كاسيات عاريات ؛ مجاراة لتطور الزمن ؛ لأن شريعة الحجاب أصبحت لا توافق الفتيات المتحررة ، ولا تنسجم مع الزمن والعلم والتعلم ! ! يجب أن ينسلخ منه كل شيء يتصل بالروحانيات والترغيب في الدنيا ؛ ليساير عقلية الرجل العصري الذي لا يعترف بما وراء المحسوس ، ولا يؤمن إلا بالمادة .

وهكذا كل شعيرة من شعائر الدين ، يجب أن ندخل عليها التذيب والتهذيب ؛ لتصبح على هذا الزعم غاية لتطور الزمن ، فلا حدود، ولا قصاص ولا لأمة تسمع لآمر بالمعروف أو ناه عن المنكر ؛ كل ذلك لنساير تطور الزمن المادي . ولن يستقيم للأمة دين ولا إصلاح إلا على نهج سلفها وما درج عليه خيارها في عصور النور ، وذلك هو صمام الأمان .

بقي أن أوجه نظر الكاتب إلى إعادة قراءة ما كتبته آنفًا والتروي في القراءة ، فإنه سوف يجد الحث على التثبت من نظافة النعل من كل قذر قبل الدخول بها

إلى المسجد وانتعالها فيه ، بما في ذلك المخاط وغيره ، فليس لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر يدخل بيوت الله ويعمد إلى تقذيرها وإيذاء المصلين بالقذر في نعله .

وسوف يلحظ الكاتب أنني وجهت الأنظار إلى الأخذ بالسنة في حدود الاستطاعة ، والاستطاعة تختلف باختلاف الزمن والوضع والظرف ، فقد يستطيع المرء أن يصلي في نعاله إذا دخل مسجدًا تفترش أرضه الحصباء- مثلًا- وقد لا يستطيع ذلك في ناحية أخرى ، والمهم في الموضوع أن لا نحرم شيئًا أباحه الشرع ، ولا نعيب على متبع ، ونجهل عليه ، وكأنه ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب .

وخلاصته الموضوع يرتكز ما رسم القرآن ، حيث يقول فيه رب العزة : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: الآية ٧] .

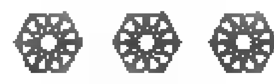
أما الكتاب التالي فيطالب صاحبه بتوضيح اسم الكتاب والصفحة والسطر الذي نقلت منه الأحاديث الواردة في مقالي الأسبق ، وكأنه- عفا الله عني وعنه- غير متأكد من صحة ما أوردته ، كما يطالب بتفسير آية : ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: الآية ١٢] .

أما الأحاديث السابقة ، فقد ذكرت في نفس المقال أنها من سنن أبي داود ، وسنن أبي داود من أمهات السنة المعروفة عند أهل العلم ، وهي مذكورة في كتاب « إغاثة اللهفان » ص ١٤٦ ، وفي الجزء الأول من كتاب « فقه السنة » ص ٤٨ ، وقد عقد كل من الإمامين البخاري ومسلم رحمهما الله ، بابين بعنوان : الصلاة في النعال . فليرجع إلى كل ذلك الكاتب ، إن كان من أهل العلم .

وأما تفسير قوله تعالى : ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: الآية ١٢] فالخطاب في الآية لنبي الله ورسوله موسى ، أمره الله أن يخلع نعليه عند مناجاته ، وكان السبب في هذا الأمر على ما روي عن ابن مسعود مرفوعًا قال :

« كانتا من جلد حمار ميت »[١] .

ويروى أنه غير مدبوغ ، والوادي المقدس اسمه : طوى . وهو المكان الذي كلم اللّٰه فيه موسى عليه السلام عندما كان قادمًا بأهله من مدين إلى مصر . والذي أمر موسى عليه السلام أن يخلع نعليه في الواد المقدس ، هو الذي شرع لعبده ورسوله محمد ﷺ ولأمته الصلاة في النعال والوقوف أمامه بهما إذا كانتا طاهرتين نظيفتين ، والتشريع أمر توقيفي لا يقوم على القياس والظن والتخمين والاستحسان ، وإنما يقوم على الأمر والنهي ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧] . واللّٰه الموفق .



(١) أخرجه الترمذي (١٧٣٤) . وقال الألباني : ضعيف جدًّا .

سؤال وجواب
يسألونك عن المحيض[1]

سألني سائل كريم ممن يتسمون بالصلاح والتقوى، ولا يتهم في صدقه عن قراءة الحائض للقرآن. فأجبته بالحرمة وعدم الجواز. قال: فما بال بعض مدارس البنات بالاختبار في القرآن، رغم وجود المانع الشرعي لديهن؟ وأليس من الواجب، تنوير الأذهان والإرشاد إلى ما يجب التزامه شرعًا بالنسبة للحائض، فتلك أمانة في عنق العلماء.

ولست أدري إن كان للتوجيه والتبصير موضع، أو أنه من باب تحصيل الحاصل؛ ذلك لأن من المعلوم بالبديهة في الأوساط الإسلامية، أن البنت إذا بلغت مبلغ النساء واعتدت للحيض، تترك الصلاة والصوم وغشيان المساجد، ولا تقرأ القرآن، أو تمس المصحف.

وتلك دروس علمية يتلقاها البنات في البيوت ممن يكبرنهن من النساء من أمهات وأخوات وقريبات. وأنا على يقين أن بحث الحيض في طليعة ما عنيت به برامج مدارس البنات، وهو في صلب مادة الفقه، ولا أكاد أصدق أن مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر تتجاهل ما قررته الشريعة الإسلامية من أحكام الدين.

لذلك أستبعد أن تقسر المدرسات الطالبات على الاختبار في القرآن مع وجود المانع الشرعي؛ سيما وأن الاختبار في القرآن من الممكن تأخير يومه بالنسبة للمعذورات؛ إذ لا يستلزم أن يكون الاختبار في القرآن موحدًا، لا في اليوم، ولا في تحديد الصفحات.

ولعل السائل قد غشه من نقل إليه الخبر، أو بالغ له في، وقديمًا قيل: وما آفة الأخبار إلا رواتها.

---

(١) صحيفة الندوة - في ١٣٧٩/١١/٢٢هـ.

سؤال وجواب[١]

تلقينا سؤالًا من القارئ : سعيد بن مبارك الزهراني ؛ يقول فيه : هل يصح الاستنجاء بماء زمزم ، وهل هو حرام أم حلال ؟

وقد بعثنا سؤاله لفضيلة الشيخ عبد اللّٰه خياط ، فتكرم فضيلته بالإجابة التالية :

ماء زمزم من حيث كونه ماءً طهورًا ، شأنه شأن الماء الطهور ، يصح استعماله والانتفاع به في سائر الاستعمالات من شرب وغسل ووضوء واستنجاء ، وما إليه . ولم أقف على نص صريح يقصر الانتفاع بماء زمزم على شيء معين ، ويحظر استعمال في شيء مخصوص كالاستنجاء مثلًا .

وقد ذكر بعض فقهاء المذاهب أنه يكره استعمال ماء زمزم في إزالة الخبث أي النجاسة ؛ تعظيمًا له .

وهذه الكراهة لا تبلغ درجة التحريم ؛ لأن موضوع التحريم والتحليل لا يبنى إلا على نص واضح من الشارع الحكيم .

علق ابن كثير رحمه اللّٰه على قول اللّٰه تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النّحل: الآية ١١٦] . علق عليه بقوله : يدخل في هذا : كل من ابتدع بدعة ، ليس له فيها مستند شرعي ، أو حلل شيئًا مما حرم اللّٰه ، أو حرم شيئًا مما أباح اللّٰه ، بمجرد رأيه وتشبهه[٢] . اهـ .

وذكر صاحب «شفاء الغرام» : أن حكم التطهر بماء زمزم صحيح بالإجماع ، وحظر إزالة النجاسة والاستنجاء به . وقال : جرم المحب الطبري

(١) صحيفة الندوة - في ١٣٨٠/٧/٢٤هـ.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩٠.

بتحريم إزالة النجاسة به، وإن حصل به التطهير.

وتتبعت البحث في كتاب «القرى» للمحب الطبري، لأستخلص دليلًا على تحريم استعمال ماء زمزم في إزالة الخبث، فلم أجد غير تحريم العباس للاغتسال من ماء زمزم، وإباحته للمتوضئ والشارب، وقد علق المحب الطبري على ذلك بقوله: إنما أسند التحريم- أي العباس- لنفسه؛ حيث قال: ما أحلها، أي زمزم لمغتسل. لأنه، أي: العباس، ملك الماء لحيازته له. والمغتسل من الجنابة منها، أي: من ماء زمزم، ارتكب التحريم من وجهين، وجهة اللبث في المسجد، ووجهة استعمال الماء المملوك دون إذن مالكه، ويكون منعه؛ إما تنزيهًا للمسجد، وإما تعظيمًا للماء، والأول أظهر. اهـ.

وليس فيما ذكره المحب الطبري، دليل ينص على تحريم استعمال ماء زمزم في الاستنجاء، أو إزالة الخبث. وإذا كان العباس قد أسند تحريم الاغتسال من ماء زمزم إلى نفسه، فذلك رأي خاص به، وقد علل المحب سبب إسناد التحريم إلى العباس بما تقدم، كما حمل بعض الفقهاء قول العباس على من يضيق على الناس في شربهم من زمزم باغتساله. ومن قال بكراهة استعمال ماء زمزم في إزالة الخبث، أجاز استعماله في الوضوء والغسل.

وبدهي أن ماءً استعمل في الغسل والوضوء مستقره المجاري، فيختلط بالخبث، فهل يصح أن نقول بكراهة استعمال زمزم في الوضوء والغسل أيضًا؛ لئلا يمتهن باختلاطه بالخبث؟ «إن الحلال بين، وإن الحرام بين»[1].

كما أوضح ذلك رسول الهدى ﷺ، وكل ما لم يرد دليل على تحريمه، فهو حلال مباح أخذه والانتفاع به واستعماله.



(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

أجور العقار بين الشريعة والقانون(١)

بمناسبة إشراق العام الجديد، وتجدد مشكلة العقار، ومعالجة الكتاب لموضوعه، وإدلاء كل منهم برأيه. طالعت في العدد الرابع من السنة الثالثة لمجلة «حضارة الإسلام» سؤالًا موجهًا إلى فضيلة الشيخ مصطفى الزرقاء؛ أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة دمشق، وفتوى لفضيلته حول جواز تحديد أجور العقارات، رأيت نشرها على صفحات «جريدة الندوة» إسهامًا في حل المشكلة.

والفتوى على المذهب الحنفي، والمذهب الحنفي كما يعلم الجميع مذهب لإمام متبوع، له قيمته وأثره، وهو أحد المذاهب الأربعة التي اجتهد أئمتها - رحمهم الله- في فهم نصوص الكتاب والسنة.

وكلهم من رسول الله ملتمس، فلهم من الله أجر المحسنين، ومن الله الدعاء والثناء أبد الآبدين.

وفيما يلي نص السؤال والفتوى:

يقول صاحب المجلة: وردنا سؤال حول تحديد أجور العقارات قانونًا، وهل يجوز ذلك شرعًا، وهل يحل للمستأجر أن يستفيد منه؟ وقد رجونا فضيلة الأستاذ مصطفى الزرقاء الإجابة عليه، فتفضل بكتابة الجواب التالي:

هذا موضوع هام جدًا، ويكثر سؤال الناس الذين يهمهم أمر دينهم عنه، فمعظم الناس مستأجرون، إما لعملهم، وإما لسكناهم، والكل يعيشون في بلادنا هذه السورية، وفي معظم البلاد العربية والإسلامية في ظل قوانين زمنية تحدد أجور العقارات على مالكيها، وتقيد حريتهم في إخلاء عقاراتهم بعد انتهاء مدة

(١) صحيفة الندوة - في ١٣٨٣/١/٢هـ.

الإيجار، فتعطي المستأجر حق البقاء إن شاء، ما دام قائمًا بواجباته تجاه المؤجر، وقابلًا بالحدود القانونية للأجور القانوني للأجور في البلاد، والذي أذكر أن مبدأ هذا التحديد المنفصلة عن الدولة العثمانية بالنسبة للعقارات المملوكة، وإنما كان في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فقبلها لم تكن لدينا قوانين تحدد الأجور وتعطي المستأجر حق البقاء، ولكن اتجاه الدولة اليوم إلى ذلك، يكاد يكون عالميًا، فهو اليوم من التدابير التشريعية الأساسية في معظم دول العالم المتمدين؛ لأن مشكلة الإيجارات برزت بصورة وثيقة الارتباط بالنظام الاقتصادي وسياسة التشريع القانوني، حتى أصبحت تعتبر اليوم من قضايا النظام العام التي لا يعتبر الاتفاق على خلافها ملزمًا.

فما موقف الفقه الإسلامي من ذلك؛ وما هو نظره إلى المستفيد من هذا التقنين، إذا كان ساكنًا عقارًا، فهل يحل له شرعًا أن يستمر ساكنًا فيه بحكم القانون، دون رضاء مالكه، وأن يدفع أجره بالنسبة القانونية، إذا كان المالك لا يرضى بها، وهناك من يستأجره بأكثر؟

الجواب الشرعي في هذه القضية هو فرع من أصل. فيجب أن يعرف الأصل، فيتضح الجواب، كتطبيق له، فالأصل هنا الواجب بحثه وتجليته، هو أنه: هل يجوز شرعًا لولي الأمر (وهو السلطة القائمة في الدولة) أن يقوم بمثل هذا التحديد بأسعار الحاجيات، ومنها أجور العقارات، وإذا كان يجوز له ذلك شرعًا، ويدخل في ولايته وسلطانه، فهل حقه الإداري في ذلك مطلق أو مقيد؟

وعلى كل حال إذا مارس ولي الأمر هذا الحق، ضمن حدود سلطته الشرعية، كان واجب الطاعة وملزمًا، وعندئذ يحل لكل ذي علاقة أن يستفيد منه، وإلا فلا.

هذا ما سنجليه ونطبقه على القضية المسئول عنها.

ذلك لأنه لا يوجد- فيما أعلم- نصوص للفقهاء بشأن تحديد أجور العقارات، خاصة المملوكة، فإن لم يقع هذا التحديد في العصور الفقهية السابقة، بل هو من وقائع عصرنا الحاضر، فوجب الرجوع إلى الأصول العامة في الشريعة، وإلى نصوص الفقهاء في القضايا المتشابهة وتطبيقها على الموضوع.

إن الحنفية يرون من صلاحية الحاكم شرعًا، تسعير الحاجيات الضرورية إذا غلا أربابها- أي: مالكوها- وفي أسعار بيعها غلوًا يلحق ضررًا بالناس- أي: المستهدفين بلغة اليوم- أو يرهقهم استبدادًا وتحكمًا من الباعة في السعر، دون أسباب موجبة لرفع الأسعار، كغلاء أسعار المستوردات الأجنبية من مصادرها- مثلًا- ففي هذه الحال من تحكم الباعة واستبدادهم، يجب- عند الحنفية- على الحاكم أن يقوم بتسعير السلعة، ومنع تجاوز الباعة للسعر المحدود، وعقوبة المخالف، سواء أكان التحكم في السعر نشأ عن تواطء بين الباعة، أو دون تواطء، بشرط أن يكون التسعير عادلًا، وهي مسألة خلافية معروفة.

والقائمون بالتسعير يجيبون عما ورد في السنة النبوية من عدم رغبة النبي عليه الصلاة والسلام، في التسعير، عندما غلت الأسعار في عهده، وطلب منه بعض الصحابة التسعير، فإن ذلك كان في حالة ارتفعت فيها الأسعار لأسباب طبيعية، رفعت تكاليف السلع على أصحابها، ولذلك أجابهم النبي عليه السلام بقوله: «إن اللَّه هو المسعر، القابض، الباسط، الرازق، وإني لأرجو أن ألقى اللَّه وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة من دم ولا مال»[1].

مما يدل على أن الغلاء كان لأسباب خارجة عن إرادة الباعة، فيكون التسعير فرضًا للخسارة عليهم، وظلمًا لهم في رؤوس أموالهم. (انظر الهداية) وشروحها

(١) أخرجه أحمد ٢١/٤٤٤ (١٤٠٥٧)، وأبو داود (٣٤٥١)، والترمذي (١٣١٤)، وابن ماجه (٢٢٠٠) وغيرهم من حديث أنس رضي اللَّه عنه. وصححه الألباني.

في كتاب « الكراهية » و« نصب الراية » في تخريج أحاديث الهداية » و« معين الحكم » و« رد المحتار » وغيرها من كتب المذهب الحنفي) .

ولا يخفى أن تحديد أجور العقارات ، هو نوع من التسعير لنوع من الحاجيات الضرورية ، وهي منافع العقار المأجور ، لأن أجرة سكناه لمدة هي ثمن منافعه في تلك المدة ، والإجارة في نظر الحنفية ، هي نوع من البيع ، مع بعض فوارق ؛ لأنها بيع المنافع ، فما يقال في البيع يقال فيها ، سوى ما كان من نقاط الافتراق في طبيعة العقدين ، وليس هذا من تلك النقاط .

ولا يخفى أيضًا أن استئجار العقار تزايدت ضرورته بين الناس في عصرنا لأسباب عديدة اقتصادية ، منها : غلاء قيم العقارات ، وترجيح الكثيرين أن يستثمروا أموالهم في التجارة والإنتاج ، ويستأجروا العقار اللازم ؛ بدلًا من شرائه وتجميد ثمنه الباهظ ، وهذا هو الاتجاه الاقتصادي العالمي اليوم ، خلافًا لما كان في العصور القديمة ، حيث كان يغلب في عادة الناس أن يشتروا العقار ، ليسكنوا أو يعملوا فيه .

وبذلك أصبحت علاقة الإيجار وعقده موضع اهتمام دول العالم اليوم ؛ لأن مشكلته ذات أثر منعكس على الاقتصاد العام في الدولة ، وأبرز ظواهر هذا الاهتمام ، هو تحديد أجور العقارات ، ومنع تخلية المستأجر ، ما دام راغبًا في البقاء ، وموفيًا بالتزاماته ، وغير مسيء للاستعمال ، إلا في حالات معينة محددة بالقانون تجوز فيها التخلية .

وفي البلاد التي لا يوجد فيها اليوم تحديد لأجور العقارات ، وتقييد لحق المالك في التخلية ، تقع مشكلات وجور وتحكم ، يضج منه الناس ، ولا يقره الشرع ، فقد حدثنا كثيرون أن التاجر- مثلًا- أو رب العمل هناك يستأجر متجرًا أو محلًا ، لينصب فيه معملًا ، ويتكلف في النقل والتهيئة بتكاليف كبيرة ، ثم

ينتهي سنة الإيجار، فيطلب منه المالك للعقار ضعفي الأجرة، أو أضعافًا، أو يؤجر لغيره رأسًا؛ بحجة أنه حر في التأجير، وفي السعر، فيضطر الأول؛ إما إلى إرضاء المالك بما لا يطيقه، فيرفع أسعار مبيعاته هو أيضًا، وإما إلى الخروج والتفتيش عن محل آخر بعد أن يكون قد اشتهر في محله الأول، ودار دولاب تجارته أو صناعته.

ولا شك أن في هذا- وفي زمننا هذا- منتهى الإحراج، وإرادة المالك مقيدة شرعًا بأن لا يساء استعمال حق الملكية فيما لا يؤذي الناس، باستغلال اضطرارهم، وبالطمع والكيد. ولذلك قد تنزع الملكية جبرًا بحكم الشرع في حالات عديدة، فتحديد الأجور بصورة عادلة، يدخل في حق ولي الأمر وصلاحيته في تسعير الحاجيات والسلع الضرورية، وتقييد حق مالك العقار في تخلية مستأجره، منعًا للتعسف، يدخل كذلك في ولاية ولي الأمر، بمقتضى أصل الاستحسان والاستصلاح وفقًا لقاعدة المصالح المرسلة الموضحة في أوائل كتابي «المدخل الفقهي العام».

شاهد قياسي آخر:

على أن لفقهائنا حكمًا مماثلًا تمامًا في عقارات الأوقاف، فقد أقر فقهاء الحنفية، وتابعهم غيرهم، أنواعًا من حقوق القرار على عقارات الأوقاف لمستأجريها، وقيدوا حق المتولي الناظر في تخليتهم منها.



حول قراءة القرآن في الراديو[1]

قرأت ما كتبه الأخ الشيخ محمد علي راوا، بصدى الفتوى التي أصدرت في بلدة ملاكا بملايا، بعدم جواز قراءة القرآن في الراديو (الإذاعة) في البلد الذي يكثر فيه الخانات والبارات وأماكن القمار والمسارح، وطلب الأخ محمد علي راوا، تحديد موقف صاحب الفتوى من تصوير الموقف وكتابة ما أعلمه في رسالة.

وقبل أن أبدأ الإجابة، أحيي في الأخ الشيخ محمد علي راوا، هذه الروح الدينية والغيرة الإسلامية التي تبدو في كثير من الأحايين في الاستفسارات عن المسائل العلمية، والبحوث الدينية، فيه وبأمثاله الخيرين الصالحين الغيورين، على دينهم، نلمس أن الخير ما برح في هذه الأمة ترفع له الإعلام وتنصب له المنابر، رغم حولات الباطل، ودعايات المضللين.

أما ما يتصل بفتوى عدم جواز قراءة القرآن في الراديو (الإذاعة) نظرًا لكثرة الخانات والبارات والمسارح وأماكن القمار، فأعتقد أن من أفتى بذلك كان له مقصد حسن، واجتهاد، وغيرة، نرجو أن يؤجر عليها. وليته دعم الفتوى بالحجج والأدلة من كتاب اللّه، أو سنة رسوله، أو إجماع العلماء، أو قاس وقارن الأمور بأشباهها، مما له نظير في التحريم، يمكن أن يلحق به تحريم القراءة في الراديو، والحكم بعدم جوازها.

أما وقد ترك المسألة دون إسناد، وأصدر الفتوى دون تدليل، فمن حقنا أن نوضح ما يظهر لنا في المسألة، وفوق كل ذي علم عليم.

والذي يتبادر إلى الذهن أن مسألة قراءة القرآن في الراديو (الإذاعة) مسألة ذات شقين، يجب فصل كل شق عن الآخر؛ ليتسنى لنا الحكم الصريح الواضح؛

---

(١) صحيفة الندوة - في ١٣٧٩/٧/١٢هـ.

فالشق الأول في المسألة : قراءة القرآن والأحاديث النبوية والمواعظ في الراديو .

والشق الثاني : فتح جهاز الراديو عند قراءة القرآن في المواخير والمسارح والبارات ومواضع القذر .

أما الشق الأول : وهو القراءة في الراديو والوعظ والتذكير ، فليس في إباحتها شك ولا ارتياب . ومن مانع في ذلك فعليه الدليل ، وقد عرَّف الأصوليون المباح بأنه ما خير الشارع المكلف فيه بين الفعل والترك . فله .. في حدود الإباحة لا حظر عليه في ذلك . واستعمال جهاز الراديو لسماع الخبر فيه من قراءة القرآن وسماع المواعظ وأحاديث المصطفى ﷺ مما يؤجر عليه العبد .

أما الشق الثاني : وهو فتح الراديو في مواطن القذر ، لسماع الأحاديث والقرآن ، أو لمجرد الفتح فقط واللهو والعبث ، فهو حرام لا شك في ذلك ولا ارتياب ؛ لأنه استهانة بكلام اللّه ورسوله ، استهانة بها ، فهي حرام وكفر باللّه ورسوله . وقد نص العلماء- رحمهم اللّه- في باب الاستطابة : أنه يحرم دخول المرحاض بالمصحف ، لما في ذلك من الاستهانة والابتذال .

والمواخير والبارات ومواطن اللهو والعبث ، في حكم المرحاض ، سواء بسواء ، وإذا كان من المحرم الدخول بالمصحف إلى مواطن الأذى ، فسماع القرآن فيها من الراديو ، أو من غير الراديو ، يندرج في هذا الحكم بطريق الأولى .

أما إطلاق عدم الجواز في كلتا المسألتين ، ففيه تحجير ، لما فيه فسحة . نعم يجب على المسلم الغيور على الدين ، أن ينكر المنكر على قدر المستطاع باليد- إن أمكن- أو اللسان ، أو القلب ، وذلك أضعف الإيمان ، وهو ما يسع الناس عمومًا في بلد غلب فيه الشر على الخير ، وكان للمستعمرين فيه صولة وجولة .

هذا وأختم كلمتي بتوجيه الشكر الجزيل لصاحب الندوة على إفساح المجال للبحوث العلمية ، تشغل حيزًا كبيرًا من جريدته ، ونسأل اللّه له الأجر وحسن الجزاء .

من أحاديث الصوم[(١)]

من هدي القرآن

قال اللّه تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤] هذه الآية الكريمة والآيات بعدها تفيد مشروعية الصوم وفرضيته ؛ وترشد إلى أحكامه ، وما يجب للصائم ، وما يحل له ، وما يحرم عليه .

والصوم عرفته اللغة بأنه : الإمساك المطلق . وعرفه الشرع بأنه : إمساك عن المتع المادية ، والملاذ النفسية ؛ من أكل وشرب ، واتصال جنسي في وقت معين .

وفرض اللّه الصوم طهرة للنفس ؛ وتزكية لها وترفعًا بها عن أوضار المادة ؛ ليصل بها إلى أسمى درجات التكمل الروحي والنفسي ؛ وهو ما يلحظ من قول اللّه تعالى : ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩] .

وأفادت الآية الكريمة أن الصوم كتشريع قد كتب على الأمم قبلنا في العصور الخوالي ؛ غير أن ذلك لا يعني الوحدة في الشكل والكيفية، فلقد صح مما ورد أن تحديد أمد الصوم كان في السابق من العتمة إلى الليلة القابلة ، كما كان في ابتداء الإسلام .

وقيل : إنهم كانوا يجمعون مع الإمساك عن الطعام والشراب : الإمساك عن الكلام . وورد غير ذلك مما يطول بنا تتبعه وسرده، إلا أن الغرض المقصود بالذات في الشريعة هو مجرد الصوم على ما أوضحته الآيات التالية، فهو أولًا أيام معدودات . لا كل يوم ، ولا في كل شهر .

(١) مجلة اليمامة– العدد التاسع– رمضان– ١٣٧٤هـ.

وهو يسقط عن المريض والمسافر ؛ رحمة بهما ، ورفعًا للحرج والإعنات عنهما، على أن يقضيا ما فاتهما ، كيفما تيسر لهما من عامة أيام السنة ، دون حد أو تقييد ؛ على شريطة عدم التفريط حتى تنصرم الأيام ويأتي رمضان آخر .

وهو يسقط عن الشيخ الهرم والمرأة المسنة ؛ والمريض الذي لا يرجى زوال مرضه ؛ فهؤلاء يفطرون ولا قضاء عليهم ؛ بل عليهم الفدية وهي إطعام مسكين عن كل يوم بما يشبعه وجبة واحدة . وقد كان أنس بن مالك صاحب رسول اللّه ﷺ عندما طعن في السن وعجز عن الصوم يجمع ثلاثين مسكينًا في أول الشهر ويطعمهم[1]، فمن زاد في الفضل كأن أطعم مسكينين عن كل يوم، أو أخرج أزيد من القدر المحدد في الفدية، زاد اللّه له في الأجر، وكان خيرًا له . وفي ذلك ترغيب في البذل لتكافل الجماعة .

ويلحق بالشيخ الهرم والمريض في الحكم : الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما فإنهما تفطران وتقضيان ، وعليهما مع القضاء الفدية، وإن خافتا الضرر على نفسيهما أفطرتا وقضتا فقط، قال اللّه تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٤] .

وآية ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٨٤] فيها الترغيب في الصيام عن الإفطار مع الفدية في حق الصحيح المقيم كما كان ذلك في بدء شريعة الصوم ثم نسخ التخيير بقوله تعالى : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥] ووجب الصوم إلا على المريض والمسافر .

(١) أخرجه ابن سعد ٧/ ١٨١٨ - ١٩، ٢٥، وأبو يعلى (٤١٩٤)، والدارقطني ٢/ ٢٠٧. وانظر الإرواء تحت حديث (٩١٢) . وليس عندهم ذكر أول الشهر .

ولما ذكر سبحانه الصوم وأحكامه ناسب ذلك ذكر الشهر الذي فرض اللَّه صومه ، ألا وهو شهر رمضان ، وقد أوضح سبحانه أن لهذا الشهر ميزة خاصة ، تلك هي نزول القرآن فيه ، القرآن دستور الأمة السماوي ، والدعامة التي إذا ارتكز عليها العبد واتصل بأسبابها ، أوصلته إلى اللَّه ، كيف لا وفيه الهدى والنور ، والآيات الواضحة الدلالة نفرق بين الحق والباطل ، وتهدي إلى صراط اللَّه السوي .

هذا الشهر المبارك الذي جعل اللَّه له هذه الميزة لم يربط معرفة ثبوته بأمور معقدة ، بل جعلها في متناول كل أحد كيفما كان وضعه ، يعرفها البدوي في بيدائه ، ويتحققها المتحضر في مدينته الصاخبة دون عناء أو كبير جهد ، ذلك أنه سبحانه جعل ثبوته بالعين المبصرة دون أي اشتراط ، ثم إن عرض عارض حال دون الكشف عنه من غيم أو قتر أو ضباب ، فالمعول إذن على إتمام عد الشهر التي أفصح عنها رسول اللَّه ﷺ بقوله : « صوموا لرؤيته- أي لرؤية هلال رمضان- وأفطروا لرؤيته- أي لرؤية هلال شوال- فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين ثم أفطروا »[1] . قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥] وكرر سبحانه حكم المريض والمسافر مقترنًا بقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥] إيماء إلى الأخذ بالرخصة ، وعدم تكليف الأنفس ما لا تطيق من العمل ، ففي الصوم مع

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٩) ، ومسلم (١٠٨١/١٩) ، والترمذي (٦٨٤) ، واللفظ له ، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

المرض والسفر مشقة ملحوظة ، إن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يكره أن تؤتى معاصيه .

وفي الأمر بإكمال العدة إشعار بضرورة القضاء لأهل الأعذار وعدم إنقاص شيء من أيام الشهر ، ثم في توجيه الأنظار إلى تمجيد الله وتعظيمه وشكره ما يحفز العباد إلى الشعور بعظم المنة والفضل إذ وفقهم الله لأداء ما يحبه ويرضاه من الأعمال ، فكان هذا التوجيه بشارة تطمع في قبول العمل وحسن الجزاء عليه .

وكأن هذا التوجيه الكريم لذكر الله وحمده وتمجيده فتح الذهن إلى سؤال منطقي معقول وجه إلى رسول الله ﷺ : « أقريب ربنا فنناجيه ؛ أم بعيد فنناديه ؟! » . وجاءت الآية التالية حاسمة في الإجابة : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦][(١)] . وقرب الله من عباده معناه : إحاطة علم الله وسمعه وبصره وقدرته بهم ؛ لا يخفى عليه شيء من أمورهم . قال تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦] ، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: الآية ٨٥] . وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يا أيها الناس ؛ اربعوا على أنفسكم ؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا ؛ إنما تدعون سميعًا بصيرًا ؛ إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »[(٢)] . فهو سبحانه يستجيب لعبده إذا دعاه ، كما وعد بذلك . جاء في حديث سلمان رضي الله عنه : « إن الله ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرًا ثم يردهما خائبتين »[(٣)] . وفي

(١) أخرجه ابن جرير ٣/ ٤٨٠، وابن أبي حاتم ١/ ٤٣٠، والبغوي وأبو الشيخ - كما في الدر المنثور ١/ ٤٦٩.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٢، والبخاري (٢٩٩٢، ٤٢٠٢، ٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤) واللفظ بتمامه لأحمد من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦) بنحوه، وصححه الألباني بهذا اللفظ.

ذلك حث على الدعاء وترغيب فيه ؛ طاعة لله ، وهذا المعنى ملحوظ من قوله تعالى : ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: الآية ١٨٦] وخاصة عند إفطار الصائم ، فقد صح عن رسول الله ﷺ إنه قال : « للصائم عند فطره دعوة لا ترد »[(١)]. وآية ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: الآية ١٨٦] تأكيد لوعد الله في إجابة الدعاء ، فإذا قام العباد من جانبهم بفعل الطاعات امتثالًا لأمر الله فقد رشدوا .

تنتقل بعد ذلك الآيات إلى بيان أحكام أخرى تتعلق بالصوم ، وتحديد أمده ، وبيان المشروع فيه والمبطل له ، فتناولت أولًا حكم إباحة الجماع في ليالي الصيام ، وهو المعني في الآية بالرفث ، وأوضح الله تعالى أن النساء مع الرجال ضرورة فطرية لا مندوحة عن اختلاطهما ، وإفضاء كل منهما إلى الآخر ، ومن العنت حجز كل فريق وإمساكهما عن الاتصال الجنسي في ليالي الصيام ، وقد كان مصداق ذلك عندما اجتاز أناس من الصحابة المحظور فوقعوا على نسائهم في ليالي الصوم ، وكان في بدء الإسلام محظور أن يقرب الرجل أهله بعد أن يعقد النية على الصوم وينام . ثم جاءوا يشكون ويعتذرون ، فأنزل الله تعالى إباحة ذلك ورفع الحرج عنهم ، ورغبهم في ابتغاء النسل بالوجه المشروع ثم عرضت الآية لتحديد أمد الصوم من مبدئه إلى نهايته ، فحددت مبدأه بطلوع الفجر الثاني ، وهو الذي يجب به الصيام ويحرم به الطعام ، فسره الرسول ﷺ بأنه النور المعترض في الأفق- لا المستطيل- وسماه الله الخيط الأبيض والأسود أي : نور النهار في ظلام الليل . وحددت الآيات نهايته بانتهاء النهار ودخول الليل ، أي : بغروب الشمس .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا التحديد واضح لا لبس فيه ، ولا يحتاج معه إلى اتخاذ احتياطات وتعسفات تبعد الصائم عن اليسر الذي أراده الله له في هذه

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . وضعفه الألباني .

العبادة، وما أجملته الآيات أوضحته السنة، من ذلك قوله ﷺ: «إن بلالًا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم». ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا. وقال الزهري عند هذا الحديث: وكان ابن أم مكتوم رجلًا أعمى لا يؤذن حتى يقال له: أصبحت أصبحت!![1].

وذلك واضح في ظهور الفجر وهو بدء الصيام، أما نهايته فيوضحها قوله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا، فقد أفطر الصائم»[2]. أي: حل له الفطر، وذلك يكشف لنا عن المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧].

وثمة حكم آخر تعرضت له الآية التالية يتعلق بغشيان الرجل أهله حال اعتكافه، وهو مما يحرم على المعتكف، إذ كان خارجًا عن أغراض الاعتكاف، وهي الانقطاع في مسجد للعبادة، وقراءة القرآن، وذكر الله، وقطع الشواغل عن المعتكف، أيًّا كان لونها.

وفي التعقيب بالاعتكاف بعد ذكر الصوم وأحكامه إشارة إلى أن السنة فيه أن يكون في الصيام، وفي شهر الصيام كما كان يفعل رسول الله ﷺ، حيث كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧].

ثم بعد أن ختم تعالى موضوع الصوم وأحكامه وما يتعلق به من أحكام

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧، ١٩١٨، ١٩١٩)، ومسلم (١٠٩٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠/٥١) من حديث عمر رضي الله عنه.

الاعتكاف، أخبر سبحانه أن ذلك كله حدود حددها اللّٰه لا يجوز تجاوزها ولا التفريط فيها، فمن فرط أو قصر فقد ظلم نفسه، وهذه البيانات الشافية، والدلالات على الخير، والإيضاحات في كل ما يتعلق بالأحكام الشرعية، والأمور المرعية، توجه العباد إلى أقوم السبل، وإلى رعاية حق اللّٰه بعبادته على ما شرع، وتقواه حق التقوى ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧].



أهدافُ الصَّوم[١]

لكل عبادة من العبادات المفروضة هدف منشود وغرض مطلوب، فالصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من الفرائض تزدحم فيها الأهداف وتعدد المطالب، وفي تلك الأهداف والمطالب- لو حققها الناس في دنياهم- خيرٌ مرغوب وسعد مطلوب.

فالصلاة مثلًا من أهدافها: توثيق الصلة بين العبد وربه، حيث يتجه إليه كل يوم خمس مرات في أوقات مختلفة بين الليل والنهار، فإذا توثقت صلة العبد بربه تعلق به وأخلص له في كل عباداته، وأشرقت جوانب حياته بحبه، واتجه إليه رغبة فيما عنده، وأملًا في فيض خيره وبره، فيؤجر على إخلاصه وتتتابع عليه نعم ربه، ومن تلك النعم حفظه من الزلل وصونه من الخلل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥] وذلك هو الخير المرغوب للعبد والسعد المطلوب.

والزكاة وهي عبادة مالية، والمال كما أخبر اللّٰه أنه فتنة: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: الآية ٢٨] يفتن المرء به فيحرص على جمعه والتكثر منه، ويصعب عليه بذله والتضحية به بعد الكد في جمعه والحصول عليه، فكان من أهداف الزكاة،- بالإضافة إلى أنها سلم في صلاح المجتمع- اختبار النفسيات، وفحص الصائم في التضحية بالمال الغالي وبذله في سبيل اللّٰه ابتغاء رضوان اللّٰه وطاعة للّٰه، فالطاعة كما تكون في البدن تكون في المال، ومن ثم كانت الزكاة طهرة للمال يزكو بها ويتبارك كنتيجة للطاعة وجزاء للتضحية، وذلك هو الخير المرغوب للعبد والسعد المطلوب.

والصوم عبادة ذات أهداف تستشرف لتحقيقها النفوس المؤمنة والقلوب

(١) مجلة الحج - رمضان - ١٣٧٩هـ.

المطمئنة، وفي تحقيقها أيضًا ما في بقية العبادات من الخير المرغوب والسعد المطلوب ؛ سيما وأن مناسبته- أعني الصوم- تقوم في رمضان ؛ الشهر العظيم الذي جمع اللَّه فيه للأمة الإسلامية الخير العظيم والفوز الكبير ، حيث أنزل فيه أعظم كتبه ، أنزل القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتب ، ومهيمنًا عليها ، فيه الهدى والنور ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥] .

وفي شهر رمضان نصر اللَّه كتائب الإسلام على الباطل وجيش الطغيان في بدر، فكانت الفاصلة بين الكفر والإيمان ، وخضد شوكة الكفر وإعلاء راية الإيمان ، فكان من حق هذه النعم المتتابعة المترادفة أن تقدر بالشكر للمنعم العظيم ، ومن مظاهر الشكر الصوم وحرمان النفوس عن الشهوات المباحة طاعة للَّه وشكرًا لنعم اللَّه .

ثم إن المرء بحكم بشريته وما ركب فيه من دوافع وغرائز قد تنحرف به عن الجادة ، أو قد تكون مثبطة له ومثقلة عن اللحاق بركب الصالحين، والأخذ بنصيب وافر من التكمل الذاتي والروحي في حاجة إلى وسيلة صالحة تأخذ بيده ، وترتفع به إلى ما يريد ، ويريده اللَّه منه من الصلاح والفلاح ، فكانت الوسيلة الناجحة هي الصوم، فهو العامل البارز لإحداث انقلاب ، وتحول في النفسيات من السيء إلى الحسن ، أو من الحسن إلى خير منه .

وهذا التحول والانقلاب في النفسيات هو هدف من أهداف الصوم ، وأثر من آثاره ، وهو يشمل عموم الناس في دنياهم ، فالعامل في عمله ، ورجل الشارع في صحبه ، بله غيرهما إذا ما حان شهر الصوم- وأعني الأكثرية- اتجهوا إلى حياة أفضل من حياتهم السابقة يتجلى فيها مظهر الصلاح والاستقامة ، فالذين لا يذكرون اللَّه طرفة عين ، والذين أسرفوا على أنفسهم في تعاطي الشهوات المحرمة ، والذين ألهتهم الحياة بمغرياتها واشتغلوا بالدنيا جريًا وراء جمع

الحطام ، كل أولئك وغيرهم عندما تشرق على ربوعهم شمس شهر الصيام تتبدل منهم الأحوال، ويستشعرون في نفوسهم عظمة الصوم وشهر رمضان ، تراهم وقد حملوا السجاجيد ، وأمسكوا بالمسابح على الطريقة التقليدية ، والمظهر الذي يبدو فيه أثر الصلاح ، وحافظوا على الصلوات في المساجد ، وعمروا أوقاتهم بتلاوة القرآن وذكر اللّه والاستغفار ، حتى إن منهم من يترك العمل في رمضان بعدًا عن الإخلال بالصوم، ورغبة في التفرغ للعبادة في شهر الصيام ؛ لأنهم أدركوا أن أبرز أهداف الصوم ، وأوضح اتجاهاته، تغليبُ الجانب الروحي على الجانب المادي والتمسك بخلال الخير والسير على منهج الصالحين ، واطراح الغفلة ، ومجانبة الصبوة ، وذلك ما يتفق مع الصوم الكريم والسلب المشروع .

فإذا ما درج المرء على هذا التحول شهرًا كاملًا تكونت عنده العادة الحميدة ؛ عادة حب الخير وتعشق أساليب الفضيلة في كل اتجاه ، فإن العادة تتكون بمجرد التكرار .

وشهر كامل يسلك العبد فيه أقوم المسالك وأرفع مناهج الطهر، لابد وأن يؤثر فيه ذلك وأن يستقيم عليه بعد مضي شهر الصوم ؛ إذ يصبح هذا المنهج الصالح الرشيد عادة لازمة له سيما إذا كان ممن نشئ تنشئة دينية ؛ فإن السير على طريق الرشاد لا يكلفه كبير عناء أو جهد وتلك هي التقوى المنشودة التي يجب أن تكون مصاحبة للعبد ، وخلقًا من أخلاقه ، يعده الصوم إليها إعدادًا خاصًا في رمضان ، فيبقى على عهدها ، وفي حدود ما ترسمه ، لا يضل عنها ، أو يخيس بعهدها ، أو ينصرف إلى مزالق الرذيلة بعد أن احتضن مبدأها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٣] .

فتهيئة النفوس للتقوى هدف بارز من أهداف الصوم ، بل هو العمدة والمحور الذي يدور عليه الصوم ويتعلق به ، فصوم لا تلابسه التقوى ، ولا تخالط فيه نفسية

الصائم صوم خواء- إنما هو صوم لإسقاط الفريضة عند الفقهاء الذين يرون أن عمدة الصوم هو الإمساك عن الشهوتين شهوتي البطن والفرج ، أما عند من يذهب من العلماء إلى أبعد من ذلك ، فإنهم يقررون أن الصوم هو إمساك عن كل ما ينافي التقوى قولًا وفعلًا وتصرفًا واتجاهًا ويفرضون مثالية في الصوم تحتل الصدارة ، وكل ما يخرج عنها وعما ترسمه من اتجاهات فقد خرج عن نطاق التقوى ولم يدرك حقيقة الصوم ، وإنما أتى بمظهره والجانب السلبي فيه ، ويستخلصون ذلك بدقة تصورهم لآية الصوم ، حيث بدأها سبحانه وتعالى للمؤمنين بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٤] ، وختمها بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩] . وبين الإيمان والتقوى للَّه الأمر بالصوم : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٣] .

وبين الإيمان والتقوى أوثق الصلات ، فالإيمان أساس البر ومتبع الفضائل ، والتقوى روح الإيمان ، وسر الفلاح وفي الجمع بين الإيمان والتقوى في مبدأ الآية وختامها ما يشعر بأن المقصود بالصوم ما جمع به منازع الإيمان من الفضائل والتكملات الذاتية والروحية ودوافع التقوى ؛ من كمال المراقبة للَّه والخوف منه والزهد فيما سواه- وبذلك يجمع الصائم بين مظهر الصوم السلبي من الكف عن شهوتي البطن والفرج ، وبين حقيقته الإيجابية والسير على الفضائل وانتهاج أقوم المناهج وعندئذ يصبح الصائم ملاكًا في صورة إنسان- لا يكذب ولا يصخب ولا يماري أو يجادل فضلًا عن السباب والشتائم ولا يغتاب أو يتجنى على الغير في أي شكل وذلك ما يرسمه الرسول الكريم بقوله : «ليس الصوم من الأكل والشرب إنما الصوم من اللغو والرفث»[(١)] .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٩٩٦) ، وابن حبان (٣٤٧٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٥٠٧) ، وصحيح الترغيب والترهيب (١٠٨٢) .

وقوله أيضًا : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس للّٰه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »(١) .

فإذا حقق الإنسان هذا الهدف فقد حقق ما يريده اللّٰه منه ، ونال عليه الجزاء الضافي الذي وعد اللّٰه به المحسنين ، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه ، عن النبي ﷺ قال : « كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال اللّٰه عز وجل : « إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي »(٢) .

وهذا الصوم الذي يجمع بين المظهر والجوهر ، أو بين الجانب السلبي والإيجابي ، هو ما يعنيه الصوفية بصوم الخصوص ؛ حيث قسموا الصوم إلى درجات ثلاث :

الدرجة الأولى : صوم عامة الناس ، وهدفه الكف عن شهوتي البطن والفرج .

والدرجة الثانية : وهي أرفع من الأولى صوم الخصوص ، وهو صوم الصالحين . وأهدافه كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وغض البصر عن كل ما فيه مشغلة للعبد أو منقصة ، أو تنال العبد به مذمة ، وحفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة، وهجر القول واللجاج في الخصومة، وعدم مقابلة الإساءة بالمثل ، وذلك ما يرسمه الرسول ﷺ بقوله : « إنما الصوم جنة »- بضم الجيم- فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم إني صائم »(٣) .

ومن الصوم صوم الخصوص ؛ كف السمع عن الإصغاء إلى ما لا يجمل

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٣، ٦٠٥٧) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه .

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١/١٦٤) واللفظ له .

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١/١٦٣) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه .

سماعه من كل محرم ومكروه، كالكف عن سماع الكذب والبهت والغيبة والزور، ومن الزور سماع الأغاني فالمستمع لا يبرأ من إثم الاستماع ووزر المشاركة وذلك مما يخدش صومه أو يقلل من أجره.

إلى غير ذلك من المآخذ التي تعتبر قدحًا في الصوم وألا يبلغ بها المرء الأهداف المطلوبة للصوم، بل يحرم الأجر ويكتسب الوزر وكما جاء في الحديث: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش»[(١)].

ومن أهداف الصوم: تدريب النفوس على الصبر واحتمال المشقة في سبيل أداء الواجب، والتضحية بكل غال لتحقيق الهدف الرفيع وبلوغ نيل المقاصد، وقد صح في الحديث أن رسول الله ﷺ سمى رمضان شهر الصبر، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «الصوم نصف الصبر»[(٢)].

وفي الصوم تلتقي أشرف المقاصد- ففيه صبر على الطاعة وصبر عما حرمه الله على العباد من المعاصي في مختلف ألوانها، وصبر على ما ينجم عن الصوم من ألم الجوع والعطش وضعف البدن، وفي ذلك خير مرغوب فيه، وسعد للعبد مجلوب بسببه.

ومن أهداف الصوم: أخذ النفوس باليسر، وترويضها على السماحة، والبعد بها عن العنت والمشقة، واليسر كمبدأ لا معدى عن الأخذ به في كل عبادة وكل مجال، وهو الطابع الذي يتسم به الإسلام ويفترق به عن غيره من الأديان التي كان على محتضنيها الآصار والأغلال- وقد تجلت مظاهر اليسر في الصوم بشكل ملحوظ فيما يلي:

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٧٣، وابن ماجه (١٦٩٠)، والنسائي في الكبرى (٣٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٦٠، والترمذي (٣٥١٩) من حديث رجل من بني سليم. وضعفه الألباني.

أولًا : الترخيص للمريض والمسافر في الفطر ؛ رفعًا للحرج عنهما ، ودفعًا للإعنات ، فإن السفر مظنة المشقة والمرض يتأكد فيه الإجهاد لو كلف المريض بالصوم ، وقد يكون في وضع يتطلب توالي العلاج وعدم الكف عنه في فترات متباعدة .

ثانيًا : الترخيص للحائض والنفساء في ترك الصوم والقضاء من أيام أخر مراعاة لوضعهما .

ثالثًا : الترخيص للحامل والمرضع في الفطر مع القضاء إن خافتا على نفسيهما وتضررتا بالصوم ، وإن خافتا على ولديهما قضتا وأطعمتا مع القضاء عن كل يوم مسكينًا .

رابعًا : الترخيص للرجل الكبير والمرأة الكبيرة وللمريض الذي لا يرجى برؤه في ترك الصوم لتعذره في حقهم ، والاكتفاء بأن يطعموا عن كل يوم مسكينًا .

خامسًا : التجاوز ممن أكل أو شرب ناسيًا لصومه ، فلا مؤاخذة عليه ، ولا كفارة .

سادسًا : تعجيل الفطر بمجرد سقوط قرص الشمس ، ولو بقي شيء من نور النهار ، وتأخير السحور وامتداد وقته إلى سماع الأذان الثاني للفجر .

إلى غير ذلك من مظاهر اليسر والسماحة التي يتسم بها الدين الإسلامي ، وتتجلى في الصوم وغير الصوم من العبادات والمعاملات ، مما تأتلف فيه مصالح الدين ، وتتفق معه مطالب الحياة ، ويخرج بالمسلمين عن رهبانية المترهبين ونزعات الماديين واتجاهات المتنطعين ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥] .

أما بعد ، فإن الحديث عن أهداف الصوم متسع الجوانب بعيد الأطراف يدور حول نقطتين أساسيتين ؛ السلب في المظهر والتكمل في المذهب والجوهر ، فإذا

عقد المرء بين أواصرها فقد بلغ لصومه ذروة الكمال ، وارتفع بنفسه إلى مراقي الفلاح والصلاح ، واجتمعت له بإخلاصه في عبادته الفرحتان ؛ فرحة بالفطر عند فطره ، وفرحة بالأمن عند لقاء ربه .. واللَّه الموفق .



سيد الشهور[(١)]

بعد أيام قلائل يعيد التاريخ نفسه، وتعود بعودته فرحة المسلمين وبهجة الصالحين للقيا الوافد الكريم ؛ رمضان المبارك شهر البر والإحسان، شهر الجهاد والصبر والتضحية، شهر أنزل الله فيه القرآن وسماه سيد الأنام سيد الشهور . وكان يبشر به أصحابه ويقول : « قد جاءكم رمضان شهر مبارك ، كتب الله عليكم صيامه »[(٢)] . وكان ﷺ لتطلعه على الدوام لبلوغ رمضان يدعو الله إذا حان شهر رجب ويقول : « اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان »[(٣)] .

وفي إشعاره ﷺ بسيادة رمضان على الشهور توجيه إلى فضيلته ، وما اختصه الله به من مزايا ، وما يكون فيه من نفحات وتجليات وسابغ أفضال من المولى الكريم ، وتوجيهه أيضًا إلى ما يجب للسيد من حسن الرعاية والإكرام والتضحية والإخلاص .

أما فضائل رمضان ومزاياه التي انفرد بها وكانت آية سيادته على الشهور فقد أوضح عنها رسول الله ﷺ في غير ما حديث ؛ تدليلًا على عظمة رمضان ، وتبشيرًا بالحظ الوافر لمن يعنى بأداء الحق الواجب في رمضان من قيام وصيام وطاعة في مختلف أوجه الطاعة للملك الديان، وبعد عن المعصية .

فالمعصية في كل الأزمان فجور يهبط بدرجة الإيمان ، وهي في رمضان هبوط عن السمو الذي يجب أن يرتفع إليه العبد في رمضان، وانزلاق مشين لا

(١) مجلة الحج - شعبان- ١٣٨٠هـ .

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٣٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وصححه الألباني في تمام المنة ص ٣٩٥.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٩، والطبراني في الأوسط (٣٩٣٩) واللفظ له ، من حديث أنس رضي الله عنه . وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٩٨٧٥) .

يتفق مع حرمة الصيام، ولا يتواءم مع عظمة سيد الشهور رمضان .

ومن فضائل رمضان أيضًا ومزاياه ، وما أكثر مزايا رمضان وما أعظم فضائله : ما روي في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال : «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين»(١) . وإجراء الحديث على معناه الظاهر ليس فيه ملام ، ومن العلماء من فسر فتح أبواب الجنة بالتأهب والاستعداد لمن سوف يدخلها بأعماله التي يتقرب بها إلى اللَّه في رمضان ، كما جاء في الحديث : « يزين اللَّه كل يوم جنته » . أي : في رمضان- ثم يقول : يوشك عبادي الصالحون أن يلقوا عنهم المؤنة والأذى ويعبروا إليكِ »(٢) .

فرمضان مجال تسابق للصالحين ، وميدان تنافس للمحسنين ، ورمضان فيه من تجليات الرب ونفحاته ما يكثر فيه من العتقاء الذين استوجبوا النار بذنوبهم ، ثم تحولوا إلى ما يحبه اللَّه في رمضان من الطاعة والتقرب بصالح الأعمال، فتحول اللَّه لهم مما يكرهونه من العذاب في النار- جزاء أعمالهم- إلى ما يحبون هم من النعيم المقيم في رياض الجنة ؛ لقاء تحولهم .

وقالوا في معنى أغلقت أبواب النار : أي : ذلك تعبير عن كفِّ العصاة في رمضان عن هفواتهم واستقامتهم على نهج الهدى، فلم يعد للنار منهم حظ ونصيب ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤] ، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفُرقان: الآية ٧٠] .

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٩، ٣٢٧٧)، ومسلم (١٠٧٩) .

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٢، والبيهقي في الشعب (٣٦٠٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه . وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٥٨٦) : ضعيف جدًّا .

وفي الحديث: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[(١)].

إلى غير ذلك من فيض الآيات والأحاديث التي تشعر بقيام حاجز منيع بين النار وبين من يقوم معوجه ويستبدل السيئات بالحسنات ويتخذ إلى ربه سبيلا وهذا الحاجز هو ما يعبر عنه بإغلاق أبواب النار وغالبًا ما يكون ذلك في رمضان فإن طابعه الصلاح، ونهجه التقوى.

وقالوا عن تصفيد الشياطين في رمضان: هو شل حركتهم وإبطال وسواسهم؛ وذلك لأن طبيعة الصيام تضيق مجرى الدم الذي هو مجرى الشيطان من ابن آدم فيبطل عمله ويسلم المسلمون منه أو من أكثر وسواسه في رمضان، بالإضافة إلى أن ذكر الله لا يكاد يفتر عنه المسلم في رمضان. ومن طبيعة الشيطان الخنوس عند ذكر الله والبعد عن الذاكرين وذلك هو المقصود من تصفيد الشياطين.

وكل ذلك توجيه لا غبار عليه فمن أخذ بظاهر الحديث، أو تأوله على هذا النحو، لم يبعد.

ومن فضائل رمضان ومزاياه: مضاعفة أجر الأعمال فيه مضاعفة تربو على كل مضاعفة إلا الصيام، فإنها مضاعفة تتناسب مع قدسية الشهور وتتلاءم، كما جاء في حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه: «من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه»[(٢)]. وفي الترمذي[(٣)] عن أنس رضي الله عنه سئل

---

(١) أخرجه أحمد ٥/١٥٣، والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٨٨٧). وقال: إن صح الخبر. وقال الألباني في الضعيفة (٨٧١): منكر.

(٣) أخرجه الترمذي (٦٦٣). وضعفه الألباني.

النبي ﷺ : أي الصدقة أفضل ؟ قال : « صدقة في رمضان » . وفي الصحيحين[١] أن النبي ﷺ قال : « عمرة في رمضان تعدل بحجة » . أو قال : « بحجة معي » .

وأعظم مزاياه وفضائله التي توحي بسيادته ، وتجعل القلوب تستشرف لبزوغ شمسه ؛ لتربح فيه بتجارة لن تبور : أنه شهر أنزل اللَّه فيه كتابه العظيم الذي فيه الهدى والنور والحكمة ، وهو الدستور الخالد ، الصالح لكل زمان ومكان ، لن تفنى مع الدهر عجائبه ، ولن تخلق على كر السنين آيته ، من تمسك به لن يضل ، ومن عمل به فقد هدي إلى صراط مستقيم ، ولو لم يكن لرمضان من الفضائل إلا نزول القرآن فيه لكفاه ذلك شرفًا ورفعة ، وكان بذلك وحده سيد الشهور .

أما نفحات الرب العظيم في رمضان وتجلياته على عباده وسابغ أفضاله عليهم ، فإن الحديث عن ذلك واسع المدى ؛ ذلك أن رمضان هو شهر التجليات والنفحات ، وفضل اللَّه لا نهاية له ، ولا حد يحصره ، كما جاء في حديث ابن عباس المرفوع : « للَّه في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار ، كلهم قد استوجب النار، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق اللَّه في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره »[٢] . وكما جاء في حديث آخر عن سلمان الفارسي رضي اللَّه عنه : « من فطر صائمًا كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، ومن خفف فيه عن مملوكه كان له عتقًا من النار »[٣] .

ومن سابغ فضله على عباده في رمضان أنه لا يرد دعاء السائل فيه ، وخاصة عند فطره ، كما جاء في حديث رواه ابن ماجه[٤] : « إن للصائم عند فطره لدعوة

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٨٢، ١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٣٦٩٥) . وانظر الموضوعات لابن الجوزي ٢/ ١٩١، واللآلئ المصنوعة ٢/ ٨٦، والفوائد المجموعة ص ٨٩.

(٣) تقدم تخريج حديث سلمان قريبًا جدًا .

ما ترد ». وحسب هذه الأمة من أفضال اللّه ونفحاته عليهم أن جعل لهم ليلة القدر في رمضان التي تفضل العبادة فيها عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١- ٥] ولذلك رغب النبي ﷺ في قيامها وإحيائها بالعبادة، فقال: « من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه »(١).

وفي المسند، والنسائي، من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « في شهر رمضان ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم »(٢). قيل لإمام في التابعين: أرأيت النفساء، والحائض، والمسافر، والنائم، لهم في ليلة القدر نصيب؟ قال: نعم، كل من تقبل اللّه عمله سيعطيه نصيبه من ليلة القدر(٣).

وذلك مقام الفضل في شهر الفضل والإحسان، شهر النفحات والتجليات، وفيض الخبر والبركات.

أما توجيه الرسول الكريم إلى ما يجب لسيد الشهور رمضان من الرعاية والإكرام والتضحية والإخلاص، فمدار ذلك أولًا على حفظ حرمته بالصوم المحدود وقته من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، كما قال تعالى:

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما. وضعفه الألباني في الإرواء (٩٢١).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٣٠، والنسائي (٢١٠٦) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه. وصححه الألباني.

(٤) انظر لطائف المعارف لابن رجب ٢٧٣- ٢٧٤.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧] وليس ثمة خيط أسود أو أبيض، وإنما هو تمثيل لنور الفجر حين يبدو في ظلمة الليل.

وصون حرمة سيد الشهور أيضًا بعدم الإفطار فيه دون عذر شرعي مبيح للفطر من مرض، أو سفر، أو كبر مضن يفقد القدرة والجلد على الصبر، أو حيض أو نفاس، فمن أفطر لغير الأعذار المشروعة فقد انتهك حرمة سيد الشهور، وضيع حظه منه، وكان ممن عناهم رسول الهدى بقوله: «من أفطر يومًا في رمضان دون رخصة رخصها اللّٰه لم يغن عنه صيام الدهر إن صامه»[(١)].

وما ذلك إلا لأن سيد الشهور ليس له مثيل من نوعه في ميزاته وفضله، وما اختصه اللّٰه به، فكيف تسقط عبادة فرضها اللّٰه فيه بقضائها في غيره كما وأن باعث الفطر لم يكن سوى نزوة جامحة انتهكت به حرمة رمضان وأهدرت عظمته، وإنما شرع في قضاء رمضان حين أباح الفطر فيه لأهل الأعذار، كما جاء في الحديث: «إن اللّٰه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[(٢)].

ثانيًا: التزام المسلم مسلكًا في رمضان هو المثالية بكل ما في المثالية من معاني، فالصوم تغليب للجانب الروحي على الجانب المادي، لا يقتصر على الإمساك عن الطعام والشراب والمتع الجنسية فحسب، وإنما هو إمساك عن جميع ما حرم اللّٰه، وسلب تجاه كل النزوات والصبوات والجهالات؛ بحيث

---

(١) أخرجه البخاري قبل حديث (١٩٣٥) تعليقًا بصيغة التمريضك «ويذكر» ووصله أحمد ٢/ ٤٧٠، وأبو داود (٢٣٩١)، والترمذي (٧٢٣)، وابن ماجه (١٦٧٢) من حديث أبي هريرة وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٠٨، وابن خزيمة (٢٠٢٧)، وابن حبان (٢٧٤٢) من حديث ابن عمر رضي اللّٰه عنهما. وصححه الألباني في الإرواء (٥٦٤).

يصبح للصائم طابع خاص يعرف به ، كما جاء عن الصحابي الجليل جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه : إذا صمت فليصم سمعك ويصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ، ودع أذى الجاري[١] ، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك ، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء »[٢] . ومصداق ذلك قول الرسول ﷺ : « ليس الصيام من الطعام ولا من الشراب وإنما الصيام من اللغو والرفث »[٣] .

أما اللغو فهو : القبيح من القول والباطل ، ويدخل فيه الغيبة والنميمة والكذب والمهاترات والسباب .

والرفث هنا يراد به معنى أعم من اللغو ؛ إذ يشمل الإسفاف قولًا وعملًا على الغير بكل لون ، وجاء في حديث : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يصخب ، فإن سابه أحد ، أو قاتله ، فليقل : إني صائم »[٤] . وإمعان في السلب تجاه الزلل لدرجة أن لا يصبر الصائم على القبيح ، أو ينتقم لنفسه ، أو ينتصر على المهدور ؛ حفاظًا على حرمة رمضان ، وإكرامًا لمقام سيد الشهور ، ورعاية لما يجب من التضحية في سبيله والإخلاص لصومه .

وبعد ، فإن الحديث عن سيد الشهور حديث ممدود لا يمكن أن تحد فيه الجوانب ، ولكنا نكتفي بالإلماع دون الإسهاب ، والإشارة دون الإفاضة ، وحسبنا أن قمنا ببعض الواجب في الإشادة برمضان ، والتوجيه إلى مقامه وشرفه ، وما يجب له من الرعاية والصيانة والتضحية والإكرام ، واللّه ولي[٥] التوفيق .

(١) كذا في الأصل ، وسيأتي قريبًا على الصواب : « الجار » .
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٣٠٨) ، وابن أبي شيبة ٤/ ٨، والبيهقي في الشعب (٣٦٤٦) .
(٣) تقدم تخريجه قريبًا .
(٤) أخرجه البخاري (١٩٠٤) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .
(٥) سقط من الأصل .

رمضان شهر التضحية

في الأيام القريبة المقبلة سوف تستقبل الأمة الإسلامية شهر رمضان المبارك في عموم أقطارها وأمصارها، وسوف يكون لها من البهجة والغبطة والفرحة بهذا الوافد الكريم، ما لم يكن لها فيما تصرم من شهور العام وأيامه، وإن كان من الأيام أيام لها شرفها ومكانتها الملحوظة في تجددها فرحة وغبطة كيوم الجمعة، ومن الشهور ما يحتفظ بطابعه الخاص به وأفضليته كالأشهر الحرم، ومن بينها شهر المحرم- فقد سماه رسول الهدى ﷺ: شهر الله[١]. وفاضل بينه وبين الشهور، ففضله عليها، وقال: «أفضل الأشهر شهر الله الذي تدعونه المحرم»[٢].

إلا أن لرمضان من المزايا المتنوعة، والفضائل المجتمعة ما يجعل له في النفوس المؤمنة شعورًا خاصًا، يصوره ويترجم عنه الاتجاهات المثلى والمسالك الراشدة السديدة التي يجنح إليها المسلمون في رمضان، وميادين الخير التي يستبقونها، والتضحيات العظيمة التي يبذلونها في رمضان، كل ذلك مما يشعر بوضوح بالمكانة التي يحتلها رمضان في نفوس المسلمين جميعًا، والنظرة الخاصة التي ينظرون بها إليه، نظرة الإجلال والتعظيم، واعتباره المنقذ لهم من الصبوات والنزوات، والمباعد بينهم وبين اتباع الهوى، والحافز على الأخذ بمناهج الهدى، كما جاء في فضائل رمضان أنه شهر تصفد فيه الشياطين، فلم

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ...». الحديث أخرجه مسلم (١١٦٣) وغيره.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٣٠٣، وابن ماجه (١٧٤٢)، والنسائي في الكبرى (٢٩٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: سئل رسول الله ﷺ: أي الصيام أفضل بعد رمضان؟ قال: «شهر الله الذي تدعونه المحرم». وهو نفس الحديث الأول مع اختلاف يسير في اللفظ.

يقدروا فيه على ما كانوا يصنعونه في غيره - أي : من التسويلات ، وتزيين المعاصي ، وتوقان النفوس إليها ، والحرص عليها- واعتباره أيضًا أكبر كسب يظفر به المسلم لصالحه ؛ لما ورد في الحديث أن : «أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار»[1] . ولأن فيه ليلة تعوض المسلم ما لعله أن يكون قد فرط فيه في سالف أيامه ، فلم يعمره بالطاعة ، أو يشتغل فيه بمجالب الرضوان ، إنها ليلة القدر التي تفضل العبادة فيها عبادة ألف شهر ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر: ١- ٥] .

أما كون رمضان شهر التضحية ؛ فلأنه الشهر الذي خصه اللّٰه بالصيام والقيام ، وندب فيه إلى ألوان من البر ومناحي الخير والإحسان ، تتجلى فيها التضحية في أسمى ذراها .

فالصيام فطم للنفوس عن شهواتها وملذاتها المباحة، وقسر لها على تحمل ألم الجوع وحر الظمأ ؛ ضبطًا[2] لشعورها ، فلا تتبرم أو تتأفف ، أو يبدر منها ما يحبط صومها ، أو يقلل من أجر جهدها وصبرها ، حتى لو أن صائمًا أجبر على الفطر قسرًا لما فعل ، ولو أدى ذلك إلى إلهاب جسده بالسياط وتعذيبه ، فإنه يستعذب العذاب في جانب الإبقاء على صومه ، والقيام بفريضة فرضها اللّٰه عليه ، مقدمًا رضاء اللّٰه على هوى النفس والاستجابة لشهواتها ، أو الانصياع لمن يزين له الفطر ، أو يقسره عليه ، كما أسلفنا ، أو يطلب مجاملة فيه ، ومجاراة عليه من خليل أو قرين على حساب دينه .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٨٨٧) ، والبيهقي في الشعب (٣٦٠٨) من حديث سلمان رضي اللّٰه عنه . وقال الألباني في الضعيفة (٨٧١) : منكر .

(٢) في الأصل : «ضيقًا» .

وإنها لتضحية في الذروة بالنسبة لأي تضحية أخرى يبذلها المسلم خلا تضحية المجاهد بنفسه في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فإنها تضحية بأغلى ما يمتلكه المرء، ويحرص على سلامته وصونه من المعاطب؛ ولذلك قطع الله بالجزاء عليها بالجنة وعدًا كريمًا لقاء عمل جليل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية ١١١].

وعدا تضحية الصائم بطعامه وشرابه ابتغاء رضوان الله تضحيته بالنوم لإحياء الليل في القيام، فرمضان شهر القيام، فقل أن تجد مسلمًا- مهما كانت مشاغله وصوارف الحياة لديه- لا يشترك في صلاة التراويح حتى ينصرف الإمام، أو بقدر نشاطه، فيكتب له قيام الليل، وقد يكون له تهجد آخر في وقت السحر؛ طلبًا للمزيد من الأجر.

فرمضان ميدان تنافس في الباقيات الصالحات، وقد يكون من حفاظ القرآن، فيقرأ قسطًا كبيرًا منه في صلاة التراويح، أو فيما تيسر له من قيام آخر الليل، فلو صلى التراويح عشرين ركعة؛ في كل ركعة ثمن جزء لختم القرآن في ليالي رمضان مرة، أو أكثر، ويتطلب ذلك صبرًا وجهدًا في القراءة وطول القيام، وخاصة في أوتار العشر الأخير، حين يطلب المصلون ليلة القدر، ويحيون الليل أو أكثره في عبادة وخشوع، وتلاوة للقرآن، وتضرع وابتهال، فإذا أضيف إلى هذا الجهد اعتكاف في العشر الأخير، وملازمة للمسجد، والانقطاع عن كل المشاغل والصوارف والعزلة عن الناس، فقد أخذ المسلم من التضحية أوفر نصيب.

ولم تقف التضحيات في رمضان عند حد ، فكما تكون بالجسم وراحته وقطعه عن ملذاته وحبسه عن شهواته المباحة تكون بالمال ، والمال صنو الروح ؛ بمعنى أن المرء حريص عليه شحيح به لا تطيب نفسه بإخراجه والتفريط فيه إلا لما هو أعظم منه وأفضل فائدة للمرء وعائدة عليه ؛ ذلك أنه يجهد نفسه ، ويتحمل المكاره والمتاعب للحصول عليه وادخاره كرصيد تسمو به معنويته ويتألق نجمه ، وخاصة في أعقاب الزمن ، عندما أضحى تعارف الناس على المادة ، واتخذت معيارًا لبروز الشخصيات ، وتقدير مكانتها بين المجموع ؛ فإن الجهود لا تكل عن الكدح للحصول على المادة واكتنازها والمبالغة في المحافظة عليها من المتالف وتنميتها وعدم التضحية بها إلا بعوض مغر وعطاء موفور .

ففي رمضان تشمل التضحية حتى المال عزيز المنال ؛ فإن من طبيعة الصيام ترقيق العاطفة وتهذيب الشعور وتحويل النظرة المادية إلى إحساس عميق بشعور الغير وتقدير ظروفه ورحمته والحدب عليه ، كما قال بعض الحكماء : من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم . فمتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ وحكم الوازع النفسي على المادة ، فيسمع الغنى في ضميره صوت الفقير يقول : أعطني ثم لا يسمع منه طلبًا من الرجاء ، بل طلبًا من الأمن ، لا مفر من تلبيته والاستجابة لمعانيه ، كما يواسي المبتلي من كان في مثل بلائه .

هذا من الناحية النفسية ، وإلى جانب ذلك ما أسلفنا القول عنه أن المال صنو الروح ، لا يبذله المرء إلا لقاء عوض مغر وعطاء موفور ؛ ولذا أجزل اللَّه العوض للصائم على بذله في سبيله ، وقابل عطاءه بأفضل مما سمحت به نفسه وضحى به من حطام ، كما جاء في حديث سلمان الفارسي رضي اللَّه عنه مرفوعًا : « من فطر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير

أن ينقص من أجره شيء »[١] . وفيه أيضًا : « ومن أشبع فيه صائمًا سقاه اللّه من حوضي شربة لا يظمأ بعدها أبدًا حتى يدخل الجنة »[١] .

وليس تفطير الصائم وإشباعه الذي رتب اللّه عليه أوفى الجزاء وأكرمه إلا لون من ألوان التضحية والسخاء بالمال في سبيل بلوغ مرضاة اللّه وطلبًا للمزيد من فضله وإنعامه ، وإلا فإن بذل المال والجود به في رمضان ميدان تنافس المتنافسين في أوجه البر ومجالات الخير ، وما أكثرها وأوسع أبوابها .

وقد جاء فيما رواه الترمذي عن أنس رضي اللّه عنه مرفوعًا : « أفضل الصدقة صدقة في رمضان »[٢] . والصدقة تشمل الغذاء والكساء وجميع ما فيه عون للصائم وإرفاق به ، وتخفيف عنه في المسئوليات والأعباء التي يقوم بها المسلم عادة في غير رمضان لو أعين عليها في رمضان ، أو خففت عنه كان ذلك بابًا من أبواب البر ، يعطي اللّه عليه الجزيل من الأجر ، كما جاء في الحديث : « ومن خفف فيه عن مملوكه كان له عتقًا من النار »[١] . وفي معنى المملوك الخادم والأجير لعمل مخصوص معين والموظف لو أنقص عنه من ساعات الدوام ، كل ذلك ، وما في معناه مما يكون به الإرفاق بالصائم ، يدخل في عموم البر الذي يضاعف اللّه عليه الأجر .

أما جزاء تضحية الصائم بطعامه وشرابه وإمساكه عن ملذاته المباحة ؛ استجابة لأمر اللّه ، وقيامًا بأداء فريضة فرضها اللّه عليه ، فإنه جزاء جاوز حد المضاعفة التي نوه اللّه عنها في كتابه على الحسنات ، كما قال تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٠] جاوزها إلى مضاعفات لم تقع له في الحسبان ، كما جاء في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له ، الحسنة بعشر

(١) تقدم تخريجه قريبًا .
(٢) أخرجه الترمذي (٦٦٣) . وضعفه الألباني ، وتقدم تخريجه .

أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به »[(١)].

وذكر العلماء تعليقًا على هذا الحديث ما معناه: أن سبب هذا الفيض الإلهي في عدم حصر الجزاء على الصوم أنه- أي الصوم- في كل اتجاهاته لون من الصبر في أوسع مجالات الصبر، حيث يشمل الجسم والعاطفة، فالجسم يصبر على ألم الجوع وحر الظمأ، والجهد في أداء الطاعات، مع ضعفه وفتوره، والعاطفة تحجم عن الانسياق وراء الشهوات الجامحة المحرمة، وعن الانزلاق في مهاوي الرذيلة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠] أي: دون مضاعفة محدودة يقف عندها الجزاء، وجاء في الحديث في فضيلة رمضان: « وهو شهر الصبر، والصبر جزاؤه الجنة »[(٢)].
وحسب الصائم ارتفاعًا بجزائه أن يبلغ منازل الرضوان ورفيع الجنان.

وعدا هذا الفيض الكريم من الرب الرحيم في فضل الجزاء جزاء آخر مقصور على الصائمين يكون لهم قرة عين، وباعث أمن، ورضاء بالعيش الرخي الذي يصيرون إليه في حياة الخلود وحافز عزم وحزم للصبر على التضحية في العاجلة؛ يترجم عنه ما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: « إن في الجنة بابًا يقال له: الريان. يدخل منه الصائمون لا يدخل منه غيرهم »، وفي رواية: « فإذا دخلوا أغلق »[(٣)]. وفي رواية: « من دخل منه شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا »[(٤)].

وقال مجاهد وغيره من مفسري السلف في تفسير قول الله تعالى: ﴿كُلُوا

(١) أخرجه مسلم (١١٥١/١٦٤) بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (١٩٠٤) ببعض ألفاظه.
(٢) تقدم تخريجه في حديث سلمان الطويل.
(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢/١٦٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٣٣٥، والنسائي (٢٢٣٦)، وابن خزيمة (١٩٠٢). وصححه الألباني.

﴿وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقّة: الآية ٢٤] : إنها نزلت في الصائمين[١] .

كما جاء في بعض الآثار أن اللَّه يقول لأوليائه يوم القيامة : يا أوليائي ، طالما نظرت إليكم في الدنيا ، وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة ، وغارت أعينكم ، وجفت بطونكم ، كونوا اليوم في نعيمكم ، وتعاطوا الكأس بينكم[٢] .

وهكذا تكون ثمار التضحية في سبيل أداء الواجب محمودة مشكورة ، ويبلغ بها المضحي أفضل مدارج السعادة ، وأقصى ما يؤمل فيه من الحياة الطيبة .

بقي أن نعرض لأمرين لا معدى عن توجيه الأنظار إليهما ؛ لما لهما من وثيق الصلة بموضوع التضحية في رمضان .

أولاهما : يشجب تضحية الصائم وجهده يضيع عليه فرصة الكسب وثمار التضحية ولا يجني به غير العناء ، يصوره قول الرسول ﷺ : « رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش »[٣] .

وذلك أن للصوم حريمًا يجب المحافظة عليه ، وعدم استباحته ، فليست التضحية بالطعام والشراب والمتع المباحة التي يفرضها الصوم هي وحدها المحظورة ، بل إلى جانبها محظورات أخرى ، هي كما أسلفنا القول بمثابة حريم للصوم ؛ منها الوقوع في أعراض الناس ، والتجني عليهم بالقول أو الفعل ، وإفساد الصلات بينهم بالنميمة ، والتدلي إلى الكذب ، وعدم الكف عن السباب والشتائم ، والخنى ، وهجر القول ، وما إلى ذلك من الهفوات والسقطات ؛ إذ كل ذلك مما يشجب تضحية الصائم ، أو يضيع عليه فرصة اغتنام الكسب في رمضان

(١) ينظر شعب الإيمان للبيهقي (٣٩٤٩) ، وتفسير الزمخشري ٤/ ٦٠٧، وفتح القدير ٥/ ٣٩٨.
(٢) ينظر تفسير الزمخشري ٤/ ٦٠٧، وروح المعاني ٢٩، ٤٨، ولطائف المعارف ص ٢٢٧.
(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٧٣، وابن خزيمة (١٩٩٧) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠٨٣) .

بالتنافس في الباقيات الصالحات .

جاء في الحديث : « ليس الصيام من الطعام والشراب ، وإنما الصيام من اللغو والرفث »[(١)] . واللغو : هو الكلام الباطل ، وما لا طائل تحته ، والرفث : هو هجر القول ، وما لا يجمل منه .

وقال بعض السلف : أهون الصيام ترك الطعام والشراب . وقال الصحابي الجليل جابر بن عبد اللّٰه : إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ، ودع أذى الجار ، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك ، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء[(١)] . وضمن بعض الشعراء هذا المعنى فقال[(٢)] :

إذا لم يكن في السمع مني تصاون ... وفي بصري غض وفي منطقي صمت
فحظي إذن من صومي الجوع والظمأ ... فإن قلت إني صمت يومي فما صمت

الأمر الثاني : الإحجام عن التضحية ، ونعني بذلك ترك الصوم لغير عذر مشروع ؛ كالمرض الذي لا يرجى برؤه ، والهرم أي : الشيخوخة المضنية التي يتعذر معها الصوم ، أو لغير رخصة رخصها اللّٰه ؛ كالسفر ، وكالمرض الذي يرجى برؤه ، وكالحيض ، والنفاس .

فمن بلغ به الاستهتار درجة ترك فريضة اللّٰه التي فرضها على عباده ، وعدم التضحية في سبيل أدائها ، فقد حاد اللّٰه بانتهاك محارمه ، فهو حري أن يحرم الفضل الذي شمل اللّٰه به الصائمين من المغفرة والرحمة والعتق من النار واستجابة الدعاء والفوز بكرامة اللّٰه في جنان النعيم ؛ يؤيد ذلك قول الرسول ﷺ ، وقد صعد المنبر ، وقال : « آمين . آمين . آمين » . فسئل عن ذلك فقال : « أتاني جبريل فقال : من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده اللّٰه . قل : آمين .

(١) تقدم تخريجه قريبًا .
(٢) ينظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٢/ ٥٢٥. فقد نسبه إلى الإمام أبي بكر بن عطية .

فقلت : آمين »[١] . الحديث .

ذلك أن شهر رمضان مجال الكسب واكتناز المغانم ، وأعظم الكسب أداء الصيام المفروض ، فمن حرم من ذلك فقد حرم الكسب كله ، فأبعده اللَّه وأدخله النار منازل الفجار ، وبئست النار من قرار ، وجاء من الوعيد في ترك الصوم والاندفاع وراء تحقيق الشهوات قوله ﷺ : « من أفطر يومًا في رمضان دون رخصة رخصها اللَّه لم يقض عنه صيام الدهر إن صامه »[٢] .

نسأل اللَّه الهداية إلى أقوم سبيل ، وأن يبلغنا رمضان ، ويقدرنا على صيامه وقيامه ؛ ابتغاء رضوان اللَّه ، لنحظى بتحقيق الوعد الكريم على لسان النبي الأمين ﷺ ، حيث يقول : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه »[٣] .



(١) أخرجه أبو يعلى (٥٩٢٢) ، وابن حبان (٩٠٧) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٩٧) .

(٢) أخرجه أحمد (٩٩٠٨) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٣٧، ٣٨) ، ومسلم (٧٥٩، ٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

شهر النفحات(١)

يلذ للمسلم الحصيف أن يقرع سمعه وقد غدا شهر الصوم المبارك من المسلمين على الأبواب ، وأصبح في نفس كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها تطلع لإشراق شمسه وخفقة الفرح لاستقباله ، وعلائم السرور تلوح على قسمات وجهه .

يلذ له أن يطرق سمعه شيء عن مزايا رمضان ، وما اختصه رب العزة من نفحات وفتوحات وخيرات وبركات أضحت سمة له توحي بفضله وشرفه ، وتشعر برفيع قدره ، وتستحث من المسلم الخطى وتشحذ به العزم لاهتبال فرصته ، وأخذ النفس فيه بمسلك هو الصلاح في أرفع ذراه ، يأتلف مع ما يتطلبه الصوم من مثالية وتكملات وحيطة وصدق عزيمة وصبر وتضحية وإيثار وما إليه مما يعتبر مرافد الصوم أو معاقل لصون الصوم من الخدش والترفيع به عن الوكس .

وقد يقال : إن من مكرور القول طرق هذه الجوانب وتناولها بالشرح والإفاضة، فقد ألف الناس ذلك وتعودوا سماعه ، كلما تألقت مصابيح رمضان ، وأطلقت المدافع إيذانًا برمضان .

فكل العلماء والكتاب يهتبلون هذه المناسبة للكتابة عن رمضان في جوانب متعددة عنه ، ومع تقريرنا لهذا الواقع لا نرى ضيرًا أن يستمع المسلمون في هذه المناسبة السعيدة الشيء الكثير عن رمضان ، فهذا يكتب عن فضائل رمضان ، ومزايا رمضان ، وما يجب أن يعنى الناس به في رمضان من مناهج ومسالك . وآخر يكتب عن الصوم ، وإعداده النفوس للتقوى ، وتكوينه في الصائم خلق الصبر ، وفضيلة الإيثار ، والتضحية في سبل الواجب . وثالث يكتب عن أحكام

(١) مجلة الحج - ١٦/ شعبان / ١٣٨١هـ.

الصوم، وما يبطل به، وما يشرع له، وما يكره فيه، وما يحرم.

حتى لا يبقى جانب عن رمضان، أو الصوم، إلا تناوله الكتاب بأقلامهم، وهو وإن كان مكرورًا في موضوعه، إلا أنه جديد وطريف في الأسلوب والتصوير، بروح الكاتب في رسم هدفه وتذكيره وتبصيره.

ولو أمعنا النظر في كل أو أكثر ما يعالج الكتاب الكتابة فيه من مواضيع لألفينا التكرار، هو عصب ما يكتبون، والمحور الذي يدورون وينسجون عليه أخيلتهم، ويرسمون أحاسيسهم، ويسجلون انطباعاتهم، ويذكرون أو يبصرون به، غير أن المهارة في العرض والجودة في التصوير تضفي على الموضوع لونًا من البهاء فيكون له إشراقه الجديد، وطراوة التجديد.

وإلى جانب ذلك فالتذكير بما لرمضان من شرف وما لأيامه ولياليه من رفيع القدر وجليل الأثر، وما للصوم من جزاء يفوق الحصر لا يدخل في حساب، وما للصائمين من البشرى بالأمن والأمان يوم الحساب، أولئك وغيره من فضائل وتكملات ونفحات، لهو مما يجب التذكير به في هذه المناسبة السعيدة ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذّاريات: الآية ٥٥] قيامًا بواجب النصيحة التي يجب إشاعتها إذ قامت مناسبتها، ولا غضاضة أن يكون القول في النصيحة مكررًا ومعادًا.

فهذا كتاب اللّٰه الذي حفظه للأجيال، كنزًا للتذكير، وعمدة في التبصير، تردده الأجيال ولا تسأم من ترديده- ويقرع الأسماع صباح مساء، فيشنفها ولا تضجر من سماعه، فهل يصح الإعراض عن القرآن، وترديده بدعوى أنه مكرور؟

قد يجاب بأن هذه معجزة خاصة بالقرآن. وهو جواب سديد؛ إلا أن النصح من حيث هو توجيه إلى الخير ودلالة إلى الرشاد لا تضجر منه النفوس المؤمنة، ولا يضيق به أولو الألباب الذين امتدح اللّٰه مسلكهم في أشرف كتاب، حيث

يقول: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

ونحن في هذا الصدد نستبق الخطى إلى الخير، فنذكر في هذه المناسبة بنفحات الله في رمضان، وكم لرب العزة في شهر الصوم من نفحات مبتدئين منها بالنفحة الكريمة بالجزاء العظيم على الصوم، الجزاء الذي ادخره الله للصائم، فتتم به فرحته الكبرى، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، فيرى الصائم من الجزاء ما تقر به عينه ويسكن إليه قلبه، ويطمئن به إلى مصيره.

جاء في الأثر: إن لله مائدة لم تر مثلها عين، ولم تسمع أذن، ولا خطر على قلب بشر، لا يفد عليها إلا الصائمون، والناس ما برحوا في الحساب[١]. وذكر مجاهد وغيره من مفسري السلف في قول الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقّة: الآية ٢٤] أنها نزلت في الصائمين[٢].

وروي أيضًا: أن الله تعالى يقول يوم القيامة لأوليائه: طالما نظرت إليكم في الدنيا، وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وجفت بطونكم، كونوا اليوم في نعيمكم وتعاطوا الكأس فيما بينكم، وكلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية[٢]. يا لها من نفحة بلغت بهم إلى الغاية، وتحققت بها الآمال في إحراز سعادة الأبد ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هُود: الآية ١٠٨].

ويا له من جزاء كريم بصدق الله به الوعد للصائمين، حيث يقوله في حديث قدسي: «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»[٢]. وهي نفحة بالنسبة للصوم، وعظيم جزائه.

(١) انظر لطائف المعارف ص ٢٢٨، فقد ذكره عن أنس موقوفًا عليه.

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

أما نفحات الرب جل جلاله بالنسبة لما يزدلف به الصائم من القرب على اختلاف أنواعها في شهر النفحات ، فهي فيض يتجلى فيه فضل اللَّه السابغ ، حيث يعطي الجزيل على العمل القليل ؛ لشرف الزمان ، وفضيلة رمضان ، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « عمرة في رمضان تعدل بحجة » ، أو قال : « حجة معي »[(١)] وهي مضاعفة كريمة في الأجر ، ونفحة عظيمة من الرب تتناسب مع شرف رمضان وفضيلة الصيام ، وفي حديث آخر : « أن عمل الصائم مضاعف »[(٢)] .

ويوضح هذا الإجمال قوله ﷺ في حديث سلمان[(٣)] الفارسي رضي اللَّه عنه في فضيلة شهر النفحات قوله ﷺ : « من فطَّر فيه صائمًا كان له مغفرة لذنوبه ، وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء » . قالوا : يا رسول اللَّه ، ليس كلنا يجد ما يفطر به الصائم ؟ قال رسول اللَّه ﷺ : « يعطي اللَّه هذا الثواب من فطَّر صائمًا على تمرة ، أو شربة ماء ، أو مذقة لبن »[(٤)] . أي : الشربة من اللبن المخلوط بالماء . وهو جهد المقل ، لن يعدم أحد مهما بلغ به العوز ، أو أكرهته الفاقة ، أن يتصدق بالتمرة ، أو شربة الماء ، أو مذقة اللبن ؛ لتكون وسيلة لسعادته الأبدية بالتخلص من تبعات الذنوب ، وكل بني آدم خطاء ، فليس أحد يسلم من الذنب ، وبالنزول في كرامة اللَّه ونعيمه الدائم ، الذي لا يحول ولا يزول ، وهل بعد هذا من سعادة ترتجى ، أو أمل يسعد المرء بتحقيقه .

إن العبد في حياته الدنيا لا يطمع في أكثر من أن يعيش قرير العين في ظل

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا .
(٢) لم نجده مسندًا ، وقد ذكره ابن رجب في لطائف المعارف ص ٢١٨ .
(٣) في الأصل : « سليمان » . وهو خطأ .
(٤) تقدم تخريجه قريبًا .

سعادة زائلة ونعيم متقلص الظلال، فكيف إذا ضمن له الرب جل جلاله سعادة دائمة في دار الخلود، وأمنًا لا تكتنفه المخاوف، أفلا يكون ذلك نفحة عظيمة من مسدي الجميل، تدفع العبد إلى استباق الخيرات في شهر النفحات؛ لكي يصل إلى أعلى الدرجات، ويهتصر السعادة بحذافيرها في دار الكرامات.

وفي الحديث أيضًا عن عبادة بن الصامت رضي اللَّه عنه في فضيلة شهر النفحات: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يغشاكم اللَّه فيه، فينزل الرحمة، ويحط الخطايا ويستجيب فيه الدعاء، ينظر اللَّه إلى تنافسكم فيه؛ فيباهي بكم ملائكته، فأروا اللَّه من أنفسكم خيرًا، فإن الشقي من حرم فيه رحمة اللَّه عز وجل»[1].

في هذا حفز الهمم؛ للتنافس في الازدلاف إلى المولى جل وعلا بمختلف القرب والطاعات؛ إذ يقدر خوضه لميدان الفضائل، يكون قد غلب الجانب الروحي على المادي، فأضحى موضعًا لمباهات اللَّه به، حيث أشبه ملائكته، وأنفع بصلاحه وطاعته إلى سمو غدا به أهلًا؛ لتنزل رحمات اللَّه عليه، وحطه لخطاياه، والتعرض لنفحاته وإلى جانب هذا الترغيب في الأخذ بسبيل الخير ترهيب عن الشطحات والسقطات والانخراط في سبل الغوايا والصبوات؛ فإن شهر النفحات من حقه كشهر له أفضليته ورفيع قدره أن لا يمتهن بارتكاب الزلل في أيامه ولياليه، وأن لا تداس كرامته، ويبتذل قدره بالخطيئة، يتلبس بها المسلم في أوقاته ولحظاته؛ فيكون ذلك برهان شقاء، ودليل تعاسة؛ إذ يحرم به العبد من نفحات الرب وبركاته ورحماته، كما نص الحديث: «الشقي من حرم فيه رحمة اللَّه عز وجل».

وكما جاء في حديث آخر عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: صعد رسول اللَّه ﷺ المنبر فقال: «آمين. آمين. آمين». فقيل له: يا رسول اللَّه، إنك صعدت المنبر فقلت: «آمين. آمين. آمين». فقال ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام

(١) أخرجه الشاشي (١٢٢٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٢٣٨). وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٥٩٢): موضوع.

فقال : يا محمد ، رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له » الحديث[1] . وما ذلك إلا لأن شهر رمضان هو شهر النفحات ، ومجال لاستباق الخيرات ، فمن قعدت به همته عن استباق الخيرات أو عبث بنفسه فانهمك في الشهوة المحرمة وأسف بالنزوات ، فقد أضحى في عداد الأشقياء الذين باعدوا بين أنفسهم وبين المغفرة في شهر المغفرة والرحمات ، أفلا يكون ذلك منتهى الشقاء ، ومجلبة للندم والعناء .

ومن نفحات الرب في رمضان عتقه كل ليلة من النار فئات من الناس ممن استوجب بعمله دخول النار ، كما جاء في حديث طويل عند الترمذي عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما : « وللَّه عتقاء من النار في رمضان ، وذلك كل ليلة »[2] .

فإذا عجز العبد أن يتعرض لهذه النفحة العظيمة ليلة من ليالي رمضان ، فذلك حرمان ، يا له من حرمان ؛ سيما وأن أسباب العتق من النار في شهر النفحات ميسرة لا تكرث العبد ، أو تثقل عليه ، أو تتطلب كبير مشقة في العبادة ، أو إجهاد في الطاعة ، وقد ألمعنا في ثنايا هذه الكلمة إلى جانب منها في حديث سلمان رضي اللَّه عنه ، وغيره .

أما بعد ، فإن الحديث عن شهر النفحات واسع ممدود ، لا يقتصر على ما أسلفنا القول عنه ، فنفحات الرب جل جلاله فضل سابغ ، وغيض من فيض ، يحظى بها السعداء من عباد اللَّه ، وخاصة في الشهر المفضل رمضان المبارك ، ففيه مجال واسع لنفحات الرب وهباته ؛ إذ كان حلبة سباق بين المتقين ، وميدان تنافس للبررة الصالحين ، يستبقون فيه البر ويتنافسون فيه في الخير بما يرتفع بهم لتلقي النفحات ، ويجعلهم أهلًا لتنزل الرحمات والبركات .

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا .

(٢) أخرجه الترمذي (٦٨٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، لا من حديث ابن عباس . وصححه الألباني .

عَشر التجليات[١]

عشر التجليات هي العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، إذ هي مما اختصها اللّٰه بالكثير من التجليات، وغشيانه لعباده، وتنزله عليهم من الرحمات، وحطه الخطايا عمن اهتبل الفرصة، وأقبل على الطاعة، وعمر أوقاته بالعبادة؛ فصام النهار وقام الليل؛ مزدلفًا إلى ربه، متضرعًا بين يديه، راجيًا رحمته، خائفًا من عذابه، وذلك شأن الأوابين ...[٢] الصالحين.

ولئن كان شهر الصوم كله ...[٣] لتسابق العابدين المخبتين؛ فإن العشرة الأخيرة منه أوسع مجالًا، وأعظم أثرًا للاشتغال بها، لما خصها اللّٰه به من مزيد الفضل على أول الشهر ووسطه، إذ جعل فيها ليلة القدر التي جعل العبادة فيها عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر؛ ولذلك قال رسول اللّٰه ﷺ فيه أي: في رمضان. ويعني العشر الأخيرة منه من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء: «ليلة من حرم خيرها فقد حرم»[٤]

وخص رسول اللّٰه ﷺ هذه العشرة الأخيرة بأمور توحي بجلالها، ورفعة قدرها، فقد صح عن عائشة أم المؤمنين رضي اللّٰه عنها قالت: كان رسول اللّٰه ﷺ إذا دخل العشر، أحيا الليل، وأيقظ أهله- أي للعبادة وصلاة القيام- وشد المئزر. وفي رواية لمسلم عنها قالت: كان رسول اللّٰه ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها[٥].

---

(١) مجلة الحج ١٦ - رمضان - ١٣٨١هـ، ٢٠ - فبراير - ١٩٦٢م.

(٢) كلمة غير واضحة.

(٣) كلمة غير واضحة.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٢٣٠، ٣٨٥، والنسائي (٢١٠٦) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه. وصححه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم (١١٧٤، ١١٧٥).

والمراد بإحياء الليل معظمه وغالب ساعاته ؛ جمعًا بين الأحاديث التي روت إحياء غالبه أو نصفه في العبادة ، واطراح كل شاغل عنها ، حتى الطعام كان يؤخر ﷺ فطوره إلى سحوره ؛ طمعًا في إحراز وقت أطول ، يفرغ فيه للعبادة ، بالإضافة إلى اعتزاله للنساء في هذه الليالي العشر ، وهو بديهي ، إذ قد ورد في الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر في رمضان حتى توفاه اللّه[1] .

ومن شرط الاعتكاف البعد عن الاتصال الجنسي ، فإنه يبطله . وسر ذلك : هو التفرغ والعزلة التامة التي لا يعكر صفو الخلوة فيها متعة أو تلذذ بشهوة ؛ فإن المعتكف قد حبس نفسه على طاعة اللّه ، واشتغل بمناجاته ، وانقطع لذكره ، وعكف على ما يقربه منه ، فكل لذة أضحت لديه دون هذا الهدف ، وذلك شأن العارفين باللّه الذين يسعون إلى بلوغ رضوان اللّه ، لا يشغلهم عنه شاغل ، ولا يصرفهم عن الازدلاف إليه بالقرب في مختلف ألوانها صارف ، سيما إذا أظلتهم مواسم العبادة ، وأشرقت على ربوعهم أيام اللّه المفضلة وشهوره المعظمة ؛ كشهر رمضان والأيام العشرة ، والأخيرة منه .

نقل عن أبي الدرداء رضي اللّه عنه فيما يصور واقع العارفين ويحفز همم الخلف ؛ لاحتذاء أثر الصالحين يقول : صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبور ، وصوموا يومًا شديدًا حره لحر يوم النشور ، وتصدقوا بصدقة لشر يوم عسير[2] .

فلو ارتفعت النفوس لطلب هذه الأهداف ، وكدت ، واجتهدت ، ونفضت عنها غبار النوم ، ودواعي الكسل ، وعمرت ليالي العشر المفضلة بالتهجد ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٦) ، ومسلم (١١٧٢) من حديث عائشة رضي اللّه عنه .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٦٥/١ عن أبي ذر رضي اللّه عنه بنحوه ، وذكره ابن رجب في لطائف المعارف ص ٢٤١ عن أبي الدرداء رضي اللّه عنه .

وضحت فيها بحظوظ النفس المباحة، ولم يكن لها همّ سوى مرضاة اللّٰه لما خاب لها سعي، وللحقت بركب الصالحين، وكانت لها الحظوة بإدراك ليلة القدر وأجر عبادة ألف شهر. جاء في بعض الآثار: «من أتى عليه رمضان فصام نهاره، وصلى وردًا من ليله، وغض بصره، وحفظ فرجه ولسانه ويده، وحافظ على صلاته في الجماعة، وبكر إلى جمعه، فقد صام الشهر، واستكمل الأجر، وأدرك ليلة القدر، وفاز بجائزة الرب»(١). كما قال بعض السلف: إنها جائزة لا تشبه جوائز الأمراء. أي: أنها أرفع قدرًا، وأعظم شرفًا.

وما ظنك بالرب الكريم وهو يتجلى على عبده ويغدق عليه عطاءه ويسبغ عليه من فضله، ولا تسل عن واسع العطاء وأجود الأجودين الذي لا تفنى خزائنه، وإن جوده ونفحاته وفيض عطائه ورحماته لتتضاعف في ساعات خصها اللّٰه بالفضل، ورغب في بذل الوسع؛ للتعرض فيها لنيل الفضل، من أبرزها هذه العشر الأخيرة من رمضان: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: الآية ٢٦].

وإن مما اختصها اللّٰه في جملة ما اختصها به من سابغ الفضل أن يعتق فيها من عباده من النار من أثقل نفسه بالأوزار واستوجب بها دخول النار؛ إذا صح منه العزم على التوبة الصادقة والأوبة إلى اللّٰه بقلب سليم، كما جاء في الحديث في فضل رمضان: «وهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار»(٢).

فيا لسعادة من كان حظه من رمضان العتق من النار، فهي غاية منى العبد، ومحط آماله، بيد أن لبلوغ هذه الغاية أسبابًا؛ إذ لا يدرك المطلوب بعمل

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في فضائل رمضان (٢٠) عن أبي جعفر مرفوعًا مرسلًا.
(٢) تقدم تخريجه.

مرغوب- أما التعلق بالأمل دون كدٍّ وعمل فهو أماني كاذبة خادعة ينخدع بها أربابها ثم لا يكون وراءها إلا السراب - أرأيت من يتعلق بالعفو والغفران دون معالجة لأسباب ...[1] المفضية إلى تحقيق ..[2] مثله من يعلق أمله دون أن يكون منه بذار، أو كمن ربح في السلعة دون جودة في العرض ...[3] لأمثال هؤلاء أمل، كذلك من يتعلق دون بذل لأسبابها. وأسباب الغفران في تجليات الملك الديان ميسورة في رمضان، خاصة في أخريات أيامه، وعندما يشعر المؤمن في الشهر المبارك، يجب أن يغتنم الفرصة لمعالجة أسباب المغفرة، وتدارك ما لعله أن يكون فاته في أول الشهر ووسطه من كدح لإحراز في صالح بغية الوصول به إلى منازل الرضوان والعتق من جحيم النيران.

روي أن أبا قلابة رضي اللّٰه عنه كان يعتق في نهاية الشهر جارية حسناء مزينة يرجو بعتقها العتق من النار[4]. وذلك سبيل ...[1] لاستباق الخيرات، رسمه أبو قلابة لأرباب الجد واليسار، فإن اللّٰه سبحانه يعامل العبد من فيض عمله، ويغدق عليه من واسع كرمه، تحقيقًا ...[1] إذا علم منه صدق النية في معاملته وصلاح الطوية.

وإن عتق الرقاب من أجل القرب إلى اللّٰه فإذا صادفت وقت التجلي وزمن القرب والوصال حقق اللّٰه به آمال المعتق وأعتقه به من النار، وكذلك كل عمل صالح، يزدلف به العبد إلى ربه، وخاصة في مواسم العبادة وفرص التجليات إذ كان طلب العفو عن التفريط والتقصير في ليلة القدر- أي: الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر- من أنفع ما يطلبه العبد بعد الجهد الذي بذله في الصيام والقيام

---

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) هنا نقص غير واضح في الأصل.

(٣) كلمة غير واضحة.

(٤) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف ص ٣٠٠ - ٣٠١.

والازدلاف بألوان من الطاعات ، كما أرشد رسول الهدى ﷺ أمَّ المؤمنين عائشة رضي اللّٰه عنها إذ سألته قائلة : أرأيت إن وافقت ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : قولي : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني »[(١)] .

فالإتيان بأسباب المغفرة والعفو شرط أساسي ووسيلة من أعظم الوسائل للحصول على العفو والغفران ، ومن أنفع الوسائل أيضًا للوصول إلى أعظم الغايات في عَشر التجليات استدامة الاستغفار ، كما جاء في حديث أبي هريرة المرفوع : « ويعفو فيه- أي في رمضان- إلا لمن أبى » . قالوا : يا أبا هريرة ، ومن يأبى ؟ قال : يأبى أن يستغفر اللّٰه عز وجل[(٢)] . قال الحسن البصري رحمه اللّٰه : أكثروا من الاستغفار ، فإنكم لا تدرون متى تنزل الرحمة[(٣)] . ولذلك تختتم به الأعمال الصالحة كالصلاة والصيام والحج ، وتختتم به أحاديث المجالس ، فإن كانت ذكرًا وعملًا صالحًا كان كالطابع عليها فتبقى به محفوظة لاستيفاء الأجر عليها ، وإن كانت لغوًا كانت كفارة لها .

وفي الحديث عن سلمان الفارسي رضي اللّٰه عنه في الحث على اهتبال الفرص في شهر رمضان ، واغتنامها للطاعة وخاصة في العشر الأخيرة منه : « فاستكثروا فيه من أربع خصال ؛ خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غنى لكم عنهما : فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم : فشهادة أن لا اللّٰه إلا اللّٰه ، والاستغفار . وأما اللتان لا غناء لكم عنهما : فتسألون اللّٰه الجنة ، وتستعيذون به من النار »[(٤)] .

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٧١، ١٨٢، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، والنسائي في الكبرى (٧٧١٢). وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه ٣/ ٢٦١، والسِّلفي في الطيوريات (٤٠٠). وضعفه محققه.

(٣) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف ص ٣٠١.

(٤) تقدم تخريجه.

فأوضح الحديث أن الاستغفار خصلة ترضي الرب ، وفي الأخذ به في رمضان وفي عشر التجليات منه أعظم أثرًا ؛ إذ كان الظرف مهيئًا لإحراز المغفرة وتحقيق الوعد بها للصائم ، فهو دعاء وطلب للمغفرة في وقت يستجاب فيه الدعاء ، كما جاء في الحديث أن للصائم عند فطره دعوة ما ترد[١] ، أو عند قيامه وتهجده في الليل .

ورمضان شهر القيام والعشرة الأخيرة منه محك لعزائم المؤمنين في طول القيام ، وخاصة في وقت التجليات ؛ ثلث الليل الآخر ، حين ينزل رب العزة إلى سماء الدنيا ، ويقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يستغفرني فأغفر له[٢] . فإذا وافق الاستغفار ليلة القدر فقد حاز العبد السعادة بحذافيرها، جاء في الحديث عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما مرفوعًا إلى النبي ﷺ : «إن اللَّه ينظر ليلة القدر إلى المؤمنين من أمة محمد ﷺ فيعفو عنهم ويرحمهم إلا مدمن خمر ، وعاقًا ، أي : لوالديه ، ومشاحنًا ، وقاطع رحم »[٣] .

وما ذاك إلا لأنه لم تتوافر لديهم الوسائل الصالحة لاستجلاب رضوان اللَّه وعفوه ومغفرته ، بل تمادوا في المعصية ، ولم يأتوا بأسباب المغفرة ، فحرموا غاية الحرمان ؛ إذ تجلى اللَّه على عباده بالعفو والغفران على أن طالب الغفران لا يكون مجديًا إلا إذا اقترن بالتوبة الصادقة ، كما أوضحنا ذلك ، وإلا كان قولًا باللسان ، لا يرتفع بصاحبه إلى بلوغ مطلبه ، وتحقيق أمله ، بل كان خداعًا يخادع به المرء نفسه ، فلا تقال له به عثرة- وفي حديث سلمان المار ذكره توجيه لخصلتين في الأخذ بهما رضاء الرب ؛ هما : سؤال اللَّه الجنة ، والاستعادة من النار .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٣) لم نجده مسندًا، وذكره ابن رجب في لطائف المعارف ص ٢٩١.

قال النبي ﷺ : « حولهما ندندن »[١] . أي : هي غاية آمال المسلم ، ومنتهى رغباته ، ومن أجلهما يكدح في حياته ، ويزرع خيرًا وعملًا صالحًا ؛ ليجني رضوان اللّٰه ، ونجاة من عقابه ، ونزولًا إلى جانب أوليائه في دار كرامته ، تحقيقًا لوعده الصادق للمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية ٧٢] ، وقال : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٥] .

نسأل اللّٰه حسن العاقبة والقبول ، إنه أكرم مسئول .



---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٧٤، وأبو داو (٧٩٢) ، وابن ماجه (٩١٠) عن بعض أصحاب النبي ﷺ مرفوعًا ، وعند ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه .

شرف مكة وفضل الصوم بها[1]

إسهامًا من سعادة أمين العاصمة في الخير ، وقد أقبل على المسلمين شهر الخير رمضان ، ومن حق كل مسلم أن يجهد نفسه ، ويسخر قلمه وكل إمكانياته ، في الدلالة على الخير والتوجيه إليه ، رغب سعادته إلى جملة من حملة العلم أصحاب الفضيلة العلماء في الكتابة ؛ لينشر كل ما يصله منهم في الصحف المحلية ، بصفتهم مرشدين ومعلمين وموجهين ، ومن حقهم أن يهتبلوا فرصة حلول شهر الصوم المبارك ويذكروا الناس ، وخاصة العامة ، بفضيلة الصوم ؛ حفزًا للهمم ، وللأخذ به ، والتزامه فريضة فرضها اللَّه على العباد لا يصح الإخلال بها والتهاون بأمرها ، مع الترغيب بما ورد في فضل الجزاء الضافي الذي أعده اللَّه للصائمين ، وخاصة إذا كان للصائم شرف الصوم في مكة بلد اللَّه الحرام وقبلة المسلمين جميعًا .

ومما جاء في كتابه : « وحيث إن الصوم من أفضل أنواع العبادات وأحبها إلى اللَّه فلا شك أن من أتى بأحب عبادة إلى اللَّه في بلد اللَّه فقد فاز فوزًا عظيمًا » . اهـ .

هذا بالإضافة إلى ما طلبه سعادته من التعرض لفضل مكة ؛ ليستشعر الصائم في نفسه عظمة البلد الحرام ، وشرف الصوم فيه ، فيساق بشعوره وإحساسه العميق إلى أداء الواجب عن رغبة وإيمان وأمل في كريم الجزاء وعظيم الفضل .

أما شرف مكة ، فإن كل ما يكتبه الكاتبون ، ويسطره الباحثون ، ما هو إلا غيض من فيض ، لا يحجر مده ، فليس شرف مكة وما ورد فيه من نصوص بالذي يمكن أن يستوعب ، أو يأتي عليه الكاتب في مقال محدد ، وحسبنا الإلماع دون

(١) صحيفة الندوة في ٢٨/ ٨/ ١٣٨٢، ومجلة المنهل - رمضان ١٣٨٢هـ.

الإشباع، والإشارة دون الإفاضة.

وحسب مكة شرفًا وفضلًا ورفعة أن سماها الله سبحانه أم القرى، كما قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: الآية ٧]. والأم في كل شيء أصله؛ فأم القرى أصل لجميع البلاد، وكل البلاد تبع لها مهما كان لها من الأمجاد وارتفع بها أهلها إلى الذروة.

وقد صح عن رسول الله ﷺ في فضلها وشرفها أنه قال، وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليَّ، لولا أني أخرجت منك ما خرجت». رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث الزهري(١). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومن أبرز ما يوحي بشرفها وفضلها، لو لم يكن ثمة أدلة تشير إليه، أن خصها الله ببناء البيت العتيق، وجعله رمزًا لعبادته، يتجه إليه المسلمون كل يوم في صلاتهم خمس مرات، وشرع إليه الحج والعمرة، وجعله مركزًا للإشعاع الديني، وأمَّن قاصديه من المخاوف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] أي: أمنًا عامًّا مطلقًا على النفس والمال والعرض؛ لا يهان للمسلم فيه جناح، أو ينال منه، أو يستعدى عليه، حتى الشوك، والنبت الضعيف، والطير، والحيوان الأعجم، قد أمن في حمى الله إذ يقصد هذا البلد الطاهر، ويتخذ منه سكنًا ومستقرًّا، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سبحانه حرم مكة ولم يحرمها الناس، ولا يحل

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥)، والنسائي في الكبرى (٤٢٥٢، ٤٢٥٣)، وابن ماجه (٣١٠٨) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري. وصححه الألباني. وفي مطبوع الترمذي: حسن غريب صحيح.

لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد بها شجرًا».

فإن ترخص أحد فقال: أحلت لرسول الله ﷺ - أي: أحل القتال فيها لرسول الله ﷺ- فقولوا له: إن الله أحلها لرسوله ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس». أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما باختلاف في اللفظ(١).

وفي رواية: «فهو حرام بحرمة الله عز وجل إلى أن تقوم الساعة؛ لا يعضد شوكه، ولا يختلي خلاه- أي: لا يحش حشيشه- ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمعرِّف»(٢). أي: لا يباح لأحد أن يأخذ ما يعثر عليه فيه من اللقطات إلا لغرض التعريف عليها والبحث عن صاحبها؛ وما ذاك إلا لاستشعار حرمة البلد الحرام، وجريًا على الأمن العام الذي اختص الله به مكة.

ولا يغربن عن الأذهان دعوة خليل الله باني البيت العتيق لأهل الحرم، كما قص الله ذلك في كتابه إذ يقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] وامتنان الله سبحانه على أهل الحرم بأن جعله آمنًا في حين أن الناس يتخطفون من حوله، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٧] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص: الآية ٥٧].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٣، والبخاري (١٨٣٣، ٢٠٩٠)، ومسلم (٤٤٦/١٣٥٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد ٣١/٤ من حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣١٥، والبخاري (١٨٣٤، ٣١٨٩)، ومسلم (٤٤٥/١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كل ذلك مما يستشعر به المسلم حرمة مكة وشرفها وعظيم فضلها ومكانتها من بين سائر البلاد ، وأنها البلد الأوحد الذي اختصه اللّٰه بمزايا وفضائل جعلت له في النفوس حرمة التعظيم ورفعة البلد الكريم .

ومن المنطق أن يكون لهذا الشرف والعظمة ورفعة المكانة وسمو المنزلة آثار وانطباعات تحفز الهمم وتشحذ العزائم للتنافس في الباقيات الصالحات في هذا البلد المقدس ، واهتبال فرصة الجوار فيه ، أو الزيارة له ؛ لتكوين رصيد ضخم من صالح الأعمال ، يدخره المسلم ليوم تكسد فيه التجارة بالمادة ، ولا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى اللّٰه بقلم سليم . ومن أجل ما يتنافس فيه المتنافسون ، ويتخذ منه المسلمون وسيلة إلى بلوغ الرضوان والفوز بنعيم الجنان ، وأداء الفرائض المكتوبة ، كما جاء في حديث قدسي : « وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه »[1] .

وإن مما افترضه اللّٰه على العباد صوم رمضان المبارك ؛ إعدادًا وتزكية للنفس ، وسموًا بها ، لتلقي فيض الرحمات في شهر الرحمات والخير والبركات ، شهر رمضان المبارك ، ولما كان لمكة- شرفها الله- فضيلة المكان ، وكان لها في النفوس المؤمنة الصالحة انطباعات تدفع إلى الأفضل والأمثل من المناهج والمسالك ، كان صيام رمضان فيها من أجل القرب ، وأفضل الوسائل لبلوغ رضوان اللّٰه ، وأعظم الأسباب لاتخاذ رصيد ضخم من الأجور والجهد الذي يبذله الصائم في صوم رمضان بمكة ، وخاصة في فصول الصيف في فترة طول النهار ، فإن الصائم يُضاعف أجره ويزداد فيض البر الذي ...[2] اللّٰه به وتتابع الرحمات والنفحات والخيرات عليه ؛ ذلك لأن الأجر على قدر المشقة ، ولأن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه .

(٢) كلمة غير واضحة .

لمضاعفة أجر الأعمال الصالحة أبوابًا وعوامل يتكافأ معها الجزاء منها : شرف المكان ، فإن لشرف المكان أثره وقيمته الواضحة فليس سواء من كان على بساط ...[١] ، ولله المثل الأعلى ، ومن كان بعيدًا عنه ، ...[١] كان الكل في طاعته ؛ لذلك يضاعف أجر الصلاة في المسجد الحرام إلى مائة ألف صلاة ، وأجر الصلاة في المسجد النبوي إلى ألف صلاة ، وأجر الصلاة في المسجد الأقصى إلى خمسمائة صلاة كما صح بذلك الحديث[٢] لمكان هذه المساجد لقيمته ومنزلته وفضله عن غيره من الأماكن .

وكذلك الصوم ورد في مضاعفة أجره في مكة أحاديث وآثار تتفق كما أسلفنا القول مع فضل مكة والمكانة التي شرفها الله بها ، والميزات التي حباها الله ...[١] من ذلك ما روي في سنن ابن ماجه عن ابن عباس مرفوعًا : « من أدرك رمضان بمكة فصامه ، وقام منه ما تيسر ، كتب الله له مائة ألف رمضان فيما سواه »[٣] .

قال الحافظ ابن رجب[٤] رحمه الله : وذكر له ثوابًا كثيرًا- أي لمن صام رمضان بمكة : وهذا الحديث ، وإن كان في بعض رجاله مقال ، إلا أنه يؤيده الحديث السابق في مضاعفة أجر الصلاة في المسجد الحرام ؛ فإنهما متحدان في

---

(١) كلمة غير واضحة .

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٠) ، ومسلم (١٣٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، بلفظ : « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » . وأخرجه أحمد ٣/ ٣٤٣، ٤/ ٥، وابن ماجه (١٤٠٦) من حديث جابر وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، بذكر المسجد الحرام والمسجد النبوي ، وأخرجه الطبراني - كما في التلخيص الحبير ٤/ ١٧٩ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، بذكر المسجد الأقصى .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣١١٧) من حديث ابن عباس . وقال الألباني في الضعيفة (٨٣٢) : موضوع .

(٤) لطائف المعارف ص ٢١٨.

السبب ، وهو شرف البقعة وما اختصها اللّه به من الفضل والمزايا . ويؤيده أيضًا ما ورد في الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « عمرة في رمضان تعدل بحجة . أو قال : حجة معي »(١) .

وهذه المضاعفة ، وإن كان سببها شرف الزمان . أي : زمان رمضان- إلا أنه يلحظ فيها شرف المكان أيضًا ، فإن العمرة إنما تكون للبيت الحرام في مكة ، فيجتمع فيها شرف الزمان وفضل المكان .

وهكذا كل عمل صالح تكون المضاعفة فيه للأجر بحسب ملابساته ، كالصوم مثلًا ، فإن الجزاء عليه ومضاعفة أجره لا يتحدد ، أو ينحصر ، فهو فوق مضاعفة أجر الحسنات الأخرى التي قال اللّه عنها : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: الآية ١٦٠] .

فقد ورد في جزاء الصوم أن اللّه جعله سرًّا لا يطلع عليه غيره للملابسات التي اكتنفته ، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : « كل عمل ابن آدم له » . أي : يضاعفه له « الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ؛ إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي »(١) . أو تكون مضاعفة أجر العمل الصالح بحسب فضيلة المكان أو شرف الزمان الذي وقع فيه العمل ، كما جاء في حديث سلمان الفارسي رضي اللّه عنه في فضل رمضان : « من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه »(١) . وما ذاك لشرف رمضان وفضله .

وكما أسلفنا القول في مضاعفة أجر الصلاة في المساجد المفضلة ، فإن المضاعفة لفضل المكان وشرفه .. واللّه الموفق .

---

(١) تقدم تخريجه .

العيد : في السُّنَّة النبوية[1]

نحاول في هذه السطور أن نلمع إلى ما ورد عن العيد في سنة خير الورى ؛ إذ قد أصبح الكثير من الناس لا يعرف عن هذه الشعيرة الإسلامية إلا طقوسًا معينة مألوفة ، لا تعدو لبس الجديد ، والاشتراك في صلاة العيد ، ثم الانطلاق في تبادل الزيارات ؛ لتقديم التهاني التقليدية .

ونحب أن نضع في الأذهان قبل أي شيء آخر ، أن العيد إنما هو مظهر من مظاهر الشكر ، والتقدير لمنة اللَّه السابغة على عباده ؛ منة التوفيق لصيام رمضان وقيامه ، الذي يترتب عليه المغفرة والعتق من النار ، وهي منة عظمى يستكمل بها العبد السعادة ؛ ولذلك هيأ اللَّه سبحانه الفرصة للعباد .

وشرع لهم التجمع في العيد ؛ لذكره ، وشكره ، وتعظيمه ، وتكبيره ، وشرع التجمع في أوسع النطق ، فلم يقصره على الرجال دون النساء ، بل ندب الشارع أن يشهده حتى العواتق والحيض ، كما جاء في حديث أم عطية الأنصارية ، قالت : أمرنا أن نخرج العواتق والحيض في العيد ؛ يشهدن الخير ودعوة المسلمين ، ويعتزل الحيض المصلى . متفق عليه[2] . وفي رواية : قلنا : يا رسول اللَّه ، إحدانا لا تكون لها جلباب ، قال : « لتلبسها أختها من جلبابها »[3] .

والحديث واضح في التعليل لإخراج العواتق والحيض ؛ لشهود الخير ودعوة المسلمين ، وهو غرض ديني اجتماعي ، يشعر بما للنساء من حق التعليم والتهذيب والدخول في الخير العام الذي لا يقتصر على الرجال دونهن ، بل لقد كان رسول اللَّه ﷺ يخصهن[4] بالوعظ ، كما في حديث ابن عباس رضي اللَّه

---

(١) مجلة الحج- شوال- ١٣٨٢ هـ .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤، ٩٨٠) ، ومسلم (١٢/٨٩٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٥١) ، ومسلم (١٢/٨٩٠) .

عنهما ، وقد جاء في آخره : ثم أتى النساء وبلال معه فأمرهن بالصدقة ، فجعلت المرأة تصدق بخرصها وسخابها[١] .

قال العلماء : في ذلك استحباب وعظ النساء ، وتعليمهن أحكام الإسلام ، وتذكيرهن بما يجب عليهن ، واستحباب حثهن على الصدقة ، وتخصيصهن بمجلس منفرد ، إذا لم يترتب على ذلك مفسدة .

وقت صلاة العيد :

جاء في الحديث : أن النبي ﷺ كان يصلي عيد الفطر والشمس على قيد رمحين- أي تكون مرتفعة بقدر ارتفاع الرمحين- وفي ذلك دلالة على أن صلاتها بعد طلوع الشمس وارتفاعها ؛ ارتفاعًا ملحوظًا ، وكذلك صلاة عيد الأضحى ، إلا أنه يعجل بها نسبيًا ؛ ليشتغل الناس بذبح الأضاحي ، كما جاء في حديث مرسل للشافعي[٢] أن النبي ﷺ كتب إلى عمر[٣] بن حزم ، وهو بنجران : عجل الأضحى ، وأخر الفطر ، وذكر الناس .

استحباب أكل تمرات قبل الخروج إلى العيد :

عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات . أخرجه البخاري[٤] .

وعلق العلماء رحمهم الله على ذلك بقولهم : الحكمة في الأكل قبل الصلاة ؛ أن لا يظن ظان لزوم الصوم حتى يصلي العيد . وكأنه أراد سد هذه الذريعة . وقال بعضهم : لما وقع وجوب الفطر عقب وجوب الصوم استحب

---

(١) في الأصل : « يحضهن » . ولعل المثبت هو المناسب للسياق .
(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨١) .
(٣) أخرجه الشافعي في الأم (١/ ٢٣٢) ، وفي المسند (٣٢٢) .
(٤) كذا بالأصل ، وصوابه : « عمرو » . كما في مصدري التخريج ، وينظر تهذيب الكمال ٢١/ ٥٨٥ .
(٥) أخرجه البخاري (٩٥٣) .

تعجيل الفطر ؛ مبادرة إلى امتثال أمر اللَّه .

ليس قبل صلاة العيد نفل :

عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أن النبي ﷺ صلى يوم العيد ركعتين ، لم يصل قبلها ولا بعدها[1] . أي في المصلى . قال الشارح : هو دليل على أن صلاة العيد ركعتان ، وعدم مشروعية النافلة قبلها ولا بعدها ؛ لأنه إذا لم يفعل ذلك ، ولا أمر به ﷺ ، فليس بمشروع في حقه ، فلا يكون مشروعًا في حقنا .

التكبير في الطريق إلى المصلى :

عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما أنه كان إذا غدا إلى المصلي كبر فرفع صوته بالتكبير ، وفي رواية : كان يغدو إلى المصلي يوم الفطر إذا طلعت الشمس فيكبر حتى يأتي المصلي ، ثم يكبر بالمصلي حتى إذا جلس الإمام ترك التكبير . ويرى بعض العلماء وجوب التكبير لقوله تعالى : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥] . غير أن الأكثرين يرون أنه سنة ، وهو كما أوضحه عمر رضي اللَّه عنه : إذا خرج المرء من بيته للصلاة إلى ابتداء الخطبة عند أكثرهم .

التكبير في صلاة العيد :

ورد في الحديث عن عمرو بن عوف المزني رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ كبر في العيدين ؛ في الأولى سبعًا قبل القراءة ، وفي الثانية خمسًا قبل القراءة . رواه الترمذي[2] . وقال : هو أحسن شيء روي في الباب عن النبي ﷺ . والسبع التكبيرات يدخل فيها تكبيرة الإحرام ، فكبر تكبيرة الإحرام ثم يستفتح ؛ يأخذ في التكبير ستًّا ، ثم يتعوذ ويقرأ ، ثم ركع وسجد ، وقام للركعة الثانية ؛ بدأ التكبير خمسًا ؛ يرفع يديه مع كل تكبيرة ؛ لما روي عن وائل بن حجر أن النبي ﷺ كان

(١) أخرجه البخاري (٩٦٤، ٥٨٨٣)، ومسلم (٨٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٣٦). وصححه الألباني.

يرفع يديه مع التكبير(١).

وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يرفع يديه مع كل تكبيرة في الجنازة والعيدين ؛ يحمد الله ، ويثني عليه ، ويصلي على النبي ﷺ(٢) ؛ لقول عقبة بن عامر : سألت ابن مسعود عما يقوله بعد تكبيرات العيد ؟ قال : يحمد الله ، ويثني عليه ، ويصلي على النبي ﷺ(٣).

خطبة العيد ، وما يتصل بها من أحكام :

في الحديث ، عن جابر رضي الله عنه قال : شهدت مع النبي ﷺ يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، بغير أذان ولا إقامة . رواه مسلم ، والنسائي(٤) . ويؤخذ منه عدم مشروعية الأذان والإقامة للعيدين ، وأن موضع الخطبة بعد الصلاة ، لا قبلها ، كما كان يعمد إلى ذلك بعض خلفاء بني أمية ، وأنكر عليهم ذلك . وكان تقديم الخطبة لغرض سياسي ، وهو قسر الناس على سماعها وتوجيههم إلى ما تريد الدولة أن تسوسهم به . وسماع الخطبة نقل الخلاف عن سنيته ووجوبه ؛ لحديث عبد الله بن السائب رضي الله عنهما قال : شهدت مع النبي ﷺ العيد ، فلما قضى الصلاة قال : « إنا نخطب ، فمن أحب أن يجلس للخطبة فليجلس ، ومن أحب أن يذهب فليذهب » . رواه النسائي ، وابن ماجه ، وأبو داود(٥) .

ولهذه الرخصة البادية ، واحتمال أن الاكثرين من المصلين قد يعرضون عن سماع الخطبة ، قدم من قدم من خلفاء بني أمية الخطبة ، والسنة على خلاف ذلك .

---

(١) أخرجه أحمد (٣١٦/٤) . وحسنه الألباني في الإرواء (٦٤١) .

(٢) أخرجه البيهقي (٢٩٣/٣) وقال عقبه : وهذا منقطع : وضعفه الألباني في الإرواء (٦٤٠) .

(٣) أخرجه الطبراني (٩٥١٥) . وفيه : « الوليد بن عقبة » بدل : « عقبة بن عامر » . وصححه الألباني في الإرواء (٦٤٢) .

(٤) أخرجه مسلم (٨٨٥/٤) ، والنسائي (١٥٦٢، ١٥٧٥) .

(٥) أخرجه النسائي (١٥٧١) ، وابن ماجه (١٢٩٠) ، وأبو داود (١١٥٥) . وصححه الألباني في الإرواء (٦٢٩) .

مغايرة الطريق :

في الحديث ، عن جابر رضي اللّه عنه قال : كان رسول اللّه ﷺ إذا كان يوم العيد خالف الطريق . رواه البخاري[1] .ولفظ الحديث في السنن[2] عن ابن عمر : أن رسول اللّه ﷺ أخذ يوم العيد في طريق ، ثم رجع في طريق أخرى .

وأورد بعض العلماء على هذه المغايرة ، وبيان الحكمة منها أقوالًا ؛ منها :السلام على أهل الطريقين ؛ لينال بركته الفريقان- ليقضي حاجة من له حاجة فيهما- ليظهر شعائر الإسلام في سائر الفجاج والطرق- ليغيظ المنافقين برؤيتهم عن الإسلام ومقام شعائره- لتكثر شهادة البقاع ؛ فإن الذاهب إلى المسجد أو المصلى ، إحدى خطواته ترفع درجة ، والأخرى تحط خطيئة ، حتى يرجع إلى منزله . ولعل الحكمة في المغايرة كل ذلك أجمع ؛ فإن لكل غرض من الأغراض السالفة قيمته وأثره الملحوظ .

اجتماع العيد والجمعة :

في الحديث ، عن زيد بن أرقم رضي اللّه عنه ، قال : صلى رسول اللّه ﷺ العيد ثم رخص في الجمعة ، ثم قال : « من شاء أن يصلي فليصل »[3] . وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي اللّه عنه ، أنه ﷺ قال : « قد اجتمع في يومكم هذا عيدان ، فمن شاء أجزأه عن الجمعة ، وإنا مجمعون »[4] . فدل الحديثان على الترخيص في عدم صلاة الجمعة لمن حضر صلاة العيد ، وفي ذلك تفصيل

(١) أخرجه البخاري (٩٨٦) .

(٢) أخرجه أبو داود (١١٥٦) ، وابن ماجه (١٢٩٩) . وصححه الألباني .

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٢/٤) ، وأبو داود (١٠٧٠) ، وابن ماجه (١٣١٠) ، والنسائي (١٥٩١) . وصححه الألباني .

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٧٣) ، وابن ماجه عقب (١٣١١) . وصححه الألباني . وانظر العلل المتناهية ١/ ٤٦٩، والتلخيص الحبير ٢/ ٨٨.

للعلماء واختلاف ، ليس هذا موضع بسطه ؛ لأننا بصدد الإلماع إلى أطراف تجتمع منها فكرة عامة عن العيد وأحكامه ، وما يشرع أو يرخص فيه .

إظهار الفرحة بالعيد :

في الحديث ، عن أنس قال : قدم رسول اللّٰه ﷺ المدينة ، ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : « أبدلكم اللّٰه بهما خيرًا منهما : يوم الأضحى ويوم الفطر » . أخرجه أبو داود ، والنسائي[1] بإسناد صحيح . وقد استنتج العلماء من هذا الحديث ما يأتي :

١- إظهار السرور بالعيد مندوب لما شرعه اللّٰه لعباده ؛ إذ في إبدال عيد الجاهلية بالعيدين المذكورين دلالة على أنه يفعل في العيدين المشروعين ما يفعله الجاهلية في أعيادها- أي : من اللهو البريء- وإنما خالفهم في تعيين الوقت . والمراد من أفعال الجاهلية ما ليس محظورًا ولا شاغلًا عن الطاعة .

٢- التوسعة على العيال في الأعياد بما يحصل لهم به الترويح عن النفس ، والبعد عن السأم ، وذلك يختلف في كل زمن بحسبه .

ومن الترويح عن النفس وإظهار الفرحة تبادل التهاني والتزاور شريطة أن لا ...[2] المرء أو يرهقه من أمره عسرًا ، وشريطة إسقاط الكلفة ، وعدم المقايضة في الزيارة ، فكل ذلك من التكاليف التي يدفعها أفراد المجتمع ، دون أن يكون لها مسوغ من شرع ، أو مبرر من منطق سليم .

وبعدُ ؛ فهذه إلمامة عن العيد في السنة ، والاتجاهات في إقامته ، كشعيرة من شعائر الدين ، وهي محاولة للاستزادة من الثقافة الدينية لمن أقصته عنها ظروفه ، أو صرفته شواغله . واللّٰه الموفق .

---

(١) أخرجه أبو داود (١١٣٤) ، والنسائي (١١٥٦) . وصححه الألباني .

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل .

العيد

ليس عيد المحب قصد المصلى   وانتظار الأمير والسلطان
إنما العيد أن تكون لدى اللَّه   سعيدًا مقربًا في أمان

العيد، كما قال علماء اللغة: مشتق من العود- بفتح العين وسكون الواو- وقيل: إنما سمي عيدًا للعود في الفرح والمرح.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «العيد» اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد؛ فإما أن يعود بعود الأسبوع، أو الشهر، أو نحو ذلك، فهو يجمع أمورًا منها: يوم عائد كيوم الفطر، ويوم الجمعة. ومنها: اجتماع فيه، أي في العيد. ومنها: أعمال تجمع ذلك من العبادات والعادات.

قال: وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقًا، وكل من هذه الأمور يسمى عيدًا- فالزمان- كقوله ﷺ ليوم الجمعة: إن هذا يوم جعله اللَّه للمسلمين عيدًا[٢]. والاجتماع والأعمال، كقول ابن عباس رضي اللَّه عنهما: شهدت العيد مع رسول اللَّه ﷺ[٣]. يقصد اجتماع العيد، وما يكون فيه من أعمال الطاعة؛ كالذكر، ومن أبرزه التكبير، والثناء على اللَّه، وسماع الخطبة. والمكان كقوله ﷺ: لا تتخذوا قبري عيدًا[٤]. أي: تتخذوا مكانه عيدًا، يعتادون المجيء إليه في موسم معين، يعود بعود الأيام- وقد يكون لفظ العيد: اسمًا لمجموع اليوم والعمل فيه، وهو الغالب، كقول النبي ﷺ للجاريتين اللتين

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص (١٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٩٨) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما. وحسنه الألباني، وصحح بعض الحفاظ إرساله، قال البيهقي (٣/٢٤٣): الصحيح مرسل.

(٣) أخرجه البخاري (٩٦٢، ٥٨٨٠)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود (٢٠٤٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه. وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص ٢١٩.

وجدهما أبو بكر تدففان لدى أم المؤمنين عائشة رضي اللّٰه عنها ، فانتهرهما ، فقال له الرسول ﷺ : « دعهما يا أبا بكر ، فإن لكل قوم عيدًا ، وهذا عيدنا »[1] .

وإن من محاسن الدين الإسلامي ، ومما امتاز به من السماحة ، وسمو الأهداف ، أن جعل اللّٰه للمسلمين أعيادًا تعود بعود مناسبات إسلامية عظيمة ، وهي عيد الفطر ، وعيد الأضحى . يبذل المسلمون في تلك المناسبات من ألوان الطاعات والقرب ، ويضحون فيها بالكثير من التضحيات المادية والجسمية ، فيكون لهم بهذه الأعياد المشروعة الفرحة الغامرة ، والسرور البادي على قسمات الوجوه ، إلا أن لبعض السلف ممن حلق في أجواء سامقة من الروحانية ، واستبدت بكل مشاعره ، لهم في يوم العيد منحى معاكس لما يجنح إليه الناس من أن يوم العيد يوم فرح وابتهاج وسرور غامر ، يصور واقعهم قول الشاعر في البيتين اللذين صدرنا بهما المقال ، إذ يلحظ منهما أنهم في منأى بالحب الذي ملأ قلوبهم للّٰه ، وشغل شاغل لاكتساب رضاه وأمل ممدود عظيم في كرامة اللّٰه ، والأمن من المخاوف يوم يفزع الناس ، فذلك يوم عيدهم ، ويوم بهجتهم وسرورهم ، إذ تحققت آمالهم ، وبلغوا ثمار كدحهم ، ونتائج أعمالهم ، وهو شأن المحب الصادق مع محبوبه ، يقدم رضاه على حظوظ نفسه ، ويشتغل به دون اشتغاله بسواه ؛ من زخرف ومباهج ومظاهر براقة خلابة ، هي من وحي العيد ، وآية الفرحة بالجديد ، روي عن الحسن البصري رحمه اللّٰه أنه قال : إن اللّٰه سبحانه جعل رمضان مضمارًا لخلقه ، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون[2] .

(١) أخرجه البخاري (٣٩٣١) ، ومسلم (١٦/٨٩٢) من حديث عائشة رضي اللّٰه عنه .

(٢) لم أجده مسندًا . وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٢٣٦/١) ، والقيرواني في زهر الأداب وثمر الألباب (٥١١/١) ، وابن الجوزي في بستان الواعظين (٥١١/١) .

وكان بعض السلف رحمهم اللَّه يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر، فقيل له: إنه يوم فرح وسرور. فرد عليهم بقوله: صدقتم، ولكني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملًا، فلا أدري أيقبله مني، أم يكون نصيبي الحرمان.

إنه في الواقع اتجاه سليم، ومسلك راشد، يؤيده العقل، والمنطق، وظواهر النصوص. روي عن أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها أنها سألت رسول اللَّه ﷺ عن قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٠]. قائلة: أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرف؟ قال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه»[1] أ.هـ.

وماذا عسى أن يصنع في هذا الكساد والخسارة الفادحة التي لن تعوض في يوم يبطل فيه الكسب، وليس ثمة إلا الجزاء على العمل، والعمل هو الرصيد المدخور.

والعدة ليوم الشدة، لا بدع أن يكون من سديد الرأي، وحصافة العقل، أن يقتصد المرء في الفرحة، وأن لا يمعن في الانصراف إلى الزينة والاشتغال بمباهج العيد وطرافة الجديد عن الغرض الأسمى من جوهر العيد، والأرفع من لبس الزينة والجديد؛ كمعاودة الصوم مثلًا بصوم الست من شوال؛ لينال الحظوة بأجر صيام الدهر، كما جاء في الحديث: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر»[2]. فلعل هذا الاتجاه السديد تعويضًا وتلافيًا لما لعله أن يكون قد بدر منه في صومه لرمضان مما يخل به. فالنوافل يتلافى بها التقصير والخلل في الفرائض، وتجبر بها.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/١٥٩)، والترمذي (٣١٧٥) من حديث عائشة رضي اللَّه عنه. وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٤) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي اللَّه عنه.

وإذا لم يكن في مقدوره ذلك، فلا أقل من أن يلتزم الذكر والشكر؛ إظهارًا لنعمة التوفيق لصيام رمضان، كما ندب إلى ذلك رب العزة بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٢] وكما أمر تعالى العباد عند إكمال صيام رمضان بتكبيره وشكره فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥].

ويعرض لنا في ثنايا البحث سؤال يتقاضانا الإجابة، وهو أن الأكثرية الساحقة من الناس في يوم العيد تندفع بحكم أنه يوم الفرحة، وأن الإسلام لم يحظر على المسلم الاستمتاع بالطيبات في سائر حياته من لباس ورياش، ومأكل ومشرب، وما إليه، فضلًا عن يوم يشرع فيه التجمل، كما جاء في الحديث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجد حلة من استبرق- وهو ما غلظ من الديباج- تباع في السوق، فأخذها وأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ابتع هذه فتجمل بها للعيد والوفد فقال: «إنما هذه لباس من لا خلاق له»[(١)].

قال الشراح: ووجه الاستدلال بهذا الحديث مشروعية التجمل للعيد، تقريره ﷺ لعمر على أصل التجمل للعيد.

وصح أن النبي ﷺ كان يلبس برد حبرة في كل عيد[(٢)]. وصح أنه ﷺ كان يلبس برده الأحمر في العيدين وفي الجمعة[(٣)]. هذا من حيث اللباس وأخذ الزينة، أما من حيث مظاهر المرح التي يعمد إليها الناس في يوم العيد؛ ترويحًا عن

(١) أخرجه البخاري (٩٤٨، ٣٠٥٤)، ومسلم (٢٠٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الشافعي في الأم (١/٢٦٦) من حديث جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده مرفوعًا. وضعفه الألباني في تمام المنة ص ٣٤٤- ٣٤٥. وانظر الضعيفة (٢٤٥٥).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (١٧٦٦)، وابن سعد (١/٤٥١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٤٥٥)، وصح الحديث بلفظ: «كان يلبس يوم العيد بردة حمراء» وانظر الصحيحة (١٢٧٩).

النفس ، وإظهارًا لمعالم السرور ، وهي بالطبع في كل زمن بحسبه ، فقد ورد في الصحيحين[١] عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت : دخل عليّ أبو بكر ، وعندي جاريتان من جواري الأنصار ، تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث ، قالت : وليستا بمغنيتين . فقال أبو بكر : أمزمار الشيطان في بيت رسول اللَّه ﷺ ؟ وذلك يوم عيد . فقال رسول اللَّه ﷺ : « يا أبا بكر ، إن لكل قوم عيدًا ، وهذا عيدنا » . قال بعض العلماء رحمهم اللَّه تعليقًا على هذا الحديث : وذلك يقتضي أن الرخصة بكونه عيدًا للمسلمين . اهـ .

فكشف الحديث عن وجود رخصة في الاستمتاع بشيء من اللهو البريء ، كمظهر من مظاهر الفرحة في يوم العيد ، فهل كان فعل الناس بما فيه لهم مستند من صريح السنة خطلًا في الاتجاه ، وكيف يكون الجمع بين المسلكين ؟ .

والجواب : أن اللَّه سبحانه بحكمته ورحمته بعباده جعلهم ألوانًا ، وغاير بينهم في الطبائع والغرائز والمواهب والاتجاهات نحو الخير والشر ، ورتب الجزاء على الأعمال على حسب الكسب ، وبقدر الكدح والسعي ، وفاضل بينهم في المراتب ، ونزول الجنان ، بقدر تفانيهم في ابتغاء مرضاة اللَّه ، وتسابقهم في الباقيات الصالحات ، فكلما كان العبد أكثر تعلقًا باللَّه ، وأعظم اتجاها إليه ، وانصرافًا عن غيره ، وإقبالًا على طاعته ، كان أرفع منزلة عند اللَّه ، وأكثر حظًا بكريم الجزاء .

فأرباب المسلك الأول الذين صور الشاعر واقعهم بما أسلفنا من الشعر ، هم الصفوة الذين زهدوا بنفوسهم ، فهانت عليهم في اللَّه حظوظها ، وزهدوا فيما سوى اللَّه ، وفي كل ما يشغلهم عن اللَّه ، فكان لهم بذلك نعيم القلب ومتعته

(١) أخرجه البخاري (٣٩٣١) ، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها . وقد تقدم قريبًا بنحوه .

عوضًا عن كل نعيم ومتعة ولذة وشهوة ، كما قال قائلهم :

لقد صمت عن لذات دهري كلها ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

وقال آخر :

الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعًا(١)

وهذا المسلك يعجز الساري بلوغه ، ويفحم الساهر استباقه إنه مثالية رفيعة لا تتحكم إلا في الأفذاذ من عباد اللّه ، لقد كان رسول اللّه ﷺ ، وهو سيد العارفين باللّه ، وقد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه . فقيل له في ذلك- أي في إجهاد نفسه في العبادة- مع ما سبق له من المغفرة والرضوان والكرامة ، فقال : « أفلا أكون عبد شكورًا »(٢) . وكان يقول : « لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش »(٣) . أي : من أهوال القيامة ، وموقف السؤال والحساب ، وما إليه ، وكان يصوم حتى يقال : لا يفطر(٤) . أي يكثر من الصيام ، وكان يواصل في رمضان ، أي : يصل اليومين بالصيام والأكثر دون سحور ، ومع ذلك عندما رغب بعض الصحابة في الوصال نهاهم عن ذلك ، وقال : « إنكم لستم مثلي ، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني ، فأتوا من الأعمال ما تطيقون »(٥) . أو كما قال ﷺ .

فعلم من ذلك ، أنه لولا المشقة على الأمة لرخص لهم في الوصال ، ما داموا

---

(١) انظر حلية الأولياء ١٠/ ٣٧٣.

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠، ٤٨٣٧) ، ومسلم (٢٨١٩، ٧٩) ، (٨١/٢٨٢٠) من حديث عائشة والمغيرة بن شعبة رضي اللّه عنهما .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣) ، والترمذي (٢٣١٢) ، وابن ماجه (٤١٩٠) من حديث أبي ذر رضي اللّه عنه .

(٤) أخرجه البخاري (١٩٦٩) ، ومسلم (١١٥٦) من حديث عائشة رضي اللّه عنه .

(٥) أخرجه البخاري (١٩٦٦، ٦٨٥١) ، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .

يطيقون ذلك ، والعبرة بسواد الناس بالأقلية منهم ؛ فإن التشريع لنا يكون في مقدور الجميع القيام به دون وهق أو رهق .

ولقد وضع رسول اللَّه ﷺ لأمته بقوله : « فأتوا من الأعمال ما تطيقون » . أي : من نفل العبادات في مختلف ألوانها قاعدة عامة ، وذلك ما يسع جميع الأمة . وقال أيضًا لعبد[1] اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّه عنهما : « لقد أُخبرت أنك تقوم الليل ، وتصوم النهار » . قلت : يا رسول اللَّه ، نعم . قال : « فصم وأفطر ، وصلِّ ونم ؛ فإن لجسدك عليك حقًّا ، وإن لزوجك عليك حقًّا ، وبحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام » . فقلت : يا رسول اللَّه ، إني أجد قوة . قال : « فصم من كل جمعة ثلاثة أيام » ، قال : قلت : يا رسول اللَّه ، إني أجد قوة . قال : « صم صوم نبي اللَّه داود عليه الصلاة والسلام- كان يصوم يومًا ويفطر يومًا »[2] . فلم يحظر رسول اللَّه ﷺ على من وجد في نفسه نشاطًا أكثر في العبادة أن يأخذ بالأفضل ؛ شريطة أن يحفظ التوازن بين الواجبات المفروضة عليه ، بحيث لا يطغى جانب على الآخر ، ولم يلزم الناس جميعهم بما التزمه من المثالية والاشتغال باللَّه والقيام بنوافل العبادات .

وإذن فلا خطل في الاتجاه ، ولا قدح على من يأخذ بالمباح في يوم العيد ؛ يوم الفرحة من اللباس والرياش والزينة ، ويعتمد الرخصة فيما وردت به من اللهو البريء بحدوده وقيوده على اختلاف في لونه ووضعه ، حسب التغاير في الزمن ، والاختلاف في ضروب اللهو البريء ، فغناء الجاريتين اللتين كانتا تغنيان بما تقاولته الأنصار في يوم بعاث ، إذا أصبح اليوم عرضًا عسكريًّا ، أو تراجيح ، أو ألعابًا فروسية ، وما إليه .

(١) في الأصل : « لعبيد » . وهو خطأ .

(٢) أخرجه البخاري (١٩٧٥، ١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّه عنهما .

كل ذلك مما تشمله الرخصة في يوم العيد يوم الفرحة، شريطة عدم الغفلة لدين اللّٰه، والتزام المسلك الراشد الذي التزمه المسلم في رمضان، ويجب أن يلتزمه مدى الحياة من الأخذ بالطاعة، والبعد عن المعصية.

وإن من ينتهج منهج الخاصة من سلف الأمة في الجنوح إلى الزهد في المباح، وأخذ النفس في التجافي عن كل صارف من لباس وزينة ولهو بريء، فقد أخذ بالأكمل والأمثل. وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

أما مسلك السلف في الخوف من عدم قبول العمل الصالح، ورده على فاعله، كما سبق أن أوضح الرسول ﷺ لأم المؤمنين عائشة؛ تفسيرًا لقول اللّٰه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٠]. فهو خوف ممزوج برجاء، لا خوف مطلق مقرون باليأس، بعيد عن كل أمل، وهو ما تشير إليه نصوص الشريعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٢١٨] أخذوا بأسباب النجاة من إيمان وهجرة وجهاد في سبيل اللّٰه، يقاس على ذلك كل عمل صالح؛ من صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، وصدقة، وبر، وإحسان، وغير ذلك من أعمال البر والخير، ويرجو بعد ذلك الرحمة والغفران والقبول وجزاء الإحسان.

وجاء في الحديث: «أكبر الكبائر؛ الإشراك باللّٰه، والأمن من مكر اللّٰه، والقنوط من رحمة اللّٰه»[1]. وعلق بعض العلماء على قوله ﷺ: «والقنوط من رحمة اللّٰه». بقوله: فيه التنبيه على الرجاء والخوف، فإذا خاف لا يقنط ولا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٩٧٠١)- ومن طريقه الطبراني (٨٧٨٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٥٠) موقوفًا على ابن مسعود رضي اللّٰه عنه، وأخرجه البزار (١٠٦- كشف) من حديث ابن عباس مرفوعًا، وليس فيه: «الأمن من مكر اللّٰه». وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٠٥١).

ييأس ، بل يرجو رحمة اللَّه . اهـ .

والسلف رضوان اللَّه عليهم هم أعلم الأمة بذلك ، فلا يصح أن يفسر خوفهم من عدم قبول العمل وحذرهم من العقاب باليأس والقنوط . وفي معنى قول اللَّه تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٠] آيات ترسم نفس الاتجاه الذي سار فيه السلف ، وذلك كقوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩] .

أما بعدُ : فإن العيد بما فيه من بهجة ومتعة ، وبما له من رواء وبهاء ، يجب أن يكون مظهرًا من مظاهر الشكر للنعمة ؛ نعمة التوفيق لصيام رمضان ، وهي نعمة لا تقدر بقيمة ، فكم من مؤمل ذلك حال دون قصده قصر الأجل ، وشكر على المغفرة والرضوان الذي يحرزه المسلمون بصيام رمضان وقيامه ، كما جاء في الحديث : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه »[(١)] .

نسأل اللَّه العفو والعافية ، والعود إلى أمثال هذه المناسبات السعيدة ، والأعياد الإسلامية البهيجة .



(١) أخرجه البخاري (٣٨، ١٩٠١، ٢٠١٤) ، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

الأعياد الإسلامية(١)

روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: «ما هذان اليومان»؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما؛ يوم الأضحى، ويوم الفطر»(٢).

تأصل العادات في النفوس كإشراب العقيدة في القلوب، فكما أن العقيدة إذا تغلغلت في القلب، يستحيل زعزعتها والقضاء عليها، فكذلك العادات المتأصلة في النفوس من العسير تحويل النفوس عنها والقضاء عليها ونبذها وعدم الأخذ بها؛ ولذلك عنيت التربية الإسلامية بتحويل القلوب عن العقائد الفاسدة، والنفوس عن العادات الموروثة المناصلة إلى شيء نافع، يصرف عنها تشتغل به النفوس، وتتعلق به القلوب، فتطرح ما ألفته، أو اعتقدته.

ولقد ربى الإسلام أتباعه على هذه التربية الحكيمة في كثير من تشريعاته وأحكامه، حيث استبدل بالعقائد الفاسدة، والعادات المستهجنة، استبدل إيمانًا بالله، بحيث لا تتعلق القلوب بسواه؛ رغبة إليه، وحبًا فيه، ورهبة منه، واستقامة على شرعه، واستجابة لأمره ونهيه، وأخذًا في دروب الفضيلة، وتعشقا لمسالكها.

وبعد أن كانت الوثنية ضاربة أطنابها في ربوع الجزيرة وسوق الفساد والرذيلة قائمة رائجة، لا عيب على من يرتادها، أو نكير على من يتسوق فيها، أقام الإسلام على أنقاضها منار الهدى وأعلام الفضيلة، فتحولت الأمة الإسلامية إلى

---

(١) مجلة الحج- رمضان- ١٣٨٠ هـ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٠٣)، وأبو داود (١١٣٤)، والنسائي (١٥٥٦). وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٢١).

الهدى وتفيأت ظلال الفضيلة ونبذت ما كان عليه الجاهليون من عقائد؛ هي بحق أضحوكة الضاحكين من العقلاء، وسخرية الساخرين، وأخلاق يندى لها الجبين، وعادات يستقبحها كل ذي لب سليم، ومن أمثلة ذلك- والأمثلة كثيرة- تحويل النفوس عن فوضى التعبد، وعن الاتجاه إلى مجموعة من الآلهة، بين أصنام وأشجار وأحجار وتمر وعجين وشياطين، إلى عبادة رب واحد، من حقه أن يعبد وحده، ويقصد بالتأليه وحده، ويعمد إليه الخلق في حوائجهم، وقضاء مصالحهم، وجلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم.

جاء في الحديث عن حصين بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ قال: «يا حصين، كم إلهًا تعبد؟». قال: سبعة، ستة في الأرض، وواحدٌ في السماء فقال: «من تعده لرغبتك ورهبتك؟». قال: الذي في السماء. فقال له الرسول ﷺ: «اترك الستة، واعبد الذي في السماء، وإني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن». فأسلم، وعلمه رسول الله ﷺ أن يقول: «اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي»[١]. فحوله الرسول ﷺ عن معتقده الذي توارثه هو وأسلافه بالمسلك الحكيم في الدعوة ...[٢] الراشدة السديدة في الإرشاد والتوجيه لاعتماده في الله الذي يعد لرغبته ورهبته، ليعبده.

ومن أمثلة ذلك أيضًا: صرف الوجوه عن التمسح بالأحجار، والطواف حول القبور، إلى تقبيل الحجر الأسود والطواف ببيت الله المشرف.

ومن أمثلة ذلك أيضًا: التحول عن أكل الميتة، وشرب الخمر، إلى أكل وشرب الطيبات من الأطعمة والأشربة، إلى غير ذلك من الأمثلة العديدة، واستبدل الإسلام بالفاسد الصالح، وبالضلال الهدى، وبالباطل الحق،

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. وضعفه الألباني.

(٢) كلمة غير واضحة.

وبالمسالك الفاشلة المناهج الرشيدة، حتى بلغت الأمة أوج المجد، وأقصى درجات الكمال الروحي والنفسي.

والحديث الذي نحن بصدده، والذي صدرنا به المقال مثل من تلك الأمثلة البارزة التي حول بها الإسلام القلوب والنفوس عن الذي هو أدنى من الطبائع والعادات إلى الذي هو خير.

لم يحول رسول اللّٰه ﷺ المسلمين عن مجرد اللهو البريء، فليس ذلك بجوهري في الموضوع، أو من الهنات التي يطلب الإسلام الترفع عنها؛ على اعتبار أنها طعن في الدين، أو قدح في الخلق القويم، فلقد صح أن الحبشة كانت تلعب في المسجد في يوم عيد، وكانت أم المؤمنين عائشة رضي اللّٰه عنها تنظر إليهم، ورسول اللّٰه ﷺ يسترها، حتى انتهت رغبتها، ودخل أبو بكر رضي اللّٰه عنه على ابنته أم المؤمنين عائشة في يوم عيد الأضحى وعندها جاريتان تغنيان، فانتهرهما، وقال: أمزامير في بيت رسول اللّٰه ﷺ؟ فقال له الرسول ﷺ: «دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا»(١).

إن اللهو البريء يباح لمناسبة العيد، وإنما حول رسول اللّٰه المسلمين عن الفرح ومظاهر السرور التي كانت بادية على المسلمين في يومي الجاهلية، إلى الفرح بيومي الإسلام، وعن لهو الجاهلية إلى ما هو أفضل وأشرف وأكرم من لهوها، وما ذهبت إليه من مظاهر الفرح مما اعتادت أن تقيمه في اليومين المذكورين، مما شرعه اللّٰه للمسلمين في يومي العيدين الفطر والأضحى من الاجتماع العام الشامل في المصلى يوم عيد الفطر الذي رخص في حضوره لربات الخدور، بل وللحيض أيضًا، وقال: «يشهدن الخير وجماعة المسلمين ويعتزلن المصلى»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤، ٩٨٠)، ومسلم (٨٩٠) من حديث أم عطية رضي اللّٰه عنها. وتقدم قريبًا.

ففي ذلك الاجتماع العظيم الذي شرعه اللَّه عقب الانتهاء من صوم الشهر الكريم رمضان، يجتمع المسلمون في مصلى الأعياد على ذكر اللَّه وشكره وتمجيده وتكبيره وحمده؛ اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، لا إله إلا اللَّه، اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، وللَّه الحمد، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥].

وفي يوم عيد الأضحى يجتمع الحجاج في منى على نحر الهدي والضحايا؛ تعظيمًا للَّه وعلى اسمه، لا كما كان يصنعه المشركون من الذبح للآلهة والتقرب بدماء القرابين إليها، ثم لأداء بقية النسك.

ومن لم يكتب له الحج يجتمع بإخوانه في المصلى لصلاة العيد، وتكبير اللَّه وتمجيده على ما هداهم إليه من شرائع دينه، ثم يذبح الضحايا؛ شكرًا للَّه، وعلى اسمه، وتعظيمًا له، وهذان اليومان يوم الأضحى ويوم الفطر اللذان شرعهما اللَّه للمسلمين بعد قيامهم بركن من أركان الدين.

هما عيدا المسلمين اللذان أبدل اللَّه المسلمين بهما عن كل عيد مبتدع سواهما، مما كان في القديم وفي الجاهلية، وأعياد المشركين أو النصارى قديمًا وحديثًا؛ كعيد رأس السنة الميلادية، وعيد الخميس الكبير، والجمعة الكبيرة، وهو آخر الأسبوع الذي يقع في آخره صومهم، وغير ذلك من الأعياد التي ابتدعها المتأخرون من المسلمين أيضًا، حين سرت إليهم العدوى، كعيد رأس السنة، وعيد المولد، وعيد الإسراء والمعراج، وكالأعياد القومية، كعيد الجلرس، وعيد النهضة، وعيد ميلاد فلان، وعيد شم النسيم، وغير ذلك من الأعياد التي تعود بعود الأيام والسنين.

كلها أعياد قد أبدل اللَّه المسلمين عنها بيومي الفطر والأضحى، فليس لأحد أن يتخذ من بين سائر الأيام غيرهما عيدًا، بعد أن أبدل اللَّه المسلمين، وعوضهم

بهما عن كل مظهر يأخذ شكلهما، ويضاهيهما.

فليس بعد شرع اللّٰه شرع، وليس بعد أن ينسخ اللّٰه عادة أو حكمًا أو عقيدة أو مبدأ، ليس بعد النسخ من تعديل، أو تبديل، أو استحسان لشيء لم يأذن به اللّٰه؛ إذ لو فتح هذا الباب لأحدث الناس من كل مناسبة وكل حادثة ذات أثر...[1]، وفي ذلك من التخليط والفوضى ما لا تقره العقول السليمة.

هذا بالإضافة إلى أنه خروج على المبدأ الشرعي الذي قرره الإسلام، وهو الاستعاضة عن كل عيد سابق أو لاحق بعيدي الفطر والأضحى، والاكتفاء بهما كمظهر إسلامي، فيجب أن لا يكون لهما مزاحمة، من حيث الفرحة بهما، وإظهار السرور الغامر والبهجة في يوميهما، والتزي الجديد، وإتيان المباح من اللهو البريء، أو القيام بعرض عسكري أو سباق للخيل، أو رقصة للحرب، وما إلى ذلك مما يصور روعة العيد، ويشعر بالفرحة بيومه، ما خلا الأمر المحظور شرعًا، أو المنكور عرفًا، فإن ما حرمه اللّٰه على العباد لا يحله عيد، ولا تبيحه فرحة، وما كان منكرًا في العرف كان منقصة على من يأتيه، وعارًا على من يترخص فيه.



(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

المُحرم شهر اللَّه[(١)]

المحرم شهر الله- ذلك هو قول الصادق المصدوق، صلوات اللَّه وسلامه عليه، وتلك هي النسبة الشريفة نسبة شهر المحرم إلى اللَّه، ولا ينسب إلى اللَّه، أو يضاف إليه، إلا خواص مخلوقاته.

فكما نسب سبحانه- الرسول محمدًا ﷺ وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وغيرهم من الأنبياء، نسبهم إلى عبوديته، ونسب إليه بيته وناقته؛ إشعارًا بالتشريف، فكذلك نسب إليه المحرم في قوله ﷺ: «المحرم شهر اللَّه»[(٢)]. لما له من الأهمية، ولتوجيه الأنظار إليه، وللشعور بمزيد فضله، ولحث العباد إلى إتيان القرب فيه، والقيام بأعمال الطاعة في أيامه ولياليه.

وقد ندب الشارع إلى صومه، والصوم عمل صالح مبرور، له ميزته وشرفه، وله أجره الذي تكفل اللَّه بتقديره، فإذا وقع في شهر حرام كالمحرم الذي هو طليعة أشهر العام كان فألًا حسنًا باستدامة الطاعة، وظاهرة كريمة تشعر بتغلغل الإيمان في قلب العبد ورغبته في الخير ومواصلته لأعمال البر والطاعة، فيغدو وكأنه الحال المرتحل.

وقد فسر الحال المرتحل بقارئ القرآن الذي لا يفتأ يقرأ القرآن كلما أتى على آخره، كر راجعًا إلى أوله، فهذا الذي يصوم المحرم كان في شهر الحج في عبادة، لا سيما إذا كان حاجًا، فإن عبادته لا تنتهي، فبعد أن يفرغ من حجه بأيام التشريق يأخذ في أسباب الرحيل إلى بلده، وهو في عبادة أيضًا، فإذا بلغ البلد عاود العبادة واشتغل بأحبها إلى اللَّه تلك هي صيام المحرم.

ولقد كان للسلف وبعض التابعين عناية خاصة بصوم المحرم، ويروون فيه

---

(١) مجلة المنهل- محرم وصفر- ١٣٧٦هـ.

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٣) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه. وتقدم تخريجه.

من الأفضلية ما ليس لغيره من شهور العام سوى شهر رمضان ، قال الحسن البصري رحمه اللّه : افتتح اللّه تعالى السنة بشهر حرام- يقصد المحرم- وختمها بشهر حرام- يقصد ذا الحجة- فليس شهر في السنة بعد شهر رمضان أعظم عند اللّه من المحرم ، وكان يسمى الأصم من شدة تحريمه[١] .

وكما أن لشهر المحرم كل هذه الميزات على غيره من شهور السنة ، فكذلك بعض أيامه لها من مزيد الفضل على غيرها من أيام هذا الشهر نفسه ، ما يجعل لها مركز الصدارة .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن أفضل أيام شهر المحرم هي عشره الأول ؛ قال أبو عثمان النهدي : كانوا يعظمون ثلاث عشرات ؛ العشر الأخيرة من رمضان ، والعشر الأول من ذي الحجة ، والعشر الأول من المحرم . وقال الحافظ ابن رجب[٢] : ويعني العشر الأول من المحرم ، قيل : إنه العشر الذي أتم اللّه به ميقات موسى عليه السلام- أربعين ليلة- وأن التكليم وقع في عاشره . ونقل أيضًا رواية عن وهب قال : أوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السلام أن مر قومك أن يتوبوا إليّ في أول العشر ؛ عشر المحرم ، فإذا كان اليوم العاشر فليخرجوا أغفر لهم .

واليوم العاشر من المحرم هو : يوم عاشوراء ، وهو أبرز أيام العشر الأول من المحرم ؛ لما ورد عن رسول اللّه ﷺ في فضله وشرفه ، فصح عنه ﷺ أنه قال : « إن عاشوراء يوم من أيام اللّه »[٣] .

وكان له في الجاهلية مقام ملحوظ ؛ حيث كان الجاهليون يعظمونه بالصيام ، وكانوا يسترون فيه الكعبة ، فأقر رسول اللّه ﷺ صيامه ؛ لأنه من بقايا

---

(١) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف ص٤٦- ٤٧.

(٢) لطائف المعارف ص٤٧.

(٣) أخرجه مسلم (١١٢٦) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنهما .

سنن المرسلين ، بل أمر بصيامه قبل أن يفرض صيام رمضان ، ثم رخص في تركه بعد فرضية رمضان ، ففي الصحيحين[١] عن عروة ، عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت : كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية ، وكان رسول اللَّه ﷺ يصومه ، فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه ، فلما فرض شهر رمضان قال : « من شاء صامه ومن شاء تركه » . وفي رواية : وكان يوم تستر فيه الكعبة[٢] . وسئل ابن عباس رضي اللَّه عنهما عن يوم عاشوراء فقال : ما رأيت رسول اللَّه ﷺ صام يومًا يتحرى فضله على الأيام إلا هذا اليوم- يعني يوم عاشوراء- وهذا الشهر- يعني رمضان[٣] . وفي الصحيحين[٤] عن سلمة بن الأكوع رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ أمر رجلًا من أسلم أن أذن في الناس : « من أكل فليصم بقية يومه ، ومن لم يكن أكل فليصم ، فإن اليوم يوم عاشوراء » . اهـ . وذلك قبل أن يفرض رمضان كما تقدم .

وفي الصحيحين[٥] عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال :قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ » قالوا : هذا يوم عظيم أنجى اللَّه فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فصامه شكرًا ، فنحن نصومه . فقال رسول اللَّه ﷺ : « فنحن أحق وأولى بموسى منكم » . فصامه رسول اللَّه ﷺ وأمر بصيامه . بل أضاف إلى صيامه صيام اليوم التاسع قبله ، وقال : « لئن بقيت إلى قابل لأصومَّن اليوم التاسع »[٦] . مع العاشر مخالفة لليهود في صيامهم ، وهذه المخالفة التي جنح

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٢)، ومسلم (١١٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٢) عن عائشة رضي اللَّه عنها .
(٣) أخرجه البخاري (٢٠٠٦).
(٤) أخرجه البخاري (١٩٢٤، ٧٢٦٥)، ومسلم (١١٣٥).
(٥) أخرجه البخاري (٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠).
(٦) أخرجه مسم (١١٣٤) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما .

إليها رسول اللّٰه ﷺ هي مبدأ وضعه ؛ إظهارًا للتمايز والمغايرة ، لا مندوحة عن الأخذ به ، لسلامة الدين ، وطهارة العقيدة ، واستقامة المذهب .

وليس اليهود أو النصارى وحدهم هم المعنيين بالمخالفة والمقصودين بإظهار التميز عنهم ، والانحراف عن سبلهم ، وعدم مشاركتهم في مناحيهم واتجاهاتهم ، بل يشمل هذا المبدأ مبدأ المخالفة ، كل فرقة تدعو إلى الضلال وتنحرف عن المسلك المشروع وتنتهج مناهج من عندياتها لم يشرعها اللّٰه ، ولم ينزل بها من سلطان .

فالذين يتخذون من يوم عاشوراء ميتمًا ومناحة ، ويضربون الخدود ، ويشقون الجيوب ؛ كفعل الجاهلية الأولى بدعوى إظهار الحزن على ما نال آل بيت النبي ﷺ من المصائب والمحن والظلم والعسف وغير ذلك ، هؤلاء تجب مخالفتهم ، وتجنب مسالكهم ؛ إذ لم يشرع اللّٰه لعباده إعادة ذكر الأحزان ، والاحتفال بأيام المصائب ، وقراءة المراثي فيها ، وتعداد ما مر من النكبات ؛ لاستثارة الشجون واستنزاف العبرات .

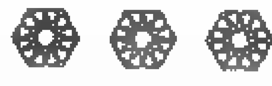
بل شرع لهم التسليم بقضائه والرضاء بقدره واحتساب أجر المصائب عنده ، ووعدهم على ذلك بالبشارة والرحمة ، وأشار إلى هدايتهم ، وأثنى على صبرهم ولياذهم بجنابه وركونهم إليه ، قال تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧] .

وكذلك الذين يتخذون من يوم عاشوراء عيدًا ينوعون فيه الأطعمة ، ويظهرون فيه البهجة ، ويقيمون فيه الاحتفالات ، ويذهبون إلى أكثر من ذلك ، حيث يتشبثون بمرويات يدعمون بها عملهم ، ويزعمون أنها من أحاديث خير البرية ،

منها : « من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام »[١] . « ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام »[٢] . وأمثال ذلك من أحاديث التوسعة على العيال[٣] في هذا اليوم .

كل ذلك لم يصح ، ولم يرد في يوم عاشوراء غير الصيام فقط .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه في كتابه « منهاج السنة »[٤] بحث طويل عن هاتين البدعتين اللتين أحدثتا بعد القرون المفضلة ؛ بدعة إظهار الحزن ، وبدعة إبراز الفرح في يوم عاشوراء ، لولا الإطالة على القارئ الكريم لأثبتناه في هذا المقال ، ولكنا آثرنا الاختصار والإلماع ، ومن شاء المزيد فليرجع لبحث شيخ الإسلام في موضعه ، واللَّه الموفق والهادي إلى سواء السبيل .



(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٣٧٩٧) ، والفضائل (٢٤٦) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما . وانظر الموضوعات ٢/ ٢٠٣، واللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٢/ ٩٤، والمصنوع في معرفة الحديث الموضوع ص ١٧٥، والسلسلة الضعيفة (٦٢٤) .

(٢) انظر الموضوعات ٢/ ٢٠١، واللآلئ المصنوعة ٢/ ٩٣، والفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة للكرمي ص ٧٥.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٣٠٢) ، والبيهقي في الشعب (٣٧٩٤) ، والفضائل (٢٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه . وانظر الموضوعات ٢/ ٢٠٣، واللآلئ المصنوعة ٢/ ٩٣، واللآلئ المنثورة للزركشي ص ٣٤.

(٤) منهاج السنة ٤/ ٥٥٥، ٧/ ٤٣٣، ٨/ ١٤٩.

المحرم وعاشوراء[(١)]

«أفضل الليل جوفه، وأفضل الأشهر شهر الله الذي تدعونه المحرم»

«صيام عاشوراء احتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»

[حديثان شريفان]

هذان الحديثان الشريفان مرويان في أصح كتب الحديث، وهما صحيحا المتن، سليما السند، يشعران بأفضلية غامرة، وشرف لا يدافع، ومقارنات ليس لإغفالها من سبيل.

وإنك واجد أيها القارئ الكريم في ثنايا هذا المقام سلسلة من الأحاديث وأقوال السلف رضوان الله عليهم تدعم لك هذا الفضل، وتؤكد لك هذا الشرف، وتجعلك تؤمن إيمانًا ثابتًا بصحة تلك المقارنات، وبصحة ما ذهب إليه السلف من ضرورة العناية بالأيام البارزة في التشريع الإسلامي، والظهور فيها بمظاهر تحمل الطابع الإسلامي في الكم والكيف وفي انتهاج نهج حصيف من حيث تأثر الوارد والاحتكام إلى الوحيين فيما يعرض من شبه وفيما يتداخل من أعمال يشتبه فيها الحق بالباطل ويلتبس الهدى بالضلال.

وفي طليعة ما أوردته من تلك الأحاديث حديث أبي ذر رضي الله عنه، عند النسائي[(٢)] قال: سألت رسول الله ﷺ أي الليل خير؟.. الحديث. وحديث أبي قتادة رضي الله عنه: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن صيام يوم عاشوراء فقال:

---

(١) مجلة الحج- محرم- ١٣٧٢هـ.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٢١٦).

« صيام عاشوراء أحتسب على اللَّه أن يكفر السنة التي قبله »[(١)].

فحديث أبي ذر ينص بوضوح على فضل جوف الليل- أي وسطه- وعلى فضل شهر المحرم دون سواه . وإنما كانت الأفضلية منصرفة إلى وسط الليل دون أوله ؛ لأنه وقت الاستغراق في الراحة والتلذذ بالهدأة والهجوع وجهاد النفس في هذه الساعات على التجافي عن الفرش الوثيرة ، والوطاءات الناعمة ، وقسرها على القيام بمجهود قد يبدو شاقًّا بالنسبة لمن لم يعتد معالجته ، أو يجد في نفسه وازعًا قويًّا يزعه إليه ..

أقول : إنَّ كلَّ ذلك لمما تتفاوت فيه درجات العباد ويختلفون فيه بنسبة ما في نفوسهم من الاستعداد لقبول الخير، وبقدر ميولهم نحو التسابق في مضمار الفضائل والتنافس في رفيع الدرجات . بمعنى أنهم ليسوا في هذه الناحية على درجة واحدة ، ولا يتجهون اتجاهًا واحدًا يكونون به على جانب من المثالية وتعشق الأهداف الرفيعة .

ومن ثم جاء الترغيب وحفز الهمم وشحذ العزائم وذكر المغريات لانتهاج مسلك مثالي والارتفاع إلى مستوى أعلى يتحقق فيه السمو الروحي ويرتقي به العبد مدارج السالكين : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧] هذه الآية الكريمة ترسل جزاءً متكافئًا، وإحسانًا سابغًا، وفضلًا كريمًا يتناسب مع فضل التضحية والكدح وعلو الهمة وفضل الجهاد ؛ جهاد النفس والسيطرة عليها والتحكم في متعها .

وأخرج الترمذي من حديث علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن في الجنة غرفًا يرى باطنها من ظاهرها ، وظاهرها من

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢) .

باطنها، أعدها اللّٰه لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل، والناس نيام»[(١)]، وللترمذي أيضًا من حديث عمرو بن عبسة[(٢)] أنه سمع النبي ﷺ يقول: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل، فإن استطعت أن تكون ممن يذكرون اللّٰه في تلك الساعة فكن»[(٣)]. وأخرج أبو داود، والنسائي، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّٰه عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل وأيقظ أهله فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين اللّٰه كثيرًا والذاكرات»[(٤)].

وآي الكتاب العزيز وأحاديث المصطفى ﷺ المرغبة في قيام الليل والحافزة إليه، والتي ترسم الطريق السالك، والمهيع اللاحب، وترتب الجزاء على مبلغ النشاط ومدى التضحية في هذا المضمار، أقول: إن الآيات والأحاديث في ذلك كثيرة واضحة لا يستوعبها مقال كهذا، ولعلي أعود إلى طرق هذا الموضوع مرة أخرى.

ونص حديث أبي ذر السالف أيضًا على فضيلة شهر المحرم، وعلى إضافته للّٰه سبحانه دون سواه من بقية شهور العام، وهذه الإضافة إضافة التشريف توحي بالفارق وتشعر بمزيد أفضلية، قد يتبادر للذهن أنها تربو على فضل رمضان، وفضل العبادة فيه، وعلى فضل بقية الأشهر الحرم بما في ذلك العشر المفضلة عشر ذي الحجة. وذلك غير مقصود؛ إذ إن في الموضوع إطلاقًا وتقييدًا نوّه عنه العلماء، رحمهم اللّٰه.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٤). وحسنه الألباني.

(٢) في الأصل: غنبسة. والمثبت هو الصواب. وانظر تهذيب الكمال ٢٢/١١٨.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٧٩).

(٤) أخرجه أبو داود (١٤٥١)، والنسائي في الكبرى (١٣١٠)، وابن حبان (٢٥٦٨) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي اللّٰه عنهما. وصححه الألباني.

فإطلاق الأفضلية على شهر المحرم محمول أو مقيد بأفضلية لا تبلغ درجة الفضل لشهر الصيام ؛ يؤيد هذا رواية مرسلة عن الحسن البصري رحمه اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل الأوسط ، وأفضل الشهور بعد شهر رمضان المحرم»[١] . فقيدت هذه الرواية إطلاق فضل الصلاة بما بعد المكتوبة ، ومثل هذا يقال في إطلاق الفضل لشهر المحرم .

أما تقديم المحرم في الفضل على بقية الأشهر الحرم ، فقد ذهب إليه طائفة من العلماء مدعمين حجتهم في ذلك بالميزات والفوارق التي امتاز بها المحرم وفارق غيره من الشهور ، قائلين : إن اللَّه تعالى لا يضيف إليه إلا خواص مخلوقاته ، وقد أضاف إليه شهر المحرم ، كما نسب محمدًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء إلى عبوديته ، ونسب إليه بيته وناقته ؛ كل ذلك إشعار بالتشريف والأفضلية ، وقالوا : إن رسول اللَّه ﷺ ندب إلى صومه دون غيره من الشهور ، فقال : «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر اللَّه الذي تدعونه المحرم»[٢] . ويعلقون على هذا الحديث بقولهم : لما كان هذا الشهر مختصًا بإضافته للَّه ، وكان الصيام من بين الأعمال مضافًا إلى اللَّه ناسب أن يختص هذا الشهر المضاف إلى اللَّه بالعمل المضاف إليه المختص به وهو الصيام . وقال الحسن البصري : افتتح اللَّه تعالى السنة بشهر حرام - يقصد المحرم - وختمها بشهر حرام - يقصد ذا الحجة - فليس شهر في السنة بعد شهر رمضان أعظم عند اللَّه من المحرم ، وكان يسمى : الأصم . من شدة تحريمه[٢] . اهـ .

فاستدل الحسن على أهمية شهر المحرم وأفضليته من تصديره لشهور السنة ،

---

(١) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف ص ٤٧.

(٢) تقدم تخريجه .

والأمر ذو الأهمية لابد وأن يأخذ مركز الصدارة ، وتكون كل الأمور بعده تبعًا له .

وعندي واللَّه أعلم ، أن مسألة الفضل والتفضيل نسبية بين المجموعة من الأشهر الحرم ؛ إذ قد ورد لكل شهر منها فضائل ومزايا تحفز إلى اهتبال فرصه وانتهاز أيامه للقيام فيها بأكبر قدر ممكن من العبادة والقرب بأجل أنواع التقرب من صوم وصلاة وصدقة واستغفار وتوبة وما إليه ، ولعل هذا هو سر المسألة . أي : أن استدامة العبادة والتفرغ لها وقطع العلائق والمعوقات في كل هذه الشهور المفضلة وتجديد العهد باللَّه والتقرب إليه بشتى ألوان القرب .

كل ذلك من مقاصد الشارع الحكيم ؛ إذ إن إيجاد الخليقة منذ الأزل لم يكن باعثه غير طاعة اللَّه وقطع الشواغل عن عبادته وتوحيده وامتثال أمره واجتناب نهيه ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] .

فنسبة الفضل بين الأشهر الحرم من حيث إنها مواسم للعبادة ومجال واسع لابتغاء الزلفى تكاد تكون متحدة ؛ ولهذا صح عن النبي ﷺ أنه أمر بصيامها ، وكان أسامة بن زيد رضي اللَّه عنه ممن نقل عنه صيامها ، وكذا ابن عمر ، والحسن البصري ، وغيرهم من الصحابة والتابعين ، كانوا يتعاهدون صيامها ، ونسبة الفضل بينها من حيث الوضع ، ومن حيث الأيام البارزة فيها تتفاوت تفاوتًا نسبيًّا .

ولما كان المحرم أول شهور العام ، وبه يبدأ العبد صفحة جديدة في سجل أعماله ناسب أن يبدأ صفحته بعمل جليل وهو الصوم ، ولعل هذا هو باعث الندب إلى صوم الشهر المذكور .

ولما كان شهر ذي الحجة هو نهاية العام وخاتمة شهوره ، وكان أبرز أيامه أيام العشر الأول منه التي صح عن النبي ﷺ أنه قال فيها : « ما من أيام العمل

الصالح فيها أحب إلى اللَّه من هذه الأيام- يعني أيام العشر- قالوا : يا رسول اللَّه ، ولا الجهاد في سبيل اللَّه ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل اللَّه ، إلا رجلًا خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء »(١) .

أقول : كان من الأليق والأنسب للعبد ، وقد بدأ صفحته بعمل فاضل مبرور ، أن يختمها كذلك بالباقيات الصالحات من الأعمال، فتقع كل شهور العام بين حقلين من حقول العبادة وموسمين عظيمين يبعثان على التفاؤل بحسن العاقبة والمصير .

نعود الآن إلى حديث أبي قتادة الآنف الذكر ، وهو الحديث الثاني في صدر المقال ، وقد نص على أفضلية خاصة ليوم من أيام المحرم هو يوم عاشوراء . وكما امتازت عشر ذي الحجة بمزيد الفضل على بقية أيام الشهر امتاز يوم عاشوراء عن أيام المحرم بطابع خاص وفضائل ندب إليها الشارع وحث عليها، كمظهر تتركز فيه الأهداف الرفيعة ويقيم الدليل على التسامح الإسلامي بإقراره شرعة كانت لخصومه، وتأييده عملًا فاضلًا هو في الواقع بقية من سنن المرسلين .

ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وهو يوم من أيام اللَّه ، كما صح بذلك الخبر عن رسول اللَّه ﷺ ، وكان له في الجاهلية مقام ملحوظ ، وكان الجاهليون يعظمونه بالصيام فأقر رسول اللَّه ﷺ ذلك عند ما جاء الإسلام قال : « إن عاشوراء يوم من أيام اللَّه ، فمن شاء صامه ومن شاء تركه »(٢) . وذلك بعد أن فرضت فريضة صيام رمضان .

وفي الصحيحين عن عروة ، عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : كانت قريش تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية ، وكان رسول اللَّه ﷺ يصومه ، فلما هاجر إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما .

(٢) تقدم تخريجه قريبا .

المدينة صامه وأمر بصيامه ، فلما فرض صوم شهر رمضان قال : « من شاء صامه ومن شاء تركه »[١] . وفي رواية : « وكان يوم تستر فيه الكعبة »[١] .

وسئل ابن عباس رضي اللّٰه عنهما عن يوم عاشوراء فقال : ما رأيت رسول اللّٰه ﷺ صام يومًا يتحرى فضله على الأيام إلا هذا اليوم- يعني يوم عاشوراء- وهذا الشهر- يعني رمضان[١] .

وكانت اليهود تعظمه وتصومه اقتفاء لسنة كليم اللّٰه موسى ؛ إذ صامه شكرًا للّٰه على نجاته من فرعون وعلى إذلال فرعون ، وإغراقه ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما قال قدم رسول اللّٰه ﷺ المدينة فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء فقال لهم رسول اللّٰه ﷺ : « ما هذا اليوم الذي تصومونه » قالوا : هذا يوم عظيم أنجى اللّٰه فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكرًا ، فنحن نصومه . فقال رسول اللّٰه ﷺ : « فنحن أحق وأولى بموسى منكم » . فصامه رسول اللّٰه ﷺ وأمر بصيامه[١] . وفي الصحيحين عن سلمة بن الأكوع رضي اللّٰه عنه أن النبي ﷺ أمر رجلًا من أسلم : أن أذن في الناس : « من أكل فليصم بقية يومه ، ومن لم يكن أكل فليصم ؛ فإن اليوم يوم عاشوراء »[١] .

وعن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع مع العاشر » . يعني عاشوراء[١] . وفي هذا الحديث زيادة صوم اليوم التاسع مع العاشر ؛ والغرض من ذلك مخالفة اليهود في يوم صيامهم ، فقد كانوا يصومون اليوم العاشر ، كما تقدم ، جاء عن عطاء ، أنه سمع ابن عباس رضي اللّٰه عنهما يقول : خالفوا اليهود ؛ صوموا التاسع والعاشر[٢] . قال الإمام أحمد : أنا أذهب إليه . أي : إلى صيام اليوم التاسع مع العاشر .

---

(١) تقدم تخريجه قريبا .

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٧٨٣٩) - ومن طريقه البيهقي ٤/ ٢٨٧، وفي الفضائل (٢٤٢) من طريق عطاء به .

ومن مجموع ما تقدم من الأحاديث ، ومثلها معها ، وأكثر منها ، مما صح به النقل عن رسول الله ﷺ .

في هذا الباب يلمس القارئ الكريم أن لونًا واحدًا من ألوان العبادة هو المأمور به ، وهو الثابت من فعل الرسول ، وفعل صحابته الكرام ، ذلك هو الصوم ، والصوم وحده ، وما عداه مما تناقلته الألسنة على اعتبار أنه حديث يعرض لفضل التوسعة على العيال يوم عاشوراء ، وينص على أنه سبب ووسيلة لأن يوسع الله على فاعله طوال العام فهو وهم وتلبيس ؛ إذ لم يصح عن النبي ﷺ فيه شيء مرفوع ، ولم يثبت من فعل إمام راشد أو صحابي في القرون المفضلة ، نعم ورد في فضل الصدقة أثر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : من صام يوم عاشوراء فكأنما صام السنة ، ومن تصدق فيه كان كصدقة السنة(١) . وهو وإن كان موقوفًا على عبد الله بن عمرو ، إلا أن الصدقة مع الصوم في اليوم المفضل لا شك أن لها شأنًا ، وأن أجرها يتضاعف إلى أضعاف كثيرة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٥] والقرض الحسن هو الصدقة في السر دون رياء أو سمعة ، فإن قارنها عمل صالح من صلاة أو صوم وما إليه ، ووقع كل ذلك في يوم فاضل ، كان قَمِينًا أن يتقبله الله وينميه ، كما ورد ذلك في الحديث : « إن الله يربي الصدقة كما يربي أحدكم فلوه »(٢) . أو كما قال رسول الله ﷺ .

وأما ما ابتدعه غلاة الناصبة المتشيعين لعثمان رضي الله عنه من التزين ، والاغتسال ، والاكتحال ، والاختضاب ، وإظهار السرور في هذا اليوم ؛ بغية إغاظة الشيعة ، شيعة علي رضي الله عنه وأهل البيت ، الذين هم بدورهم- أقصد

---

(١) أخرجه أبو موسى المديني- كما في لطائف المعارف ص ٧٥.

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٠، ٧٤٣٠) ، ومسلم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الشيعة- قابلوا فعل الناصبة بالنقيض ، فاتخذوا من يوم عاشوراء مأتمًا ومناحة ، ويأتون فيه بمنكر القول وزوره ، ويسفون فيه ، لدرجة أن يضعوا بينهم وبين تعاليم دينهم حجبًا كثيفة من الأضاليل ، يعودون بها إلى عمل الجاهلية الأولى من ضرب الخدود وشق الجيوب وغير ذلك من مظاهر الأسى والحزن على ما نال آل البيت بيت النبي من المصائب والمحن والأرزاء ، كل ذلك لم يأذن به اللَّه .

وكلا الفريقين غال ومتطرف ، والحق وسط بين الغالي والجافي ، ومرتبة بين الإفراط والتفريط .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس اللَّه روحه- في كتابه « منهاج السنة »[(١)] : وصار الشيطان بسبب قتل الحسين رضي اللَّه عنه يحدث للناس بدعتين ؛ بدعة الحزن والنوح يوم عاشوراء من اللطم والصراخ والبكاء والعطش وإنشاد المراثي وما يفضي إليه ذلك من سب السلف ولعنهم ، وإدخال من لا ذنب له مع ذوي الذنوب ، حتى يسب السابقون الأولون ، وتقرأ أخبار مصرعه التي كثير منها كذب ، وكان قصد من سن ذلك فتح باب الفتنة والفرقة بين الأمة ؛ فإن هذا ليس واجبًا ولا مستحبًّا باتفاق المسلمين ، بل إحداث الجزع والنياحة للمصائب القديمة من أعظم ما حرمه اللَّه ورسوله .

وكذلك بدعة السرور والفرح ، وكانت الكوفة بها قوم من الشيعة المنتصرين للحسين ، وكان رأسهم المختار بن أبي عبيد الكذاب ، وقوم من الناصبة المبغضين لعلي رضي اللَّه عنه وأولاده ، ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « سيكون في ثقيف كذاب ومبير »[(٢)] . فكان ذلك الشيعي هو الكذاب ، وهذا الناصبي هو المبير ، فأحدث أولئك

(١) منهاج السنة ٤/ ٥٥٤.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٥) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي اللَّه عنها .

الحزن ، وأحدث هؤلاء السرور ، وأنه من وسع على أهله يوم عاشوراء ، وسع اللَّه عليه سائر سنته . قال حرب الكرماني : سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال : لا أصل له ، وليس إسناد ثابت إلا ما رواه سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر ، عن أبيه قال : بلغنا أنه من وسع على أهله- الحديث- وابن المنتشر كوفي سمعه ، ورواه عمن لا يعرف .

ورووا أنه : « من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام ، ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام »(١) .

فصار قوم يستحبون في يوم عاشوراء الاكتحال والاغتسال والتوسعة على العيال واتخاذ أطعمة غير معتادة ، وهذه بدعة أصلها من المتعصبين بالباطل على الحسين رضي اللَّه عنه ، وتلك بدعة أصلها من المتعصبين بالباطل له ، وكل بدعة ضلالة ، ولم يستحب أحد من الأئمة الأربعة وغيرهم لا هذا ، ولا هذا ، ولا في شيء من استحباب ذلك حجة شرعية ، بل المستحب يوم عاشوراء الصيام عند جمهور العلماء . اهـ .

وجملة القول وتلخيص ما مر في هذا المقال أن شهر المحرم في طليعة الشهور المباركة المفضلة ، وأبرز أيامه يوم عاشوراء ، وأبرز أعمال البر في شهر المحرم وفي يوم عاشوراء بنوع أخص هو الصوم ، جنبنا اللَّه الزلل ، وأخذ بنواصينا إلى الحق .



---

(١) تقدم تخريجه .

الحج : ثماره وأنواره[(١)]

كل محاولة يحاولها المرء، وكل مطلب يطلبه، له من ورائه هدف معين وغرض مقصود يتجه إليه، وإذا كان هذا شأن الناس في معترك الحياة في المجال الديني، وما ظنك بتضحياتهم التي يبذلونها في هذا السبيل، أو لم يكن لهم من وراء هذا السعي والكدح المتواصل في هذا المجال آناء الليل وأطراف النهار، مطلب هو أسمى من كل مطلب ينشدونه، وهدف هو أرفع من كل هدف يقصدون تحقيقه.

وهنا نستعرض المثل العامي كجواب طريف لهذا السؤال: ما مصلي إلا طالب مغفرة. وهو وإن كان يقصد به التورية، إلا أنه يصور الواقع- واقع المسلمين- حينما يتجهون إلى الله بعباداتهم، وصالح أعمالهم.

فمغفرة الذنوب والبعد بالمسلم عن تبعاتها، وما تجره عليه من جزاء وعقاب أليم، هدف رفيع، وغرض من أجل الأغراض وأنفعها بالنسبة للعبد، فليس أشق على العبد من تحطيمه وإذلاله والقضاء عليه بالاقتصاص منه، جزاء ما قدم من إثم، ولقاء ما اجترح من معصية، وفرط في جنب الله.

ولذلك وجه رب العزة أنظار عباده لهذا الخزي والهوان، ليترفعوا عن مجالبة، وليبتعدوا عن مزالقه، وجعل الترفع عن الذلة عنوانًا للفلاح، وآية على النجاح، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الأعلى: ٩، ١٠]. أفلح من زكا نفسه، وارتفع بها عن مجالات الإثم والرذيلة، وباعد بينها وبين مزلة الأقدام.

وخاب من دنس نفسه بالمعصية، وارتدغ في حماة الرذيلة. والحج شأنه كشأن سائر العبادات التي يتنافس فيها العباد، وتتسابق في مضمارها هممهم،

(١) صحيفة الندوة - في ١٣٨٠/١٢/١٠هـ.

يرجون ثمارها ، ويأملون الأجر عليها ، فهم يتعلقون في أدائه على الوعد الصادق في رفع الدرجات ونزول الجنة دار الكرامات ، كما جاء في الحديث : « من حج هذا البيت ، فلم يرفث ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[١] . أي : كان الحج وسيلة له من أعظم الوسائل لتطهيره ، وتزكيته ، وصقل نفسيته ، وتمحيص ذنوبه ، فيعود من حجة في طهارة المولود ، لم يتدنس بإثم ، أو يقارف معصيته ، وتلك ثمرة من أعظم ثمار الحج ، وأمل يتحقق للحاج ؛ لقاء كدحه وإخلاصه في أداء ما افترضه اللّه عليه ، فهو ، أي الحج ، لهذا الغرض ، هدف مقصود ، ومطلب مرغوب .

يضاف إليه غرض آخر مقصود لذاته ، هو الرغبة في رضاء اللّه ، وليست ثماره بالتي تقف عند تمحيص الذنوب ، ولكنها أوسع مدى وأكثر شمولًا من حيث تعدد الجوانب التي تجنى منها ، والتي يتوقف إحرازها على نشاط الحاج في مختلف أوجه النشاط ، دينيًا أو اجتماعيًا .

فالنشاط الديني يشمل كل قربة يزدلف بها الحاج إلى مولاه ، مقرونة بأداء النسك ؛ من ذلك المحافظة على الصلوات المكتوبة في جماعة ، مع الإكثار من النوافل ، والصدقة ، وبذل المعروف ، والإحسان إلى الغير في مختلف أوجه الإحسان ، والإتيان بكل أعمال البر- جهد الطاقة- لا يحقرن الحاج منها قليلًا ؛ لضآلة شأنه ، فلقد أوصى رسول اللّه ﷺ أحد أصحابه في سفره للحج فقال : « لا تحقرن من المعروف شيئًا ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي ، ولو أن تعطي صلة الحبل ، أو شسع النعل ، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم ، ولو أن تلقي أخاك ووجهك منطلق ، ولو أن تلقى المسلم فتسلم عليه »[٢] الحديث .

---

(١) أخرجه البخاري (١٨١٩، ١٨٢٠)، ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .

(٢) أخرجه أحمد ٢٣٤/٣٤ (٢٠٦٣٢) من حديث جابر بن سليم ، أو سليم بن جابر رضي اللّه عنه . وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٢٢) .

وكل ذلك مما يعظم به رصيد الحاج في الأجر ، بالإضافة إلى أن فيه تعاونًا اجتماعيًّا وتضامنًا على الخير وإظهارًا للشعور الطيب ، وأداء للحق الواجب للمسلم على أخيه ، ولئن كان هذا التعاون والتضامن والشعور الطيب وقيام المسلم بواجب الأخوة في الدين ، واجبًا في كل زمان مفروضًا بين المسلمين ، في كل صقع ومكان ، فإنه في زمن الحج ومكانه ، أكثر وجوبًا ، وأبرز أثرًا ، فإن وضع الحج يحتم أن يجتمع الحاج بإخوانه من بقاع الدنيا ، فمن لا تربطهم به غير رابطة الدين ، ولا يتفق معهم في جنس أو لون أو لغة أو مشرب .

ومن حق هؤلاء جميعًا عليه كإخوة أن يتضامن ويتعاون معهم على الخير ، وأن يظهر الشعور الطيب نحوهم ؛ كأسرة واحدة ، دون فارق أو تمييز ، ودون تحيز ، ليعطي بذلك الصورة الواضحة من نفسه على إخلاصه لرابطة دينه وإيمانه بوحدة الإسلام وتلك ثمرة من ثمار الحج ، لولا الحج ما جنيت ، ومن ثم كان النشاط الاجتماعي في الحج هدفًا من أعظم أهداف الحج ، وغرضًا رفيعًا من أغراضه ، يتبارى والنشاط الديني ؛ جنبًا إلى جنب ، فيجب أن لا يسقطه الحجيج من حسابه .

ولقد وجه سبحانه العباد إلى التعاون الاجتماعي ، وتضامن المسلمين في غير ما آية من كتابه ، إشعارًا بأثره وضرورة التزامه كل وجه ، فسورة الفاتحة التي يقرأها المسلم كل يوم مرات في صلواته ، فيها الاتجاه إلى اللّٰه ، وسؤاله الهداية إلى صراطه المستقيم ، هداية شاملة (اهدنا) لا تخص الداعي وحده ، وإنما هي عامة لكافة المسلمين ، وفي الأدعية القرآنية والنبوية توجيه لذلك ، وهكذا يزدوج النشاط الديني بالنشاط الاجتماعي ممثلًا في عبادة اللّٰه ، وملحوظًا في تضامن المسلمين في آمالهم ، ورجاء تحقيقها ، وسؤال الخير العام لجمعهم من اللّٰه .

فيجب أن لا يكون هذا النشاط قاصرًا على موسم معين كموسم الحج-

مثلًا- بل يجب أن تكون فرصة الحج التي هيأها الله لعباده، تمهيدًا لتعاون وتضامن ونشاط أكثر شمولًا، وفي مجالات أوسع واتجاهات أرحب، بحيث تنتظم كل ما يهم المسلمين في أقطارهم وأمصارهم من شئون دينهم ودنياهم، وترسم به الجماعة الإسلامية خطط النجاح، والفلاح في ميادين الكفاح، لتشعر بمكانتها تحت الشمس، ولتربط الحاضر بالماضي- الماضي الذي كان لها فيه صولة وعزة وأمجاد.

فمتى أخذت في الطريق وصلت إلى الغاية- إن شاء الله- وقد هيأ الله لها أسباب ذلك بالحج، وجعل ثماره منافع عامة مطلقة تجنيها، ومحامد تقتنصها، تشمل كل ما ينفع الفرد والجماعة، إلى جانب أعمال صالحة، تدخر أجرها، ويعظم بها رصيد حسناتها، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].



النهج المثالي[١]

« من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[٢]

[حديث شريف]

الحج فريضة فرضها اللّه على العباد وهي كغيرها من العبادات المفروضة ؛ الهدف منها التزكية ، وصقل النفس ، وأخذها بالطاعة ، والاستسلام للّه ، والإذعان لأوامره في أي وجه ، وعلى أي سبيل شرع وأمر ، وفي هذه الشعيرة بالإضافة إلى ما تقدم مجالات للعباد جعلها اللّه تعالى لحكمة عظمى ؛ إذ تنبه فيهم الوعي ، وتتجه بهم إلى أخذ صورة عن حياة الخلود المرجوة ؛ حياة الأمن والاطمئنان بعد الكد والكدح في هذه الحياة الدنيا ، ففي اتجاه الحاج إلى لم شعثه ، وحزم أمره ، وأخذ الأهبة للرحيل إلى أداء فريضة الحج ، في ذلك توجيه إلى ضرورة الاستعداد للحياة الأخرى ، وأخذ الزاد لها ، والتوجه إليها برغبة وإخلاص مكين .

وفي التجرد من الثياب عند الميقات رمز للتجرد من أوضار المادة والأخلاق النفعية وكل الشطحات والنزوات ، وهو واقع القادم على اللّه ، حين يتجرد من ثياب الدنيا ، ويلبس ثيابًا أخرى ، هي الطهر في بياضها ونقائها ، وهي الزهو في بساطتها وخفة أحمالها .

وفي القدوم على البلد الحرام بلد اللّه مكة ، وقضاء النسك ، والالتفاف في جماهير الحجاج حول البيت المعظم بيت اللّه لاستنزال رحمات الرب الكريم ، والتعرض لنفحاته ، في ذلك مظهر من مظاهر الإخلاص والشعور بالفقر والحاجة

---

(١) مجلة الحج- ذو الحجة- ١٣٧٥هـ.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٢١، ١٨١٩) ، ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .

إلى الرب العظيم المعطي ، كما هو رمز لموقف من مواقف القيامة ، حيث يجمع اللَّه الخلائق أولاها وأخراها في صعيد واحد ؛ راجين رحمته راغبين في نواله ، مشفقين من عذابه ، ضارعين إليه .

وموقف عرفات هو أبرز المواقف مواقف الذل والانكسار لصاحب العزة الملك العظيم القهار ، يتمثل فيه الحاج جملة من صور ومواقف القيامة ، يتمثل فيه خروجه من قبره أشعث أغبر ينفض عنه غباره ، ويتمثل فيه لفح الشمس ، وغمرة العرق في المحشر . ويتمثل فيه أمله ورجاءه في السعادة والدخول في عباد اللَّه الصالحين دار الكرامة ، وخوفه وإشفاقه من أن يكون شقيًا محرومًا ومبعدًا مخذولًا .

وبالجملة ففي أداء هذه الشعيرة صور ومواقف للحياة الأخرى هي من خير ما يحفز إلى الإيمان بها والاستعداد لها والاشتغال بها عن الحياة الدنيا وزهراتها الذاوية ومغرياتها الخلابة .

نعود فنعرض إلى الطريقة المثلى التي يجب أن تؤدى بها هذه الشعيرة ، وإلى النهج المثالي الراشد السديد الذي يتمثل فيه معنى الحديث الشريف : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »(١) .

ويلحظ أولًا أن في تشبيه الحج الزاكي المبرور بولادة المولود الذي لم يتدنس بعد بالمعاصي ، ولم تتنازعه بعد عوامل الإثم والخطيئة ، في هذا التشبيه ما يشعر بضرورة التزام أقوم المناهج وأفضل السبل التي توصل إلى الغاية الحميدة ، فيصبح الحج زاكيًا مبرورًا ، يتحقق للحاج وعد اللَّه له في حسن الجزاء- الجزاء الذي تحدث عنه الصادق المصدوق بقوله : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »(٢) . الجنة

---

(١) تقدم تخريجه في أول المقال .

(٢) أخرجه البخاري (١٧٧٣) ، ومسلم (١٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

دار كرامة الله ، وملتقى الأبرار من عباده ، دار الرضوان والإنس بالله ، والنظر إليه ، والمتاع الدائم والعيشة الناعمة الرضية- ذلك هو جزاء الحج المبرور ؛ لقاء ما قدمه الحاج من مجموعة الأعمال الصالحة ، ولقاء ما تحمله من متاعب ، ولقاء ما قام به من مجاهدة النفس على الخير والشر ؛ على الخير لبذله ، والسير بها في سبله ومناحيه ، ومجاهدتها على الشر للكف عنه ، وعدم الاندفاع في سبيله والتواءاته ، وجدير بمن كان كذلك أن يصبح في عداد من عناهم الله بقوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: الآية ٢٦] .

أما المسلك الذي يجب أن يلتزمه الحاج ليظفر بهذا الجزاء العظيم فيتضمن أمرين :

الأول : سلبي . أفصحت عنه الآية الكريمة : ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧] وأوضحه الرسول ﷺ بقوله : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

ويشمل الرفث : الاتصال الجنسي ، ومقدماته ودواعيه من لمس ، وتقبيل ، وتعرض للنساء . وما إليه ، ويشمل الفسوق : كل المعاصي والذنوب على اختلافها ، سواء ما كان منها باللسان ؛ كالقذف ، واللعن ، والشتائم ، وفحش القول ، أو ما كان منها بالقلب ؛ كالشرك بالله ، والنفاق ، وسائر الأعمال القبيحة التي يكون مصدرها القلب ، أو كانت بالجوارح ، وذلك ما لا يقع تحت الحصر ، واختار ابن جرير[1] رحمه الله ، أن الفسوق المعني في الآية والحديث : هو ارتكاب ما نهى الله عنه في الإحرام من قتل الصيد وإتيان المحظور في الإحرام ، وهو رأي ابن عمر[2] رضي الله عنهما . والمعنى أعم من ذلك .

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٤/ ١٤٠.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٤/١٣٧- ١٣٨.

الأمر الثاني : إيجابي . ويتركز فيه جملة من أعمال البر ؛ منها النفقة في وجوه البر ، والإحسان إلى الفقراء والأرامل والأيتام ، والبذل في إنعاش المؤسسات الخيرية ومدها بالمعونة المادية ، فكل ذلك داخل في النفقة في سبيل الله المنصوص عليها في الآية الكريمة : ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥] .

روى الإمام أحمد[١] في مسنده ، عن بريدة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف » . وخرجه الطبراني[٢] من حديث أنس رضي الله عنه- ومنها اختيار الكسب الحلال والتزود به في هذا الوجه ولأداء هذه الشعيرة التي فرضها الله في العمر مرة واحدة ، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المروي عن أبي هريرة عند البخاري ومسلم[٣] : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » . قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] ، وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ؛ أشعث أغبر يمد يده إلى السماء : يا رب ، يا رب . ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له » . أي : أن الكسب الحرام إن أجرينا الحديث على ظاهره ، قد يكون حائلًا في استجابة الدعاء .

والحاج في كل خطوة من خطواته ذكر ودعاء من اليوم الذي يخرج فيه من بيته حتى يمر بالميقات إلى أن يطوف بالبيت ، إلى أن يصعد إلى عرفات ، ويقف

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٥٤. وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٥٣٠) .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٢٧٤) .

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥) . وليس هو عند البخاري ؛ وينظر تحفة الأشراف ١١/ ٤٦٠ فلم يرقم له المزي .

بالمشاعر مزدلفة، ومنى، إلى أن يقضي مناسكه ويختم أعمال الحج بطواف الوداع، في كل ذلك مواقف للدعاء والذكر، فهو أحرى الناس بأن يطيب كسبه وتزكو نفقته.

ومنها الإخلاص للّه في كل عمل يقوم به يتطلب عليه الأجر والزلفى، وتحري أن يكون العمل على الوجه المشروع بعيدًا عن كل بدعة، نقل عن الفضيل بن عياض في قول اللّه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: الآية ٧]: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون للّه، والصواب ما كان عن السنة[1]. اهـ.

ومن الإخلاص أن لا يكون الحج لقصد الفخر والرياء والسمعة، فذلك محبط للعمل- يقول اللّه تعالى في حديث قدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[2].

ومن الإخلاص أيضًا أن لا يتغالى الحاج في لباس الإحرام أو في المركب مثلًا، بل عليه أن يتواضع في ذلك، قال أنس بن مالك رضي اللّه عنه: حج النبي ﷺ على رحل رث، وقطيفة ما تساوي أربعة دراهم، وقال: «اللهم اجعلها حجة مبرورة لا رياء فيها ولا سمعة»[3].

أما اشتراط أن يكون العمل على الوجه المشروع، أو على حد تعبير الفضيل، رحمه اللّه: أن يكون على السنة. فهو اشتراط نطق به القرآن، وجعله أساسًا في صحة الاتباع، وعنوانًا على محبة اللّه، وسببًا في غفران الذنوب، قال تعالى:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٩٥.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٠) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦١٧).

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمران: الآية ٣١].

فيجب أن يتحرى الحاج السنة في كل عمل يقوم به من أعمال حجه منذ أن خرج من بلده إلى أن يرجع إليه، وبعبارة أخرى يضع تفاصيل حجة رسول الله ﷺ التي حجها، والتي تدعى بحجة الوداع، يضعها أمام عينيه، ويتخذ منها مشعلًا يضئ له السبيل، ويسترشد به فيحرم إذا مر من ميقات بلده، ويدخل في أحد الأنساك الثلاثة: التمتع، أو القرآن، أو الإفراد.

فالتمتع: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج، فإذا فرغ من أعمالها أحرم بالحج.

والقران: أن يحرم بالحج والعمرة معًا في أشهر الحج، أو يحرم بالعمرة ويدخل عليها الحج.

والإفراد: أن يحرم بالحج فقط في أشهر الحج.

فإذا كان يوم التروية، وهو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة، صعد إلى منى ولبث بها حتى طلوع الفجر، بل وحتى تطلع الشمس، ثم يرتحل إلى عرفات، وينزل بالقرب من مسجد نمرة، حيث يصلي الظهر والعصر معًا جماعة قصرًا وجمعًا، كما صحت بذلك السنة[1].

ثم يدنو من الصخرات ناحية الجبل المسمى بجبل الرحمة، والمعروف قديمًا بجبل الآل- على وزن هلال- يقف عندها مكبرًا داعيًا ملبيًّا حتى تغرب الشمس، وعرفة كلها موقف.

ثم يفيض إلى مزدلفة فيصلي بها المغرب والعشاء، جمعًا وقصرًا للعشاء

---

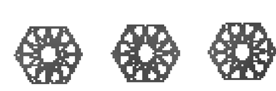
(١) أخرجه البخاري (١٦٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه، الطويل في صفة حجة ﷺ.

فقط، بأذان واحد وإقامتين، ويبيت بها إلى الصباح فيصلي الصبح بغلس، ثم يدنو من المشعر الحرام، أو يقف حيث شاء من مزدلفة، يدعو الله تعالى ويكبر ويهلل، وإن كان من الضعفة وأهل الأعذار فلا بأس أن يدفع من مزدلفة بعد نصف الليل فقد رخص رسول الله ﷺ للضعفة والنساء في ذلك.

فإذا بلغ منى رمى جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم نحر أو ذبح هديه، إن كان معه هدى، وحلق أو قصر رأسه، وتحلل من إحرامه، وقصد البيت الحرام لطواف الإفاضة، والسعي بين الصفا والمروة على تفصيل في ذلك.

ثم يرجع إلى منى، ويلبث فيها اليوم الحادي عشر، والثاني عشر يرمي الجمار ثلاثتها كل واحدة منها بسبع حصيات، ويبدأ الرمي من بعد الزوال، فإن تعجل في النزول إلى مكة في اليوم الثاني عشر فلا بأس، ولا حرج عليه وإن تأخر إلى اليوم الثالث عشر فهو أفضل بنص القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٣].

وعلى هذا المنوال يكون قد أتى بالمشروع الموافق للسنة في كل أعمال حجه، فإذا اعتزم الرحيل إلى بلده فليكن آخر عهده بالبيت يطوف به سبعًا، ويقف عند الملتزم، ثم ينصرف من أي باب من أبواب المسجد شاء، دون انحراف، أو تخصيص للخروج بباب، كما يفعل بعض العامة، وعلى هذا المنوال أيضًا ومرة ثانية يكون الحاج قد أتى بالمشروع، ويرجى له خير الجزاء الذي وعد الله به البررة بر الحج وقبوله، والظفر بمأموله من[1] عباده والصالحين من حجاج بيته وزوار حرمه.



(١) تكررت في الأصل.

لماذا نحج .. وكيف نحج[1] ؟

الحج عبادة بدنية مالية تجهد البدن بما تتطلبه من كد وجهد وشد وارتحال، وتجهد المال بما تفرضه من نفقة وبذل فيما يرتفق به الحاج في حجه .

وإجهاد النفس الأثيرة والتضحية بالنفيس الغالي من المال ، لا يكون ذلك إلا طمعًا في الحصول على مطلب رفيع يهون في سبيله كل صعب وتتذلل أمامه كل عقبة ، ويضحي المسلم من أجله بالراحة وناعم العيش بالمال والأهل والولد ، وبكل غال ومرتخص .

تُرى ما هو هذا المطلب الرفيع الذي ينشده العبد ، وترتفع من أجله تضحياته ؟ إنه مطلب تأتلف للحاج فيه المنافع ، وتتضافر وسائل الإنقاذ لانتشال المسلم من وهدة المادة وأوضارها ، وترتفع به إلى الروحيات الغامرة ومراقي السعادة والفلاح إنه الجنة التي وعد اللَّه بها المتقين الأبرار والصالحين الأخيار ، وجعلها ثمنًا لتضحيات المسلم ، وأجرًا لجهاد النفس وإجهادها في الطاعة ، وعوضًا عما خلفه وراءه من أهل وأولاد وإخوان عانى من أجل فراقهم حرقة الفراق ولواعج البعاد ، يصور ذلك كله الرسول الكريم ﷺ في أوجز بيان ، وأروع بشارة ، حيث يقول : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[2] .

أما المنافع التي تأتلف للحاج في حجه ويحصل عليها بكده وجهده في رحلته ، فقد أومأ إليها رب العزة بقوله في محكم كتابه ، حين أمر خليله إبراهيم بالنداء بالحج : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨] .

وهذه المنافع المطلقة التي لم يقيدها الرب جل جلاله بناحية خاصة ولم

(١) مجلة الحج - ذو القعدة - ١٣٧٩هـ .

(٢) تقدم تخريجه قريبًا .

يقصرها على اتجاه معين ، ولم يجعلها وقفًا على أحد من خلقه ، بل جعلها مشاعة بين زوار البيت وآتي المشاعر أقول هذه المنافع هي أيضًا مطلب ديني اجتماعي يستحث من أجله الحاج الخطي ويزم المطايا ويخلف وراءه الدنيا بملهياتها ومغرياتها وحظوظها وشهواتها .

ويبدأ الخطوة الأولى في سبيل الحصول عليه بالتجرد ولبس الإحرام ، والتزود بالتقوى ، والترفع عن الماديات ، والاشتغال بالروحانيات من ذكر ، ودعاء ، وتلبية ، واستغفار ، وتهليل ، وتكبير ، وما إلى ذلك ، ويتجه إلى اللّٰه ، كما تجرد من ثيابه متجردًا من ادياته ؛ فلا طيب ولا لبس مخيط ، ولا قتل صيد ، ولا عقد نكاح ، ولا شيئًا مما يتنافى مع جلال الإحرام ، وروعة المقام ، وصدق التوجه إلى الملك العلام ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٧] .

ثم في إيماء رب العزة إلى تعدد جوانب المنافع في الحج ما يوحي بكثرة طرقها واختلاف اتجاهاتها ، وما يشعر بانتظامها لجميع جوانب الإصلاح الديني والدنيوي ومختلف النواحي الروحية والمادية على حد قول اللّٰه تبارك وتعالى في الدعاء الجامع : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠١] وهو يشمل جميع نواحي الإصلاح للعبد في عاجل أمره وآجله ، وفي دنياه وآخرته ، فالحسنة التي يهبها اللّٰه لعبده في الدنيا تشمل رخي العيش ، وكمال الصحة ، ووفرة المال ، وكثرة الولد ، ورفعة المقام ، وسعة الجاه ، وما إلى ذلك مما تتم به المتعة في الدنيا ، ويكون به صلاح الحال في العاجلة ، والحسنة في الآخرة أعلا درجاتها دخول الجنة ، والنجاة من النار ، والبشائر قبل ذلك بالأمن من الفزع الأكبر ، وأهوال القيامة ، وتيسير الحساب ، وغير ذلك مما يكون به صلاح الآخرة ، وبلوغ الرضوان ، وذلك ما ينشده المسلم ، ويسعى إليه .

ويأمل تحقيقه . وأحرى الناس باستجابة اللّه له في تحقيق هذا الإصلاح الشامل للحياتين الحاج المهاجر في سبيل اللّه ؛ إذ يفد على ربه ، وينزل في رحابه ، ويتعرض لنفحاته ، ويقف في مهابط الرحمة ، ومنازل المغفرة ؛ مؤملًا في الكريم رب العرش العظيم أن يكرم وفادته ، وأن يحقق مطلبه ، ويصلح له شأنه وذلك نفع خاص يحصل عليه الحاج في حجه ويحوزه لصالحه .

أما المنافع العامة التي تنتظم إصلاح أمر الجماعة الإسلامية فهي أيضًا مما يشهده الحاج في حجه ، وتدخل في الإطلاق الملحوظ في الآية : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج: الآية ٢٨] وتتركز في مدى استغلال المسلمين لهذه الفرصة الذهبية التي هيأها اللّه لهم بحج البيت وزيارة المشاعر المقدسة ، حيث يقضون فيها فترة من الزمن يؤلفون فيها صفوف الجامعة الإسلامية ويوحدون فيها الكلمة ، ويعقدون الندوات والمؤتمرات ؛ لبحث مشاكل المسلمين في كل قطر ومصر ، ويضعون لها الحلول الناجحة سواء كانت مشاكل سياسية أو اقتصادية أو عنصرية يضعها الاستعمار ؛ ليفرق كلمة المسلمين ، ويباعد بين قلوبهم ، فيكون له وراء ذلك نصيب الأسد في الغنيمة .

كل ذلك مما يدخل في نطاق المنافع التي أجملها وأطلقها الرب جل جلاله ، والتي يشهدها الحاج في حجه وينعم بها قاصدو البلاد المقدسة في زيارتهم لها إلى جانب أداء النسك ، والتمتع بفيض الروحانيات والبركات في رحابها ، وهي الشطر الأول من موضوع المقال « لماذا نحج » .

فمن توانى عن استغلال فرصة الحج لكسب منافعه والظفر بأرفع أغراضه، والحصول على خيري الدنيا والآخرة في الفترات التي يقضيها في حرم اللّه الآمن وجوار البيت العتيق ومهابط الرحمة والرضوان ومبعث الشعلة الأولى للتحرر من قيود الذل والتحرر من ربقة الاستعباد ، فهو كمن يعني بالمظهر ويترك الجوهر ،

يعنى بالمركب ولباس الإحرام والتدقيق في محظوراته، وما إلى ذلك من الأمور الآلية التي تأتي ضمنًا في أعمال الحج والتي تسقط بأدائها الفريضة فريضة الحج عن المكلف، ويترك جوهر هذه الفريضة؛ وهي التزود بالتقوى، وإقامة صرح الجماعة، وتجديد الروابط بين المسلمين، والتعرف إلى أكبر مجموعة منهم يتعذر التعرف إليها إلا في هذه الفرصة الذهبية، وعن طريق الحج، وتدعيم الوحدة الإسلامية؛ ليصبح المسلمون كتلة واحدة، وصفًا متراصًّا لجهاد أعداء اللّٰه ورفع علم الإسلام ونصر الدين في بقاع الدنيا رغم أعداء اللّٰه الذين يريدون إطفاء نور الله، واللّٰه متم نوره ولو كره الكافرون.

أما الشطر الثاني من موضوع المقال «كيف نحج» فيكاد ينحصر الجواب عنه في قول الرسول الأعظم ﷺ في حجة الوداع: «خذوا عني مناسككم»[1].

إذ إن الحج فريضة شرعها اللّٰه، وعبادة يوضح اتجاهاتها وطرق أدائها الرسول من عند اللّٰه، والذي حصر اللّٰه فيه الأسوة، وجعل به القدوة، حيث يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١] فكل أسوة وكل قدوة لا تكون طبق ما قرره رسول الهدى وأرشد إليه في مناسك الحج بقوله أو فعله فهي قدوة باطلة وأسوة فاشلة.

ولقد حج رسول الهدى ﷺ حجة الوداع، وأوضح فيها جميع المناسك، وعرضت عليه فيها بعض المشاكل التي تعرض للحاج في حجه، فكان يرشد فيها إلى الطريق الراشد من هديه وسننه.

ولقد صح من سنته ﷺ في حجه أنه طلع إلى منى يوم التروية فقضى فيها سحابة اليوم الثامن، وبات بها، وصلى الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، والفجر يوم عرفة، ثم ارتحل إلى نمرة بعد أن طلعت الشمس وصلى الظهر

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر رضي اللّٰه عنه. بلفظ: لتأخذوا مناسككم.

والعصر بنمرة جمعًا وقصرًا ، ثم ارتحل إلى عرفات ووقف بجوار الصخرات مستقبل القبلة يدعو اللَّه تعالى ويحمده ويهلل ، وقال في ذلك : « وقفت ههنا ، وعرفة كلها موقف »(١) . أي : لا يشترط لكل الحجيج أن يقف في موقف الرسول ﷺ ، بل يقف كل حاج حيثما تيسر له في عرفات وحفظ من دعائه يوم عرفة : « لا اللَّه إلا اللَّه وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » .

وعندما غربت الشمس دفع إلى المزدلفة وصلى بها المغرب والعشاء جمعًا للمغرب إلى العشاء وقصرًا للعشاء بأذان واحد وإقامتين ، وبات بها ، وصلى الصبح بغلس في أول وقتها ، ثم وقف بجوار المشعر الحرام يدعو اللَّه تعالى إلى أن أسفر الوقت - وقال : وقفت ههنا وجمع- أي : والمزدلفة- كلها موقف(٢) . ثم دفع إلى منى ، ورمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، أمر بالتقاط الحصى له من الطريق ، ثم نحر هديه ، وحلق رأسه ، وهبط إلى مكة ، فطاف طواف الإفاضة ، وعاد إلى منى ، وبقي بها ثلاثة أيام بعد يوم العيد ، ثم عاد إلى مكة .

هذه مجمل حجته ﷺ أومأنا إليها إيماء ، دون الجنوح إلى التفصيل ، فموضع ذلك كتب المناسك .

أسأل اللَّه أن يتقبل من المسلمين حجهم ، ويجعله خالصًا لوجه لا رياء فيه ولا سمعة ، وصلى اللَّه على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه .



(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي اللَّه عنه .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّه عنهما . وحسنه الألباني في الصحيحة (١٥٠٣) .

الحج في السنَّة النبوية(١) !

رغب إليَّ بعض الإخوان من محبي الخير وإشاعة النفع أن أكتب مقالًا عن الحج في السنة على غرار ما كتبته سابقًا عن العيد، وبنفس الترتيب ؛ نظرًا لأن الناس قد تشعبت بهم المسالك في حجهم ؛ إذ يتقيد كل فريق بما جاء من نصوص مذهبه واجتهادات الفقهاء، رحمهم اللّٰه، في أعمال الحج واختلافهم بالنسبة للواجبات والسنن، وما يصح الحج به من عدمه، مما لعله أن يكون باعث جدل، والجدل في الحج محظور.

وقد رأيت أن حديث جابر رضي اللّٰه عنه في صفة حج النبي ﷺ من أجمع الأحاديث وأشملها لأعمال الحج ووصفه وترتيبه، فهو شاهد عيان، ويحكي واقعًا. فقررت أن أبدأ به، ثم أعقب عليه ببعض أحاديث آخر ؛ معلقًا عليها بما يستنتج من الأحكام، وببعض الإيضاحات :

مختصر حديث جابر رضي اللّٰه عنه في حج النبي ﷺ :

عن جابر بن عبد اللّٰه رضي اللّٰه عنهما : أن رسول اللّٰه ﷺ حج فخرجنا معه حتى إذا أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس، فقال النبي ﷺ : « اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي ». وصلى رسول اللّٰه ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواء، حتى إذا استوت به على البيداء أهلَّ بالتوحيد : « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك ». حتى إذا أتينا البيت استلم الركن، فرمل ثلاثًا، ومشى أربعًا، ثم أتى مقام إبراهيم فصلى ورجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨]، « ابدأوا بما بدأ اللّٰه به » فرقي الصفا حتى رأى البيت فاستقبل القبلة، فوحد اللّٰه وكبره- وقال :

---

(١) مجلة الحج- ذو الحجة- ١٣٨٢هـ.

« لا اللَّه إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا اللَّه إلا اللَّه ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ثم دعا بين ذلك ثلاث مرات ، ثم نزل من الصفا إلى المروة حتى انصبت قدماه في بطن الوادي ، حتى إذا صعد مشي إلى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى ، وركب ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلًا حتى طلعت الشمس فأجاز حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطن الوادي فخطب الناس ، ثم أذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئًا ، ثم ركب حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلًا ، حتى غاب القرص ، ودفع ، وقد شنق للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رجله ، ويقول بيده اليمنى : « يا أيها الناس ، السكينة ! » فلما أتى جبلًا رخى لها قليلًا حتى تصعد ، حتى إذا أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئًا ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر ، حتى تبين له الصبح ، بأذان وإقامة ، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا وكبر وهلل ، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًّا ، فدفع قبل أن تطلع الشمس ، حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلًا ، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة ، فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها ، كل حصاة مثل حصى الخذف ، يرمي من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ، ثم ركب رسول اللَّه ﷺ فأفاض إلى

البيت فصلى بمكة الظهر » . رواه مسلم مطولاً(١) .

وقبل أن أتابع سلسلة ما يتقاضانا البحث تسطيره في الموضوع ، أعرض لما ورد في حديث جابر من فقرات أو جمل تستدعي الإيضاح ، فنلحظ في مطلع الحديث ما يأتي :

١- في قصة ولادة أسماء بنت عميس أن الرسول ﷺ أمرها أن تغتسل . أي : للإحرام . وتستثفر، أي : تجعل ثوبًا بين فخذيها ، بعد سد مخرج الدم . وفي ذلك بيان حكم النفساء ، ومثلها الحائض ، وأنه ، أي : الحيض والنفاس . لا يمنع من الدخول في الإحرام للحج أو العمرة .

٢- جاء في الحديث : حتى إذا استوت على البيداء أهل بالتوحيد ،- فالبيداء- مفرد بيد ، وهي الأرض الفلاة ، وكان الموضع الذي أحرم منه ﷺ ذا الحليفة ، وإهلاله بالتوحيد : رفع صوته بالتلبية شعار الدخول في النسك ، ورفع الصوت بها للرجال دون النساء .

٣- حتى إذا أتينا البيت استلم الركن فرمل ثلاثًا- الركن المراد به : الحجر الأسود - والرمل : الإسراع في المشي ، والاشتداد فيه ، ومقاربة الخطى- أسرع في الأشواط الثلاثة الأولى- والرمل خاص بطواف القدوم فقط .

٤- ثم نزل من الصفا حتى إذا انصبت قدماه فرمل في بطن الوادي- سقط لفظ (رمل) قالوا : وثبتت هذه اللفظة في رواية لمسلم .

٥- حتى إذا طلعت الشمس فأجاز حتى أتى عرفة . أجاز أي : بعد قيامه من منى صباح اليوم التاسع ، جاوز المزدلفة ، ولم يقف بها حتى قرب من عرفة ، ولم يدخلها بديل قوله في الحديث نفسه : « فوجد القبة قد ضربت له بنمرة » . ونمرة ليست من عرفة- ولم يدخل عرفة إلا بعد الزوال ، وبعد أن صلى الظهر والعصر

(١) أخرجه مسلم (١٤٧/١٢١٨) .

ببطن عرفة لا عرفة.

٦- حتى إذا أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئًا أي لم يصل بين المغرب والعشاء نافلة.

٧- حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة قال صاحب سبل السلام: هي حد منى أي وليست منها- والجمرة اسم لمجتمع الحصى سميت بذلك لاجتماع الناس- يقال: أجمر بنو فلان إذا اجتمعوا، والمراد بالجمرة جمرة العقبة. هذه هي جملة ما لعله يكون فيه بعض غموض من حديث جابر رضي اللّه عنه.

بقي أن نعرض لبقية أعمال الحج وشعائره في أيام التشريق وما بعدها؛ مبتدئين برمي الجمار.

رمي الجمار في أيام التشريق:

عن جابر رضي اللّه عنه قال: رمى رسول اللّه ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى. وأما بعد ذلك فإذا زالت الشمس. رواه مسلم[١].

٨- الجمرة التي ترمى يوم النحر هي جمرة العقبة. وقوله: أما بعد - أي: بعد يوم النحر وفي أيام التشريق- كان يرمي الجمار الثلاث بعد زوال الشمس.

وضعية رمي الجمار في أيام التشريق:

عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أنه كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات، يكبر على إثر كل حصاة، ثم يتقدم، ثم يُسْهِل فيقوم مستقبل القبلة، ثم يدعو، ويرفع يديه، ويقوم طويلًا، ثم يرمي الوسطى ثم يأخذ ذات الشمال فيسهل، ويقوم مستقبل القبلة، ثم يدعو ويرفع يديه، ويقوم طويلًا، ثم يرمي جمرة ذات العقبة من بطن الوادي، ولا يقف عندها، ثم ينصرف فيقول: هكذا رأيت رسول

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٩).

اللّه ﷺ يفعله . رواه البخاري[١] .

٩- الجمرة الدنيا هي الجمرة المعروفة حاليًا بالصغرى ، وهي التي تلي مسجد الخيف . وفي الحديث : مشروعية التكبير عند رمي الجمار ، والقيام للدعاء طويلًا بعد رمي كل من الجمرة الصغرى والوسطى .

الترخيص في ترك المبيت بمنى لأهل الأعذار :

عن ابن عمر رضي اللّه عنه أن العباس بن عبد المطلب رضي اللّه عنه استأذن رسول اللّه ﷺ أن يبيت بمكة ليالي منى ، من أجل سقايته فأذن له[٢] .

وعن عاصم بن عدي رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ رخص لرعاة الإبل في البيتوتة عن منى ، يرمون يوم النحر ، ثم يرمون يومين ، ثم يرمون يوم النفر[٣] .

١٠- في الحديثين الترخيص لأهل الأعذار في ترك المبيت بمنى ليالي أيام التشريق . وقد اختلف العلماء في تحديد العذر الذي تشرع معه الرخصة ، وهل هو خاص بالسقاية وإعداد الماء للشاربين ، أو هو عام يلحق به كل الأعذار من الحراسة وعلاج المريض ، وما إليه مما يكون ضرورة ؟ والأخير بمقصد الشارع أشبه . وذهب إلى ذلك أحد الأئمة رحمهم اللّه .

١١- في حديث عاصم بن عدي الإرشاد إلى طريقة رمي أهل الأعذار للجمار الثلاث أيام التشريق ، وهي أن يجمعوا الجمار ليومين- اليوم الحادي عشر والثاني عشر- ويرموها في اليوم الثاني عشر ، ووقت الرمي بعد الزوال .

طواف الوداع :

عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٥١) .

(٢) أخرجه البخاري (١٦٣٤، ١٧٤٥) ، ومسلم (١٣١٥) .

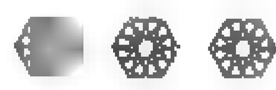
(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥٠، والترمذي (٩٥٤، ٩٥٥) ، والنسائي (٣٠٦٩) . وصححه الألباني في الإرواء (١٠٨٠) .

إلا أنه خفف عن الحائض(١).

١٢- الحديث دليل على وجوب طواف الوداع للحاج إلا أنه خفف عن الحائض، وفي حكمها النفساء، أن ينفرا دون طواف الوداع، إرفاقًا بهما، وتيسيرًا لعذرهما: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: الآية ٧٨]، وليس عليهما ما على تارك الواجب من الدم.

أما بعد، فهذه إلماعة عن الحج في السنة النبوية حاولت فيها الإيجاز والاقتصار على ما لابد منه؛ لتصحيح الحج، والإتيان بأركانه وواجباته، ولم أعرض فيها لمختلف المسائل؛ آملًا أن تكون وافية بالغرض وإسهامًا في الواجب المفروض على طالب العلم أن يؤديه لغيره.

أسأل اللَّه أن يتقبل من الجميع صالح الأعمال.



(١) أخرجه البخاري (١٧٥٥)، ومسلم (١٣٢٨).

لمحة في بعض آيات الحج(١)

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الحج ٣٤- ٣٧]. [قرآن كريم].

تقدم في الآيات السابقة قصة أمر الله خليله إبراهيم ببناء البيت الحرام بيت لله، وما كان منه بعد ذلك من إعلام الناس والأذان فيهم بالحج كما أمره الله، ثم ترغيب الله عباده في الحج ليشهدوا فيه مصالح الدين والدنيا، والندب إلى الإحسان للفقراء والبؤساء وذوي الحاجة، وبيان ما أحل الله لعباده من بهيمة الأنعام، والتوسعة عليهم في ذبحها، والأكل منها، والإهداء، والتصدق بها.

والآيات التي صدرت بها هذا المقال تنص على إخلاص العبودية لله، وتركيز جهود العباد في طاعته، والتحبب إليه بفعل ما شرعه، وعمل ما يرضيه وفيها ذكر صفات المؤمنين الذين جمع الله لهم بين الرضا والنعيم الدائم، والبشارة بصدق الوعد، ومضاعفة الأجور، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الحَجّ: الآية ٣٤] الآية. المنسِك، بكسر السين: هو المذبح يقصد لذبح القرابين. المنسَك، بفتحها: هو نفس الذبح وإراقة الدماء. والأمة: الجماعة.

(١) مجلة الحج- ذو القعدة، وذو الحجة- ١٣٧٠هـ.

والمعنى : أن اللّٰه سبحانه جعل لكل جماعة متدينة سلفت قبلنا مذبحًا يقصدونه بذبائحهم وقرابينهم ، أو ذبائح يضحى بها ، ويذكر اسم اللّٰه عليها عند الذبح ، أو النحر ؛ ليبتغوا بذلك الزلفى والتقرب من المولى جل وعلا ، وهو دين الحنفاء وبقية من سنن المرسلين ، وقد ثبت في الصحيحين عن أنس رضي اللّٰه عنه قال : أتى رسول اللّٰه ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ، ووضع رجله على صفاحهما ، وضحى بهما(١) .

وقصة إهداء النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بدنة ؛ نحر منها بيده الشريفة ثلاثًا وستين(٢) ، مشهورة مستفاضة ، وكذا إرساله ﷺ الهدي قبل حجة الوداع مع أبي بكر ؛ ليس بخاف على من له إلمامة بالسنة .

وفي قوله : ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الحجّ: الآية ٣٤] إشعار بالوحدانية ، وتفرد اللّٰه تعالى بالإلهية التي من لازمها قصده سبحانه بجميع ما تعبد اللّٰه به العباد من محبة وإجلال وإنابة وتعظيم وذل وخضوع وغير ذلك مما هو من خصائص المعبود ، وهو ما يسمى بالتوحيد الإرادي الطلبي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه اللّٰه ، في معنى الإله : الإله هو المألوه المعبود الذي تألهه القلوب بحبها ، وتخضع وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليه في شدائدها ، وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه ، وتطمئن لذكره ، وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا للّٰه وحده ، ولهذا كانت « لا اللّٰه إلا اللّٰه » أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل اللّٰه وحزبه ، والمنكرون لها أعداء اللّٰه وأهل غضبه ونقمته .

وقال شارح كتاب التوحيد : من خصائص الإلهية الكمال المطلق الذي لا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥٨، ٥٥٦٤) ، ومسلم (١٩٦٦) .

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٣١، والترمذي (٨١٥) ، وابن ماجه (٣٠٧٤) من حديث جابر رضي اللّٰه عنه . وصححه الألباني .

نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم، والإجلال، والخشية، والدعاء، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والتوبة، والاستعانة، وغاية الحب مع غاية الذل، كل ذلك يجب عقلًا وشرعًا وفطرة- أن يكون للّٰه وحده، ويمتنع عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره بمن لا شبيه له ولا مثيل ولا نظير، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولهذا قال تعالى بعد تصريحه بألوهيته: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج: الآية ٣٤] أي: انقادوا وأخلصوا له التعلق والقصد والطلب وأطيعوه.

والإسلام كما عرفه شيخ الإسلام[١]: هو الدين الذي ارتضاه اللّٰه، وبعث به رسله؛ وهو الاستسلام والخضوع له، دون ما سواه، فمن عبده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا، ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا.

وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده في قصة إسلامه قال: فبالذي بعثك بالحق ما بعثك به؟ قال: «الإسلام». قال: وما الإسلام؟ قال: «أن تسلم قلبك ووجهك إلى اللّٰه»[٢]. وعن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «إن للإسلام ضوى ومنارًا كمنار الطريق»[٣]. أي: أن للإسلام أعلامًا يهتدى بها، وطرائق واضحة المعالم لن يضل فيها السالكون.

وقيل في تفسير ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [الحج: الآية ٣٤]: المطمئنين. وقيل: المتواضعين المطيعين، وقيل غير ذلك مما يتفق معناه.

وجماعه: ما وصفهم اللّٰه به في الآية التالية بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢، ٣] فإن من استشعرت

---

(١) انظر الإيمان ٢/ ٣٤١، ومجموع الفتاوى ٧/ ٢٦٣.

(٢) أخرجه أحمد ٥/٣ من طريق أبي قزعة سويد بن حجير الباهلي، عن حكيم به.

(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤٢٩). وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٣).

قلوبهم عظمة اللَّه ، وعمرت بالخوف منه أفئدتهم ، ودامت عندهم مراقبته فبدت علائم ذلك عند ذكره وتلاوة آياته . ومن صبروا على محن الحياة وإرزائها وبلائها بدافع الإيمان الثابت واليقين الراسخ ، وعلى ما قد ينالهم من جهد ومشقة في سبيل تأدية الواجب المفروض ؛ رجاء تحقيق وعد اللَّه ، وبلوغ رضوانه . وأقاموا الصلوات المكتوبات على أكمل وجه ؛ مطرحين ما قد يصدهم ، أو يقعدهم عنها من كسل أو تهاون أو اشتغال بتجارة ورياسة . وجعلوا فيما خولهم من الأموال قسطًا وراء الزكاة للفقراء وذوي الفاقة من المتعففين وأهل الحاجة والعوز .

إن من اتصف بهذه الصفات المحمودة لا ريب أن تكون للَّه به عناية ملحوظة باكورتها البشارة بسمو المنزلة ورفعة الدرجات في الدنيا والآخرة، فهو يطوي مراحل حياته يحدوه الأمل وتستحثه الرغبة لبلوغ الأمنية واستيفاء أجر ما قدم غير منقوص ولا مبخوس ، وعد كتبه اللَّه على نفسه ، ومن أوفى بعهده من اللَّه ، ومن أصدق من اللَّه قيلا .

ثم قال تعالى : ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: الآية ٣٦] البدن : جمع بدنة ؛ وسميت بدنة من البدانة وهي السمن . ومن العلماء من يقصر البدن على الإبل فقط . ومنهم من يطلق لفظ البدن على الإبل والبقر معًا ، وعلى هذا جرى ابن كثير حيث يقول : أما إطلاق البدن على البعير فمتفق عليه ، واختلفوا في صحة إطلاق البدن على البقر على قولين أصحهما أن يطلق عليها ذلك شرعًا . ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، كما ثبت بذلك الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد اللَّه قال : أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نشترك في الأضاحي ؛ البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة[(١)] .

ومعنى قوله تعالى : ﴿مِن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨] أي : خلقها ، وجعلها

(١) أخرجه مسلم (١٢١٣، ١٣١٨) .

من أعلام الشريعة، بأن تهدى إلى الحرم وتنحر فيه. وقيل: لأنها تشعر بأن تطعن في سنامها، فيعلم بذلك أنها هدي، وجعل ذلك سبحانه من القرب إليه، ورغب فيه بقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٦] خير في الدنيا بالانتفاع المادي من الركوب، وشرب اللبن، والحمل عليها، وأخذ الصوف منها، وخير في الآخرة بثواب للَّه ورضائه وحسن جزائه، ولقد بلغ من حرص السلف على الخير أن كان بعضهم يستدين لسوق البدن ونحرها، وعندما عوتب على ذلك، قال سمعت اللَّه يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٦] ومن أجل ذلك فهو حريص على هذا الخير مهما كلفه من تضحية. وعن ابن عباس رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما أنفقت الورق- أي الفضة- في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد»[1].

وعن عائشة رضي اللَّه عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم عملًا أحب إلى اللَّه من إهراق دم، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من اللَّه بمكان، قبل أن يقع إلى الأرض، فطيبوا بها نفسًا». رواه الترمذي وحسنه[2]. وعن زيد بن أرقم قال: قلت: يا رسول اللَّه، ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم». قلت: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة». أخرجه ابن ماجه[3].

ثم أرشد سبحانه إلى طريقة نحر البدن، ووجوب ذكر اسم اللَّه عليها عند النحر؛ خلافًا لما هو موروث عن الجاهلية ودين المشركين من الإهلال ورفع الصوت على الذبائح بأسماء معبوديهم من الصالحين والملائكة والجن

(١) أخرجه الطبراني (١٠٨٩٤)، والدارقطني ٤/ ٢٨٢، والبيهقي ٩/ ٢٦٠. وقال الألباني في الضعيفة (٥٣٤): ضعيف جدًا.
(٢) أخرجه الترمذي (١٤٩٢)، وابن ماجه (٣١٢٦). وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٢٦).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٣١٢٧) وقال الألباني في الضعيفة (٥٢٧): موضوع.

المستخدمين، لهم فقال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٦] وصواف معناها: قائمات قد صفت قوائمها، واحدها صافة.

روي عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: إذا أردت أن تنحر البدن فأقمها على ثلاث قوائم؛ معقولة يدها اليسرى، ثم قل: بسم اللَّه واللَّه أكبر(١). وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها، فقال: ابعثها قيامًا، سنة أبي القاسم ﷺ(٢).

﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٦] الوجوب: هو السقوط يقال: وجبت الشمس إذا سقطت للغروب، المعنى: إذا سقطت النحيرة على الأرض بعد النحر، وأسلمت الروح، وبرهت حركتها، جاز عندئذ امتداد الأيدي إليها، والانتفاع بها أكلًا وإهداءً وادخارًا وتصدقًا، وخاصة على المنصوص عليهما في الآية، وهما: القانع، والمعتر. والقانع: هو السائل، من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال. والمعتر: من يتعرض للإحسان من غير سؤال ولا رفع يد، وبعبارة أخرى: هو الفقير المتعفف، يؤيد هذا رواية عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، قالوا: القانع هو الذي يقنع إليك يسألك، والمعتر هو الذي يعتريك يتضرع، ولا يسألك(٣).

ولعل من أهداف الشريعة في الندب إلى هذا الإحسان بث روح التعاون وإيجاد رابطة بين الطبقة الفقيرة التي هي الكثرة الكاثرة في الأمة، وبين الطبقة المتمولة، وسد الثغرات التي تدخل منها المبادئ الهدامة عن طريق هذه الطبقة بحكم الفقر والعوز، وبدافع غريزة حب التملك وتنازع البقاء.

وفي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٦] لفت نظر إلى هذه

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٣٨٩، ٤/ ٢٣٣، وعنه البيهقي ٩/ ٣٨٧، بنحوه.
(٢) أخرجه البخاري (١٧١٣)، ومسلم (١٣٢٠).
(٣) ينظر مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٦٣٦، والطبري ١٨/ ٦٣٧.

النعمة العظيمة نعمة التذليل وإخضاع هذه العجماوات النفور الجامحة لحتفها، وما يراد بها من النحر، كما كانت خاضعة للركوب وحمل الأثقال وأخذ اللبن، والشكر على الإحسان وتجدد النعم عامل من عوامل حفظها من الزوال والغير وهو مظهر من مظاهر الاعتراف بعظم المنة وسابغ الأفضال، وقد حث عليه سبحانه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٦] وليس أحب إلى اللّٰه من عبد أسبغ عليه النعمة فرعاها حق رعايتها، وشكرها للّٰه، فحفظها اللّٰه عليه، وزاده من خزائنه التي لا يغيضها كثرة الإنفاق والعطاء؛ جريًا على سنته في حسن الجزاء ووفاء بتأكيده، حيث يقول عز من قائل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧].

وختم سبحانه بالآية التالية التشريع في سوق البدن وإهدائها للحرم ونحرها فيه والانتفاع بلحمها، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٧] والمعنى: أن اللّٰه سبحانه شرع هذه الشعيرة لمصلحة عباده، والتقرب بها إليه، ولإظهار كامل عبوديتهم، وصدق إيمانهم، وكمال توحيدهم، وتقوى قلوبهم، وهذا ما يرفع إليه من عمل عبيده، ويبلغون به رضاه، ويجازيهم عليه الجزاء الأوفى.

أما الدماء المهراقة واللحوم بشكلها المادي من حيث إنها لحوم ودماء، فلن يصل إلى اللّٰه منها شيء؛ إن هي إلا رمز للعمل الصالح المشروع، برهان على مبلغ ما تكنه القلوب من التقديس والتأليه والخضوع إلى بارئها، قال بعض العلماء في الآية: إنكم لن تصلوا إلى رضاء اللّٰه باللحوم ولا بالدماء، وإنما تصلون إليه بالتقوى، وقصد وجه اللّٰه بما تذبحون وبما تنحرون من الهدايا، فعبر عن هذا المعنى بلفظ ﴿يَنَالُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤] مبالغة وتأكيد. وقيل في سبب النزول: إن أهل الجاهلية كانوا ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول

الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ [الحجّ: الآية ٣٧] الآية، ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحجّ: الآية ٣٧] ومن أجل هذا التأليه والظهور بمظهر العبودية الكامل والتعظيم، سخر البدن، وكرر سبحانه ذكر التسخير هنا بعد ما ذكره في الآية السابقة؛ تذكيرًا بهذه النعمة العظيمة، وتأكيدًا لحصولها، ليؤدي العباد بذلك شعيرة من شعائر دينهم، يثابون عليها، فله المنة سبحانه علي عباده لترادف النعم، وعظيم الإحسان.

وفي الهداية إلى هذه الشعائر والمناسك، وشرعة الحنيفية ما يحفز إلى التكبير والتمجيد والتعظيم، وقد أرشد إليه بقوله سبحانه: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحجّ: الآية ٣٧] وفيه الإشارة إلى مشروعية التكبير عند النحر والذبح مضافًا إلى ذكر اسم الله المأمور به والمنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [الحجّ: الآية ٣٦] الآية.

ولعل في هذا ما يوجه الناس توجيهًا صحيحًا إلى العناية بالإبل التي أشاد الله بذكرها، والتي قضت عليها مصانع (فورد) و(كريزل) و(كادلك) وغيرها.

وحيث كان الغرض هو التعبد بأكمل معانيه، وأتم مظاهره؛ فإن الحظ الأوفر من رضوان الله تعالى والبشارة بالنعيم في دار كرامته إلى وجهه الكريم لمن بلغ الذروة في إخلاص الدين واتباع شرع المرسلين وامتثال أمرهم وتصديقهم واقتفاء أثرهم فكان بذلك من المحسنين.

هدانا الله جميعًا إلى صراطه المستقيم.



وأذن في الناس بالحج(١)

تتفاضانا مناسبة الحج بدخول أشهره، وقدوم أيامه، إلى بلد الله الحرام أن نسهم بكلمة عن الحج، نستعرض فيها ما يمكن استعراضه من مناسكه، وما يجب على الحاج من التزامات ترتفع بحجه إلى درجات البر المطلوب، والصون المرغوب، لضمان الأجر المرتجى والذي تستشرف إليه النفوس وتعده الرصيد في صالح الأعمال، تدخره ليوم الجزاء، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا إيمان صادق وعمل صالح، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سَبَإ: الآية ٣٧].

والحج في مظهره جهاد للنفس لما يتطلبه من تضحيات مالية. والمال عزيز على النفوس بذله، وعسير عليها أن تفرط فيه إلا مقابل غنم تربحه، وليس في الحج ربح مادي واضح يحمل النفوس على البذل والسخى إن هو إلا ربح روحي، وأجر يرتجى، وثواب في الآجلة، وهو- أي الحج- جهاد جسماني، حيث يستدعي النقلة والارتحال، والجهود المتواصلة في أداء المناسك، من طواف وسعي وصعود إلى عرفة إلى أن يعود الحاج إلى وطنه وهو في أعمال متواصلة يتطلبها الحج؛ ولهذا وصفه ﷺ بقوله: «الحج جهاد لا شوكة فيه»(٢).

وإذا لم يكن فيه نزال ومصاولة بالمعنى المعروف، ففيه ما يعطي الصورة

(١) مجلة الحج- ١٦ ذو القعدة- ١٣٨٠هـ.

(٢) أخرجه الطبراني (٢٩١٠)، وفي الأوسط (٤٢٨٧) من حديث الحسين بن علي رضي الله عنه. وصححه الألباني في الإرواء تحت حديث (٩٨١)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٠٩٨).

لذلك، فهو دروس يتلقاها المسلم في حجه تعده لقتال أعداء الإسلام، وأخذ الأهبة لهم في كل زمان ومكان، ينتقل إليهم دفاعًا عن الإسلام، ويفارق الأهل والأولاد، وكل عزيز في سبيل اللّٰه، كما يصنع ذلك حين يحج حجة الإسلام، أو يتطوع بالحج كلما سنحت له بذلك الفرصة.

ومن أجل هذا الجهاد أو الأعمال التي تعطي الصورة للجهاد قرن رسول اللّٰه ﷺ الحج بالإيمان باللّٰه ورسوله، والجهاد في سبيل اللّٰه؛ وهما في طليعة ما يزلف به المرء إلى ربه من صالح الأعمال، فقال: «أفضل الأعمال إيمان باللّٰه ورسوله، ثم جهاد في سبيله، ثم حج مبرور»[(١)].

غير أن هذه التضحيات المالية والجسمية كثيرًا ما تطلب النفوس الراحة والعافية منها، ويأخذ الشيطان سبيله في التسويف وإغراء النفوس بإرجاء الحج إلى فرصة أخرى، أو إلى زمن يقع الحج فيه عند اعتدال الفصول، بحيث لا يتضرر الحاج من الحر أو القر، أو بغير ذلك من الأمنيات التي تجد لها في النفوس استجابة؛ لأن فيها الراحة، والسلامة من الكد والتضحية، كما قال الشاعر[(٢)]:

حب السلامة يثني عزم صاحبه   عن المعالي ويغري المرء بالكسل

ولقطع حبل التسويف وهداية النفوس إلى الأفضل والأمثل لها لاستجماع وسائل السعادة وغذ السير للحصول على مناهجها واستحثاث الخطى لإدراكها في أقرب فرص الحياة- جاءت التوجيهات الإسلامية بالحث على المبادرة بالحج والترغيب في ذلك والترهيب من الإرجاء والتسويف، متى توافرت الإمكانيات، وتهيأت الفرص، وهي الاستطاعة التي تحدث عنها القرآن، حيث يقول رب العزة فيه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: الآية ٩٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦، ١٥١٩)، ومسلم (٨٣) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه.

(٢) انظر خزانة الأدب ١/ ١٨٧.

وحددها الفقهاء، رحمهم اللّه، حسب اجتهاداتهم، وبما صح عندهم من الأحاديث التي تستنهض الهمم للمبادرة بأداء فريضة الحج؛ ومن ذلك ما روي من قوله ﷺ: «من لم تحبسه حاجة ظاهرة، أو مرض حابس، أو منع من سلطان جائر، ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا أو نصرانيًا»[١]. وجاء في حديث قدسي: إن عبدًا صححت له جسمه ووسعت عليه في المعيشة، يمضي خمسة أعوام لا يفد إليّ إنه المحروم[٢].

ومن ذلك أيضًا قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار فينظروا في كل من كانت له جدة- بكسر الجيم وفتح الدال أي: وفرة في المال، ويسر في الأحوال- فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين[٣]. ومثل ذلك ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كرم اللّه وجهه، ورضي عنه: من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت اللّه ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهوديًا أو نصرانيًا؛ وذلك لأن اللّه تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧][٤].

وإن مما يحز في النفس رغم هذا الوعيد، وهذه الترهيبات التي تقض المضاجع، والنذر التي تسترعي انتباه العقلاء، ويجب أن يلقي لها السمع والقلب

(١) أخرجه البيهقي ٤/ ٣٣٤، وفي الشعب (٣٩٧٩) من حديث أبي أمامة رضي اللّه عنه. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٧٥٤).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٧٠٣)، والبيهقي ٥/ ٢٦٢، وفي الشعب (٤١٣٢، ٤١٣٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٦٦).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور - كما في التلخيص الحبير ٢/٢٢٣ - والبيهقي ٤/ ٣٣٤.

(٤) أخرجه الترمذي (٨١٢) من حديث علي مرفوعًا. وضعفه الألباني. وانظر التلخيص الحبير ٢/ ٢٢٣.

كل رشيد ، مما يحز في النفوس أن تجد أهل الجدة من المسلمين في أعقاب الزمن وأصحاب الثروات الضخمة يولون وجوههم شطر المصايف العالمية ؛ بغية المتعة ، وطلبًا للنزهة ، ولا يولون وجوههم شطر بيت اللَّه وحرمه الآمن ؛ ليؤدوا فريضة اللَّه ، وليقوموا بركن الإسلام الذي لا يسقط عن أمثالهم ولا يصح فيه انتحال الأعذار ، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] وإنما الخسارة للمفرطين حين يجزي اللَّه المحسنين أوفى الجزاء على صالح أعمالهم وقيامهم بفروض ربهم، والتزاماتهم التي التزموها بإسلامهم ، ويبوء المفرطون بالندم ولات ساعة مندم .

والحج وإن كان فرضًا وركنًا إسلاميًا إلا أنه معروف منذ عهد الجاهلية ؛ لأنه من بقايا الملة الحنيفية ملة إبراهيم ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، لكن الإسلام أزال ما أحدثه الجاهليون فيه من الشرك والمنكرات والبدع ، وأبقى ما كان على وضعه من المناسك ، والتي أوضحها رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع أوضح بيان ، حيث كان يقول : « خذوا عني مناسككم ،لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا »(١) . فلم يبق بعد بيانه ﷺ وإيضاحه إلا القدوة والتأسي به ، حيث لم يبق ﷺ للفرقة ولا للاختلاف مثارًا .

فرسم في خطبته في حجة الوداع أسس العدالة وسياسة الإسلام ، وأقام بها موازين العدل كما أوضح فيها، أي : في حجته، للأمة المناسك ففي كل خطوة له في حجته أسئلة من أصحابه عن المناسك يكشف لهم بإجابته وإرشاداته ما أبهم أو استشكل عليهم .

وليس من مكرور القول الإلماع إلى المناسك بكلمة موجزة ؛ تذكيرًا بها وتنويرًا للأذهان عما لعله أن يقع من خلل فيها يجانب به الحاج المشروع والمسنون .

---

(١) تقدم تخريجه .

ولسنا في هذه الإلماعة بمتقيدين إلا بالوارد المنقول من فعله ﷺ عند وصوله إلي مكة في حجته، فقد صح عنه ﷺ عند وصوله إلى مكة في حجته أنه دخلها نهارًا من أعلاها، أي: من ناحية الحجون، بعد أن بات بذي طوى، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل وقصد المسجد الحرام، ودخله من باب بني شيبة، واستقبل البيت، ودعا، وقيل: كان من دعائه ما رواه الطبراني: «اللهم زد بيتك هذا تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة»[(١)]. ولم يركع تحية المسجد؛ فإن تحية المسجد الحرام الطواف، فلما حاذى الحجر الأسود استلمه ولم يزاحم عليه.

قال ابن القيم[(٢)] رحمه الله في نقله لحجة الرسول ﷺ: ولم يتقدم رسول الله ﷺ عن الحجر الأسود إلى جهة الركن اليماني، ولم يرفع يديه، ولم يقل: نويت كذا أو كذا. ولا افتتحه بالتكبير، ولا حاذى الحجر الأسود بجميع يديه، ثم انفتل عنه، وجعله على شقه، بل استقبله واستلمه، ثم أخذ عن يمينه، وجعل البيت عن يساره، ولم يدعُ عند الباب بدعاء، ولا تحت الميزاب، ولا عند ظهر الكعبة وأركانها، ولا وقت الطواف بذكر معين، لا بفعله، ولا بتعليمه، بل حفظ عنه بين الركنين: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[(٣)]. وعندما انتهى من طوافه بالبيت سبعًا جاء خلف مقام إبراهيم وقرأ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة: الآية ١٢٥] وصلى ركعتي الطواف، فلما فرغ من صلاة الركعتين أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه.

ثم خرج إلى الصفا فلما قرب منه قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾

(١) أخرجه الطبراني (٣٠٥٣)، وفي الأوسط (٦١٣٢) من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه. وقال الألباني في الضعيفة (٤٢١٥): موضوع.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٢٢٥.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤١١، وأبو داود (١٨٩٢) من حديث عبد الله بن السائب رضي الله عنه. وحسنه الألباني.

[البَقَرَة: الآية ١٥٨] أبدأ بما بدأ اللَّه ، ثم رقى عليه ، حتى رأى البيت ، فاستقبله ووحد اللَّه وكبره وقال : « لا اللَّه إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا اللَّه إلا اللَّه وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده »[١] .

ثم نزل إلى المروة يمشي ، فلما توسط الوادي أسرع في خطوه ، حتى ارتفع عن بطن الوادي ، ويعرف هذا الموضع موضع الإسراع في السعي بميلين موضوعين بين الصفا والمروة ولما وصل إلى المروة ، صنع عليها ما صنع على الصفا من تكبير وتوحيد ، وأكمل سعيه سبعة أشواط بالمروة .

ثم أمر كل من لا هدي معه أن يحل ، وأن يبقى كذلك إحلالًا إلى يوم التروية ، ولم يحل رسول اللَّه ﷺ ؛ لأنه ساق الهدى .

فلما كان يوم التروية ، وهو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة ، فصعد منى في الضحى ، وأحرم بالحج من كان قد حل من إحرامه يوم قدومه ، وصلى بمنى الظهر والعصر وبات بها حتى صلى الصبح وطلعت الشمس ، فسار منها إلى عرفة ، وكان من أصحابه الملبي ، ومنهم المكبر ، ولم ينكر على أحد منهم ، وقد ضربت له خيمة في نمرة شرقي عرفات ، فنزل بها حتى زالت الشمس عن وسط السماء .

ثم سار حتى توسط وادي عرفة ، ويقال : إن المسجد المسمى بمسجد نمرة ، هو موضع موقفه ﷺ في عرفة ، واللَّه أعلم ، فخطب النبي خطبة قرر فيها قواعد الإسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، ووضع فيها أسس العدالة ، وكانت خطبة واحدة ، فلما أتمها أمر بلالًا فأذن وأقام فصلى الظهر ركعتين أسر فيهما بالقراءة ، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضًا ، وصلى بصلاته كل من كان

(١) تقدم تخريجه .

معه من أهل مكة وغيرهم .

ثم ركب حتى أتى الموقف في ذيل الجبل ، المسمى بجبل الرحمة ، عند الصخرات ، واستقبل القبلة ، وكان على بعيره ، وأخذ في الدعاء والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس ، وقال : « وقفت ها هنا ، وعرفة كلها موقف »[١] . ثم أفاض من عرفة إلى مزدلفة فتوضأ وأمر مؤذنه بالأذان ، ثم صلى المغرب قبل حط الرحال ، وأتبعها بصلاة العشاء بعد حط الرحال بأذان واحد وإقامتين ، ولم يفصل بينهما بنافلة ، وبات بمزدلفة حتى الصباح ، وقد أذن لضعفة أهله أن يتقدموا إلى منى قبل طلوع فجر يوم العيد ، وأمرهم أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس .

ولما طلع الفجر يوم النحر صلى الصبح في أول الوقت ، ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدعاء ، والتضرع ، والتكبير ، والتهليل ، والذكر حتى أسفر جدًّا ، وأفاض منها قبل طلوع الشمس ، بعد أن أعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف .

وفي طريقه إلى منى أمر ابن عباس ، رضي اللّٰه عنهما ، أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات ، وجعل ينفضهن في كفه ، ويقول : « بأمثال هؤلاء فارموا ، وإياكم والغلو في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين »[٢] . فلما كان في بطن محسر أسرع في السير ؛ ذلك لأن هذا الوادي الذي أهلك اللّٰه فيه أصحاب الفيل ؛ الذين قصدوا هدم الكعبة .

ودخل منى من الطريق الأوسط الذي يخرج على جمرة العقبة ، ثم وقف في أسفل الوادي وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ، واستقبل الجمرة فرماها

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢١٥، والنسائي (٣٠٥٧) . وصححه الألباني ، وانظر الصحيحة (٢١٤٤) .

راكبًا بسبع حصيات بعد طلوع الشمس، يكبر مع كل حصاه، ثم قطع التلبية.

ورجع إلى منى فخطب الناس خطبة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وفضله وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب اللَّه، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، إلى غير ذلك مما جاء في خطبته من قواعد الدين وأسس الأحكام، وأخذ الناس يتوافدون عليه يسألونه في المناسك، قال عبد اللَّه بن عمر[1] رضي اللَّه عنهما: ما رأيته سئل يومئذ عن شيء إلا قال: «افعلوا ولا حرج». أي: في تقديم بعض أعمال الحج على بعض أو تأخيرها.

ثم انصرف إلى المنحر فنحر هديه، أو بعضه، ولما أكمل نحره استدعى بالحلاق لحلق رأسه.

ثم أفاض إلى مكة قبل الظهر فطاف طواف الإفاضة، ولم يسع معه.

ثم رجع إلى منى فبات بها، وعندما زالت الشمس في اليوم الثاني بالنسبة ليوم العيد مشى إلى الجمار فبدأ بالجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف، فرماها بسبع حصيات، ثم قام عندها في السهل مستقبل القبلة، وأخذ يدعو طويلًا، ثم أتى إلى الجمرة الوسطى فرماها كذلك، ثم انحدر ذات اليسار مما يلي الوادي، فوقف مستقبل القبلة يدعو قريبًا من وقوفه الأول، ثم أتى الجمرة الثالثة، وهي جمرة العقبة، فاستبطن الوادي يستعرض الجمرة، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، فرماها بسبع حصيات، ولم يقف عندها للدعاء.

واستمر ﷺ يرمي الجمار الثلاث على هذا الوضع، ولم يتعجل في النفر من منى، بل تأخر حتى أكمل زمن أيام التشريق الثلاثة، ثم أفاض منها، ونزل بالمحصب، ومن ثم عاد إلى المدينة بعد أن طاف طواف الوداع. وهذا موجز

(١) كذا، والصواب: «عمرو». والحديث أخرجه البخاري (٨٣) من حديث عبد اللَّه بن عمرو ابن العاص، رضي اللَّه عنهما.

حجته ﷺ على ما ذكره الثقات من العلماء، رحمهم اللّٰه، ممن روى حجته، وفي إنهاج نهجه فيها بعد عن الخطل وارتفاع عن الزلل، وفي الأخذ بها اقتداء واهتداء .. واللّٰه الموفق.



مشاهد الحج[1]

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨] .

[قرآن كريم] .

المشهد في اللغة- بفتح الميم وسكون الشين- : محضر الناس ومجتمعهم، جمعه مشاهد. وعلى هذا المعنى فمشاهد الحج مواضع حضور الناس واجتماعاتهم وتكتلهم لأداء شعائر الحج ومناسكه، والتقائهم عند المشاعر، للقيام بالواجب المشروع من التعبد وذكر اللّٰه تعالى وما إليه.

ويصور هذا المشهدَ تمام التصوير الآيةُ الكريمةُ المصدَّر بها المقال؛ إذ أنها ترسم واقع الحاج في أخذ الأهبة، والاستعداد لسفر طويل الأمد، حيث كانت وسائل المواصلات فيه الضمر من الإبل، والمراكب الخشنة المضنية؛ بعيد الشقة صعب المراس، يعاني فيه الحاج فيما سلف من العهود ألوانًا من المتاعب والصعاب، فهو ينزح من بلده مدفوعًا بالوازع الديني والشعور الصادق لإكمال دينه، وتأدية الركن الخامس المفروض عليه من أركان الإسلام.

ينزح من بلده وقد ودع أهله وذويه وصحبه الوداع الأخير وداع الموت، إذ هو موقن أن لا رجعة إلا أن يشاء اللّٰه، وأنه ملاق حتفه لا محالة، ما في ذلك شك عنده ولا ريب، فمتاعب الحج ومشقاته، بل وأهواله، التي كان يصادفها في سفره حتى يصل إلى البلد الأمين والعنت والإرهاق الذي يعني به كل ذلك لا يترك في نفسه أملًا لرجعة أو طمعًا في إياب بعد طول اغتراب ومعاناة شدائد.

أورد بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: الآية ٢٧] أوردوا قصة طريفة، إن دلت على شيء، فإنما تدل على مبلغ

(١) مجلة الحج- ذو الحجة- ١٣٧٢هـ.

تغلغل الروح الدينية في النفوس واستعذاب المصاعب في سبيل الله واحتساب الأجر عند الله - قالوا : التقى شيخ بآخر في الطواف وقال له : من أين أنت يا أخي ؟ قال له الآخر : من خراسان . قال له ثانية : كم بينكم وبين البيت ؟ قال : مسيرة شهرين- يقصد في العهد الغابر- فرد السائل قائلًا : فأنتم جيران البيت . وكأنه استهان واستسهل مسير الشهرين والثلاثة الشهور لنسبة ما كان يقطعه الحجيج من المسافات الهائلة العظيمة ، ثم سأل الآخر سائله الأول قائلًا : وأنت من أين جئت ؟ قال : من مسيرة خمس سنوات ، ولقد خرجت من بلدي وأنا شاب فاكتهلت ، ثم أنشد :

زر من هويت وإن شطت بك الدار وحال من دونه حجب وأستار
لا يمنعنك بعد عن زيارته إن المحب لمن يهواه زوار[1]

فالحاج إذن بمغادرته مشارف وطنه وتوديعه لمن يحب قد عقد العزم على الهجرة إلى الله في هذا الوجه ابتغاء رضوان الله، وأملًا في أن يحظى بإحدى الحسنيين : إكمال الدين وقضاء الحج وغفران الحوب ، أو ضمان وعد الله تعالى له أن يمنحه أجر الحج كاملًا غير منقوص إذا حال دون تحقيق فرضه الموت وقصر الأجل .

قال بعض المفسرين في تفسير قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٠] قالوا كل هجرة لطلب أو حج أو جهاد أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة أو زهدًا أو ابتغاء رزق طيب فهي هجرة إلى الله ورسوله ، وإن أدرك المهاجر فيها الموت ، فقد وقع أجره على الله ، أي : أوجب الله على نفسه أن يكتب له ثواب تلك الطاعة ، وذلك العمل المبرور ؛ كرمًا منه ، وتفضلًا ، ووعدًا حقًّا ، ومن أوفى

(١) انظر تفسير الثعلبي ٧/ ١٩، وتفسير النسفي ٣/ ١٠١، والمستطرف في كل فن مستظرف ١/ ٢٧٦.

بعهده من اللَّه .

ويبدأ هذا المشهد منذ اللحظة التي يتكتل فيها فريق الحجاج من كل بلد وكل صقع عند المواقيت جماعات ملبين داعين مهللين خاضعين للَّه ربهم متذللين له قد نبذوا الدنيا وراءهم ظهريًا ، وأعلنوا ذلك بتجردهم من ثيابهم ، وحسرهم عن الرؤوس ، وتلبسهم بالطاعات ، واصطناعهم القرب والازدلاف إلى الباري جل وعلا بما يحب . فمن إكثار من النوافل إلى بذل الصدقات والإحسان ، فإطعام طعام ، وإفشاء سلام ، وكف عن أذى ، وطيب حديث ، وحسن صحبة ، إلى غير ذلك مما يعتد به الحاج ، ويقدمه بين يدي حجه كوسيلة لبلوغ القصد ، وكسب رفيع الدرجات ، وعظيم الأجر ، ولكي يكون حجه من قسيم الحج المبرور ، والمعني بقول الصادق المصدوق : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[(١)] . سئل رسول اللَّه ﷺ عن بر الحج فقال : « إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، وطيب الكلام »[(٢)] . وسئل سعيد بن جبير : أي الحاج أفضل؟ قال : من أطعم الطعام ، وأفشا السلام[(٣)] . وفي بعض الآثار عن النبي ﷺ قال : « ما يصنع من يؤم هذا البيت إذا لم يكن فيه خصال ثلاث : ورع يحجزه عما حرم اللَّه ، وحلم يضبط به جهله ، وحسن صحابة لمن يصحب » .

ويصور لنا هذا المشهد بريشة رسام مبدع الإمامُ الصنعاني في منظومته المشهورة حيث يقول :

ولما بدا ميقات إحرام حجنا نزلنا به والعيس فيه أنخناه
ونادى مناد للحجيج ليحرموا فلم يبق إلا من أجاب ولباه

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه الطيالسي (١٧١٨) ، وأحمد ٣٢٥/٣ من حديث جابر رضي اللَّه عنه وعند أحمد بدون ذكر : « وطيب الكلام » . وانظر الإرواء تحت (٧٧٧) ، والصحيحة (١٢٦٤) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٨٨١٦) .

وجردت القمصان والكل أحرموا ولا لبس ولا طيب جميعًا هجرناه
ولا لهو لا صيد ولا نقرب النسا ولا رفث لا فسق كلا رفضناه
وصرنا كأموات لففنا جسومنا بأكفاننا كل ذليل لمولاه
ينادونه لبيك لبيك ذا العلا وسعديك كل الشرك عنك نفيناه
وجوههم غبر وشعث رؤوسهم فلا رأس إلا للإله كشفناه
إلى زمزم زُمَّت ركاب مطينا ونحو الصفا عيس الوفود صففناه
نحج لبيتٍ حجَّه الرسل قبلنا لنشهد نفعًا في الكتاب وعدناه
ولا صدنا عن قصدنا فقد أهلنا ولا هجر جار أو حبيب الفناء
وأموالنا مبذولة ونفوسنا ولم نبق شيئًا منهما ما بذلناه
وكم من طريق مفزع في مسيرنا سلكنا وواد بالمخاوف جزناه
ولو قيل إن النار دون مزاركم دفعنا إليها والعذول دفعناه

أما المنافع المشار إليها في الآية الكريمة من قول الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٨] فهي منافع متنوعة الأغراض مختلفة الهدف؛ فمنها أغراض دينية محضة تتعلق بالعبادة التي يتلبس بها الحاج وتنحصر في طلب المغفرة والرضوان وقبول العمل وتكفير السيئات، وما إليه، وأغراض محضة كتبادل المصالح التجارية، والقيام بعرض ألوان من عروض التجارة، يستصحبها الحاج معه لغرض الربح والتكسب، وأغراض اجتماعية قد تكون في طليعة أغراض الحج وتحتل مركز الصدارة من حيث إنها تحفز إلى التكتل، وتوحي بضرورة إيجاد روح تعاونية بين أقطار الإسلام، تنتظم جميع الأهداف، ويتجه التفكير بها نحو غاية واحدة هي إصلاح شأن المجموعة الإسلامية بطرق تضمن امتداد سلطانها وحفظ النعمة عليها، وإضفاء الأمن والطمأنينة والرخاء على ربوعها، والتمكين لها ورسوخ أقدامها في كل ميادين النشاط الديني والسياسي والتجاري والاقتصادي.

ومن ثم يصح أن يقال : إن الحج مؤتمر إسلامي أكبر ؛ إذ يتيح الفرصة لأكبر قدر من المسلمين من شتى نواحي المعمورة للاجتماع في هذه الرحاب المقدسة الآمنة الوادعة، والتعارف ، وبحث المشاكل العامة ووضع الحلول لها ، ومعاهدة اللَّه تعالى في بلده وجوار بيته على الوفاء بالعهد ، وتحقيق أهداف الإسلام ؛ وبهذا ينطبق عليهم تمام الانطباق ، الوصف النبوي الكريم : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضًا »[١] . « مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[٢] .

بعد هذا الاستطراد نعود إلى بسط بقية مشاهد الحج ..

المشهد الثاني : مشهد تجمع الحجيج وانتظام عقدهم في المسجد الحرام ؛ أقدس بقعة في الأرض ، وحول الكعبة بيت اللَّه المطهر ، وفي رحابه الفسيح ؛ منهم الطائف والعابد ، وفيهم المصلي والعاكف ، والكل متجه بعمله إلى رب واحد ، وخالق واحد ، رب العالمين ، وخالق الكون ومبدعه سبحانه .

والشعور السائد بينهم هو نكران الذات لأبعد مدى والتحلل من الفوارق ؛ فلا أمير ، ولا مأمور ، ولا حسيب ، أو شريف ، ولا وضيع ، أو رفيع . الكل في هذه الرحاب شيء واحد لا سلطان فيها إلا اللَّه الواحد الأحد .

ويصور هذا المشهد جملة آيات من كتاب اللَّه العزيز في عدة سور :

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: الآية ١٢٥] ، وقال في سورة آل عمران : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ

(١) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي اللَّه عنه .

مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: الآية ٢٦]، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٧].

ومجمل تفسير هذه الآيات، وحاصل دلالتها: أن الله تبارك وتعالى أمر عبده وخليله إبراهيم ببناء الكعبة في بلده، وأمره بتطهيره من حيث الحس والمعنى، وشرع الطواف به، والعبادة عنده، وجعل سياجه حرامًا لا يعضد فيه شجر، ولا ينفر فيه صيد، أو يحل فيه قتال وغرس حبه في القلوب، بحيث تلتاع النفوس شوقًا إليه، وتهفو القلوب لذكره، وتحن الأفئدة لقصده، ومعاودة زيارته كلما حان موسم الحج، وانبعثت إليه طلائع الحجيج، إلى غير ذلك مما يطول شرحه واستقصاؤه.

المشهد الثالث: مشهد يوم عرفة واجتماع الحجيج في عرصاتها وانبثاثهم في ميدانها الأفج، ورحباتها السديدة، المترامية الأطراف.

وحسبك بهذا المشهد روعة وجلالًا وبعدًا عن مجالات البهرج والتزييف، وارتفاعًا عن مظاهر الأبهة والفخار، وناهيك بعشية عرفة تلك الأمسية المباركة الخالدة التي لا يضارعها مشهد من مشاهد الدنيا لو قورنت به، أو قيست عليه، وبما يكون فيها من اعترافات، وسكب عبرات، وإلحاف في المسألة، وضجيج بالدعاء وتعرض لنفحات الباري جل وعلا، وفيض كرمه، وعظيم صلاته.

وليت شعري ماذا يكون جزاء الوافد غير الكرامة؟ وماذا يكون حق الضيف غير طيب القرى وجزيل الهبات؟ فأعظم بكرم الوفادة من رب كريم، وأكرم بحسن الضيافة من أجود الأجواد ورب العالمين.

وإن من خير ما يرسم لنا هذا المشهد في غاية الوضوح والدقة، حديث أنس، عن النبي ﷺ قال: «يهبط الله إلى السماء الدنيا عشية عرفة، ثم يباهي بكم الملائكة، فيقول: هؤلاء عبادي جاءوني شعثًا من كل فج عميق، يرجون رحمتي ومغفرتي، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفورًا لكم ولمن شفعتم فيه»(١). وفي رواية أخرى عند الطبراني، أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل يدنو إلى السماء الدنيا عشية عرفة، فيقبل على ملائكته فيقول: ألا إن لكل وفد جائزة، وهؤلاء وفدي شعثًا غبرًا، أعطوهم ما سألوا، وأخلفوا لهم ما أنفقوا، حتى إذا كان عند غروب الشمس أقبل عليهم فقال: ألا إني قد وهبت مسيئكم لمحسنكم، وأعطيت محسنكم ما سأل، أفيضوا باسم الله»(٢).

ولنساير الإمام الصنعاني في ركبه، وهو يستعرض هذا المشهد فيقول:

على عرفات قد وقفنا بموقف ... به الذنب مغفور وفيه محوناه
وبعد زوال الشمس كان وقوفنا ... إلى الليل نبكي والدعاء أطلناه
فكم حامد كم ذاكر ومسبح ... وكم مذنب يشكو لمولاه بلواه
فكم خاضع كم خاشع متذلل ... وكم سائل مدت إلى الله كفاه
وساوى عزيز في الوقوف ذليلنا ... وكم ثوب عز في الوقوف لبسناه
ورب دعانا ناظر لخضوعنا ... خبير عليم بالذي قد أردناه
ولما رأى تلك الدموع التي جرت ... وطول خشوع مع خضوع خضعناه
تجلى علينا بالمتاب وبالرضى ... وباهى بنا الأملاك حين وقفناه
وقال انظروا شعثًا وغبرًا جسومهم ... أجرنا أغثنا يا إلاهًا دعوناه
وقد هجروا أموالهم وديارهم ... وأولادهم والكل يرفع شكواه

---

(١) أخرجه البزار (١٠٨٣ - كشف).
(٢) أخرجه الطبراني (١٣٠٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، بنحوه.

إليّ فاني ربهم ومليكهم لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه
ألا فاشهدوا أني غفرت ذنوبهم ألا فلنسخوا ما كان عنهم كتبناه

المشهد الرابع: مشهد قيام الحجيج في المزدلفة (المشعر الحرام) بعد إفاضتهم من عرفات، وقضاء فترة من الزمن قصيرة في بكور يوم عيد الأضحى عند المشعر في دعاء وتلبية وتحميد وتكبير، وابتهال ورجاء من الله القبول وابتغاء الزلفى والرضوان، ممتثلين في ذلك أمر ربهم، إذ يقول في محكم كتابه العزيز: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٨] ومتأسين بفعل نبيهم محمد ﷺ مجدد الحنيفية؛ إذ وقف بعد أن صلى الصبح عند المشعر، وذكر الله تعالى، وابتهل إليه، ودعا لأمته، فاستجاب الله دعاءه، وقد قال ﷺ: «وقفت ههنا وجمع كلها موقف»[١]. أي: والمزدلفة كل أرضها موقف، فلا حرج من أن يقف المرء منها في موضع نزله ومبيته.

صح من حديث العباس بن مرداس أن النبي ﷺ دعا لأمته عشية عرفة فأجيب أني قد غفرت لهم ما خلا المظالم، فإني آخذ للمظلوم من الظالم. قال: أي رب، إن شئت أعطيت المظلوم الجنة وغفرت للظالم فلم يجب عشية عرفة، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء فأجيب إلى ما سأل فضحك رسول الله ﷺ، أو تبسم، فقال له أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: بأبي أنت وأمي، إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها، فما الذي أضحكك؟ قال: «إن عدو الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائي وغفر لأمتي أخذ التراب وجعل يحثوه على نفسه، ويدعو

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

بالويل والثبور، فأضحكني ما رأيت من جزعه». رواه ابن ماجه والبيهقي[(١)].

وفي هذا المشهد نستمع إلى الإمام الصنعاني، وهو يقول:

أفيضوا وأنتم حامدون إلهكم   إلى مشعر جاء الكتاب بذكراه
وسيروا إليه واذكروا اللَّه عنده   فسرنا وفي وقت العشاء نزلناه
وبتنا به حتى لقطنا جمارنا   وربًا شكرناه على ما هداناه
وقد أقبل الباري علينا بوجهه   وقال أبشروا فالعفو فيكم نشرناه
وعنكم ضمنا كل تابعة جرت   عليكم وأما حقنا فوهبناه
أقلنا كم من كل ما قد جنيتموا   وما كان من عذر لدينا عذرناه
ومنه أفضنا حيثما الناس قبلنا   أفاضوا وغفران الذنوب طلبناه

المشهد الخامس: مشهد عكوف الحجيج بمنى أيام التشريق ولياليه بعد أن نزعوا عنهم لباس الإحرام، وعادوا لبس المخيط، وبعد أن أدوا مناسكهم.

ولا تسل عما هنالك من بهجة وانشراح وتبادل للتهاني وغبطة وانشراح للتوفيق إلى إتمام الحج وبلوغ الأمنية والظفر بالمرغوب.

وأيام التشريق هي أيام أعياد، ومجالات للذكر والتعبد وظروف سعيدة مواتية لتبادل المنافع على اختلاف ألوانها، كما أسلفت في صدر المقال، وأبرز تلك المنافع في هذه الأيام منافع الهدي والأضاحي والاشتغال بها ذبحًا وإطعامًا وتصدقًا وإهداءً وتشريقًا، وما إليه، كما صح الحديث بذلك عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق، عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب» خرجه أهل السنن، وصححه الترمذي[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠١٣)، والبيهقي ٥/ ١١٨، وفي الشعب (٣٤٦)، وهو في مسند أحمد ٤/ ١٤. وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، والنسائي (٣٠٠٤). وصححه الألباني.

وصح عن رسول اللّٰه ﷺ أنه بعث في الحجيج مناديًا ينادي: «إن أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر اللّٰه تعالى، فلا يصومنها أحد»(١).

وهي الأيام المعدودات التي خصها اللّٰه تعالى بالذكر في كتابه، إذ يقول: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٣].

ولعل فلسفة العكوف أيام التشريق بين جنبي وادي منى أن الحاج وقد أمضّه السفر وأضناه طول أمد النقلة والارتحال وأرقه السهاد طوال لياليها وشغلته المناسك عن الإخلاد إلى الراحة، أقول: إن الحاج بعد كل ذلك كان لابد له من لم شعثه، وجمع شتات أمره، ثم التفرغ أيضًا لذبح أو نحر هديه وفديته وأضاحيه، فكانت أيام منى ضرورة لابد منها للأغراض السالفة، وكانت فجاجها وشعابها وسفوح جبالها مجالات واسعة للذبح أو النحر والتشريق، وإلى جانب هذه المهمة شعيرة من الشعائر مفروض أن تؤدى في أوقات مخصوصة وزمن محدد، وتستلزم إقامة معينة، إذ إن عمليتها تتكرر؛ تلك الشعيرة هي رمي الجمار، وتقع في أيام التشريق، فكان هذا غرضًا آخر من أغراض العكوف في منى أيام التشريق.

أما ذكر اللّٰه تعالى الوارد في الحديث السالف فمنه ومن أبرزه التكبير عند ذبح الذبائح، والتكبير في أدبار الصلوات، وعند رمي الجمار، بل التكبير والتهليل المطلق دون تقييد بزمن أو عمل، ولقد صح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه أنه كان يكبر في فسطاطه، فيتجاوب الحجيج التكبير، حتى لقد كان يخيل أن منى ترتج برجع الصدا(٢).

وينتهي هذا المشهد بانتهاء أيام التشريق، إذ ينتثر عقد نظام الحجيج،

---

(١) أخرجه الدارقطني ٢/ ١٨٧، ٢١٣ من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ. وانظر الإرواء تحت حديث (٩٦٤).

(٢) أخرجه البخاري قبل حديث (٩٧٠) تعليقًا، ووصله البيهقي ٣/ ٣١٢.

وتقوض خيامه، فيعود إلى البيت مودعًا، ثم إلى وطنه.

وفي ذلك يقول الشاعر العاطفي كثير عزة:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح!

وشدت على حدب المطايا رحالنا ولا يعلم الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح!

وأجمل منه، وهو ما يحسن أن نختم به هذا المقال بيت البحتري، إذ يقول:

حـج تـقـبـلـه الإلـه وأوبـة كانت شفاء جوى لنا وتذكر[1].



(١) «حاشية» كتبت في آخر المقال، وهي: حاشية- الإمام الصنعاني هو: محمد بن إسماعيل الإمام المجتهد البارز في صنعاء، إمام مسجدها في عهد المنصور أحد أئمة اليمن، له مؤلفات ضخمة عظيمة النفع، منها كتابه: «سبل السلام»، وله شعر جزل سهل التناول منه منظومة في الحج والمناسك التي اقتطفنا منها الأبيات المبثوثة في تضاعيف هذا المقال.

فريضة الحج[١]

فرصة اللقاء الكريم بين الأحبة والإخوان في اللّه ، هي فرصة ذهبية يجب أن لا يسقطها المرء من حسابه ، كلما أشرقت مناسبتها ، أو حان زمانها وأوانها .

وإن من أجل الفرص التي تهيئ للمسلمين المنبثين في جوانب المعمورة اللقاء وتجمع القاصي منهم بالداني ، فرصة الحج إلى بيت اللّه الحرام ، فقد جعله اللّه فريضة لا مناص من أدائها ، وركنًا من أركان الدين ، لا يتم الدين إلا به ، وجعل من أهداف هذه الفريضة ، إلى جانب إقامة شعائر النسك ، تجديد العهد بين المسلمين ، وبل الروابط الأخوية ، وتوثيق الصلات ؛ ليصدر المسلمون بعد أداء الفريضة وإقامة ركن الإسلام ، وقد رسموا في نفوسهم انطباعات ، وصورًا رفيعة للتضامن الإسلامي ، والتكتل لصالح الجماعة ، وليعمل كل فرد منهم ، وهو على ثغر من ثغور الإسلام ، على أن لا يؤتى الإسلام من قبله ، وأن لا ينال من المسلمين أو ينتقصوا من أطرافهم دون أن يكون له شرف الجهاد والتضحية من أجلهم ، فذلك حق الوفاء للإسلام وأخوة الإسلام ، وفي ذلك خطوة لتحقيق العزة التي وعد اللّه ، كتبها اللّه لأهل الإسلام .

بعد هذه المقدمة الوجيزة ندخل في صميم الموضوع فريضة الحج ، محاولين أن نذكر بهذه الفريضة من صرفته عن المعاجلة بأدائها الصوارف وتملك التسويف من نفسه فأرجأ القيام بها عامًا بعد آخر وهو لا يدري أن في مرور السنين حصادًا للعمر وضياعًا لفرصة مواتية كان بها العيش رخاء ، والصحة موفورة ، كما جاء في الحديث : « تعجلوا الحج– يعني الفريضة– فإن

(١) مجلة الحج .

أحدكم لا يدري ما يعرض له »[١] .

ونعقب على هذا التذكير ببسط الواجب فعله على من كتب اللَّه له شرف الوصول إلى بلد اللَّه الحرام من مناسك الحج وأعماله ، وما يباح له ، وما هو محظور عليه إتيانه ؛ ليشعر بالمتعة الروحية في أداء الفريضة ، ويحظى بالأجر كاملًا غير منقوص ، و« الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[٢] . قال اللَّه تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] .

وفي الصحيح عن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت اللَّه الحرام »[٣] . وبالجمع بين الآية الكريمة والحديث ، وما في معناهما ، يتضح أن الحج فريضة فرضها اللَّه على العباد ، وركن من أركان الإسلام يجب أداؤه على الفور أو التراخي ، كما بسط ذلك العلماء رحمهم اللَّه حسب اجتهاداتهم .

أما العام الذي فرض فيه الحج فهو أيضًا موضع بحث ، فقيل : إنه فرض سنة خمس أو ست أو ثمان أو تسع أو عشر . ورجح ابن القيم أنه فرض سنة تسع أو عشر ، ويدلل على ذلك بقوله : إن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود- أي سنة تسع- ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا في أنفسهم مما فاتهم من التجارة مع المشركين لما أنزل اللَّه تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾ [التّوبَة: الآية ٢٨] ونزول هذه

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣١٤، والبيهقي ٤/ ٣٤٠ من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما . وحسنه الألباني في الإرواء (٩٩٠) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري (٤٥١٤) ، ومسلم (١٦) .

الآيات والمناداة بها، إنما كان في سنة تسع وبعث الصديق يؤذن بذلك في مكة في موسم الحج، وأردفه بعلي رضي الله عنه. إلى أن قال: وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف[١].

وقد فرض الحج مع الاستطاعة في العمر مرة؛ رفعًا للحرج عن الأمة وتيسيرًا، كما جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس كتب عليكم الحج». فقام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ قال: «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تستطيعوا أن تعملوا بها، فمن زاد- أي على حجة الفريضة- فهو تطوع»[٢]. وقال لنسائه ﷺ في حجة الوداع: «هذه الحجة ثم الزمن الحصر»[٣]. يريد لا تبرحوا المنزل للحج، فقد سقطت الفريضة بالحجة الواحدة.

وقد رخص رسول الله ﷺ في الحج عن الغير كما جاء في حديث الفضل ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أدركه الإسلام، وهو شيخ كبير لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «أرأيت لو كان عليه دين فقضيته عنه أكان يجزيه؟» قال: نعم. قال: «احجج عن أبيك»[٤]. وثمة روايات أخرى بهذا المعنى، وفيها أن السائل كان امرأة[٥].

ففي هذا الحديث جواز الحج عن الغير مطلقًا، سواء كان قريبًا له، كالابن أو

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٠١.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٠، وأبو داود (١٧٢١)، والنسائي (٢٦٢٠). وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٤٤٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد ٥/ ٢١٩، وأبو داود (١٧٢٢) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه. وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٠١).

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٢١٢، وأخرجه النسائي (٢٦٤٠، ٥٣٩٣) من حديث عبد الله بن عباس. وقال الألباني: شاذ أو منكر بذكر الرجل، والمحفوظ أن السائل امرأة.

(٥) أخرجه البخاري (١٥١٣، ١٨٥٤)، ومسلم (١٣٣٤، ١٣٣٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

غيره، وسواء كان المحجوج عنه كبيرًا في السنّ لا يثبت على الراحلة أو ميتًا، وجواز حج المرأة عن الرجل والعكس أيضًا، ويصح حج الصبي ولا تجزئه عن حجة الإسلام، [قال جابر: حججنا مع رسول الله][(١)] ﷺ ومعنا النساء والصبيان فرمينا عنهم[(٢)]. ونص العلماء، رحمهم الله، أن الرمي كان من الصبيان، أما النساء فلو أنبن من يرمي عنهن لعجزهن فلا محظور في ذلك فما صحت الإنابة فيه جميعه جازت الإنابة في بعضه، وفي حالة طروء الحيض لهن أو احتجاز النفاس لهن، وهن متلبسات بالإحرام، أو عقدن النية على الحج أو العمرة. فالمشروع لهن الإحرام وقضاء المناسك كلها غير الطواف والسعي بالبيت فيؤخرنه حتى يطهرن، كما جاء في حديث ابن عباس وغيره، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «إن النفساء والحائض تغتسل، أي: لأجل الإحرام وإن كان عليها الدم، وتحرم وتقضي المناسك كلها غير أن لا تطوف بالبيت حتى تطهر[(٣)].

وأول ما يبدأ به الحاج من أعمال النسك بعد شرف الوصول إلى مكة: طواف القدوم. وهو سنة على الأرجح، ويرمل في الثلاثة الأشواط الأول ويضطبع فيه- أي: يكشف منكبه الأيمن- وليس للطواف بالبيت دعاء مخصوص، بل يدعو الحاج أو المعتمر بما يجيش في نفسه، وقد أثر عن النبي ﷺ أنه كان إذا مشى بين الركنين أن يقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[(٤)]. نقل ذلك عنه ﷺ غير واحد في حجة الوداع، وأن لا يدع استلام الحجر الأسود مبتدئًا منه طوافه واستلام الركن اليماني، كما جاء في حديث ابن

---

(١) سقط من الأصل، واستدركناه من مصادر التخريج.
(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣١٤، وابن ماجه (٣٠٣٨). وضعفه الألباني.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٣٦٣، وأبو داود (١٧٤١)، والترمذي (٩٤٥). وصححه الألباني.
(٤) أخرجه أبو داود (١٨٩٢) من حديث عبد الله بن السائب رضي الله عنه. وحسنه الألباني.

عمر رضي اللّٰه عنهما أن النبي ﷺ كان لا يدع أن يستلم الحجر والركن اليماني في كل طواف[١] . اهـ .

ضاربًا صفحًا عن فرية المضطغنين على الإسلام، الذين يرون في تقبيل الحجر أو استلامه رواسب من رواسب الوثنية!! فالدين الإسلامي في طليعة أهدافه محاربة الوثنية وهدم كيانها .

قال الطبري[٢] رحمه اللّٰه تعليقًا على قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه ، عندما أراد تقبيل الحجر الأسود : إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول اللّٰه ﷺ يقبلك ما قبلتك[٣] . قال : خشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار ، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية ، فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لرسول اللّٰه ﷺ . اهـ .

وحسب المسلم سعادة أن كان قدوته سيد الخلق ﷺ ، وبعد الفراغ من طواف القدوم يقصد مقام إبراهيم ؛ ليصلي خلفه ركعتي الطواف ، كما صنع رسول اللّٰه ﷺ ؛ ممتثلًا أمر ربه إذ يقول : ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٥] .

ثم يخرج إلى الصفا مبتدئًا سعيه منه ، ويقول في طريقه إليه ما ورد عن النبي ﷺ وهو : «أبدأ بما بدأ اللّٰه به : إن الصفا والمروة من شعائر اللّٰه»[٤] . والصفا جبل صغير يرتفع عليه الحاج حتى يرى البيت ، وقد نصب عليه مدرج ، فلا يصح السعي إلا بالوصول إليه يقول : «لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له له الملك وله

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٨، وأبو داود (١٨٧٦) ، والنسائي (٢٩٤٧) .
(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣/ ٥٤١، والعيني في عمدة القاري ٧/ ١٦٥.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٣٤ - ٣٥، ومسلم (١٢٧٠) .
(٤) تقدم تخريجه .

الحمد وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده »[١] . يقول ذلك ثلاث مرات ، ويدعو بين ذلك ، ثم يهبط ميممًا المروة ، وعندما يبلغ وسط الوادي يسرع في مشيه حتى يأخذ في الارتفاع ناحية المروة ، ويصنع عليها ما صنعه على الصفا من التهليل والتكبير وحمد الله والثناء عليه حتى يكمل سبعة أشواط ، تبتدئ من الصفا وتنتهي بالمروة .

وحكم السعي ركن واجب يجبر بدم على اختلاف في ذلك بين الأئمة ، رحمهم الله .

وبعد الانتهاء من السعي يتحلل المتمتع بالعمرة إلى إحرامه . وعليه دم التمتع ، إن وجده ، وكان لديه من الإمكانيات المالية ما يدفعه ثمنًا للحصول عليه يذبحه يوم النحر على الأرجح ؛ وليوافق بذلك سنة الرسول ﷺ ، وإلا فليصم عشرة أيام ، ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله . وقد نص القرآن والسنة على ذلك- أما القرآن فقد قال تعالى : ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ [البقرة: الآية ١٩٦] .

وأما السنة فقد ورد عنه ﷺ من حديث جابر[٢] رضي الله عنه قال : قدمنا مع رسول الله ﷺ صبح أربع مضين من ذي الحجة مهللين بالحج- ولعله يقصد الأكثرية منهم- فطفنا بالبيت ، وصلينا الركعتين وسعينا بين الصفا والمروة ، ثم أمرنا فقصرنا ، ثم قال : « حلوا » . قلنا : يا رسول الله ، ماذا ؟ قال : « حل ما يحل من النساء والطيب »- وفي رواية أيضًا أنه قال : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي » . حتى إذا كان يوم التروية وأرادوا التوجه إلى منى أهلوا بالحج ، قال - أي - جابر : فكان الهدي على من وجد ، والصيام على من لم

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٣/١٣٦، ١٢١٦/١٤١) ، وأحمد ٣/ ٣٦٦، واللفظ له .

يجد . وكان طوافهم بالبيت وسعيهم بين الصفا والمروة لحجهم وعمرتهم طوافًا واحدًا وسعيًا واحدًا(١) ..

ففي هذا الحديث :

أولًا : الأمر بفسخ الحج إلى العمرة لمن كان قارنًا أو مفردًا ...(٢) أو لم يسق الهدي معه أن يتحلل من إحرامه ويصير متمتعًا ، وقد أخذ به بعض الأئمة كالإمام أحمد .

ثانيًا : أن القارن والمفرد والمتمتع ليس عليهم جميعًا إلا طواف واحد وسعي واحد بنص حديث جابر رضي اللّٰه عنه ...(٢) أما فسخ الحج إلى العمرة ؛ فقد وردت به جملة أحاديث أو كما قال ابن القيم(٣) رحمه اللّٰه : إن بضعة وعشرين حديثًا كلها صحيحة صريحة لا لبس فيها ولا غموض ، ولكن العلماء رحمهم اللّٰه اختلفوا في الأخذ بها .

قال النووي(٤) رحمه اللّٰه : وقد اختلف العلماء في هذا ، هل خاص للصحابة تلك السنة ، أم بأنه لهم ولغيرهم إلى يوم القيامة ؟ ثم أورد رحمه اللّٰه قول الإمام أحمد وغيره : أنه ليس خاصًّا بل هو عام للأمة ، وأورد قول الإمام مالك والشافعي وأبي حنيفة بأن النسخ خاص بالصحابة في تلك السنة ، وموضع تحقيق هذا في كتب الفروع والمناسك وتأليف من عني بذلك ...(٢) (زاد المعاد) وغيره .

ثالثًا : سقوط السعي على كل من القارن والمفرد فهو ...(٢) واضح في جملة أحاديث ؛ منها حديث جابر رضي اللّٰه عنه ولفظه : لم يطف النبي ﷺ بين الصفا

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) كلمة غير واضحة .

(٣) زاد المعاد ٢/١٠٧.

(٤) شرح مسلم ٨/١٦٧.

والمروة إلا طوافًا واحدًا طوافه الأول[١] .

أما سقوط السعي عن المتمتع ، فقد رجحه بعض العلماء منهم شيخ الإسلام بن تيمية رحمه اللَّه ، آخذ بهذا الحديث .

أما الفقهاء ؛ فقهاء المذاهب ، رحمهم اللَّه ، فأثبتوا سعيًا للمتمتع بعد طواف الإفاضة ؛ وهو سعي الحج ، فإن السعي الذي سعاه مع طوافه الأول حين قدومه سعي العمرة ، ولكل من العمرة والحج نسك خاص به لا تندرج مع النسك الآخر ، قال صاحب « بلوغ ...[٢] تعليقًا على قول جابر رضي اللَّه عنه : لم يطف بين الصفا والمروة إلا طوافًا واحدًا .. قال : يعني ﷺ ...[٢] ومن كان معه من أصحابه قارنًا لم يسعوا بين الصفا والمروة إلا مرة واحدة التي كانت عقب طواف القدوم .. أما من كان متمتعًا فقد سعى لعمرته سعيًا آخر لحجه يوم النحر .

ثم في يوم التروية يقصد الحاج منى ويحرم المتمتع في ...[٢] إليها بالحج ، كما جاء في حديث عند مسلم[٣] في حج النبي ﷺ قال : لما كان يوم التروية توجهوا إلى منى- يقصد النبي ﷺ- ومن كان معه من الحجيج فأهلوا بالحج ، وركب رسول اللَّه ﷺ فصلى بها- أي : منى- الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلًا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة ، فسار رسول اللَّه ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا ما زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي - أي : وادي عرنة - الحديث . والصعود إلى منى يوم التروية ...[٢] والمبيت بها ليلة تسع وصلاة الصلوات الخمس ...[٢] صباح عرفة كلها مستحبات لا شيء في تركها .

...[٢] يجمع الحاج في يوم عرفة بين الظهر والعصر ، وإن كان يوم جمعة ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٥) .

(٢) كلمة غير واضحة .

(٣) أخرجه مسلم (١٤٧/١٢١٨) .

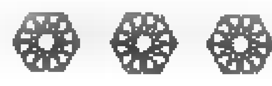
ويقصرهما عملًا بسنة المصطفى ﷺ؛ حيث صنع ذلك في حجة الوداع، ثم يقصد عرفة ويدنو بقدر المستطاع من جبل الرحمة، ويقف في أسفله عند الصخرات؛ مستقبل القبلة، مشتغلًا بالدعاء، والاستغفار، والتضرع، والتلبية حتى تغيب الشمس، والوقوف بعرفة ركن من أركان الحج، بل هو عمدتها لا يصح الحج إلا به لقوله ﷺ: «الحج عرفة»[1]. ولا يتقيد الوقوف بموقف النبي ﷺ، بل حيثما اتفق للحاج أن يقف فلا حرج عليه.. ويتحدد وقت الوقوف بعرفة إما بطلوع الفجر يوم عرفة، عند الإمام أحمد، أو بزوالها عند الأئمة الثلاثة، حتى طلوع الفجر يوم النحر، فمن وقف ما بين هذه الفترة من ليل أو نهار فقد صح حجه عند الأئمة الثلاثة، عدا الإمام أحمد، فإنه لا يشترط أن يجمع في الوقوف بين الليل والنهار، فإن اقتصر على الليل أجزاه، وعلى العكس من ذلك إن اقتصر الحاج على الوقوف نهارًا، ويفيض الحاج من عرفة بعد الغروب إلى المزدلفة فيصلي المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا ويبيت، ثم يصلي الفجر في أول وقتها، ويقصد المشعر الحرام- إن تيسر- وإلا يقف حيث بات ويدعو اللّٰه تعالى ويتضرع إليه إلى أن يسفر جدًّا ثم يفيض إلى منى.

ولا بأس بالدفع إلى منى للضعفة من نساء ورجال بعد منتصف الليل، والمبيت بمزدلفة واجب إلى نصف الليل، من تركه فعليه دم أو سنة لا شيء على من تركه على تفصيل في ذلك للأئمة، رحمهم اللّٰه، ويلتقط حصى الجمار من الطريق.

وفي طريق الحاج إلى منى يعترضه وادي محسِّر فيسن أن يستحث فيه الخطى ويسرع في السير قليلًا، فإذا وصل منى رمى جمرة العقبة بسبع حصيات، ويقطع

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٠٩، وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، وابن ماجه (٣٠١٥)، والنسائي (٣٠١٦، ٣٠٤٤) من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي اللّٰه عنه. وصححه الألباني في الإرواء (١٠٦٤).

عندئذ التلبية ، ثم يحلق أو يقصر ، وينحر أو يذبح الهدي ، إن كان معه ، ثم يفيض إلى مكة لطواف الإفاضة ، وهو ركن من أركان الحج ، ثم يعود إلى منى ويمكث بها أيام التشريق يرمي الجمار الثلاث بعد الزوال ويبيت بها ، فإن تعجل وغادر منى في اليوم الثاني ، وهو الثالث بالنسبة ليوم العيد ، فلا حرج عليه ، وإن تأخر في النفر إلى اليوم الثالث فهو أفضل وأكمل ، كما قال تعالى : ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٣] ورمي الجمار الثلاث والمبيت بمنى ليالي أيام التشريق لغير أصحاب الأعذار واجب يجبر تركه بدم ، وصلى اللّه على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



حج بيت اللّٰه الحرام[(١)]

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

كلما أشرقت على المسلمين أشهر الحج المفضلة: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، يبرح بهم الشوق ويبلغ الحنين إلى زيارة بيت اللّٰه الحرام مبلغًا تتضاءل غراسته كل عزيمة ويتطامن[(٢)] كل مطلب لأي غرض آخر حتى لكأن الدنيا بكل ما فيها من متع ومغريات وتحقيق مطالب وأمال لا تبلغ في نظر المتعلم مبلغ المتعة الروحية واللذة التي يجد حلاوتها ....[(٣)] الراحة فيها وسكون النفس إليها عندما يغدو مواكب الحج يستجلي أنوار البيت العتيق يطوف حوله ويحظى بالأمن الحسي والروحي في رحابه، ويدرك في قرارة نفسه أن لا سلطة لمخلوق عليه، وإنه قد غدا حرًّا طليقًا من قيد كل عبودية إلا العبودية للواحد الفرد الصمد.

وسر دعوة إبراهيم الخليل واستجابة اللّٰه له في هذا الوادي المقدس مكة حرمًا آمنًا تهوي إليه أفئدة المسلمين جميعًا، وإقامة بيت اللّٰه العتيق بين بطاحه للتردد عليه وحجه فرضًا أو تطوعًا، ولتطمئن إليه نفوسهم وتسكن فيه أرواحهم، وتحن إليه قلوبهم، ولا تقضي منه وطرًا، ولو ترددت عليه كل عام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: الآية ١٢٥]، وكما قال، حكاية عن خليله، في دعائه لعقبه من سكان الحرم ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ

---

(١) مجلة الحج - ١٦ ذو القعدة - ١٣٨١هـ.

(٢) طأمن الرجل ظهره، بالهمز على فأعل، ويجوز تسهيل الهمزة، فيقال: طامن. ومعناه: حناه وخفضه. وتطأمن: مطاوع طأمنه، إذا سكن أو انخفض، وتخفف الهمزة فيقال: تطامن. المصباح المنير (اطمأن)، والمعجم الوسيط: (اطمأن).

(٣) كلمة غير واضحة بالأصل.

ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] .

ولا يدرك معنى الآية التي صدرنا بها المقال إدراكًا تتسع به المعرفة ، وتنفسح به مجالات التفكير ويزداد به المؤمن ثقة وإيمانًا بأن اللَّه سبحانه مظهر دينه ، ومعل كلمته ، ومحقق الوعد لخليله ، وأن البيت العتيق لا يفتأ يحجه المسلمون إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها ، لا يصدهم عنه دعايات المبطلين ، وشناشن المغرضين .. أقول : لا يدرك ذلك حق الإدراك إلا من كتب له الجوار في مكة ، أو قسم له متابعة الحج ، فشاهد الحجيج يزدحم بالمناكب حول البيت ، ويملأ حصباء المسجد الحرام وأروقته ، وتسيل به فجاج مكة وشعابها من مختلف أقطار الدنيا وأرجائها في لهجات وأجناس ولغات متباينة متغايرة ، يفدون إلى بلد اللَّه ، كما وصف اللَّه ذلك ، رجالًا وركبانًا ، بشتى الوسائل ، اتحد منهم الغرض وربطت بينهم المنافع والمصالح التي يشهدونها في الحج وبين مواكبه مدة إقامتهم في رحاب البيت ومشاعر النسك ، وفي الفترة السعيدة التي يحيونها ؛ مستظلين بإخوة الإسلام ورابطة الدين ومؤتلفين على الخير مجتمعين على انتهاج مسالكه .

إنها أعظم فرصة ذهبية يجب أن تستغل لصالح الجماعة الإسلامية ، والتوحيد بين صفوفها ، وتجديد الروابط بينها ، وإحكام الصلات ، والقضاء على النزعات والمبادئ الدخيلة الوافدة عليها ، والتي تكون قد تسربت إليها بحكم الاحتكاك والاتصال المباشر باختلاط الناس من مختلف المذاهب والمشارب ، أو بفعل المستعمر البغيض الذي منيت به ، فكان معول هدم في مقوماتها ، وأداة تخريب لكل ما يربطها بالدين ومبادئه ومثله العليا ونظمه الرفيعة التي تضمن للأمة الفلاح وتقيها من التخبط والفشل في كل ميدان من ميادين الكدح والعمل ، وفي كل

مجال للاقتصاد والسياسة والاجتماع والحرب والسلم .

وإن أقطار الدنيا التي تدفع بأفراد الأمة الإسلامية إلى أداء هذه الفريضة والركن الخامس للإسلام من كل من كتب له أن يلبي نداء الخليل ويستجيب لداعي الهدى لا يعنيها أن يعود إليها المسلمون من حجهم وهم على نفس الصورة والوضع الذي فارقوها عليه، ونفس الأخلاق والمناهج والدروب التي كانوا ينتهجونها قبل الحج ، ويسيرون في مسالكها ، بل تتطلع أن يحدث الحج تحولًا ملحوظًا يستبدلون به الذي هو أدنى من مسالكهم ومناهجهم وأخلاقهم بالذي هو خير ، فيعودون من أرض الحرم وقد انصقل جوهرهم ، وصلحت نفوسهم ، وتهذبت مشاعرهم ، وأرهفت أحاسيسهم .

وبهذا التحول والتبدل يكون الحاج خير مثال يحتذى ، وتصبح فيه القدوة ، وبه الأسوة ، ويكون له شيعة يدعون إلى أخلاقه المكتسبة ومنهجه الصالح الراشد والمنزع الجديد الذي نزع إليه في حجه وعاهد الله عليه في جوار بيته ؛ وهو الإخلاص لله في طاعته ، والإخلاص لأخوة الإسلام ورابطة الدين التي وثقها وجدد عهودها على أرض الحرم وفي رحاب البيت المشرف .

أما الإخلاص لله في الطاعة ؛ فإن كل اتجاه يتجهه الحاج في حجه ، وكل عمل يتصل بالنسك يوحي بالإخلاص وتصحيح الوضع وتفرد الخالق بالعبودية ، فالتلبية التي يلتزمها الحاج منذ اللحظة الأولى التي يتلبس فيها بالنسك توحي بإخلاص العبادة للواحد الأحد ، ولقد كان الجاهليون ، وهم يحجون ، لا يخلصون في التلبية ، وإنما يخلطون فيها ويستثنون ويقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك[(١)] .

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان المشركون يقولون : لبيك لا شريك لك . قال : فيقول رسول الله ﷺ : « ويلكم قدْ قدْ »- أي : كفاكم هذا الكلام - فيقولون : إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك . يقولون هذا وهم يطوفون .

فأرشد الله عباده إلى ضرورة الإخلاص في التلبية- وهي شعار الحج- وأن يغايروا أقوال الجاهليين ومنهجهم بقولهم: لبيك اللهم لبيك- أي إجابة بعد إجابة لداعي الخير، يقصد حج بيتك والإخلاص لك في عبادتك- لبيك لا شريك لك لبيك - وهو سبحانه المنزه عن كل شريك المتعالي عن كل ند ...[١] ومثيل، لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه- ويرفع الحاج صوته إعلانًا بالتوحيد وإشعارًا بأنه الذروة في الأعمال والطليعة للعبادة وعلى قدر الإخلاص فيه يتوقف القبول للطواف بالبيت، مظهر من مظاهر الإخلاص في العبادة؛ إذ لا يصح أن يطوف المسلم تعظيمًا ببيت ...[١] أو بقبر رسول أو ولي من الأولياء، أو صالح من الصالحين؛ فإن هذه العبادة خاصة ببيت الله ...[٢] أن يخلص العبد فيها لله وطاعته له، ولا يضاهي الطواف ببيت الله الطواف بقبر أو مشهد أو مزار لأن ذلك نقض لما عاهد العبد عليه ربه بأن لا يطوف إلا ببيته؛ تعظيمًا له، كما أمره، وتشريفًا لمقامه. وفي الوقوف بعرفة وقفة الخائف الراجي الخائف من تبعات ذنوبه وإسرافه على نفسه وتقصيره في جانب الله وتفريطه في حقه، ثم رجاؤه ...[١] ومغفرته، وثوابه وإبداله سيئاته حسنات وإنزاله منازل الرضوان إلى جوار أوليائه- هذه الوقفة توحي بالإخلاص لله في التوجه إليه والتعلق به وإطراح ما سواه واللجوء إليه وحده - وهكذا ذبح الهدي والضحايا على اسم الله وابتغاء الزلفى إلى الله، وتعظيمًا لله- كل ذلك مما يتجلى فيه الإخلاص في أرفع ذراه، فإذا ما درج الحاج على هذا المسلك في بلده بعد أن يرجع من حجه ودعا إليه وكان له شيعة يؤيدون مذهبه وينصرون منهجه ويحتذون حذوه كان بحق ممن رجع من حجه كيوم ولدته أمه، بالإضافة إلى انتظامه في سلك الدعاة إلى الله قولًا وعملًا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ

---

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) كلمة غير واضحة، ولعلها: يجب.

﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٣٣]، وأما الإخلاص في الإخوة الإسلامية ورابطة الدين التي وثقها الحاج وجدد عهدها على أرض الحرم، فإن ذلك لما يتقاضاه ويفرض عليه التزامات هي في واقعها ثمار الإسلام ونتاجه.

ولئن غفل عنها وأهمل شأنها بحكم الحواجز التي وضعت في سبيل تكتل المسلمين وطريق وحدتهم وجمع صفوفهم بفعل الاستعمار وأعوانه، فإنه بعد أن أدرك بوعيه واتصل بجسمه وروحه وقلبه في أرض الحرم بإخوته في اللّٰه شركائه في المنزع والميول والعاطفة لا عذر له في الانعزالية والعيش وحده ولنفسه؛ بعيدًا بعواطفه ونفسه وقلبه عن المسلمين في الوطن الكبير الذي تظله شمس واحدة، بل لا بد له من فعالية يثبت بها وجوده كمسلم وكأخ يشترك مع إخوته في السراء والضراء، ويجاهد إلى جانبهم بكل إمكانياته في مختلف ميادين الجهاد.

ولئن تعذر الجهاد بحد السيف والسنان والمدفع والنزول إلى الميدان، فإن المسلم لن يعدم الجهاد بالقلم، إن كان ممن يحمل قلمًا، فإن وقع الأقلام قد يكون على العدو أشد من وقع السنان. ولقد كان حسان بن ثابت يجاهد بلسانه وينصر رسول اللّٰه ودينه بشعره فأيده الرسول الكريم ودعا له بقوله: «اللهم أيده بروح القدس»[1] فكان ملهمًا يصيب المحز، ولشعره أثر السيف في قمع الباطل وإن كان من ذوي اليسار وأرباب الثروة والمال، فإن عليه أن يجاهد بماله، وإن للمال أثره الفعال في تدعيم النشاط الإسلامي، ورفع نير الاستعمار عن أقطار وأمصار الإسلام، وتركيز المجاهدين في ساحة الوغى، وتثبيت أقدامهم، بما يتابع عليهم من السلاح والعتاد والزاد، وتقوية أملهم في النصر، وإبعاد شبح الهزيمة عن أنظارهم؛ أبرز الأدلة على ذلك معركة الجزائر، التي انتهت بفضل

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣، ٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه، بنحوه.

الله ، ثم تكتل المسلمين وإمدادهم للمجاهدين بالمال حتى كتب الله النصر لهم ، وأثبتوا وجودهم تحت الشمس كأمة من حقها أن تسود ، ومن حق الإسلام أن يعلو ، وأن يظهر على الدين كله ولو كره الكافرون .

أما بعد : فإن في الحج فرصة ذهبية يجب أن لا يفوتها المسلمون دون اغتنامها وكسبها لصالحهم ، وإن أي بلد مهما ارتفع بمغرياته وجاذبيته لا يمكن أن يهيئ للمسلمين الجو المناسب لتدعيم نشاطهم وتوحيد صفوفهم وتكتل جهودهم وحل مشاكلهم وتنظيم صلاتهم ، والجمع لهم بين صلاح الدين والدنيا ، والفلاح في الآخرة والأولى غير بلد الله الآمن الذي تهوي إليه أفئدة المسلمين جميعًا ، والذي خصه الله بمزايا لا تجتمع لغيره ، والذي يستقبله المسلمون في آفاق الدنيا ، ويتجهون إليه بقلوبهم كل يوم خمس مرات ، ولهذا الاتجاه قيمته في النفوس وأثره وفعاليته ، ألا فلتستغل فرصة الحج الجماعة الإسلامية ؛ تحقيقًا للأغراض السامية التي أشار إليها رب العزة ، إذ يقول لخليله إبراهيم : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨] .



البشارة والنذارة(١)

« من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »

للبشارة وقع في النفوس، يفتح لها باب الأمل ويفسح لها المجال لتسير في الحياة بخطوات واسعة وأقدام ثابتة، لا يصدها عن السير أو يقعدها عن تتابع الخطو الأعاصير الهوج أو زمجرة الأحداث .

ألا ترى أن الفأل الحسن يسمعه المدلج وقد أضناه السرى ، فيحفز همته ويقضي على عوامل البلبلة في نفسه ، ويحزم ما تفكك من أمره أو وني من عزمه ؟ ويسمع السائر في المهمة القفر صوتًا يرتفع فيبلغ منه الأعماق قائلًا : أبشر بالبلاغ ، أو سلمت ، أو يا راشد ، أو ما يؤدي هذا المعنى مما يكون له في النفس عظيم الأثر ، ويحمل على التفاؤل ببلوغ القصد ، والوصول إلى الغاية ؛ فيدفعه ذلك إلى المضي قدمًا في طريقه بخطى ثابتة لا تعرف الكلل أو الملل ، حتى إذا شارف القصد وبلغ نهاية الشوط تهلل وجهه لإقدامه وحمد العاقبة ؛ إذ بلغ الأمل دون أن يلحقه ضير ، ولقد كان باعث الإقدام في نفسه وحافز تجديد العزم والأخذ بالحزم في خطته ، ما طرق سمعه من بشارة عارضة حملته على التفاؤل وبعثت فيه الأمل وفتحت أمامه طريقًا لاحبا للوصول إلى الغاية .

والمرء في هذه الحياة يقطع أشواطًا إلى غاية ينشدها وأمل يرغب تحقيقه ، هو السعادة في الحياة الآخرة والوصول إلى أرفع غاية فيها ، وهي دخول الجنة والإمتاع فيها بلذيذ العيش وبرد الراحة بعد الكد والجهد في طريق شائك محفوف بالمخاطر والمفاوز، مملوء بالفتن ومزلات الأقدام .

من أجل ذلك كانت البشائر تترى عليه في أصدق قول ؛ منطوقًا ومفهومًا ،

(١) مجلة الحج - ذو الحجة ١٣٨١هـ.

صراحة أو تلويحًا، لمن يسلك الجدد، ويأخذ في الطريق المرسوم، وسبيل الله لا يبغي فيه العوج، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية ٩٧].

وقد تأتي النذارة إلى جانب البشارة جمعًا بين الترغيب والترهيب ومعالجة للنفوس حسب استعدادها ونزوعها للخير أو الشر، فمن غلب جانب الشر وانخرط في مهاوي الرذيلة ولج في الغواية، وأصر على الطغيان، لا يجدي فيه الترغيب، بل لا مندوحة في استصلاحه ولي عنان نفسه الجموح من استعمال الترهيب، وعرض القوارع وصك أذنيه لوعيد الصارخ؛ ليحدث في نفسه تحولًا واستبدالًا للشر بالخير، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: الآية ١١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

ونهجت السنة المطهرة- سنة خير الورى- نفس النهج في بعث روح التفاؤل في المسلم لتثبيت أقدامه في السير وقطع الأشواط من مراحل الحياة في حزم وعزم ورجاء قوي ببلوغ الغاية الحميدة وإحسان العاقبة؛ من ذلك قوله ﷺ: «بشر المشائين في الظلم بالنور التام يوم القيامة»[١]، «أنا وكافل اليتيم في الجنة

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣) من حديث بريدة رضي الله عنه. وصححه الألباني.

كهاتين». وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى[1]. «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا في الليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[2].

ومن ذلك أيضًا هذا الحديث الذي صدرنا به المقال: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[3]. وفي رواية: «رجع- أي إلى بلده- كيوم ولدته أمه»[3].

وتلك أرفع بشارة يظفر بها الحاج، فيكون له خير عزاء في جهده الذي بذله في الحج والتضحيات التي قام بها، والتي لم تكن محدودة في نطاق معين أو قاصرة على ناحية في الحج دون أخرى، فإن أعمال الحج كلها مما يتطلب تضحيات واسعة المدى يدفع إليها الأمل المرتقب في تحقيق هذه البشارة وطمأنة النفس بالسلامة من تبعات الذنب وتمحيص الخطايا.

فالحاج إذا ارتفع بحجه عن الخدوش، وصانه من الخلل، يبدأ صفحة جديدة ناصعة البياض، مشرقة الجوانب، لم تدنس بمعصية تشبه صفحة المولود يوم ولادته، توحي بحياة جديدة، توائم العهد الجديد، عهد الطهر والصون والعفة والاستقامة؛ العهد الذي استوحاه من حجه، واستمد روافده من هجرته إلى الله، حيث قطع بها عن نفسه الشواغل، واتجه إلى الله، فشع في جوانب نفسه أنوار الهدى وتزود بالتقوى، كما أمره الله، وهي خير زاد وأعظم عدة، وكان من أثر هذه الانطباعات تحول راشد محمود، ونزوع إلى الفضيلة، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير من المسالك والمناهج والأخلاق

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠٤، ٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٢٩٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥١، وابن ماجه (٣٢٥١) من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه. وصححه الألباني.

(٣) تقدم تخريجه.

والعادات، فلم يسطر في صحيفته بعد حجه إلا ما كان له فيه كسب يتضخم به رصيد أعماله الصالحة، ومغنم يبلغ به درجات المقربين وينزل به منازل الصالحين، فأي سعادة تضارع هذه السعادة؟ وأي كسب يظفر به الحاج أعظم من هذا الكسب؟

وإلى جانب هذا الكسب والظفر بهذا المغنم الذي يدخره الحاج لصالحه، الرفعة والأفضلية التي تعقد تاجًا على مفرق الحاج، وتكون له بها الخطوة على غيره، ممن اقتعده العذر وتخلفت به الإمكانيات، ومن آثار ذلك أن يكون مجاب الدعوة، مقبول الشفاعة فيمن يشفع فيه عند ربه.

سأل رجل أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، عن الحج ومزيته وفضله؟ فقال: إن الحاج يشفع في أربعمائة بيت من قومه. وسمع النبي ﷺ رجلًا يقول في الطواف: اللهم اغفر لفلان بن فلان. فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» فقال رجل حملني أن أدعو له بين الركن والمقام. فقال الرسول ﷺ: «قد غفر لصاحبك»[1].

وروي أن النبي ﷺ قال: «اللهم اغفر للحاج، ومن استغفر له الحاج»[2].

وذلك ما يضفي على الحاج لونًا من القداسة ينبثق من عهده الجديد والصفحة الوضاءة التي بدأ يخط فيها الصلاح، ويسجل التقى؛ كولي من أولياء الله الذين منحهم الله البشرى بالأمن من المخاوف والسلامة من مجالب الأحزان، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

---

(١) أخرجه الطبراني (١٢٢٩٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٩: وفيه الحارث بن عمران الجعفري، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٢٥١٦)، والحاكم ١/ ٤٤١، والطبراني في الأوسط (٨٥٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣١٠٢).

الذكر آية الشكر

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٠]

شكر المنعم على نعمه، والاعتراف بمنة المتطول المتفضل، وتقديرها أجل تقدير ورعاية حقها، كل أولئك مما تسوق إليه الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وكلما كانت النعم أكثر شمولًا وأعظم نفعًا وأجلَّ أثرًا وأبرز ثمارًا وجب أن يكون الشكر عليها أعظم، والتقدير لها أكرم وأدوم.

فنعمة الوالدين على ولدهما مثلًا، والمنة التي قلداها إياه هي بالنسبة لمنن الخلق المتبادلة أعظم وأفضل وأكرم، وثمارها لا يحيط الولد بها تعدادًا؛ فهي سابغة عليه منذ النشأة حتى النضوج والاكتمال، بل وبعد ذلك أيضًا، حتى ينسل وينتج نتاجًا، ويغدو في الحياة نجمًا متألقًا؛ ولذلك كان الشكر عليها وتقديرها واجبًا مظهرًا، ومخبرًا عن رغبة وإيمان بضرورة رد الجميل أو بعضه، ومقابلة الإحسان بالإحسان لا بالجحود والنكران.

وإن من أجل النعم وأعظمها قدرًا وأدومها ثمارًا وأجلها أثرًا وأكثرها امتدادًا والتي لا يمكن أن تقاس بنعمة- نعم الله على عباده ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] لذا كان من الواجب المتحتم على العباد أن يقابلوا نعم المولى جل وعلا باستدامة ذكره؛ إيذانًا بشكره، وتقدير نعمه، والاعتراف بفضل المنعم العظيم والرب الكريم، فالذكر آية الشكر.

وإن التوفيق إلى حج بيت الله الحرام، والوقوف على معالم الحنيفية، وقضاء النسك تامًّا، والفرحة ببلوغ الأمل في ذلك، نعمةٌ لا تقدر بثمن.

فحجة الإسلام فريضة العمر يغدو بها الحاج نقيًا طاهر الذيل، معافى من

المآثم ، آخذًا دروسًا عملية في الاستقامة والطهر والصيانة ، لو ختم له على ذلك لكان سبيله إلى الجنة ممهدًا ، لا يخاف ظلمًا ولا هضمًا ، فأي نعمة أعظم وأكمل وأدوم متاعًا من هذه النعمة ؛ ولذلك شرع الذكر بعدها تقديرًا لها واعترافًا بعظمتها ذكرًا كثيرًا ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: الآية ٢٠٠] .

وللذكر مظهر في أيام التشريق هو التكبير والتهليل والتسبيح ، ومنه إهراق دماء الضحايا والهدايا على اسم اللَّه خالصًا ، والتوجه إليه بذلك وحده قربة وعبادة وتعظيمًا وإجلالًا . وللذكر أيضًا مخبر ، وهو ما يضمره المرء في نفسه ، من تقوى اللَّه ، كما قال تعالى : ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: الآية ٣٧] .

وعقد النية على عدم الوقوع في معصية اللَّه ومحاسبة العبد نفسه عند كل بادرة تبدر منه فيغدو في خلوته ، كما هو في جلوته وتلك منزلة المراقبة والإحسان أرفع درجات الدين وأسمى غاياته ، كما جاء في الحديث : « الإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[(١)] .

ومما يعين على بلوغ هذه الدرجة الاستهانة بالمادة والشعور بأنها أخطر مما تنزلق به الأقدام ويعظم بها الحرمان من حظوظ الآخرة . فعلى المسلم الحصيف أن يأخذ بقدر الحاجة ، ويذر منها ما يطغي ويلهي عن الذكر ...[(٢)] واجب الشكر ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] .

نعود فنعرض للتشبيه في الآية تشبيه الذكر بالذكر ؛ ذكر اللَّه بذكر الآباء ، وما الغرض من ذلك ، وهل كانت الرعاية بالآباء لدرجة أن ارتفع الأبناء بذكرهم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه .

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل .

والثناء عليهم أرفع مدرج؟ فأمر الله أن يكون ذكر الناس له كذلك أو أرفع من ذلك؟

والجواب: فيما روي أنه كان للعرب مواقف في الموسم؛ موسم الحج، يمجدون فيها الآباء، ويتمدحون بذكر الأسلاف وحميد مزاياهم، ويفخرون بأنسابهم ويرتفعون بأحسابهم. أما تعيين المواقف فمختلف فيه؛ فمن قائل: كانوا يضعون ذلك عند الجمرة. ومن قائل بمنى بين المسجد والجبل، ومن قائل عند البيت. وليس في اختلاف المواضع تأثير في نفي العمل، فالمفاخرة والتناشد كان واقعًا، ومن ثم جاء الذم وكان تحويل المسلمين إلى الأجدى والأنفع والأحسن عاقبة من صنيع الجاهليين ألا وهو ذكر الله. فروي أن رسول الله ﷺ خطب في حجة الوداع في أوسط أيام التشريق وأرشد إلى ترك مناحي الجاهلية، واتجاهاتها في المفاخرة والمناشدة، وكان من قوله ﷺ فيما يدفع به التفاخر والتعاظم بالآباء والأنساب والأحساب، على ما رواه الإمام أحمد من حديث أبي نضرة قال حدثني من سمع خطبة النبي ﷺ في أوسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، ألا هل بلغت ألا هل بلغت». قالوا: بلغ رسول الله ﷺ[(١)].

وفي ذلك هدم لقواعد الجاهلية، وإشعار بأن التقوى شعارًا ودثارًا هي العصب، وهي المحور، الذي كون به التقدير وبه التفاضل- وكم ضرب الإسلام من أمثال واقعية ليباعد بين المسلمين وبين رواسب الجاهلية وفخرها واعتزازها بالآباء وتمجيدها للقومية وتحزبها للعصبية وليعلن أهله أن أقوى العصبيات والروابط هي صلة الإسلام وإخوة الإيمان.

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤١١. وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٠٠).

وكم كان للسلف رضوان الله عليهم في عصور الهداية والنور من روائع في تفضيل هذه الأخوة والسبق بالإسلام على أي عامل آخر: فتقديم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مثلًا لصهيب الرومي في الصلاة بالمسلمين عندما طعن[١]، وفيهم السادة والقادة من القرشيين أهل الحسب والنسب العريق. وفي الإذن لصهيب وبلال في الدخول عليه قبل أبي سفيان، وسهيل بن عمرو، وتعليله السبب في ذلك بقوله: لقد دعوا إلى الإسلام فأسرعوا وتباطأتم[٢].

في ذلك ما يقرر القاعدة العامة التي وضعها الإسلام والتي أشاد بها رسول السلام في خطبته هذه وغيرها من الخطب التي هدم بها قواعد الجاهلية في العصبيات والنعرات، وقضى على رواسبها إلى الأبد.

نعود لموضوعنا بعد هذا الاستطراد الذي دعا إليه المقام:

وفي معرض الإشارة والتنبيه إلى الضراعة بعد الطاعة؛ لأنه مظنة الإجابة، قسم القرآن فئات الناس حسب ارتفاع هممهم وشريف مطالبهم، قسمهم إلى قسمين:

قسم همه الدنيا وتوفير حظوظه فيها والمتعة بكل ما يروق له غير مبال أوصله ذلك عن حلال وطريق مشروع أم على العكس، حيث لا ترتفع همته لطلب سعادة الآخرة ونعيمها الدائم المقيم؛ لأنه لا يؤمن بما وراء هذه الحياة من بعث وحساب وجزاء وحياة وارفة الظلال أعدها الله لمن أحسن العمل، وكان له من الكسب في الدنيا ما يرتفع به حظوظه في الآخرة، فهو محروم من نعيم الآخرة وثوابها؛ نتيجة كسبه وبعامل من عدم كده وجهده في دنيا الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى

(١) أخرجه أبو يعلى (٢٧٣١)، وابن حبان (٦٩٠٥).
(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص١١٣.

ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٠] .. فالخلاق هو : النصيب والحظ الذي يسعد به ، ويكون عزاءه عن كل حظوظ الدنيا .

وقد ورد عن مفسري السلف في سبب نزول هذه الآية ما يؤيد أن هذه الفئة من الناس- يقصد بها الله المشركين وقومًا من الأعراب كان هجيراهم في الموسم بعد أداء المناسك أن تكون مطالبهم مقصورة على متع الدنيا يقولون[1] : اللهم أعطنا غنمًا وإبلًا وبقرًا وعبيدًا واجعل عامنا عام غيث وعام خصب وعام ولَّاد حسن . فذم الله صنيعهم ونفر الخلف عن التشبه بهم بالوعيد الصارخ والإنذار بأن هذا الفريق الذي استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير لا حظ له إلا ما سأله ، بل بعض ما سأله وطلبه من حظوظ الدنيا كما قال تعالى : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسرَاء: الآية ١٨] .

وأورد بعض العلماء أن هذا الفريق من الناس الذين يستعجلون المتعة ولا يعملون للآخرة موجود في المسلمين يعبر عنه واقعهم ، فإن من لم يكن له من كسبه وحرثه ما يوصله إلى حظوظ الآخرة ونعيمها لا يطمع أن يكون له فيها حظ وافر ؛ إذ لا يستوي في عدل الله العامل والهامل والمجد والخامل ، ومن يكدح للدنيا ابتغاء الحصول منها على أوفر نصيب لا يتورع ، كما أسلفنا القول عن أن يصل إلى ما يريد من المتع بالحرام وركوب الزلل وإهدار حمى المحارم ، فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه على ما كان منه من تفريط ، وإن شاء غفر له وأدخله الجنة ، وكان نصيبه فيها بقدر كسبه وحصيلته من الإيمان والعمل .

الصنف الثاني : وهو الأرفع مقامًا والأفضل كرامة والأشرف مطلبًا ومقصدًا، وهم المؤمنون حقًّا المستشرفون لحظوظ الدنيا والآخرة معًا ، لا حظوظ الدنيا

(١) انظر تفسير البغوي ١/ ٢٣١، وابن كثير ١/ ٢٤٣، والدر المنثور ١/ ٥٥٨، ٦/ ١٣.

منفردة، فهم يعملون لكلتا الحياتين لعمارتهما، وكسب لهنيئة العيش فيهما، وإن كان كسبهم للآخر أجل وأرفع، وعملهم لها أكبر وأعظم؛ لاعتبارهم أن الدنيا ما هي إلا جسر ومعبر يعبرون به إلى الآخرة.

وقد نوه الله عنهم، ووصف مطالبهم، معقبًا بالوعد الكريم والجزاء الأوفى وتحقيق أغراضهم ومقاصدهم تفضلًا منه وكرمًا. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢]

وتصوير الحسنتين واقعًا مختلف فيه بين السلف حسب نظرة كل منهم إلى ما تكون به المتعة وتتم به السعادة. فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكرم الله وجهه، أن الحسنة في الدنيا: المرأة الصالحة[١]. يؤيده حديث: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»[٢]. والحسنة في الآخرة نقل عنه: أنها الجنة، وما فيها من الحور العين[٣]. وعن الحسن: أن الحسنة في الدنيا العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنة والنظر إلى وجه الرب الكريم[٤].

وعن بعض مفسري التابعين: الحسنة في الدنيا: الرزق الحلال، والعمل الصالح، والحسنة في الآخرة: المغفرة والثواب.

ودرج ابن كثير رحمه الله الأقوال وأجملها بقوله[٥]: جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره ٢/ ٤٣٢، وقال بعده: وهذا فيه بعد، ولا يصح عن علي. وذكره الألوسي في روح المعاني ٢/ ٩١.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) تقدم تخريجه.

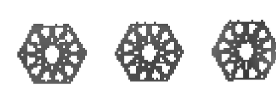
(٤) أخرجه الطبري ٤/ ٢٠٥، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٧٩)، وصححه ابن حجر في الفتح ١١/ ١٩٢.

(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٢٤٣.

دنيوي من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل إلى غير ذلك أي مما يتم به نعيم الدنيا وسعادتها ، وأما الحسنة في الآخرة فأعلى درجاتها دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة .

وأما النجاة من النار فيقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام ، وترك الشبهات والحرام ، ولبعض السلف قول موجز في إيضاح الحسنتين والظفر بالخلاص من النار قال : من أعطي قلبًا شاكرًا ، ولسانًا ذاكرًا ، وجسدًا صابرًا ، فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقي عذاب النار[1] .

أما بعدُ ، فإن ذكر اللّه المتواصل ، وخاصة بعد أداء الطاعة ، والفراغ من العبادة ، وسيلة للقبول ، وعامل على الطمأنينة ؛ للحصول على أجر الطاعة بعد بذل الجهد فيها ، والإخلاص في أدائها ، فالأجر ثمار الكسب ، ومن الثمار ما يكون معجلًا ؛ ولذلك كان الدعاء بطلب الحسنة في الدنيا من الثمار المعجلة التي يتم بها الإمتاع إلى جانب الثمار المؤجلة في الآخرة والوقاية من النار . سأل قتادة أنسًا رضي اللّه عنه قال : أي دعوة كان أكثر ما يدعو بها النبي ﷺ ؟ قال : أي- أنس : يقول : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »[2] .



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٨٢) عن القاسم بن عبد الرحمن .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦/٢٦٩٠) من طريق قتادة به .

ذكرى وأمل(١)

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٩٦]

توطئـة

ينتهز الأستاذ الأنصاري صاحب مجلة (المنهل) هذه الفرصة السعيدة فرصة تجمع الحجيج في هذه الرحاب؛ لأداء المناسك، فيصدر عددًا ممتازًا من مجلته، ليعطي صورة واقعية واضحة، ويرسم فكرة صادقة ملموسة عن حاضر هذا البلد الأمين، وعن الخطوات التقدمية المطردة التي خطاها في ظل الحكم السعودي الرشيد، والنهضة المباركة الغامرة الشاملة لكل مرفق حيوي وكل مصلحة من شأنها رفع سمعة البلاد، وحفظ كرامتها، وإنعاشها أدبيًّا، وثقافيًّا، وماديًّا، واقتصاديًّا، وسياسيًّا.

وإنها لمناسبة جميل أن نهتبل فرصتها، وأن لا نسقطها من حسابنا فندعها تمر دون أن نسجل فيها للملأ من جميع ديار الإسلام على صفحات هذا العدد الممتاز البارز من مجلة (المنهل) بل كل صحفنا المحلية ومجلاتنا، متعاونين متساندين، علماء، وكتَّابًا، ومتأدبين، نسجل أروع الذكرى لهذا البلد الطيب الذي طاول الزمن، وغالب الأحداث، وعاش كما أراد اللّه له آمنًا مطمئنًا خالدًا بمعاشره ومآثره، بعيدًا عن كل المؤثرات والنزعات، مرتفعًا عن أي لون من ألوان الحزبية والدعاوى العنصرية والقبلية وعلل الجنسية ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: الآية ٢٥].

وعظيم جدًّا أن نساهم أجمعنا كتَّابًا ومتأدبين، كلٌّ بقدر إمكانياته، وفي

(١) مجلة الحج - محرم - ١٣٧٢هـ.

حدود نشاطه، نساهم في رد فرية المفترين، ودحض شبه المدعين، وكشف أباطيل المبطلين، وإفك الأفاكين المغرضين عن هذا البلد الأمين، فذلك دَيْن يتقاضانا إياه هذا الوطن الحبيب، وذلك حق واجب في عنقنا مفروض أن نؤدبه ونسلك السبيل إليه.

بعد هذه التوطئة التي لابد منها أعود إلى موضوع الآية المصدر بها المقال، إذ هي الهدف، وهي الحافز على هذه الجولة القلمية، والباعث على التحدث عن البيت الحرام بيت اللّه المبارك الذي جعله اللّه مثابة وأمنًا وهدىً للعالمين.

هذا البيت المعظم قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وملتقى الجموع من أقاصي الدنيا، ومجمع عباد اللّه من نواحي المعمورة، ومحط أنظارهم، ومنتهى أملهم؛ أبيضهم، وأحمرهم، وأسودهم، وأصفرهم، أميرهم، ومأمورهم، عظيمهم، وحقيرهم.

في جوار هذا البيت تتكوَّن الصلة، وتنعقد الأواصر، وتتوثق الوشائج بين هذه الجموع الزاخرة، ويسود بينهم الوئام، وتتجلى الألفة والمحبة، وينسجم الجمع تحت شعار الإسلام وكلمة الإخلاص وشهادة الحق لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، تنساب من قلوبهم المؤمنة الصادقة؛ إيذانًا بالوحدة، وإعلانًا للتحرر من عبودية غير اللّه، كائنًا من كان، وتبرئة من طأطأة الرؤوس، والانحناءات المشينة للمخلوق، والتعلق به دون الخالق، أيًّا كان وضعه ومنزلته؛ ملكًا في السماء، أو نبيًّا بين الأنبياء، أو صديقًا ورجلًا صالحًا، أو وليًّا رفيع الدرجات والمنزلة عند اللّه.

في كل مظهر من مظاهر الحج، وكل مجال من مجالاته، تتجلى روعة هذه الكلمة، ويظهر أثرها بارزًا ملحوظًا، ففي الطواف بالبيت واستلام أركانه معنى من معاني التوحيد وتحقيق كلمة الإخلاص.

وفي أداء الشعائر والتلبس بالطاعات من تجرد عن الثياب ، وحسر عن الرؤوس ، وذل وتضرع في موقف عرفات ، فرمي جمار ، وذبح أو نحر وما إليه .. في كل ذلك مظهر العبودية لرب العباد وبارئهم وإفراد له بالعبادة وحده دون سواه- تلك العبودية هي علة هذا الوجود وهدفه الأسمى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] .

وهي الملة العادلة ملة إمام الحنفاء واضع قواعد هذا البيت المبارك بمكة ، وراسم أسس الشعائر الإسلامية بأمر الله حنيفًا ، والذي وصفه الله تعالى بجملة من نعوت الشرف والتكريم في محكم كتابه ، وأمر نبيه وحبيبه محمدًا ﷺ بانتهاج نهجه واتباع رسمه ، فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣] .

فالبيت الحرام هو الرمز الخالد لهذه الديانة الإسلامية وشعائر الدين الحنيف ، وهو الأثر العظيم البارز لرافع قواعده ومرسي بُنيانه خليل الله إبراهيم عليه أفضل صلاة وتسليم .

وفي القيام بتأدية شعائر الملة على سنن إبراهيم على مر الأجيال والحقُب تجديد للذكرى الخالدة ؛ ذكرى بناء البيت ، وتخليدٌ لمبدأ الوحدة للواحد الأحد الذي تدور عليه كل شعائر ومعالم الحنيفة ، وأملٌ باسمٌ باستعادة مجد الإسلام الغابر ، ما فتئ الوازع الديني مهيمنًا على النفوس ، وما دامت مشاعر الإسلام ومشاهد الحج ماثلة قائمة ترمز إلى ذلك الماضي الناضر .

يقول المفسرون في نزول الآية التي نحن بصدد التحدث عنها : إن لجاجة

وقعت بين المسلمين واليهود في تفضيل بيت المقدس على الكعبة ؛ إذ إنه قبلة الأنبياء ومهاجرهم ، وإنه أرض المحشر ، إلى غير ذلك من وجوه المفاضلة والتمييز ، فأنزل اللّٰه تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٦] الآية .

ونحن لا يعنينا من أمر هذه المفاضلة شيء بقدر ما تعنينا معرفة الحكمة من اتخاذ هذا البيت في هذا الوادي الممحل غير ذي زرع ، وجعل الأفئدة تهوي إليه ، وتسكن لرؤيته ومعاودة قصده ، والتردد عليه .

والحكمة ، واللّٰه أعلم ، هي الفرار إلى اللّٰه ، ومغالبة النفس للعود إلى حياة الفطرة المبسطة العارية عن كل مجالات الزخرف والمباهج ، ونزعات المادة ، والتمرس على ذلك في هذه البقاع البدائية الفطرية ، وفي هذا الجو الروحي الفياض بكل معاني المثالية من زهد وتقشف ، وتحمل المتاعب والتضحية بحظوظ النفس المباحة في سبيل اللّٰه ، رغبة فيما عنده ، ليكون ذلك درسًا عمليًّا ناجحًا في مجابهة الصعاب والتضحية ، وبيع النفس في سبيل المثل العليا والواجب المفروض .

ثم إن الرحلة إلى البيت وبقية المشاعر ، تُعطي صورة رمزية لعالم آخر ، وحياة تشبه إلى حد كبير صورًا ومرئيات في حياتنا الحاضرة ، انطبعت صورها في الأخيلة ، والغرض من أعطاء هذه الصورة هو دوام التذكر أبدًا ، والبعد عن الغفلة ، وعدم الركون إلى الدنيا ، وأخذ العبرة للاستعداد ، والتشمير عن ساعد الجد للتزود من الباقيات الصالحات ، وادخارها لحياة سعيدة ، وعيش رغيد طويل الأمد لا يفنى ولا يبيد .

فالحاج إذ يسلك في طريقه إلى الحج المفاوز ويجتاز المخاوف والصعاب لا يكون له ما يسلِّيه ويروح عنه ويربط جأشه في رحلته حتى يبلغ مأمنه إلا ما أعده

من مال وكراع[١] وإلا ما ادخره من زاد ومزاد[٢] فهو يشبه بذلك من يفارق دنياه وحيدًا فريدًا لا أهل ولا مال ولا زاد أو مزاد يؤانسه في وحشته إلا ما ادخره من عمل صالح وإلا ما سعى إليه من كل مناحي البر وأوجه الخير. ومثل ذلك تجرده عن المخيط كتجرده عن ثيابه للغاسل عند الموت. وكون الحاج أشعث أغبر يشبه خروجه من القبر إلى المحشر حيران لهفان مندهشًا ينفض عنه غباره.

ووقوف الحجيج (في عرفات) كوقوفهم في (عرصات) القيامة؛ آمنين، راغبين، راجين، وهم بين شقي وسعيد، ومقبول ومخذول.

وتعرضهم للهاجرة وحمَّارة القيظ في عرفات كتعرضهم للفح الشمس وغمرة العرق في المحشر.

وإفاضة الحجيج من عرفات كإرفضاضهم[٣] من الموقف في القيامة بعد الفصل والقضاء.

ولبثهم في منى كلبث المذنبين وانتظارهم لشفاعة الشافعين.

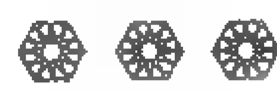
والبيت الحرام هو نهاية المطاف وخاتمة الموقف، وقد أمَّن اللّه قاصده من الأذى والمقاتلة، كما أمَّن من أنعم عليه بالجنة من الفزع والمخاوف والفناء وزوال النعيم.

وهكذا كانت رحلة الحج تشبه إلى حد كبير الرحلة إلى الآخرة ومشاهدها، ترمز إلى مشاهد الآخرة، مع شيء من الفارق في الشكل والموضوع، وهي ذكرى للذاكرين، وأمل للطامعين والراغبين. والبيت الحرام محورها والرمز الخالد لشعائر الدين، ومن ثم كان هدىً للعالمين، وفيه الآيات الواضحات على حرمته، ومزيد فضله، وتعظيمه، وتوقيره، ومن التعظيم والتوقير أن جعل اللّه له

(١) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير، وكراع كل شيء طرفه.
(٢) المزاد: جمع مزادة، وهي القرب.
(٣) كذا بالأصل: ولعلها: «كإفضاضهم».

حمىً لا يستباح حريمه وهو (الحرم) كله لا يعضد فيه شوك ، ولا ينفَّر فيه صيد ، ولا تلتقط لقطته إلا بالتعريف أبدًا ، ولا يُختلى خَلاه . بذلك صح الحديث عن ابن عباس ، عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال يوم فتح مكة : « إن هذه البلد حرَّمه اللّٰه يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة اللّٰه تعالى إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد فهو حرام بحرمة اللّٰه تعالى ؛ لا يُعضد شوكه ، ولا ينَّفر صيده ، ولا يختلى خلاه »[1] .

ولقد كانت العرب في جاهليتها تعرف له هذا الحق وهذه الحرمة ، فكان الجاني إذ يهرع إلى البيت عائذًا لا يعرض له أحد بسوء ، أو يكدر صفو عيشه ، ويهيض جناحه ، فإذا كان ذلك كذلك فأحر بنا ، وقد أورثنا اللّٰه تعالى هذا التراث الخالد ، أن نحسن الجوار ، وأن نقدر هذه النعمة حق قدرها ، فننصرف إلى شكرها ، ونعمل على استدامتها بالدعوة إلى كل ما هو جميل من قول أو فعل ، وتخلق بخلق كريم ، وتحل بفضيلة ، واللّٰه الموفق ، والهادي إلى سواء السبيل .



(١) أخرجه البخاري (١٥٨٧، ٣١٨٩) ، ومسلم (١٣٥٣) .

في الحج[(١)]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٧-٢٩] .

تمهيد :

إن مما يثلج الصدر أن تتجاوب أقلام الكتَّاب على صفحات هذه المجلة وزميلتها (المنهل) فتعالج مختلف الأبحاث نتيجة لدراسات عميقة وكإرهاص لنهضة واسعة الأشواط متلاحقة الخطى تستعيد بها البلاد مكانها ، وتسترد زعامتها الدينية ؛ إذ كانت مهبط الوحي ، وشع منها نور الهداية ، وانبثق فيها فجر الإسلام .

وإن في بداية ما يجب أن ترتكز عليه هذه النهضة المباركة كدعامة وكدستور هو كتاب الله ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفي الصدر الأول ، وخير القرون الأسوة الحسنة ، فلقد حملوا إلى أقاصي المعمورة ضوءًا من هدى الكتاب ونوره ، حين كانوا يهتدون بهديه ، ويستلهمونه الكشف عن أقوم السبل ، فغدوا به نجوم الهداية ، وأئمة الرشاد ، وساسة العالم ، فيهم القدوة وعلى نهجهم بحب المسير .

وكوسيلة ومحاولة لتدبر الكتاب العزيز وفهمه والعمل به أعمد إلى تبسيط في الشرح لبعض معاني آياته الكريمة مبتدئًا بما سردته منها آنفًا لمناسبة دنو موسم الحج المبارك ، مسترشدًا بأقوال المفسرين من السلف وآثارهم ، رضوان الله

(١) مجلة الحج - جمادى الآخرة - ١٣٦٨هـ .

عليهم ، آملًا أن أكون عند حسن الظن فأوفق للاستمرار في هذه المحاولة ، ومن اللَّه أستمد العون ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم .

التفسير : أورد الحافظ ابن كثير وغيره من المفسرين عند تفسير الآيات الآنفة الذكر قصة إبراهيم الخليل عليه السلام عندما أمر بنداء الناس ودعوته إياهم لحج البيت قال : « يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ قال : عليك الأذان ! وعلينا البلاغ »[(١)] . عندئذ قام عليه السلام على المقام ، وقيل : على الحجر ، أو على الصفا ، أو على (أبي قيس) على تعدد في الروايات ، وقال : « أيها الناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه » .

فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب اللَّه له أن يحج إلى يوم القيامة : « لبيك اللهم لبيك » .

ومعنى الآيات : أذن في الناس يا إبراهيم ، وناد فيهم ليقصدوا البيت الحرام الذي أمرتك ببنائه ، ويزوروه علي قدر الاستطاعة ؛ مشاة على الأرجل ، أو راكبين على الإبل والخيل الضوامر . وهذا عندما كانت وسائل النقل هي الإبل وغيرها من دواب الحمل ، وقد ذللت المواصلات ووسائل النقل الحديثة من بواخر وقطارات وسيارات وطيارات مهمة الحاج فيؤدي النسك دون مشقة أو عنت ، قادمين من كل قطر وطريق بعيدة ؛ ليحضروا ويصيبوا من منافع دنيوية مادية ، كتمتعهم بنحر البدن ، وذبح الذبائح ، والانتفاع بها ، وتعاطيهم التجارات المشروعة ، والتكسب بالحلال .

ومنافع أخروية روحية كحط الأوزار ، وغفران الذنوب ، والفوز برضاء اللَّه

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٦.

ورضوانه ، وحسن ثوابه وجزائه .

ومنافع اجتماعية كجمع الكلمة ، وتوحيد الصفوف ، ولمَّ الشعث ، والتساند وتجديد الروابط ، وتضافر الجهود ، والتشاور فيما يعود على المجموعة الإسلامية بالخير والصالح العام . وغير ذلك من منافع قد تضيق بتعدادها السطور .

وليمجدوا اللَّه تعالى ، ويحمدوه في أيام معلومات ؛ هي على قول أكثر المفسرين : العشر الأول من ذي الحجة ، وقيل : إنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، نقل هذا عن ابن عباس[1] ، وقد وردت في فضلها أحاديث كثيرة منها : ما روي عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « ما من أيام أعظم عند اللَّه ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر ، فأكثروا فيها من التهليل والتكبير والتحميد »[2] .

وقال ابن جرير رحمه اللَّه في تفسير « معلومات » : قيل لها معلومات : للحرص على علمها بحسابها من أحل وقت الحج في آخرها .

فتمجيد للَّه تعالى وحمده في هذه الأيام المفضلة على آلائه ونعمائه قربة من أجل القرب ، وباب من أبواب البر ، وكذلك شكره والثناء عليه على تسخيره ورزقه إياهم هذه الأنعام من إبل وبقر وغنم ، للذبح منها هدايا ، وأضحية ، وفدية ، والأكل منها- على تفصيل للعلماء مبسوط في كتب الفروع ، وتفريق في الجواز بين الأكل من الأضاحي ، ودم المتعة والقرآن ، وفساد الحج وجزاء الصيد ، وقد ندب سبحانه وتعالى العباد للإحسان إلى ذوي الحاجات من فقراء متعففين وزمنى وبؤساء مضطرين بإطعامهم، مما رخص في الأكل منه من الذبائح ؛ لما في ذلك

---

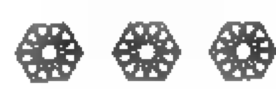
(١) أخرجه البخاري قبل حديث (٩٦٩) تعليقًا . ووصله عبد بن حميد في تفسيره - كما في تغليق التعليق ٣٧٧/٢ - والطبراني في فضل عشر ذي الحجة (١٦) ، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٣٢٧٦) ، وصححه الحافظ في الفتح ٢/ ٤٥٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٧٥. وانظر الإرواء تحت حديث (٨٩٠) .

من شمول الرعاية لهم والعطف عليهم والتحبب إليهم مما هو من مقاصد الشرع وبه ضمان الألفة .

فإذا ما أدوا مناسك حجهم فليحلوا من إحرامهم بحلق الشعر أو تقصيره وتقليم الأظافير والإتيان بسنن الفطرة ، وليزيلوا ما علق بهم من درن وتشعث وعرق ، وليلبسوا الثياب ، وليتحللوا من نذورهم بقضائها والوفاء بها كنذور الحج والهدى ونحو ما سيق من البدن- وقيل : المراد الوفاء بما نذر على ظاهره . وقيل : نذور الحج أعماله ، فكل من دخل في الحج فعليه من العمل فيه : الطوائف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، ووقوف عرفة ، والمبيت بمزدلفة ، ورمي الجمار على ما أمروا به .

ثم ليؤتوا البيت يوم النحر أو بعده ؛ لطواف الإفاضة ، إذ به تمام المناسك . قال ابن كثير[1] رحمه الله تعالى : هكذا صنع رسول الله ﷺ ؛ فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه ، وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت .



(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٨.

في الحج[1]

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٠-٣٣].

معنى الآيات: الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم ذكره في الآيات السابقة من أعمال الحج والمناسك وما ترتب عليها من الأجر العظيم والفوز لمن سارع في مرضاة ربه وتقرب إليه بوجوه البر في موسم ومن أعظم مواسم القيادة! وفي أيام بها جماع الخير.

و﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: الآية ٣٠] قيل في تفسيرها: محارم الله ومعاصيه، وما لا يجوز انتهاكه ويعظم في النفس مفارقته؛ ككبائر الذنوب. وروى البغوي في تفسير (الحرمات): أنها مناسك الحج. بدليل ما يتصل بها من الآيات. وأورد قولاً آخر: أنها البيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمسجد الحرام. (والإحرام) وتعظيم الحرمات على مذهب من يرى أنها المعاصي والمحارم: عدم التفكير فيها والهم بها وصرف الخواطر عنها وترك ملابستها، وعلى مذهب من يرى أنها المناسك: نداؤها على الوجه الأكمل المشروع دون ما زيادة أو نقصان أو ابتداع أو إتيان بمحظور يخل بها. وعلى مذهب من يرى أنها البيت الحرام والبلد الحرام وو ...[2] واستشعار عظمتها بما يدعو إلى كبح جماح النفس عن انتهاك

(١) مجلة الحج - ذو القعدة وذو الحجة - (٣، ٥، ٦) - ١٣٦٨هـ.

(٢) كذا بالأصل.

حرماتها مما يكون فيه الإثم والوقوع في الزلل ، وبه تستوجب النقمة .

وعلى أي الاعتبارات في تفسير « الحرمات » فإن في تعظيمها الخير الكثير والإمتاع في دار الخلود ؛ فضلًا من اللّٰه على عباده ، وعطاء غير مقطوع ، ولا ممنوع ، لقاء ضبط النفس عن اتباع الهدى وسلوك سبيل الغواية . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

ومن عظيم فضله سبحانه وسابغ نعمه أن أحل لنا الأنعام : إبلًا ، وبقرًا ، وغنمًا ، ووسع علينا دائرة الانتفاع بها لحمًا وشحمًا وأصوافًا وأوبارًا ، وحرم ما قصه في الآيات من سورة المائدة ؛ كالميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، مما عساه أن تستقذره النفوس ، أو فيه مضرة للدين أو البدن ، أو خطر على الحياة الاجتماعية العامة ، أو توهين للعزائم وإرجاف بها كاستسقاء الأزلام .

وأمر سبحانه باجتناب الرجس الذي هو الأوثان في قول أكثر المفسرين ، والأوثان : كل ما عبد من دون الله، واجتنابها : ترك عبادتها والتقرب إليها بأي لون من ألوان العبادة .

جاء في المجلد العاشر من دائرة المعارف لفريد وجدي في مادة (وثن) ما نصه : فما إقامة التماثيل للقديسين ، ونصب الأحجار والشواهد على قبور الصالحين ، وإيقاد السرج حولها ، والتطواف بها ؛ التماسًا للبركة ، إلا ضربًا من ضروب الوثنية » . انتهى .

وأمر سبحانه باجتناب قول الزور– هو الكذب والبهتان والباطل ومنه شهادة الزور التي بها خراب البيوت وفيها الهلكة وكفى بقول الزور إثمًا عظيمًا أن قرنه اللّٰه بالشرك الذي هو أكبر الكبائر وأعظم ذنب عصى اللّٰه به في الأرض . أورد الحافظ ابن كثير[1] عند تفسير آية ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾ [الحج: الآية ٣٠]

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٩.

الآية . حديثًا عن أبي بكرة ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلى يا رسول اللَّه قال : « الإشراك باللَّه ، وعقوق الوالدين » . وكان متكئًا فجلس ، وقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » . فما زال يرددها حتى قلنا : ليته سكت[1] . وأورد حديثًا عن الإمام أحمد[2] يرفعه إلى النبي ﷺ قال : قام رسول اللَّه ﷺ خطيبًا ، فقال : « يا أيها الناس ، عدلت شهادة الزور إشراكًا باللَّه » . انتهى .

وأتبع سبحانه الأمر باجتناب عبادة الأوثان وقول الزور بقوله : ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: الآية ٣١] أي : بالأقلاع عن الأوثان ، واجتناب قول الزور تكونون والحالة هذه مخلصين له الدين ، خالعين ربقة الشرك ، متحللين من أوهامه وجهالاته ، منحرفين عن طريق الباطل الملتوية إلى طريق الحق الذي لا اعوجاج فيه ، ثم ضرب اللَّه المثل للمشرك في غوايته وضلاله وإهلاكه نفسه وبعده عن طريق الرشاد بمن سقط من علو شاهق فاعترضته الطير تقطعه أشلاء ، وتمزقه شر ممزق ، أو تسلمه الريح بعد أن طوحت به ذات اليمين والشمائل إلى دركات الحضيض ، حيث هلاكه ودماره . نعوذ باللَّه من الغي بعد الرشد ، ومن الضلالة بعد الهوى ، وأشار سبحانه إلى تعظيم الشعائر بقوله : ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: الآية ٣٢] .

والإشارة بـ(ذلك) إلى ما ذكر من اجتناب الرجس ، وقول الزور ، وهذا البغوي وللسلف رحمهم اللَّه أقوال تختلف باختلاف وجهة نظرهم إلى تفسير (الشعائر) فمنهم من فسر الشعائر بالبدن والهدى- نقل هذا البغوي عن ابن عباس ، قال : وأصلها من الإشعار وهو إعلامها بعلم إنها هدي وتعظيمها

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .

(٢) أخرجه أحمد ١٧٨/٤ من حديث أيمن بن خريم ، وأخرجه في ٣٢١/٣ من حديث خريم بن فاتك رضي اللَّه عنه . وضعفه الألباني في الضعيفة (١١١٠) .

واستسمانها ، واستحسانها ، ومنهم من فسر الشعائر بالمشاعر : عرفة ، ومزدلفة ، ومنى ، والجمار ، وتعظيمها على هذا الوجه قصدها لأداء النسك في أدب ووقار وشكر لله على حفظها منذ فجر الحنيفية ، بعيدة عن أي نفوذ يحد من إمكان تأدية المناسك على الوجه الأتم .

ومعنى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٢] أي : تعظيم الشعائر ، سواء قصد بها البدن والهدي أو المشاعر نفسها ، لا يكون إلا من وحي قلوب أشربت التقوى ، ووقرت فيها ، فنزعت إلى هذا التنظيم المحمود المبرور ، وتختلف آراء السلف في المنافع المذكورة في قوله تعالى : ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ الآية . كاختلاف أقوالهم في تفسير الشعائر ، فمن رأى أن الشعائر هي البدن والهدي فسر المنافع : بركوبها ، وشرب لبنها ، والانتفاع بأصوافها وأوبارها ، على خلاف في جواز الانتفاع قبل تسميتها بدنًا وبعده ، وفي وجود الحاجة لهذا الانتفاع وعدمها و(الأجل المسمى) عند من يذهب هذا المذهب هو نحرها متى بلغت الحرم . والمنحر أي : منى . كما قال ﷺ : « نحرت ههنا ، ومنى كلها منحر »(١) . ومن رأى أن الشعائر هي المشاعر فسر المنافع بالإيجار والتكسب إلى نهاية أيام الحج وقضاء النسك ، وبهذا فسر « الأجل المسمى » .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٣] قولان مؤداها : أن الهدي محله أي : موضع نحره أحرم أو أن المحرم محله أي : موضع إحلاله من إحرامه البيت بطواف الإفاضة . وفي تفسير (العتيق) حديث عند الترمذي ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار »(٢) .

(١) تقدم تخريجه قريبًا .

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٧٠) . وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٢٢٢) .

الحج والمجتمع الإسلامي[1]

الحج عبادة روحية وبدنية اجتماعية، تنصقل بها الروح، كما يتهذب بها البدن، وتلتقي فيها المنافع الدينية بالمصالح الاجتماعية، والمجتمع الإسلامي هو الذي تقوم دعائمه على أسس من الدين، وترتفع فيه راية الإسلام، مؤذنة بتغلغل الروح الدينية في أفراده، وتسير فيه الدنيا بما فيها من زخرف ومباهج في ركاب الدين، وطبق ما يرسمه من مناهج الخير والسعادة، وتغدو كما أراد الله مزرعة للآخرة، وزورق نجاة إلى ساحل السلامة.

ومن طبيعة هذا المجتمع أن يكون عالميًا، لا إقليميًا، فهو في الشرق، كما يكون في الغرب، وهو في شمال الدنيا، كما يكون في جنوبها- أمة واحدة- تستظل بدوحة دين واحد، وتتجه بقلوبها ومشاعرها ومياكلها إلى مركز قيادة الدين ومهبط الوحي كل يوم خمس مرات، لتستقبل البيت العظيم، بيت الله الذي جعله الله رمزًا لإقامة شعائر الدين، وعلمًا على الملة الحنيفية، ملة إبراهيم، والذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٦].

ولما كان عقد الصلة بمركز القيادة ومهبط الإشعاع الديني، لا يكفي فيه الاتجاه اليومي، بل لا بد من تجديد العهد به في مجال أوسع، وفي فترات يكون فيها الاتجاه أعم وأشمل، شرع الله الحج إلى البيت العتيق، وجعله ركنًا من أركان الدين لاستكمال المتعة واستجماع وسائل الخير والسعادة، والتعرف إلى أفراد المجتمع الإسلامي الكبير المتفرق في أنحاء الدنيا، وتكوين الروابط بينه، وتوحيد الصفوف والأهداف إلى جانب النواحي الروحية التي تذكي في النفوس

(١) صحيفة الندوة- في ١٣٧٨/١٢/٧هـ.

شعلة الحماس الديني، عندما يتجدد العهد، وتستعرض الذكريات الإسلامية بمشاهدة البيت، والوقوف على معالم الحنيفية.

وشرع سبحانه للحج مواقيت زمانية ومكانية؛ تنظيمًا لموعد اللقاء، وتحديدًا لتلاقي المنافع الدينية بالمصالح الاجتماعية، بحيث يتم في تلك المواقيت- إلى جانب قضاء المناسك- عقد الندوات بين أفراد المجتمع الإسلامي، مجردين عن كل فارق، ومعتصبين[١] بشعار الوحدة الإسلامية، التي ألف الله بها بين قلوبهم، وجمع بها ما تفرق من أمرهم، وأهدر بها العصبيات العنصرية والقبلية، وحطم كبرياء الفخر بالأحساب، والتعالي بالأنساب، فهم في ندوة الحج، بل وعلى الدوام، كما وصف الرسول الكريم واقعهم بقوله: «الناس سواسية كأسنان المشط، الناس من آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى»[٢].

وفي الندوات الكبرى التي تعقد في رحاب البيت، وبين مشاعر الحج، يتم التآزر والتضامن والتشاور، وتتحدد المطالب، وتوضع الحلول لمشاكل المسلمين في شتى أقطارهم وأمصارهم، وتبعث الآمال والأحلام، ثم يصدر المؤتمرون عن قرارات تحفظ الكيان الإسلامي، وتدفع عنه صولة البغي ودولة العدو الضاري، والمستعمر البغيض، وتلك هي أهداف الحج.

والمنافع التي أشار إليها المولى جل وعلا في كتابه، حيث يقول لخليله إبراهيم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن

---

(١) يقال: الملك المتعصب والمعصب. أي: المتوج. وعصبه بالسيف تعصيبًا: عممه به. «تاج العروس» (عصب).

(٢) أخرجه القضاعي (١٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه، بشطره الأول، وأخرجه أحمد ٣٨/ ٤٧٤ (٢٣٤٨٩) وغيره من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ. وانظر الصحيحة (٢٧٠٠)، والضعيفة (٥٩٦).

كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨] . إذ إن إطلاق المنافع يشمل جميع ألوانها ؛ دينية كانت أو اجتماعية ، أو سياسية ، واقتصادية ، وتجارية أو غير ذلك مما يكون فيه إصلاح حال المجتمع الإسلامي في مختلف الاتجاهات .

بيد أن هذا الحلم اللذيذ ، سوف يبقى حلمًا ، يداعب أفكار المصلحين فقط ، ما دامت الكثرة المتكاثرة من أفراد المجتمع الإسلامي لا تنظر إلى الحج إلا نظرها إلى رحلة مفروضة عليهم كضريبة لا بد من أدائها ، وهي مقصورة على أداء النسك لا أقل ولا أكثر .

وإذن فلن يكون للحج أثره وخطره إلا إذا تفتح الوعي الإسلامي ، وأدرك المسلمون أن وراء قضاء النسك للإسلام أهدافًا يباركها ومصالح يحفز إليها واغتنموا هذه الفرصة الذهبية فرصة اجتماع الحج على خير البقاع واستغلوها لصالح المجتمع الإسلامي ، واتخذوا من زمان الحج ومكانه ، وفي مركز القيادة الروحي ، ومهبط الوحي مؤتمرًا إسلاميًا ، يضم القادة والمفكرين والعلماء والمجاهدين والزعماء المخلصين ، والتقت فيه أفكارهم ، كما التقت لأداء النسك أجسادهم ، وائتلفت فيه جهودهم ، كما ائتلفت بالإسلام قلوبهم ومشاعرهم ، ومن ثم يصح أن يطلق على الحج أنه مؤتمر المسلمين العام ، يجمع الكلمة ، ويوحد الصفوف والأهداف ، ويعالج المشاكل ، ويدعو إلى الوحدة الكبرى التي جمعت في عصر النور بين بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وأبي بكر وعمر القرشيين ، في ظلال الإسلام ، وتحت راية القرآن . سدد الله الخطى .



عرض وتوجيه[1]

اعتاد صديقنا المفضال صاحب « مجلة المنهل » أن يتحف القراء كل عام في مثل هذه المناسبة المباركة مناسبة الحج واجتماع الحجيج في مهابط الوحي وبقعة الإسلام الآمنة الوادعة ، يتحفهم بعدد ضخم ممتع من المجلة يبل صداهم ، وينقع غلتهم ، ويستعيضون به ما فاتهم في عهد عطلة المجلة من أدب دسم ، وتوجيهات حصيفة ، ومواضيع شائقة طريفة .

ولقد وفق إلى حد بعيد ؛ إذ اهتبل الفرصة وجعل من إخراج هذا العدد الممتاز خير دعاية للوطن وعلمائه وأدبائه والطبقة المثقفة من أبنائه .

فهو إذًا عمل وطني بار يستأهل الرعاية والتشجيع والتقدير ويفرض على كل مواطن التعاون والتعضيد والإسهام فيه بقدر ، والضرب فيه بقسط ؛ ليدعم نهضة الوطن ، ويشارك في إشادة صرحه ، فيكون له بذلك أجر العاملين ، والبررة المخلصين .

ولقد مد الأستاذ صاحب المنهل يده لمواطنيه ، ورغب إلى فريق من المتعلمين والمتأدبين وطلبة العلم الناضجين في الكتابة والمشاركة في هذا الواجب، والتعاون معه علي معالجة أكبر قدر ممكن من الموضوعات العلمية والأدبية والثقافية في حدود اختصاصات المجلة واتجاهاتها ؛ ليعطي فكرة عن نشاط أبناء هذا البلد الأمين وإخوانهم المثقفين النابهين في نجد وغيرها من نواحي المملكة التي يخفق عليها العلم السعودي المظفر ، وليبرز إنتاجًا جماعيًّا متكافلًا ينطق بمدى إمكانياتهم ، ومبلغ تأثرهم ، وتتبعهم للحركات العلمية والإصلاحية والأدبية في نواحي المعمورة ، وأثر ذلك في دعواتهم وجولات أقلامهم .

(١) مجلة المنهل - ذو القعدة - ١٣٧١هـ .

وإني كفرد من تلك المجموعات نالني شرف دعوة الأستاذ ؛ فرأيت أن يكون إسهامي خاصًّا بناحية ، هي بالنسبة لوفود بيت اللَّه أليق ، وبالنسبة لما يقومون به في هذه الديار من عمل مبرور أجدى وأنفع وأرفق ، تلك هي ناحية المناسك والوقوف منها على ما لابد منه لصحة الحج وتمامه والنسك وتشريعاته .

والمناسك هي شعار الحنيفية ومجموعة أعمال تعبد اللَّه بها العباد من لدن إمام الحنفاء خليل اللَّه إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين . وهي كسائر الشعائر الإسلامية مفروض أن تؤدى على الوجه الأتم المشروع المقتبس من مشكاة النبوة اللامع دون خلط أو ابتداع ، ودون تعمق وتعسف ، وكل الشعائر الدينية والأحكام مدارها على الاتباع والقدوة ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: الآية ٣١] ، وقال تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧] .

وقال تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: الآية ٨٠] وقال ﷺ مرشدًا إلى ضرورة اتخاذ القدوة ، والعمل بهدي الكتاب والسنة : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد »[(١)] . وفي رواية لمسلم : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد »[(٢)] . أي : باطل مردود على مبتدعه ، ويدخل في نطاق ذلك كل عبادة لم يأذن بها اللَّه ، وكل عمل لا يحمل الطابع الإسلامي بمعنى أنه لم يكن عليه خيار الأمة في عصورهم المفضلة عصور الهداية والنور التي شهد لها الرسول ﷺ بذلك ؛ إذ يقول : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[(٣)] .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧/١٧١٨) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها ، بلفظ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

(٢) أخرجه مسلم (١٨/١٧١٨) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٢، ٣٦٥١) ، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه =

وعلى سبيل المثال نستعرض شيئًا من تلك الأعمال المصطبغة بالصبغة الدينية وليست هي في واقع الدين في قليل أو كثير :

من ذلك جنوح بعض الحجاج إلى زيارة قبر حواء، أو أمنا حواء على التعبير الدارج . وتكبدهم المشقة في الصعود إلى جبل أبي قبيس، وغار ثور، وغار حراء، وصلاتهم فيها، ودعائهم، وحرصهم على الوقوف على كل المساجد بمنى ؛ كالمسجد المسمى بمسجد «المرسلات»، ومسجد «إنا أعطيناك»، وتطلعهم إلى زيارة ما يسميه الناس- مسجد الكبش- الموضع الذي يظنونه موضع ذبح خليل اللّه إبراهيم لضحيِّه، وكذلك الصعود على الجبل الذي يسمونه جبل الرحمة بعرفات، واسمه إلال- على وزن هلال- وقد نصب عليه شاخص، والحرص على الصلاة في المسجد الذي أسفل الجبل، وحمل شيء من حصى الجبل أو ترابه، وغير ذلك كثير وكثير، لا حد له ولا نهاية، وهو مما تحفز إليه النفوس بدافع الاستحسان والرغبة في الخير والظن أنه مشروع وعمل مندوب إليه مقبول، وما هو في الواقع إلا مزاحمة للاهتمام بأمر عظيم بالكعبة المشرفة التي أمر اللّه بتعظيمها وجعلها مثابة للناس وأمنًا وشرع الطواف بها، والصلاة عندها، واستلام الركنين منها، وما إلى ذلك مما فيه معنى التظيم والحرمة ضمن حدود المشروع .

ويعظم الخطب إذا جاوزت الأمور الحد فالتمست البركة من المشاعر والمآثر، واتخذ التقبيل والتمسح مظهرًا من مظاهر التعظيم .

فكل ذلك مما لم يأذن اللّه به، وحري بمن يحرص على سلامة دينه وصيانة حجه أن يترفع عنه، روى الترمذي وصححه عن أبي واقد الليثي رضي اللّه عنه

= بلفظ : «خير الناس قرني ...» . وأخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث أبي بكرة رضي اللّه عنه، بنحوه .

قال : خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط . فمررنا بسدرة ، فقلنا : يا رسول اللّه ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول اللَّه ﷺ : « اللَّه أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة »[1] ..

قال أهل التحقيق : ينوطون بها أسلحتهم أي : يعلقونها عليها للبركة ، وفي هذا بيان أن عبادتهم لها كانت بالتعظيم والعكوف والتبرك ، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس اللَّه روحه ، في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم »[2] بعد استعراضه حجة رسول اللَّه ﷺ وعمراته قال : وهو في ذلك كله لا هو ولا أحد من أصحابه يأتي غار حراء ولا يزوره ولا شيئًا من البقاع التي حول مكة ، ثم بعده الخلفاء الراشدون وغيرهم من السابقين الأولين لم يكونوا يسيرون إلى حراء ونحوه للصلاة فيه والدعاء ، وكذلك الغار المذكور في قوله تعالى : ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: الآية ٤٠] وهو غار بجبل ثور يماني مكة لم يشرع لأمته السفر إليه وزيارته والصلاة فيه والدعاء ، ولا شرع لأمته زيارة موضع المولد ، ولا زيارة موضع بيعة العقبة الذي خلف منى ، وقد بني هناك مسجد ، ومعلوم أنه لو كان هذا مشروعًا مستحبًا يثيب اللَّه عليه لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك وأسرعهم إليه ، ولكان علَّم أصحابه ذلك ، وكان أصحابه أعلم وأرغب فيه ممن بعدهم ، فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك علم أنه من البدع المحدثة التي لم يكونوا يعدونها عبادة وقربة وطاعة ، فمن جعلها عبادة

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠) . وصححه الألباني .
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٤٢٥.

وقربة فقد اتبع غير سبيلهم، وشرع من الدين ما لم يأذن به الله، ومن ذلك البنية التي على جبل عرفات التي يقال: إنها قبة آدم.

فإن هذه لا يشرع قصدها للصلاة والدعاء باتفاق العلماء، بل نفس رقي الجبل الذي بعرفات، والذي يقال له: جبل الرحمة، واسمه: إلال- على وزن هلال- ليس مشروعًا باتفاقهم وإنما السنة الوقوف بعرفات، إما عند الصخرات حيث وقف النبي ﷺ، وإما بسائر عرفات.

وقد ذكر طائفة من المصنفين في المناسك استحباب زيارة مساجد مكة وما حولها، وكنت قد كتبتها في منسك كتبته قبل أن أحج في أول عمري لبعض الشيوخ فجمعته من كلام العلماء ثم تبين لي أن هذا كله من البدع المحدثة التي لا أصل لها في الشريعة وأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يفعلوا شيئًا من ذلك وأن أئمة العلم والهدى ينهون عن ذلك، وأن المسجد الحرام هو المسجد الذي شرع لنا قصده للصلاة والدعاء والطواف وغير ذلك من العبادات، ولم يشرع لنا قصد مسجد بعينه بمكة سواه، ولا يصلح أن يجعل هناك مسجد يزاحمه في شيء من الأحكام، وما يفعله الرجل في مسجد من تلك المساجد من دعاء وصلاة وغير ذلك إذا فعله في المسجد الحرام كان خيرًا له، بل هذا سنة مشروعة، وأما قصد مسجد هناك؛ تحريًا لفضيلة فبدعة غير مشروعة». انتهى كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

ثم إن الصحيح الثابت المشروع في مسألة اللمس والتقبيل هو تقبيل الحجر الأسود، أو استلامه باليد أو العصا، كيفما تيسر؛ إذ قد ثبت ذلك من فعل الرسول ﷺ[1]، ومع ذلك بلغ من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في سد

(١) ثبت ذلك في حديث جابر وابن عمر رضي الله عنهم. أخرجه مسلم (١٢١٨/ ١٥٠، ١٢٦٨).

الذرائع أن قال عند تقبيل الحجر قولته المأثورة عنه : « إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا إني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك »[١] .

وثبت أيضًا استلام الركن اليماني من البيت دون سواه من الأركان ... قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢] :

« أما مسألة الإجماع فلا نزاع بين الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة العلم أنه لا يقبل- أي الحاج- الركنين الشاميين ، ولا شيئًا من جوانب البيت ؛ فإن النبي ﷺ لم يستلم إلا الركنين اليمانيين وعلى هذا عامة السلف ، وقد روي أن ابن عباس ومعاوية طافا بالبيت فاستلم معاوية الأركان الأربعة فقال ابن عباس : إن رسول الله ﷺ لم يستلم إلا الركنين اليمانيين ! فقال معاوية : ليس شيء من البيت متروكًا .. فقال ابن عباس : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١] فرجع إليه معاوية[٣] .

فهذا معاوية صاحب رسول الله وخليفة من خلفاء المسلمين ، وإمام من أئمتهم لم ير من الغضاضة عليه أن يرجع إلى قول ابن عباس عندما حجه بفعل رسول الله ، وعندما لفت نظره إلى ضرورة الاتباع والوقوف عند الوارد مستدلًا بالآية الكريمة : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١] ، فجدير بنا وقد وضح السبيل أن نسلك الجدد ، وأن نتجه بعباداتنا صوب نهج واضح المعالم ؛ كي نأمن العثار ونصل إلى الغاية إن شاء الله .

بعد هذا أجمل القول في المناسك وبيان ما لابد من معرفته من أعمال الحج عامدًا إلى الاختصار وعدم الاسترسال في سرد أقوال الفقهاء إلا ما تقتضيه ضرورة البحث مبتدئًا في هذه المحاولة بذكر أركان الحج ؛ إذ هي العمدة لا تسقط

(١) أخرجه أحمد ١/٣٤- ٣٥، ومسلم (١٢٧٠) . وتقدم تخريجه .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٤٢٦.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢١٧. وقال محققو المسند : حسن لغيره .

بحال، وهي باتفاق المذاهب الأربعة:

النية للدخول في النسك مع تعيينه لا مجرد لبس الإحرام، ثم الوقوف بعرفة، وطواف الإفاضة، ويسمى أيضًا: طواف الزيارة، وهو الطواف الذي يقع بعد عودة الحاج من عرفات ورابع الأركان السعي بين الصفا والمروة عند الأئمة الثلاثة، عدا الحنفية، فإنهم يعتبرونه من الواجبات.

يلي ذلك، الواجبات التي يجبر سقوطها الدم، والحج مع عدم الإتيان بها صحيح، وهي كما استنبطها الفقهاء ما يلي:

الإحرام من الميقات المعين، واستدامة الوقوف بعرفة إلى غروب الشمس عند المذاهب الثلاثة، غير الشافعية، فقد رخصوا في الدفع من عرفة قبل الغروب مع تقريرهم أنه خلاف الأولى. والمبيت بمزدلفة ليلة العاشر من ذي الحجة إلى نصف الليل عند الحنابلة والشافعية. والمبيت بمنى ليالي أيام التشريق عند الحنابلة والشافعية والمالكية، وكذلك رمي الجمار في الأيام الثلاثة، والحلق أو التقصير واجب عند المذاهب الأربعة، وطواف الوداع على الأصح.

فالأركان لا يتم النسك إلا بها، ولا تسقط بحال.

والواجبات يجبر سقوطها بالدم؛ وهو ذبح شاة، أو صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين؛ لكل مسكين نصف صاع من طعام، كما في حديث كعب بن عجرة، حينما تأذى من هوام رأسه، أمره رسول الله ﷺ أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، أو يذبح شاة(١)، والطعام فسر في بعض روايات الحديث بأنه التمر، وللإمام أحمد(٢) رواية أن الإطعام مد من الحنطة لكل مسكين، أو نصف صاع من غيرها تمر أو شعير أو غيره.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨١٤- ١٨١٧)، ومسلم (١٢٠١).

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٤٢.

وما عدا الأركان والواجبات من أعمال الحاج وأقواله سنن لا يترتب على تركها فداء أو جزاء ، بل هي مما يتجاوز اللَّه عنه ويعفو ، لا سيما إذا كان تركها عن غير عمد وسبق إصرار ، بل قضت بذلك ضرورة الحاج وأوضاعه ودعت إليه ضرورة الترحيل وصعوبة النقل مع وجود الحرص عليها ، وذلك مثل أن يضطر الحاج إلى ترك المبيت بمنى ليلة عرفة ، أو يدخل عرفة دون أن يلبث بنمرة قبل الزوال ؛ كأن يدخلها ليلًا ، كما يفعل الأكثرون ، أو يترك الأذكار والأدعية ، أو يترك الغسل للإحرام ، أو الغسل للوقوف ، أو يترك الرمل ، أو الاضطباع في الطواف ، أو يترك تقبيل الحجر الأسود أو لمسه .. وبالجملة فهذه أمثلة لا تنحصر فيها السنة ، وإنما أوردتها كأنموذج للقياس عليها فيما عدا ما مر ذكره من الأركان والواجبات .

وثمة أعمال يسقط فيها الترتيب ويتجاوز فيها عن السهو والخطأ ؛ رفعًا للحرج وتيسيرًا على الحاج ، وذلك كتقديم الحلق على رمي الجمار ، أو الذبح على الرمي ، أو طواف الإفاضة واللبس على الحلق أو التقصير ، عند أكثرهم ، أو غير ذلك مما يكون فيه مخالفة للترتيب المسنون ، فليس من حرج على الحاج في ذلك ، ولا يترتب عليه إثم أو جزاء أو فدية .

روى البخاري في « صحيحه » والإمام أحمد في « المسند » عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما : أن النبي ﷺ سأله رجل في حجة الوداع فقال : يا رسول اللَّه ، حلقت قبل أن أذبح ؟ قال : فأومأ بيده ، وقال : « افعل ولا حرج » . وقال رجل : يا رسول اللَّه ، ذبحت قبل أن أرمي ؟ قال : فأومأ بيده وقال : « لا حرج » . قال : فما سئل يومئذ عن شيء من التقديم والتأخير إلا أومأ بيده وقال : « لا حرج »[1] .. وعنه من طريق آخر عن النبي ﷺ : سئل عن الذبح ، والرمي ، والحلق ، والتقديم

(١) أخرجه البخاري (١٧٢٢/١٤) ، وأحمد ١/ ٢٩١.

والتأخير؟ فقال: لا حرج[١]..

قال صاحب «بلوغ الأماني» شرح «المسند»: أحاديث الباب تدل على جواز تقديم بعض الأمور المذكورة فيها على بعض، وقد أجمع العلماء على أنها مرتبة كالآتي: أولها رمي جمرة العقبة، ثم نحر الهدى أو ذبحه، ثم الحلق أو التقصير، ثم طواف الإفاضة. ولهم فيمن خلف هذا الترتيب أقوال ومذاهب.. فذهب جمهور من الفقهاء والمحدثين إلى الجواز، وعدم وجوب الدم، سواء في ذلك العامد والناسي والجاهل، وهو قول عطاء، وطاووس، ومجاهد، والشافعي، وإسحاق، قالوا: لأن قوله ﷺ: «لا حرج»، يقتضي رفع الإثم والفدية معًا ومعناه: افعل ما بقي عليك، وقد أجزأك ما فعلته، ولا حرج عليك في التقديم والتأخير، والمراد بنفي الحرج: نفي الضيق، وإيجاب أحدهما فيه ضيق. وأيضًا لو كان الدم واجبًا لبينه؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، ولم يفرق النبي ﷺ بين عالم وجاهل وناسٍ.

ثم استعرض أقوال بقية الأئمة مالك وأبي حنيفة وأحمد، ووجهة نظر كل منهم في هذا الباب بما يضيق المقام عن سرده، وليس من شك في أن العمل بأحاديث الباب واضح لا لبس فيه، ولا إيهام، لا سيما وأن الجمهور من الفقهاء والمحدثين لهم رأى يستأنس به في الموضوع يعضده حديث ابن عباس المذكور وغيره من الأحاديث بهذا الصدد.

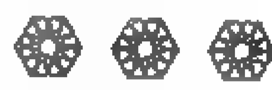
وبرمي جمرة العقبة يوم النحر يحل للمحرم ما كان محظورًا عليه في الإحرام من لبس ثياب وتطيب وتقليم أظافر وتغطية رأس وقتل صيد وغير ذلك إلا النساء، أي: الاتصال الجنسي ومقدماته من لمس وتقبيل وما إليه؛ عن ابن عباس رضي

(١) أخرجه البخاري (٨٣، ١٢٤)، ومسلم (١٣٠٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا رميتم الجمرة فقد حل لكم كل شيء إلا النساء » . رواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والبيهقي[١] .

ويعبر الفقهاء عن هذا التحلل بأنه تحلل أول يتم باثنين من ثلاثة أشياء ، هي : رمي ، وحلق ، وطواف زيارة . فإذا طاف المحرم طواف الإفاضة وسعي للحج فقد أتى بالتحلل الثاني ، وهو الذي يحل به كل شيء حتى إتيان النساء ، ويفسد به الحج لو وقع قبل التحلل الأول . قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن الحج لا يفسد بإتيان شيء في حال الإحرام إلا الجماع ؛ روي ذلك عن عمر رضي الله عنه ، وبه قال جماعة من كبار التابعين ، وهو مذهب الشافعي ، وأحمد ، رحمهما الله ، وقال أبو حنيفة : إن جامع المحرم قبل الوقوف فسد حجه وإن جامع بعده لم يفسد حجه ؛ لقول النبي ﷺ : « الحج عرفة »[٢] .

أما لو وقع الاتصال الجنسي بعد التحلل الأول فإن الحج صحيح ، وعلى المحرم الفدية وهي ذبح شاة عند الحنابلة ، والله أعلم .



(١) أخرجه النسائي (٣٠٨٤)، وابن ماجه (٣٠٤١)، والبيهقي ٥/ ١٣٦. ولم نجده عند أبي داود .

(٢) تقدم تخريجه .

مولد اليتيم[١]

« أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام » .. حديث شريف[٢] .

إنه يتيم .. ولكنه من طراز آخر، نشَّأته العناية الإلهية أحسن تنشئة ؛ فلم يذق ذلَّ اليتم ومرارة الحرمان ، ولم يفقد أبويه عطف الأبوة والحنان ، ولقد عني به بعد الولادة جده ، وحاطه بالكثير من رعايته وحدبه ؛ إذ كان يتيمن بطالعه وبعد ولادته فألًا حسنًا ، وفاتحة لحياة وارفة سعيدة ؛ ومن ثم سماه « محمدًا » ، وشكرًا للَّه عز وجل أن حباه به ، وجعله من عقبه .

وتخيَّرته للإرضاع ظئرٌ من بني سعد بن بكر من هوازن ، نستمع إليها وهي تقص قصتها الخالدة مع هذا اليتيم ؛ لما في ذلك من العبر ودلائل الإعجاز ، ولما اختص به هذا اليتيم من الرعاية وإسباغ النعمة التي أخذ اللَّه يمتن بها عليه فيما بعد في آيات تتلى وقرآن تضوع به المجالس : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨] .

قالت الظئر[٣] : خرجت مع زوجي في سنة شهباء ، وخرجت على أتان لي قمراء[٤] ومعنا شارف[٥] واللَّه ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي

---

(١) مجلة الحج - ربيع الأول - ١٣٧١هـ.

(٢) أخرجه أحمد ١٢٧/٤ من حديث العرباض بن سارية رضي اللَّه عنه ، وأخرجه الطيالسي (١٢٣٦) ، وابن سعد ١/ ١٠٢، والطبراني (٧٧٢٩) من حديث أبي أمامة رضي اللَّه عنه ، وأخرجه الحاكم ٢/ ٦٠٠، والبيهقي في الدلائل ٨٣/١ عن خالد بن معدان عن نفر من أصحاب النبي ﷺ ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٤٥) .

(٣) انظر سيرة ابن إسحاق (٣٢) ، وعيون الأثر ص ٤٨، وأسد الغابة ٧/ ٢٤٣.

(٤) قمراء : القمرة- بالضم- البياض مشوب بكدرة لعله اللون الرمادي الداكن .

(٥) الشارف : الناقة المسنة .

معنا من بكائه من الجوع . ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتاني تلك ، وقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول اللّه ﷺ فتأباه إذا قيل لها : إنه يتيم . وذلك إنما نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم وما عسى أن تصنع أمه وحده ، فكنا نكرهه لذلك .

وما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعًا غيري ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبي : واللّه إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعًا . واللّه لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى اللّه أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، ووضعته في حجري ، أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي- تعني ابنها- ثم نام ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل[1] فحلب منها ما شرب ، وشربت معه ، حتى انتهينا فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي واللّه يا حليمة ، لقد أخذت نسمة مباركة ، فقلت : واللّه إني لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتاني ، وحملته عليها معي . فواللّه لقطعت بالركب ما يقوى عليها شيء من حمرهم حتى أن صواحبي يقلن لي : يا ابنة أبي ذئيب ويحك ، اربعي علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى ، واللّه إنها لهي هي .. فيقلن : واللّه إن لها لشأنًا !

(١) حافل : ممتلئة الضرع من اللبن .

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضًا من أرض اللّٰه أجدب منها ، فكانت غنمي تروح على حين قدومنا به معنا شباعًا لبنًا[١]، فنحلب ونشرب وما يحلب لسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لبنًا .

فلم نزل نتعرف من اللّٰه الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان . فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا[٢].

وهكذا أتم اليتيم رضاعه وفطامه ، ولكن جده الحدوب العطوف اخترمته يد المنون ، فاحتضنه عمه ، وقام بدوره من التنشئة والتربية المثالية ، ونهج به خير المناهج ، فشب على مجموعة من خلال الخير وحميد المزايا ، ولقد أشرب قلب العم حب اليتيم ، فكان يرى السعادة والخير واليمن والبركة في رحابه ، وقابل اليتيم هذه العاطفة بمثلها .

فتعلق بعمه وكان لا يريم مجلسه . وصحبه عمه في رحلة ارتحلها إلى الشام لغرض الكسب والتجارة ، فرأى فيها من الآيات الباهرات ما صدق حدسه وصوب تحرياته في أن لابن أخيه شأنًا ، وأنه بالغه ومدرك مداه .

وعندما اكتمل اليتيم النضج وبلغ دور الرجولة زوجه عمه من أيم بلغت الذروة في السمو الخلقي والطهارة والعفة ، إلى جانب الحسب والنسب الكريم ، فكانت له خير شريك على أعباء الحياة ، وخير معين على ما كان يصبو إليه من العزلة ؛ لغرض التحنث ، واطراح ما كان عليه الأسلاف من دين مبدل مصبغ منكور .

---

(١) لبن : بضم اللام وتشديد الباء وفتحها : غزيرات اللبن .

(٢) جعفرًا : بفتح الجيم وتسكين الفاء ، أي : غليظًا شديدًا ، ويقال أيضًا : هو الصبي ابن أربعة أعوام .

وكانت له خير نصير ومعضد ومشجع حين شرفه اللَّه بالرسالة وبعثه إلى العالمين هاديًا وبشيرًا ، وحين ناصبه قومه العداء بادئ بدء فناله من ذلك روع وعناء وجهدًا، كان إذ يجلس إليها ثائرًا أمامها ذات نفسه متحدثًا إليها بقصته ، وقد بلغ منه الجهد مداه ، تقابله بعبارات التعرية والترفيه ، وتستعرض له فضائله ، وتعدد له أياديه، وتخلص من ذلك إلى النتيجة الإيجابية الحاسمة وهي : العزة والتمكن ، والرفعة ، والتسديد ، والتوفيق : كلا واللَّه لن يخزيك اللَّه أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق[1] .

وكانت أول مسلمة من نساء قومها أذعنت للَّه عن إيمان واعتقاد وطواعية ، وكانت الفاجعة بموتها وموت عمه في سنة واحدة ، فشق ذلك عليه ، ونال من خصومه بعض النيل ، وقد كانوا يتحاشون ذلك ؛ لمقام زوجه وعمه ، ونضالهما عنه .

وبدت نقطة التحول بمهاجرته إلى المدينة ؛ فعلا صوت الإسلام ، وخفقت أعلامه وأدال اللَّه الحق من الباطل ، وكانت المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام ، ثم عاد رسول اللَّه ﷺ إلى بلده فاتحًا مطهرًا لها من أرجاس الشرك والوثنية قوي الشكيمة ، عزيز الجانب ، موفور الكرامة ، عظيم السلطان ، وجاءه الخصوم متسربلين بالذلة والصغار ، فبدأهم بقوله : « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم » قالوا : خيرًا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

فضرب بذلك أروع الأمثال ، وامتلك قلوب أعدائه ، فدخلوا في دين اللَّه أفواجًا ، وقامت على أنقاض دين الجاهلية المتداعي أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ ؛ شعارها التضحية في سبيل المبدأ ، وقوامها اتحاد الأهداف والتكافل

(١) أخرجه البخاري (٣، ٢٢٩٧) ، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها .

الاجتماعي في شتى نواحيه، وخطب ثاني يوم الفتح خطبة أوضح فيها حرمة مكة، وتحريم القتال فيها، ووضع من عصبيات الجاهلية، واعتزازها بالآباء، وفخرها بالأحساب: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد شجرًا، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن الله لي فيها ساعة من النهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس»[١].

وعندما عاد إلى مهاجره بالمدينة أخذت وفود العرب تتقاطر عليه مذعنة مسلمة بعد أن كانت متربصة منتظرة ما يؤول إليه أمره مع قومه.

وبعد هذا التأييد الإلهي والنصر المبين أزمع الحج فبلغ مجموع من وقف معه في الموقف بعرفات ما يفوق على المائة ألف حاج، خطب فيهم خطبة هي المثل العليا بكل معانيها، وهي أسس العدالة الاجتماعية التي بها حفظ كيان الفرد، وضمان حقوقه: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقو ربكم، إن ربا الجاهلية موضوع؛ وإن أول ربًا أبدأ به ربا عمي العباس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت، اللهم اشهد، فلا ترجِعُنَّ بعدي كفارًا؛ يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا. كتاب الله»[٢].

وقد أدى المهمة على خير وجه وبلّغ رسالة ربه أتم البلاغ وأحسنه، فاختاره

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٢، ٤٢٩٥)، ومسلم (١٣٥٤) من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه.

(٢) هذا الحديث مركب من عدة أحاديث؛ أخرجه مسلم (١٤٧/١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه بالشطر الأول، وأخرجه أحمد ٧٢/٥ من حديث أبي حرة الرقاشي، عن عمه، وفيه: «لا يحل لامرئ ..». وأخرجه مسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه بشطره الأخير.

الله إلى جواره ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين راضي النفس برضاء الله ورضوانه وكرامة ربه وحسن وفادته، وبالنعيم المقيم، والدرجات العلا، عليه أفضل الصلاة وأزكاها.

أما بعدُ، فإن في هذه الصفحات المشرقة من سيرة البشير النذير، وهذه اللمع الوجيزة من مواقفه المشهورة وأيامه المشهودة لدرسًا وافيًا لحياة البطولة، وأثرًا بارزًا في تاريخ الانقلابات، وبناء مجد الأمم، وتركيز النشاط الديني والأدبي والسياسي؛ لذا كان من أهداف خلفاء النبي الكريم من بعده أن يترسموا خطوه وينهجوا نهجه، وتأثرت القرون الثلاثة المفضلة بأثر دعوته، واصطبغت بطابعها لأبعد مدى، حتى كان من بين أفرادها من يتقيد حتى في الأمور الطبيعية العادية المباحة كالمأكل والمشرب والملبس، وما إلى ذلك، مما ترك الشارع للناس فيها حق الخيرة بتقيد بالمنقول فيها من فعل النبي الكريم مما يشعر ببلوغ الغاية في القدوة والتأسي.

ثم خلف من بعدهم خلف تعرف من أمرهم وتنكر؛ يقدمون الهوى على الهدى ويستبدلون بالحق والرشاد الغي والعمى، فيطلقون العنان لآرائهم في الاستحسانات وتبديع البدع، وإضافة زيادات في الدين لم يأذن بها الله، ولم يدرج عليها خير القرون المشهود لهم بالخير والصلاح والورع والتقوى.

فمن ذلك، ومما نحن بصدده لمناسبة مولد الرسول ﷺ ما أحدثه في أوائل القرن السابع أبو سعيد الكوكبوري علي بن بكتكين التركماني صاحب إربل[1] الملقب بالملك المظفر ما أخذته من بدعة الاحتفال بالمولد واتخاذ رسوم مخصوصة، والظهور بمظاهر لا يقرها الدين، وذلك أنه كان يعمد إلى نصب

(١) إربل: على وزن إثمد- بكسر الميم- بلاد تابعة لولاية الموصل، وقد عهد السلطان صلاح الدين بولايتها للملك المظفر سنة ٥٨٦هـ.

قباب من الخشب، وتزيينها بالزينة الفاخرة، وجعل جوقات الأغاني في كل قبة منها مع قسم من الملاهي وأربابها إلى غير ذلك ...(١) وكان ينفق في هذا الوجه النفقات الطائلة، وهو أول من ابتدع هذه البدعة، وشجعها، وأجاز على فعلها؛ وقد ألف له أبو الخطاب ابن دحية كتاب «التنوير في مولد البشير النذير» وقرأه عليه فأجازه على ذلك بألف دينار.

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة قصيرة نتساءل فيها بطريقة منطقية عما إذا كان هذا الاحتفال بالمولد خيرًا أو شرًّا، أو هو جامع لكليهما، فإن كان خيرًا فلماذا غفل عنه أئمة الهدى، وحملة مشاعل العرفان من لدن الخلفاء رضوان اللّٰه عليهم إلى عهد صاحب إربل، مع أنهم أحرص الأمة على الخير، وأشدهم تطلعًا لما فيه الزلفى، ورفع الدرجات، وما ترك الأول للآخر شيئًا إلا سبقه إليه، وكل خير في اتباع من سلف.

وإن كان شرًّا فعلام نستن به ونتتبع خطوات عصور كثر فيها التبديل والتغيير، وطمست معالم السنن، ورفع للبدع فيها سوى.

وإن كان فيه الخير والشر فمن لازم العقلاء ترك الخير المدغول سدًّا للذرائع، واستنانًا بسنة أكابر الصحابة؛ حيث كانوا يتركون بعض المسنونات؛ لئلا يظن العامة أنها من الواجبات.

نقل صاحب «المنار» في هذا الصدد عن الشاطبي: أن أبا بكر، وعمر، وابن عباس، تركوا التضحية في عيد النحر؛ لئلا يظن الناس أنها واجبة، قال: ونقل الشاطبي(٢) عن الإمام مالك رحمه اللّٰه أنه قال في الموطأ: صيام ستة أيام بعد الفطر من رمضان أنه لم ير أحدًا من أهل العلم والفقه يصومها. قال: ولم

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.
(٢) الاعتصام ٢/ ٦٠٣. وانظر كلام مالك في الموطأ ١/ ٣١٠.

يبلغني ذلك عن أحد من السلف ، وإن أهل العلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته ، وأن يلحق أهل الجهالة والجفاء برمضان ما ليس منه لو رأوه رخصة من أهل العلم . وقد كان مالك يعرف الحديث في صيامها وكلامه يدل على ذلك ، كما قال الشاطبي ، ولكن سد ذرائع البدع اقتضى ترك هذا المستحب .

ونعود مرة أخرى فنتساءل : هل كان الملك التركماني مبتدع حفلة المولد أكثر حبًا وتعظيمًا للرسول ﷺ من صحابته الكرام الذين كانت لهم الخطوة باجتلاء طلعته ، والاستضاءة بنوره ، والاهتداء بهدايته ؟ أو هو أوسع علمًا ، وأعظم دراية ، وأكثر فهمًا للدين من أولي الفضل والعلم والزهادة من أصحاب القرون المفضلة؟ اللهم لا . صحيح أن له مقصدًا حسنًا ، ونية صالحة في إشاعة الاحتفالات ، وتوزيع الصدقات ، وبذل البر والإحسان ، ولكن ليس هذا طريق البر ، ولم تكن البدعة يومًا من الأيام وسيلة إلى الخير ، بل إنها معول هدم ، وسبيل نقص ، وهزيمة للدين .

ولصاحب « المنار » كلام طريف في هذا الباب أنقله بنصه ، قال رحمه اللَّه : « وقد كان السلف الصالح أشد ممن بعدهم تعظيمًا للنبي ﷺ ثم للخلفاء وناهيك ببذل أموالهم وأنفسهم في هذه السبل ، ولكنهم دون أهل هذه القرون التي ضاع فيها الدين في مظاهر التعظيم اللساني ، ولا شك أن الرسول الأعظم ﷺ أحق الخلق بكل تعظيم ، وليس من التعظيم الحق أن نبتدع في دينه ، بزيادة أو نقص ، أو تغيير أو تبديل ، لأجل تعظيمه به ، وحسن النية لا يبيح الابتداع في الدين ، فقد كان جل ما أحدثه أهل الملل قبلنا من التغيير في دينهم من حسن نية . وما زالوا يبتدعون بقصد التعظيم وبحسن النية حتى صارت أديانهم[1] غير ما جاءت به رسلهم ، ولو تساهل سلفنا الصالح كما تساهلوا ، وكما تساهل الخلف

(١) في الأصل « أدبائهم » .

الذين اتبعوا سننهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع لضاع أصل ديننا أيضًا ، ولكن السلف حفظوا لنا الأصل ، فالواجب علينا أن نرجع إليه ، ونعض عليه بالنواجذ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّٰه في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم »(١) وفي معرض حديثه عن البدع : وكذلك ما يحدثه بعض الناس ؛ إما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى ، وإما محبة للنبي ﷺ ، وتعظيمًا له ، واللّٰه قد يثيبهم على هذه المحبة ، لا على البدع من اتخاذ مولد النبي ﷺ عيدًا ، مع اختلاف الناس في مولده ؛ فإن هذه لم يفعله السلف مع قيام المقتضي له ، وعدم المانع منه ، ولو كان هذا خيرًا محضًا ، أو راجحًا ، لكان السلف رضي اللّٰه عنهم أحق به منا ؛ فإنهم أشد محبة لرسول اللّٰه ﷺ ، وتعظيمًا له منا ، وهم على الخير أحرص ، وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته واتباع أمره وإحياء سنته باطنًا وظاهرًا ونشر ما بعث به ، والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان ، فإن هذه هي طريقة السابقين الأولين .

ومن بين من شنع على مبتدعي هذه البدعة ومروجيها من علماء القرن السابع ابن الحاج في « المدخل »(٢) حيث يقول : فصل في المولد :

ومن جملة ما أحدثوه من البدع ، مع اعتقادهم أن ذلك من أكبر العبادات ، وإظهار الشعائر ، ما يفعلونه في شهر ربيع الأول من المولد ، وقد احتوى على بدع محرمات جملة .. ثم أخذ يستعرض ما كان يعمد إليه الناس في زمنه : الرقص ، والزمر ، واتخاذ آلات اللهو من طبول وطنابير وغيرها ، واتخاذ المنشدين من المردان ، وتكسرهم في إنشاد ما يسمونه مدائح نبوية ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، وهو بعيد عن الدين ، والدين منه براء .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٩٤.

(٢) المدخل ٢/ ٢.

وعاد يقول : أي نسبة بين آلة الطرب والسماع وبين تعظيم هذا الشهر الكريم الذي منَّ اللَّه علينا فيه بسيد الأولين والآخرين ؟!

فانظر- رحمنا اللَّه وإياك- إلى مخالفة السنة ؛ ما لسفهها وكيف تجسر إلى المحرمات ، ألا ترى أنهم لما خالفوا السنة وفعلوا المولد لم يقتصروا على فعله ، بل زادوا عليه ما تقدم ذكره .

وكان ينبغي إذا دخل هذا الشهر الكريم أن يكرم ويعظم ويحترم الاحترام اللائق به ، وذلك بالاتباع له ﷺ في كونه عليه الصلاة والسلام كان يخص الأوقات الفاضلة بزيادة فعل البر وكثرة الخيرات .

فالسعيد السعيد من شد يده على امتثال الكتاب والسنة ، والطريق الموصلة إلى ذلك ، وهي : اتباع السلف الماضين رضوان اللَّه عليهم أجمعين ؛ لأنهم أعلم بالسنة منا ، إذ هم أعرف بالمقال وأفقه بالحال ، وكذلك الاقتداء بمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وليحذر من عوائد أهل الوقت من يفعل العوائد الرديئة ، وهذه المفاسد مركبة على فعل المولد إذا عمل بالسماع ، فإن خلا منه وعمل طعامًا فقط ونوى به المولد ، ودعا إليه الإخوان ، وسلم من كل ما تقدم ذكره فهو بدعة بنفس نيته فقط ، إذ إن ذلك زيادة في الدين ، وليس من عمل السلف الماضين . واتباع السلف أولى ، بل أوجب من أن نزيد مخالفة لما كانوا عليه ؛ لأنهم أشد الناس اتباعًا لسنة رسول اللَّه ﷺ وتعظيمًا له ولسنته ، ولهم قدم السبق في المبادرة إلى ذلك ، ولم ينقل عن أحد منهم أنه نوى المولد ونحن لهم تبع ، يسعنا ما وسعهم . اهـ .

فأنت ترى معي أيها القارئ الكريم أن العلماء ، رحمهم اللَّه ، وخاصة المحققين منهم ، والمشهود لهم بعلو الكعب ، والتحليق في أجواء من العلم ، لا يبلغ فيها شأوهم أو يدرك مداهم ، أنت ترى معي أنهم شددوا النكير على هذه البدعة ، وحاربوها بأقلامهم ، وسفهوا آراء مبتدعيها ، وأبانوا حكم اللَّه فيها . وأنها

محدثة من المحدثات التي حذر عنها النبي ﷺ بقوله : « وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »[١] .

وأختم البحث بكلمة حصيفة لإمام دار الهجرة مالك ، رحمه اللّٰه ، قال : من أحدث في هذه الأمة شيئًا لم يكن عليه سلفها ، فقد زعم أن رسول اللّٰه ﷺ خان الرسالة ؛ لأن اللّٰه يقول : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: الآية ٣] فما لم يكن يومئذ دين ، لا يكون اليوم دينًا ، وقال رحمه اللّٰه عندما سئل عن القراءة في المساجد : لم يكن بالأمر القديم ، وإنما هو شيء أحدث ، ولم يأت آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها . نقل هذا عنه الشاطبي[٢] .

وصلى اللّٰه على النبي محمد وآله وصحبه ، ومن اتبع هديه ، واقتفى أثره إلى يوم الدين .

تجلى مولد الهادي وعمت بشائره البوادي والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب يدًا بيضاء طوقت الرقابا
فقد وضعته وهاجا منيرًا كما تلد السماوات الشهابا
فقام على سماء البيت نورًا يضيء جبال مكة والنقابا
وضاءت يثرب الفيحاء مسكًا وفاح القاع أرجاء وطابا

« شوقي » .



(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٦، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض بن سارية رضي اللّٰه عنه ، وصححه الألباني ، وتقدم تخريجه .
(٢) الاعتصام ٢/ ٥٤٧، ٥٤٩، والموافقات ٣/ ٤٩٧.

اليتيم الذي غير مجرى التاريخ[1]

ضاءت لمولده الآفاق واتصلت بشرى الهواتف في الإشراق والطفل
وصرح كسرى تداعى من قواعده وانقض منكسر الأرجاء ذا ميل
ونار فارس لم توقد وما خمدت مذ ألف عام ونهر القوم لم يسل
خرت لمبعثه الأوثان وانبعثت ثواقب الشهب ترمي الجن بالشهب

إنه يتيم بني هاشم، نبي الهدى المختار، محمد بن عبد الله ﷺ، من حمده أهل الأرض كلهم، وكانت ولادته خيرًا وبركة للإنسانية، ومولدًا لحياة جديدة رغيدة سعيدة، نعمت في ظلالها البشرية أيما نعيم.

لقد صاحبت ولادته الشريفة آيات باهرة توحي بجلال الوليد وعظمته وأن له شأنًا لم يكن لغيره من المواليد، تجلى في رضاعه وفطامه وفي كل أدوار طفولته، حتى اتجهت الأنظار إليه، وتفاءلت بولادته.

يصور بعض تلك الأدوار في أبيات شعرية رفيعة بعض الشعراء القدامى إذ عرض لمديحه فقال:

وبدت في رضاعه معجزات ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبته ليتمه مرضعات قلن ما في اليتيم عنا غناء
فأتته من آل سعد فتاة قد أبتها لفقرها الرضعاء
أرضعته لبانها فسقتها وبنيها ألبانهن الشاء
أصبحت شولا[2] عجافا[3] وأمست ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل إذ غدا للنبي منها غداء

(١) مجلة الحج - ذو الحجة.
(٢) شولًا: ناقصة اللبن.
(٣) عجافًا: هزالًا ضعافًا.

يا لها منة لقد ضوعف الأجر عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله أناسا لسعيد فإنهم سعداء

وفي دور الرضاع تخوفت عليه مرضعته البأس ....[١] يلحق به السوء، أو يكون للشيطان فيه نصيب، وذلك ....[١] روعت به من حادثة شق الصدر المروية في جميع ....[١] السيرة، فاحتملته إلى أمه، فعجبت أمه من مفاجأة المرضعة لها برد ابنها إليها، وقد كانت حريصة على استبقائه ....[١] من أمد الرضاعة المألوف- وجرى بينهما الحوار الآتي:

آمنة: ما أقدمك يا ظئر، وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟

الظئر: قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي عليّ وتخوفت فيه الأحداث فأديته إليك كما تحبين.

آمنة: ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك.

الظئر: لم تدعني حتى أخبرتها أي: بخبر شق الصدر.

آمنة: أفتخوفت عليه الشيطان؟

الظئر: نعم.

آمنة: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل وإن لبني شأنًا أفلا أخبرك خبره؟

الظئر: بلى.

آمنة: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء به قصور بصرى من أرض الشام، ووالله ما رأيت من عمل قط، كان أخف ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته، وإنه لواضع يديه على الأرض، رافع رأسه إلى السماء - دعيه يا ظئر وانطلقي راشدة.

ولم يقدر له أن يعيش في كنف الأم وحنوها ورعايتها فقد قضى عليها

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

بالموت ، إذ فرغ أجلها وهو لم يعد دور الطفولة كما مات أبوه من قبل ، فتولى الله رعايته وكلاءته فأحسن تأديبه ، ثم خاطبه في محكم الكتاب بخير خطاب فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: الآية ٤] .

ومن الآيات الباهرة التي صاحبت طفولته أيضًا ؛ ما أخرجه ابن عساكر عن جهلمة[1] بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش : يا أبا طالب ، أقحط الوادي وأجدب ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ، ومعه غلام كأنه شمس دجى تجلت عنه سحابة قتماء حوله أغيلمه فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ الغلام بإصبعه- أي أشار بإصبعه إلى السماء- كالمتضرع الملتجئ ، وما في السماء فزعة (قطع من سحاب) فأقبل السحاب من ههنا وههنا ، وأغدق وأغدودق- كثر مطره- وانفجر الوادي ، وأخصب النادي ، وفي ذلك يقول أبو طالب مادحًا :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

وهكذا مر دور الطفولة فيه آيات ومعجزات وكرامات تشعر كما أسلفنا بما ليتيم بني هاشم من الجلال والعظمة ، وأن طالعه طالع سعد للأمة وفأل خير وفلاح ، وكذلك كان دور الصبا كله مسالك راشدة ، ومناهج صالحة ، وخطط نضوج ، لا يشبهه فيها فتى ، ولا يبلغ شأوه فيها مكتمل ، لم يكن له إلى اللهو نزوع كأترابه ، ولم يكن للصبوات والنزوات أثر في مسالكه شأن رفقائه ، إنها عناية الله أدركته فحفظته وارتفع بها إلى الذروة بعيدًا عن المهابط والمآخذ ومزلات الأقدام لما يعده الله من النبوة وحمل أعباء الرسالة ، وكان بين قومه أمينًا صينًا عفيفًا كريمًا ، جمع الفضائل واستوفى المكارم .

(١) كذا في الأصل ، وفي « الخصائص الكبرى » للسيوطي ص ١٤٥، ٢٠٥، وسبل الهدي والرشاد للصالحي الشامي ٢/ ١٣٧: « جهلمة » .

رسالته الخالدة:

إنها رسالة الحق والهدى والنور الشاملة الكاملة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سَبَإ: الآية ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

قرر واقع الرسالة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه؛ إذ وقف أمام النجاشي ملك الحبشة يفند مزاعم سفراء قريش الذين طلبوا من النجاشي أن يسلِّم مهاجري الحبشة إليهم فقال[1]: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، كنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد، نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله... إلخ.

إنها الدعوة التي قلبت المعايير الفاسدة، وأخرجت العباد من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق ومن التشبث بالوهم والخيال إلى تفيء ظل الواقع والحقيقة، وحطمت الأغلال والقيود التي كبلت الأمة وجعلتها أسرى للتقاليد البالية والعادات المزرية.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٠١، وابن خزيمة (٢٢٦٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها. وحسنه محققو المسند.

دعا الرسول ﷺ إلى تحرير العقول والتفكير والتدبر في حقيقة دعوته وواقع رسالته دون ارتفاع عن محيط البشرية أو تطلع إلى رياسة أو طلب لمغنم يجره إلى نفسه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: الآية ١١٠]، ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: الآية ٥٧] أي: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة أجرًا فيحملكم على النفور من الغرم، وعدم الاستجابة، وصمد صمود الرواسي أمام زمجرة الباطل وإرهاب الخصوم.

لم يفت في عضده وقع الأذى ولا تعذيب شيعته والنيل من أتباعه، ولم يثنه عن دعوته إغراء بالمادة أو تلويح بالمنصب والسلطان، يقول لعمه، وقد نقل إلى مسامعه عروض قومه السخية؛ ليعدل عن دعوته، وتبليغ رسالة ربه: واللَّه يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللَّه أو أهلك فيه ما تركته.

وتحدى قومه بالصلاة عند البيت جهارًا في رهط من أتباعه فلم يستطع أحد أن يناله بسوء، وكذلك الحق حين يصطرع مع الباطل تكون له الغلبة، أو على الأقل يضحي واقعًا لا يكابر فيه ويماري في وجوده.

وأخذ ﷺ يخطو خطوات إيجابية في سبيل دعم رسالته وتأييدها، ولو من قبل الأبعدين عنه، وفي خارج نطاق قريش، وكانت الحظوة لقبيلتي الأوس والخزرج سكان المدينة في قبول إشعاع الدين، والأخذ به، ودعوة قومهم إليه، وعقد البيعة مع الرسول ﷺ؛ لصيانته وحمايته مما يحمون منه نساءهم وذراريهم حتى يبلغ رسالة ربه، وتحالفوا معه حلفًا عسكريًّا على حرب الأحمر والأبيض، واستوثقوا لأنفسهم قائلين: هل عسيت أن أظهرك اللَّه عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا. فقال مؤكدًا الحيازة إليهم مهما كانت الظروف: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أسالم من سالمتم، وأحارب من

حاربتم »[(١)].

وكان هذا التعاقد أول خطوة اتخذها الرسول؛ لدعم الدعوة، وتثبيت أركانها، وتهيئة الجو الصالح لوضع حجر الأساس للدولة الإسلامية، ورفع رايتها، وإبراز وجودها تحت الشمس تناضل عن دين الله، وتنافح الخصوم، وتكيل لهم الصاع بالصاع، وأمر أصحابه بعد هذا الحلف بالهجرة إلى المدينة حيث العز والمنعة وحيث ....[(٢)] والأنصار فأخذوا يخرجون إليها أرسالًا مستخفين ....[(٢)] ضجة؛ خشية الحظر عليهم والحد من هجرتهم، وكانت خاتمة الشوط أن لحق الرسول بأصحابه في مهاجرهم هو والصديق الأكبر تحرسهما عناية الله حتى ....[(٢)] المستقر والتقى الرسول بالأنصار أهل الدار، وكان يوم اللقاء يومًا مشهودًا، ولا يزال الدهر على مروره ....[(٢)] ترانيم أناشيده، ويصور واقع الفرحة والسرور البادي ....[(٢)] يقول فيه فتية الأنصار[(٣)]:

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وأضحت المدينة عاصمة الإسلام وانبثق منها ....[(٢)] التشريع، وطار إلى الآفاق صوت البشرى بولادة عصر جديد للحرية والمساواة والعدل وخرجت منها كتائب الأسد المظفرة، ترد كيد الخصوم وتضيق الخناق على البادي وتصاول الأعداء في معارك طاحنة أصاخت لها الديار، واتجهت إليها الأنظار، وكان

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٤٦٠ من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه. وصححه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة ص١٤٦.

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢/٥٠٧، ٥/٢٦٦ عن ابن عائشة مرسلًا معضلًا. وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٩٨).

الرسول قطب رحاها وبدا الأبطال في ترجيح كفتها ، وأذعن لسلطان الدولة الفتية قبائل العرب القاصية والدانية ، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا ، وتغير مجرى التاريخ فأضحت المدينة كعبة القصاد ، وملتقى الوفود ، ومنارًا للهدى ، وعاصمة للإسلام ، واستسلمت مكة وما حولها ، ودخلها الطريد الشريد فاتحًا مظفرًا رافعًا رأسه على قربوس سرجه[١] تواضعًا له وشكرًا لنعمته ، ووقف على باب البيت الحرام يمن على السادة العبيد ، وأعلنها مدوية بعد أن تساءل قائلًا : « ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[٢] .

ولم تسمع بعد يومئذ للكفر نأمة ، ولا لخصوم الإسلام على دولة الإسلام صولة ، وهكذا استمر الإسلام من نصر إلى نصر ؛ تحقيقًا لوعد اللَّه ، إذ يقول : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٣] .

وهو كذلك إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها ؛ شريطة يتمسك به تمسك السلف الأبرار ، والأخذ بتعاليمه ...[٣] إليه ، وتحكيمه ، وعدم الخروج عليه ، كما قال تعالى : ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: الآية ٧] ، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧] .

وقبل أن يأتي الرسول الكريم ﷺ في نهاية المرحلة مرحلة حياته ويلحق بالرفيق الأعلى حج حجة الوداع سنة عشر من الهجرة ، وخطب الناس يوم عرفة خطبة رسم فيها أسس العدالة ومناهج الإصلاح والعلاج في جمع لا يقل عن مائة وأربعين ألفًا ، على ما ذكره بعض المؤرخين ، وغدت كدستور للأمة لا يضلُّ

---

(١) القربوس : حنو السرج . أي : قسمه المقوس المرتفع من قدم المقعد ومن مؤخره فهما قربوسان .
(٢) أخرجه البيهقي ٩/ ١١٨. وضعفه الألباني في الضعيفة (١١٦٣) ، وتقدم تخريجه قريبًا .
(٣) كلمة غير واضحة .

منتهجه ولا يعثر من أخذ به واتبعه، وكان فيما قاله: «أيها الناس إنما المؤمنون أخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب اللّٰه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد[(١)].

«أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد؛ كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند اللّٰه أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت، فليبلغ الشاهد الغائب»[(١)].

هذه الشخصية الفذة العظيمة التي غيرت مجرى التاريخ، وهذا النور الوضاء الذي أشرق على الدنيا يوم ولادته فكان لها بإشراقه اليمن والسعادة، لم يكن بد من أن يخبو يومًا جريًا على سنة اللّٰه في آن الخلود للّٰه الواحد الديان ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

غير أن صفحته لم تطو من هذه الدار الفانية حتى قرت عينه بخلود آثاره وبقاء دينه حيًا إلى الأبد ونورًا يتألق فيضيء السبيل ويهدي إلى صراط اللّٰه السوي، كما قال ﷺ: «تركتكم عى المحجة البيضاء؛ ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك»[(٢)]- وكما قال الصديق الأعظم أبو بكر رضي اللّٰه عنه، إذ أعلن وفاة الرسول ﷺ: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللّٰه فإن اللّٰه حي لا يموت[(٣)]. واستشهد بقول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٤٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٢٦، وابن ماجه (٤٣) من حديث العرباض بن سارية رضي اللّٰه عنه. وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٤١، ١٢٤٢، ٣٦٦٨) من حديث عائشة رضي اللّٰه عنها.

المولد النبوي الشريف

تتقاضانا المناسبة السعيدة مناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف أن نسهم مع الكاتبين وندلي بدلو مع المحتفين بهذه الذكرى الحبيبة، وننصرف عن وصل الكتابة في المواقف الحاسمة لصاحب المولد ﷺ إلى تسطير جانب من حياته؛ ليكون خير درس للأمة في هذه الذكرى، وأفضل حافز لتعشق المثل الرفيعة، التي رسمها رسول الهدى الجديرة بالاقتفاء والاهتداء بهديها، والحرية بالتزامها والسير في منهاجها.

ولئن كان حظ الناس، أو بعضهم، في الأوساط الإسلامية إحياء هذه الذكرى بزخارف وبهارج يعنون بأمرها، وأناشيد، وترانيم يصدحون بها، وموشحات وتغزلات في ملامح صاحب المولد وخلقه؛ كقولهم: يا أسيل الخدين، ويا كحيل العينين! فإن من حظ هذه البلاد المقدسة التي استقبلت ببالغ الفرحة على أرضها أعظم مولود، وشع فيها نور الهدى، من حظها، بل ومن حقها أيضًا، أن تحتفي بالهدى والنور الذي جاء به صاحب المولد ﷺ والمثل الرفيعة التي رسم خطوطها فبلغت بالأمة الإسلامية أوج الكمال وذروة المجد، وارتفعت بها من البداوة الجافية، والعنجهية الجامحة، إلى رقة في الشعور، ورفعة في الأخلاق، وسمو في الغاية، ونبل في المقصد، وغدت كما وصفها الله تعالى: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠].

أقول من حق هذا البلد المقدس الطاهر، أن يهدي للأمة الإسلامية في يوم الذكرى الحبيبة لمعًا عن إنسانية العظيم الكريم صاحب المولد ﷺ التي يصورها أدق تصوير اتجاهاته الكريمة نحو الأمة، ويعبر عنها بوضوح أقواله وأفعاله التي طفحت بها السنة، وتناقلها العدول من لدن صحابته حتى الآن.

وهي- أي: السنة المطهرة- بحر زاخر سوف نكتفي منه بالوشل كإيماءة إلى

صاحب الذكرى تغني عن الإفاضة، وكنماذج تحكي ألوانًا من اتجاهاته في وضع المعالم للمجتمع الإسلامي السعيد، والحفاظ على الروابط بين أبنائه، والقضاء على كل ما من شأنه أن يذهب ريحهم ويفل رابطتهم ويصدع صرح الأخوة في الله فيما بينهم.

يطالعنا من ذلك اتجاهه لمحو الفوارق بين الأمة- فوارق النسب والحسب والجاه والمال وما إليه- مما يتعالى به بعض الناس على بعض؛ ليتكافأ أفراد المجتمع في الدم والحقوق، ويشعر الجميع أن الناس سواسية؛ كأسنان المشط، الملك والسوقة، والأمير والصعلوك، والحسيب والنسيب والوضيع المرزأ، والغني والفقير المحروم، الكل أمام الحق سواء، والكل في شرعة الإسلام أخوة، فلا تعاظم أو تعالٍ، أو استكبار أو تفاخر، كل ذلك مما وضع رسول الهدى من شأنه واعتبره- مجافيًا لأخوة الإسلام- يصور ذلك قوله ﷺ: «الناس من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[١]. وقوله ﷺ: «يا بني هاشم، لا يأتني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم»[٢]. وقوله: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٣].

أي: إنما يكون السبق إلى الدرجات العلى بالأعمال الصالحة، لا بالحسب والنسب ولا بأي شيء آخر، وقوله ﷺ: «أوحى الله إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد، على أحد ولا يفخر أحد على أحد»[٤]. وقال: «يحشر المتكبرون

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف ١/ ٩١: غريب جدًا. وقال المناوي في الفتح السماوي ١/ ١٨٥: قال الولي العراقي: لم أقف عليه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان »[(١)] أي : بقدر تعاليهم واستكبارهم على الخلق في الدنيا ، ينكمشون في الآخرة ، عندما يكون للعلو أثره الطيب المحمود ، كما قال تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: الآية ٨٣] .

وكما اتجه صاحب المولد ﷺ لمحو الفوارق بين أفراد الأمة ، اتجه إلى الارتفاع بها عن الرذائل وسفاسف الأخلاق مما يشكل خطرًا على الأمة ، ويكون معول هدم لكيانها ؛ يحكي هذا الواقع قوله ﷺ : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، [ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا][(٢)] ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر المرء أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، التقوى ها هنا ، ويشير إلى صدره ، ألا لا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »[(٣)] .

ولم يقف هذا الاتجاه الكريم عند رسم الخطط وبذل التوصيات ، بل دعم ذلك بالزواجر والقوارع ؛ ترهيبًا عن الانزلاق في الإثم ، ومجانية للرشد ، والتجني على الغير ، وفي ذلك ابتغاء العوج وإفساد الروابط بين أفراد المجتمع ، يقرر هذا الاتجاه قوله ﷺ : « من أشار إلى أخيه بحديدة . أي : مفزعًا له متجنيًا عليه- فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي » ، أي حتى يترك ما أقدم عليه وإن كان أخاه لأبيه

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٩، والترمذي (٢٤٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه . وحسنه الألباني .
(٢) في الأصل مكررة .
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٤، ٦٠٦٦) ، ومسلم (٢٥٦٣، ٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وأمه- وقوله ﷺ : « من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه اللّٰه يوم القيامة » .

وإذا كانت النظرة المخيفة والإشارة الطائشة إلى المسلم تعتبر في نظر الشرع جناية تستوجب الجزاء ؛ كفاءً لذلك ، فكيف بمن يخيف المسلم ويفجعه في ماله ، ويستلبه منه بسيف القانون ظلمًا وعدوانًا ، أفلا يكون أعظم جرمًا وأشد عناءً بالاقتصاص والجزاء ؛ كفاءً لما اجترم ؟ ومن ذلك قوله ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »(١) .

وقيل له ذات يوم : يا رسول اللّٰه ، إن فلانة تكثر أو تذكر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ؟ فقال : « هي في النار »(٢) . وإلى جانب هذه الزواجر والقوارع لمسات تستثير الوجدان ، وتحرك في النفوس العواطف الحانية ، وتغلب فيها جانب الرحمة ؛ من ذلك قوله ﷺ ، وقد شكى إليه رجل قسوة قلبه : « أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك ؟ ارحم اليتيم ، وامسح رأسه ، وأطعمه من طعامك يلين قلبك ، وتدرك حاجتك »(٣) .

وكان يقول : « من أنظر معسرًا أو وضع له- أي تنازل له عن جزء من الدين- أظله اللّٰه يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله »(٤) . ويقول : « من أراد أن تستجاب دعوته أو تكشف كربته فليفرج عن معسر »(٥) .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر بن عبد اللّٰه رضي اللّٰه عنه .

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤٠ من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٦٠) .

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٦٣، ٣٨٧ من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه ، نحوه ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢١٤ من حديث أبي الدرداء رضي اللّٰه عنه . وانظر الصحيحة (٨٥٤) .

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٩، والترمذي (١٣٠٦) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه . وصححه الألباني .

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ٢٣ من حديث ابن عمر رضي اللّٰه عنهما . وضعفه الألباني في الضعيفة .

وسأله أعرابي عن عمل يقربه من الجنة ويباعده من النار، فقال: «تقول العدل وتعطي الفضل». قال: والله لا أستطيع أن أقول العدل كل ساعة، ولا أستطيع أن أعطي الفضل. قال: «فتطعم الطعام وتفشي السلام» قال: أيضًا هذه شديدة، قال: «فهل لك من إبل؟». قال: نعم. قال: «فانظر إلى بعير من إبلك وسقاء ثم اعمد إلى أهل بيت لا يشربون الماء إلا غبًّا- أي نادرًا- فاسقهم، فلعلك لا يهلك بعيرك ولا ينخرق سقاؤك حتى تجب لك الجنة».

وجاء رجل ليبايعه على الهجرة فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان، فقال له الرسول الرحيم: «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»[1]. وقال له رجل: إنني أشتهي الجهاد، ولا أقدر عليه، فقال له: «هل بقي من والديك أحد؟» قال الرجل: نعم، أمي. فقال له: «قابل الله في برها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد»[2].

إلى غير ذلك من المثل الرفيعة والأهداف الكريمة التي رسم خطوطها صاحب المولد ﷺ، ووضع المعالم للاهتداء إليها، والسير في طريقها اللاحب، هي كما قلنا: خير ما يحتفى به في هذه المناسبة السعيدة، وخير ما يهدى للأمة في يوم الذكرى الحبيبة؛ إذ فيه تذكير بما لعله أن يكون قد عفي عليه النسيان لتقادم العهد عليه من حياة صاحب الذكرى الحافلة بالمحامد والفضائل والأهداف الكريمة والمثل الرفيعة، والمقاصد الإسلامية النبيلة، التي تشق بها الأمة الطريق سالكة الجدد، آمنة من العثار، مستجمعة وسائل الخير، مفضية إلى

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٦٠، وأبو داود (٢٥٢٨)، وابن ماجه (٢٧٨٢)، وابن ماجه (٢٧٨٢)، والنسائي (٤١٦٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٢٧٦٠)، والطبراني في الأوسط (٢٩١٥) من حديث أنس رضي الله عنه. وقال الألباني في الضعيفة (٣١٩٥): منكر.

دار السلام، وفيها التبصير بالحق الواجب لصاحب الذكرى ﷺ من الإجلال والتوقير والحب المكين الصادق، والاعتراف بمنته في الدلالة على الخير، والتوجيه إلى أقوم السبل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٨، ٩].

أما ما يجنح إليه بعضهم مما أسلفنا القول عنه في صدر المقال من بهارج وزخارف تقام لهذه المناسبة واجتماعات لقراءة قصة المولد، إن هو إلا أمر مبدوع لم يأت به كتاب أو تكن فيه إثارة من هدي صاحب الرسالة ﷺ، أو نقل عن خيار الأمة في عصور النور، ولذلك أنكره المحققون من العلماء؛ إذ جعل شعارًا دينيًا، وعبادة يبتغي القائمون بها الزلفى إلى الله، ومن المتقرر شرعًا أن العبادات توقيفية؛ فمحظور أن يأتي المرء بعبادة بعد أن أكمل الله الدين لرسوله وانتقل إلى الرفيق الأعلى.

وليس من شك أن السلف، رضوان الله عليهم، هم أعلم الأمة بلا مراء وأتقاهم لله وأصحهم مسلكًا، وأكثرهم حبًا لرسول الله ﷺ، وأشدهم له تعظيمًا واتباعًا، وأعرفهم بمناهج الخير.

ولو كان فيما يذهب إليه بعض من الناس في أعقاب الزمن من الاحتفالات بيوم المولد مظهرًا وشكلًا، لو كان في ذلك قربة إلى الله لما سبق الخلف السلف في ذلك.

ولقد كان بعضهم رضوان الله عليهم يترك بعض السنن المشروعة؛ لئلا يظن الناس أنها واجبة فيلتزمونها؛ من ذلك أن الخليفتين الراشدين أبا بكر، وعمر رضي الله عنهما، وابن عباس تركوا التضحية في عيد النحر، لئلا يظن الناس أنها واجبة لا مندوحة لمن حج أن يضحي.

ونقل عن الإمام مالك[١] رحمه الله وغيره من أهل العلم والمعرفة قوله: من أحدث في هذه الأمة شيئًا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣] فما لم يكن يومئذ دينًا. لا يكون اليوم دينًا وقال الشاطبي[١] رحمه الله، وقد سئل عن القراءة في المساجد- لعله كما يصنع الناس اليوم تأكلًا بالقرآن: لم يكن ذلك بالأمر القديم، ، وإنما هو شيء أحدث، ولم يأت آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، والقرآن حسن. اهـ.

وقدوة أنصار محتضني بدعة المولد، كما حققه العلماء، هو أبو سعيد الكوكبوري التركماني الجنس، صاحب إربل الملقب بالملك مظفر الدين، التابع في ولايته للسلطان صلاح الدين، أحدثها في أوائل القرن السابع، أو أواخر القرن السادس الهجري.

ففي تاريخ ابن خلكان[٢] أنه أي: أبو سعيد، كان ينصب مقدار عشرين قبة من الخشب، كل قبة فيها أربع طبقات له منها واحدة، والبقية للأمراء وأعيان دولته، وكانوا يزينون هذه القباب في أول شهر صفر بأنواع الزينة الفاخرة، وكانوا يضعون في كل قبة جوق من الأغاني، وجوق من أرباب الخيال، ومن أصحاب الملاهي، بل كانوا لا يتركون طبقة من الطبقات بغير جوق، ويترك الناس كل عمل في تلك الأيام فلا يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران على القباب، قال ابن خلكان: فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج - أي: أبو سعيد- من الإبل والبقر والغنم شيئًا كثيرًا زائدًا عن الوصف، وزفها بجميع ما عنده من الطبول والأغاني والملاهي حتى يأتي بها إلى الميدان، ثم يشرعون في نحرها وينصبون القدور ويطبخون ألوان الطعام المختلفة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وفيات الأعيان ٤/١١٧- ١١٨.

وإذا كان ليلة المولد بعد أن يصلي المغرب ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير، وفي جملتها شمعتان، أو أربع من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها، وهي مربوطة على ظهر البغل، فإذا كانت صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه على أيدي الصوفية، على يد كل شخص منهم بقجة وهم متتابعون، كل منهم وراء الآخر. اهـ. باختصار.

ومن هذا العرض يبدو بوضوح أن الاحتفال بيوم المولد على الطريقة المألوفة في بعض الأوساط الإسلامية اليوم ما هو إلا تقليد متوارث من نهاية القرن السادس الهجري، وأن الطقوس التي كانت تقام إذ ذاك ودرج عليها بعضهم أو أنقص فيها في أعقاب الزمن ما هي إلا مجرد استحسانات وآراء وانسياق وراء التأويلات والظنون التي لا تغني فتيلًا، وقد يلتمس لها من واقع السنة سندًا، ويحتج بحديث: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها»[1]- الحديث.

وليس له في ذلك سند ولا حجة؛ فإن المراد باستنان السنة في الإسلام انتهاج طريقة مشروعة في الإسلام كإشهار الصدقة في حالة وجود من يقتدي بالمتصدق، كما ورد في قصة المضريين الذين وفدوا على رسول اللَّه ﷺ وهم في حالة من البؤس والفاقة، مما تمعر له وجه رسول اللَّه ﷺ، حتى قام في الناس خطيبًا حاثًّا على الصدقة مرغبًا في التكافل الإسلامي، فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عن حملها، وكان أسوة لغيره في البذل والإنفاق حتى اجتمعت أمام رسول اللَّه ﷺ كومان من طعام، وحتى تهلل وجهه بشرًا وسرورًا فقال: «من سن في الإسلام سنة حسنة»[2] الحديث.

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

وهكذا كل عمل خيري يكون فيه نفع يعود على الفرد أو المجموع يغدو به المرء قدوة لغيره له أصل في الشرع يشق به الطريق أمام مريدي الخير فيسن بذلك سنة حسنة في الإسلام يكون له أجرها وأجر من عمل بها .

أما الأمر المحدث المبدع الذي لم يكن له أصل في الدين فهو السنة السيئة ، وهو البدعة المضلة التي يكون لمبتدعها ومحدثها وزرها ، ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ، وترد على مبتدعها ، ويؤاخذ على ابتداعه ، كما جاء في الحديث : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »(٢) . وفي رواية أخرى : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »(٢) . وهو ما حذر منه رسول الله ﷺ بقوله : « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة »(١) .

ودرج على هذا النحو صحابته الكرام من بعده حتى حفظوا الدين واضحًا نقيًّا من أحداث المحدثين وبدع المستحسنين ، وما لم يكن في الماضي وعلى عهد النور في عصور الإسلام الذهبية المفضلة دينًا ، لا يصح أن يكون في أعقاب الزمن دينًا يتعبد به العباد ويبتغون عليه الأجر والثواب .

وجملة القول أن الحفاوة بيوم المولد وتخليد ذكراه وإظهار الشعور نحو صاحب المولد ﷺ لا يكون إلا بالمشروع لا المبدوع ، ولن يعطي المرء البرهان على تقديره للرسول الأعظم ﷺ ومحبته والاستجابة له إلا بالعمل بشرعه واتباع سنته ، وجعل هواه تبعًا لما جاء به ، كما قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »(٢) .

وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد ؛ سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وصحبه .

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٦، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض بن سارية . وصححه الألباني ، وتقدم تخريجه .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (١٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه . وضعفه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة .

شهر المولد .. وصاحب المولد[(١)] !

تتسم بعض الأمكنة والأزمنة بطابع خاص تكون به موضع العناية الملحوظة والرعاية الخاصة ، فمن الأمكنة مكة مهبط الوحي ومنبع النور والعرفان ، وملتقى وفود الله ، وهي البلد الحرام الذي أقسم به رب العزة ، والحرم الآمن الذي قال فيه عز من قائل : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٧] .

ومن الأزمنة شهر رمضان المبارك- شهر الصوم والقرآن ، وشهر ربيع الأول الذي منَّ الله فيه الإنسانية جمعاء بولادة سيد الأنام المثل الكامل للإنسانية ، فكلما أشرقت شمس هذا الشهر على الوجود أشرق البشر بإشراقها ، وبدت على الكون علائم السرور والحبور ، وتجددت للمسلمين فيه أجمل ذكريات سجلها التاريخ بين صحائفه ؛ لولادة البشير النذير ، والهادي بهداية الله ، والسراج المنير ، والمرسل إلى الثقلين كافة بالهدى والنور والرحمة ، وقال عنه رب العزة : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] .

ولد المصطفى ﷺ في أعقاب حادثة مروعة ، رسم القرآن صورها ، فكانت عبرة الدهر ، وآية على قدرة العظيم رب العرش الكريم ، حيث انتقم من الظالمين الذين وطئوا حرمه ، وأزمعوا تحطيم بيته ، فقضى عليهم القضاء المبرم ، وسجل عليهم الخيبة في قرآن يتلى ، وعظات تتردد : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥] .

كانت الولادة النبوية الشريفة على إثر هذه العبرة جبرًا لمصاب أهل الحرم الذين كانوا على شيء من دين إبراهيم- يعظمون البيت ويعظمهم الناس من أجل

---

(١) مجلة الحج - ١٦ ربيع الأول - ١٣٨٠هـ.

البيت ، فعزهم مرتبط بالبيت ، ولو ذهب البيت لاندثر مجدهم ، وهوت منزلتهم ، فحمى اللّٰه البيت ، وأكرمهم بولادة من يحفظ لهم حرمة البيت وهيبته ، ويجدد لهم الملة ؛ ملة رافع قواعد البيت ، إبراهيم خليل اللّٰه ، ويعيد لهم المجد الغابر والعز الداثر ، كما حدثهم بذلك إبان بعثته ، فقال : « جئتكم بعز الدنيا وصلاح الدين »(١) .

وظفر سيف بن ذي يزن الحميري بالحبشة بعد المولد الشريف ، فقدمت وفود العرب مهنئة بالنصر ، وكان بينهم عبد المطلب جد المصطفى ﷺ فخلا به ابن ذي يزن ، وأدنى مجلسه ، ودار بينهما الحديث التالي :

ابن ذي يزن : يا عبد المطلب ، إني مفوض إليك من علمي أمرًا لو غيرك كان لم أبح له به ، ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك عليه فليكن مصونًا حتى يأذن اللّٰه فيه ، فإن اللّٰه بالغ أمره :

إني أجد في العلم المخزون والكتاب المكنون الذي ادخرناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبرًا وخطرًا جسيمًا فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس كافة ولرهطك عامة ولنفسك خاصة .

عبد المطلب : أيها الملك – بروسر – وبشر ما هو فداك أهل الوبر زمرًا بعد زمر .

ابن ذي يزن : إذا ولد مولود بتهامة بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة إلى يوم القيامة .

عبد المطلب : أبيت اللعن – لقد أبت بخير ما آب به أحد ، فلولا إجلال الملك لسألته عما ساره إلى ما ازداد به سرورًا .

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في « الموضوعات » ١/٣٧١ من حديث ابن عباس رضي اللّٰه عنهما . وانظر اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي ١/٣٢٦.

ابن ذي يزن : هذا حينه الذي يولد فيه ، أو قد ولد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد وجد مرارًا- واللّٰه باعثه جهارًا- وجاعل له منا أنصارًا يعز بهم أولياءه- ويذل بهم أعداءه- ويغنم كرائم الأرض- ويضرب بهم الناس عن عرض ...(١) يخمد الأديان ، ويكسر الأوثان ، ويعبد الرحمن ، قوله حكم وفصل ، وأمره حزم وعدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

عبد المطلب- يخر ساجدًا ثم يرفع رأسه ويقول في سرد قصة المصطفى ﷺ والأدوار التي مرت به أبوة وأمومة ، فمولد ، فيتم ، فكفالة .

أيها الملك : كان لي ابن كنت له محبًا وعليه حنونًا مشفقًا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه يقال لها : آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، فجاءت بغلام بين كتفيه شامة ، فيه كل ما ذكرت من علامة ؛ مات أبوه ، وأمه ، وكفلته أنا ، وعمه .

ابن ذي يزن : إن الذي قلت لك ، كما قلت ، فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود ، فإنهم أعداء ، ولن يجعل اللّٰه لهم عليه سبيلًا .

ونجتزئ من حديث ابن ذي يزن وعبد المطلب بهذا القدر ففيه الغرض من تفصيل واقع المولد الشريف ، وتقرير حقيقة صاحب المولد ونشأته وقيادته للعالم ورفعة مقامه وسعادة قومه به وشرف الحياة للناس عامة برسالته ومتابعته .

ولقد كانت الولادة الشريفة أول فتح للعرب وأول فخار انعقد تاجه على رؤوسهم حيث تحولت الرسالات والنبوات من ولد إسحاق إلى ولد إسماعيل ، وانحصرت في صاحب المولد ، فكان خاتمة الأنبياء وسيد المرسلين ، فلا يطمع أحد بعده في نبوة ، ولا يحلم حالم برسالة : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠] وذلك أكبر دليل لحقد اليهود على العرب وعلى نبي الإسلام منذ أن أشرق الكون بإشراق نوره وشع على

(١) كلمة غير واضحة بالأصل .

العالم بهاؤه فلا يدع أن دام السلب بين اليهود والعرب ، فعداء اليهود للعرب وحقدهم عليهم متأصل وحنقهم موروث .

ونشأ المصطفى ﷺ نشأة من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وحسبه بذلك حفظًا وصيانة وتسديدًا وتوفيقًا وهداية ؛ ولحظة بالعناية والرعاية الربانية وسد العوز والفاقة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨] وكان لهذه التنشئة والتربية الربانية أثرها في حياته فكان حدوبًا على الفقراء ، عطوفًا على اليتامى ، بارًّا بذوي المتربة .

وتمت نعمة اللَّه عليه وعلى أمته ببعثته ﷺ ورسالته رسالة عامة شاملة للأسود والأبيض ، والعرب والعجم ، والإنس والجن ، فكانت البشرى ، وكانت الفرحة العظمى للبشرية والمنة الكبرى للباري جل وعلا على العباد فسجلها سبحانه في آيات تتلى تذكر بها ، وتوحي بتقديرها وعدم جحودها أو التنكر لها ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٤] .

وامتن على رسوله أيضًا بهذا البعث وهذه النعمة السابغة فقال : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشّورى: الآية ٥٢] قال بعض العلماء رحمهم اللَّه في حفز الهمم لتقدير نعمة بعثة المصطفى ﷺ : إن النعمة على الأمة بالرسالة أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء والأرض والشمس والقمر والرياح والليل والنهار وإنزال المطر وإخراج النبات وغير ذلك ؛ فإن هذه النعم كلها قد عمت خلقًا من بني آدم كفروا باللَّه وبرسله وبلقائه ، فبدلوا نعمة اللَّه كفرًا ، أما النعمة بإرسال محمد ﷺ فبها تمت مصالح الدنيا والآخرة ،

وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده، وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، فصيام يوم تجددت فيه هذه النعم من الله على عباده المؤمنين حسن جميل، وهو من باب مقابلة النعم في أوقات تجددها بالشكر، ونظير هذا صوم يوم عاشوراء؛ حيث نجى الله فيه نوحًا من الغرق ونجى فيه موسى وقومه من فرعون.

وإذا كان هذا فضل النعمة بإرساله إلى العالمين على عموم النعم، فكيف بفضله وشرفه وجلال قدره ورفعة مقامه، وحسبك بشخصية قرنها رب العزة باسمه؛ فلا يذكر إلا وتذكر معه، ترتفع بالإشادة بها مآذن المسلمين في بقاع الدنيا كل يوم خمس مرات، لا جرم أن فضله فوق كل صاحب فضل، وشرفه ومنزلته ومقامه يجب أن يكون أرفع من أية منزلة ومقام لأي زعيم وعظيم؛ ومن أجل ذلك يجب أن تكون الحفاوة به وبذكره تختلف عن الحفاوات بالعظماء والكبراء والرؤساء والزعماء، يجب أن تكون الحفاوة به في كل وقت وحين، لا تقتصر على يوم أو شهر أو ساعة، ولا تحدد بحدود، ولا تستوعبها الشكليات، ولا تقف عند المظاهر.

وإن من الحفاوة به أن تستشعر النفوس عظمته وتنطوي القلوب على حبه حبًّا يكون كل حب لمخلوق مهما ارتفعت منزلته في النفوس دون حبه، وكل تعظيم لمخلوق وتوقير دون تعظيمه وتوقيره «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(١). ومن دلائل هذا الحب الغامر والتوقير العظيم الاستجابة لأمره في إحياء سنته من بعده، فإن الحبيب من يحرص أشد الحرص على الحفاظ بتراث حبيبه، وجمع ما تفرق منه، وصونه بين شغاف القلوب وتحت أهداب العيون، وتراث الحبيب الهادي ﷺ، سنته ودينه فمن أحياها

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وحافظ على التمسك بالدين كان له أجر خمسين من صحابة الرسول الكريم، كما صح بذلك الحديث[١]، وكان بحق ممن صدق قلبه لسانه في محبة المصطفى ﷺ فيعطر الأندية بذكره والصلاة والسلام عليه، ويحيي سنته ودينه إيذانًا بتغلغل الحب في قلبه.

أما من يقتصر على المظهر دون المخبر، وعلى مجرد الدعوى دون تصديق القول بالعمل؛ فيحتفي بالمولد وصاحب المولد، في يوم المولد مع أن ذلك بدعة لا يقرها صاحب المولد فهو ممن يكتفي بالمظهر الخلاب والبهرج البراق دون أن يعطي الدليل الواضح على صدق المحبة وكامل الولاء للشخصية الفذة العظيمة شخصية المصطفى ﷺ، كما يجب له على أمته إزاء فضله الذي لا يعدله فضله، ومنته التي تربو على كل منة لبشر، وصلى اللَّه على خير خلقه الهادي بهداية اللَّه إلى سبيل اللَّه، وعلى آله وصحبه المهتدين بهديه.



(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي اللَّه عنه، مطولًا، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٤)، بنحوه.

أربعة أدوار(١)

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨]

أربعة أدوار في التاريخ الإسلامي، كتبت فصولها بماء الذهب في سجل الخلود.

نعم إنها أدوار خالدة تملي العبر والعظات وتوحي بالطمأنينة لأصحاب المبادئ المثالية والأهداف الرفيعة.

نعم أربعة أدوار يجب ألا ننساها. يجب أن يعرفها الصغار منذ نعومة أظفارهم، وهم في دور التعليم الأولى، ويجب أن يدرسها الطالب الناضج بتوسع، ويجب أن تلقنها ربات الحجال من سيدات القصور؛ إذ كانت في صميم الحياة الإسلامية وفي واقعها الصحيح، إنها أدوار بطل الأبطال، وفارس الفوارس، وأعظم الهداة والمرشدين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه.

يبدأ الدور الأول بالمولد الشريف وبما لابسه من أحداث عظام في التاريخ وخوارق لم تكن تجري على السنن وظواهر كانت مبدأ التوجس والذعر ومثار الظنون ومجالات لإطلاق الفكر في سهوب مترامية الأطراف تحفز إلى التيقظ والانتباه وسبر الحوادث وتقدير المفاجئات.

كانت ليلة المولد الشريف مبدأ التطورات، وإيذانًا بقلب وجه التاريخ وكتابة أولى صفحاته اللامعة؛ إذ تزلزلت فيها المعنوية الكسروية بتزلزل عرشها وارتجاس إيوان عظيمها سليل الأكاسرة وعميد الدولة صاحب الصولجان والتاج.

---

(١) مجلة الحج - ربيع الأول - ١٣٧٣هـ.

لبس كسرى تاجه وجلس على سرير ملكه، وأعلن مرازبته ووجوه دولته بالشخوص إليه، ففعلوا وهو لا يفعل ذلك إلا لأمر ذي بال أو حدث داهم يخشى مغبته.

وقص عليهم خبر الإيوان وسقوط بعض شرفاته، ولم ينته من أقوصته حتى وافاه خبر خمود نيران المعبد في نفس الليلة التي ارتجس فيها الإيوان، فازداد غمًّا وكمدًا، وحاول أن يفهم سر ذلك، أو أن يجد عند مرازبته حلًّا لمأساته، بل ومأساتهم أجمعين، ولكنه بدلًا من ذلك استوقفه كبير مرازبته وشيخ شيوخه بصوته الأجش قائلًا: وأنا أيها الملك السعيد الجد، قد رأيت البارحة رؤيا عجبًا؛ رأيت إبلًا ضعافًا تقود خيلًا عرابًا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فزاد بهذه الرؤيا ضغثًا على إباله.

ولم يتمالك الملك أن طلب من الموبذان تعبير رؤياه، فعبرها بفقرة مقتضبة، يصح أن تكون كإنذار للملك بانتقاص أطراف مملكته والخروج عليه، فقال في تعبيره: حدث يكون في أرض العرب.

وعملت هذه الفقرة في نفس العظيم عملها، فلم ير بدًّا من هتك حجب الغيب واستطلاع المخبأ، فاستنجد بعامله على الحيرة النعمان بن المنذر، وطلب بعث رجل لبيب حصيف مجرب عركته الحوادث وتمرس في الأمور يجد عنده طِلْبته، ويكشف له غمته، ويسأله عما أدلهم من أمره، فبعث إليه النعمان بعبد المسيح الغساني، فلم يغن في الأمر شيئًا، غير أنه أشار بعرض الرؤيا على سطيح الكاهن في مشارف الشام، فهو ابن بجدتها، والخبير بمدلولها، والعليم بتأويلها، وانتهى الأمر وعبر سطيح الرؤيا بانهيار ملك الأكاسرة بعد أن يملك منهم عدد ما سقط من شرفات الإيوان، وسكن روع الملك، وهدأت ثائرته، وانفسح أمامه باب الأمل؛ إذ علم إنه ليس المقصود بالذات وأن الأحداث المنوه

عنها لن تكون إلا عندما تهرم الدولة أو تكاد.

هذا ما كان من الأحداث الملحوظة خارج الجزيرة لمناسبة المولد الشريف، أما ما كان في محيط الولادة، فقد رأت أمه ﷺ منذ أن حملت به أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى بالشام[١]

وذكر عثمان بن أبي العاص، عن أمه: أنها شهدت ولادة النبي ﷺ ليلًا، قالت: فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور وإني أنظر إلى النجوم تدنو حتى أني لأقول: ليقعن عليّ[٢]. ولقد غدوا بذلك في جو يحفه الطهر بكل معانيه والبهجة في شتى مظاهرها.

تأتي بعد ذلك مرحلة الإرضاع وما لابسها من خوارق، وما اكتنفها من أسرار، وما تخللها من عبر، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن يدًا خفية هي فوق كل تصور وكل تقدير، تولت تنشئة هذا المولود فأضفت عليه ألوانًا من العناية تشكلت في صور شتى يلمسها القارئ الكريم عند تتبعه لهذا الدور واستيعابه كل ظروفه وملابساته.

تلك هي يد العلي القدير سبحانه، وقد استرضع في بني بكر بن سعد في سنة تصفها الظئر أنها شهباء، لم تبق لهم شيئًا، وبلغ الجهد واللأواء بها وبقومها غايته، ثم استبدلت ببركة هذا المولود بالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجهد، والأمحال والسعادة في جميع حقول النشاط الذي كانت تزاوله.

تقول الظئر: فما زلنا نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان.

وتستوقفنا في هذا الدور حادثة هي في عداد ما سجل له من خوارق وفي

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ٢١٨٦، وابن الأثير في أسد الغابة ٧/ ١٣٦.

جملة ما أحصي له من مدد إلهي، له أوضاعه وظروفه وقد تحدث عنها ﷺ؛ إذ شرفه الله بالرسالة، وعرض له بالسؤال عن ذلك بعض صحابته فقال: واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجًا، فأخذاني فشقا بطني فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وباطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزنني بعشرة فوزنتهم. ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنها[1]. وفي رواية فاستخرجا منه مغمز الشيطان وعلق الدم. وفيها وجعل الخاتم بين كتفي كما هو الآن.

ولقد تخوفت عليه الظئر بعد هذه الحادثة صروف الليالي فأرجعته إلى أمه على مضض وقصت عليها الخبر فردت عليها الأم بقولها: أفتخوفت عليه الشيطان؟ كلا والله، ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبني لشأنًا- هذا الشأن قد بدرت بوادره لعبد المطلب جده حين ضمه إليه بعد وفاة أمه فكان يكبر كل تصرف يبدر منه وهو في هذا الدور دور الحداثة ولقد كان يوضع لعبد المطلب فراش بجوار الكعبة لا يجرؤ أحد أن يجلس عليه إعظامًا له إلا رسول الله ﷺ فكان يتقبل عبد المطلب هذا الطموح والنزوع إلى العظمة برحابة صدر وإعجاب ويقول: دعوه فوالله إن له لشأنًا وكان لا يطيب له أن يتناول طعامًا حتى يدعو حفيده قائلًا: عليّ يا بني فيؤتي به إليه.

وعندما انضوى إلى كنف عمه أبي طالب بعد وفاة جده رأى من اليمن

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ١٤٦/١ عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ. وقال الألباني في صحيح السيرة ص١٧: وإسناده جيد قوي.

والبركة ورخي العيش ما لم يكن له به عهد ، ولقد كان ذا عيلة وعيال تضيق بهم موارد الرزق .

ينقل صاحب « عيون الأثر »[(١)] عن الواقدي قوله : كان أبو طالب مقلًّا من المال ، وكانت له قطعة من الإبل فيبدو إليها ويؤتى له بلبنها ، وكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعًا وفرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول اللّٰه ﷺ شبعوا ، فكان أبو طالب إذا رأى أن يغذيهم يقول : كما أنتم حتى يأتي ابني . فيأتي رسول اللّٰه ﷺ فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم ، وإن كان لبنًا شرب رسول اللّٰه ﷺ أولهم ثم تناولوا القعب فيشربون منه فيروون من القعب الواحد ، وإن كان أحدهم ليشرب قعبًا وحده ، فيقول أبو طالب لرسول اللّٰه ﷺ : إنك لمبارك .

ولقد طالت عشرة أبي طالب لرسول اللّٰه ﷺ، فضمه إليه وهو في الثامنة من عمره، وترعرع في كنفه، واصطحبه معه في إحدى رحلاته إلى الشام، فرأى من الدلائل على ارتفاع شأن ابن أخيه ما جعله يحوطه بالكثير من بره وعطفه وعنايته .

وعندما بلغ دور النضج عقد له عقد قرانه على إحدى فضليات النساء المعدودات المعلومات بالشرف وطيب الأعراق ، فهيأت له حياة زوجية هانئة رضي عنها كل الرضا .

وعندما شرفه اللّٰه تعالى بالرسالة ؛ وهذا هو الدور الثالث كانت له خير مشجع ومعضد وخير عون ونصير ، ولقد كان يقص عليها خبر ما يرى ويشاهد ويسمع في خلواته التي كان يعمد إليها للتحنث ، فكانت رضي اللّٰه عنها تسكن روعه ، وتهدئ خواطره ، وتقوي عزيمته ، بأمثال قولها : أبشر فإن اللّٰه لا يبلغ بك إلا خيرًا ، أبشر فإنك رسول اللّٰه حقًّا ، معاذ اللّٰه ، ما كان اللّٰه ليفعل بك ما تكره ؛

(١) عيون الأثر ١/ ٥٩.

إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وكانت أول مؤمنة به، إذ أمره اللّه أن يجهر بتبليغ رسالة ربه، وآزرته على أمره، فخففت عنه العبء، وهونت عليه المتاعب، وكان عمه أبو طالب يقوم من جانبه بمتابعة نصرة ابن أخيه، والذود عنه، وحياطته بالنفس والنفيس، حتى يبلغ رسالة ربه في أمن ومنعة من قومه أن يصيبوه بما يكره.

ولقد قبل أبو طالب قطيعة قومه وهجرهم له وحجزه في الشعب مع بني هاشم حمية وتتمة للدفاع عن ابن أخيه، مع أنه كان على دين القوم، وعقائد الأسلاف؛ من أجل ذلك عندما توفيت زوجه خديجة رضي اللّه عنها، وتوفي عمه أبو طالب، حزن الرسول ﷺ على وفاتهما حزنًا شديدًا، واستطال عليه بعض خصومه، ونالوا منه بعض النيل، فصبر وثابر، ورسم الطريق لأرباب المبادئ السامية في الثبات والصبر والتضحية في سبيل الغاية، حتى إذا ما بلغ السيل الزبي، واستفحل أمر خصومه، وضيقوا الخناق عليه وعلى أصحابه؛ لدرجة أنهم صمموا على التخلص منه باغتياله، أذن اللّه له في الهجرة إلى المدينة، إذ صار له فيها شيعة وأنصار احتضنوا دعوته واعتنقوا دينه وأعطوه العهود بنصرته والذود عنه إن هو هاجر إليهم، فانتقل إليهم يصحبه الصديق، أول مؤمن به، وأشد المسلمين تأثرًا بدعوته؛ أبو بكر الخليفة الراشد رضي اللّه عنه.

ومن هنا يبدأ الدور الرابع، وفيه أيضًا من العبر وتأييد اللّه لرسوله والعناية به وحفظه من كيد الكائدين ومكر المبطلين ما يزيد المؤمن إيمانًا باللّه والثقة بوعده في إتمام النعمة لنبيه والتمكين له وإظهار دينه على جميع الأديان ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصَّف: الآية ٨]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٣].

وقد أجلبت قريش بخيلها ورجلها وبعثت الرسل في كل النواحي ووضعت جائزة مغرية لمن يأتيها بالرسول ﷺ وتتبعت الأثر حتى بلغت غارًا بجبل ثور، كان الرسول وصاحبه قد اختبئا فيه، حتى يهدأ عنهم الطلب، وكان رسول اللّه ﷺ يهدئ روع الصديق ويهون عليه الخطب بقوله: «لا تحزن إن اللّه معنا»[(١)] ثم انطلقا بعد الثلاثة الأيام شطر المدينة، وسمع سراقة بن مالك المدلجي بجائزة قريش فركب فرسه وسلك نفس الطريق التي سلكها الرسول وصاحبه، وعندما أصبح منهما قاب قوسين ساخت به قوائم فرسه فنزل عنها وانتهرها، ثم أخذ باللحاق بهم وعاودت الفرس عملية التعثر والانسياخ، وتكرر من سراقة النهر لها والعسف، يقول سراقة: فناديتهما بالأمان، فوقفوا وركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر اللّه أمر رسول اللّه ﷺ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس منهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يسألاني. وهذه هي إحدى الظواهر في قصة الهجرة والكرامات التي أكرم اللّه بها نبيه.

وثمة قصة أم معبد[(٢)] إحدى المعجزات والخوارق التي كثيرًا ما روى التاريخ أمثالها في مناسبات كثيرة لسيد البشر، صلوات اللّه وسلامه عليه، وخلاصتها: أن رسول اللّه ﷺ وصاحبه عرجا في طريقهما إلى المدينة بامرأة من خزاعة تدعى: أم معبد. استسقياها ماء، أو لبنًا، فلم يجدا عندها غير شاة خلفها الجهد عن الغنم، فأذنت لهما في حلبها، فدعا بها رسول اللّه ﷺ، ومسح ظهرها،

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥، ٣٦٥٢)، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث البراء بن عازب رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجها الطبراني (٣٦٠٥، ٦٥١٠)، والبيهقي في الدلائل ٢٧٨/١ من حديث حبيش بن خالد، وقال الألباني في مشكاة المصابيح (٥٩٤٣): ضعيف، وقد يرقى إلى الحسن بتعدد طرقه.

وضرعها ، ثم دعا بإناء فحلب فيه وملأه ، وشربا منه حتى امتلأ ريًّا ، وتركا منه بعد ذلك فصلًا كثيرًا ، وانتهى التسيار برسول اللَّه ﷺ ، حيث بلغ المدينة مهاجره ، فكان يومًا مشهودًا ، وكان حدًّا بين عهدين ، ومبدأ تاريخ جديد للحياة الإسلامية في دور النشاط والكفاح ،

وهذا الدور هو الدور الثالث من أدوار حياة الرسول ﷺ ، وهو حافل بجلائل الأعمال وعظيمها ، فكان فيه إكمال شعائر الدين من أذان وحج وجهاد وصوم وزكاة وغير ذلك ، وكان فيه الإذن بالقتال ؛ تدعيمًا للدعوة ، وحماية لمبادئها ، وامتدادًا لسلطانها ، فكانت السرايا والغزوات ، وفيها المعارك الفاصلة التي غيرت مجرى التاريخ ؛ أذكر من بينها غزوة بدر الكبرى ، وغزوة قينقاع ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، ثم الفتح الأعظم فتح مكة ، فدخلها رسول اللَّه ﷺ مؤيدًا منصورًا في جنود اللَّه وكتائب الإسلام عظيمة السواد ، حتى لقد قال أبو سفيان ، زعيم قريش إذ ذاك ، وهو من مسلمة الفتح ، قال للعباس عم النبي ﷺ : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا . فرد عليه العباس قائلًا : إنها النبوة . قال : أبو سفيان : فنعم إذن[1] .

وبفتح مكة يبدأ الدور الرابع، وهو دور فتر فيه نشاط الغزو إذا استثنينا غزوة حنين والطائف وتبوك، وإذا استثنينا بعض سرايا كانت تبعث ؛ إما لهدم صنم أو لإخضاع فريق شاذ ، أما معظم عرب الجزيرة فقد دانوا بالإسلام ، ودخلوا في دين اللَّه أفواجًا .

وكان في هذا الدور تقاطر الوفود على رسول اللَّه ﷺ بالمدينة مسلمين ومستسلمين ومسترشدين .

وفيه بعث رسول اللَّه ﷺ رسله تحمل كتبه إلى الملوك والعظماء المعاصرين

---

(١) أخرجه الطبراني (٧٢٦٤) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما .

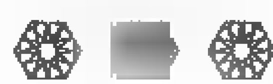
له يدعوهم إلى الإسلام ، وعندما استكمل التشريع اعتزم رسول اللّٰه ﷺ الحج ، فتابعه عليه أكثر من مائة ألف حاج من جميع أنحاء الجزيرة ، خطب فيها خطبته المشهورة يوم عرفة ، جمع فيها الأهداف الرفيعة التي بها قوام أمر البشر وصلاح أحوالهم ، وأنزل اللّٰه تعالى عليه في الموقف آية : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: الآية ٣] .

فكانت إيذانًا بانتهاء المهمة ، ونعيًا ملحوظًا للنبي الكريم ، ومنة عظمى على المجموعة الإسلامية بإتمام الدين وإكمال النعمة وارتضائه دين الإسلام دينًا عامًّا للبشرية جمعاء ، لا يقبل اللّٰه من أحد دينًا سواه .

وفي إكمال الدين ما يوحي بسد باب الابتداع والاستحسان وزيادة شيء لم يشرعه اللّٰه على لسان رسوله ؛ إذ إن الزيادة في الكامل نقص ولا ريب .

وبعد أن أتم رسول اللّٰه ﷺ المناسك عاد إلى المدينة ، ولم تمض عليه كثير أيام حتى اعتل ثم اشتدت به العلة حتى لحق بالرفيق الأعلا صلوات اللّٰه وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد فهذه كلمة عجلى وسطور هي أقل ما يجب أن يسطر عن حياة الرسول الأعظم ﷺ فيها العظة والذكرى وفيها قرة العين وسرور النفس ونعيم القلب ، وهي كما أسلفت ، أدوار وفصول في التاريخ الإسلامي كتب لها الخلود ، ويجب ألا تنسى .



الهجـرة[١]

الحديث عن الهجرة طويل شائق ، ولذيذ مستملح ، والقول بها طويل ماتع مديد ، والنظرة إليها كمبدأ وكوسيلة من وسائل الكفاح يرد عادية الظلم ، ويحد من سطوة الجور والطغيان ، هذه النظرة تجعل الهجرة خطوة إيجابية لا مندوحة عن التقدم بها كلما دعت الظروف والملابسات وحفز إليها الواقع .

وأول من شق الطريق إليها وغدت بعده سنة للسالكين وهدفًا للداعين والمصلحين إمام الحنفاء وأبو الأنبياء خليل الله إبراهيم ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، بعد أن كاد له الكائدون ، وابتلي في ذات الله ، وافتتن في إيمانه وعقيدته ، فثبت ثبات البطل الباسل ، لم تفت في عضده العواصف الهوج حتى تحطمت عند صخرة ثباته جميع قوى الشر ، وبطل كيد الكائدين .

فاتخذ طريق الهجرة إلى الله من بين القوم الظالمين ، ونزح من العراق إلى حران ، ومكث فيها ما شاء الله أن يمكث ، ثم استأنف هجرته إلى مصر ، ومنها إلى فلسطين بلد الأنبياء والأرض التي باركها رب العزة ، حيث يقول في محكم كتابه العزيز : ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٧١] .

وقال رسول الله ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : « ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم » . أخرجه أبو داود[٢] . أي ستتكرر الهجرة إلى ديار الإسلام ، وأفضل هجرة وأفضل مهاجرين هم أولئك الذين يغزون يهود ، ويستخلصون من بين أيديهم ومن سلطانهم المتداعي ؛ فلسطين .

---

(١) مجلة الحج - محرم وصفر ١٣٧٤هـ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٨٢) . وضعفه الألباني .

وفي ذلك البشارة من طرف خفي إلى نصرة المسلمين، وسحق القوم الظالمين اليهود وأشياعهم، كما صحت بذلك الأخبار فيما يتعلق بمستقبل فلسطين وتشريد اليهود منها في أخريات الزمن، وكل آت قريب، وما نصر المسلمين لو صلحت منهم النية، وصدق العزم، ورجعوا إلى اللّٰه- ما نصرُهم على اللّٰه بعزيز ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٠].

وهاجر أيضًا مع خليل اللّٰه إبراهيم؛ ابن عمه لوط عليه السلام، هاجر من بابل في العراق إلى الأردن، وكانت فلسطين والأردن وسوريا آنذاك شيئًا واحدًا؛ لم تكن مفصولة بحواجز سياسية تفصلها عن بعضها، وتجعل لكل قطعة منها مسمى مخصوصًا، قال تعالى في قصة هجرة لوط بعد قصة إبراهيم: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٦]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ٧٤، ٧٥].

وهاجر موسى رسول رب العالمين ببني إسرائيل من مصر ومن وجه الظلم وعنجهية فرعون وجبروته؛ محاولًا الوصول إلى الأرض المقدسة.

وهاجر صحابة رسول اللّٰه ﷺ بأمر رسول اللّٰه من مكة إلى أرض الحبشة مرتين؛ فرارًا بدينهم من الاضطهاد والظلم، واعتصامًا باللّٰه ربهم، واحتجاجًا على ظلم الظلمة وطغيان المتجبرين.

وهاجر رسول اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة؛ إذ تنكر له قومه، وبيتوا قتله والقضاء على دينه وشيعته. فهي إذن- وأعني الهجرة- سبيل السالكين وطريق العارفين وهدف الداعين، وقد كتب لها الخلود؛ لأنها

كما أسلفت، وسيلة من وسائل الكفاح الإيجابي لا معدى عنه، ولأنها مبدأ، والمبادئ شأن في النفوس؛ إذ تجد منها التجاوب الصادق الحميد.

والهجرة دين وعقيدة ومن ذلك كان لها ثبات الأديان ورسوخ العقائد لا تضمحل فكرتها أو يتلاشى ظلها ما دام في الدنيا حافز من ظلم الظلمة، وجور الجائرين، وما برح بين الخليقة صلف وتجبر وعجرفة وكبرياء وطغيان وصد عن سبيل اللَّه وكفر وإلحاد باللَّه.

ولهذا كان النكير شديدًا على من تخلف من المسلمين في الصدر الأول عن اللحاق برسول اللَّه والهجرة إليه ورضي بالاستخذاء والضعة بين صفوف المشركين، وكانت نقمة اللَّه بهم عظيمة، حيث توعدهم بسوء العقبى، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

وإذن ما دام الأمر كذلك أي: ما دامت الهجرة هي طريق الوصول إلى اللَّه وهي الدين والعقيدة اللذان باركهما اللَّه، فلزام على كل مسلم أن يهاجر؛ ولزام على كل مبتغي الفلاح والنجاح أن يسير إلى اللَّه يحدوه الشوق إلى ترسم الهدى الراشد والسنن القويم في مجال الهجرة اللاحب.

ولقائل أن يقول: وكيف يكون ذلك، وقد أسقط نبي الرحمة الهجرة بقوله: «لا هجرة بعد الفتح، لكن جهاد ونية»(١)؟ أجل إن رسول اللَّه ﷺ بعد أن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٣، ٢٨٢٥)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما.

دانت له الجزيرة ودخل الناس في دين اللّٰه أفواجًا ، وفتح اللّٰه عليه مكة ، أسقط الهجرة بالمعنى المعروف في عهده، حيث لم يعد ثمة حافز للهجرة إليه في المدينة ولكنه لم يسقطه في حق كل من كانت له ظروف مشابهة لظروف المسلمين في صدر الإسلام ، بمعنى : أنه لم يك في وضع يسمح له بعبادة اللّٰه ، وتأدية شعائر الإسلام في أمن ، دون محاسبة أو اضطهاد ، وهو ما يفصح عنه قوله ﷺ : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها »[١] .

فعلى هذا الفريق مِنْ مَن مني بالفتنة في دينه والاضطهاد في حريته أن يهاجر إلى اللّٰه في بلد يأمن فيها ، ويتمكن من عبادة ربه ، كما يحب ويرضى .

أما من أمن من الافتتان، وكان في منعة وفي بيئة إسلامية ومجتمع صالح فالهجرة بالنسبة إليه هجرة معنوية ؛ ليس فيها هجر للوطن والأحبة ، وليس فيها نقلة وارتحال وتكبد متاعب وتحمل مصاعب- هي هجرة من طراز آخر ، يجد بها المهاجر متعة القلب ، وراحة الضمير ، وسكون النفس ، وحسن المنقلب والمصير ، هي هجرة إلى اللّٰه بالتجافي عن الآثام أيًا كان لونها ، والحد من نزوات النفس وحظوظ الشيطان والتواءات الباطل ، ثم بانتحاء مسلك الخير والتكمل والاتجاه صوب مثل عليا يتم بها الصقل والتهذيب الروحي والنفسي معًا، ويشمل ذلك جملة من الفضائل مجتمعة في قول الرسول ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى اللّٰه عنه »[٢] .

ذلك أن اللسان واليد أبرز الجوارح للبطش والاستطالة ، ووسيلتا هدم وتجن على الغير .

---

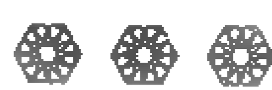
(١) أخرجه أحمد ٤/ ٩٩، وأبو داود (٢٤٧٩) من حديث معاوية رضي اللّٰه عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٩، ٦٤٨٤) ، ومسلم (٤٠/٦٤) . واللفظ للبخاري بتمامه .

فالكذب وقول الزور والغيبة والنميمة، وما إلى ذلك من القواصم، كل ذلك طريقه اللسان، وله الفعالية المطلقة فيه؛ والبطش بكل ألوانه يرفعه سفك الدم الحرام، ويخفضه الصفع، وإشارة الهزء والسخرية، كل ذلك وأضرابه طريقه اليد وعليها إثم الجناية فيه، وبالسلامة من شرورهما- أعني اللسان واليد- يسلم للمسلم إسلامه مما لعله أن يعلق به من أوضار المعصية وتبعات الذنوب.

ثم في الشطر الآخر من الحديث شمول لناحية السلب العام تجاه كل محرم، وإزاء كل فحش وخنى، سواء كان أداة ذلك للسان أو اليد أو غيرهما من الجوارح، يوضحه قول الرسول ﷺ: «كتب على ابن آدم حظه من الزنى فهو مدرك ذلك؛ العين تزني وزناها النظر؛ والأذن تزني وزناها السمع». وعدد جملة أشياء نسب إليها المعصية ثم قال: «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[1].

وإذن فالهجرة إلى الله فريضة محتومة قائمة أبدًا إلى قيام الساعة لا تنقطع ما دام في النفوس نزوع إلى الخير، وتوقان إلى الفضائل، ورغبة صادقة في تأثر هدى الصالحين والوصول إلى مدارج السالكين، سدد الله الخطى.



(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣، ٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الهجرة .. مقدمات ونتائج

في مستهل كل عام تشرق على ربوع المسلمين ذكرى حبيبة إلى نفوسهم، مليئة بالعبر وألوان من الكفاح، إنها ذكرى هجرة المصطفى ﷺ من مكة مهبط الوحي إلى المدينة مأرز الدين ومهجر سيد المرسلين.

والهجرة في واقعها عمل إيجابي مرسوم له مقدمات ونتائج، لم تكن الهجرة وليدة الأحداث دون تصميم سابق، أو كانت هربًا من التجني والظلم والإرهاق ومصادرة الحريات التي كان يمني بها صاحب الهجرة ومن تابعه على دينه واهتدى بهداه.

أما مقدمات الهجرة أو الخطوة الأولى في سبيلها فالعهود والوعود التي قطعها الأنصار لرسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية عندما اجتمعوا برسول الله ﷺ على موعد منه أوسط أيام التشريق، وحضر معه هذا اللقاء بالأنصار عمه العباس، وهو على دين قومه؛ ليستوثق لابن أخيه من قوم لم تكن له بهم صلة، وإنما هي الصدقة أو على الأصح الهداية إلى دين الله وإرادة الله بهم الخير، جعلت لهم هذه السابقة في احتضان الإسلام ونصرته وإيواء رسوله والذود عنه.

يقول العباس: يا معشر الخزرج- وكانت العرب تدعو الأوس والخزرج بذلك- إن محمدًا منا حيث قد علمتم في عز ومنعة، وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم تفون له بما دعوتموه إليه ومانعوه، فأنتم وذاك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة.

قال الأنصار: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، وخذ لنفسك وربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ وتلا عليهم القرآن، ورغب في الإسلام، ثم قال: «تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله ﷺ وقال والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا، فبايعنا يا

رسول اللَّه ، فنحن واللَّه أهل الحرب .

وأراد بعض الزعماء ممن حضر البيعة أن يستوثق من رسول اللَّه ﷺ إذا وفوا له بما عاهدوه عليه ونبذوا من أجله بالعهود ورموهم عن قوس ، فقال : يا رسول اللَّه ، هل عسيت أن أظهرك اللَّه عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول اللَّه ﷺ ، وقال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنتم مني وأنا منكم أسالم من سالمتم ، وأحارب من حاربتم »[(١)] .

وذلك ما يصور مبدأ الضمان الحربي في أوضح صورة ، وأجلى بيان ، ثم اختار رسول اللَّه ﷺ من المؤتمرين اثني عشر نقيبًا بايعوا قومهم ، وقال لهم : « أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي »[(٢)] أي : فيما يجب للكل من الالتزامات نحو الآخر من الوفاء والقيام بما التزمه .

ولقد سبق هذه البيعة ، بيعة العقبة الأولى التي على أثرها بعث رسول اللَّه ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة يقرئ القرآن من أسلم ، ويدعو إليه ، ويبصر بدين اللَّه ، وما يفرضه من تنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق وبين الناس بعضهم مع بعض ؛ بحيث يكونون في منجاة عن التخليط والتشريك في حقوق الخالق وواجب المخلوق .

كانت هاتان البيعتان مقدمتين للهجرة النبوية حيث ذللت أمامها الصعاب ؛ إذ انتشر الإسلام في المدينة انتشارًا لم يسبق له مثيل في تاريخ الأديان بالسرعة الهائلة التي دخل الناس بها في الدين أفواجًا ، فكان يوم قدوم رسول اللَّه ﷺ يوم

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه ابن سعد ٣/٦٠٢ من حديث محمود بن لبيد رضي اللَّه عنه . قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٨٥ : « ترجمة « محمود بن لبيد » : ولد بالمدينة في حياة رسول اللَّه ﷺ ، وروى عنه أحاديث يرسلها » . وانظر جامع التحصيل للعلائي ص ٢٧٥.

جاء المدينة- ويقول أنس بن مالك رضي اللَّه عنه : شهدته- يعني رسول اللَّه ﷺ- يوم دخل المدينة فما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا- واستقبله فيمن استقبل النساء والصبيان ينشدون نشيدهم المحبب الذي يشعر بمدى السرور البالغ والارتياح العظيم لقدوم الرسول الكريم ﷺ .

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا للَّه داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع(١)

ومن مقدمات الهجرة أيضًا ترخيصه ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى المدينة عندما اشتد بهم البلاء ونقمة قريش عليهم وتعذيبهم فوق ما يحتمله البشر ؛ ذلك أنه لم يكن لينفسح لهم السبيل في الهجرة وهم أعوانه وشيعته إلا وهو يزمع الهجرة أيضًا ليجمع بهم حيث العز والمنعة ، ولكنه لا يدري متى يكون اللقاء ، حتى أذن اللَّه له في الهجرة ، وعين له الرفقة .

أذن له في الهجرة في الليلة التي أزمعت قريش ، وأجمعت على قتله فيها ؛ إذ علمت بتتابع أصحابه إلى المدينة ، وأيقنت أنه قد أفلت من يدها الأمر ، وإن وراء تتابع المهاجرين إلى المدينة ما وراءه من تضافر القوى ، وشحذ العزائم ، والالتفاف حول الرسول ﷺ ، ثم تكون له صولة ودولة تعكر صفو قريش، وتكون حربًا عليها تقطع عنها طريق تجارتها إلى الشام ، وطريق الشام هو الشريان الذي إذا انقطع ماتت قريش جوعًا وكسدت تجارتها ، فرأت قريش أن تقطع الطريق على هذه الرابطة ؛ رابطة المهاجرين برسول اللَّه ﷺ بالقضاء عليه ، ثم لا يكون لأتباعه بعده نأمة .

ولكن اللَّه جلت حكمته إذ أذن لرسوله في الهجرة أيده بروح منه وسلمه من

---

(١) تقدم تخريجه .

كيدهم ومكرهم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠]، وأخرجه من مكة، كما قال تعالى في وصف الهجرة، وصاحب الهجرة، وصديق رسول الهجرة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

وكان اللقاء الكريم بين الأحبة أنصار الدين والمهاجرين إلى الله رب العالمين، وكانت التضحية والإيثار مثلًا رفيعًا يضربهما الأنصار، رضوان الله عليهم، بالنسبة لإخوانهم في الله المهاجرين، وقد امتدح القرآن صنيع الفريقين وأثنى عليهم ثناء عاطرًا دام لهم به المجد الخالد، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

أما نتائج الهجرة النبوية فإن القلم ليعجز عن حصر ما لها من نتائج، ولو لم يكن من نتائجها إلا أن المسلم قد امتلك بها حريته، وانطلق من قيد العبودية التي كان مكبلًا بها وذل القهر والجبروت الذي فرض عليه، فأصبح بعدها يجهر بعبادته، ويصدع بإسلامه، ويذود عن دينه بالسيف وحد السنان بعد أن كان قبل الهجرة لا يعبد ربه إلاَّ مستخفيًا، ولا ينضم إلى جماعة المسلمين أو يتصل برسول الله ﷺ إلا سرًّا، لو لم يكن إلا ذلك لكفى.

كيف وقد أصبحت الأمة الإسلامية بالهجرة عزيزة الجانب ، مستقلة الشخصية ، وتتابع بعدها نزول الوحي على رسول الله ﷺ مفصلًا لما أجمل من القرآن في السور المكية من الأحكام الإسلامية، أحكام الحرب والسلم والسياسة والاقتصاد ، وفرضت الزكاة ، والحج ، والجهاد ، وبقية شرائع الإسلام .

وأخذ رسول الله ﷺ يضع بقية أسس الإصلاح الاجتماعي ، ويوطد دعائم الدولة الإسلامية ، وكان فيما صنعه كتابته للملوك والأمراء في عهده بالدعوة إلى الإسلام والإذعان لتعاليمه ؛ لئلا تجد الأمة بعده من يناوئ هذا الدين ، أو يكون حربًا عليه ، وعندما دعت الحاجة لمنازلة الدول المناوئة للإسلام غزاها بنفسه وبعث البعوث لمنازلتها ومصاولتها لتسلم أو تسالم ولتعترف مرغمة بدولة الإسلام وبأسها المرهوب .

أما بعد ، فإن الهجرة بما لها من مقدمات ونتائج ، وبما أوحت به من انتفاضة وبعث وبما ترتب عليها من عزة وأمجاد أنها بذلك كله هدف رفيع يجب أن ينشده أرباب المبادئ من دعاة الإصلاح ويأخذ به أولو العزائم الذين يخدمون فكرة ، ويسعون وراء تحقيق مطلب بناء ؛ لأن الهجرة في واقعها تضحية ، ولابد لبلوغ الأهداف والظفر بالمطالب من تضحيات ، وهي كما تكون فراقًا للأوطان وظعنًا عن مغاني الأحبة والأقران ، تكون بعدًا عن الإسفاف ، وعزوفًا عن المثالب والمعائب ومزلة الإقدام ، إذ لا يتم الغرض من هجر الأوطان ، إلا إذا اقترن بطاعة الرحمن والتجافي عن معصية الواحد الديان ، كما جاء في الحديث : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[1] .

أما الأخذ بالشق الأول ومحاولة الانتقال إلى ديار الإسلام دون أن يلجم المرء نفسه عن الشهوة المحرمة والنزوة الطائشة ويترفع عن مزلة الأقدام، فهي هجرة لا

(١) تقدم تخريجه قريبًا جدًّا .

تصور واقعًا صحيحًا للمهاجر بأنها لغرض مغلف ظاهرها الهجرة وباطنها ما عقد المهاجر عليه العزم من مآرب، فيغدو كمهاجر أم قيس الذي هاجر ليتزوج بها ، فقيل لرسول اللَّه ﷺ في ذلك ، فقال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله (أي دون غرض أو شائبة) فهجرته إلى اللَّه ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة[(١)] ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[(٢)] .

ومن بدرت منه بوادر السوء في هجرته، ولم يتبع سبيل المؤمنين في طاعة رب العالمين والكف عن معصيته، فقد كشف عن واقعًا[(٣)] وأعطى الصورة الواضحة عن هجرته، وأنها لم تكن بدافع إيمانه بالهجرة، وإنما كانت سلمًا لغرض ومقدمة لغاية ، ولا نطلب بالهجرة العصمة من الزلل ، فليس في البشر معصوم إلا الرسل ، وإنما نطالب أن يكون المهاجر إلى ديار الإسلام ، وخاصة الحرمين الشريفين ، على جانب عظيم من التقى والصون والعفة يصدق مظهره مخبره ؛ ليصدق عليه قول الرسول ﷺ : « المهاجر من هجر ما نهى اللَّه عنه »[(٤)] .

نسأل اللَّه الهداية إلى أقوم سبيل .



---

(١) كذا بالأصل .

(٢) أخرجه البخاري (١، ٥٤) ، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه ، ولكن سبب الحديث المتعلق بقصة أم قيس ليس عند البخاري ومسلم ، بل ورد من طريق آخر لا يصح .

(٣) كذا بالأصل .

(٤) تقدم تخريجه .

حديث الهجرة(١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] .

ليس موضوع الهجرة بالأمر العادي التافه الذي ينقضي بانقضاء ظروفه ويزول بزوال مقتضياته ، وليس هو مجرد فكرة استبدت بالأذهان واعتملت في النفوس فعملت على تحقيقها والاستجابة لدوافعها .

وليس هو مجرد انفلات من وجه الظلم والطغيان، وانحياز إلى الشيعة والأنصار، حيث الأمن والنصرة والحياة الرخية الوادعة والإيواء وما إليه .

ولكن الهجرة انتصار لمبدأ وموقف سلبي سوف يبقى درسًا عمليًا بارزًا لأرباب المبادئ أبدًا ما بقي في الدنيا مبدأ ، وما فتئ في الناس شعور بالحرية، وحمية على المبادئ، وشيمة للذود عنها والانتصار للكرامات المهدورة .

والهجرة عقيدة وتضحية تصغر أمام عزمتها كل المغريات ، وتحتقر كل المباهج والملذات ، ويهون في سبيلها كل صعب ، ويرخص في مرامها كل غال وعزيز مهما بلغت به الحظوة ، وكان للنفس منه روح ، وللقلب تفتح ورياحين .

والهجرة حد من سورة الظلم وتحطيم لقيود الذل والاستكانة واحتجاج سافر على العنجهية والاستبداد وصيال قوى الشر ورجفة الباطل .

وبالتالي فالهجرة إرهاص لحياة سعيدة رغيدة ، وبداية لمستقبل عظيم ناضر حافل بمجالات العز والكرامة ومناحي العظمة والمجد الخالد .

ومن أجل ذلك كتب لها الخلود ، فغدت الأجيال تتناقل حدثها كأمر ذي بال

(١) مجلة الحج - محرم - ١٣٧٣هـ .

له خطورته، وشأنه وكحدث بارز له في ضمير الدهر مقام مرموق، وأثر ملحوظ ..

ولقد كان من عوامل هذا التخليد أن سن الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تأريخ الكتب بيومها وضبط الصكوك والأوراق والمستندات وكل الوثائق بحدثها التاريخي اللامع؛ حيث رفع له صك لم يؤرخ بغير ذكر الشهر فقط، ولعله كان شهر محرم، فقال الخليفة: أمحرم من هذا العام أم الذي قبله أو بعده؟

ثم عقد ندوة للاستشارة، ووضع ضابط معقول للتاريخ، لا يعدو الحقيقة، وقر قرار الندوة على وضع التاريخ الهجري؛ احتفاظًا بهذه الذكرى الحبيبة إلى جانب الاحتفاظ بالحقوق، والنص على أمد معين مضبوط، يدفع اللبس، ويرفع الإيهام.

وكانت العرب قبل ذلك تؤرخ بالأحداث العظيمة، كحادث الفيل مثلًا، وبأيامها الشهيرة، وحروبها المعلومة كيوم بعاث بين الأوس والخزرج، وحرب الفجار بين كنانة وقيس بعد حادثة الفيل بعشرين سنة، ويوم ذي قار بين العرب والفرس الذي انتصر فيه العرب نصرًا مؤزرًا، وبغير ذلك مما كان له الحدث البارز والأثر المحفوظ.

أما المدلول اللغوي لمادة، الهجرة والهجر، فهو القطع والمجافاة والإعراض والاعتزال والتحاجز، وكل ما في معنى ذلك مما يثبت الحيلولة بين شيئين مطلوب أن تنفصم بينهما العرى وتتقطع الأسباب والعلائق.

يوضح هذا الاتجاه في الناحية الشرعية قول الرسول ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى اللَّه عنه». رواه البخاري ومسلم[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٤٠/٦٤). من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي اللَّه عنهما. واللفظ للبخاري بتمامه. وتقدم تخريجه قريبًا.

وهو معنى رحب ومدلول شامل لا يحجر في فسيح ولا يكفكف منه مديد - وعليه فمجال الهجرة ينتظم ألوانًا من الصور وأشكالًا ، واقع الدنى[(١)] هي محور كدح الكادحين ونقطة ارتكاز نشاطهم في شتى مناحي السعي والكسب، فالمعاصي بكل ألوانها سواء ما كان منها بالقلب كتعلقه بغير اللّٰه رغبة أو رهبة ورجاء معروف، أو دفع مكروه أو انطوائه على النفاق مثلًا ، وكحمله الضغينة والحقد والحسد ، وما إلى ذلك مما يعد نقيصة من النقائص ورذيلة تقتضي المؤاخذة والتنديد أو ما كان منها في الجوارح ، ويدخل في ذلك عموم الإسفاف والتدهور والانحلال النفسي بكل معانيه وظواهره- أو ما كان منها في الخلق ويعني ذلك فساد الصلة بين المجموع ، وفقد الثقة ، وانعدام روح التعاون والتعاطف ، وتقطع الأواصر بما يكون من القضاء على أسس التكافل في الجماعة الإسلامية ونبذ معانيه .

أقول : كل أولئك لما يجب هجره والتجافي عنه، وأخذ النفس بمغالبة النوازع الحافزة عليه في هذا الإطار الفضفاض لمدلول الهجرة محك العزائم ومخبر للكشف عن مبلغ تأثر النفوس احتضانها هذا المبدأ والسير على نهجه المثالي والأخذ بأسبابه دون أن يكون ثمة مبارحة الديار ، وشطة في المزار ، ونزوح عن الأهل والولد ، وتضحية بالنضار كما كان الأسلاف ، رضوان اللّٰه عليهم ، يفعلون ، وعلى ما سيأتي بيانه عندما نعرض لتفسير الآية الكريمة المصدر بها المقال .

أما الهجرة بالمعنى التطبيقي الملحوظ في المنهج النبوي من أمره ﷺ وفعله فهي رفع نير الظلم وكابوس الطغيان والمحنة والخروج إلى حيث الأمن والمتعة ، حيث أخذ كامل الحرية والتصرف والانتحاء أيما انتحاء شاء المرء وسلوك أيسر

(١) كذا بالأصل.

السبل وأحبها إليه وأقربها من نفسه- وبتعبير أدق، وعبارة أصرح، وحسب المنطق العلمي هي: الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، ومن ديار الشرك إلى ربوع الإيمان، ومن ولاية الظلم والطغيان إلى حظيرة التوحيد وحزب الديان.

وقد وضع رسول اللّه ﷺ اللبنة الأولى في بناء صرح هذه الهجرة إذ أمر أصحابه عندما اشتد عليهم وقع أذى المشركين أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة، وقال: «إن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد»(١). فخرجوا إليها مرتين.

وهاجر رسول اللّه ﷺ إلى المدينة؛ تلك الهجرة التي كانت الفيصل بين الحق والباطل، وكان مفروضًا في فجر الإسلام على كل من يحتضنه أن يهاجر من بلده إلى الرسول ﷺ في المدينة؛ لتعلم الدين، والتفقه فيه، والانضواء إلى جماعة المسلمين، وخاصة من خشي على نفسه الفتنة، وكان قومه في غمرة من الجهالة والوثنية لم يدينوا بدين الإسلام وفي أفن يدفع بهم إلى التجني والعدوان، ثم نسخ ذلك فيما بعد حين عز الإسلام وامتد رواقه، ودخل فيه معظم أجزاء الجزيرة العربية، وفتح اللّه على المسلمين مكة، فقال رسول اللّه ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية». أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي اللّه عنه(٢).

وبقي حكم الهجرة وفرضيتها قائمًا إلى يوم الدين في كل من عجز عن إظهار دينه في بلده، وكانت عوامل الفتنة والإغراء فيه بادية، ومعالم الشرك والوثنية فيه منتصبة، وفي ذلك يقول رسول اللّه ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).

والآية- موضوع البحث- يقول المفسرون في سبب نزولها: إن أناسًا أسلموا بمكة وأقاموا بين ظهران المشركين كتموا إسلامهم؛ خشية من قومهم ولم

(١) أخرجه ابن إسحاق - كما في سيرة ابن هشام ١/ ٣٢١.
(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

يهاجروا ثم خرجوا مع المشركين في غزوة بدر تكثيرًا لسوادهم، أو تعمية عليهم، أو إكراهًا فقتلوا مع من قتل من المشركين، فأنزل الله تعالى الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] قيل: ملك الموت وأعوانه. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] أي: بترك الهجرة والارتحال إلى رسول الله في المدينة ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٩٧]؟ أي: قال لهم ملك الموت وأعوانه. أو قالت لهم الزبانية حين يجرون إلى جهنم؛ تبكيتًا لهم، وتقريعًا في أي فريق كنتم؟ أفي فريق المسلمين، أم مع جمهرة الكفرة والمشركين؟ فأخذوا يعتذرون بضعف إمكانياتهم، وعدم قدرتهم على الإفلات من المشركين ليلحقوا برسول الله ﷺ في مهاجره بالمدينة ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النِّساء: الآية ٩٧]، فرد عليهم ملك الموت أو ملائكة العذاب بقولهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] أي أما كان يسعكم ما وسع المهاجرين من المسلمين فتحتالوا على الخروج من بين ظهران المشركين وتنضموا إلى المسلمين في بلد الإسلام وجوار رسوله؟ قال الله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] وذلك جزاء خنوعهم واستكانتهم وتركهم الأمر المفروض عليهم وهو الهجرة. وفي هذا المعنى أيضًا قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العَنكبوت: الآية ٥٦].

قال البغوي رحمه الله: إنها نزلت في قوم من المسلمين لم يهاجروا[١]. وعلى هذا، ومن مجموع ما تقدم، وحاصل البحث أن الهجرة ضرورة لابد منها، وتختلف أوضاعها ومقتضياتها بنسبة الظروف الحافز عليها والدوافع الموحية بهما.

فالهجرة إلى ديار المسلمين وولاية الإسلام التي يتمكن فيها المرء من تأدية

---

(١) تفسير البغوي ٦/ ٢٥١.

الشعائر الدينية دون أي سيطرة أو نفوذ يحد من الإمكانيات والحماس الديني وعبادة الرب جل وعلا هذه الهجرة ضرورة بالنسبة لكل من كان من المسلمين في واقع لا يمكنه من أخذ كامل الحرية في إظهار شعائر دينه والقيام بالواجب المفروض عليه كدين. أو كان يخشى على نفسه الزيغ والفتنة والضلالة بعد الهدى لو طال به أمد البقاء تحت ولاية الكفر وأحكام الطاغوت وفي مجتمع غير إسلامي، ويعتبر المجتمع إسلاميًّا ما طبقت فيه أحكام الشريعة، والعكس بالعكس، أي: لا يعتبر المجتمع إسلاميًّا إذا كانت السلطة التنفيذية فيه لا تطبق أحكام الإسلام، بمعنى: أن الولاية فيه لحاكم غير إسلامي، فهذه الهجرة كما أسلفت باقية أبدًا ما بقي الحافز عليها وما دام نير الكفر وكابوس الظلم والطغيان جائمًا على ربوع الإسلام- والمسلمون في وضع لا يمكنهم من إظهار الشعائر.

أما عدى هذه الهجرة، فهجرة إلى اللَّه بصقل الروح، وتهذيب ملكات النفس، وتغليب عواطف الخير، والارتفاع عن نوازع الشر ومجالات السفه والطيش ومهاوي الرذيلة، وهو ما سبق أن ألمعت إليه في غضون هذا المقال مدليًّا بالحديث الشريف: «والمهاجر من هجر ما نهى اللَّه عنه».

وهذا اللون من الهجرة هو في نفس كل امرئ بحسبه، وبقدر ما اكتمل فيها من منازع واستعداد للخير والرشاد، أو اكتنز فيها من دوافع الغي والفساد، وفي هذا المعنى ما ورد عن رسول اللَّه ﷺ في حديث طويل، عن الحارث بن عاصم رضي اللَّه عنه، عند مسلم: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[1]. واللَّه أعلم..

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي اللَّه عنه.
والمصنف هنا تابع النووي في تسمية أبي مالك الأشعري بالحارث بن عاصم، وردَّ ذلك الحافظ ابن حجر فقال: وهذا وهم، وإنما هو: كعب بن عاصم، أو الحاث بن الحارث. اهـ. انظر رياض الصالحين (٢٦)، والأربعين النووية (المجالس السنية) ص ٢٠١، وشرح مسلم ٣/ ١٠٠، والإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٧٨، ١٢/ ٥٨١.

الهجرة فريضة وعقيدة[١] ..

الهجرة فريضة فرضها الله على العباد عندما يطغى الشر على الخير ، وعندما تتضافر جيوش الباطل للصد عن سبيل الله والوقوف في وجه عباد الله والنيل من أولياء الله ، والحيلولة بينهم وبين ما يريدون من عبادة الله ، عندئذ تكون الهجرة فريضة من بين أظهر أعداء الله إلى حيث ترتفع راية الإسلام خفاقة ، وحيث يتمكن العابدون من عبادة الله وحده ، وإقامة الدين ، لا يخشون بأسًا ، ولا يلحقهم لذلك ظلم ولا هضم ، قال تعالى : ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العَنكبوت: الآية ٥٦] .

جاء في تفسير هذه الآية للحافظ ابن كثير رحمه الله قوله[٢] : هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم .

أما كون الهجرة عقيدة ؛ فلأن المسلم ، وقد خالطت بشاشة الإسلام قلبه ، وانطوت جوانحه على الإخلاص لدينه ، لا يمكنه بحال أن يعيش ذليلًا بين أعدائه أسيرًا في قبضة الخارجين على أمر ربه يفتنونه في دينه ، أو يحدون من نشاطه في عبادة ربه ، أو يقرونه على ما يريدونه من احتضان مبادئ وقبول أساليب في حياته تتنافى مع ما يريده الله من الإيمان به وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٤] ، ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] .

فهو إذن مدفوع بعقيدته ، وأمر الله له أن يقطع الصلة بينه وبين أعداء دينه ،

---

(١) مجلة الحج - ١٦ - محرم - ١٣٧٩هـ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٩.

وأن يهجرهم ويهاجر عنهم ، كما رسم نبي الهدى للأمة ذلك ؛ حيث هجر أعداء الله ، وهاجر من وطنه وأحب البلاد إليه « مكة » إلى موطن الأنصار ومستقر الأحبة في « المدينة » ، وكان هذا التخطيط النبوي سبيل الراشدين من بعده ، ونهج المؤمنين من أمته يهاجرون من وجه الظلم والظالمين ، ومن بين الفجرة الكافرين ، أو العصاة المستهترين ، عن عقيدة يبتغون بها الأجر من رب العالمين ، ويقصدون بذلك وجهه ، والتمكن من عبادته وحده ، وإظهار شعائر الدين ، حيث لا يكون عليهم سلطان غير سلطان الإسلام ، أو مهيمن غير دولة الإسلام التي تحكم بما أنزل الله ، وتستوحي في قضاياها ومشاكلها القرآن وسنة سيد الأنام .

ولقد أنحى الله باللائمة في عصر التنزيل على فريق من المتقاعسين عن الهجرة الذين لم يتخذوا منها عقيدة ولم يرتحلوا إلى جوار الرسول في مهاجره بالمدينة ، بل لبثوا بين ظهراني المشركين ، وخرجوا معهم إلى غزوة بدر مكرهين ، فأصيب بعضهم فيمن أصيب . فقال المسلمون : كان أصحابنا مسلمين فأكرهوا . فأنزل الله في حقهم : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] . قال البغوي[(١)] : أي بالمقام في دار الشرك ؛ لأن الله تعالى لم يقبل الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلا بالهجرة ، ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة : ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] سألهم ملائكة الموت سؤال توبيخ وتقريع : في أي الفريقين كنتم أفي المسلمين أم في المشركين؟ فاعتذروا بالضعف عن مقاومة أهل الشرك ، والعجز عن الهجرة ، فأكذبهم الله تعالى : ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٧] .

وبقي حكم الهجرة فريضة وعقيدة قائمًا إلى قيام الساعة لا يستطيع أن

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢٧٢.

يتخلف عنه المسلم الذي لا يتمكن من إظهار دينه أو الذي توضع العراقيل لصده عن القيام بما افترضه اللّٰه عليه.

أقول: لا يصح أن يتخلف مَنْ هذا وضعه من المسلمين عن الهجرة من البلد الظالم أهله الكفرة حكامه إلى ديار الإسلام؛ فرارًا إلى اللّٰه بدينه، وحرصًا على عدم الافتتان فيه أو الزيغ والارتداد عنه- وعلى ديار الإسلام جميعًا التي تحقق عليها راية الإسلام وتحكم بما أنزل الله- عليها أن ترحب بالمهاجرين إليهم، بل إلى اللّٰه في رحابهم، وأن تعمل كل التسهيلات لإيوائهم، وأن يبذل المسلمون ما في وسعهم للتخفيف من متاعب إخوانهم الذين تركوا ديارهم؛ حبًا في اللّٰه، وحرصًا على إقامة دينه، ورغبة في الانضمام إلى إخوانهم، ففي ذلك الأسوة الصالحة بالأنصار، رضي اللّٰه عنهم، والقدوة الحسنة بهم، فلقد ضربوا أروع الأمثال في هذا المضمار حين هاجر إليهم رسول اللّٰه ﷺ وأصحابه، وكانوا خير قدوة لمن سلك سبيلهم، في إكرام المهاجرين إليهم، وإحسان وفادتهم، والتضحية بكل غال ورخيص من أجلهم، فحمد اللّٰه لهم هذه المنقبة، ومدحهم على التضحية، وأنزل في حقهم قرآنًا يتلى سجل لهم به هذه المحمدة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩].

لم يروا رضوان اللّٰه عليهم أن المدينة قد ضاقت بهم حين هاجر إليهم فيها إخوانهم في اللّٰه، ولم يقدروا أن باب الهجرة لو بقي مفتوحًا على مصراعيه لضيق عيهم سبل الرزق، وحتى في عهد الخلفاء الراشدين حين أصبحت المدينة عاصمة الإسلام يؤمها المهاجرون من كل صوب بقصد الهجرة، وقد اتسعت رقعة الإسلام بالفتوحات الإسلامية.

لم ير المسلمون بالمدينة أن فتح باب الهجرة إلى عاصمة الإسلام سوف يؤثر على اقتصادياتهم ، وأن المهاجرين إليها سوف يضيقون عليهم معايشهم ، بل كانوا يرحبون بكل من هاجر إليهم ، كما كان ينزح إلى البلاد المفتوحة والتي رفرف عليها علم الإسلام ينزح إليها بعض الصحابة ويتخذ منها مستقرًّا ، فلم يكونوا يجدون ممن ارتحلوا إليهم أي تبرم أو نقد ، فامتزج العرب بالعجم ، وصاهر الأبيض الأسود ، وأصبح الجميع في ظلال الإسلام إخوة في اللَّه وشركاء في أرض اللَّه ورزق اللَّه ، لا حسد ، ولا ضغينة ، ولا شحناء أو فرقة ، وكانت نتيجة ذلك أن سادوا العالم وغدوا أساتذة الأمم ، وانتشر الإسلام بهذه الروح السامية : روح المساواة والتسامح ، ونبذ عوامل التفرقة حتى أضاء الصين شرقًا ، ورفرفت أعلامه على فرنسا غربًا ، ودخل الناس فيه أفواجًا ، وقامت الجامعة الإسلامية ورابطة الدين مقام العنصرية ورابطة الحسب والنسب والحزبية .

فكان المسلم في أي صقع وفي أية بقعة من الأرض يحن إلى أخيه المسلم ويرغب في لقائه ، ويرحب به أن يكون في جواره ، يشاطره سراءه وضراءه ، ويخفف عنه متاعبه ، ويواسي جراحه ، ويمد له يد العون إن نزلت به نازلة ، أو حلت به فاجعة ، وكذلك يجب أن يكون المسلمون في حاضرهم ، كما كان أسلافهم في ماضيهم .

بيد أنه يجب التصميم والتنظيم وأخذ الأهبة لهجرة المهاجرين إلى بلد ما من بلاد الإسلام بحيث يكفل التصميم والتنظيم عيشًا رخيًّا وحياة سعيدة للمجموع - وكم في ديار الإسلام من الأرض البور التي لو أحييت واستثمرت لعاش عليها أعداد ضخمة من راغبي الهجرة المضطهدين ، والمسلمين المستضعفين الذين أقض الاستعمار مضاجعهم فتلمسوا النجاة إلى إخوانهم والانضواء تحت راية الإسلام يعبدون اللَّه ويقيمون شعائر الدين في أمن وسلام .

أما لو بقي المسلمون فرقًا وأحزابًا، واعترفوا بالحواجز الإقليمية، تفصل بينهم، وتباعد بين قلوبهم، كما باعدت بين أشباحهم، ونظر كل فريق إلى الآخر نظره إلى أجنبي عنه، وعبر الباكستاني، والتركسي، والسوري، والمصري بلسان حاله أو مقاله: إن السعودي، والفلسطيني، والسوداني، والحبشي -مثلًا- كل أولئك أجانب بالنسبة له إذا كان ذلك فلن تقوم للمسلمين قائمة، وعندئذ تصبح دعوى الوحدة الإسلامية لغوًا من القول وفضولًا لا يعبر عن واقع، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولن يستقيم للمجموعة الإسلامية أمر إلا بنبذ الفوارق وهدم العصبيات الجنسية والعنصرية والحزبية بين أبناء المجتمع الإسلامي في وطنه الكبير؛ الوطن الذي يجب أن يكون مفتوحًا على مصراعيه لهجرة المهاجرين من المسلمين واستقبال الفارين بدينهم من وجه الظلم والطغيان إلى الله وإلى عبادة الله، فقد وضع الأسس لذلك، ورسم المعالم رسول الله ﷺ في يوم الهجرة الأغر، وأضحت الهجرة عقيدة يجأر بها المسلم المستضعف المضطهد، وفريضة يؤديها كلما احلولك ليل الباطل، وطغى الشر على الخير، واستبد الظلمة المبطلون بالبررة المؤمنين؛ محاولة منهم في إطفاء نور الله ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصَّف: الآية ٨].



دروس من الهجرة(١)

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

كم في الهجرة من دروس للأمة الإسلامية الخيار بين الأمم كما اختار اللَّه لها هذه المنزلة حيث يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: الآية ١٤٣]. والوسط: الخيار من كل شيء، كم لها في الهجرة من أمجاد بلغت بها الذروة؛ إذ كانت الهجرة انتفاضة حطمت الأغلال، وبددت سحب الباطل، واكتسحت جيوش الطغيان، ورسمت الطريق اللاحب لأصحاب المبادئ المستقيمة، ووضعت المعالم لرواد الحق أن يدلجوا في السير ويستحثوا الخطى؛ ليصلوا إلى الغاية فيحمدوا السرى، كم للأمة الإسلامية التي تعنى بالتراث الإسلامي من دروس وعبر وعظات ترسمها الآية الكريمة ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة إثر توعد اللَّه لمن آثر الراحة من المسلمين على إجابة النفير والخروج إلى الغزو؛ تلبية لنداء الواجب وامتثالاً لأمر الرسول الكريم، فذكرهم اللَّه بمنته على رسوله، ونصره له، وتخليصه من بين القوم الظالمين، إذ أرادوا به كيدًا فرد اللَّه كيدهم في نحرهم، فسواء قام معه شيعته وأهل دينه أم تقاعسوا عن الخروج معه لقتال عدوهم أجمعين، لن يضره ذلك،

وقد أنزل اللَّه تعالى في قصة نصره وتهيئة فرص الهجرة وكبت أعدائه قوله:

(١) مجلة الحج - ١٣٨٣هـ.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] .

أفبعد هذا يصح أن يساور المسلم الشك في تأييد الله لرسوله ونصره وإظهار دينه على سائر الأديان ، سواء ظاهره عليه الأعوان أم أحجموا ؟ فالله متولي أمره ، وحسبك بالله كفيلًا ووكيلًا . وأي نصر ، وأي تأييد ورعاية أو حفظ أعظم من تأييد الله ونصره ؟

لقد كان الصديق أبو بكر يتوجس خيفة حين لحقت بهم قريش، ووقفت على الغار الذي اختبئا فيه من الطلب ، وكان يقول للرسول العظيم : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا .

ولم يكن ذلك جبنًا من الصديق ، أو خوفًا على نفسه ، ولكنه إشفاق على الرسول الكريم أن يصل إليه المكروه ، فأعاد إليه الرسول الطمأنينة والسكينة ، وثبته ، وأشعره بالثقة بالله قائلًا : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[(١)] . أي : هل تظن أن الله سوف يتخلى عنهما ويسلمهما ، وهما في جواره وكنفه ومعيته ؟ لا ، لن يكون ذلك أبدًا ، وإذا كان من ينزل في جوار المخلوق يضحى عزيز الجانب قوي الشكيمة ، لن يصل إليه أحد بأذى ، فكيف بجوار الخالق ، لأبدع أن يكون أكثر حفظًا وأعز جانبًا وأقوى عضدًا وأعظم نصيرًا ، يصور ذلك أوضح تصوير قول العليم الخبير : ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] .

إنها جنود من ملائكة الرحمن جل جلاله ، تصرف وجوه المشركين عن الغار وترجف بهم حتى رجعوا من حيث أتوا يجرون أذيال الخيبة ، إذ لم يظفروا بطائل ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أبي بكر رضي الله عنه .

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠] عزيز في ملكه فلا يذل من والاه، حكيم في تدبيره وصنعه، ومن حكمته كيده للمشركين واستدراجه لهم وإمهاله، لهم ولو شاء لانتقم لرسوله منهم؛ إذ ضيقوا عليه الخناق دون أن يلجأ إلى اختباء وطول عناء، ولكنها دروس تلقاها ﷺ في المحنة، رسم بها للأمة الأسوة في الصبر والتضحية واحتمال البلاء لرفع الدرجات وعظيم الجزاء، وفي انطلاقه ﷺ بعد ذلك إلى المدينة، وما كان من لحاق سراقة بن جعشم به، وما حدث له من تعثر فرسه، حتى أدرك أنه مخفق في مسعاه، فاشل في مطلبه، فتغانم أن يكتب له الصديق كتابًا بأمر الرسول يكون آية بينه وبينه عندما يدور الفلك دورته وتكون الصولة والدولة للإسلام وأهله، فيتخذه عدة يكون له بها النجاة .. إلى آخر القصة.

في ذلك كله درس يرسمه الرسول الكريم للأمة في رباطة الجأش والصمود للأحداث والمفاجآت وفي مضاء العزيمة، دون اكتراث بزمجرة الباطل وصولة العدوان، وبالتالي مزج اللين بالشدة في معاملة العدو، وقبول المطلب العادل منه، فإن رسول اللّٰه ﷺ استجاب لمطلب سراقة في إعطائه شارة الأمان، وكتابة كتاب يكون آية بينه وبينه، ولم يعنفه أو يصرخ في وجهه ويرفض مطلبه، وهو يعلم أنه إنما لحق بهم للكيد والمكر وتمكين قريش من تنفيذ خطتهم الإجرامية ضده، لم يمنعه كل ذلك أن يلين جانبه ويستجيب لرغبة عدوه ويؤمنه على نفسه، فأين من يأخذ بهذا المبدأ في أعقاب الزمن، مبدأ التسامح والصفح عن الجاهلين، تأسيًا بالنبي الكريم، وأخذًا بتوجيه القرآن، حيث يقول رب العزة مخاطبًا أكرم خلقه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩].

ننتقل بعد ذلك إلى أعظم درس رسمه ﷺ للتكافل الإسلامي فور وصوله إلى

المدينة ، فإن المهاجرين قد تركوا- إلا القليل منهم- أموالهم وتجاراتهم وكل ما يتأثلونه مما هو عصب نشاطهم في مجالات الحياة ، تركوه وراءهم في مكة ، فكانوا في أمس الحاجة إلى التكافل ، وقد أضحوا غرباء في وطن كل شيء فيه جديد عليهم حتى التكسب وابتغاء فضل اللّٰه في التجارة والضرب في الأسواق ، لم يكن لهم بذلك خبرة في مهاجرهم ، فعمد رسول اللّٰه ﷺ إلى التآخي بين المهاجرين والأنصار تآخيًا أشبه بل هو أفضل من إخاء الدم والنسب كان له أبعد الأثر في لمّ الشعث ورأب الصدوع والعزاء للمهاجرين عما تركوه من مال ومتاع ، وقد بذل الأنصار من حسن الوفادة وكرم الضيافة ما أضحوا به مضرب المثل في الإيثار والبذل ، كما قال تعالى في وصف واقعهم : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩] .

وحسب الأنصار بذلك إكليل فخار لن يصل إليه أي باذل مهما استبق ميادين الجود وبالغ في الإيثار ، حسبهم بذلك سبيلًا إلى الجنة ، فنعمت الجنة من دار عوضهم اللّٰه بها عما طابت به أنفسهم للّٰه من أهل ومال وديار - هذه المؤاخاة التي كانت أبرز مظاهر التكافل الإسلامي ، هي حجر الزاوية في تكوين الوحدة الإسلامية والتضحية العارية عن الزيف والغرض . البعيدة عن الأهواء والغايات .

قل لي بربك أيها القارئ الكريم ، لو خلصت النيات ، واتحدت الغايات لبناء وحدة المسلمين في الحاضر ، كما شيد صرحها في الماضي ، كم يجني المسلمون من ثمار هذه الوحدة المباركة ، وكم يكون لهم بها من العز والسيادة ورسوخ الأقدام في المجال الدولي والتمكين في الأرض ، ترى هل تصح الأحلام وتقوم رابطة الإسلام في مهبط الوحي لجمع الشمل وترميم ما وهي من بنيان

الوحدة الإسلامية أو تصدع من الأركان ، ذلك هو الأمل المنشود الذي يرقب تحقيقه كل مسلم ، والذي يحيي المسلمون به حقًّا ذكرى الهجرة في كل زمان ومكان .

إن محنة المسلمين اليوم مصدرها في الواقع المسلمون أنفسهم ؛ المسلمون الذين لهم في كل يوم بدعة جديدة في السياسة والإدارة والتوجيه ، ولهم في كل حقبة بعد إلغاء الخلافة الإسلامية لهم شعارات ومنازع وغايات وأهواء تبعدهم كثيرًا وكثيرًا جدًّا عن الهدف الواضح الذي رسمه لهم رسول الهدى بالتآخي والتكافل في الإسلام ، والخطوة الإيجابية العملية التي اتخذها لدعم رابطة الإسلام وجعلها فوق كل رابطة وأرفع من كل غاية .

فمتى يصحو المسلمون من غفلتهم حتى يرجعوا إلى تأسيس رابطتهم وبناء وحدتهم على الأسس السليمة التي رسمها لهم رسول الهدى ﷺ ؛ إنهم إن فعلوا ذلك سوف يعيد لهم التاريخ نفسه ، وسوف يكونون في الحاضر كما كانوا في الماضي ، رواد الطريق وحملة مشاعل الهداية وسادة العالم ، وكما وصفهم رب العزة إذ يقول : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] .

ننتقل بعد ذلك إلى درس جديد رسمه رسول الهدى للأمة ، وخاصة القادة والزعماء ، في إرساء قواعد الدولة على أسس من التفاهم مع خصومها إذ كانت حديثة العهد من حقها الموادعة والتأليف حتى يشتد ساعدها .

ولقد روت كتب التاريخ أعظم وثيقة كتبها رسول الهدى ﷺ ، وهي كما يعبر عنها بصك المعاهدة ، وادع فيها اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم ، نورد أكثر فقراتها بالنص ؛ ليسبر غورها أصحاب الشأن من قادة الإسلام وزعمائه ، وليطلع عليها المعنيون بشئون الفكر ليدركوا عظمة الرسالة المحمدية وما تعالجه من أغراض صحيحة وما تنشره من

مبادئ سامية تحفظ التوازن في المجتمع وتقضي على الحزازات والثارات وتحفظ الحقوق من الإهدار.

نص الوثيقة نقلاً عن «سيرة بن هشام»[١]:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس- المهاجرون من قريش على ربعتهم[٢] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى[٣]، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف[٤] والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين- وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم[٥] أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى وسيعة[٦] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم- ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وإن ذمة

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٠١.

(٢) الربعة والرباعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها - وكسر الراء فيه هو القياس على هذا المعنى لأنها ولاية، وإن جعل الرباعة مصدرًا فالقياس فتح الراء أي: على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء.

(٣) معاقلهم: جمع معقلة من العقل وهو الدية.

(٤) العاني: الأسير.

(٥) المفرح: المثقل من الدين الكثير والعيال. ابن هشام.

(٦) وسعية: أصل الوسيعة ما يخرج من حلق البعير إذا رغا، ويستعار للعطية.

الله واحدة يجبر عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم- وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء أو عدل بينهم ، وإن كان غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا ، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض[١] بما نال دماءهم في سبيل الله . وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا ولا تحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط[٢] مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا ولا يؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ ، وإن اليهود ينفقون على المؤمنين ما داموا محاربين- وإن يهود بني عوف أمنة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم . إلا من ظلم وأثم فإنه لا يتغ إلا نفسه وأهل بيته[٣] وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جفنة (بطن من ثعلبة) كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن البر دون

---

(١) يبئ : يمنع ويكف .

(٢) اعتبطه : أي : قتله من غير شيء يوجب قتله . ابن هشام .

(٣) وتغه الرجل وتغا - بكسر الرا - مثل فرح فرحًا : إذا هلك ، تقولك أو تغته ، أو تغه ، إذا أهلكته .

الإثم[١]، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم[٢]، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه من فتك فنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم[٣]، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإنه لا يجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب إذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى.

هذا ما اجتزأنا به من الوثيقة النبوية الكريمة التي كتبها إبان وصوله المدينة عام الهجرة، فكان بمثابة رسم للخيوط الرئيسية التي يجب السير عليها؛ لحفظ الحقوق، وصون حرمة الدم والمال، وما إليه، وقد علق عليها بعد إيرادها بعض المؤرخين العصريين بقوله: هذه الوثيقة السياسية التي وضعها محمد ﷺ والتي

---

(١) إن البر دون الإثم. أي: أن البر ينبغي أن يكون حاجزًا عن الإثم، والوفاء ينبغي أن يمنع من الغدر.

(٢) بطانة الرجل: خاصته وأهل سره.

(٣) قال السهيلي: إنما كتب رسول الله ﷺ هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية إذ كان الإسلام ضعيفًا؛ فإن لليهود إذ ذاك نصيبًا من المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم النفقة معهم في الحرب. سيرة ابن هشام.

تقرر حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرمة المدينة، وحرمة الحياة، وحرمة المال وتحريم الجريمة، وهي فتح جديد في الحياة السياسية، والحياة المدنية في عالم يومئذ، هذا العالم الذي كانت تعبث به يد الاستبداد، وتعيث فيه يد الظلم فسادًا.

أما بعدُ .. فإن الدروس التي تستوحي من الهجرة النبوية هي فوق أن يحصيها قلم، أو تستوعب في مقال محدود، ففي كل خطوة لرسول الهدى ﷺ في مجال الهجرة درس ماثل يجب أن تستفيد منه الأمة الإسلامية بالإضافة إلى إكمال التشريع الإسلامي في دار الهجرة؛ فالأذان، والزكاة، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الآداب والفضائل والتكملات هي أثر للهجرة النبوية، ودروس تعيش بها الأُمة الإسلامية عندما تأخذ بها واقعيًا وحقيقة، تعيش في أمن ورخاء ومجد وعز ومنعة، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة ...![١]

وقفت في المقال الأسبق عند الموقف الحاسم الذي وقفه رسول الله ﷺ من صناديد قريش ، وقد استدعاه أبو طالب ، وهو على فراش الموت ؛ ليأخذ له من قومه ، وليأخذ لهم منه العهود والمواثيق للكف عن آلهتهم ليكفوا عنه . وقلت : إن النتيجة كانت سلبية وارفض[٢] الجمع دون تقارب .

وفي طليعة مقال اليوم أسجل موقف البطولة والرجولة الذي وقفه رسول الله ﷺ، وقد برموا بقدومه عليهم ولم يحسنوا وفادته ؛ إذ جاء يدعوهم إلى الله ، ويسألهم النصرة على قومه ، والتأييد له ، وليكونوا شيمة له يركن إليهم ؛ ذلك أن قريشًا بعد وفاة أبي طالب نالت من رسول الله ﷺ ما لم تنله منه في حياة أبي طالب .

فارتأى رسول الله ﷺ النزول إلى الطائف ؛ آملًا أن يستميل ثقيفًا ، ويستفز حماسهم لصلة رحم قديمة، وتوثيق أواصر ووشائج كانت تربطه بهم في الماضي ويذكرهم بذكريات له معهم في عهد طفولته يذكرون بها الخصب والعيش الرخي مدة إقامته بينهم ، ولكن ثقيفًا كانت أغلظ أكبادًا من قريش ، وأشد صلفًا ، إذ رمته عن قوس ، ولم تستجب لدعوته لا في الإسلام ولا النصرة ، بل كان الأمر بالعكس ، إذ ردوا عليه أقبح رد ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يرمونهم بالحجارة حتى أدموا قدميه ، فبلغ الكرب منه مداه ، فرفع يديه إلى السماء ، مستنجدًا بمولاه ، ضارعًا إليه ، داعيًا بدعاء هو التوحيد في أعلا ذراه ، وهو البلسم للفؤاد

---

(١) مجلة الحج- ربيع الثاني- سنة ١٣٧٤هـ .

(٢) ارفض ، ترفض ، يقال : ارفض الدمع وارفض العرق ، ويقال : ارفض الوجع . زال . وارفض جُرحُه : سال قيحه وتفرق . « تاج العروس » : (رفض) ، وكذا « المعجم الوسيط » .

الكظيم ، والنفس الكسيرة ، قائلًا في حرقة وألم دفين : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل عليَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »(١) .

أما موقفه من ثقيف بعد هذا التجني ، وبعد هذا السفه والجهل عليه ، فقد كان موقف الكرم الضافي ، والصفح الجميل ، والرحمة والعطف السابغ ، وأتته الفرصة للانتقام منهم فلم يفعل وأدانتهم السماء ، وجعل له حق تنفيذ الحكم فيهم ، فكانت النظرة منه بعيدة ، وتغلب الخلق الكريم على منزع التشفي والانتصار ، فرعى حق اللَّه قبل أن يأخذ بحقه ، وكان الفيصل في جوابه حيث يقول : « أرجو أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يعبد اللَّه لا يشرك به شيئًا » .

في الصحيح من حديث عائشة رضي اللَّه عنها ، أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ؛ إذ عرضت نفسي على بن عبدياليل بن كلاب فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت على وجهي ، وأنا مهموم فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظللتني ، فنظرت فإذا بها جبريل فناداني ، فقال : إن اللَّه قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال ؛ لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ ،

(١) أخرجه الطبراني - ومن طريقه المقدسي في المختارة (١٦٢) ، وابن عدي ٦/١١١ - ومن طريقه ابن عساكر ٤٩/١٥٢ من حديث عبد اللَّه بن جعفر رضي اللَّه عنه . وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٩٣٣) .

وقال : يا محمد ، ذلك لك فما شئت . وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبي ﷺ : « بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا »[١] .

ننتقل بعد هذا الموقف إلى موقفه ﷺ من قريش في قصة الإسراء .

وقصة الإسراء حدث عظيم في تاريخ الرسالة ، كان فيه من أعلام النبوة الشيء الكثير ، ولست أعرض للقصة إلا من ناحية واحدة ؛ هي ناحية تحدي الرسول ﷺ لخصومه ، والبطولة في عرض هذه القصة على المكذبين دون أن يحسب حسابًا لما لعله أن يقوموا به من تشنيع عليه وزراية به ؛ نتيجة عدم إيمانهم بصدق حديثه ، ودون أن يرفع رأسًا بنقدهم اللاذع ، ووصماتهم الجائرة التي يصمونه بها ؛ نظرًا لأن الحديث غير عادي بالنسبة إليهم ، ولا يمكن أن تتصوره عقولهم ، ولأن واقعهم لا يؤمن بدنيا المعجزات ، فيحملون القصة على هذا المحمل .

أجل كيف يؤمنون بأن مسافة يقدر قطعها حسب إمكاناتهم المحدودة بشهرين كاملين في الذهاب والجيئة بين مكة والقدس ، يقطعها محمد في ليلة واحدة ، بل في ساعات معدودات من الليل ؟! إنها الأساطير يرويها محمد وإنها الخيالات يتخيلها دون واقع بصدقها أو منطق يقرها ، بل إنها السحر في أفانينه وتهاويله ، وكل أمر السحرة عجيب وغريب ! !

ولم يبال الرسول ﷺ بهذه الشنشنة ولا تلك الترهات ، بل اندفع في رواية الخبر في حزم وجزم وصراحة وصدق لهجة ، وقص القصة بتمامها من ألفها ليائها ، وأورد الأدلة الصريحة الواقعية على صدقه، وترك الخصوم في حيرتهم وبلبالهم يدركون ويفكرون وينظرون، ثم يلجون في التكذيب ويسرفون في الخصومة ، حتى قال له المطعم بن عدي- وقد كان قبل سماع قصة الإسراء

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١) ، ومسلم (١٧٩٥) .

حسن الصلة برسول الله- قال: كل أمرك قبل اليوم أممًا[١]. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدًا شهرًا ومنحدرًا شهرًا، وتزعم أنك أتيته في ليلة..

وصدق بهذا الواقع المؤلم حدس[٢] أم هانئ ابنة عم الرسول ﷺ فلقد حدثها الرسول ﷺ أول من حدث بقصة الإسراء، ثم انطلق ميممًا قريشًا فلحقته أم هانئ وتعلقت بردائه تقول: لا تحدث بهذا الخبر قريشًا فيكذبك من صدقك.

وفي رواية ابن هشام: أن أم هانئ كانت تقول: ما أسري برسول اللّه إلا وهو في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول اللّه ﷺ، فلما صلي الصبح، وصليته معه قال: «يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صلاة[٣] الغداة معكم الآن كما ترين». ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه فكشفت[٤] عن بطنه وكأنه قبطية[٥] مطوية، فقلت: يا نبي اللّه، لا تحدث بهذا الحديث الناس فيكذبوك ويؤذوك. قال: «واللّه لأحدثنهموه»[٦]. إلى آخر القصة ترويها أم هانئ.

وأترك بقية القصة وملابساتها مع قصة المعراج وما كان فيها من معجزات

---

(١) الأَمَم: الشيء اليسير الحقير. ويقال: أَمَمٌ: أي: صغير وعظيم، من الأضداد. انظر مقاييس اللغة ١/ ٥٧.

(٢) حدَس حدْسًا: من باب ضرب: إذا ظنّ ظنًّا مؤكدًا. «المصباح المنير» (ح د س).

(٣) كذا في الأصل، ولعلها: «صليت».

(٤) كذا في الأصل، ولعلها: «فتكشف». كما في مصادر التخريج.

(٥) القبطية - بضم القاف-: الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء وكأنه منسوب إلى القبط، وضم القاف من تغيير النسب. وهذا في الثياب، فأما في الناس فقبطي بالكسر. اهـ. ابن هشام «عن ابن الأثير.

(٦) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٤٠٢، وأسد الغابة ٧/ ٢٣٩، والروض الأنف ٢/ ٢٠٦. وأخرجه أبو يعلى - كما في إتحاف الخيرة للبوصيري (٨٥٤٣). بنحوه مطولًا، وليست عنده بعض الألفاظ.

وكرامات ، وما اكتنفها من ظنون وتخرصات وما أثارته في القديم والحديث من شكوك وتأويلات ، أترك كل ذلك لكتب السير وتآليف المؤرخين فيها من قدامي ومعاصرين لمن أراد المزيد ، فليس ذلك من أغراض بحثنا .

ولننتقل إلى موقف الرسول ﷺ من العرب ، وقد أخذ يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج بعد أن اتسعت شقة الخلاف بينه وبين قومه ، ويشخص إليهم في منازلهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وترك عبادة غيره من الآلهة والأرباب ، ويقرأ عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن ، ويسألهم النصر ، وكان فيمن عرض عليهم نفسه قبيلة كندة ، وكلب ، وبني حنيفة ، وبني عامر بن صعصعة ، وبني عبس ، وغسان ، وبني محارب ، فلم يقارب منهم أحد ، بل كان من بعضهم جفوة تنكر ، لم يفتا في عضد الرسول ﷺ ، بل دأب على شأنه ، ثم اعترض بني شيبان بن ثعلبة .

وكان يصحبه إليهم أبو بكر وعلي بن أبي طالب ، وجرى للرسول ﷺ معهم قصة طريفة نلمع إليها بتجوز لما اشتملت عليه من كريم الحوار ، وجميل الود ، وحصيف الدعوة ، بدأ طرف الحوار مع أبي بكر رضي الله عنه ، حيث أخذ يتعرف القوم ويتقصى أخبارهم ، وقد تصدى لإجابة أبي بكر عن أسئلته مفروق بن عمرو ، أحد وجهاء القوم ، ثم التفت مفروق إلى رسول الله وتفرس فيه ، وقال : لعلك أخو قريش . فرد أبو بكر بقوله : أو قد بلغكم أنه رسول الله ، فها هو ذا . فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ...[1] فإلام تدعو يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله ﷺ فقال : « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله » . وأن تؤوني وتنصروني ؛ فإن قريشًا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل .

فقال مفروق : إلام تدعو أيضًا يا أخا قريش ؟ فقال رسول الله ﷺ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١] . إلى قوله : ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣] . فقال مفروق : إلام تدعوا أيضًا يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ : ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية ٩٠] . فقال مفروق : دعوت يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك(١) .

ولننقل الكلام مع وجيه آخر هو هانئ بن قبيصة شيخ القوم وصاحب ديانتهم ، فقال خيرًا بالتريث وإمعان النظر قبل الاستجابة إلى الرسول ﷺ وأدار دفة الحديث بلباقة، وترك الفرصة لزميله المثنى بن حارثة صاحب القوم ؛ ليكمل ما بدأه صاحباه مع الرسول ﷺ وأيد المثني نظرية هانئ في ضرورة التريث وزاد عليه قوله : وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت ؛ هو مما يكرهه الملوك فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله ﷺ : « ما أسأتم في الرد إذا أفصحتم في الصدق وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه من جوانبه ، أرأيتم إن لبثتم إلا قليلًا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نسائهم تستجيبون لله وتقدسونه » . فقال النعمان بن شريك : اللهم لك ذا . فتلا رسول الله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا

(١) انظر عيون الأثر ١/ ٢٠٢، والاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء للكلاعي ١/ ٢٣٩.

أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

ثم نهض رسول الله ﷺ آخذًا بيد علي قائلًا: يا أبا بكر، يا أبا حسن، أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض وبها يتجاوزون فيما بينهم. اهـ[(١)].

وكان رسول الله ﷺ قد أعجبه من القوم إلى جانب حسن إجابتهم وتلطفهم في الرد أعجبه تساند زعمائهم في الحديث وترابطهم وترك أحدهم الفرصة للأخر؛ كي يتحدث، ويدلي برأيه، لم يفتت بعضهم على بعض، بل كان كل متحدث يترك في الحديث فجوة يدخل منها رصيفه في الحديث، كما هو موضحًا في رواية القصة بتمامها، وقد اقتصرنا منها على موضع الحاجة؛ وهو موقف الرسول ﷺ من هذا الحي، معلنا في صراحة نقمته على قريش، مستنصرًا عليهم، دون هيبة أو جبن، وحاشا رسول الله ﷺ من ذلك.

يتضح ذلك من قوله: إن قريشًا تظاهرت على أمر الله واستغنت بالباطل عن الحق، ومن مصارحته لمتحدثيه، وقد أرادوا منه أن تكون نصرتهم له محدودة قاصرة على العرب دون غيرهم مصارحته بقوله: «إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من كل جوانبه». وبنظرة من زاوية أخرى لهذه القصة نلحظ بشارة الرسول ﷺ لهذا الحي بتحطيم دول الجبابرة وثل[(٢)] عروشها، وتمزيق شملها على أيدي العرب، نلحظ من قول الرسول ﷺ في القصة: «أرأيتم إن لبثتم إلا قليلًا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم - ويفرشكم نساءهم».

وقد صدق الله رسوله الوعد، فنثرت كنوز كسرى في المدينة بين يدي أمير

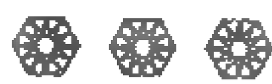
---

(١) انظر الروض الأنف ٢/ ٢٣٧، وعيون الأثر ١/ ٢٠٢، وسبل الهدى والرشاد ١٠/ ١١٣.

(٢) ثل الدار: هدمها. وعرشه. أذهب سلطانه. «المعجم الوسيط».

المؤمنين عمر رضي اللَّه عنه ، فبكى خشية أن يكون ذلك استدراجًا وإمهالًا من اللَّه جل وعلا ، رضي اللَّه عن أبي حفص ، فلقد كان له في كل مجال اتجاه إلى اللَّه ، وانصراف عن البهرج ومتع الدنيا ، وذلك مسلك الراشدين ونهج الصالحين .

(يتبع) .



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[١]

كان مقالي الأسبق في تسجيل موقف الهجرة وملابساتها وما سبقها من مقدمات جعلتها في حكم الأمر الواقع، ثم ما كان من متاعب الرسول الكريم بعد الهجرة مع المنافقين ويهود المدينة، وما كان من محاولاتهم التعسفية؛ لإخراجه وتسقطه.

ومقال اليوم سوف أعرض فيه لموضوع القتال وشرعيته، وهل كان يدافع غريزة حب الانتقام، وطلبًا للغنيمة، ولاسترداد بعض ما اغتصبته منهم قريش، وبدافع الحنين إلى الوطن، المكان الذي نشئوا فيه ونبتت على أرضه أجسادهم، وبدافع الحنين أيضًا إلى بقية الأهل الذين لم يريموا مكة والقلوب متعلقة بهم، أم كانت الرغبة في القتال حبًا لله ورسوله والجهاد في سبيله؛ لإعلاء دينه، وبيع النفس لله، ابتغاء الثمن الغالي، وهو نزول الجنة دار كرامة الله، وحرصًا على ما أعده الله للشهداء من الحياة الناعمة والرزق الضافي.

أما موضوع القتال فقد شرع بالمدينة بعد الهجرة، وبعد أن صار للمسلمين معلق يلجئون إليه، وكان أول ما نزل فيه قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: الآية ٣٩] الآيات من سورة الحج.

ولقد كان المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم دار الهجرة يتحينون الإذن من رسول الله ﷺ في قتال أعدائهم، والكيل لهم بالصاع الذي كانوا يكيلون لهم به، ولكن رسول الله ﷺ كان يقول لهم: «إني لم أومر بقتالهم»[٢].

---

(١) مجلة الحج- ربيع الأول- سنة ١٣٧٥هـ.

(٢) قال الزيلعي في تخريج الكشاف ٢/ ٣٨٧: غريب جدًا، وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين. وتقدم تخريجه.

أما كون القتال والرغبة فيه من قبل المسلمين إنما كانت بدافع حب الانتقام وطلبًا للغنيمة فليس ذلك بمتجه ؛ إذ لا تنهض به حجة ؛ وإنما كانت الرغبة لجهاد الكفار طلبًا للأجر وإيغالًا في التضحية بالنفس في سبيل الله، ورغبة في اتساع رقعة الإسلام ، وانتشار دعوته واستجابة لأمر اللّه ، حيث دعا إليه في غير ما أية من كتابه ؛ من ذلك قوله : ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] . وقال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٢] . إلى غير ذلك من الآيات التي ترسم الطريق ، وتحفز إلى الأخذ بالجهاد كوسيلة لتدعيم الدعوة الإسلامية ، وليكون الدين كله للّه .

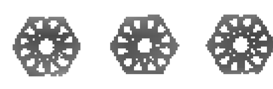
وأما أن القتال كان لاسترداد ما اغتصبه المشركون من المسلمين، أو للحنين للوطن ، أو لغير ذلك من مزاعم بعض المؤرخين المعاصرين .

فحجتنا في دحض هذه المزاعم : أن المهاجرين بهجرتهم إلى اللّه قد تركوا ما تركوه من مال ومتاع في مكة، تركوه دون أسف عليه ؛ موقنين في قرارة أنفسهم أن اللّه سوف يعوضهم خيرًا منه ، وقد احتسبوا أجره عند اللّه ، وأما الحنين إلى الوطن فلم يقع لهم ذلك في بال ؛ بدليل أن أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها عندما نقلت لرسول اللّه ﷺ قول بلال ورفاقه وهم في أشد أدوار الحمى ؛ مما يشعر بالحنين إلى الوطن قال لها : إنهم ليهذون وما يعلقون من شدة الحمى . وبدهي أنه ﷺ يعلم من نفسيتهم أنهم بالهجرة قد قاموا بفريضة فرضها اللّه عليهم ، لا مندوحة لهم عن الأخذ بها ، وقد اندفعوا أليها طواعية ؛ استجابة لأمر اللّه وحرصًا على أجر الهجرة التي رغب اللّه فيه بقوله : ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٠٠].

وأما كون القتال من أجل تعلقهم بمن بقي من الأهل في مكة لم يهاجر معهم، بل لم يدخل فيما دخلوا فيه من الدين وقد حفزهم الحنين إليهم.

فحجتنا في دحض هذا الزعم أيضًا: أن المسلمين كانوا يعلمون من جملة بل في مقدمة الدين الذي احتضنوه وارتضاه الله لهم دينًا قطع الصلة بالمشركين أيامًا كانت هذه الصلة والبراءة منها؛ سواء كانت أبوة، أو بنوة، أو مصاهرة، أو أخوة، أو عشيرة، أو قرابة بعيدة، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢]. ولقد قص الله في القرآن براءة إبراهيم خليل الله من أبيه لما تبين له محادته قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[(١)]

عرضت في المقال الأسبق لقصة إجلاء بني قينقاع عن المدينة ولحوادث شذاذ الأعراب ...[(٢)] من رسول الله ﷺ، والذين تجمعوا لغزو المدينة وما كان من أمر ملاحقة الرسول الكريم لهم، ولمحاولة أبي سفيان الفاشلة في الغارة على أطراف المدينة.

ومقال اليوم سوف يكون خاصًا بالموقف المشهود من رسول الله ﷺ في غزوة أحد وإن من ...[(٢)] الصدف ومن بواعث غبطتي أن أكتب عن هذا الموقف الكريم الفاصل بعد أن عدت من رحلة خاطفة زرت فيها مسجد الرسول ﷺ وشاهدت الأيادي السابغة والعمل المبرر المشكور لجلالتي الملكين الملك عبد العزيز رحمه الله، والملك سعود أيده الله وأمده بالتوفيق والعمر المديد.

أقول: شاهدت توسعة المسجد النبوي وعظمة الفن وبديع الهندسة والتخطيط، ولقد هاجت الذكرى في نفسي أطياف الماضي المجيد ماضي الإسلام في عصر رسول السلام، فتصورته ﷺ وهو يستقرئ أبي بن كعب كتاب عمه العباس بن عبد المطلب يفضي إليه بخبر قريش الموتورة بغزوة بدر، والتي ما برحت تذكر قتلاها فتذكر بهم اليتم والترمل، وتتحرق للقصاص، والأخذ بالثأر، وتشتاق؛ لأن تعب من الدم دم المسلمين، لتدمي فيهم قلوبًا، وتيتم أطفالًا، وترمل نساء، ويفضي العباس لابن أخيه في جملة ما يفضي له به بقرار زعماء قريش ببيع العير ورصد أرباحها لتجهيز جيش جرار تنازل به الرسول تستنفر إليه القبائل، وتضم فيه بعض نساء الحي اللائي ما برحن يسكبن الدمع

(١) مجلة الحج - غرة شعبان- سنة ١٣٧٥هـ.

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل.

سخينًا على أزواجهن وإخوانهن وآبائهن من قتلى بدر؛ ليندبن الأحبة فيلهبن بذلك حماس المقاتلة.

تصورت ذلك، وتصورت معه مبلغ بلبال رسول اللّه ﷺ، وقد أصبح القوم منه قاب قوسين، وغدت طلائع خيلهم تقترب من المدينة حتى توجس المسلمون خيفة، فباتوا في السلاح يحرسون المدينة ويحوطون رسول اللّه؛ خشية أن يصل إليه العدو.

ثم تصورت الرسول الكريم وقد عقد مجلس الشورى كعادته في كل أمر ذي بال؛ ليخرج برأي جماعي ناضج بعقد الشورى من جميع أصحابه، حتى من تظاهر بالإسلام من المنافقين ويفضي إليهم برؤيا عرضت له في منامه ثم يعبرها لهم فيقول: «إني قد رأيت واللّه خبرًا؛ رأيت بقرًا تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلمًا، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها بالمدينة، فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل. ولم تنهنه[1] من عزمه ﷺ هذه الرؤيا، ولم تفت في عضده، بل أخذ يعد للأمر عدته ...[2] الواقع، فطرح رأيه في المشكلة؛ ليناقش وليبدي أصحابه آرائهم بجواره ولم ير عليه من الغضاضة، وهو رسول اللّه الملهم والمؤيد بالوحي لم يكن عليه غضاضة أن يطرح رأيه كفرد ليناقش ويدرس ويؤخذ منه الصالح ويرفض منه المرجوح.

ويتابع رسول اللّه ﷺ حديثه فيقول: «فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوها علينا قاتلناهم فيها»[3].

---

(١) نهنه، النَّهنهة: الكف. تقول: نهنهت فلانًا. إذا زجرته فتنهنه، أي: كففته، فكف. «لسان العرب»: (نهنه).

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٦١، وعيون الأثر ١/ ٤٠٧، والروض الأنف ٣/ ٢٤٣.

وكان هذا هو الرأي نظرًا لكثرة العدو واستكمال عدته، فلو تحصن المسلمون في المدينة لم تقدر قريش على اقتحامها عليهم مهما حاولت ذلك، يقول عبد اللّه بن أُبي ابن سلول: لقد كنا يا رسول اللّه نقاتل فيها، ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة، ونشبك المدينة بالبنيان، فتكون كالحصن من كل ناحية فإن أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة، وقاتلناه بأسيافنا في السكك، إن مدينتنا يا رسول اللّه عذراء ما فضت علينا قط، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا. فدعهم رسول اللّه وأطعني في هذا الأمر، فإني ورثت الرأي عن أكابر قومي، وأهل الرأي ويحيل ...[1] رسول اللّه ﷺ الرأي مع ...[1] ويقلب الأمر على وجوهه واحتمالاته، فأيد أحد زعماء المعارضة لرأي بن أبي، على رأيه ممن أشار بعدم الخروج، فيقول: لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمدًا في صياصي يثرب. فتكون هذه مجرئة لقريش، وها هم قد وطئوا سعفنا، فإذا لم نذب عن حوضنا لم يُرع، وإن قريشًا قد مكثت حولًا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومَن تبعها من أحابيشها، ثم جاءونا وقد قادوا الخيل وامتطوا والإبل حتى نزلوا بساحتنا. أفيحبسوننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا؟! لئن فعلنا لازدادوا جرأة ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا، ثم لقطعوا الطريق علينا.

ويبدو لرسول اللّه ﷺ صحة نظر الفريق، ويعلنها بعض الفتيان المتحمسين ...[1] غبطة وفرحًا بانحياز رسول اللّه إلى[2]، فتكون الفاصلة، ويزمع الرسول الخروج طمعًا في إحدى الحسنيين النصر وهو وعدٌ بالحق الذي

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٢) كذا بالأصل.

يحب أن يوضع نصب الأعين لتستيقن به النفوس: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧]، والاستشهاد في سبيل الله وحث راية الإسلام لا راية العصبية الجاهلية وجزاء ذلك الجنة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وارفض مجلس الاستشارة على هذا الرأي، رأي منازلة العدو حيث أقام بأحد.

وكان اليوم يوم الجمعة فمر بذهني وقفة رسول الله ﷺ على المنبر وهو يحض الناس على الجهاد، ويقص عليهم ما أعده الله للمجاهدين الصابرين في روضات الجنات من نعيم لا ينقطع ومتعة لا تزول.

ومر بذهني بعد ذلك موقفه ﷺ وقد لبس درعه وتقلد سيفه وقصد الطريق إلى أحد، فلفت نظره سواد من الناس لم يكن له بهم علم أو سابق معرفة، فتبين أمرهم، وعلم أنهم قسم من اليهود حلفاء عبد الله بن أبي، خرجوا له مظاهرين فأرجعهم إذ لم يكن يطمئن إليهم، وقال: «لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا». وتأثر ابن أبيٍّ من إرجاع خلفائه، فانحاز بفريق من الجيش يبلغ الثلث متخذًا من مخالفة الرسول له في خروجه للعدو ومنازلته خارج المدينة مبررًا للفرقة والاختلاف وجاهر بذلك قائلًا: لقد عصاني وأطاع الغلمان، علام نقتل هاهنا. وانبري له ولشيعته عبد الله بن حارم يريدهم على الرجوع وعدم إحداث التصدع والخذلان، ولكنه عبثًا حاول، وقد رد عليه شيعة ابن أبي بقولهم: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أن يكون قتال. وهو قول أقبح من الفعل، وكيف لا يكون قتال والعدو قد أخذ بخناق المدينة ووطئ

سعفها ، ولكن الهدى هدى اللَّه ، ولا أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من اللَّه .

مر بذهني موقف رسول اللَّه ﷺ من هذا التصرف الوضيح من[١] ابن أبيٍّ وصموده أمام الواقع بحزم وصرامة، وتقريره المضي إلى العدو ؛ معتمدًا على نصر اللَّه : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٢] ، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩] .

وكنت أقدر في نفسي لو وقع هذا التخذيل لجيش غير جيش رسول اللَّه لقرر الانسحاب ؛ اعتمادًا على عدم تكافؤ القوي والمعدات ، وماذا عسي أن يصنع سبعمائة مقاتل ، ليس معهم غير فرسين ، وليس فيهم غير مائة دارع في جيش يبلغ تعداده (٣٠٠٠) مقاتل منهم سبعمائة دارع ولهم مائتا فرس .

ومر بذهني بعد ذلك موقف الرسول الكريم من مربع بن قيظي المنافق أعمى البصر والبصيرة ، وقد حظر على المسلمين أن يجتازوا أرضه ، وشنع عليهم ، وأبدى من النذالة ما لا يصدر إلا عن خسيس الطبع لئيم الجدود، ذلك أن رسول اللَّه رغب أن يفجأ خصومه بظهوره عليهم دون أن يمر بهم ؛ لكيلا يعثروا على ناحية ضعف في المسلمين يهاجمونهم منها، أو على الأقل يهزؤون بهم ويسخرون من قتلهم وعدم استكمال عتادهم، فقال الرسول لصحبه : « من رجل يخرج بنا على القوم من كثب »[٢] ؟ فقال رجل : أنا يا رسول اللَّه ، وسلك به حرة بني حارثة ووطئ حائطًا للمنافق مربع فاستشاط غضبًا ، وقام يحثو التراب في وجوه المسلمين ، ويوجه خطابه لرسول اللَّه قائلًا : إن كنت رسول اللَّه فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي . وكاد الصحابة أن يقتلوه لولا تدخل رسول اللَّه ﷺ في الأمر ونهيه عن قتله مخبرًا أن اللَّه قد أعمى بصره وبصيرته ، فهو إذن تافه

(١) في الأصل : « هن » .

(٢) انظر سيرة ابن إسحاق (٥٠٤) ، وعيون الأثر ١/ ٤٠٨، والروض الأنف ٣/ ٢٤٦.

حقير، وإنه لموقف عظيم موقف الرسول الكريم عند المقدرة على هذا المنافق اللئيم.

وتصورت الرسول الكريم بعد ذلك يتجه حيث يقع العدو في عرصات أحد ذلك الجبل العظيم المشهور الواقع شمال المدينة، والذي ازداد شهرة وذيوعًا بهذه المعركة بين الحق والباطل، فلا تذكرها الأجيال إلا ويذكر معها.

وقفت في زيارتي الخاطفة بجوار هذا الجبل الأشم، أو على بعد مسافة منه، بحيث أنظر إلى جبل الرماة من جهة، وإلى قبر سيد الشهداء حمزة رضي اللّٰه عنه من جهة أخرى، يفصل بينهما وادي قناة ودار في النفس حديث طويل عادت به الذاكرة إلى ...[١] الهجرة، وكنت أشعر بحديث النفس يطغي على الجوارح؛ فاليد تشير إشارة حسية هنا وقف سيد البشرية يعبئ جيشه ويرتب مواقفه، وهنالك وعلى جبل الرماة يضع خمسين راميًا ويؤمر عليهم أميرًا ويوجه إليهم وصيته الغالية قائلًا: «احموا ظهورنا، وانضحوا عنا الخيل، فإن الخيل لا تقدم على النبل، والزموا مكانكم لا تبرحوه؛ سواء كانت لنا أو علينا». ثم يعود إلى صفوف جيشه يأمرهم بلزوم السكينة وألا يقوموا بأي حركة إلا بعد إشعاره، وسلم اللواء إلى مصعب بن عمير[٢] الداري، ويؤمر الزبير والمقداد على الخيل، ثم يظاهر بين درعين ويجعل سيد الشهداء حمزة في الجيش بين يديه.

ومر بذهني كل ذلك وأنا بجوار الجبل، وكأني في شبه غيبوبة من فرط ما استولى عليّ من الأحاسيس، وانتهيت من منظر التعبئة إلى المعركة وموقف القتل، وشعرت بأن كل ما حولي يلتهب وإذا الحمم تقذف الموت الأحمر على قريش، وإذا سيوف المسلمين مصلتة تفتك الخصوم، وإذا بأبي دجانة الأنصاري

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٢) في الأصل: «عمر».

رضي اللّٰه عنه في عصابته الحمراء يضرب بسيف رسول اللّٰه ﷺ ويشق صفوف المشركين فلا يأتي على خصم إلا جندله وتركه صريعًا، وإذا بسيد الشهداء حمزة يندفع إلى قلب جيش قريش، وكأنه الجمل الأورق، كما وصفه بذلك قاتله وحشي ...[1]، بالمسلمين يكسبون الموقف وتولي قريش الأدبار منهزمة لا تلوي على شيء.

فطابت نفسي بهذا النصر المؤزر لرسول اللّٰه ﷺ وجند اللّٰه المفلحين، وفي أقل من لمح البصر انعكست الصور، وانقلبت المرئيات، وتبدل الموقف، وأفلت من يد المسلمين زمام المعركة، وتبدلت الفرحة ترحة، ونشوة الفرح حسرة وإيلامًا، وإذا بسيد الشهداء حمزة رضي اللّٰه عنه يخر صريعًا في حومة الوغى، أخذه قاتله وحشي على غرة، بينما كان يسدد ضربة لخصم عنيد، وإذا القتل يستحر في المسلمين ويلاحق المشركون رسول اللّٰه ﷺ للقضاء عليه فيقاتل قتال الأبطال في أربعة عشر من صحابته؛ سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، يدافعون عنه دفاع المستميت، ونادى منادي المشركين بموت رسول اللّٰه ﷺ فاتسع الصدع، وتفرق المسلمون إلى ثلاث فرق؛ فرقة استمرت في الهزيمة إلى قرب المدينة، وفرقة استولت عليها الحيرة؛ إذ سمعت بموت الرسول، فكان قصارى ما تفعله أن يدافع المرء عن نفسه، ويستمر في قتال خصومه، وفرقة ثبتت مع الرسول تدافع عنه ثم رجعت إليها الفرقة الثانية، وأنقذت ما يمكن إنقاذه من الموقف، وتراجعت لجيش المسلمين معنوياته عندما أعلن كعب بن مالك أن رسول اللّٰه على قيد الحياة فالتقوا حوله وقد بلغ منه الجهد مداه فقد أصيب بحجارة المشركين فكسرت رباعيته، وشج وجهه، وكلت شفته السفلى، وسال الدم على وجهه، وسقط في حفرة من الحفر التي حفرها

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

المشركون لإيقاع المسلمين فيها ، فأخذ علي بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوي قائمًا ، وانصرف مع أصحابه بعد المعركة إلى شعب في الجبل ، فأقبل عليه أبي بن خلف في زمجرة ، وتوعد فانتصب له الرسول العظيم البطل المغوار وتناول حربة من أحد صحابته واستقبله بها فطعنه في عنقه طعنة تقلب منها على فرسه مرارًا ومات من أثرها في قفوله إلى مكة ، مر بذهني كلما سطرته من مواقف النبي الكريم في هذه الوقفة القصيرة وأنا بجوار أحد تستبد بي الذكريات ، وكأني في حلم ، تجمعت فيه صور لمرئيات ومناظر متغايرة متفاوتة فيها الخير والشر والسار والمفزع ولم أصح من حلم اليقظة هذا إلا على صوت الرفاق قائلين : إن أمامنا للرحلة برنامجًا واسعًا ، ولم يبق لدينا لإتمامه غير ضحوة اليوم فهيا بنا . فاقتصرت على السلام المشروع المأثور لسكان القبور جميعًا : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يغفر الله للمستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم وأغفر لنا ولهم مرددًا في طريقي قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] .

وإلى الملتقى أيها القارئ الكريم في عدد قادم ، حيث نتابع معًا بقية مواقف النبي ﷺ في هذه الغزوة ، وما أنزل الله فيها من آياته البينات ، وما كان فيها من تعزية النبي ﷺ وأصحابه عن هذه الهزيمة بعد النصر ، ثم ما علق به بعض المؤرخين على هذه الهزيمة ، إلى غير ذلك مما يقتضيه البحث ، فإلى عدد آخر إن شاء الله .

❁ ❁ ❁

في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[1]

كان مقالي الأسبق خاصًا بغزوة أحد ، وغزوة أحد والمواقف النبوية الحاسمة فيها لرسول الهدي ليست بالتي يكتفي فيها بالقول المقتضب ، والكلمة التي لا تستوعب كل ما يجب أن يعرض له الباحث ؛ لذا فقد أفردت للمعركة ومقدماتها وما كان فيها من مداولات للنصر بين الرسول وخصومه إلى أن وقفت المعركة وتحاجز الفريقان ، أفردت لذلك مقالًا خاصًا قدمته في عدد شعبان .

وأبدأ مقال اليوم بمناقشة أسباب الهزيمة التي ذكرها بعض المؤرخين ؛ وهي لا تخرج عن كونها أسبابًا مادية ، قد تكون لها بعض الأثر في الهزيمة من حيث اختلال التوازن ، وإحداث الصدوع في المسلمين ، ولكنها كما أعتقد ليست بالعامل الوحيد الذي يتركز فيه سبب الهزيمة .

فقد ذكر المؤرخون مثلًا في طليعة العوامل عدم تكافؤ القوى في العدد والعدة ، وجزموا بذلك وقالوا : كيف لا ينهزم جيش يبلغ عديده الثلث بالنسبة لخصمه الذي يزيد عليه الثلثين ، فثلثمائة من المسلمين لا يمكن بحال أن تصمد أمام ثلاثة آلاف من المشركين ومائة دارع من المؤمنين لا تقوى بحال على صد سبعمائة دارع من جيش المناوئين .

وعندي أن قلة العدد أو كثرته ليس عليها المعول في النصر أو الهزيمة بالنسبة للمسلمين ؛ ذلك لأنه وقر في أنفسهم أنهم على خير أمرين في قتالهم ونضالهم ضد أعداء دينهم : النصر ، أو الشهادة . بل لقد كان حرصُ الأكثرين منهم على الشهادة طلبًا لما أعده الله للشهداء من الحياة الناعمة في دار الكرامة ، ثم إن إيمانهم بالنصر لا يمتري فيه اثنان ؛ إذ كان وعدًا من رب العالمين وعهدًا قطعه

(١) مجلة الحج- شوال- سنة ١٣٧٥هـ .

على نفسه لعباده المؤمنين: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ١١١]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

أفبعد هذا الوعد والعهد من رب العزة يقيمون وزنًا للعدو ويحسبون حسابًا لكثرته وتوفر إمكانياته؟

وذكر المؤرخون في أسباب الهزيمة: خذلان عبد الله بن أبي لجيش المسلمين وعودته من عرض الطريق بثلث الجيش ممن كان يشايعه من المنافقين، وقالوا: إن لهذا الخذلان أثره في إضعاف معنوية الجيش، وإدخال الرعب في روعه، وإشعاره بالهزيمة من قبل أن تكون معركة ونضال.

وقد يكون لهذا الخذلان أثره لو جدت لغير جيش المسلمين، أما من يقاتل وهو موقن بوعد الله له في النصر، وقد وطن نفسه على الصبر وصدق اللقاء، فمن يأبه بأي شنشنة أو تخذيل؟ وخاصة إذا كان مصدر التخذيل جماعة المنافقين الذين ألف منهم الخيانة والدس والمكر والخديعة، وله معهم على الدوام مواقف مشهودة، فهو لا يعتد بحماسهم في النصرة، ولا يرفع بصنيعهم رأسًا في التخذيل، يؤيد ذلك قول عبد الله بن حرام عندما حاول إرجاع المتخاذلين فأعيته الحيلة: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه(١). وهو بذلك يعبر عن رأي الصحابة أجمعين؛ إذ هم موقنون جميعًا بكفاية الله لنبيه دون نصرة المنافقين. ولقد كان في إبعاد ابن أبي وشيعته حكمة الإلهية؛ إذ تطهر جيش المسلمين من هذا العنصر الدخيل، ومن يدري لو كان هذا العنصر من المنافقين

(١) انظر سيرة ابن إسحاق (٥٠٣)، ومغازي الواقدي ١/ ٢١٦، وسيرة ابن هشام ٢/ ٦٤، وعيون الأثر ١/ ٤٠٨، والروض الأنف ٣/ ٢٤٥.

بين المسلمين من يدري لعله ينضم إلى الخصوم ويزيد الفتق اتساعًا، ويمعن في التنكر، ويحاول الإجهاز على المسلمين.

وذكر المؤرخون أيضًا من عوامل الهزيمة: مخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ وإخلاءهم أماكنهم؛ طلبًا للغنيمة حين رأوا كفة المسلمين راجحة في النصر، وظنوا أن المدبر لا يفكر إلا في الخلاص برقبته والنجاة بنفسه من نار الوغي؛ حيث قد فقد كيانه ومعنوياته، وقد غفلوا عن الهدف الحربي الذي يهدف إليه رسول الله ﷺ من قوله: «احموا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا»[1].

والحرب سجال، وقد يكسب المنهزم المعركة بغلطة حربية تبدو من المنتصر تكون سببًا في انعكاس الأمر لديه، كما حصل في وقعة أحد.

وعندي أن ذلك هو أقوى عوامل الهزيمة، وقد جاء ذكره فيما نزل من القرآن في هذه الغزوة، حيث يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٢] والمعني بهذه الآية هم الرماة فتنازعوا في أمر البقاء حيث أقعدهم رسول الله ﷺ هل يبقون كما أمرهم؟ أم ينزلون إلى الغنيمة وجمع الحطام مع الغانمين؟ وقد رأوا النصر في صفهم، ثم قر قرار الأكثرين منهم على ترك مواقفهم، فعصوا بذلك أمر الرسول ﷺ، فحق عليهم الفشل والهزيمة، وأفلت الموقف من أيديهم بعد أن كانوا مهيمنين عليه، فمخالفة أمر القيادة العامة ومخالفة السلطان وولي الأمر لا بد وأن يكون لها أسوأ العواقب، ولابد أن تكون النهاية التصدع والفشل والهزيمة في كل مجالات الحياة، ومن ثم يتضح الهدف من قرن الله تعالى حقه في العبادة بحق ولي الأمر

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٨٧، والطبراني (١٠٧٣١)، والحاكم ٢/٢٩٦- ٢٩٧، والبيهقي في الدلائل ٢/٢٦٩- ٢٧٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الحاكم. ووافقه الذهبي. وسنده حسن، ففيه عبد الرحمن بن أبي الزناد فيه كلام يسير.

في الطاعة : ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٥٩] .

وتبدو التوجيهات النبوية الكريمة في الأحاديث الكثيرة في الحث على السمع والطاعة لولي الأمر تبدو واضحة المعالم بارزة الأهداف ، وهذه المعركة معركة أحد ، وهذه المخالفة الصريحة من الرماة لأمر رسول الله ﷺ هي درس عملي يتحدث عن نهاية ومصير أي مخالفة للراعي ، وأي خروج عن أوامر القائد والسلطان .

وما دمنا قد تناولنا موضوع الرماة وما نزل فيهم من آي الكتاب ، فجدير بنا أن نعرض لمجموع الستين آية التي أنزلها الله تعالى في هذه الغزوة ؛ لنقف على قصصها من أصدق المصادر ، ولنعلم علم اليقين بعوامل الهزيمة منها ، وما كان من تمحيص الله للمؤمنين بما نالهم من العنت وتعزية الله لهم لما أصابهم من القتل والجراح ، ووعده بمحق الكافرين ؛ لقاء كفرهم وتكذيبهم ..

وقد بدأ الله تعالى القصة ، قصة أحد بقوله : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢١] فأمر الله رسوله أن يذكر القصة من أولها ؛ حيث خرج من بيته غدوة إلى أحد ، ليرتب مقاعد المؤمنين فيه لقتال العدو ويعين منازلهم للجلاد ؛ فللرماة منزل ، وللفرسان منزل ، ولسائر المقاتلة منازل ، وحيث شاور أصحابه قبل خروجه بما فيهم المنافق عبد الله ابن أبي وشيعته ، وتداول وإياهم الرأي في الأصلح من الخروج للعدو ومنازلته حيث أقام أو تركه حتى يطأ المدينة فينازله فيها ، وأخبر سبحانه أنه سميع بكل ما دار في مجلس الاستشارة ، وبما أشير به على الرسول في الموقف ، عليم بما يصلح منه ومالا يصلح ، وعليم أيضًا بضمائر المشيرين وإخلاصهم في المشورة من عدمه ، وأخبر سبحانه بما كان من بني سلمة من الخزرج ، وبني حارثة ومن الأوس ، حين جبنوا وهموا بالتخلف عن رسول الله ﷺ عندما شاهدوا خذلان ابن أبي وعودته من الطريق بثلث الجيش ، وأنه سبحانه امتن

عليهم بتثبيتهم والربط على قلوبهم، وأبعد عنهم الفشل إذ كان متولي أمورهم وناصرهم، وأخبر سبحانه أن على العبد بعد أخذ الأهبة للموقف أن يعتمد على الله ربه، فالتوكل عصب الإيمان، ومن يتوكل على الله، واستكمال العدد والعدة[١]

ثم أورد سبحانه لذلك دليلًا محسوسًا هو غزوة بدر حيث كان المسلمون فيها قلة في العدد والعدة فنصرهم الله مع قلتهم وضعف إمكانياتهم ومنحهم أكتاف صناديد قريش يقتلون فيهم ويأسرون، وذلك ما يستوجب شكره سبحانه والقيام بطاعته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١- ١٢٣].

ثم ذكر سبحانه إمداد الرسول بالملائكة تقاتل في صفوف المسلمين، وأخبر أن هذا الإمداد ما هو إلا بشارة للمسلمين، ولتطمئن به قلوبهم، وإلا فهو سبحانه قادر على نصرهم بدون هذا المدد، وأخبر سبحانه أن نصر المسلمين في غزوة بدر؛ لغرض إهلاك طائفة من الكافرين، ولترجع الطائفة الأخرى التي لم تهلك حزينة مكبوتة بالهزيمة، خائبة من النصر الذي كانت تقدره قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤- ١٢٧].

---

(١) كذا، ولعل الصواب: «ومن التوكل على الله استكمال العدد والعدة».

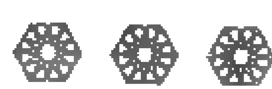
وعندما حز في نفس الرسول الكريم صنيع قومه به في هذه الغزوة حين كانت لهم الغلبة فشجوا وجهه وكسروا رباعيته أخذ يقول: «كيف يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا». وهو يدعوهم إلى اللّٰه، أو أخذ يقنت ويدعو عليهم في صلاته، عندما كان منه ذلك أنزل اللّٰه عليه قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٨] أي: إن عاجلتهم بالعذاب والقتل في الدنيا، أو أجلت عذابهم في الآخرة بما أعددته للكافرين في الجحيم، أو تبت عليهم وهديتهم إلى الإسلام، فأمرهم بيدي أقضي فيهم بما أشاء، فإنهم استوجبوا العذاب بظلمهم، وقد تاب عليهم سبحانه وهداهم للإسلام، والإسلام يجب ما قبله، وله سبحانه جميع ما في السماوات والأرض ملك له وتحت تصرفه وحده، يفعل فيه ما يشاء، ويقضي فيه بما يحب، يتوب على من يشاء من خلقه، ويغفر لمن يشاء من عباده ويعاقب من يشاء على جرمه، وهو سبحانه الغفور يستر ذنوب عباده الرحيم بهم، فيترك معاقبتهم عاجلًا مع عظم ذنوبهم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٩].

ثم حذر سبحانه عن أخطر تعامل منيت[1] به الإنسانية وهو الربا ففي التعامل به معصية للّٰه ورسوله وفي معصية اللّٰه ورسوله الدمار والخسران كما ظهر ذلك واضحًا في غزوة أحد حين عصي الرماة أمر رسول اللّٰه فحقت عليهم الهزيمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠- ١٣٣] وفي قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٢] معاتبة للذين عصوا الرسول ﷺ حين أمرهم بما

(١) منيت به، منيًا، أي: بليت به. «تاج العروس»، و«القاموس المحيط» (مني).

أمرهم به في أحد فخالفوا أمره ، ثم أخبر سبحانه بما أعده لعباده المطيعين لأمره ، وأمر رسوله من المغفرة والنزول في جنان فسيحة ...[١] . العقول وشرح أوصافهم وعرض لأعمال البر التي استوجبوا بها ذلك الجزاء والرضوان ونزول الجنان ، فقال : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦] .

وأقف عند هذا القدر من شرح الآيات المنزلة في غزوة أحد ، فقد طال المقال ، وإلى العدد القادم إن شاء الله ، حيث آتي على بقية الآيات مع التعليق عليها ؛ آملاً بذلك أن أوفي البحث حقه .



(١) كلمة غير واضحة في الأصل .

في السيرة النبوية:

مواقف حاسمة(١)

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٦].

ختمت هذه الآيات مقالي الأسبق ووعدت باستيعاب بقية الآيات التي أنزلها الله بعد وقعة أحد، وها أنذا أنجز الوعد، آملًا أن أسير في تفسيرها إلى القدر الذي يتيسر لي تفسيره في هذا المقال، بعد هذه الآيات الآنفة، استأنف الله سبحانه ذكر غزوة أحد، وأخذ يعزي المسلمين عما أصابهم فيها من القتل، وما لحقهم من المتاعب والشدة التي أراد بها سبحانه التمحيص ورفع منازل الشهداء منهم وبدأ هذا العزاء بقوله .. ولقد كان في الأمم قبلكم من أتباع الرسل مصائب ابتلوا بها، وكان للباطل عليهم صولة، ثم كانت العاقبة لهم، وتلك سنة الله في خلقه يمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، فانظروا تصديق ذلك في الأمم المكذبة، كيف أمليت لها ثم أنزلت بها نقمتي، وهذا القرآن بما فيه من أخبار الماضين وإهلاك المكذبين هدي من الضلال يهتدى به ويتعظ به بوعظه المتقون.

وأخذ بعد ذلك يرفع من نفسيات المؤمنين؛ لئلا تؤثر فيهم الهزيمة قائلًا: لا تضعفوا عن جهاد عدوكم لما نالكم من القتل والجراح، ولا تحزنوا لذلك فالعاقبة والنصر لكم، ولئن مسكم في هذه الغزوة جراح فقد أصاب خصومكم

---

(١) مجلة الحج- ذو القعدة- سنة ١٣٧٥هـ.

يوم بدر جراح مثل جراحكم ، وكذلك يجعل اللَّه الأيام دولًا بين الخلق ، فتلك سنته سبحانه ، وليتميز بهذه المداولة المؤمنون عن المنافقين ، وليتحقق بها صدق إيمان المؤمنين ، وليكرم أقوامًا منهم بالاستشهاد في سبيله .

وهو سبحانه لا يحب المنافقين الذين يبطنون خلاف ما يظهرون وليكفر عن المؤمنين بما أصيبوا بعض ذنوبهم ، وليرفع لهم درجاتهم وليهلك الكافرين بكفرهم وطغيانهم ، واستمر في خطابه سبحانه للمؤمنين قائلًا : أم حسبتم أن تنالوا كرامة اللَّه في الجنة دار الكرامة ولما يبتليكم اللَّه بالشدائد يختبر بها صدق إيمانكم ومبلغ تضحيتكم وصبركم ، ولقد كنتم قبل يوم أحد تتحرقون للقاء عدوكم ولمناجزته ؛ لتحصل لكم بذلك الشهادة فها أنتم اليوم أمام العدو وجهًا لوجه تشاهدون الموت عيانًا تحت ظلال السيوف وفي أطراف الأسنة ، قال تعالى : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٧- ١٤٣] .

بعد ذلك أخذ سبحانه يستفز حماس المؤمنين ، ويذكر لهم أنهم إنما يقاتلون عن مبدأ وعقيدة ، لا عن هوى وعصبية ، والمبدأ والعقيدة لن يزولا بزوال قائدهم وموجههم ، وما مهمة القائد غير التوجيه ، وما مهمة الرسول غير التبليغ ، ولم يكن محمد ﷺ بدعًا من الرسل ؛ فلقد سبقه رسل قاموا بمثل مهمته وهم من البشر

يجري عليهم ما يجري على سائر البشر من القتل والموت وغير ذلك .

فهل يصح لأتباع الرسول محمد لو حصل له ما حصل لأسلافه من قتل وشدائد ، هل يصح لهم أن يرتدوا عن دينه الذي هو في الواقع الدين الذي ارتضاه اللّه لخلقه ؟ على أنه لو كان ثمة ردة من بعض أتباعه فإنهم إنما يضرون بذلك أنفسهم إذ يقودونها إلى نار جهنم حيث تصطلي بنارها جزاء ردتهم ، أما من يقيم على عقيدته الذي كان يكافح عنها ويناضل الكفار مع رسول اللّه فأولئك هم فريق الشاكرين الذين سوف يجزيهم على صبرهم وثباتهم خير الجزاء ، قال تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤] .

ثم أخبر سبحانه أن كل نفس لن تموت حتى تستوفي أجلها الذي كتبه اللّه لها ، ولن يكون في قدرة أحد تقديمه أو تأخيره ولا الإقدام على العدو أو الفرار من وجهه بالذي يزيد أو ينقص من العمر شيئًا ، ومن أراد تعجيل نصيبه من الأجر في الدنيا أعطاه اللّه مما قدر له لا يزيده عنه أو ينقصه منه غير أنه ليس له في الآخرة من نصيب ، ومن يرد بعمله وجهاده الآخرة وثوابها فإن اللّه سوف يعطيه في الدنيا والآخرة بفضله وكرمه من الجزاء ما تقر به عينه ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٥] .

وانتقلت الآيات بعد ذلك يذكر اللّه فيها أخبارًا مماثلة لوقعة أحد كان فيها أتباع الرسل في نضال ضد خصوم دينهم ، ونالهم من المصائب ، بل من أعظمها قتل أنبيائهم وقتل الكثيرين من أتباعهم ، ومع ذلك لم يجبنوا عن مقاتلة عدوهم ، ولم ينصرفوا عن لقائه ، ولم يفت في عضدهم قتل الأنبياء ولم يرتدوا عن دينهم ،

بل ثابروا على الجهاد وسألوا اللَّه تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم ويثبت أقدامهم في دفاعهم عن دينهم وينصرهم على عدوهم ، فاستجاب اللَّه دعاءهم ، وكتب لهم النصر والظفر في الدنيا ، وحسن الجزاء في الآخرة ؛ ذلك لأنهم أحسنوا الصنيع فأحسن اللَّه إليهم ، وفي ذلك توجيه للمؤمنين ؛ ليقتدوا بهم ، لا أن يلجئوا إلى الهزيمة فينصدع بنيانهم أو يستسلموا للوهن حين بلغهم قتل نبيهم ، كما أشاع ذلك بعض المشركين ؛ للتشفي ، ولفل رابطة المسلمين . أو كان بعضهم يعتقد ذلك حتى انجلى الموقف وعلموا أن الرسول وأبا بكر وعمر ما برحوا على قيد الحياة شجي في حلوقهم ، قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦- ١٤٨] .

ولقد دعا قوم من المشركين بعد الهزيمة وإشاعة قتل النبي ﷺ دعوا المسلمين إلى العودة في دينهم والردة عن إسلامهم بعد الإيمان بربهم ، فنهى اللَّه المؤمنين عن طاعتهم وأخبرهم بما في هذه الطاعة من الخيبة والخسران بعد إشعاع نور الإيمان في قلوبهم ، وتلك هي الفتنة بعد الهدى والرشاد ، وأخبرهم سبحانه أنه هو المتولي لأمورهم ، وقد وعدهم النصر على أعدائهم ، وسوف يحقق لهم هذا الوعد بأن يلقي الخوف في قلوب خصومهم فلا يفكرون في الكرة عليهم لاستئصالهم ، وذلك أن قريشًا بعد المعركة وهزيمة المسلمين تأسفت على عدم الإجهاز عليهم ، وقالت : بئس ما صنعنا . قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم ، ارجعوا إليهم فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك قذف اللَّه الرعب في قلوب الأعداء مما أيد اللَّه به رسوله في هذه الوقعة وغيرها ، فقد ثبت

في الصحيحين من حديث جابر بن عبد اللّٰه ، أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا »(١) . الحديث .

وأخبر سبحانه أن إلقاءه الرعب في قلوب أعداء الإسلام بسبب شركهم واتخاذهم معبودات باطلة لا تقوم عليها حجة ولا برهان ، وسوف يجزي اللّٰه خصوم دينه بأن يجعل النار مسكنهم في الآخرة ، وبئست النار من مأوى ومستقر ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥١] .

وأخبر سبحانه أنه كان قد أتم النصر فعلًا في هذه الغزوة أول الأمر عندما واجه المسلمون عدوهم فأخذ الرماة يرشقونه بالنبل ويضربه المقاتلة بالسيوف حيث سلطهم اللّٰه عليه فولي هاربًا حتى خالف الرماة أمر رسول اللّٰه وتركوا مواقفهم وتنازعوا قبل ذلك الأمر وانقسموا إلى فريقين فريق يرجح فكرة الانسحاب من المواقف والنزول إلى الميدان ؛ لجمع الغنيمة بعد أن رأوا النصر رأي العين ، والفريق الأخر صمم على التزام أمر الرسول وعدم الانسحاب من موقعه .

وبعد هذا التنازع فشلوا في منازلة العدو ، وصرف اللّٰه المسلمين عن المشركين بالهزيمة ، إذ تغير الموقف ، وفي ذلك ابتلاء لصبر المؤمنين وجلدهم ، ولقد عفى اللّٰه عنهم صنيعهم في تركهم للمواقف وعصيانهم أمر الرسول ووصيته فلم يآخذهم عليه ، ولم يسلط عليهم العدو ، لاستئصالهم ، وله سبحانه الفضل

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) .

والمنة على أهل الإيمان بالعفو عنهم وتأييدهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٢] أي: تقتلونهم بتسليط إياكم عليهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٢]: وهو الظفر والنصر أول المعركة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٢]. ويعني بذلك من رغب في الغنيمة من الرماة وترك موقفه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٢] ويعني بهم من ثبت من الرماة مع رئيسه عبد اللَّه بن جبير حتى استشهد في سبيل اللَّه ثابتًا على طاعته لأمر رسول اللَّه. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٢].

وأخذ سبحانه يستعرض بعض مواقف الهزيمة ويؤنب الهاربين من المعركة ،عندما استحر القتل فيهم، وعندما كان الرسول ﷺ يدعوهم إلى العودة إليه بقوله: «إليَّ عباد اللَّه، أنا رسول اللَّه مَن يكر فله الجنة». فلم يستجيبوا، وكأنهم لم يسمعوا، بل أصعدوا في الجبل منهزمين لا يلتفتون إلى شيء من الدهشة التي عرتهم، والذعر الذي داخلهم، فجازاهم اللَّه على ذلك غمًا على غم، وكربًا بعد كرب، فالغم الأول: قتل من قتل منهم من إخوانهم، وعلو عدوهم عليهم، والغم الثاني: ما أشيع من قتل الرسول ﷺ، فشق عليهم ذلك جدًا، وهذا الغم الذي أصابهم كان علاجًا لنفسياتهم؛ لئلا يحزنوا على ما فاتهم من الظفر بعدوهم، ولئلا يتأثروا بالقتل والجراح فيهم، وقد فرج عنهم بعد ذلك بإظهار كذب إشاعة موت الرسول ﷺ ففرحوا لذلك واستبشروا، واللَّه سبحانه خبير ومطلع على كل أعمالهم وتصرفاتهم، قال تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ

لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٣] .

وحسبي أيها القارئ الكريم شرحًا وبسطًا لهذه الآيات ، فقد ضاق وقتي عن إتمام البقية الباقية واستيعاب كل ما أنزل في هذه الغزوة من آيات اللَّه ، وأنا حريص على عدم الأخذ الكثير من وقتك في متابعة كل ما أكتبه في هذا المجال ، فإلى الأعداد القادمة إن شاء اللَّه ، حيث نلتقي مرة أخري على صفحات هذه المجلة .



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[1]

وصل الحديث مع سابقه يتقاضانا الإلماع إلى غزوة مؤتة التي كانت موضوع البحث في المقال الأسبق ، وتقدم أن موضعها كان شرق البحر الميت ، وأن عدد جيش المسلمين فيها كان ثلاثة آلاف قابلهم من الروم مائة ألف أو يزيدون وأن المسلمين لم يكونوا قبل هذه الغزوة قد نازلوا الروم وأنهم وإن لم يجنوا في هذه الغزوة مغنمًا إلا أنهم لقنوا الروم درسًا في المثابرة والتضحية والفداء قلب عليهم خططهم وغدوا يتمنون العافية من حرب ضروس أفنت منهم أعدادًا هائلة وكبلتهم خسائر فادحة ، وكانوا يخشون أن مددًا ينضم للمسلمين تقلع عليهم الدبرة ، وقد تنفسوا الصعداء عندما انسحب المسلمون من المعركة بفعل المكيدة التي دبرها خالد بن الوليد رضي اللَّه عنه في نهاية المعركة ؛ لكيلا يسجل على المسلمين الهزيمة ، ولكن رسول الهدى ﷺ ما برح منذ أن عاد جيش مؤتة إلى المدينة يتحين الفرصة ؛ لإعادة هيبة المسلمين في هذه الناحية ، وللأخذ بثأر قتلاهم ، وفي الطليعة قوات الجيش الثلاثة زيد بن ثابت ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد اللَّه بن رواحة ، ولم يمض عليه يوم إلا ويسأل اللَّه أن يشرح صدره ويقوي عزيمته ويمده بمدد من عنده ؛ ليرد عادية الطغيان ، ويثأر للإسلام من خصومه .

وفي جمادى الثانية سنة ثمان من الهجرة أي : بعد مضي شهر واحد على غزوة مؤتة بعث عمرو بن العاص داهية العرب وقائد الإسلام المحنك على رأس جيش لا يعدو الثلاثمائة مقاتل ومعه ثلاثون فارسًا إلى الشمال على بعد عشرة أيام من المدينة بعد وادي القرى في موضع بأرض جزام قريب من ماء يقال له : السلسل . ليتعالم الناس أن المسلمين لم تلن لهم قناة ولم ينهنه عزم أو بخضد

---

(١) مجلة الحج- ربيع الآخر- سنة ١٣٧٩هـ .

شوكتهم هزيمة معركة مؤتة فهي إن جاز أن تسمي هزيمة ، فهي هزيمة واحدة إلى جانب نصر متتابع ، في جملة معارك تصاول فيها الحق مع الباطل ، فكانت الغلبة للحق ، وذلك شأن الحق إذ يعلوا الباطل فيضمحل ويتلاشى الباطل كما يتلاشى زبد السيل وغثاؤه .

يقول عمرو بن العاص رضي اللَّه عنه حين انتدبه رسول الهدى لقيادة هذا الجيش : بعث إليّ النبي ﷺ يأمرني أن أخذ ثيابي وسلاحي ، وقال : « يا عمرو ، أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك اللَّه ويسلمك » . وكان عمرو رضي اللَّه عنه حديث عهد بالإسلام ، فقال : لم أسلم رغبة في المال . وكأنه ينفي عن نفسه أن تبلغ منه المادة درجة تأسره وتملك عليه أمره ، فرد عليه الرسول ﷺ موضحًا غرضه وقال : « نِعم المال الصالح للرجل الصالح »[١] .

ويستوقفنا هذا التوجيه النبوي لعمرو رضي اللَّه عنه ، بل للأمة الإسلامية في شخص عمرو وحيث أرشده أن المال لا يكون نقيصة وشرًا ونقمة على مكتسبه إذا كان مالًا صالحًا ، والمال الصالح هو أن يكون من كسب حلال مشروع ولا شبهة فيه فهو نعم المال ينفق في أوجه البر ومجالات الصلة والمعروف فيواسي الجراح ويخفف من متاعب الحياة ، ويكون بذلك الأجر لمنفقه ، وخاصة إذا كان ممن سمت روحه وارتقت من مدارج الصلاح نفسه ، فهو إذ ينفق المال لا يبغي الرياء والسمعة والفخر ، وإنما يبتغي لإنفاقه وجه اللَّه .

وفي توجيه رسول الهدى لأمته هذا التوجيه في الاعتداد بالمال الصالح كأداة للخير هدم لمبدأ الشيوعية البغيض الذي لا يعترف بالملكية الفردية ولا يقر صاحب ثروة على ماله حرًا يتصرف فيه وطليقًا يوجه ثروته حسب مقتضيات

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١٩٧، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) . وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٢٩) .

ظروفه ووضعه في مجتمعه وينفق منها في حدود ما شرع اللَّه له من أوجه الإنفاق ثم يدخر منها ما يشاء ويتمتع بما يشاء ضمن نطاق الإباحة، لا تقطير ولا تبذير.

يؤيد ذلك: أنه كان في صحابة رسول اللَّه ﷺ وهم في خير القرون من تضخمت ثروته وبلغت رقمًا قياسيًا آنذاك، في حين أنه كان يوجد جانبه من لا يملك قوت يومه ومع ذلك لم يقصر الإسلام أرباب الثروة على مقاسمة الفقراء وإشراكهم في أموالهم، بل كان يندب إلى الإحسان في كل وجه، فكان الأثرياء يفضلون على الفقراء من فضول أموالهم بما يخفف عنهم مرارة الفقر ومحنة الحاجة مما يشعر بوضوح أن أي نظام يحد من ملكية الفرد، أو يفرض أن تكون الثروة التي يكدح من أجل الحصول عليها فريق من الناس موزعة بين عموم الطبقات، فهو نظام فاسد ظالم، لا يقره الإسلام، بل يمقته ويباعد بينه وبين أبناء الإسلام واتباع شريعة سيد الأنام، و﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [النّحل: الآية ٧١].

قال المفسرون: بسط على واحد وضيق على الآخر، وقلل وكثر. وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه لأبي موسى الأشعري في وصية أوصاه بها فقال: واقنع برزقك في الدنيا فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلي به كلا، فيبتلي من بسط له كيف شكره للَّه وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله.

فهل كان أنصار الشيوعية الهدامة أبعد نظرًا وأعمق تفكيرًا وأعظم سدادًا من خليفة رسول اللَّه ﷺ؟! وهل كان سياسة وتدبير الشيوعيين لنظام الملكية الجائر أمس بمصالح العباد من تدبير أحكم الحاكمين الذي قسم الرزق بين عباده وفضل فيه بعضهم على بعض؟! وصدق رسول الهدي ونصح الأمة إذ يوجهه ويقول: «نِعم المال الصالح للعبد الصالح».

نعود بعد هذا الاستطراد إلى موضوع البحث ونتابع داهية العرب عمرو بن العاص في الوجه الذي انصرف إليه والمهمة التي وكل إليها أمر القيام بأعبائها رسول الهدى وهي الغزو، فنجد أنه كان يستحث الخطى ويتابع السير نهارًا ويكمن في الليل؛ لئلا يراه القوم، وطمع أن ينال منهم غرة تمكنه من كسب الموقف غير أنه عندما نزل على السلسل. ومن جذام علم بكثرة العدو وتجمعه فلم يشأ أن يتسرع في منازلته خشية أن يعيد مأساة مؤتة فبعث إلى الرسول ﷺ يطلب أن يمده بالرجال، فلبى طلبه على الفور وبعث إليه بأمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح في جيش قوامه مائتا رجل، وأوصاه بالانسجام مع عمرو وعدم الاختلاف معه، وبهذه الوصية حسم مادة الخلاف وتلافى التصدع والفرقة؛ ذلك لأن تنازع السلطان أو الحرص على السيطرة وامتداد النفوس وإظهار الشخصية غريزة في البشر، غير أن العقول الكبيرة تخضع الكثير من الغرائز الجامحة والطباع المنتقدة إلى سلطانها، فيكون بين[1] الناس تفاوت ملحوظ في الميول والمنازع، وفي تكوين الروابط وتأسيس العلاقات الطيبة التي تقوم على تبادل الثقة والتقدير والاحترام.

وحين بعث الرسول أبا عبيدة مددًا لعمرو بن العاص قدر هذا الظرف، وخشي أن يتنازع صاحباه الإمارة، وأن يشعر كل منهما بالحق في السلطة فأوصى أبا عبيدة بعدم الاختلاف مع عمرو.

ولقد صدق حدس الرسول الكريم ﷺ فإن عمرًا بمجرد وصول أبي عبيدة إليه، قال له: إنما جئت مددًا لي فأنا على قيادة الجيش فرد عليه أبو عبيدة بقوله: لقد قال لي رسول اللَّه ﷺ: «لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك.

وقضى بذلك أبو عبيدة رضي اللَّه عنه على عوامل الفرقة؛ لاستجابته لوصية

(١) في الأصل: «مر». ولعل المثبت هو الصواب.

رسول اللّٰه له وإذعانه لأمره . ثم تقدم عمرو بالجيش والتحم بالعدو وقام بمصابرته ومصاولته حتى اضطره للانسحاب من المعركة بعد أن تكبد خسائر فادحة، وكتب إلى الرسول ﷺ بالنصر وبتعزيز نفوذ المسلمين على تخوم الشام ، وبذلك مهد للجيوش الإسلامية فيما بعد غزو الروم حيث أسقط هيبتهم إذ وطئ منطقة نفوذهم وقاتل فيها من أراد بالمسلمين سوءًا من القبائل الموالية للروم والتي كانت تعتز بسلطانها وتحسب أن لا سلطان أو قوة تستطيع أن تخضع أية ولاية أو تنتزع أي قطر من الروم ، وهي ثاني الدولتين العظيمتين في القوة والسيطرة والنفوذ المديد ، ثم عاد عمرو رضي اللّٰه عنه إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة أو هذه الإمارة بالنسبة له أولى الإمارات ؛ إذ كان حديث عهد بالإسلام ، قيل : سميت هذه السرية بسرية ذات السلاسل ؛ لأن خصوم الإسلام ارتبط فيها بعضهم ببعض ارتباط السلاسل المتشابكة خشية الفرار ، وتصميمًا على النزال إلى آخر قطرة من حياتهم . وقيل : إنها سميت بذلك لأن بها ماء يقال له : السلسل . كما تقدم .

وقد عرضنا لذكر هذا التعليل في تسمية السرية أو الغزوة طلبًا لاستيفاء البحث حقه من الوجهة التاريخية وإن لم يكن من صميم موضوعنا .

واستمر بعد ذلك رسول الهدى يبعث السرايا إلى أطرافه قبل خصومه الذين لم يداخل بشاشة الإسلام قلوبهم ؛ ليذعنوا طوعًا أو كرهًا للدين الذي ارتضاه اللّٰه لعباده ، وأرسل به رسول محمد ﷺ رسالة عامة شاملة ، ولتكون هذه السرايا تمهيدًا للفتح الأعظم ، وخاتمة لتصفية الموقف مع قريش بعد انقضاء الهدنة ، أو عندما ينعق الشيطان بين قريش ليخرجها عن عهدها للرسول فتنكثه ، وحينئذ يكون الجو مهيأ لإخضاعها دون قيد أو شرط ، وقد كان ذلك على ما سنبسطه إن شاء اللّٰه في المقال الآتي .

في السيرة النبوية:

مواقف حاسمة(١)

قلت في مقالي الأسبق: إن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام لم يدخل مكة في الفتح الأعظم دخول المتألهين ثملًا(٢) بنشوة النصر، ولكنه دخلها دخول المتأدبين الشاكرين، دخلها مطأطئًا رأسه؛ إجلالًا للّٰه وشكرًا، حيث قد رفع شان الإسلام وأعز دينه ونصر رسوله، وقد نصبت له قبة في أعلا مكة ليستريح بها من وعثاء السفر، وكأن مكة لم تكن له بدار ولم يقر له بها قرار، نزلها نزول الغريب، وكان موقفه من أبناء عمومته الذين غمطوه(٣) حقه واستولوا على داره بعد أن هاجر، كان موقفه منهم ومن تصرفهم موقف الكريم الذي يتغاضى عن الزلة، فحين سئل عن رغبته في النزول إلى داره على اعتبار ما كان له في مكة قبل الهجرة كان جوابه في أروع عبارات اللطف والتسامح: «وهل ترك لنا عقيل من دار»(٤).

لم يبد سخطًا على تصرف عقيل، ولم يثأر لحقه المغتصب وداره المسلوبة، ورضي أن يقيم تحت قبة لا تقي الحر، ولا تغني عن القر، وذلك ما يتجلى فيه معنى الآية الكريمة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: الآية ٤].

لم تلهه نشوة النصر عن القيام بواجب الشكر لربه، وهو أعظم موقف يجب أن يسجل لرسول الهدى في تقدير النعمة والاعتراف بعظيم المنة، ولم يطل مكثه

---

(١) مجلة الحج- شبعان سنة ١٣٧٩هـ.

(٢) الثَّمَل، محرَّكة: السُّكْر والنشوة، وقد ثَمِل الرجل كفرح، فهو ثَمِل أخذ فيه الشَّراب، فهو نشوان. «تاج العروس». (ث م ل).

(٣) غمط فلان فلانًا غمطه والعافية والنعمة أنكرها ولم يشكرها، والحق أنكره وهو يعلمه. «المعجم الوسيط»: (غمط).

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٥٨، ٤٢٨٢)، ومسلم (١٣٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي اللّٰه عنه.

في قبته ، بل هبط إلى البيت الحرام وسط عاصفة من التكبير من أصحابه كانت تدوي بها مكة وبطاحها وترجع الجبال صداها ؛ إنه تكبير صادر من الأعماق يعبر الشعور الفياض الغامر ويوحي ببالغ الفرحة ومدى تقدير النعمة .

وقد أذهل قريشًا ما رأت وما سمعت ، وتوجست خيفة ، فلحق فريق منها بشعاف الجبال ، وانزوى الفريق الأخر في دار أبي سفيان ، وبقي البعض في المسجد يرقب عن كثب وفى رهبة شديدة وذعر ؛ نتيجة الموقف ، وما يؤول إليه أمر قريش مع الفاتح العظيم ، وهل يجرد عليهم سيف النقمة جزاء لماضيهم معه ؟ أم يصفح ويعفوا ؟ وهو للعفو أهل ؟ وكان يترجح في نفوسهم أن يكون لهم يوم كيوم بني قريظة أو سواهم ممن كادوا للإسلام وكانوا له أليًا وعليه حربًا .

ولكن الرسول الكريم الحليم أسبل ثوب الإغضاء على الماضي ، وقدم العفو والصفح الجميل على الانتقام والمؤاخذة بجريرة الذنب ، وبعد أن أدى واجب الشكر ، والذكر لربه ، وطاف بالبيت الحرام ، قام على باب الكعبة يضع أسس العدل ، ويطيح بالعصبيات الجاهلية الرعناء[١] ، ويذكر بأصل مادة الخلق ؛ ليبعث على التطامن ، وليحد من تعالي النفوس الجامحة في أسلوب حازم صارم ، وليعلم قريشًا بموقفه الحاسم من قضيتهم ، يستجلب بذلك[٢] نافرهم ويؤلف قلوبهم ويقضي على روح القلق والاضطراب التي استولت عليهم ، وقد حفظ من خطبته قوله : « لا اله إلا اللّه وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فيه فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج » . إلى أن قال : « يا معشر قريش ، إن اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من

(١) الأرعن : الأهوج في منطقه ، والرعناء مؤنث الأرعن . « المعجم الوسيط » : (رعن) .
(٢) في الأصل : « بذك » .

تراب، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٣]. يا معشر قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١).

شمل بعفوه القريب والبعيد إلا نفرًا قليلا أهدر دمه؛ لتجاوز الخطيئة حد الغفران منهم: عبد اللّٰه بن خطل، فقد ارتد بعد إسلامه، وقتل خادمًا ناط به الرسول خدمته، وهجا النبي وأقذع، وكانت له جاريتان تغنيان بالهجر، فأمر الرسول بقتله وهو متعلق بأستار الكعبة، وقال: «إن البيت لا يعيذ عاصيًا». ولم يقف الرسول الكريم مثل هذا الموقف الذي وقفه من ابن خطل إلا مع رجلين وامرأة، أما عداهم فقد شملهم العفو العام؛ شملهم القلب الكبير والنفس الرحيمة فأحيى منهم الأمل وضرب لهم أروع الأمثال في التغاضي عن الزلة والعفو عند المقدرة.

وثمة نفر أهدر دمه الرسول الكريم يوم الفتح، ثم تجاوز عنه؛ إما بشفاعة شفيع، أو بإسلامهم وتكفيرهم عن الماضي، وقد كان لهم بعد الإسلام المواقف الحميدة في نصر الدين؛ عكرمة بن أبي جهل كان من أشد الناس على رسول اللّٰه ﷺ والمسلمين، أظلمت الدنيا في عينيه حين علم بالإسلام، ودخل رسول الإسلام مكة فاتحًا فذهب لينتحر غرقًا أو جوعًا فاستأمنت له زوجه رسول اللّٰه ﷺ فصفح عنه، وقال: «هو آمن» وأثر هذا الموقف موقف الرسول إزاءه وصفحه عنه فأسلم وغدا من خيار الذائدين عن الإسلام، وهبار بن الأسود كان من أشد أعداء الإسلام، وعرض لزينب بنت رسول اللّٰه ﷺ إذا اعتزمت الهجرة

(١) أخرجه ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ٢/ ٤١١، والطبري في تاريخه ٢/ ١٦١، والبيهقي ٩/ ١١٨. وضعفه الألباني في الضعيفة (١١٦٣).

فنخس بعيرها وهي عليه حتى سقطت عنه على صخرة فأجهضت ولزمت الفراش حتى توفيت رضي اللّٰه عنها، اختفى هبار يوم الفتح، ثم جاء إلى الرسول الكريم يعتذر ويعترف بجرمه ويتقدم بالإسلام كبرهان على صدقه، فكان موقف الرسول منه نفس الموقف الذي وقفه مع عكرمة العفو والصفح الجميل.

كعب بن زهير كان يهجو النبي ﷺ، ويعير أخاه بحيرا على إسلامه، هرب يوم الفتح من جيوش الإسلام، ثم وفد على رسول اللّٰه ﷺ في المدينة يستصلح من أخطاء الماضي، ويعتذر بقصيدته التي يمدح فيها الرسول ﷺ التي جاء في مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ....

ومنها:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف اللّٰه مسلول

وأسلم فأحسن الرسول وفادته، وكساه بردته، وصفح عنه. والحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية كان مع الرسول والمسلمين ماض معتم نكتنفه الخطايا ...[1] يوم الفتح في بيت أم هانئ بنت أبي طالب فأجارتهما، وأجاز رسول اللّٰه ﷺ جوارها، وقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»[2]. وجاءت بما إلى رسول اللّٰه ﷺ وحسن إسلامهما.

وصفوان بن أمية كان حربًا على الإسلام ورسول السلام، ولم يحتمل الصدمة بالفتح فتح مكة وسقوط دولة الكفر.

فاختفى ثم شد الرحل إلى البحر بغية الغرق إنهاء حياته على حد تعبير القائل: بيدي لا بيدك يا عمرو. فجاء ابن عمه عمير بن وهب إلى رسول اللّٰه ﷺ يستدر

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧، ٣١٧١)، ومسلم (٣٣٦) من حديث أم هانئ رضي اللّٰه عنها.

عطفه، ويطلب الصفح عن صفوان، ويقول فيما بقول: يا نبي الله، إن صفوان سيد قومه قد هرب من قومه؛ ليقذف نفسه في البحر فأمنه فأجابه الرسول إلى ما طلب، وقال له على الفور: «الحق بابن عمك فهو آمن». وطلب عمير من رسول الله ﷺ آية يثق بها صفوان فيعدل عن رغبته في الانتحار، ويعود إلى حظيرة الأمن والسلام، فدفع له رسول الله ﷺ عمامته التي دخل بها مكة، فلحق به وهو يركب البحر لينفذ خطته، وعرض عليه أمان رسول الله وآيته على ذلك، وقال له صفوان: جئتك من عند أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، وهو ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك. قال صفوان: إني أخافه على نفسي.

غريب أمر صفوان ...[1] عن رسول الله وقد عاش بين قريش أمدًا طويلًا هل عرف عنه غدرًا أو عثر له على هنة تفقد الثقة به وبوعده وأمانه. قال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم. وما زال به حتى أسلس قياده، وعاد به إلى رسول الله ﷺ وأوقفه عليه، وكان له معه مواقف تجلت فيها سماحة الرسول وأصحابه.

ولقد بدرت من صفوان جفوة لو آخذه عليها رسول الله لم يخرج عن العدل فيه. أقبل صفوان وفي رأسه نخوة الجاهلية فلم يكفر في أول لقاء لقي فيه الرسول عن ماضيه ولم يعتذر عن مسلكه العدائي للإسلام ورسول السلام، بل أشار إلى ابن عمه وهو يخاطب الفاتح الأعظم والرسول الكريم الأمين الأكرم قائلا: إن هذا يزعم أنك أمنتني وأجابه الرسول بقوله: «صدق». قال صفوان: أمهلني بالخيار شهرين. يقصد ينتظر به على الإسلام شهرين يكون له فيها الخيار. فقال له الرسول: «أنت بالخيار أربعة أشهر»[2].

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٢) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٧، وتفسير البغوي ٨/ ٥٧٤، وعيون الأثر ٢/ ٢٠٢.

ومرت أيام على الفتح عزم خلالها الرسول حرب هوازن ، وكانت له الحاجة في تزويد الجيش بالمال والسلاح فطلب من صفوان أن يمده بأربعين ألف درهم وبدروع كانت لديه ، فقال صفوان : أغصبًا يا محمد ؟ قال : « لا ، ولكنها عارية مرجوعة مضمونة » .

وعندما قفل الرسول من حربه وأخذ يقسم الغنائم بحنين نفح صفوان مائة من الإبل ؛ تأليفًا له وترغيبًا في الإسلام ، وأردفها بأخرى ، وعززهما بثالثة ، ثم رأى صفوان أن يرمق شعبًا ملئ نعما وشاء . فقال له : أيعجبك هذا ؟ قال : نعم . فوهبه إياه ، وعندئذ أدرك صفوان بعد أن قبض كل ما نفحه إياه رسول الهدى أدرك أن العزوف عن المادة لدرجة الزهد فيها والانصراف عن إغرائها لا يصدر إلا ممن اتصلت أسبابه بالسماء ، وكان له من إمدادها وفيض بركاتها ما يرتفع به عن إغراء المادة ويسمو به عن كل بريق خادع أشبه بسراب تتراكض صوره أمام الناظر ثم يضمحل ويتلاشى .

وقارن صفوان في نفسه بين ملوك الدنيا وبين ما عليه الرسول الكريم في ضربه أروع الأمثال في البذل وعدم اكتراثه بالدنيا ، وأيقن في قرارة نفسه بصدق نبوة الرسول ، وصحة ما جاء به من خبر السماء ، فلم يتردد عن الدخول في الإسلام لحظة بعد الإقناع ، ولم يقدم رجلًا ويؤخر أخرى في خطوه إلى الإيمان . يقول صفوان في تتابع هدايا الرسول ونفحاته عليه : إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا- يعني كثرة العطاء- ما طابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا النبي ، أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأشهد أن محمد رسول اللّه . شهد شهادة الحق وآثر قطع المهلة التي اشترطها ، وقرت عينه بدين محمد ﷺ ، وكان ممن حسن إسلامه .

هذا ، ونكتفي عند هذا القدر من أخبار من كان للرسول معهم موقف سلبي يوم الفتح ، ثم شملهم بالعفو . وإلى مقال آخر إن شاء اللّه .

في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[(١)]

وصل الحديث في أخبار من كان للرسول ﷺ معهم يوم الفتح موقف سلبي ثم شملهم بعد ذلك العفو، وقد وقفنا عند أخبار صفوان بن أمية، وما انتهى إليه أمره حيث أسلم عن طيب نفس واقتناع بصحة مذهبه واتجاهه إلى الإسلام.

ونستكمل اليوم البقية، وفي طليعتهم وحشي بن حرب، ويكاد لا يذكر اسم وحشي إلا وتستعيد الأذهان واقعته الفظيعة مع سيد الشهداء حمزة عم الرسول الكريم، قتله وحشي بعد أن أبلى يوم أحد بلاءً حسنًا؛ إذ كان يقاتل بسيفين، ونال وحشي منه غرة فانقض عليه وقتله بحربة، ومكّن نساء قريش- وفي مقدمتهم هند بنت عتبة زوج أبي سفيان- من التمثيل بحمزة رضي اللّٰه عنه، فحزن رسول اللّٰه ﷺ حزنًا شديدًا، وقال وهو في غمرة الحزن وشدة الأسى: «لئن أظفرنا اللّٰه بهم- يعني قريشًا- لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب»[(٢)]. فأنزل اللّٰه تعالى في ذلك قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦- ١٢٧] فعفا رسول اللّٰه ﷺ ونهى عن المثلة[(٣)]، وقال: «أصبر وأحتسب».

من أجل هذا الصنيع أهدر رسول اللّٰه ﷺ دم وحشي يوم الفتح فهرب إلى الطائف، إذ ضاقت به الأرض بما رحبت بيد أنه لم يهنأ بالعيش عندما خرج وفد الطائف إلى رسول اللّٰه ﷺ يبتغون الإسلام ولم يجد بدًا من التكفير عن ماضيه

---

(١) مجلة الحج- شوال- سنة ١٣٧٩هـ.

(٢) ينظر سيرة ابن إسحاق (٥١٨)، وابن هشام ٢/ ٩٤، والروض الأنف ٣/ ٢٨١.

(٣) النهي عن المثلة، أخرجه أحمد ٤/ ٤٢٨، وأبو داود (٢٦٦٧) من حديث عمران بن حصين رضي اللّٰه عنه. وصححه الألباني في الإرواء (٢٢٣٠).

بالإسلام والتماس الصفح من عند الرسول الكريم فقبل منه الرسول وتجاوز وصفح فحسن إسلامه وكفر عن قتل حمزة بقتل عدو اللَّه مسيلمة الكذاب في حروب الردة، وكان يقول: أرجو أن تكون هذه بتلك.

ومنهم عبد اللَّه بن أبي سرح سبق له الإسلام وارتفع به الرسول ﷺ إلى كتاب الوحي، ثم ارتد عن الإسلام ولحق بمكة، وزعم أنه كان يزيف في الوحي حين يكتبه، وأطلق لسانه في رسول اللَّه ﷺ بالهجر وهجين القول، فأهدر الرسول دمه يوم الفتح، فلجأ إلى أخيه من الرضاعة عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه يطلب أن يستأمن له الرسول على نفسه ويصفح عن زلته، فرق له عثمان لوشيجة القرابة، وتمهل في طلب العفو حتى اطمئن إلى ذلك، فتقدم به إلى الرسول ﷺ مستدرًا عطفه، جاريًا على سنة أم هانئ رضي اللَّه عنها في تأمينها لبعض خصوم الرسول وإمضاء الرسول لأمانها، أو على قول الرسول: «المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم»(١). يقول عثمان مخاطبًا رسول اللَّه: قد أمنته يا رسول اللَّه فبايعه. فاستجاب الرسول الكريم لإلحاح عثمان وبايع ابن أبي سرح بعد تمنع، وبسط له يده؛ ليقبل منه الإسلام بعد الردة، وليصفح عن ماضيه بعد الزلة، فحسن إسلامه، وكان فيما بعد من أبرز رجالات الإسلام وقواده.

ومنهم هند بنت عتبة زوج أبي سفيان كان لها يوم أُحد كما تقدم أفظع جرم، وقد دفعت لقاتل حمزة أقراطها وقلائدها، وبقرت بطن حمزة، واستخرجت كبده فلاكتها ثم لفظتها؛ لتبرد غلتها وتطفئ نار حقدها، ثم أخذت مع نسوة معها ينظمن من أنوف القتلى وآذانهم قلائد إمعانًا في التشفى، فأهدر رسول الهدى يوم الفتح دمها، فتوارت في بيت زوجها حتى تهيأت لها الفرصة في لقاء

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٩٢، وأبو داود (٢٧٥١) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي اللَّه عنهما. وصححه الألباني في الإرواء (٢٢٠٨).

الرسول والتكفير عن ماضيها المعتم بالإسلام ، فقبل منها الرسول وعفا عما سلف من ماضيها ، وشملها القلب الرحيم وتجاوز عن الجرم الجسيم .

ومنهم سارة مولاة بني المطلب قدمت على رسول اللّٰه ﷺ المدينة تشكو له مر الشكوى من تدهور حالها ، وقلة ذات يدها ، وكانت تحترف الغناء ، فقال لها الرسول ﷺ : « أما كان في غنائك ما يغنيك ؟ » قالت : إن قريشًا منذ أن قتل منهم من قتل ببدر تركوا الغناء[1] . فأحسن رسول اللّٰه وفادتها ، وأثقل لها بعيرًا من طعام رجعت به إلى مكة فكافأته على إحسانه بالإساءة والغناء بهجائه ، حيث كان ابن خطل يلقي إليها به ، فأهدر الرسول يوم الفتح دمها فاختفت ثم استؤمن لها فأسلمت .

وهكذا لم يبق ممن وقف الرسول الكريم تجاهه موقفًا سلبيًا إلا استؤمن له فأسلم وحسن إسلامه وشمله عفو الرسول وحلمه الذي شمل عامة قريش الناكث لعهده ، المتجنية عليه ، المتألبة على دينه ، ولم يشق بتنفيذ العقوبة الصارمة التي أصدرها الرسول بحقه إلا ابن خطل الشاعر المأفون ، وإحدى قينتيه ، والحويرث بن نفيد ، ومقيس بن صبابة ؛ ثلاثة رجال وامرأة فقط من بين جمهرة تجمهرت على الإسلام وألحدت في الحرم وتصدت بالأذى لرسول الهدي والسلام . فوضع ﷺ كل ذلك دبر أذنه ؛ ملك فأسجح ، وقدر فعفى ، وطأطأت له رؤوس الجبابرة فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء فهل عرفت الإنسانية أرأف وأحلم وأبر من رسول الهدى ؟

ومن مواقف الحلم المشهودة له ﷺ موقفه من فضالة بن عمير الليثي ، وقد حز في نفس فضالة يوم النصر للمسلمين والفتح على رسول الهدى وتحطيمه للأصنام وتطويحه بالآلهة المقدسة المتوارثة عن أسلاف الجاهليين ، فعقد النية

---

(١) ينظر مغازي الواقدي ١/ ٨٥٩، وسبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٢٥.

على اغتيال الرسول ، وأقدم فعلًا على تنفيذ الخطة ، والرسول يطوف بالبيت الأمين ، ولكنه تخاذل إذ أصبح من الرسول قاب قوسين ، وقد أطلع اللَّه رسوله على ما كان من عزم فضالة ، فالتفت إليه ولم يرد عليَّ ... أن قال له : « فضالة » . قال : نعم يا رسول اللَّه . قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أستغفر اللَّه عز وجل . فضحك رسول اللَّه ﷺ من هزيمة فضالة وقلبه للحقيقة ، إذ كان من حقه أن يطيح برأس فضالة وهو يطوف في حرم اللَّه الآمن على رسول اللَّه ، ولكنه لم يفعل ، بل أمره أن يستغفر اللَّه من زلته وأمده بأمر روحاني ، حيث وضع يده على صدره ، فتحول العداء إلى حب مكين ، وانعكست النفس الحانقة الحاقدة إلى نفس مؤمنة منشرحة بالإسلام مطمئنة لموالاة من والاه الإسلام ومحاربة من حاربه ، قال فضالة : واللَّه ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق اللَّه شيء أحب إليه منه . وامتلك الإسلام عليه مشاعره ، وانطلق ينشد ويعرض بطرف من هناته ، ويمجد الإسلام ، ويصور إشراق نوره في جوانب نفسه :

قالت هلم إلى حديث قلت لا ... يأبى عليك اللَّه والإسلام
لو ما رأيت محمدًا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين اللَّه أضحى بيننا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام(١)

وقريبًا من هذا الموقف موقفه ﷺ من عتاب بن أسيد ، وأبي سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وكانوا بفناء المسجد حين دخل رسول اللَّه ﷺ الكعبة ، وأمر بلالًا أن يؤذن ؛ فقال عتاب حين سمع توحيد اللَّه شهادة الحق يصدع بها بلال : لقد أكرم اللَّه أسيدًا أن لا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه . وقال الحارث : أما واللَّه لو أعلم أنه محق لاتبعته . وقال أبو سفيان : لا أقول شيئًا ،

(١) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٧، وعيون الأثر ٢/ ٢٠٢، والروض الأنف ٤/ ١٧٦.

لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصاة. فخرج عليهم رسول اللّٰه ﷺ يقول: «قد علمت الذي قلتم». وأعاده عليهم، وكأنه شاهد لحديثهم فسقط في أيديهم، وقالوا بصوت: نشهد إنك لرسول اللّٰه، واللّٰه ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] وحي يؤيد اللّٰه به رسوله ومعجزة يكرمه بها فتبهر الخصم وتوحي بضرورة التأييد والإذعان.

وإلى جانب مواقف الحلم لرسول الهدى موقف العدل والوفاء الذي وقفه من حاجب الكعبة عثمان بن طلحة بعث إليه علي بن أبي طالب ليأخذ منه مفتاح الكعبة حين رغب الرسول دخولها فسلمه إليه، وكان علي والعباس يرغبان في أن يضم رسول اللّٰه ﷺ لهما الحجابة إلى السقاية، وبعد أن فرغ الرسول من دخول الكعبة، وقف علي رضي اللّٰه عنه يلوح بالمفتاح وينتظر إجابة مطلبه، فدعا الرسول بعثمان بن طلحة، وأخذ المفتاح من علي، ورده إليه، وقال: «اليوم يوم وفاء وبر»[١]. وفي هذا الموقف أنزل اللّٰه تعالى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: الآية ٥٨].

وهي عامة في رد جميع الأمانات والودائع وغير ذلك مما يأتمن الناس فيه بعضهم دون بينة أمر اللّٰه بأدائها والوفاء بعهدها لأصحابها، يوضح ذلك قوله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[٢].

وتعم أيضًا جميع الحقوق والالتزامات والتكاليف التي التزمها المرء تجاه

---

(١) أخرجه الحميدي (٩٠٢)، والطبراني (٦٦٠٢) في حديث آخر، وينظر تفسير «المحرر الوجيز» لابن عطية ٣/ ١٨، وتفسير الخازن ٧/ ٣١٣.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤١٤، وأبو داود (٣٥٣٤) من حديث رجل عن النبي ﷺ، وأخرجه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه. وينظر علل ابن أبي حاتم ٣/٥٩٤ (١١١٤)، والعلل المتناهية ٢/ ٥٩٣.

ربه ؛ كالصلاة والزكاة والصيام وبقية الشرائع والكفارات والنذور وغير ذلك ، فهي أمانات لا مفر للمرء من أدائها والقيام بها على وجهها ، وفي الإخلال بها خروج على اللَّه في أداء الأمانة وتفريط يؤاخذ عليه العبد .

وفي رفض رسول اللَّه ﷺ طلب العباس وعلي رضي اللَّه عنهما ضم الحجابة إلى السقاية لهما ما يعبر أصدق تعبير عن ضرورة إقامة العدل واتجاه الناس إليه وعدم حمل القرابة على أكتاف الناس أو مجاملتهما على حساب المصلحة وعدم غمط أصحاب الحقوق حقوقهم تأثرًا بالعاطفة ومن أجدر بالعدل وأحق بأن يرفع أعلامه بين الناس ويضم فيهم أسسه من رسول اللَّه ﷺ .

ولقد ضرب رسول الهدى في يوم الفتح أيضا أروع الأمثال على إقامة العدل في الموقف الحاسم الذي وقفه من خزاعة حليفته حين أرادت أن تستغل هذه الصلة ؛ لترفع بها من شأنها فقتلت رجلًا من هذيل يوم الفتح لترات قديمة بينهم فوقف رسول الهدى منددًا بعملهم منذرًا متوعدًا بالاقتصاص منهم لو أعادوا الكرة ، وكان فيما قاله : « يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم من القتل فلقد كثر القتل إن نفع لقد قتلتم قتيلًا لأَدِيَنَّه ، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير الناظرين ، إن شاءوا فدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله »[(١)] . أي : وضع ديته على عاقلته .

لم يجامل رسول الهدى حليفته في اليسر والعسر بل صارحها بالحق وتوعدها بالاقتصاص ولم يغمط أهل القتيل حقهم في الدية ، بل نقدهم إياها ، وحسم بهذا الموقف مادة الشر .

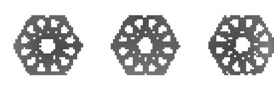
وإلى جانب هذه المواقف مواقف الرعاية والتقدير رعاية حق الصحبة لصديقه الصديق أبي بكر رضي اللَّه عنه في تقديره لوالده أبي قحافة ؛ جاء أبو بكر بوالده

---

(١) أخرجه أحمد ٣٢/٤ من حديث أبي شريح الخزاعي . وجوَّد إسناده الألباني في الإرواء تحت حديث (٢٢٢٠) .

إلى رسول الله، وقد كف بصره، ووهن عظمه، جاء به لينقذه من الكفر، وليدخل ببركة الرسول في الإسلام، فيكون أعظم بر يقوم به الصديق إزاء والده، فأكرم الرسول ﷺ مقام أبي قحافة، وقال كلمته المأثورة التي ضرب بها أروع الأمثال في التواضع وحلو الشمائل: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه»[1]. ثم أجلسه بين يديه وأمسح صدره، وقال له: «أسلم». فلم يرد على الرسول إلا بشهادة الحق. وكان يوم يمنٍ على آل أبي بكر يوم إسلام أبي قحافة، ويوم فخار للصديق، حيث توج الرسول هامته بالتقدير لحقه والرعاية في شخص والده.

بهذه المواقف الكريمة؛ مواقف الحلم والعفو، ومواقف العدل والبر والوفاء والتواضع والرعاية والتقدير إلى جانب مواقف الحزم والعزم والصبر والابتسام للأزمات، وضع رسول الهدى الخطوط؛ لتكوين الدولة الإسلامية، وسار عليها خلفاؤه من بعده، والحكام الإسلاميون في فتوح البلاد، حتى دانت لهم الدنيا، وحتى قال عنهم أعداؤهم: ما عرف التاريخ حكامًا أعدل ولا أحلم ولا أحكم من العرب. والحق ما شهدت به الأعداء.



(١) أخرجه أحمد ٦/ ٣٤٩، وابن حبان (٧٢٠٨) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما. وحسنه محققو المسند.

في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[١]

مِن أمثال القرآن مثل ضربه اللّٰه للحق في ثباته وانتفاع الناس به في هدايتهم ورشادهم وفلاحهم ، وللباطل في تلاشيه واضمحلاله وتبدده رغم صولته الزائفة وتعاليه الذميم ، يقول اللّٰه سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ [الرعد: الآية ١٧] . إلى أن قال : ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: الآية ١٧] .

وحاصل تفسير الآية : أن اللّٰه سبحانه ينزل المطر من السماء فتسيل به الأودية ، ويطفو على وجه الماء زبد من خبث الأرض وغثائها لا يلبث أن يضمحل ويتلاشى ، ولا يثبت إلا الماء الذي به حياة الأنفس وعليه مدار الإنعاش والنفع ، وذلك شأن الحق مع الباطل ، فللباطل جولة ثم يضمحل ويتلاشى ؛ إذ لا خير فيه ولا يثبت أمام تيار الحق الجارف .

أسوق هذا المثل القرآني لأدلل به على واقع الحق الذي جاء به رسول اللّٰه ﷺ ، والذي استمر في مغالبته للباطل ومصاولة له حتى انتهت المعركة بفشل الباطل وهزيمته واندحاره وتلاشيه بالفتح الأعظم ، فتح مكة ، وتغلب الحق عليه ورفع رايته خفاقة تزهو بالنصر وتضرب أروع الأمثال للعاقبة الحميدة عاقبة الثبات على المبدأ والنضال في سبيل الحق .

وكان باكورة أعماله ﷺ يوم الفتح الأعظم بعد أن دانت له رقاب خصومه أن شن حملة شعواء على معالم الباطل وصروح الوثنية ، فقوض بنيانها ، وأطاح بكبريائها ، وسخر منها كآلهة تعبد من دون اللّٰه ، ويصرف لها محض حق اللّٰه ، وتقصد لجلب النفع ودفع الضر من دون اللّٰه .

---

(١) مجلة الحج- ذو الحجة- سنة ١٣٧٩هـ .

كان لكل حي من أحياء العرب صنم قد شد بالرصاص إلى جدار الكعبة حتى بلغ تعدادها (٣٦٠) صنمًا، لها حرمة المعبود ورهبة العابد، فكان يشير رسول الهدى ﷺ بقضيب كان في يده فيهوي إلى أم رأسه ويخر صريعًا أمام سلطان الحق شأن الباطل إذ ينهزم ويضمحل، ويتقاضانا ذكر الأصنام وإسراف قريش والعرب عامة في عبادتها وتأليهها، والانحراف بعبادتها عن الملة الحنيفية، ملة إبراهيم الذي أرسى قواعد بيت اللّٰه على توحيد اللّٰه وجعله إلى الأبد رمزًا للتوحيد وعلمًا لإخلاص العبادة للّٰه الواحد القهار الأحد.

أقول: يتقاضانا ذكر الأصنام التحدث عن سريان عدوى عبادتها إلى العرب، وهم أجدر الناس باتباع ملة إبراهيم فهم من سلالته وهم الوارثون لتراثه، ولكن غريزة حب المحاكاة والتقليد دون إعمال الفكر وأخذ الأمور باستحسانات النقول جرهم إلى الانحراف عن دينهم ومخالفة ملة أبيهم إمام الحنفاء إبراهيم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فلقد نشأت عبادة الأصنام عند العرب وبدأ انحرافهم عن دين إبراهيم منذ أن كانت خزاعة تلي أمر مكة والبيت قبل قريش، وكان عظيمها والحاكم بأمره في مكة عمرو بن لحي الخزاعي، وكل العرب تبع لملكه إن لم يكن في الحكم والإدارة، ففي القدوة الدينية والتأثير؛ لأن بمكة بيت اللّٰه، وإليه يفد الحجيج، فلأهله مكانة خاصة تعظمهم العرب من أجلها، وتقلدهم في كل ما يسلكون وما يذهبون إليه.

وحدث أن عمرو بن لحي الخزاعي عظيم مكة رأى في الشام أصنامًا تعبد وآلهة من دون اللّٰه يتجه إليها الناس في تصرفاتهم ويتقربون إليهم بأعمالهم، صنم يتخذ من أي مادة، ولو من العجين، أو التمر، كرمز يتجه إليه العابد بعبادته ويتخذه وسيطًا إلى اللّٰه بزعمه، فاستحسن عمرو بن لحي بعقله هذا العبث، وظن

أن فيه الهدى، والوصول إلى الغاية من أقرب طريق فنقله إلى مكة ونصب الأنصاب حول البيت.

وأفسد بذلك وبما أحدث من تسييب السوائب ووصل الوصيلة وحمي الحامي، أفسد على العرب دينها وخلط عليها في عبادة ربها، واتسعت بعد ذلك دائرة التعبد للآلهة المزيفة والمعبودات الباطلة، وكان لكل قبيلة صنم ترجوه وتعلق القلوب به رغبة ورهبة واتخذت الأوثان في أحياء العرب، فكانت العزى لقريش وهي شجرة بوادي نخلة بين مكة والطائف عليها بناء وأستار تقصد بالنذور وتفخر بها قريش، كما قال أبو سفيان للمسلمين يوم أحد بعد المعركة معتزًّا: «لنا العزى ولا عزى لكم»[١].

وكان اللات رجلًا صالحًا يلت السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه. وكان سواع لهذيل على بعد ثلاثة أميال من مكة. ومناة صنم لأوس والخزرج وغسان بموضع يقال له: المشلل. جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد. وأما ود فكان لقبيلة كلب بدومة الجندل. ويغوث كانت لبني مراد، ثم لبني غطيف[٢] بالجرف عند سبأ. ويعوق كانت لهمدان. ونسر كانت لحمير لآل ذي الكلاع، وكل أولئك أسماء رجال صالحين في قوم نوح إلا اللات والعزى، على ما جاء في البخاري[٣] عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب، أي: انتقلت عدوى عبادتها إلى العرب حين افسد عليهم عمرو بن لحي دين إبراهيم بإدخاله الأصنام إلى مكة، وانتقلت منها إلى بقية القبائل فتعلقت بها، فنشأ على تعظيمها الصغير، وتفانى في الإخلاص لها الكبير، وكانت نقطة تحول في حياة الجاهلية من الملة الحنيفية إلى الوثنية

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩، ٤٠٤٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، مطولًا.
(٢) في الأصل: «عطيف». والمثبت هو الصواب.
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

الرجعية، وبلغ من تحمسهم لها وتفانيهم في رجائها وتعظيمها أن رسول اللّه ﷺ حين دعاهم إلى الدين الحق في منشأ الدعوة، وأوضح لهم واقع الآلهة، وأنها لا تضر ولا تنفع. قالوا: إنه سب آلهتنا، وسفّه آراءنا بتغيير دين أسلافنا، وجعل الآلهة إلهًا واحد. وكانت أعظم سبة على أحدهم أن ينسب إلى الإسلام، ويتابع الرسول ﷺ ويعير على ذلك وينتقم منه؛ لأنه يعد خارجًا على الآلهة.

وبلغ من تفانيهم للإخلاص لآلهتهم أن بعضهم كان يعرف الحق في قرارة نفسه، بل ويعلن ذلك، ولكن[1] إخلاصه لآلهته ودين أسلافه، وخشية أن تلحق به سبة لو تابع الرسول على ما جاء به من الإخلاص لعبادة الواحد الأحد، أقول: إخلاصه للآلهة جعله يعرض عن اتباع الحق ومخالفة ضميره ويقينه؛ أصدق ما يصور هذا المنحى قول أبي طالب في أبياته الشهيرة:

ولقد علمت أن دين محمد من خير أديان البرية دينًا
لولا الملامة أو مخافة سبة لوجدتني سمحًا بذاك مبينا[2]

وذلك من أبشع الكفر؛ لأن الكافر الجاهل من حق المسلمين أن يقيموا عليهم الحجة بالدعوة وبيان الحق فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام، أما من يعرف الحق ويجحده عنادًا منه ففيه شبه بإبليس وفرعون وأمثالهما من الطغاة، أو يعرض عن الحق واتباعه؛ مجاراة لقومه ومجاملة لأهل بلده وأقاربه ففيه شبه أبي طالب وأشباهه.

قلت في صدر المقال: إن باكورة أعمال الرسول ﷺ يوم الفتح بعد أن دانت له رقاب خصومه أن شن حملة شعواء على معالم الباطل وصروح الوثنية، فأطاح بالأصنام التي كانت حول الكعبة وعليها، ولم تلبث أن سقطت تحت أقدامه وهو

(١) في الأصل: «ولكنه».
(٢) انظر سيرة ابن إسحاق (٢٠٢)، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٨٨.

يشير إليها بقضيب في يده ويجاهر بقوله: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: الآية ٨١].

ثم تعقبها في أحياء العرب بإرسال رسله إليها لتقضي على البقية الباقية، وتجهز عليها؛ فيكون الدين لله ولا يبقى للوثنية في أحياء العرب عقابيل يخشى من بقائها النكسة والعودة إلى الداء الوبيل داء الشرك وحمى الباطل، فبعث بعد أن فتح الله عليه مكة خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها ويزيل معالم الشرك بزاولها، وخرج إليها خالد في ثلاثين فارسًا؛ خشية أن يعترض سبيله مأفون، أو تقوم في رؤس عباد العزى نخوة الانتصار لمعبودهم فيقع بين خالد وبينهم اشتباك؛ لأن الإسلام لم تخالط بشاشته جميع الأفراد، وإن أضحت له الدولة والصولة، فأعد رسول الله ﷺ للأمر عدته وبعث خالد بن الوليد، وهو صاحب البأس المرهوب، وانتهى إلى العزى، وهدم البيت الذي كان عليها، ولم يقطع الشجرة، وعاد إلى الرسول ﷺ فاستوضحه عما شاهده؛ إذ قام بإزالة العزى فأخبره خالد بالواقع، وأنه لم يرى شيئًا فأمره بالرجوع ثانية للقضاء على العزى قضاءً مبرمًا وإزالة كل معالمها من الوجود فعاد خالد محنقًا مجردًا سيفه، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة شعرها تولول فضربها خالد بسيفه فشطرها شطرين.

وكما بعث رسول الله ﷺ خالدًا إلى العزى بعث بعد الفتح أيضًا عمرو بن العاص إلى سواع؛ صنم هذيل، وجرى بين عمرو وسادن الصنم الحوار الآتي:

السادن: ما تريد؟

عمرو: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدم سواع.

السادن: لن تقدر على ذلك؛ لأنها تمنع نفسها منك.

عمرو: حتى الآن وبعد أن دانت العرب بالتوحيد توغل في الباطل؟ ويحك،

وهل يسمع أو يبصر؟

ثم دنا عمرو من الصنم فحطمه وأمر أصحابه فهدموا بيته وخزانته التي تجمع فيها النذور، فلم يجدوا بها شيئًا، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟

السادن: أسلمت لله رب العالمين.

وأرسل رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري، وقيل: علي بن أبي طالب إلى مناة، ليهدمها، وهي أقدم الأصنام، وكانت العرب تعيد لها الأسماء كما تعلق لها القلوب بالحب والجوارح بالطاعة، فكانت تسمى: عيد مناة. فأقبل عليها سعد بسيفه فخرجت له امرأة سوداء عريانة ثائرة الرأس تدعوا بالويل، وتضرب صدرها.

وهكذا كان الفتح الأعظم؛ انتصارًا للحق ودحضًا للباطل، انتصارًا للتوحيد الذي بعث الله به جميع رسله إلى خلقه، وهزيمة للشرك والوثنية في كل صورة من صورها وكل اتجاه ترسمه، وارتفع علم التوحيد خفاقًا على ربوع مكة، ودانت له العرب، وتبرأت من كل تبعية لغيره، وأضحى ما كان خيالًا في أدمغة صناديد قريش وزعمائها حقيقة واقعية؛ حيث أصبح للإسلام صولة ودولة ومجد وعز خالد ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: الآية ٤٠]..



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[(١)]

في ذكرى الهجرة

جدير بنا ونحن بصدد تسجيل المواقف الحاسمة لرسول الإسلام محمد بن عبد اللّٰه ﷺ أن نهتبل هذه المناسبة القائمة مناسبة ذكرى هجرته ﷺ التي تتجدد بتجدد الأعوام ، والتي تشرق مناسبتها على المسلمين كل عام ، فتشرق لإشراقها في نفوسهم الفرحة والبهجة ، وتبعث في نفوسهم الأمل الباسم ، وتكون لهم فألا حسنًا بالنصر بعد الصبر ، والظفر ببلوغ أعذب الآمال ؛ كاستعادة الحق المغتصب ، واسترجاع المجد المسلوب والعزة والرفعة كأمة من حقها أن تسود ؛ إذ كانت خير أمة أخرجت للناس .

ولئن كان حظ هذه المناسبة ذكرى الهجرة لدى البعض من المسلمين العناية بالزخارف والمظاهر وإقامة الاحتفالات ونظم القريض وتنسيق المقالات الضافية لتمجيد ذكرى الهجرة ، فإن حظ هذه المناسبة السعيدة في هذه المملكة الإسلامية السلفية أن نمجد فيها أعظم هداية جاء بها صاحب الهجرة لإسعاد الإنسانية وإخراجها من ظلمات الجهل والشرك والوثنية إلى نور العلم والمعرفة وشمس الحقيقة ، تمجد هذه المملكة الدعوة الحقة التي جاء بها صاحب الهجرة ﷺ ببث الدعاة إليها والمرشدين والهادين إلى اللّٰه على هدى وبصيرة ، بحيث تشمل كل أطرافها وجميع مقاطعاتها فلا يرى الرائي إلا دعوة إلى المبدأ الصحيح الذي هجر من أجله صاحب الهجرة ﷺ أهله وعشيرته وأحب البلاد إليه ، وقاتل في سبيله وناضل حتى ارتفعت راية الإسلام خفاقة على الجزيرة العربية وأصبح الشريد الطريد المجنى عليه سيد العالمين وصاحب الكلمة العليا بين الخافقين .

---

(١) مجلة الحج- محرم- سنة ١٣٨٠هـ .

تمجد هذه المملكة في هذه المناسبة الخلق المتين الذي تحلى به صاحب الهجرة فتسمع صوت الأمر بالمعروف يدوى في جنباتها ويصدع بالخير والدلالة إلى نهج الفضيلة ، وينهى عن الإسفاف والتورط في مزالق الرذيلة ، فيكون له فعل السحر ؛ حيث يصلح من أمر المجتمع ما أفسدته الغفلة عن اللّه ، وجرت إليه الصبوة والنزوة ، وبذلك تكون هذه المملكة السعيدة العزيزة بعز الإسلام قد قامت بواجب الاحتفاء والتمجيد ليوم الهجرة وأعطت الصورة الواقعية الصادقة لتقديرها لمبدأ الهجرة ، ولتكريمها ومحبتها وإجلالها لصاحب الهجرة الرسول الأعظم ﷺ .

وبعدُ ، فهذا حديث قصير عن الهجرة دعت إليه المناسبة ونعرج بعده إلى ما نحن بصدده من تسجيل المواقف الحاسمة ووصل ما قطعناه بالأمس .

والحديث بعد الفتح الأعظم موصول بغزوة حنين ، فلقد ادلهم الخطب واحلولك ليل الأحداث ، وكشرت الحرب عن أنيابها ، وانكشف المسلمون في عماية الصبح وقد ذهلوا لهول الصدمة ، وولوا الأدبار إلا القليل فيمن ثبت مع الرسول ﷺ ، حيث وقف على بغلته أمام هجمات ثقيف وهوازن ، لم يفت في عضده انهزام جيشه ، ولا صولة أعدائه ، ولا بوادر السوء التي كانت تبدر من بعض حديثي العهد بالإسلام ممن وجد الفرصة مواتية لإظهار حقده .

وقف رسول الهدى ﷺ على بغلته يهدئ من روع الناس قائلًا : « إلى أين أيها الناس » . وكأنه يبكت بالفارين ويعلنهم بأن لا مفر من أمر اللّه وقضائه ثم أمر العباس بن عبد المطلب- وكان آخذًا بلجام بغلته- أن يصرخ في المسلمين بقوله : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة ، يعني أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا الرسول ﷺ على الموت في الحديبية ، فأجابه الناس : لبيك لبيك . قال العباس : ذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك . أي : لكثرة ما يصده

الفارون فيأخذ ترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول اللَّه ﷺ، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا العدو فاقتتلوا فأشرف رسول اللَّه ﷺ في ركائبه، ونظر إلى القوم وهم يجتلدون وقال: «الآن حمي الوطيس»[١]. يريد اشتداد أوار الحرب، ثم أخذ رسول اللَّه يدفع في وجهه العدو على بغلته ويرتجز:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

قال البراء بن عازب: كنا إذا أحمر البأس نتقى به، وإن الشجاع منا للذي يحاذى به- يعني النبي ﷺ[٢]. ثم أخذ الرسول ﷺ حفنة من تراب وصنع بها ما صنع في بدر، وقذف بها في وجه العدو، وقال: «شاهت الوجوه». بعد أن دعا اللَّه واستنجزه وعده، فلم يبق أحد من العدو إلا أصابته من تلك الحفنة في عينيه وفمه مما شغلهم عن القتال، ثم انهزموا وولوا الأدبار لم تغنهم حشودهم، ولم يجد عنهم سوقهم المواشي والأموال والنساء والأبناء؛ لكي يكون هذا الحشد حافزًا لهم على الثبات وصدق اللقاء والقتال لآخر قطرة من الحياة، ولم تفدهم مكيدتهم؛ إذ كمنوا للمسلمين في شعاف الجبال وأحنائها، ونقضوا عليهم أول المعركة، لم يغنهم كل ذلك شيئًا، بل وقعت عليهم الدائرة فغدت أموالهم غنيمة ونسائهم سبيًا بأيدي المسلمين، وأسر منهم خلق كثير.

وإلى جانب هذا الموقف الحاسم الذي نسجله لرسول اللَّه ﷺ في هذه الغزوة إلى جانبه كان له مواقف تجلت فيها الرحمة والعطف الإنساني والرعاية في أرفع ذروة؛ من ذلك أن جيش المسلمين إذ أمكنه اللَّه من أكتاف العدو ووضع فيهم السيف قتل بعض النساء والذرية فاستبشع الرسول ذلك، وحذر من الإقدام

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي اللَّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤، ٢٨٧٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء رضي اللَّه عنه.

عليه ؛ شفقة منه ورحمة ؛ لأن الإسلام حين أباح قتل المقاتلة لمناصبتهم العداء لدعوته والوقوف خصومًا لتعاليمه ، فما ذنب النساء والأطفال الذين أقحموا في الميدان بحكم التبعية لا شأن لهم في المعركة .

ومن مواقفه الكريمة ؛ موقفه مع أخت له من الرضاعة تدعى الشيماء سيقت إليه في السبي فتعرفت إليه فعرفها فأكرمها وبسط لها رداءً وأجلسها عليه ثم خيرها بين أن تبقى لديه معززة مكرمة ، أو أن يمن عليها ويمتعها فترجع إلى قومها فاختارت الثانية ، فردها إلى قومها ، ووهبها غلامًا وجارية مبالغة ؛ منه في إكرامها .

ومن مواقفه الكريمة أيضًا موقف العفو والصفح الجميل الذي وقفه من شيبة بن عثمان بن طلحة ، وقد انتهز فرصة انكشاف المسلمين في أول المعركة ، فأقبل على رسول اللّٰه ﷺ يريد قتله ، قال شيبة : استدبرت رسول اللّٰه ﷺ يوم حنين ، وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان بن طلحة ، وكان قد قتل يوم أحد فأطلع اللّٰه رسوله على ما في نفسي ، فالتفت إليَّ وضرب في صدري ، وقال : أعيذك يا شيبة فارتعدت فرآصي ونظرت إليه وهو أحب إليَّ من سمعي وبصري ، فقلت : أشهد أنك رسول اللّٰه ، وإن اللّٰه قد أطلعك على ما في نفسي وقد كانت غدرة شيبة ومحاولته اغتيال الرسول عن سبق الإصرار تستوجب الاقتصاص العادل ، ولكنه ﷺ رجح جانب العفو والصفح ، وقابل الإساءة بالإحسان ، حيث تلطف لعدوه ، وألان له الجانب ، فامتلك عليه شعوره وقدر عظيم منته ، وكان هذا الموقف موقف الصفح عنه سببًا لهدايته إلى الإسلام .

ومن مواقف الوفاء والعزم والحزم والرعاية والتقدير موقفه ﷺ من الأنصار حين أخذ في توزيع غنائم حنين ، فأعطى المؤلفة قلوبهم ورجالات من قريش من الغنائم عطاءً سخيًا لا يوازيه أي عطاء لأمير أو عظيم ولم يعط الأنصار شيئًا ،

فوجدوا في أنفسهم؛ إذ لم يصبهم ما أصاب الناس من المغنم، فخطبهم ﷺ قائلًا: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي».

وكلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ- بفتح الهمزة والميم، وضم النون وتشديدها- ثم قال رسول الله ﷺ: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ، لو شئتم قلتم: جئتنا كذا أو كذا»- لأشياء عددها- تنم عن تطول واكتساب منة.

ثم قال: «أما ترضون أن يذهب الناس بالشياه والغنم والبعير، وتذهبوا بالنبي ﷺ إلى رحالكم[١]، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا أو شعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم». الأنصار شعار والناس دثار، وتلك منقبة الأنصار وشرف عظيم حباهم به الرسول الكريم تقديرًا ووفاءً لحقهم، ثم قال ﷺ: «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[٢].

ولقد كان لهذا الموقف من الأنصار أثره البالغ في نفوسهم، ولقد استعبروا طويلًا لهذه الخطبة التي كانت بمثابة عتاب من حبيب لمحبه جمع لهم فيها ﷺ بين عاملي الإصلاح والترغيب والترهيب وذكرهم بماضيهم في الجاهلية حيث كانوا ضلالًا وشيعًا وأحزابًا متناحرين، وعالة ضرب الفقر فيهم بجرانه، ثم ذكرهم بمنة الله عليهم، حيث جمعهم بعد الشتات وألف بين قلوبهم بعد التناحر والفرقة وأغناهم بفضله ورفع من شأنهم بهجرة رسوله، وذلك لا يعدله آية منة بالنسبة لمخلوق فيما لو وقع في نفوسهم من المن عليه بإيوائه ونصرته والقيام دونه حتى أظهره الله، فلم يجدوا لهذه المنة أثرًا عنده، ثم واساهم وأزال أثر موقفه السلبي منهم، إذ لم يجعل لهم نصيبًا من الغنيمة، وأفصح لهم عن مكانتهم

(١) في الأصل: «رحابكم». والمثبت من مصادر التخريج.
(٢) المصدر السابق.

في نفسه ، وأنهم أكرم الناس مقامًا وأرفعهم شأنًا وأوفرهم حظًا ، حيث يعود الناس بالعرض الزائل والحطام الفاني ويعودون برسول الله ﷺ إلى رحالهم ذخرًا وفخرًا ومجدًا خالدًا محياه محياهم ومماته مماتهم ، فيا له من إكليل فخار توج به رسول الهدى هاماتهم .

وكان مسك الختام وصيته ﷺ للأنصار ، أو للأمة في شخص الأنصار ، بالصبر على ما يجدونه من الأثرة بعد حتى يلقوه في الآخرة على حوضه ، وكم يعاني الناس ، وخاصة في أعقاب الزمن من الأنانية المفرطة والأثرة المتطرفة والاستبداد بالخير حتى تفككت الروابط وانفصمت عرى المحبة بين الناس ووقع التدابر والتشاحن ، ولم يبق غير الصبر عدة ، والصبر أعظم محجة توصل إلى الغاية ، وليذكر المسلمون على الدوام وصية خير الأنام : « إنكم سوف تلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » .



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[1]

وصل الحديث في مواقف الرسول ﷺ الحاسمة في غزوة حنين بما أنزل الله تعالى في تلك الغزوة من آي الكتاب العزيز، حيث سجل بها على المسلمين هنة كانت السبب في هزيمتهم وصولة الكفر عليهم، أول المعركة، فكان ذلك درسًا قاسيًا جعلهم يطامنون بعده، وقد أدركوا منه غلطتهم، حيث بلغ بهم الزهو أو بعضهم بالعدد والعدة درجة الاعتداد بها ونسيان الفاعل الحقيقي في النصر، وهو الله سبحانه، حتى بدا ذلك في أقوالهم، فقال أحدهم معتزًا : لن نغلب اليوم من قلة .

وابتدأ سبحانه الآيات في غزوة حنين بالتذكير بمنته العظيمة على المسلمين، حيث عودهم النصر على أعدائهم، وقطع لهم بذلك، ثم عقب بمؤاخذتهم على ما فرط منهم من الاتكال على جهدهم وقوتهم، وجزمهم بالنصر؛ إذ اخذوا بالسبب، وفاتهم أن الأسباب قد تتخلف إذا أراد الله ذلك، وقد كان، فلم تغن عنهم عدتهم ولا كثرة عديدهم حين كتب الله عليهم الهزيمة، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم أعقب ذلك سبحانه بالفرج بعد الشدة والنصر بعد الهزيمة؛ ليوقن من شغله كثرة العدد والعدة أن النصر من عند الله، فثبت رسوله ﷺ وفريقًا من المؤمنين معه فكانوا كنواة لجيش النصر، وأنزل ملائكة تقذف الرعب في قلوب أعدائهم، وسرعان ما انعكس الوضع، وعاد المسلمون إلى مواقفهم بجوار الرسول ﷺ، واستحر القتل في خصومهم حتى كانت النهاية الحميدة بالنصر والتأييد والغنيمة وتضافر المدد الروحي والمادي، وسجل الله سبحانه تداول النصر والهزيمة بين الفريقين بقوله : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ

---

(١) مجلة الحج- ربيع الثاني- سنة ١٣٨٠هـ.

كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦]. والله سبحانه يربي عباده بالبلاء والنقم، كما يربيهم بالنعم، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥]، وفي تربيتهم بالابتلاء والمحن محك لصبرهم ورسوخ إيمانهم وثباتهم على عقيدتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمَّد: الآية ٣١]، ثم في الصبر على البلوى ورفع لدرجات الصابرين وعلو لمراتب المؤمنين، كما جاء في الحديث: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله عجب، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[1].

وليس في هزيمة المسلمين بحنين ما يشعر بتخلي الله عنهم، أو إحباطه لجهادهم، أو لانتقامه منهم- كما يزعم ذلك بعض من لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم- بدليل أنه سبحانه لم يكلهم إلى أنفسهم، ولم يترك الدابرة عليهم، بل حقق لهم ما وعدهم به من النصر حينما راجعوا أنفسهم ولبوا نداء نبيهم والتفوا حوله يناضلون عن دينهم ونبيهم فرفع لهم بذلك الدرجات ومحص عنهم السيئات، وتلك سنة الله تعالى في عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، وذلك ما يفتح أمام المسلمين في الحاضر باب الأمل في مشارق الأرض ومغاربها بأن النصر بعد الشدة، والظفر بعد الكرب والبلاء، وخاصة من مني من المسلمين بنير الاستعمار؛ فإن العاقبة الحميدة قد ادخرها الله لهم، ولو بعد طول الأمد، وما الاستعمار إلا سحابة صيف سوف تنقشع عنهم ويعود إليهم سابق مجدهم وكامل

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي، رضي الله عنه.

عزهم ما داموا سائرين على نهج أسلافهم من خيار الأمة في عصور النور ومقتفين لآثارهم، والشدائد إن طال أمدها وامتد رواقها فأجهضت وأكرثت إلا أنها لا تتمخض إلا عن خير كشأن اليسر بعد العسر والرخاء بعد البلاء.

غير أن الشرط الأساسي لتبدل النقم بالنعم وتحول الشدة إلى الرخاء- الصبر والثبات على نهج الهدى والتمسك بالدين علمًا وعملًا.

سنعود بعد هذا الاستطراد إلى سياق البحث وتسجيل مواقف رسول الهدى في غزوة حنين والطائف والذي كان منها مواقف الندى والكرم الغامر الفياض الذي امتلك به ﷺ نفوس المؤلفة قلوبهم إلى جانب السيف وحد الحسام حين جد الجد واكفهر جو الحوادث.

أعطى الرسول الكريم ﷺ أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل من مغنم حنين، ومثل هذا العطاء مرتين لابني أبي سفيان معاوية ويزيد، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إياها، وأعطى النضر بن الحارث بن كعب مائة من الإبل، وكذا الحارث بن هشام، وصفون بن أمية وكثيرًا من الزعماء والوجهاء؛ تأليفًا لهم، وليكسبهم في جانب الإسلام ويُجتلبَ بهم أقوام.

وهكذا كانت مواقف الكرم والبذل تسير إلى جانب مواقف السيف والقوس والنبال، كما كانت تسير سياسة الحلم واللين والصفح الجميل إلى جانب سياسة الشدة والعنف؛ لكي يتم بذلك التعادل وليخطط للأمة أعلا مناهج السياسة الحكيمة التي يجب أن يسلكها القادة وتتمشى عليها الشعوب في النفاذ ضد الخصوم؛ ليتملكوا بها ناصية الموقف، أما البربرة التي تشاهد من المستعمرين في نيلهم من خصومهم المطالبين بحقوقهم الذائدين عن حياض وطنهم وحوزتهم فتلك سياسة الغاب لا يصح أن يسلكها إلا من تحجر قلبه وقُدَّ من الصخر،

بالإضافة إلى أنها همجية لا تتفق مع عصر الحضارة والتمدن ، وكذلك اللين المغري والحلم المفرط فإنهما يجرئان العدو ويسولان له الغدر ، وقد يجد غرة من خصمه فترجح كفته .

لم يكتف الرسول الكريم بما أحرزه من النصر في غزوة حنين ، ولم يشأ أن تبقى لثقيف وهوازن شوكة تسهده وتأخذ عليه تفكيره فصمم على المضي إلى الطائف حيث تحصن بها مالك بن عوف ، وثقيف ، وهوازن ، ورمم حصونها وتحصن ورائها وإن فشل في منازلة الأقران وجهها لوجه فسار إليهم رسول اللّٰه ﷺ وحاصرها وشقق عليهم ورماهم بالمنجنيق ونثر الحسك حول الحصن ؛ إمعانًا في الكيد ، ونادى مناديه : أيما عبد نزل من الحصن وخرج لنا فهو حر . وأعتق كل من نزل إليه من العبيد .

واستعمل المسلمون في هذه الغزوة الدبابة ، وهي على شكل بدائي ؛ عبارة عن آلة يدخل في جوفها ، ثم تدفع في أصل الحصن فينقبه من في جوفها .

وأمر رسول اللّٰه ﷺ بقطع أشجار العنب ؛ إمعانًا في الإرهاب ؛ إذ إن المال صنو الروح ، ولا تطيب النفس بإتلافه ، فأرسلت إليه ثقيف وقد هالها ما رأت ؛ أرسلت إليه تدعوه ألا يفعل ، وأن يأخذ منه لنفسه ما شاء أو يتركه للّٰه والرحم، فلبى الرسول رغبتهم وأجابهم إلى طلبهم .

وبالجملة لقد أعلى الرسول الكريم على ثقيف حربًا لا هوادة فيها ، غير أن ذلك لم يجد فتيلًا ؛ إذ إن اللّٰه تعالى لم يكتب لرسوله فتح الطائف عنوة ، وقدر رأى الرسول في منامه رؤيا عبرها أبو بكر بواقعهم في حصار الطائف وأن المسلمين لم يخلصوا إلى خصومهم في غزوهم هذا ، ولن يجدوا منهم غرة ؛ إذ قد تحصنوا بحصنهم ، يقول رسول اللّٰه ﷺ : « يا أبا بكر ، إني رأيت أني أهديت لي قعبة– أي : قدح– مملوء زبدًا فنقرها ديك فهراق ما فيها » ؟ فقال أبو بكر : ما

أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد فأيد الرسول ما ذهب إليه أبو بكر في تعبيره لرؤياه، قال: «وأنا لا أرى ذلك»[١].

ودخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الرسول ﷺ وقد بلغه عن خولة بنت حكيم قولًا تعلمه في الملأ أن الله لم يأذن لرسوله في ثقيف وقال: يا رسول الله، أو ما أذن الله لك فيهم؟ قال الرسول ﷺ: «لا». قال: أفلا أوذن بالرحيل؟ قال «بلى». فأذن عمر بالرحيل، وارتحل الرسول ﷺ وارتحل معه الناس من الطائف بعد أن أقام على حصارها بضعًا وعشرين ليلة، وقيل: بل سبع عشرة ليلة. رجع عن الطائف، وفي نفس أصحابه من ثقيف ما فيها من الحنق والغيظ، حتى قال بعضهم: ادع يا رسول الله على ثقيف. فلم يستجب، بل توجه إلى الله بالدعاء لهم قائلًا: «اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم»[٢].

فكان هذا الموقف منه ﷺ من ثقيف أبرز مواقف الرحمة والعطف والرعاية، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧].

وقد استجاب الله سبحانه دعاء رسوله في ثقيف وهوازن، ولم يمض طويل أمد حتى جاء الله بهم في الجعرانة مسلمين نادمين لما فرط منهم مستغفرين مكفرين، قالوا: يا رسول الله، إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا من الله عليك. وتعاقب أفراد الوفد الحديث مع الرسول ﷺ مستديرين عطفه مستغلين وشيجة الرحم فيه، قال أحدهم: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللائي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا[٣] للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به

(١) ينظر مغازي ابن هشام ٢/ ٤٨٤، والروض الأنف ٤/ ٢٥٦.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٤٣، والترمذي (٣٩٤٢) من حديث جابر رضي الله عنه، وضعفه الألباني.

(٣) بفتح الميم واللام وسكون الحاء: أرضعنا.

رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين. فرق لهم رسول اللّٰه ﷺ ونزل استعطافهم من نفسه الرحيمة منزلا دفعه إلى تسجيل أروع مواقف الرعاية والعطف والتقدير، ولكنه وهو رسول اللّٰه، والقائد العظيم، لم يفت على أصحابه ولم يشأ أن تسترد ما وصل إلى أيديهم من السبي دون رضاهم ودون أن تسخو نفوسهم بإرجاعه.

وقد رأى رسول اللّٰه أن يكرم وفادة ثقيف بذلك فمهد لذلك أولا بسؤال هوازن عن رغبتهم في إرجاع السبي أو المال فاختاروا الأول؛ فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول اللّٰه ﷺ في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم». ففعلت ثقيف ما أمرت به، وقال رسول اللّٰه ﷺ ما وعدهم به: «أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم». فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول اللّٰه ﷺ. وقالت الأنصار أيضًا نفس القول.

وبلغ الجشع ببعض المؤلفة قلوبهم أن امتنع عن تسليم ما بيده من السبي، فلم يقسره الرسول الكريم الحليم على ما لا يريد، بل مناه ووعد بالعوض السخي وتضعيف العطاء وقال: «من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه»[(١)].

وبهذا الموقف قطع على الجشعين الأمل في الاستحواذ على السبي؛ سبي ثقيف، وملأ نفوس ثقيف غبطة وابتهاجًا، حيث تم لهم ما أملوا، وحصلوا على أثمن ما رجوه، واجتمع لهم بالإسلام ومواقف سيد الأنام منهم ما تفرق من أمرهم وائتلف ما تبدد من شأنهم، وقرت أعينهم بنسائهم وأبنائهم، وهكذا جمع

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢١٨، وأبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي (٣٦٨٨) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو رضي اللّٰه عنه. وحسنه الألباني.

رسول الله ﷺ في سياسته الحكيمة بين اللين والشدة، وبين مواقف الحزم والصرامة ومواقف الحلم والصفح والرحمة، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨].



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[(١)]

كان الحديث في المقال الأسبق عرضًا لموقف رسول الله ﷺ من هوازن ؛ إذ جاءوا إليه نادمين ومسلمين وتائبين مما بدر منهم من مقاومة لدين الله وحرب لحزب الله ، فأكرم رسول الله ﷺ وفادتهم ، ورد إليهم من السبي نساءهم وأطفالهم .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ووطد الإسلام مركزه في هذا الجزء من بلاد العرب ولم يبق له مناوئ أو خصم يكيد له المكائد وينصب له الشباك ، قرر رسول الله ﷺ العودة إلى المدينة مهاجره واعتمر ، حيث أقام لتوزيع غنائم ثقيف أي من الجعرانة ، ويتقاضانا البحث أن نعرض لموضوع اعتماره وتعداد جميع العمر التي اعتمرها بعد هجرته ، فقد اختلفت فيها الروايات ، كما اختلفت في الأزمنة ، التي أنشأ ﷺ فيها تلك العمر ، ففي الصحيحين[(٢)] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : اعتمر رسول الله صلى الله عليه أربعَ عمرٍ كلّهن في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجته ؛ عمرةً من الحديبية ، أو زمن الحديبية ، في ذي القعدة ، وعمرةً من العام المقبل في ذي القعدة ، وعمرة من الجعرانة ، حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة ، وعمرة مع حجته .

قال ابن القيم رحمه الله في « الهدي » : ولم يناقض هذا ما في الصحيحين عن البراء بن عازب قال : اعتمر رسول الله ﷺ في ذي القعدة قبل أن يحج مرتين[(٣)] ؛ لأنه أراد العمرة المفردة المستقلة التي تمت ، ولا ريب أنها اثنتان ، فإن

(١) مجلة الحج- جمادى الأولى- سنة ١٣٨٠هـ .
(٢) أخرجه البخاري (٤١٤٨) ، ومسلم (١٢٥٣/٢١٧) .
(٣) أخرجه البخاري (١٧٨١) . ولم أجده عند مسلم ، وينظر زاد المعاد ٢/ ٩٢.

عمرة القران لم تكن مستقلة، وعمرة الحديبية صُدَّ عنها، وحيل بينه وبين إتمامها؛ ولذلك قال ابن عباس: اعتمر رسول اللَّه ﷺ أربع عمر؛ عمرة الحديبية، وعمرة القضاء من قابل، والثالثة من الجعرانة، والرابعة مع حجته، ذكره الإمام أحمد[١]. ولا تناقض بين حديث أنس أنهن في ذي القعدة، إلا التي مع حجته، وبين قول عائشة وابن عباس: لم يعتمر رسول اللَّه ﷺ إلا في ذي القعدة. لأن مبدأ عمرة القران كان في ذي القعدة، ونهايتها كان في ذي الحجة مع انقضاء الحج؛ فعائشة وابن عباس أخبرا عن ابتدائها، وأنس أخبر عن انقضائها.

وعرض بعد ذلك ابن القيم رحمه اللَّه لقول ابن عمر رضي اللَّه عنهما: إن رسول اللَّه ﷺ «اعتمر أربعًا، إحداهن في رجب». وقال: إنه وهم من ابن عمر، واستدل بقول أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها عندما بلغها قول ابن عمر الآنف الذكر: رحم اللَّه أبا عبد الرحمن، ما اعتمر رسول اللَّه ﷺ عمرة قط إلا وهو شاهد- أي حاضر- وما اعتمر في رجب قط[٢]. كما عرض رحمه اللَّه لقول أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها: أنها خرجت مع رسول اللَّه ﷺ إلى عمرة في رمضان. وقال: لعل ذلك وهم منها رضي اللَّه عنها؛ حيث قد سبق أنها جزمت في قول لها آخر، وقالت: لم يعتمر رسول اللَّه ﷺ إلا في ذي القعدة.

ثم قال تعليقًا وتوضيحًا وتثبيتًا لرواية أنس في الصحيحين: ولا خلاف أن عمره لم تزد على أربع، فلو كان قد اعتمر في رجب لكانت خمسًا. أي: لكان عدد العمر التي اعتمرها خمسًا لا أربعًا، وهو خلاف لرواية الصحيحين، ولو كان قد اعتمر في رمضان لكانت ستا، إلا أن يقال: بعضهن كان في رجب،

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٢١. وصححه محققو المسند. وكذا الألباني في صحيح أبي داود (١٧٣٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٧٧٦)، ومسلم (١٢٥٥).

وبعضهن في رمضان ، وبعضهن في رمضان وبعضهن في ذي القعدة ، وهذا لم يقع ، وإنما الواقع اعتماره في ذي القعدة ، كما قال انس رضي اللّه عنه ، وابن عباس رضي اللّه عنه ، وعائشة رضي اللّه عنها ، وقد روى أبو داود في « سننه » عن عائشة أن النبي ﷺ اعتمر في شوال[١] . وهذا إن كان محفوظًا ، فلعله في عمرة الجعرانة حين خرج في شوال ، وإنما أحرم بها في ذي القعدة . انتهى . وبهذا التحقيق الضافي الشامل لم يبق لبس أو اشتباه في عدد العمر التي اعتمرها رسول اللّه ﷺ ، ولا الأزمنة التي أنشأها فيها .

نعود بعد هذا الاستطراد الذي اقتضاه البحث إلى ما نحن بصدده في متابعة البحث عن عودة رسول اللّه ﷺ إلى المدينة بعد أن صفَّى الحساب مع قريش ، وبعد أن فتح اللّه له الفتح الأعظم فتح مكة ، وما أعقبه من إخضاع ثقيف وهوازن ، واعترافهما بالإسلام ودخولهما فيه ، ولقد أدركت العرب قاطبة بعد هذه المصاولات والمعارك التي كان يخرج منها الإسلام وجيش الإسلام منصورًا مؤيدًا ، أدركت أن ليس في الأرض قوة تستطيع أن تنازل الإسلام ، أو تنال من عظمته وسيادته ، أو تكون لها ، ولا في الخيال صولة عليه ، فهو مؤيد من السماء ترعاه عين اللّه ، ومن كان هذا شأنه فليس لأحد عليه من سبيل .

ومما يصور هذا الشعور ما تناقلته كتب السير من قصة بجير بن زهير بن أبي سلمى مع أخيه كعب بن زهير صاحب القصيدة العامرة ؛ قصيدة المديح في الرسول ﷺ ، كتب بجير لأخيه كعب لما قدم رسول اللّه ﷺ المدينة بعد قتاله لهوازن وثقيف ، وبعد الفتح الأعظم يقول : إن رسول اللّه ﷺ قتل رجالًا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وإن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعري ، وهبيرة بن

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٩١) . وقال الألباني في صحيح أبي داود (١٧٣٨) : قوله : في شوال ، يعني : ابتداءً ، وإلا فهي كانت في ذي القعدة أيضًا .

أبي وهب قد هربوا في كل وجه فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول اللَّه ﷺ فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا ، وإن لم تفعل فانج إلى نجائبك من الأرض ، وأدرك كعب قيمة نصح أخيه ، والنصح ، كما قال الشاعر : أعلا ما يباع ويوهب .

وأنه لا مفر ولا ملجأ إلا أن يستجيب للنصح ويذعن للإسلام ويغدو على رسول اللَّه مستغفرًا تائبًا نادمًا ، غير أن من حوله ممن كان على دينه ورأيه أرجفوا به وأوهموا أنه إن حاول القدوم على رسول اللَّه ﷺ فهو مقتول لا محالة كما قتل غيره من الهجائين ، وأن الرسول لن يغفر له ماضيه وما فرط منه ، ولكن رحمة اللَّه تعالى إذ أدركت العبد انتشلته من بلباله وهدته إلى أقوم السبل ، وكان التوفيق حليفه ، فلم يفت في عضد كعب إرجاف المرجفين ، ولا تخذيل المخذلين ، عندما أراد اللَّه له الخير فوضع قصيدته المشهورة التي سارت بها الركبان :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

وصمم على الرحيل ولم تمض أيام إلا وهو يضع يده في يد الرسول الرحيم الكريم في مسجد المدينة ، ويقول : يا رسول اللَّه ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ وتلك مجازفة من كعب ، ولولا ما جبل عليه الرسول من التسامح والصفح الجميل لهلك ، فرد عليه الرسول ﷺ وهو لا يعرفه : « نعم » . أي : هو آمن ...

وعندما استوثق كعب لنفسه قال : أنا يا رسول اللَّه ، كعب بن زهير . ولم تهضم نفوس بعض الأنصار هذا العفو من الرسول الكريم لمن ناصبه العداء دهرًا ، فوثب رجل منهم ، وقال : دعني يا رسول اللَّه أضرب عنقه .

فانصرف الرسول الكريم الوفي الرحيم عن هذه المطالب[1] وأيد ما قطعه

(١) كذا بالأصل ، ولعلها : « المطلب » .

لكعب من العفو، وقال قولة عبرت أوضح تعبير عن سياسة حكيمة رصينة جدير بأن ينتهجها كل قائد محنك إزاء خصومه إذا جنحوا للسلم، وأسلموا القياد، واعترفوا بسلطان المنتصر كواقع، قال الرسول الكريم لمن طلب إهدار دم كعب بن زهير: «دعه عنك، فإنه قد جاء تائبًا نازعًا مما كان عليه». أي: أتركه وشأنه فلم يعد لك عليه من سبيل بمدان احتضن الإسلام، فالإسلام يجب ما قبله، وبعد أن تاب وأناب وأقلع عما كان منه من هنات كانت طبيعة العداء ونزغة الشيطان.

ثم انطلق كعب بن زهير ينشد قصيدته ويرتل المديح لرسول الهدى، وقد جل قدره وارتفع فوق كل مديح، وأخذ كعب يصور في قصيدته ذعره وواقع المخذلين والمرجفين معه يفتون في عضده وينذرونه ويحذرونه مغبة إقدامه على خطوته التي اعتزمها في التوبة والندم واحتضانه للإسلام، وكانت قصيدة من غرر الشعر وعيونه، نجتزئ منها الأبيات التالية؛ كأنموذج للأدب الرفيع والشعر البليغ الذي جرى مجرى الأمثال وردد صداه حمائم الأيك فوق الأغصان. يقول كعب بن زهير في مطلع قصيدته:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكى قصر منها ولا طول

إلى أن قال:

فيا لها خلة لو أنها صدقت ... بوعدها أو لو إن النصح مقبول
وما تمسك بالعهد الذي زعمت ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل
فلا يغرنك ما منت وما عدت ... إن الأماني والأحلام تضليل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلًا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

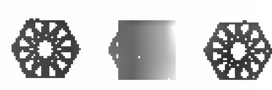
إلى أن قال :

وقال كل صديق كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يومًا على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول اللَّه أوعدني والعفو عند رسول اللَّه مأمول
مهلًا هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيظ[1] وتفصيل
لا تؤاخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل
مازلت اقتطع البيداء مدرعًا جنح الظلام وثوب الليل مسدول
حتى وضعت يميني ما أنازعها في كف ذي نقمات قيله القيل
فلهو أخوف عندي إذ أكلمه وقيل إنك منسوب ومسئول

إلى أن قال :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف اللَّه مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

إلى آخر القصيدة ، وكلها شعر رصين ، وأدب رزين ، فليت في أبناء الجيل وشبابه من يعنى بدرسها أو ليتها توضع إلى جانب الشعر العصري في الأدب والنصوص ، وتفرض مناهج التعليم حفظها ، والتعرف على أسلوبها ، وجمال تصويرها ، ورفيع أغراضها ، إذن لكسبنا رصيدًا ضخمًا في اللغة ، واكتنزنا مجموعة عظيمة في التراكيب العربية الفصيحة وأحيينا ثروة علمية كاد الزمن أن يعفى عليها ، أقول : ليت . ولا أملك غير هذا التمني المحدود ، وتحقيق الأماني بيد علام الغيوب .



(١) في الأصل : « مواعيد » . والمثبت من « سيرة ابن هشام » ٢/ ٥٠٨، و« الروض الأنف » ٤/ ٢٨١ .

في السيرة النبوية :==========

مواقف حاسمة(١)

بعد أن دانت الجزيرة لسلطان الإسلام ، ولم يبق له في الداخل من عدو يتربص به الدوائر ، أو منافس يتحين الفرصة للثورة واسترجاع المجد المسلوب ، وأدرك العرب بعد الفتح الأعظم وكسر شوكة ثقيف وهوازن في حنين ، أدرك العرب أن المصلحة في مهادنة الإسلام إن لم يستجيبوا له ويأخذوا به كدين ، وأن الرأي الإبقاء على أنفسهم من هوائم لا يكون وراءها إلا العار والفشل ، فاستقر الإسلام في دار الهجرة في مأمن من المخاوف ومنسى عن المزعجات ، ومشى الذئب إلى جانب الحمل في ظلال دولة الإسلام وصولته يحلمان بدوام الصفو وامتداد عهد الأمان ، غير أن الليالي كما قال الشاعر :

* من الزمان حبالى *

فلم يلبث رسول الهدى ﷺ بعد أن عاد إلى المدينة ، وأقام بها ما بين ذي الحجة إلى رجب من السنة التاسعة حتى أنذر بأن الروم تعد العدة للزحف على بلاد العرب والقضاء على سلطان الدين الجديد وإخضاع زعائمه ، والنيل من شخصيته ؛ ليصفو الجو لسادة الروم ، ولتصبح الجزيرة العربية منطقة نفوذ ترهب سلطان الروم وتذوب فرقًا لسلطانها .

ولم يجد الرسول الكريم سيد الأبطال وقائد الغر الميامين ، لم يجد إمام إصرار الروم على غزو الإسلام وتجنيها عليه إلا مقابلة القوة بالقوة ؛ إذ لا يفل الحديد إلا الحديد ، ورغم أن الظروف لم تكن مواتية فالصيف ما برح على أشده ، وقرص الشمس يلتهب التهابًا والإمكانيات المادية لم تكن لتسعف بتجهيز جيش لجب ينازل أعظم دولتين من دول العالم إذ ذاك ، فالناس في جهد وعسر شديدين .

(١) مجلة الحج- جمادى الآخرة- سنة ١٣٨٠هـ .

رغم ذلك فقد تجمع لدى الرسول ﷺ ؛ إذ أعلن النفير العام ثلاثون ألف مقاتل في أتم الأهبة والاستعداد الحربي بما يجعل لهذا العدد خطورته وشأنه في مجالات الحرب وميادين النزال .

لم يشأ رسول الهدى أن يسير على خطته في التورية عن موضع الغزو ، بل أخبر أصحابه بأنه يريد غزو الروم في الشام ؛ ليأخذوا للأمر عدته ؛ إذ كان السفر إلى هذا الوجه شاقًا مضنيًا يحتاج إلى كثير من الجلد والمؤن ، ترى كيف تجمع هذا العدد الضخم ، والروم يحسب لها ألف حساب ، وكيف توفرت الإمكانيات الحربية والمالية لتجهيزه وتسييره في نحو العدو الطاغي ، والزمن زمن عسرة وشدة وقحط ، ليس من شك أن أكبر عامل في تكوينه الإخلاص من قبل الصحابة رضوان اللّه عليهم ، فقضية الإسلام والرغبة في تدعيم كيانه والأمل القوي في نصر اللّه لدينه وإظهاره على الدين كله ولو كره المشركون .

فعندما أعلنها الرسول ﷺ مدوية بين أصحابه ، وكاشفهم برغبته واضحة في السير نحو الروم ؛ لغزوهم في عقر دارهم ، والقضاء على سيطرتهم ، هب الصحابة الكرام صلوات اللّه عليهم للنصرة ولبوا النداء سراعًا طيبة به نفوسهم ، موقنة في أن يكون حظهم من ذلك أوفر حظ ؛ فإما النصر أو الشهادة ، مستجيبين لأمر اللّه إذ يقول : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: الآية ٤١] .

وحينما ندبهم رسول اللّه ﷺ للبذل ورغبهم في الحملان واستنهض هممهم لتجهيز الغزاة ، بذلوا النفيس الغالي ، والوفير المدخر من أموالهم ، مطواعة بالبذل نفوسهم سخية بالعطاء أيديهم ، فقدم الصديق أبو بكر رضي اللّه عنه بكل ما يملك ، وكان أربعين ألف درهم ، فأكبر الرسول فيه هذه التضحية واستوضحه عما تركه لأهله بعد ما كان من سخى عطائه فأجابه على الفور جواب المؤمن

الواثق بربه : أبقيت لهم الله ورسوله . وجاء الفاروق عمر رضي الله عنه بنصف ماله[١] . وجهز عثمان رضي الله عنه ثلث الجيش .

وأنفق كل أهل الجدة واليسار وغيرهم ممن كان إنفاقه جهد مقل ، حتى تهلل وجه الرسول ﷺ بشرًا لما رأى من تباري القوم في الإنفاق ، وتفاديهم في التضحية بالنفس والنفيس ؛ طلبًا لما عند الله وأملا في بلوغ رضاه ، وذلك شأن المؤمنين الصادقين في إيمانهم ، المخلصين لإسلامهم ، الذين ملكوا الدنيا متزودين بقوة الإيمان ، ولم تكن المادة في يوم ما محط أنظارهم ولا محور آمالهم .

وقد حز في نفوس رهط ممن عضه الفقر بنابه ؛ إذ لم تتوفر لديه الإمكانيات للتجهيز للغزو ، ولم يجدوا من يكفلهم ويحملهم إليه ، فجاءوا إلى الرسول الكريم يطلبون ظهرًا ويسألون حملانًا ، وحين كاشفهم الرسول بالواقع المرير ، وأنه لا يجد ما يحملهم عليه أجهشوا بالبكاء ؛ حزنًا على حرمانهم من الغزو ، وكرهًا للتخلف ، وقص الله هذا الواقع في القرآن ، وكان فيه العزاء لهم ، ولمن حبسه العذر عن اللحاق بالرسول ، قال تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: الآية ٩١] .

إلى أن قال : ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: الآية ٩٢] .

وعلى العكس من هؤلاء وأولئك فريق المتخلفين من المنافقين ؛ حبًا في السلامة ورغبة في تفيء ظلال النعيم ، وكان فريق منهم يختلف إلى بيت أحد

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر رضي الله عنه . وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٧٣) .

اليهود ؛ لنشر الدعوة ضد الخروج إلى الغزو ، ويخذل ما استطاع عن الجهاد ؛ لتكثير سواده ، والتخلي عن رسول اللَّه كيدًا له ، فكان موقف الرسول ﷺ هذا الفريق موقف الحزم والصرامة ، حيث أمر طلحة بن عبيد اللَّه رضي اللَّه عنه في نفر من أصحابه أن يحرق عليه البيت الذي أعده اليهودي وكرًا للدس والكيد والدعوة الفاشلة ضد الإسلام ورسول السلام ، ففعل طلحة ما أمر به ولكن القوم إذ شعروا بالخطر الداهم ، لاذوا بالفرار .

وكان لهذا العقاب الصارم أثره في قطع دابر الفساد والمفسدين والحيلولة بين المنافقين وبين محاولاتهم الفاشلة في الصد عن الجهاد والتخذيل عن الغزو فلم يسمع بعده لأحدهم نأمة ، بل عمد بعضهم إلى مصارحة الرسول واستئذانه في التخلف فأذن له ، وروي أن الرسول ﷺ عرض على الجد بن قيس أخي بني سلمة غزو الروم قائلًا : « هل لك يا جد في جلاد بني الأصفر؟ فقال : يا رسول اللَّه ، أو تأذن لي ولا تفتنني ، فواللَّه لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ، ائذني في التخلف ، ولا تفتنني ببنات بني الأصفر ، وأعينك بما لي[1] . فاحتقره الرسول ﷺ لبادرته وقبح اعتذاره ، وأعرض عنه إعراض الكريم الحليم ، إذ يصفح عن الزلة ، ويعفو عن الجرم العظيم ، وأنزل اللَّه تعالى في ذلك قوله : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: الآية ٤٩] . قال ابن عباس : اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق[2] .

---

(١) أخرجه ابن إسحاق - كما في سيرة ابن هشام ٢/٥١٦ - ومن طريقه الطبري في تفسيره ١٤/ ٢٨٧، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/٢١٣ - ٢١٤ عن الزهري وجماعة من أهل العلم . وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٩٨٨) .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٧٥، وتفسير القرطبي ٨/ ١٥٨، وتفسير الخازن ٣/ ١٠٥.

وفي تفسير الآية يقول ابن كثير رحمه الله[١] : إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم، والمراد بالفتنة التي وقع فيها الجد وأضرابه من المتخلفين الإثم الذي جره عليهم نفاقهم وخلافهم الرسول ﷺ ؛ ولهذا هددهم بقوله : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: الآية ٤٩] .

ولقد عاتب الله رسوله في سماحه المنافقين بالتخلف، وقد كان لزامًا عليهم أن لا يشقوا العصى، وأن يذعنوا لأمر الله والرسول إذا استنفرهم، قال تعالى : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: الآية ٤٣] . قال بعض السلف في صورة هذا العتاب : هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا ؛ نداء بالعفو قبل المعاتبة ؟ وجاء في تفسير الآية عن مفسري السلف رحمهم الله : هلا تركتهم- أي المنافقين- عندما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود ؛ لتعلم الصادقين منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم .

وقد تكون لنا عودة لتفسير جميع ما نزل من الآيات بصدد من تخلف عن رسول الله ﷺ في الخروج إلى الغزو دون عذر مبيح، بل لمجرد طلب الراحة، ولما يكنونه من النفاق، وثمة موقف لرسول الله ﷺ مع رأس المنافقين عبد الله بن أبي، إذ قد أدرك الرسول ﷺ سوء قصده، وأنه لن يكون وشيعته إلا حربًا على الإسلام وأهله، فإن انتصر الإسلام قللوا من قيمة انتصاره، ونسبوا ذلك إلى ضعف مقاومة العدو أو قلة عدده، أو إلى أمور يغمزون بها جيش الإسلام تنفيسًا لحقدهم، وإن كانت الأخرى حملوا على الإسلام وأجهزوا عليه، وكلا الأمرين شاق على النفوس لا تحتمله ؛ من أجل ذلك عندما رأى رسول الهدى عبد الله بن

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦٢.

أبي خرج بجيشه مستقلًا إلى جوار جيش المسلمين لم يسمح له في الصحبة ، بل أرجعه وجيشه إلى المدينة .

وكان هذا الموقف إزاء رأس المنافقين آية الحزم ؛ ذلك لأن الجيش إن لم يكن صفًا واحدًا يقاتل العدو على قلب رجل واحد سوف يمنى بالفشل ويفلت من يده زمام الموقف ، وتخلف عن صحبة رسول اللّه ﷺ في هذه الغزوة أربعة من أصحابه لا يتهمون في إسلامهم ولا يرتقى الشك إلى صدق إيمانهم ويقينهم كان منهم أبو خيثمة .

نسرد قصته الطريفة وموقف الرسول الكريم إزاء تخلفه ، لنضرب بها المثل للنفوس المؤمنة الصادقة في إيمانها ، والضمائر اليقظة التي لا تبرح تؤنب عاصيها على الزلة وتؤرقه أن تنكب السبيل .

روى ابن هشام[١] في سرد قصة الغزو قال : ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول اللّه ﷺ أيامًا إلى أهله ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه ، قد رشَّت كل واحدة منها عريشها ، وبرّدت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعامًا ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول اللّه ﷺ في الضِّح[٢] والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ما له مقيم ؟ ما هذا بالنصف ، ثم قال : واللّه لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول اللّه ﷺ ، فهيئًا لي زادًا . ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحل حتى إذا دنا من رسول اللّه ﷺ وهو نازل بتبوك فقال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل . فقال رسول اللّه ﷺ : « كُن أبا خيثمة » . قالوا : يا رسول اللّه ، هو واللّه أبو خيثمة[٣] .

---

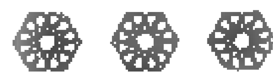
(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢٠.

(٢) الضح بكسر الضاد وتشديدها- الشمس .

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي اللّه عنه .

فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله، فقال له رسول الله: «أولى لك يا أبا خيثمة». وهي كلمة فيها معنى التهديد، واقتصر عليها لم يعنفه لتخلصه، ولم يفرض عليه عقوبة كما يفرض القائد على الجندي المفرط، ولم يعيره لما فرط منه، فامتلك هذا الموقف على أبي خيثمة مشاعره، واندفع يرتل أبياتًا يحكي بها واقعه، ويبرئ ساحته فقال:

ولما رأيت الناس في الدين نافقوا أتيت التي كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد فلم أكتسب إثما ولم أغش محرما
تركت خضيبا[1] في العريش وصرمه[2] صفايا[3] كرامًا بُسْرُها[4] قد تحمما
وكنت إذا شك المنافق أسمحت إلى الدين نفسي شَطْرَهُ حيث يمما[5]



(١) خضيبا أي مخضوبة أراد امرأة قد خضبت يديها بالحناء.
(٢) الصرمة بكسر الصاد وتشديدها جماعة النخل.
(٣) صفايا- كثيرة الحمل- قالوا: وأصله في الإبل. يقال: ناقة صفى إذا كانت غزيرة اللبن.
(٤) البسر- التمر قبل أن يطيب.
(٥) تحمم أخذ في الإرطاب فاسود.

في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[١]

العظة والأذكار وأخذ العبرة من حوادث الزمان ظاهرة رشد وفلاح ، وبادرة خير وصلاح ، وقد ندب رب العزة إلى ذلك في غير ما آية من كتابه ، وكلما قص أخبار الظالمين وقصص الهالكين أعقبها بما يحفز الهمم إلى الاتعاظ وأخذ العبرة من مصيرهم كما قال تعالى بعد إخباره عن هلاك قوم نوح وعاد وثمود ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [البقرة: الآية ٢٤٨]- وكما قال تعالى- وكما أردف الأخبار عن إخراج بني النضير وإجلائهم من جوار رسول الله وتخريبهم لبيوتهم بقوله : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: الآية ٢] .

وفي مسير رسول الهدى ﷺ إلى تبوك لغزو الروم أعطى لأصحابه درسًا عمليًا في أخذ العبرة عندما مر بديار ثمود ، حيث غمر وجهه بثوبه واستحث راحلته ؛ لتخرج عن ديار الظالمين سراعًا ، بل قال لأصحابه : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ؛ خوفًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم »[٢] .

وفي ذلك أبرز مثل لأخذ العبرة وإشعار النفوس بالدروس القاسية والأدوار الصعبة المريرة التي مرت بالماضين ؛ لتأخذ حذرها ، فلا تعرض لمجالب السخط فيصيبها البوار ، بل تجنح إلى سلوك الجادة وعدم تنكب السبيل .

ومثل هذا الموقف للرسول الكريم موقفه من ديار الظالمين واستحثاثه الرواحل للخروج منها موقفه من الموضع الذي أهلك الله فيه أصحاب الفيل بين منى ومزدلفة ، حيث أسرع فيه إذ مر به في حجته ، وأمر أصحابه بذلك ؛ لأخذ العبرة الخاطفة أولًا ، ولئلا يصيب من أبطأ به أو تثاقل ما أصاب أصحاب الفيل ،

---

(١) مجلة الحج- رجب- سنة ١٣٨٠هـ .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨١، ٤٤١٩) ، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وإذا كان هذا السلب مشروعًا بالنسبة لديار الظلمة، وقد خلت منهم، وأضحت عبرة لمن يشهدها، فكيف بمجاورة الظلمة أنفسهم، أو ليس من المنطق أن يتباعد المسلم عنهم ويأخذ في غير طريقهم خشية أن ينزل بهم البلاء فيصيبه ما أصابهم، ومن ثم يدرك الهدف الأسمى من الهجرة وشريعتها واستدامة أمدها حتى تطلع الشمس من مغربها، فهي سلب دائم أعظم من السلب المفروض أمام ديار الهالكين، ولئن ...(١) تخفق فرقًا وتذوب خوفًا من أن ...(١) بمن ألجأته الضرورة للمرور ...(١) الظلمة الهالكين فمن حقها أن يزداد ويتضاعف خفقها إذا ركنت النفوس، واستمرأت المقام بين ظهرانيهم، وأقامت معهم من شأنها أن تميت فيها ...(١) والشعور بالسلب المفروض عليها إزاء انتهاكه لحدود اللّه، متماد في معصيته - كما قال تعالى عن واقع المؤمنين في أخذهم بالسلب الدائم لأعداء الدين: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هُود: الآية ١١٣].

وبعد هذا الاستطراد الذي دفع إليه ضرورة البسط والإيضاح في موقف الرسول الكريم من ديار ثمود نعود إلى متابعة مواقفه ﷺ في هذه الغزوة، ولم يقتصر موقف الرسول ﷺ من ديار ثمود علي المرور بها سراعًا مستحثًا للرواحل، بل شدد السلب لدرجة تحظر على الجيش الانتفاع بماء أبار ثمود إلا على الناقة؛ ليقطع بذلك كل صلة بالأرض التي غضب اللّه على أهلها، وأنزل بهم بأسه، وليوقظ في نفوس أصحابه الشعور بعظم المعصية وما تجره على أهلها من التدمير والعذاب المهين في العاجلة والآخرة، فبعد أن أخلد الجيش للراحة في

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

الحجر من ...[١] مضن، وأخذ يصلح من شأنه علم الرسول ﷺ بما كان من استعمال أصحابه لآبار ثمود ...[١] منها ونصبهم القدور تغلي بمائها وقد أوشك أن ينضج ما فيها قام فحظر الانتفاع بما استقوا من الماء قائلًا: «لا تشربوا من مائها شيئًا، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه للإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا».

وصدع الجيش بأمر الرسول الكريم دون تردد أو تمهل، وبات يتوجس خيفة من الظمأ والطريق أمامهم ما برح طويلًا مديدًا، ولقد كاشف الصحابة الرسول ﷺ بالوقائع وأنهم في حاجة ماسة إلى الماء ولا ماء، فرفع يده إلى السماء داعيًا ربه لائذًا بجانبه ضارعًا إليه أن يغيثهم، وما أرجع يديه إلا والوابل المدرار يغمرهم فاستقوا منه وتزودوا لحاجتهم، وتلك معجزة غص بها المنافقون ممن اندس بين الجيش متواريًا بنفاقه، وازداد بها المؤمنون إيمانًا باللَّه ورسوله، قال أحد المنافقين؛ إظهارًا لحقده بعد أن أغاث اللَّه عباده بدعاء الرسول الكريم، وقد سئل- أي: المنافق عن هذه المعجزة - قال: ما هي إلا سحابة مارة. وقال منافق آخر وقد ضلت ناقة رسول اللَّه ﷺ وخرج أصحابه يطلبونها: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، فأعلم اللَّه نبيه بما كان من هذه المقالة، فكان موقف الرسول من قائلها موقف القائد الحليم؛ لم يؤاخذه على ما بدر منه من مقالة السوء، وقد كانت في الصميم، إذ يتشكك بها من في قلبه مرض في صحة صدق الرسول ونبوته، بل اكتفى بأن أعلن ذلك في أصحابه وأوضح أنه لا يفتات على ربه؛ إذ لا يعلم الغيب إلا اللَّه، ولا يعلم من أمر الغيب- أي رسول اللَّه ﷺ- إلا ما علمه اللَّه إياه، وفي ذلك دحض لفرقة من يزعم أن الرسول ﷺ يعلم الغيب، بل إن من علومه علم اللوح والقلم، يقول

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

رسول اللّه ﷺ تقريرًا لواقعه كبشر رسول وردًا على المنافق في قوله، وإعلامًا بوضع الناقة، تأييدًا من اللّه له: إن رجلًا قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته: «وإني واللّه لا أعلم إلا ما علمني اللّه، وقد دلني عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها».- ففعلوا[(١)]- .

ومع أن الرسول الحليم الكريم لم يرفع رأسًا بقولة المنافق، وقابله بالصفح والعفو إلا أنه داخله الشك في هذا الفريق من المنافقين الذين اندسوا في جيشه كطابور خامس، وهو لا يعلم بهم، ولم يكاشفه اللّه بنفاقهم، فكان كلما تخلف عنه أحد في المسير وآذنه به أصحابه يقول: «دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه اللّه تعالى بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم اللّه منه». حتى كان موقفه من صاحبه أبي ذر رضي اللّه عنه؛ إذ تخلف عن نفس الموقف، وقال عنه كما قال عن غيره: «إن يك فيه خير فسيلحقه اللّه بكم» إلا أن ما لأبي ذر رضي اللّه عنه في نفس الرسول الكريم من حق الصحبة، وما يعلمه عنه من صدق الإيمان والهجرة ومحبة اللّه ورسوله، جعله يستشرف لقدومه عليه، ولعل اللّه قد كاشفه بما كان بأمر أبى ذر حيث لم يتخلف عن الرسول ﷺ إلا قهرًا، فلقد لبث في انتظار بعيره، فلما أبطأ عليه حز في نفسه أن يستأخر، وقد يطول عليه أمر انتظاره لدابته، فضحى براحته، ووضع متاعه على ظهره، وانطلق إثر رسول اللّه ماشيًا وحده حتى أدرك الرسول ﷺ في بعض منازله في الطريق، وقد رآه على بعد قبل أن يصل، ولم يكد يتبينه رجل من المسلمين، فقال: يا رسول اللّه، إن هذا الرجل يمشي في الطريق وحده. فقال الرسول ﷺ: «كُن أبا ذر». فلما تأمله

(١) ينظر أعلام النبوة للماوردي ص ١٢١، ودلائل النبوة لإسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني ص ١٣٧، وعيون الأثر ٢/ ٢٥٦.

القوم قالوا : يا رسول اللَّه ، هو واللَّه أبو ذر . وقد أشفق الرسول الرحيم على أبي ذر ، وقدر له تضحيته ، وانطلق يدعو له : « رحم اللَّه أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويُبعث وحده »[١] .

ويستوقفنا موقف الرسول الكريم من أبي ذر وإخباره عنه أنه يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ، وتلك معجزة وقع أكثرها ؛ فإن أبا ذر رضي اللَّه عنه قدم على رسول اللَّه ﷺ في منزله بالغزو ماشيًا وحده لا أنيس له ولا رفيق ولا يخشى وسط الفيافي التي قطعها وحده غير اللَّه .

ولئن أبعدنا النظرة في تأويل قوله ﷺ يمشي وحده نجد مصداق قول الرسول ﷺ واضحًا في النهج الذي كان ينتهجه أبو ذر رضي اللَّه عنه وحده في تحديد الملكية الفردية ، وجعلها قاصرة على ما لا بد منه من الكفاية في أضيق الحدود ، وبذل الفاضل من الثروة للفقراء ، وعدم احتجازه ، وينزل من يخرج عن هذا المبدأ منزلة المكتنزين الآثمين الذين توعدهم اللَّه بقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥] .

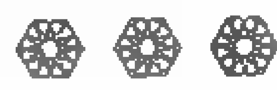
ومن أجل ذلك ارتأى الخليفة الراشد عثمان رضي اللَّه عنه تحديد إقامة أبي ذر في الرَّبذة بعيدًا عن معترك الحياة ، فعاش بها ثمة وحده ، إلى أن جاءه الموت فمات بها وحده ، كما أخبره بذلك الصادق المصدوق ﷺ ؛ لم يكن ...[٢] أحد إلا امرأته وغلامه فأوصاهما رضي اللَّه عنه : اغسلاني وكفناني ، ثم ضعاني

---

(١) أخرجه ابن إسحاق - كما في سيرة ابن هشام ٥٢٣/٢ - ومن طريقه ابن سعد ٢٣٤/٤ - ٢٣٥، والحاكم ٣/ ٥٠، والبيهقي في الدلائل ٢٢٢/٥ من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه . وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٥٣١) .

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل .

على قارعة الطريق ، فأول ركب يمر بكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول اللّٰه ﷺ فأعينونا فيه . ففعلا فمر بهما عبد اللّٰه بن مسعود رضي اللّٰه عنه ورهط من أهل العراق معتمرين ولم يرعهم إلا الجنازة على قارعة الطريق قد كادت الإبل تطؤها ، فقام إليهم الغلام وقال : هذا أبو ذر صاحب رسول اللّٰه ﷺ فأعينونا على دفنه ، فأدركت ابن مسعود رضي اللّٰه عنه العبرة (بفتح العين) وطفق يتهاطل دمعه ويقول : صدق رسول اللّٰه ﷺ : « تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتُبعث وحدك » . ثم نزل هو وأصحابه وواروه بالتراب . وأخذ يقص على أصحابه قصة أبي ذر في غزوة تبوك ، وما كان من استئخاره عن الرسول ﷺ ثم لحاقه به ماشيًا ، وموقف الرسول الكريم معه ، وما أخبر به عنه من أنه يمشي وحده ويموت وحده ، وقد وقع فعلًا ما أخبر به الرسول ﷺ فيما يتصل بعالم الدنيا ، وسيقع بلا شك ما أخبر به عن بعثه وحده ، أما كيف يبعث وحده ، فعلمه عند علام الغيوب .



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[١]

« أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك »

وصل الحديث بسابقه عن غزوة تبوك ، وقد صرفتنا عن مواصلة البحث مناسبتان سعيدتان ، لم يكن لنا بد عن التحدث فيهما بما يتناسب مع جلالهما ورفعة قدرهما وبهجة النفوس المؤمنة بإشراقهما على ربوع الإسلام .

فالمناسبة الأولى : مناسبة شهر الصوم المبارك ، وما يتطلبه من مثالية ، وما يفرضه من استقامة تتناسب مع الصوم والارتفاع به عن الخدش ، وما لعله أن يفوت على الصائم فرصة كسب الأجر .

والمناسبة الثانية : مناسبة عيد الفطر المبارك ، والتذكير بأنه يوم من أيام الإسلام ، شرعه اللَّه لعباده بعد الفراغ من الصيام ؛ ليجتمعوا في مصليات الأعياد على شكره وذكره وتمجيده وحمده وتكبيره ، وليظهروا فيه الفرحة بالتوفيق لهم على إتمام الصوم والقيام بفريضة الإسلام ، والبهجة أيضًا بما أنعم اللَّه عليهم من نعم ضافية بلبس الجديد وإزجاء التهاني للمحبين والترخيص في القيام بشيء من اللهو البريء للترويح عن النفس ، واستكمال مجالب السرور ، وكل ذلك لمناسبة العيد ، والإشعار به ، كيوم له طابعه الخاص ، لا يمكن أن يزاحم فيه .

ووصل الحديث لاحقًا بسابقه في غزوة تبوك هو بحث اليوم ، ولقد سبق أن أشرت في مقال قبل هذا إلى أربعة من المتخلفين ؛ لم يكونوا ممن تخلف عن الرسول ﷺ بدافع النفاق ، فلم يكونوا ممن يتهم به ولم يرتق الشك إلى صدق إيمانهم ، كان منهم أبو خيثمة ، وسردنا قصته آن ذاك ، وموقف الرسول ﷺ منه ، وحكاية أبي خيثمة لموقفه واعتذاره عن تخلفه عندما امتلك عليه مشاعره

---

(١) مجلة الحج- شوال- سنة ١٣٨٠هـ .

موقف عفو الرسول ﷺ عنه.

أما الثلاثة الباقون فهم: كعب بن مالك بن أبي كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية.

وإن قلم الكاتب مهما أوتي من براعة وحسن تصوير وبيان ليعجز عن تصوير واقع هؤلاء الثلاثة في محنتهم وما منوا به الرسول ﷺ وأصحابه وأقرب ...[١] وصدور أمر الرسول ﷺ ...[١] لنسائهم وما قطعوه من أشواط في البلاء الذي مر به كعب في دينه أيام محنته، لولا تثبيت الله وربطه على قلبه وحفظه لإيمانه لرجع إلى الكفر بعد الإسلام، واختار عز الدنيا على الرفعة في الآخرة ...[١] الإيمان، وخير ما يعطي القارئ فكرة تامة عن هؤلاء الثلاثة المتخلفين تحدثهم أنفسهم عن ...[١] وتصويرهم لشعورهم منذ أن بدا قصة الغزو ...[١] توبة الله عليهم في قرآن تتدارسه الأجيال، إمامًا لهم يحتذونه في الصدق والصبر والثبات ...[١] وتحمل البلاء على النعماء في سبيل ذلك ...[١] أيضًا ثمار جهادهم ونتائج إقامتهم على مبدئهم وإيمانهم لقضيتهم وصدقهم وصبرهم وثباتهم كما وصفهم، نتائج ذلك سعادة وتوفيقًا وهداية إلى ...[١] ووصولًا إلى أعظم مطلوب وأسمى مرغوب.

نبدأ في تصوير القصة بحديث كعب بن مالك والثلاثة المتخلفين، والمروي في الصحيحين وغيرهما[٢] قال: كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة وما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتها في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٥٦، والبخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

رسول اللَّه في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفاوز وعدوًّا كثيرًا، فجلا للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول اللَّه ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ- يريد الديوان.

قال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من اللَّه عز وجل، وغزا رسول اللَّه ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول اللَّه ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئًا، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول اللَّه ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض من جهازي شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم اقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فألحقهم وليت أني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول اللَّه ﷺ يحزنني إني لا أري إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذره اللَّه عز وجل، ولم يذكرني رسول اللَّه ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول اللَّه برداه والنظر في عطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت، واللَّه يا رسول اللَّه ما علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول اللَّه ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول اللَّه ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك حضرني بثي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول اللَّه ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدًا، فأجمعت صدقه، فأصبح رسول اللَّه ﷺ، وكان إذا قدم من

سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين، ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فيقبل منهم رسول اللّه ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى اللّه تعالى. حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال».

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك، ألم تكن قد اشتريت ظهرًا؟ فقلت: يا رسول اللّه، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلًا، ولكني واللّه لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن اللّه أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليَّ فيه، إني لأرجو أقرب عقبى من اللّه عز وجل، واللّه ما كان لي عذر، واللّه ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

قال: فقال رسول اللّه ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي اللّه فيك».

فقمت وقام إليَّ رجل من بني سلمة وأتبعوني، فقالوا لي: واللّه ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول اللّه ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول اللّه ﷺ لك.

قال: فواللّه مازالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكرا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا[١] لي فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

(١) في الأصل: «شهد بدر».

قال : ونهى رسول اللَّه ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ؛ فما هي الأرض التي كنت أعرف .

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول اللَّه ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي أحرك شفتيه برد السلام عليَّ ، أم لا ؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ ، فإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليَّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليَّ ، فسلمت عليه ، فواللَّه ما رد عليَّ السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة ، أنشدك اللَّه ، هل تعلم أني أحب اللَّه ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعمدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : اللَّه ورسوله أعلم . قال : ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إليَّ ، حتى جاء فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان ، وكنت كاتبًا ، فإذا فيه :

« أما بعدُ : فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن اللَّه لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة ، فألحق بنا نواسك » .

قال فقلت حين قرأته : وهذا أيضًا من البلاء فتيممت به التنور فسجرته به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول اللَّه ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول اللَّه ﷺ أن تعتزل امرأتك . قال : فقلت : أطلقها أم أعتزلها ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربها . قال : وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك ، قال : فقلت

لامرأتي : ألحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي اللّه في هذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول اللّه ﷺ ، فقالت : يا رسول اللّه ، إن هلالًا شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : بلى ، ولكن لا يقربك . قالت : وإنه واللّه ما به من حركة إلى شيء ، وإنه واللّه مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول اللّه ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : واللّه لا أستأذن فيه رسول اللّه ﷺ ، وما أدري ما يقول فيها رسول اللّه ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب ، قال : فلبث بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا .

قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللّه تعالى منا ؛ قد ضاقت بي وضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر[1] . قال : فخررت ساجدًا ، وعرفت أن قد جاء الفرج من اللّه عز وجل بالتوبة علينا وآذن رسول اللّه ﷺ بتوبة اللّه علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبل صاحبيَّ مبشرون ، وركض إليَّ رجل فرسًا ، وسعى ساعٍ من أسلم ، وأوفي على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته ، واللّه ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما .

وانطلقت أؤم[2] رسول اللّه ﷺ ، وتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بتوبة

(١) سقطت من الأصل . والمثبت من مصادر التخريج .

(٢) أي : أقصد . انظر المصباح المنير (أ م م) .

اللَّه يقولون : ليهنك توبة اللَّه عليك . حتى دخلت المسجد فإذا رسول اللَّه ﷺ جالس في المسجد والناس حوله فقام إليَّ طلحة بن عبيد اللَّه يهرول حتى صافحني وهنأني ، واللَّه ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول اللَّه ﷺ قال ، وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » . قال : قلت : أمن عندك يا رسول اللَّه ، أم من عند اللَّه ؟ قال : « لا ، بل من عند اللَّه » . قال : وكان رسول اللَّه ﷺ إذا سر[1] استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول اللَّه ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى اللَّه وإلى رسوله . قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » . قال : فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول اللَّه ، إنما نجاني اللَّه بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت .

قال : فواللَّه ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه اللَّه من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ أحسن مما أبلاني اللَّه تعالى ، واللَّه ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول اللَّه ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني اللَّه عز وجل فيما بقي .

قال : وأنزل اللَّه تعالى : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا

(١) في الأصل : « أسر » . والمثبت من مصادر التخريج .

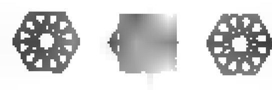
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧- ١١٩] إلى آخر الآيات . قال كعب : فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال الله تعالى : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦] .

قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوه فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التّوبَة: الآية ١١٨] خلفوا وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

وبعدُ ، فإن لهذا القصص المليء بالعبر العامرة بالعظات لأثرًا بالغًا في النفوس فلنترك لحرصه فرصة أطول ؛ لتستمتع به النفوس ، فيوقظ فيها الشعور ، ويشحذ منها العزائم ، ويحفز الهمم ؛ لأنه يكون من أثرها التحول الملحوظ بسلالة خير أمة أخرجت للناس ؛ لتبني مجدها من جديد على غرار مجد سلفها وبأخلاقهم واتجاهاتهم نحو أهدافهم وتفانيهم في الإخلاص لقضيتهم وصدق لهجتهم ، ولتحقق بذلك شرف النسبة إليهم ونيل الغاية في السير على منهجهم ، ولتحمل إلى الدنيا علم الهداية ، كما حمله سلفها ، ففتحوا به القلوب قبل فتح الممالك ، وقبلت النفوس مبادئ دينهم راغبة فيه مذللة له راضية بأحكامه مقتنعة به ، فانتشر السلام والأمن واستقر العدل وأمن الحمل إلى جانب الذئب ، وكانت المرأة تقطع

الفيافي لا تخشى المغير أو تتوقع السطو أو تنذر بداهية .

وإلى المقال الآتي إن شاء اللَّه ، حيث نأخذ في تسجيل مواقف أخرى لرسول الهدى في هذه الغزوة ؛ غزوة تبوك ، التي كانت آخر غزواته ﷺ ، والتي كان لها من الأثر في الجزيرة العربية ما حمل خصوم الدعوة الإسلامية على الانصياع وطلب المسالمة ، بل ودخولهم في دين اللَّه أفواجًا .



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[(١)]

ما برحنا نتابع الخطو في تسجيل المواقف الحاسمة لرسول الهدى ﷺ في شتى ألوانها .

وفي هذه الكلمة نسجل موقفين يختلف أحدهما عن الآخر ، بل إن أحدهما لم يكن له نظير فيما سلف من المواقف لرسول الهدى ﷺ ؛ ذلك لأنه مظهر من مظاهر العاطفة الحانية ، وموقف من مواقف الأبوة الرحيمة نحو ثمار الفؤاد ، وفلذة الأكباد ، وزينة الدنيا .

إنه موقفه ﷺ من ابنه إبراهيم ؛ إذ كان يلفظ أنفاسه الأخيرة من الدنيا مودعًا بها خير أب عرفته الإنسانية في مجالات العطف والرحمة ، وعرفته البشرية في مواقفه الهادية الهادفة الراشدة المرشدة وعرفه العالم كله بما فيه من أناسي وعجماوات وكائنات مخلوقة لله ، عرفه كل أولئك بمزايا وخلال وآيات هو فيها نسيج وحده فحن إليه الجذع الذي كان يخطب إليه حنين الحبيب إلى محبوبه وظللته الغمامة في سيره ، وانشق له القمر ؛ آية له ومعجزة لرسالته ، ونبع الماء من بين أصابعه فغدا كشلال يهدر بالماء النمير ؛ إكرامًا لمقامه .

ولد إبراهيم فكان لولادته في نفس الرسول الكريم فرحة بعد ترحة ، فرحة بالولد بعد أن ودع الوالد إلى دار البقاء زهورًا يانعة متفتحة وثمارًا آتت أكلها ، ودع الرسول الكريم ولديه القاسم وعبد الله صغارًا ، كما ودع من بناته زينب ورقية وأم كلثوم بعد زفافهن إلى أزواجهن ، فكان لوداعهم في نفسه ﷺ ترحة ، وتلك عاطفة إنسانية لا تقدح في نبوة ، ولا توهن في مقام رسول .

ونما إبراهيم وترعرع فابتسم الأمل في بيت الرسول ، وأخذت الأبوة الحانية

(١) مجلة الحج- ربيع الثاني- سنة ١٣٨١هـ .

تعمل دورها في نفس الأب دون أن تكون الشغل الشاغل الذي يصرفه عن الواجب نحو ما هو مضطلع به من مهام الرسالة وأعباء نشر الدين.

ومرض إبراهيم واشتد به المرض فنقل بعيدًا عن الوالد، وبلغ دور الاحتضار فنذر بذلك الرسول ﷺ فاصطحب معه عبد الرحمن بن عوف ووقفا على إبراهيم وهو يجود بنفسه. فحمله الرسول ﷺ ووضعه في حجره، وهو يقرر واقع عجز المخلوق عن دفع ما قدره الخالق على العباد من النهاية المحتومة قائلًا: «إنا يا إبراهيم، لن نغني عنك من اللَّه شيئًا».

وكظم الرسول الكريم ما في نفسه من الألم الدفين، حتى ترجمت عنه دمعه تحدرت من عينيه الشريفتين، ثم ازدادت هطولًا عندما استوى إبراهيم جثمانًا لا حراك به ولحق بربه، فتجلد للحادث الجلل وصبر واحتسب؛ فقد حبيبه، وأشعر الناس بموقفه هذا بالواجب المفروض إبان نزول المصائب، وأوضح لهم الباطل المنكور فقال: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون»[(١)].

هذا الموقف الرحيم موقف الأبوة الحانية بفقد العزيز الغالي والابن المجدود[(٢)] نسجله للرسول الكريم إلى جانب مواقفه الحاسمة في سيرته الرضية ومواقف البطولة والحزم والعزم والصرامة التي أيد اللَّه بها الدين وجعل في قلوب أعدائه الرهبة وكتب بها النصر والتمكين للمسلمين.

إنه موقف حاسم أيضًا من طراز آخر، وعلى غير غرار المواقف السالفة، موقف حسم به الباطل إذ تخور العزائم عن تلقي المصائب وتضعف القوى وتطيش الأحلام عن الاستسلام لقضاء اللَّه وقدره النافذ المحتوم فتضرب الخدود

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رضي اللَّه عنه.

(٢) المجدود: العظيم الحظ. «المعجم الوسيط». (جد).

وتشق الجيوب ، ويدعو المصاب بالثبور وعظائم الأمور ، وذلك لا يغني عن أهله شيئًا في تخفيف المصاب وزوال أثر الفادحة ، بل إن عليهم من الوزر بقدر ما عملوا من منكر ، ولقاء ما تسخطوا على القدر ، يقول رسول اللّه ﷺ - وفي معرض الذم والوعيد لمن أضجرته المصيبة وأسخطته النكبة : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية »[١] . لأن كل ذلك مظهر السخط والتبرم وعدم الرضا بقضاء اللّه وقدره . وفي حديث آخر مزيد من الزجر والوعيد لمن ارتكب المحظور إذا حم القضاء ونزل البلاء ، يقول الرسول ﷺ : « لعن اللّه الخامشة وجهها ، والشاقة جيبها ، والداعية بالويل والثبور »[٢] .

ورجح العلماء من المحققين أن هذه الأمور من الكبائر ، وفي حديث آخر عند مسلم عن أبي هريرة : « اثنتان في الناس هما بهم كفر ؛ الطعن في النسب ، والنياحة على الميت »[٣] . أي : رفع الصوت بالندب وتعداد محاسن الميت لما في ذلك من التبرم بالقضاء المنافي للصبر .

فأرشد رسول اللّه ﷺ الأمة بموقفه من الفاجعة بموت فلذة كبده والحبيب إليه بما يجب أن ينتهجه المسلم إزاء النوازل وفواجع الزمان من الصبر والاحتساب والاستسلام لقضاء اللّه والرضاء بقدره ، فما أعطي أحد عطاء خيرًا من الصبر ، كما جاء في الحديث[٤] ، وجاء عن علي بن طالب رضي اللّه عنه قوله : إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ثم رفع صوته فقال : ألا إنه

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤) ، ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه .
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٥٨٥) ، وابن حبان (٣١٥٦) من حديث أبي أمامة رضي اللّه عنه . وحسنه الألباني في الصحيحة (٢١٤٧) .
(٣) أخرجه مسلم (٦٧) .
(٤) أخرجه البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠) ، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه .

لا إيمان لمن لا صبر له[١] . وجاء عن بعض التابعين قوله في تفسير قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التّغابُن: الآية ١١] : هو رجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم[٢] . إلى غير ذلك مما ورد في السنة والآثار عن فضيلة الصبر والاحتساب والاسترجاع عند المصائب مما أوضحه رسول الهدى ﷺ قولًا وعملًا ، ومما يكون وسيلة للتعويض عن المصيبة والخلف على المصاب بما فيه قوة عينه وصلاح شأنه .

ويجدر بنا بعد أن سجلنا لرسول الهدى ﷺ هذا الموقف الحاني الرحيم أن ...[٣] إلى حادث جلل صاحب الفاجعة بموت إبراهيم ...[٣] البعض من الناس بيننا وبين ...[٣] بالسبب ، واندفعوا بحكم رواسب ما برحت عالقة في أذهانهم من شطحات الجاهلية وقالوا : إن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم ، ومن أعظم من إبراهيم حبيب الحبيب وفلذة كبد الرسول العظيم .

وكان للرسول من هذا الزعم وأصحابه موقف حاسم قطع كل تصور يتنافي مع واقع الدين ، وسد به المداخل والوسائل لتوهين العقيدة الإسلامية في نفس المسلم ، ذلك لأن ربط الحوادث الأرضية وما يجري من موت وحياة ، ونصر وخذلان ، وارتفاع أسعار ، وهطول أمطار ، ربط ذلك بالآيات الكونية كربط السبب بالمسبب قدح في العقيدة وفتح لباب التشريك والوثنية .

ولذلك حسم رسول الله ﷺ مادة الشرك وتعلق القلب بغير الله في جلب النفع ودفع الضر بالموقف الذي وقفه يوم كسوف الشمس وموت إبراهيم ابنه ، فقام بعد أن لجأ إلى الله وصلى طويلًا صلاة الكسوف المشروعة ، وقال : « إن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/٣١٧، ١٢/٢٠٢، والبيهقي في الشعب (٤٠، ٩١٧٨). وقال الألباني في الضعيفة تحت حديث (٣٧٩٣) : سنده منقطع .

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٢١، والبيهقي في الشعب (٩٩٧٦) عن علقمة رضي الله عنه .

(٣) كلمة غير واضحة بالأصل .

الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاهرعوا إلى الله ، وتصدقوا ، وصلوا حتى ينجلي عنكم ذلك »[١] . أو كما قال ﷺ .

الموقف الثاني لرسول الله ﷺ : موقفه من عدو الله ورسوله رأس المنافقين عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول حين مرض مرضه الذي هلك فيه ، وقد دعا رسول الله ﷺ ليعوده ، وطلب منه أن يكفنه في قميصه ؛ تبركًا به ملتمسًا في ذلك التخفيف عنه والتكفير عن ماضيه ، وطلب أيضًا أن لا يحرمه الرسول الكريم من الصلاة عليه ، ففي الصلاة عليه استغفار له ، وهو أكبر غنم يعلق عليه الأمل ، ويرجو به الصفح عن الزلل وقد أجابه ...[٢] محاولات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في صرف الرسول الكريم عن تلبية رغبة ابن أبيٍّ وتذكير الرسول بماضيه ، فرد عليه الرسول ﷺ محاولاته بقوله : « إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئًا ، فلعل الله أن يدخل به ألفًا في الإسلام »[٣] .

ولقد كان المنافقون لا يبرحون مجلس ابن أبي في علته ، وعندما رأوه يطلب قميص الرسول ليكفن فيه تبركًا وأملًا في النجاة أخلص منهم في إسلامه ألف ، فكانوا كسبًا للإسلام ، وحربًا على خصومه .

وتبرك ابن أُبي بل وغيره من الصحابة بآثار الرسول ﷺ ، هذا خاص بالنبي ﷺ ، ولا يُقاس عليه ، فلقد كان في خير القرون أهل فضل وصلاح وتقوى هم في طليعة أولياء الله المشهود لهم بالكرامة والمقطوع لهم بالجنة ؛ كالخلفاء الأربعة ، والعشرة المبشرين بالجنة ، ومع ذلك لم يكن أحد من أهل عصرهم يتبرك بآثارهم ، أو يتمسح بهم في حياتهم ، فضلًا عن أن يكون شيء من ذلك بعد

(١) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٢) كلمة غير واضحة بالأصل .
(٣) ينظر تفسير الرازي ١٦/ ١٢١، وتفسير القرطبي ٨/ ٢٢١.

مماتهم ، فعلم أنه ليس بمشروع ، بل محظور لأنه ذريعة إلى الوثنية الجاهلية ، ووسيلة إلى الشرك ، وإذا كان التبرك بآثار الصحابة محظورًا فبآثار من دونهم أعظم حظرًا ، وكما كان تكفين ابن أبي في قميص الرسول ﷺ تأليفًا لقومه ، كانت صلاته عليه تطبيبًا لخاطر ابنه الصادق في إسلامه المؤمن باللّٰه يعلنه بوفاة أبيه ، وقال له النبي ﷺ : « صلّ عليه وادفنه » . فرد عليه بقوله : إن لم تصل عليه يا رسول اللّٰه ، لم يصل عليه مسلم[١] . فحاول عمر رضي اللّٰه عنه منعه فقال له ..[٢]



(١) ينظر تفسير الرازي ١٦/ ١٢١، وتفسير السراج المنير ١/ ٧٢٤.

(٢) لم يتيسر العثور على بقية المقال.

في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[١]

للمناسبات الإسلامية حقُّ الصدارةِ من حيث التذكير بما لها من شأن وما اختصت به من فضل، وما يجب حيالها من كمال وأدب ومسلك سديد راشد، وبعدًا عن المزالق والمهابط في المنازع والمعاطف، وذلك كان سبيلنا عندما أشرقت في ربوع الإسلام مناسبة شهر الصيام فقد انصرفنا إلى الحديث عن كل ما يتصل به، وبالعشر الأخيرة منه، عشر النفحات من تذكير بالواجب نحوه وتبصير بفضيلة العشر الأواخر منه، وأوقفنا وصل ما نحن بصدده من تفسير بقية الآيات من صدر سورة براءة التي تتصل بموقف الرسول ﷺ من المشركين ونبذ عهودهم كخطوة إيجابية نحو تطهير بيت اللّه العتيق من الرجس، وليكون الدين للّه وحده، ولئلا يكون عند بيت اللّه فوضى في العبادة والتأليه فيجتمع عنده من يعبد اللّه ومن يشرك باللّه ويعبد سواه، وقد وقف بنا البحث عند نهاية تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٧].

وقلنا بصدد ذلك: إنهم لم يستقيموا على العهد، بل نقضوه، وهم قريش، فغزاهم رسول اللّه ﷺ عام الفتح، ومكنه اللّه من نواصيهم، فأطلق من أسلم منهم، وفر من بقي على كفره، وضرب له رسول اللّه ﷺ أجلًا محددًا بأربعة أشهر يذهب فيها حيث شاء، أورد هذا ابن كثير[٢] رحمه اللّه.

ونقل بعض المفسرين قول ابن جرير في الآية، وهو مناقض لما سبق من

(١) مجلة الحج- شوال- سنة ١٣٨١هـ.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٨.

تفسير ابن كثير، يقول ابن جرير رحمه اللَّه تعالى[١]: وأولى الأقوال بالصواب عندي قول: من قال هم بعض بني بكر من كنانة، مما أقام على عهده، ولم يكن دخل في نقض ما كان بين رسول اللَّه ﷺ وبين قريش يوم الحديبية من العهد؛ لأن اللَّه تعالى أمر نبيه والمؤمنين بإتمام العهد كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام ما استقاموا على عهدهم، وهذه الآيات نادى بها علي رضي اللَّه عنه سنة تسع من الهجرة، وذلك بعد فتح مكة بسنة، فلم يكن بمكة من قريش ولا من خزاعة كافر يومئذ بينه وبين رسول اللَّه ﷺ عهد، فيؤمر بالوفاء له بعهده استقام على ما عهده؛ لأن من كان منهم من ساكني مكة، كان قد نقض العهد وحورب قبل نزول هذه الآيات. اهـ.

وسواء كان ما ذهب إليه ابن كثير أو ابن جرير، رحمهما اللَّه، فإن الهدف الأسمى اتخاذ خطوة إيجابية نحو تطهير البيت العتيق من المنازع المتباينة والعقائد المختلفة والفوضى السائدة في العبادة والتأليه، وإقامة عقيدة التوحيد على أنقاض الوثنية المتداعية، ونبذ كل عهد يناهضها، أو وسيلة تعوق مدها، وتعرقل هيمنها وتحد من نشاطها، بعد أن لم يبق لها مناوئ في جميع أطراف حدود الجزيرة العربية.

وكان لزامًا تدعيم نشاط الدعوة الإسلامية بنبذ كل عهد لم يف أهله للمسلمين بما عاهدوهم عليه، وليس في ذلك غدر ولا نقض للعهد، بدليل أن من استقام على عهده للمسلمين ولم يأت فيه حدثا أمرهم اللَّه بالوفاء له ما استقام على عهده، وذلك هو الأجدر بالمسلمين، فمن مبادئ دينهم الوفاء بالعهد ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: الآية ٩١] سيما مع من اثبت إخلاصه للعهد ووفائه بما عاهد عليه وعدم استباحة نقضه بمظاهرة خصوم الإسلام والتحالف معهم.

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٤٤.

واستمرت الآيات في شحذ عزيمة المؤمنين نبذ عهد المشركين غير من استثنوا، والإقامة على عدائهم، وإيضاح نواياهم نحو المسلمين، وحكاية واقعهم فيما لو كان لهم الغلبة فإنهم لا يرقبون في المسلمين عهدًا ولا ذمة، ولا يرقبون لهم حق قرابة، وأنهم في حال ضعفهم إذ لا يظهرون الطاعة والوفاء وقلوبهم على النقيض من ذلك بنقض العهد ويخرج على أمر الله في الوفاء به والسبب في ذلك ضعة نفوسهم حيث قد اعتاضوا عن اتباع الحق والإيمان بآيات الله، ظل النعيم الزائل في الحياة الدنيا فأعرضوا الناس ومنعوا عن الدخول في دين الله، ونقضوا عهده ورسله ولو تم لهم النصر لأبادوا المسلمين عن آخرهم لا يرعون في مسلم قرابة، ولا يستمسكون بعهد، بل طابعهم العدوان.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ٨- ١٠].

وفتح سبحانه باب الأمل لمن راجع الحق وتاب عن الشرك، والتزم ما يلتزمه المسلمون من إقام الصلاة وإخراج زكاة الأموال بشروطها وقيودها، بأن جعله أخًا في الدين، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم؛ فالإسلام يجب ما قبله.

أما من بدر منهم النقض للعهد بعد الإبرام والطعن في الإسلام فقد برئت منهم الذمة واستوجبوا القتال؛ لأنهم لا ميثاق لهم ولا ذمام، وكذلك كل ذمي ينقض عهده بالطعن في الإسلام أو سب الرسول وذم القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١١، ١٢].

وعاد سبحانه يستعرض مثالب المشركين ؛ تحريضًا على قتالهم ، واستنهاضًا لهمم المؤمنين في إقامة سلب بينهم وبين خصومهم فذكر من مثالبهم أنهم نقضوا عهد صلح الحديبية وعقدوا العزم على طرد الرسول من مكة وبدءوا المسلمين بالقتال في بدر ...(١) سلمت لهم عيرهم طغيانًا وصلفا وكبرياء ، أن وهب أمثال من هذا صنيعه وتلك خصومته ...(١) عن قتاله اللَّه أحق أن يخشاه المؤمنون ، فهو الذي بيده الأمر كله وتخشى سطوته ويرهب بأسه ، قال تعالى : ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التّوبَة: الآية ١٣] ثم عقب الأمر الصريح بضرورة قتالهم ووعد بالنصر عليهم ، يوضح أن في قتالهم عدى النصر وإعلاء كلمة اللَّه ...(١) لنفوسهم بالقتل والأسر وخزيًا وعارًا تلحقهم معرته وشفاء لما في صدور المؤمنين من الوَجْدة على المشركين إذ كانوا ينزلون بهم أقسى ألوان العذاب ؛ بغية ردهم عن إسلامهم .

وقيل : هي آية لعموم المؤمنين ، وفي قتالهم أيضًا إذهاب لما وقر في نفوس المؤمنين من الغيظ على المشركين بنقض عهد رسول اللَّه ﷺ ، ولعموم هذه المصالح حرَّض اللَّه المؤمنين على قتال المشركين .

أما من سبقت له الهداية منهم فإن اللَّه سبحانه وتعالى سوف يتوب عليه من فارط الذنب ؛ إذ يهديه إلى الإيمان واحتضان شريعة الإسلام ، قال تعالى : ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]

وعدى ما أسلفه سبحانه من الحكمة في مشروعية الجهاد أوضح حكمة

(١) كلمة غير واضحة بالأصل .

أخرى وهي اختيار مدى الطاعة في المسلمين وتمييز من يجاهد في اللّٰه حق جهاده عن صدق وإيمان، ولا تكون له في نفسه دخيلة سؤ وبطانة يبطنها تخالف مظهره، ومن يتهرب من الجهاد من المنافقين ومرضى القلوب قال اللّٰه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ﴾ [التوبة: الآية ١٦] أي بعد الإسلام دون اختيار ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٦].

ثم كشفت الآية التالية الهدف من إبعاد المشركين عن بيوت اللّٰه وخاصة المساجد[1] الحرام، وهو أن المساجد إنما تعمر بالعبادة الخالصة، ومن جعل العمارة حسية؛ وهي بناء المساجد وترميمها بعد الخراب حظر أن يتولى المشركون ذلك، فمن شهدت عليه أعماله بالكفر فقد أحبط اللّٰه كل عمل صالح يفعله فلا ينتفع به، بل سوف يسلك اللّٰه به نار جهنم خالدًا فيها.

أما عمارة المساجد سواء كانت حسية أو معنوية فهي من اختصاص المؤمنين باللّٰه المصدقين بيوم الجزاء الذين يلتزمون شرائع اللّٰه وفي طليعتها الصلاة والزكاة، فهؤلاء هم الذين هداهم اللّٰه المتمسكون بطاعته قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝١٧ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨].

ولقد كان مشركو قريش يشمخون بأنوفهم تعاليًا على المسلمين وفخرًا لسقايتهم للحاج وعمارتهم للمسجد الحرام، فأبطل اللّٰه هذا الزعم، وأوضح أن ذلك يتنافى مع العدل والعقل؛ إذ كيف يصح أن يستوي في عدل اللّٰه المؤمن،

---

(١) كذا بالأصل.

بأنه الصدق بيوم الجزاء المجاهد لإعلاء كلمة الله، ومن أشرك بالله وعادى رسوله وكذب بالجزاء أنه لا شك ظالم لنفسه بالشرك، جائر في الحكم؛ إذ لا يستقيم مع الشرك عمل صالح- قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٩].

ثم عقب على ذلك بإيضاح أفضلية المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله بالأنفس والأموال على غيرهم من المتعالين عليهم المتعاظمين بسقاية الحجيج وعمارة المسجد، وكشف عن الجزاء الكريم الذي ادخره لهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠- ٢١].

ثم أوضح سبحانه أن هذا الجزاء الكريم لا يناله إلا من بلغ الذروة في إقامة سلب بينه وبين أعداء الإسلام بحيث لا يعطفه عليهم وشيج القرابة مهما كان لها في النفس من مكانة؛ كالأبوة، والأخوة، فلا يصح أن يتخذ المسلم منهم بطانة إن أصروا على الكفر وآثروه بالحب وقدموه على الإيمان، أو تحمله عواطفه نحوهم على ترك الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

وقد جاء النهي في الآية صريحًا عن ذلك، وتوعد الله من تدفعه ميوله وعواطفه لتقديم محبة الوالد أو الولد أو الأخوان أو الأزواج والعشيرة والأموال التي يحصل عليهم بجوارهم، والتجارة التي يخشى عليها الكساد لو قامت حرب بين المسلمين والكافرين، توعده بالانتقام وأمره أمر تهديد ووعيد بالانتظار حتى ينزل به، وجعل هذه الميول خروجًا على أمر الله، لا ينال العبد عليها الهداية والتوفيق إلى أقوم السبل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ

وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٢، ٢٣].

ثم عرض بعد ذلك سبحانه لغزوة حنين، وما كان فيها من هزيمة المسلمين، وذكرهم بفضله عليهم وإحسانه في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم، وأن ذلك كان بتأييده لا بكثرة عددهم وعتادهم، وضرب المثل بغزوة حنين، فحين أعجبت المسلمين فيها كثرتهم انهزموا وولوا الأدبار، حتى أنزل الله نصره وتأييده لرسوله والمؤمنين، فكانت العاقبة لهم، وذلك شأنهم في قتال أعداء الإسلام النصر والفتح والتأييد ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: الآية ٤٠].

وقد عرضنا لغزوة حنين- مفصلاً فيما سبق قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥- ٢٧].

وكانت الآية التالية عودًا على ما بدئ به من...[١] عهود المشركين وقتالهم، وهي مما نادى به الإمام علي- كرم الله وجهه- في جملة ما نادى به عام تسع من الهجرة من الآيات، «وأن لا يحج بعد ذلك العام مشرك»[٢].

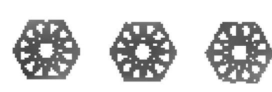
---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٢) وذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٣٦٩، ٤٦٥٥، ٤٦٥٦).

وأوضح سبحانه أن مخافة الفقر من جراء منع المشركين عن الحج لما قد يترتب على منعهم من قلة جلب الأرزاق لا مبرر له ؛ فإن اللّٰه سبحانه سوف يعوض سكان الحرم عنها ويغنيهم بما ييسره لهم من أسباب الرزق ، وتتابع الخير عليهم ، فاللّٰه عليم بما يصلح عباده ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: الآية ٢٨] أي : في الاعتقاد والدين ، ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٢٨] .

وبهذه الآية ينتهي عرض الآيات من صدر سورة براءة المتعلقة بقتال المشركين ، وهي ما يتصل ببحثنا من تسجيل المواقف الحاسمة لرسول الهدى ﷺ ، وقد أوجزنا القول في تفسيرها ؛ إذ إن الغرض إيضاح الأهداف التي رسمتها الآيات في نبذ عهود المشركين واتخاذ خطوات إيجابية في إبعادهم عن المسجد الحرام موطن القداسة والقضاء على الشرك وتعقبه ليكون الدين للّٰه وحده ، فيما بعد أن أضحت الصولة والدولة للإسلام ، وأظهره اللّٰه على الدين كله .



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة(١)

كثيرًا ما تصرفنا المناسبات السعيدة عن متابعة الكتابة في تسجيل المواقف الحاسمة لرسول الهدى ﷺ ، ولا مأخذ علينا في ذلك ، فإن مواقف الرسول ﷺ تتطلب الإفاضة والبسط ، وهي سلسلة مترابطة لن نأتي على آخرها إلا بعد أمد طويل تفوتنا فيه مناسبات إسلامية ، من حقها أن نوجه إليها الأنظار ، وأن نسهم فيها بالكتابة مع الكاتبين .

ولقد كان آخر ما وصلنا إليه في تسجيل المواقف الحاسمة بعثَ رسول الله ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب سنة تسع من الهجرة إلى الحجيج ؛ ليبلغ عنه سورة براءة ، إذ هي بمثابة إعلان للمشركين في نبذ عهودهم ، وتأجيل من كان له أمد معين إلى انقضاء أجله ، وإنذار بالإقلاع عن شطحات الجاهلية وسفاهاتهم ، وبأن لا يحج بعد هذا البلاغ مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وقد أثمر هذا الإنذار ثماره الطيبة حيث أحدث في نفوس العرب قاطبة في شبه الجزيرة اهتزازات حملتها على الإذعان لدوي هذا الصوت المجلجل ؛ لأنها أيقنت بعد فتح مكة وإخضاع قريش وارتفاع راية الإسلام على ربوع الحرم أن لا أمل لمناوئ في مصاولة الدولة الفتية دولة الإسلام ، فأخذت وفود العرب في سنة تسع تفد على القائد الأعلى في عاصمة الإسلام المدينة مذعنة مستسلمة تطلب أن يصيبها إشعاع الإسلام ونور هدايته ، وكان موقف الرسول الكريم منها موقف الهادي البشير يبسط لها جناح الرحمة ويعلمها من شرائع الدين ما فيه بلاغ للرسالة على أتم الوجوه ، ويفسح صدره للجدل العلمي الذي لم يكن باعثه التعنت والعصبية وعنجهية الجاهلين ، ويتسع حلمه للاستماع لخصومه في

---

(١) مجلة الحج .

الإشادة بأمجادهم والإسراف في التمدح بمفاخرهم ؛ طمعًا في هدايتهم وإبرازًا للشخصية الإسلامية في دور المفاضلة ، وإنها خير ما يفاخر به المتفاخرين وأفضل ما يعتز به صاحب أمجاد .

يطالعنا في ذلك موقفه ﷺ مع وفد بني تميم حين قدم على رسول الله ﷺ ، وأخذ أفراده ينادونه من وراء حجرات نسائه في جفوة الأعراب قائلين : اخرج إلينا يا محمد ، فإن مدحنا زين وذمنا شين .

فيخرج إليهم النبي ﷺ ، وهو يقول : إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين ، قالوا له : نحن ناس من بني تميم ، جئنا بشعرائنا وخطبائنا لنشاعرك ونفاخرك .

فلم يقابل الرسول الرحيم الكريم الجفوة بمثلها ؛ إذ ليس من خلقه ذلك وقد وصفه ربه بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: الآية ٤] . بل تلطف في الرد ، وأوضح أهداف رسالته بقوله : ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ، ولكن هاتوا ما عندكم ، فقام فتى من فتيانهم يذكر فضله وفضل قومه ، ويشيد بمفاخرهم ، ويقول : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله الذي جعلنا ملوكًا ووهب لنا أموالًا عظامًا نفعل فيها المعروف وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددًا وأيسره عدة ، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم ، فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا وإنا نعرف بذلك . أقول هذا ؛ لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا .

ولم يرفع رسول الهدى رأسًا بهذا التعالي والاعتداد بالفضل وكثرة النوال ، بل أمر ثابت بن قيس من أصحابه بتقرير واقع المسلمين من باب التحدث بنعمة الله وتوجيه الأنظار إلى مسدي النعم وذكر آلاء الله على المسلمين إذ بعث فيهم

رسول الهدى ﷺ ، ثم فتح الأذهان إلى ضرورة الإيمان به ، وأن من يباعد عنه وعن هدايته يلقى حتفه على يد أنصار رسول الهدى وشيعته .

يقول ثابت بن قيس رضي الله عنه في خطبته : الحمد لله الذي السماوات والأرض من خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يكن شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا ، واصطفي من خير خلقه رسولًا ، أكرمه نسبًا ، وأصدقه حديثًا ، وأفضله حسبًا فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله في العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن المهاجرون من قومه وذوي رحمه ، أكرم الناس حسبًا ، وأحسن الناس وجوهًا ، وخير الناس مقالًا ، ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا ، وكان قتله علينا يسيرًا .

ثم جاء دور الشعر ، فقام شاعر تميم ؛ ليصور العظمة عظمة قومه كما يلوح لها ذلك في قول جزل ومعان قد تكون أكثر وقعًا من النثر في النفوس فأنشد :

نحن الكرام فلا شيء يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم خسرنا من الأحياء كلهم عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم من كل أرض هويا ثم نصطنع
فننحر الكوم عبطًا في أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم إلا استفادوا فكانوا الرأس يقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه فيرجع القوم والأخبار نستمع
إنا أبينا ولا يأبي لنا أحد إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فبعث رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه ؛ ليرد على الشعر

بمثله ، لا ليفاخر ، أو يعاظم ، فلم يبعث رسول اللّه ﷺ بذلك كما أوضحه آنفًا ، فلما انتهى رسول اللّه ﷺ ، واستمع إلى شاعر تميم ، أمره الرسول ﷺ أن يجيبه فأنشد حسان :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى منعوا
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم طمع
لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طبع
إذا نصبنا لحي لم ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذرع
نسموا إلى الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وان أصيبوا فلا خور ولا هلع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسد بحلبة في أرساغها فدغ
خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم ... شرًّا يخاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول اللّه شيعتهم ... إذا تفاوت الأهواء والشيع
أهدي لهم مدحتي قلب يؤازره ... فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمعوا[1]

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام ٢/٥٦٢- ٥٦٣، وعيون الأثر ٢/ ٢٣٥، والروض الأنف ٤/ ٣٤٠، ٣٤١.

ولم يشأ شاعر تميم أن يهبط من عليائه ، بل أمعن في التعاظم والمفاخرة ، وكأنه يقلد الرسول ﷺ منة بقدوم وفد تميم عليه فأنشد ثانية قوله :

أتيناك كي ما يعلم الناس فضلنا إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وإن لنا المرباع في كل غارة نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

فانبرى له حسان رضي الله عنه يرد على مزاعمه ويفخر بنبي الإسلام ونصرهم لدينه ، وإنا نورد هذا الشعر بنصه ؛ لما فيه من روعة وجلال ؛ ولأنه يصور فترة من الزمن كان فيها الإسلام في أوج مجده وتالد عزه ويحكي واقع المسلمين في عصرهم الذهبي حين صدقوا الله في نصر دينه ، والذود عن الإسلام ، والدفاع عن حوزته ، وليظهر منه الفارق العظيم بين السلف والخلف في أعقاب الزمن ، حيث الاعتداد بالإسلام كدين ، والاعتزاز برسول الإسلام هاديًا ومبشرًا بالخير ، ومنفرًا عن سبل الضلال ، والتفاني في الذود عنه ، ونصرته ، وإن في الخلف من لا تسمع له حسًا ولا تكون نأمة حين يرتفع صوت الباطل بالنيل من الإسلام والكيد له والصد عن سبيله والتجني على رسول السلام بالطعن في رسالته والسخرية بشخصيته والنقد لمبادئ دينه وتعاليم شرعه ، يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

هل المجد إلا السؤدد والعود والندى وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وأوينا النبي محمدًا على أنف راض من معد وراغم
نصرناه لما حل وسط ديارنا بأسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا وطبنا له نفسًا بفيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها ولدنا نبي الخير من آل هاشم

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالًا عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم لنا خول ما بين ظئر وخادم
فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا للَّه ندًا وأسلموا ولا تلبسوا زيا كزي الأعاجم

وسقط عند هذه الأبيات في يد تميم وشاعرهم، ولم يكن بد من الاعتراف بالهزيمة وتقرير الواقع الذي وضح وضوح الشمس في رابعة النهار، وقام عظيم من تميم يعلن ذلك، ويقول- يعني رسول اللَّه ﷺ وأبي: إن هذا الرجل لمؤتى له، أي: موفق أيما توفيق، لخطيبه أبلغ من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلا من أصواتنا.

ولم يكابروا بعد ذلك أو يضطغنوا على الإسلام وأهله، بل أذعنوا إليه واستجابوا لدعوته عن رغبة وإيمان صادق، وقد أحسن الرسول ﷺ وفادتهم وأهداهم بجوائز مادية رمزية؛ ليجمع لهم بين الزاد الروحي والمادي، ولتكون صلة وصلهم بها لها الأثر الطيب في إزالة ما لعله أن يكون قد بقي في نفوس القوم من حقد وضغينة على الإسلام ورسول السلام، وهكذا اصطحبت في شخصية رسول اللَّه مواقف الندى والجود والحلم والصفح الجميل ومواقف الحزم والعزم والصرامة.



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[١]

لقد كنا وما نزال على ما التزمناه في تسجيل المواقف الحاسمة في السيرة النبوية ، لا نتقيد بسلسلة الحوادث ، ومتابعة الأخبار حسب ترتيب السنوات ، كما يعمد إلى ذلك بعض مؤرخي السيرة ، ولكنا نجترئ بأخذ المواقف ؛ وهي الغرض من هذه الأبحاث دون أن نعول على تقييدها إلا بالملابسات التي اكتنفتها ، كذكر الموضع أو الغزوة أو الحادث الذي ترتبط به .

وقد انتهينا إلى المراحل الأخيرة في تسجيل المواقف الحاسمة حتى بلغنا عام الوفود ، أي : بعد أن دانت لدولة الإسلام معظم قبائل العرب ، ولم يبق إلا شذاذ في بعض الآفاق ، كان يبعث إليها رسول الله ﷺ البعوث والسرايا فتخضعها وتستسلم .

ومواقفه ﷺ مع الوفود التي أعطت الطاعة من نفسها ، وقدمت عليه في المدينة ، تطلب التزود من العلم ، والوقوف على أطراف من التوجيه الإسلامي ، مما يصحح الصلة بالله ، ويكون لها خير عدة ، وهي موقف المعلم المرشد ، والهادي والنذير ، والرائد البصير ، الذي يقود القافلة إلى مأمنها ، بعيدًا عن المفاوز والأخطار ، وهو في الواقع موقفه تجاه الأمة جمعاء ، كما قال رب العزة : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] ، وله إلى جانب ذلك مع الوفود مواقف الندى والجود والرفد الذي لا يكاد يخطئ أحدًا ممن نزل بساحته ؛ فيجمع لهم بين الزاد الروحي والمادي ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في قصة وفد بني حنيفة ، وعدم منع رفده من أن يصل إلى مسيلِمة على ما كان منه من بوادر .

---

(١) مجلة الحج - ١٣٨٢هـ.

ولقد وفد على الرسول فيمن وفد عليه بالمدينة عدي بن حاتم - حاتم الطائي الذي كان يضرب بجوده المثل - وقصة عدي فيها من العبر وأعلام النبوة ما يحفز إلى سردها بتمامها؛ أخذًا للعبرة، ثم للرد الضمني على كل مارق لا يؤمن بالمعجزات التي أيد الله بها رسوله، وجعلها علمًا من أعلام نبوته، وبرهانًا واضحًا على صدق رسالته.

وقصة عدي بن[١] حاتم في إسلامه وقدومه على رسول الله ﷺ: في أن أختًا له أسرت في الفتح الإسلامي؛ إذ وطئت جيوش الإسلام قبائل طي غازية، وجيء بها في الأسرى إلى المدينة، فمنّ عليها رسول الله ﷺ، وكساها، وأعطاها نفقة وما فيه بلاغ إلى حيث تريد من أهلها، وحملها مع جماعة ممن تمتُّ إليهم بصلة، أو لهم مع قومها وشائج، فقدمت على أخيها عدي بالشام، وقد لاذ بالفرار، حيث امتد رواق الغزو الإسلامي؛ مستثقلًا التبعية للدين الجديد، والانصياع لرسول الإسلام ﷺ، وهو أي: عدى. في قومه السيد المطاع، له فيهم ما للسادة والزعماء في أقوامهم من الطاعة وبذل الولاء.

ونستمع إلى عدي في تصوير واقعه بقوله: ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرءًا شريفًا، وكنت نصرانيًا، وكنت أسير في قومي بالمرباع[٢] فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكًا في قومي لما يصنع بي، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته.

وانطلق عدي يحكي واقع هربه والتحاقه بالشام إلى أن جاء دور أخته وقدومها عليه عاتبة لائمة بعد المنّ عليها وإكرام الرسول لجانبها ورعاية أمرها.

---

(١) سقط «عدي بن» من الأصل.

(٢) المرباع - كان من عادة العرب في الجاهلية إذا غنموا يعطوا الرئيس ربع الغنيمة، ويسمى المرباع والربع، وهو إيماء إلى رئاسة الرؤساء. قلت: انظر النهاية لابن الأثير ٢/ ١٨٦.

ودار الحديث بينها وبين عدي[١] في أمر الرسول ﷺ وما يجب أن يلتزمه عدي حياله بعد أن دانت له العرب واحتضن الناس دينه، وبعد أن أطاح بالزعماء ممن كان حربًا عليه.

يقول عدي: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ وقد محضته أخته النصح بثاقب عقلها وسديد رأيها، فلقد رأت عن كثب، وهي تحاور الرسول للمنّ عليها في الأيام التي أقامتها بالمدينة، رأت صولة ودولة للإسلام وإذعانًا كاملًا شاملًا لسيد الأنام ﷺ من أصحابه، فأدركت أن له شأنًا لن يغلب فيه، وأن له أمرًا سوف يتم، وأن ورمت[٢] لتمامه أنوف، وأن له دينًا؛ الرشد في مسألته ومصانعته إن لم يسبق المرء إليه.

أجابته بقولها جازمة عازمة: أرى والله أن تلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيًا فللسبق إليه فضيلة، وإن يكن ملكًا فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت، وأزمع عدي الرحيل ولمّ شعثه، وقال: والله هذا الرأي، وزم[٣] المطي إلى المدينة، ودخل[٤] على الرسول الرحيم الكريم في مسجده، وهو بين أصحابه، لم ير عليه أبهة الملوك، أو كبرياء السادة، وتعالي العظماء، بل وجده بين أصحابه كفرد منهم؛ يحيطون به كالهالة إذ تحيط بالقمر فيشع ويضفي عليهم من روائه وبهائه.

وسلم عدي على الرسول الكريم، وكأنه وقع في نفسه أن لهذا الطارق شأنًا، فاستعلم عنه قائلًا: «من الرجل»؟ يقول عدي: فأعلمته. أي: كشف له عن حقيقته دون تهيب من بأس، أو تخوف من حيف ونقمة، فانطلق بي إلى بيته،

---

(١) في الأصل: «حاتم».

(٢) يقال: ورَّم بأنفه توريمًا: شمخ، وتكبر. القاموس المحيط: (ورم).

(٣) زمَّ: زمًّا، تقدم في السير. المعجم الوسيط: (ز م م).

(٤) أخرجه أحمد (٤/٣٧٨- ٣٧٩)، والترمذي (٢٩٥٣) من حديث عدي رضي الله عنه. وحسنه الألباني.

فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلًا، فكلمته في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك - رضي الله عن عدي- لقد استنتج من وقفة الرسول العظيم للمرأة وتواضعه لها أنه ليس بملك، وليت شعري، ماذا عسى أن يحكم به لو رأى في أعقاب الزمن الموظف الصغير التافه يحتشد الجمع من أرباب المصالح على مكتبه، وفيهم من يفضله علمًا وفضلًا وخلقًا ودينًا، فيصعر لهم خده كبرًا وتعاليًا، ولا يكاد يقضي حاجة ما إلا متأففًا متبرمًا.

قال عدي: ثم مضي بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفًا فقدمها إليَّ وقال: «اجلس على هذه». فقلت: بل أنت فاجلس عليها. وانتهى الأمر باستجابة عدي لكرامة الرسول له، وجلس الرسول على الأرض.

وكانت هذه المكرمة مما ركز في نفس عدي الحكم بأن دعوة الرسول ﷺ لم تكن طلبًا لملك يسود به الناس، بل إنها النبوة والرسالة التي يصطفي لها رب العزة من يشاء من عباده: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤]، وتجيش في نفس عدي هذه الخاطرة ويقول: والله ما هذا بملك.

ثم جاءت الثالثة فذهل لها عدي، وأيقن تمام اليقين أنه أمام رجل مؤتى؛ لا ينطق عن الهوى، بل هو على أثارة من علم ودراية بأخبار الماضين ومناهج الفارطين، واستولت على عدي الدهشة؛ إذ كاشفه الرسول ﷺ بما لم يكن يتوقع أن يتطرق إليه، واستقبله الرسول بالحديث يسرد واقعًا لا مجال لإنكاره، يقول رسول الله ﷺ[١]: «إيهٍ يا عدي بن حاتم، ألم تك ركوسيًا[٢]؟» قال

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٧٨). وانظر الضعيفة تحت حديث (٦٤٨٨).

(٢) الركوسية: قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين. انظر غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٨٧، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ٢٥٩.

عدي : قلت : بلى . قال الرسول : « أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ » قال : بلى قال : « فإن ذلك لم يكن يحل في دينك » . قال : قلت : أجل . واللّٰه لقد عرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل .

وفي غمرة الحديث يتساءل الرسول الكريم موجهًا تساؤله إلى عدي عما لعله أن يكون قد حمله على الإحجام عن الدخول فيما دخل فيه الناس والانضمام إلى جماعة المسلمين ، ثم يعقب التساؤل بإجابات حازمة مؤكدة بالقسم تشف عن أنضر مستقبل للأمة الإسلامية ، تبلغ فيه أوج العز ، وذروة المجد ، وتصل إلى منتهي ما يصبو إليه الطامحون في دنيا الناس ؛ لكي يصبحوا نجومًا متألقة ، بل شموسًا تهب الضياء والإشعاع والحيوية المتدفقة في كل مجالات الحياة ، ويتجه رسول اللّٰه ﷺ إلى عدي بقوله : « لعلك يا عدي ، إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم »- أي جماعة المسلمين إبان الدعوة الإسلامية- « فواللّٰه ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه » . ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، « فواللّٰه ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت » أي بيت اللّٰه- حاجة أو معتمرة - « ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وايم اللّٰه ، ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » .

تستوقفنا هذه الإجابات الجازمة المؤكدة ، والإخبار عن غيب يقع في المستقبل لنتساءل بدورنا :

أولًا : هل كشف للرسول حجب الغيب فحدث بما يقع في المستقبل ، وكأنه يراه عيانًا ؟ وكيف يتفق ذلك مع ما ورد من الآيات والأحاديث في قصر علم الغيب على اللّٰه ، وأنه من دلائل ربوبيته ؟ .

ثانيًا : هل وقع مصداق ما أخبر به الرسول ، أم هو من أعلام الساعة يقع بين يديها ؟

والجواب على ذلك : أنه لا تعارض بين قصر علم الغيب على اللَّه ، وكون الرسول يعلم من ذلك ما أطلعه اللَّه عليه ؛ تأييدًا لنبوته ، وتصديقًا لرسالته ، ومعجزة خارقة له ، كما قال تعالى : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦]

قال البغوي[١] في تفسيرها : إلا من يصطفيه لرسالته فيظهره على ما يشاء من الغيب ؛ لأنه يستدل على نبوته بالآية المعجزة بأن يخبر عن الغيب . أهـ . ولقد صح في السنة من أمثال هذه الأخبار بالغيب فيض حسب المناسبات والظروف ووقائع الأحوال ، وذلك ما لا يجحده إلا مكابر متشكك في دينه ضل عن سواء السبيل ، ولن يتسع المقام لسرد ألوان من معجزات خير الورى وأعلام نبوته ، وليس هذا من مقاصد بحثنا ، فإن له مجالًا آخر .

أما الجواب على السؤال الثاني ، فإنا نجد في قول عدي نفسه صاحب القصة ما يشعر بوقوع بعضه مصداقًا لقول الرسول الكريم ﷺ ، يقول عدي رضي اللَّه عنه تعليقًا وتثبيتًا وحكاية لواقع ما حدّث به الرسول الكريم ، فقد امتد به الأجل وحضر من الفتوحات الإسلامية ما أطاح بعروش الأكاسرة ، فقال : قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، وواللَّه لتكونن ؛ قد رأيت القصور من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وايم اللَّه ، لتكونن الثالثة ليفيض هذا المال حتى لا يوجد من يأخذه[٢] .

وهذه الثالثة تقع بين يدي الساعة ، كما جاء في حديث أبي هريرة الذي

---

(١) تفسير البغوي (٨/٢٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٩٥) من حديث عدي ، بنحوه .

أخرجه البخاري[١]، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان؛ تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج- وهو القتل- وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم[٢] رب المال من يقبل صدقته». الحديث.

وقد انتهي مجلس عدي من الرسول ﷺ بإسلامه واقتناعه بأن دين الإسلام خير من دين الركوسية الذي كان عليه، بل ومن سائر الأديان.

فهو الدين الذي ليس فيه لاهوتية لمخلوق، ولا يتخذ الناس فيه بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٤]

ويذكر ابن كثير[٣] رحمه الله في قصة وفادة عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ وإسلامه، رواية عند تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التّوبَة: الآية ٣١] يذكر رواية عن الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير[٤] من طرق، عن عدي بن حاتم

---

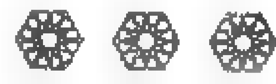
(١) أخرجه البخاري (١٠٣٦، ٣٦٠٩، ٧١٢١)، ومسلم ٢٢١٣/٤ (١٥٧/١٧).

(٢) قال النووي في شرح مسلم (٩٧/٧): ضبطوه بوجهين؛ أجودهما وأشهرهما: «يُهِمَّ» بضم الياء وكسر الهاء، ويكون «ربَّ المال» منصوبًا مفعولًا، والفاعل «من»، وتقديره: يحزنه ويهتم له. والثاني: «يَهُمَّ» بفتح الياء وضم الهاء ويكون «ربُّ المال» مرفوعًا فاعلًا، وتقديره: يَهُمُّ ربُّ المال من يقبل صدقته» أي: يقصده؛ مِن همَّ به: إذا قصده. وانظر فتح الباري (٢٨٢/٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٤٨/٢).

(٤) أخرجه أحمد (٣٧٨/٤)، والترمذي (٣٠٩٥)، وابن جرير (٢١٠/١٤)، وحسنه الألباني.

رضي اللَّه عنه : أنه لما بلغته دعوة رسول اللَّه ﷺ فرَّ إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منّ رسول اللَّه ﷺ على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها ورغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول اللَّه ﷺ ، فقدم عدي المدينة وكان رئيسًا في قومه (طي) وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول اللَّه ﷺ وفي عنقه صليب من فضة ، ورسول اللَّه ﷺ يقرأ هذه الآية : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَة: الآية ٣١] قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ؛ فتلك عبادتهم إياهم » . ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « يا عدي ما تقول ؟ أيضرك أن يقال : اللَّه أكبر ؟ فهل تعلم شيئًا أكبر من اللَّه ؟ ما يضرك أن يقال : لا إله إلا اللَّه ؟ » .



في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة[١]

في سلسلة الوفود التي قدمت على رسول اللّه ﷺ معطية الطاعة، مذعنة للإسلام، إذ أشرق بإشعاعه قلوبهم .

وفد (تجيب) : من قبيلة كندة، قدموا عليه مرجعه من غزوة تبوك وهم ثلاثة عشر رجلًا، وكم كان[٢] في وفدهم من أمثلة رفيعة رسمها للأمة في الاستقامة وكمال الإذعان والعفة والكرم النفسي، حتى قال الصديق أبو بكر رضي اللّه عنه : يا رسول اللّه، ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي .

وهي شهادة حق من صديق لا يتهم برمي الناس[٢] جزافًا، أو يكون له هوى في مدحه، وكم كان لرسول الهدى ﷺ مع هذا الوفد من مواقف اللين[٢] والرحمة والعطف والشفقة وحسن الوفادة، مما أخذ بمجامع قلوبهم، وازدادوا به إيمانًا ويقينًا على يقينهم، وأن رسول الهدى ﷺ ما هو إلا المنقذ لهم بهداية اللّه من الضلالة، المبصر من العمى والجهالة؛ مصداقًا للآية الكريمة : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] .

كان مقدم هذا الوفد كما أسلفنا مرجع رسول اللّه ﷺ من غزوة تبوك- أي في سنة تسع من الهجرة- واستاقوا بين أيديهم زكاة أموالهم؛ إذ كان قد سبق منهم الإسلام، والتزموا أحكام الدين، وأرادوا أن يعطوا البرهان على ذلك بدفع زكاة الأموال إلى رسول اللّه ﷺ؛ ليباركها، ويصلي عليهم من أجلها، كما كانت عادته ﷺ كلما جاءه أحد بصدقة بارك ودعا له؛ تنفيذًا لأمر اللّه حيث يقول : ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: الآية ١٠٣] .

---

(١) مجلة الحج ٨٣هـ .

(٢) غير واضحة بالأصل، ولعل المثبت هو الصواب .

وقد أبدى الرسول الكريم للوفد ارتياحه لصنيعهم، وما لمسه منهم من الرغبة في الإسلام، والتزام أحكامه، فأكرم نزلهم، وأحسن وفادتهم، وكان موقفه من عرض صدقاتهم عليه حين بادؤه بقولهم: سقنا إليك يا رسول اللّٰه حق اللّٰه في أموالنا. كان موقفه من ذلك موقف المشرع الذي يقرر الواجب الديني ويضع الحق في نصابه، فأجابهم بقوله: «ردوها فاقسموها على فقرائكم»[(١)].

ذلك أن الزكاة عامل من أقوى العوامل لحفظ التوازن بين الأغنياء والفقراء؛ يدفع عن المزكي رذيلة الشح ويقضي على الشحناء والبغضاء في قلوب الفقراء.

فهو التخطيط الإسلامي الذي ...[(٢)] التكافل بين أفراد المجتمع، وزكاة كل بلد تدفع إلى فقرائهم، فإذا كان ثمة فائض عن حاجة فقراء البلد بعث بالفائض إلى بيت المال؛ لينفق على المستحقين من فقراء الجماعة الإسلامية؛ ليعم الرخاء فلا يبقى جائع بين ممتلئين، ولا عارٍ بين مكتسين، فلو طبق هذا المبدأ الإسلامي في ربوع الإسلام لسعدت الأمة وانتعشت، وساد بين أفرادها الود والتآلف والترابط، وكانت في غنى عن القروض الربوية والفوائد البنكية المحرمة التي كانت قاصمة الظهر، وهي عين ربا الجاهلية الذي توعد اللّٰه متعاطيه بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٩]، ولأصبح المجتمع الإسلامي في منجاة عن المبادئ الهدامة التي غزته، فقطعت الأواصر وحملت على ركوب الشطط ومزقت الشمل، روي مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وموقوفًا على الإمام علي رضي اللّٰه عنه وكرم وجهه: أن اللّٰه فرض على المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم. أي: يحتاج إليه الفقراء مما يكون به قوام معاشهم واستقامة دينهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣٢٣/١) عن أبي الحويرث. وفي سنده الواقدي.

(٢) غير واضحة بالأصل.

بما يصنع بهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حسابًا شديدًا ويعذبهم عذابًا أليمًا .

لم يخيب رسول الهدى نفوس الوفد إذ أبوا أن يرجعوا ...[١] من زكاة أموالهم ليردوه على فقرائهم بقوله : « إن الهدى بيد الله عز وجل فمن أراد به خيرًا شرح صدره للإيمان »[٢] . أي : وهذا الوفد وفد تجيب ممن خالط الإيمان قلبه ، فكان ذلك كسبًا لهم ، يا له من كسب دفعهم إلى ذلك ؛ رجاء ما عند الله ، وإنفاق الزكاة المفروضة عليهم ، طيبة لها نفوسهم ، لم يجاملوا فيها أو يحابوا فقراءهم بأموالهم بما هو فوق حاجتهم ، بل رغبوا أن يمتد إسهامهم ...[١] إلى أبعد مدى في المجموعة فكان لهم ما أرادوا ، فألان الرسول الكريم قلوبهم ، وأطمعهم أن يكونوا في جملة من أراد الله به الخير فشرح صدره بالإيمان وأعطى على ذلك صادق البرهان .

لم يكتف هذا الوفد بهذا البرهان الواضح على صدق الإذعان ، بل أخذوا يتلمسون وجوه الخير ويسألون الرسول عن القرآن والسنن ؛ طلبًا للتفقه في الدين ، والرجوع إلى قومهم بأضخم رصيد علمي يحرزون به سعادة الأبد ، ويخوضون غمار الحياة بعقل ودين ، وذلك فعل أولى البصائر أرباب النهى الذين يقصرون مجالاتهم ويكرسون جهودهم لما فيه نفع مزدوج للدين والدنيا للفلاح والنجاح في الآخرة والأولى .

وسُرَّ رسول الله ﷺ من رغبة القوم في الخير وتطلعهم للتفقه في الدين ، وازداد بهم رغبة ، وزادهم صلة فأمر بلالًا أن ...[١] عليهم في الضيافة ما أقاموا ، ولكنهم كانوا خفيفي الظل فلم يطيلوا اللبث بجوار الرسول الكريم وفي عاصمة الإسلام ، وكان استعجالهم للرحيل مثار غرابة من الصحابة في الجوار الكريم

(١) غير واضحة بالأصل .

(٢) انظر عيون الأثر ٢/ ٣٠١.

والتملي من رؤية الحبيب الهادي والظفر بإرشاداته وتقويماته ؛ كسب يجب أن لا يحول دونه أي غرض من الأغراض ، مهما كان وجيهًا ومعقولًا ، فقيل لهم : لم ذلك ؟ وكان الجواب من الوفد سديدًا رشيدًا ، إذ دل على عمق في التفكير ، قالوا : نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم رؤيتنا للرسول ﷺ وكلامنا إياه ، وما رد علينا . وكان موقف توديعهم للرسول الكريم مؤثرًا يتجلى فيه كرم الرسول وحدبه[1] عليهم ورعايته لجانبهم ، وتفقده لكل فرد منهم ، فأرسل إليهم بلالًا رضي اللّٰه عنه ليجيزهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود ، وهو تقدير من رسول كريم .

ثم تعطف وسألهم بعد إجازتهم : « هل بقي منكم أحد ؟ » - أي : لم يشمله العطاء ، أو يتزود بالرفد والجائزة ؟ فقالوا : نعم ؛ غلام خلفناه على رحالنا ، وهو أحدثنا سنًا - وكأنهم بذلك إنما يوضعون من شأنه - ولكن الرسول الكريم لم يرد أن يشقى أحد من القوم بالحرمان من نواله ، أو عدم مكاشفته بأنواره ، فأمر باستدعاء الغلام ، وإذا به آية في الذكاء وبعد النظر والطموح إلى أبعد غاية وأنبل مقصد ، وأضخم جائزة تحمد عقباها ، وأعظم كسب يكون له به عز الدنيا والفلاح في العقبى .

وإنه لدرس للشباب الطموح الصالح المتدين الراشد العزوف عن بهرج الحياة وزخرفها اللامع الأخاذ .

بدأ الغلام حديثه مع الرسول الكريم بالتعريف بشأنه ، ثم ثنى بالغرض الذي أقدمه ، مع قومه والحاجة التي يأمل أن يفوز بقضائها ، وقد حظى بالوسيلة الصالحة التي تحقق رغبته وتمكنه من الظفر بأمله ؛ ألا وهي الإيمان باللّٰه

(١) حَدِب عليه يحدب : إذا عطف ، ويقال : تحدَّب عليه . أي : تعطف عليه . « التاج » : (حدب) .

ورسوله ، والعمل الصالح الذي يرضي الله عنه ، وفي طليعته سعيه الحثيث للوفادة مع قومه على الرسول الكريم ، والاهتداء بهديه ، وكان موقف الرسول من مطالب الشاب وأغراضه ، إذ لمس منه صدق اللهجة في حديثه ، وتصور مدى ما يخامر نفسه من مخاوف لو نوقش الحساب على الفارط[١] من أمره في معاده كما أدرك عزوفه عن المادة وعن تنافس المتنافسين فيها ، وكان موقفه منه موقف الرءوف الرحيم العطوف المشفق الحاني ؛ حيث استجاب لرغبته ، وقضى حاجته ، فكان أوفر حظًّا ، وأطيب نفسًا ، وأهدأ بالًا ، وأكثر أمنًا على مستقبل حياته في عاجلته وآخرته ، يقول الغلام موجهًا خطابه إلى الرسول العظيم ﷺ : يا رسول الله ، إني امرؤ من بني أبذى - يشير إلى الرهط الذين وفد معهم على المصطفى - فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتي يا رسول الله - فقال له الرسول مهتمًا بأمره : « وما حاجتك ؟ » .

قال : إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي ، وإن كانوا قدموا راغبين في الإسلام ، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم ، وإني والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ، وأن يجعل غناي في قلبي .

إنه ثالوث السعادة ، تفرد بطلبه الغلام دون سائر الوافدين من قومه ، وإنها لفرصة ثمينة اهتبلها قد لا يجود الزمن بمثلها ، أو لم يكن ذلك آية رجحان عقله وسداد رأيه ؟[٢]

ليت في شباب العصر ، بل ليت في الناس جميعًا ، من يحتذي حذو هذا الغلام الراشد الصالح التقي فيقبل على الله مستقيمًا في نهجه ، ملتمسًا النجاة والغفران لزلته ، وأن يغدق الله عليه من واسع رحمته ، فالسعيد من غفر له مولاه

---

(١) الفارط : السابق المتقدم . المعجم الوسيط (فرط) .

(٢) انظر الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الحلفاء لأبي الربيع الكلاعي ٢/ ٢٦٩، وزاد المعاد ٣/ ٦٥١.

الزلة ، وأسبغ عليه الرحمة ، وجعل غناه في قلبه ؛ بعيدًا عن التطلع إلى ما يتطلع إليه البعض من زهرة الحياة الدنيا ، والتنافس فيها ، وعمارتها بخراب الآخرة ، والإفلاس من الدين ، إذن لسعدت المجتمعات الإسلامية بالمثالية في المنزع والحلقة المفقودة في دنيا الناس .

وأقبل الرسول الكريم على الشاب يهون عليه أمره وينزع ما أقضَّ مضجعه من المخاوف بدعوات كانت هي البلسم الناجح لعلاج نفسيته وإفساح باب الأمل أمامه ، أقبل الرسول على الشاب رافعًا يديه إلى السماء قائلًا : « اللهم اغفر له وارحمه ، واجعل غناه في قلبه »[١] .

ثم أمده بصلته ، وأمر له بمثل ما أمر لرجل من أصحابه ، فتمت له الفرحة بجائزتين مزدوجتين ؛ جائزة روحية اختص بها ، عاش بها قرير العين في حياته ، وجائزة مادية كان له بها الإمتاع ؛ إذ أصلح بها بعض شأنه .

وكان من أمر الغلام بعد ذلك أن أخذ يقطع أشواط الحياة في اتزان راشد ، ومسلك هو الزهادة في أرفع ذراها ، فقد استجاب اللَّه دعاء رسوله فيه ، وكان من أشد الناس قناعة وغنى بما تحت يده مما أفاء اللَّه به عليه .

ذكر الإمام ابن القيم في كتابه « زاد المعاد »[٢] : أن قوم هذا الفتى وافوا رسول اللَّه ﷺ في موسم الحج بمنى عام حجة الوداع وعرفوه بأنفسهم قائلين : نحن بنو أبذى ، فأول ما استعلم منهم عن أمر الغلام قائلًا : « ما فعل الغلام ؟ » قالوا : يا رسول اللَّه ، ما رأينا مثله قط ، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه اللَّه ، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها . فسر رسول اللَّه ﷺ من حديثهم عنه ، وحمد اللَّه ، وقال : « إني لأرجو أن يموت جميعا »

---

(١) أخرجه ابن سعد ١/ ٣٢٣. وقد تقدم .

(٢) زاد المعاد ٣/ ٦٥١.

وهي دعوة كريمة لها أثرها في مستقبل حياة العبد، عندما يجتاز دور الاختبار في هذه الدنيا، فالمستقبل غيب لا يعلمه غير علام الغيوب، ودور الأخذ في هذه الدار يمر فيه العبد بمراحل قد تتعثر فيها خطاه، وقد يندفع فيها مع هواه فيفوت على نفسه فرصة المواصلة، وقد ينقطع به حبل السير فلا يصل إلى الغاية، ومصدر ذلك ما جاء في الحديث النبوي الشريف: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليها الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[١].

وفي دعاء الرسول للغلام بشارة بحسن العاقبة ...[٢] قد طلب الرسول من ربه للغلام أن يجمع أمره ...[٢] مرحلة حياته دون أن تتشعب به الأهواء فيفسد عليه ماضيه، أو تجتمع عليه الهموم فتفقده صبره على البلاء وتذهب ثقته بربه - وإيضاح ذلك في التفسير النبوي لهذا الدعاء الكريم؛ حين سأله أحد القوم في دهشة واستغراب: أو ليس يموت الرجل جميعا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «تتشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية فلا يبالي الله في أيها هلك».

وخاتمة المطاف، ونهاية قصة الغلام، وأثر دعوة الرسول ﷺ له، يحدثنا عنه أحد رواه القصة، فقال: فعاش ذلك الغلام معنا على أفضل حال، وأزهده في الدنيا، وأقنعه بما رزق. فلما توفي رسول الله ﷺ ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام في قومه فذكرهم بالله والإسلام فلم يرجع منهم أحد، أي: عن الإسلام، وجعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه يذكره ويسأل عنه في هذه الفتنة

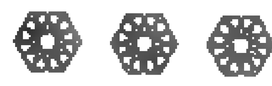
---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل.

العمياء؛ فتنة الردة عن الإسلام، حتى بلغه حاله وما قام به من صدق الدعوة والثبات على الإسلام، وكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيرًا.

وإنها لأمثال رفيعة ضربها هذا الوفد، بما فيهم الغلام الراشد، أروع الأمثال، وإنها لمواقف كريمة لرسول الهدى مع أفراد هذه الوفد كشفت له عن حقيقة الإسلام، وأنه هو الخالد ورسول السلام، وأنه العلم الخفاق الذي يرفرف على الأمة فينشر الرحمة ويدعو إلى دار السلام.



في السيرة النبوية:

مواقف حاسمة(١)

بعد أن أدلينا بدلونا وأسهمنا بقسطنا في التحدث عن المناسبات السعيدة التي أظلت العالم الإسلامي؛ مناسبة إشراق شمس رمضان، ثم مناسبة عيد الفطر المبارك، نعود فنستأنف بحثنا في تسجيل المواقف الحاسمة لخير الورى ﷺ.

ولقد كان آخر ما سجلناه فيها موقفه ﷺ من عدي بن حاتم، وحزمه في دعوته إلى الإسلام، وإقناعه بالانضواء إلى حزب اللّٰه.

ونعرض اليوم لموقفه ﷺ مع الطفيل بن عمرو الدوسي، وما كان من إسلامه عن يقين وإقناع، ثم ما كان من ثقة الرسول الكريم وعهده إليه بدعوة قومه إلى الإسلام، ودعائه اللّٰه أن يجعل للطفيل آية تكون عونًا له على الاضطلاع بأعباء الدعوة وتصديق قوله له، كل ذلك مما نحاول التحدث عنه في السطور التالية؛ إبرازًا للمواقف النبوية فيه.

لقد عرف الطفيل في قومه برفعة النسب، وكرم المحتد، وللشاعرية الملهمة، والحذق في تصوير الأمور، والصدق في التقدير. وكل أولئك ما يضفي على الشخصية الجلال والمهابة، ويرتفع بها في دنيا الناس عن مستوى الأقزام.

وقصة الطفيل بن عمرو الدوسي(٢) وقدومه على رسول اللّٰه ﷺ في وفد دوس عام خيبر، تمتد أصولها إلى مستهل عهد الدعوة الإسلامية، حين قدم الطفيل مكة، والسلب بين قريش ورسول اللّٰه ﷺ على أشده، وقد تراكضت أمام قريش صورة إسلام الطفيل، وخشيت مغبته، فلعبت دورها للحيلولة بين الطفيل ورسول اللّٰه ﷺ؛ خشية أن يقع ما تحذره.

---

(١) مجلة الحج ١٣٨٣هـ.

(٢) انظر قصته في: طبقات ابن سعد (٢٣٧/٤)، وسيرة ابن هشام (٣٨٢/١)، والاستيعاب (٧٥٧/٢)، وسير أعلام النبلاء (٣٤٤/١).

تقول المصادر التاريخية : إن قريشًا مشت إلى الطفيل في رهط من زعمائها ؛ إذ قدم مكة قائلة : إنك قدمت بلادنا ، وإن هذا الرجل الذي بين أظهرنا فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وإنا نخشي عليك وعلي قومك ما قد حل بنا ، فلا تكلمه ، ولا تسمع منه .

وقد عمل هذا التحذير والتشهير عمله في نفس الطفيل ، وأخذ به كنصيحة مخلصة صادقة ، وقال يحكي واقعه : ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ، ولا أكلمه ، بل لقد بالغ في النفرة ، وحاذر في الوصلة ، وباعد عن مظانّ اللقاء ، حتى وضع في أذنيه كرسفًا عندما قصد المسجد للطواف والتعظيم فرَقًا[١] أن يبلغها شيء من السحر المزعوم ، والهجر المشئوم ، على زعم قريش ، وما هو بالسحر ولا الهجر ، ولكنه إشراق نور الهداية يعشي الأعين الكليئة ، ويهدي اللَّه إليه من يشرح صدره للإسلام ، فلا يحجبه عنه أفن المأفونين ، الذين يصدون عن سبيل اللَّه ويبغونها عوجًا وهم بالآخرة كافرون . وذلك ما حدث للطفيل ، رغم كل المحاولات لصده عن رسول اللَّه ﷺ ، والحيلولة بينه وبين إشعاع نور الحق .

لقد دار بخلده أن يقترب من موضع الحذر ، فلعل في القرب منه مأمن ، وجال في نفسه أنه لم يكن يومًا من الأغمار الذين لا يحتكمون إلى منطق ، ولا يميزون غثًا من سمين ، ولم يكن إمعة يقلد الناس في رأيهم ، ويندفع لرغباتهم دون وعي أو تقدير ، فعلام إذن الحذر ، وعلام الإمعان في التهرب عن الواقع ، ودفعه حب الاستطلاع ، وما يعتد به في نفسه من أصالة في الرأي ، وحلق في الدرس ، وتشوف إلى الحقيقة للاندفاع نحو الرسول الكريم في المسجد على حذر .

(١) أي : خوفًا . وانظر القاموس المحيط ، والمعجم الوسيط : (فرق) .

يقول وهو يصور ما يعتمل في نفسه إزاء الخطوة الجريئة التي أقدم عليها: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول اللّه ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريبًا منه، فأبى اللّه إلا أن يسمعنى بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: واثكلا أمتاه، واللّه إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسنًا قبلت، وإن كان قبيحًا تركت.

وذلك شأن اللبيب الحصيف لا يقتل مواهبه، بل ينتفع بها فيما خلقت له، وخاصة موهبة العقل، أعظم موهبة ترسم بهداية اللّه للعبد سواء السبيل، وتهديه إلى الأمثل والأفضل من المسالك، وتباعد بينه وبين الخطل والزلل في المذهب، وعلى العكس منه...[1] المقلد لغيره، عطل عقله وأحجم عن الانتفاع به، ...[1] الذيل ومني بالتبعية الفاشلة، التي ذمهم اللّه ...[1] وندد بانحرافهم، إذ يقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٠].

وفي مقام آخر يستعرض فيه القرآن سنن المقلدين على غير هدى مع الإصرار والإمعان في أخذ التبعية المضللة ونبذ إشراق الحق: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

يتابع الطفيل سرد واقعه، ويقول: فمكثت حتى انصرف رسول اللّه ﷺ من المسجد إلى بيته فتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فواللّه ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

بكرسف ؛ لئلا أسمع قولك ، ثم أبى اللَّه إلا أن يسمعنيه ، فسمعت قولًا حسنًا ، فأعرض عليّ أمرك .

ولم يكن موقف الرسول الكريم منه موقف قومه ، إذ نالوا منه ، ومقتوا دعوته ، وتجنوا عليه ، بل كان موقفه موقف الرسول الأمين والسيد الكريم ، الرسول الأمين على رسالته التي كرَّس جهوده ووقف حياته لأدائها على الوجه الأتم وتبليغ الأمانة ، فرسالته عامة لإسعاد البشرية وإنقاذها من ذل العبودية والارتفاع بالأمة إلى ربط أسبابها بقوة قادرة مهيمنة مبدعة للكون على غير مثال ، وهي رسالة عادلة لا يمتري فيها إلا مدخول الرأي ، متعصب لهوى .

والسيد الكريم العظيم الذي لا تستثيره الشناشن من حوله ، أو الدعايات المغرضة تنال من حماه ، فهو كالشمس تهب الضياء ، ولا يضيرها لكائف السحب من حولها تحجب الإشعاع .

أبلغ الرسول الكريم ﷺ للطفيل دعوة الإسلام في يسرها وسماحتها وإشراق حجبها ، ووضوح اتجاهاتها ومنطقية براهينها ، تجمع لمحتضنها بين عز الدنيا وسلامة الدين . وهي كما قال عنها الرسول لقومه حظ من يحتضنها في الدنيا والآخرة ، ...(١) أي نصيبه الذي يحرز به سعادة الدارين .

وقرأ الرسول الكريم على الطفيل من القرآن ما يوحي برسالته ؛ ويستفز الشعور للاستجابة لدعوته ، قرأ عليه من آي الكتاب العزيز ما قرع أسماع خصومه المرة تلو الأخرى ، فكان شظى في حلوقهم ، كقوله تعالى : ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشورى: ١-٩].

واستمع الطفيل إلى آي الكتاب العزيز، ووازن بين ما عرضه عليه الرسول الأمين من دعوة الحق، وبين ما هو عليه من الشرك، ثم أعلنها مدوية مقررًا بها الواقع قائلًا: فلا والله ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق.

وأشرقت نفسه بالإسلام فأنار له السبيل، وكان من أثر إشعاعه في جوانب نفسه واعتمالها به، أن رغب إلى الرسول الأمين في إشاعة الخير بين قومه ودعوتهم إلى الإسلام، إذ كان سيدًا مطاعًا فيهم؛ لا يخرجون عن رأيه أو يتهمونه، غير أنه مع تضافر الأدلة لديه على استجابتهم له طلب من الرسول الكريم أن يكون له آية توجه أنظار قومه إلى ما يدعوهم إليه، وتحملهم على عدم التردد والتحفظ في قبوله، ذلك أن العقيدة قد ارتضعها الطفل بلبان أمه، وشب عليها، وشاب بين طقوسها - أيًا كانت - سليمة الأهداف أو مهلهلة، لا ترتكز على منطق، فمن الصعوبة بمكان هدمها وتحويل القلوب عنها والتنصل من تبعاتها؛ لذا كان من حصافة عقل الطفيل أن يتقدم إلى الرسول الكريم قائلًا: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون عونًا لي عليهم فيما أدعوهم إليه.

ولبى الرسول الكريم الطلب غير ممانع، ودعا الله تعالى على الفور أن يجعل للطفيل آية لم يعين وضعها أو يحدد وقعها، أو يصور للطفيل مدى تأثيرها في القوم، وإنما كان موقفه منه موقف عطف وإشفاق ورعاية وتدعيم لغرضه ووصول

به إلى غايته في إشاعة الإسلام بين قومه وحملهم عليه ، والأمر لله من قبل ومن بعد ؛ أمر الهداية وشرح الصدور لنور الحق ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: الآية ٥٦] ، وكانت الآية التي وهبها الله للطفيل نورًا يشع بين عينيه ، يوجه نظر الرائي إليه ؛ فيوقن أن وراء هذا النور سرًا مكنونًا ، وأنه خارقة من الخوارق ، ولم تكن إلا لذي شأن وصاحب نبأ عظيم .

ويستمر الطفيل في سرد قصته وقدومه على قومه ، ويقول : خرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني عليهم وقع نور بين عيني مثل المصباح فقلت : اللهم في غير وجهي ، فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراق دينهم ، قال : فتحول- أي النور- فوقع في رأس سوطي كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتهم وأصبحت فيهم .

وعالج الطفيل نشر دعوة الإسلام بين الأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته ، فلم يجد كبير عناء في استجابتهم له ، ثم عمم الدعوة بين قومه ؛ فكان يدافعه في ذيوعها واتساع رقعتها ما غلب على القوم من نزوات طائشة استبدت بهم ، وأن في طليعة احتضان الإسلام من مبادئ الإسلام فطم النفوس عن الآثام ، والارتفاع بها إلى مشارف الفضيلة ، كان الطفيل حكيمًا في دعوته بصيرًا في الأسلوب الذي سلكه مع قومه ، فلم يعنف أو يلجأ إلى الغلظة ، أو ينفر ، أو يغلظ في القول ، أو يجابه القوم بما يكرهون ، أو يستنصر بشيعته على المناهضين له ، ولكنه أم الرسول الكريم الرحيم في المدينة يشكو من طغيان فاحشة الزنا بين قومه ، سائلًا الدعاء عليهم ؛ قطعًا لمادة الفساد ، قال : ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام فأبطأوا عليّ ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إنه قد غلبني على دوس الزنا ، فادع الله عليهم .

وكان موقف الرسول ﷺ من مطلب الطفيل عكسيًا، كيف وقد وصفه رب العزة في محكم التنزيل بالرأفة والرحمة، إذ يقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] - أي على هدايتكم للحق - ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨]، ومواقفه الرحيمة الحانية مع قومه رغم تجنيهم عليه ونيلهم منه معلومة مشهورة، فكيف تطيب نفسه بالدعاء على من تلكأ في الاستجابة لدينه، وقد أرسله اللّٰه رحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧].

واستبدل الرسول الرحيم الدعاء على دوس بالدعاء لهم، ثم أمر الطفيل بمعاودة دعوتهم والتلطف والرفق بهم قائلًا: «ارجع إلى قومك، فادعهم إلى اللّٰه، وارفق بهم».

وجاء أثر دعاء الرسول ﷺ لدوس بالهداية ملحوظًا في إذعانهم للإسلام، ووضع يدهم في يد الطفيل، إذ قدم سبعون أو ثمانون بيتًا منهم المدينة عاصمة الإسلام، ورسول اللّٰه ﷺ يغزو خيبر، فلحقوا به مدللين على صدقهم في الإسلام والتزامهم بشروطه وقيوده وحدوده بالجهاد مع الرسول وخوض معركة خيبر إلى جانب جيش الإسلام، ولذلك أسهم لهم رسول اللّٰه ﷺ في الغزو.

أما بعدُ، فإن هذا العرض الشامل لقصة الطفيل وإسلامه ودعوته لقومه، وما كان من الآية الخارقة التي جعلها اللّٰه علمًا لصدقه وعونًا لدعوته، يبدو واضحًا مواقف الرسول الكريم المتجددة المتنوعة، مواقف الحزم والعزم والصرامة، وموقف اللين والشفقة والرحمة، ومواقف الصبر والجلد ومغالبة الشدائد، والتي يرسم بها نهجًا راشدًا للسالكين ومهيعًا لاحبًا للداعين، يبلغهم الهدف ويوصلهم إلى الغاية في خطوات ثابتة دون عثار، ويقرر بها إيصار واقع الإسلام، وأنه دين السلام، لن يشجع على العدوان، بل يطلب للخصوم الهداية التي هي أقوم

سبيلًا، وأسلم عاقبة، وأفضل اتجاهًا.

هذا وإن البحث ليتقاضانا أن نسجل للعلَّامة ابن القيم رحمه اللَّه تعليقًا على هذه القصة؛ قصة إسلام دوس وما كان فيها من أحكام إسلامية، واستنباطات فقهية لا غنى عنها للباحث، يقول -أي: ابن القيم رحمه اللَّه: يؤخذ من القصة[(١)]:

أولًا: أن غسل الإسلام كان عادة قبل الدخول فيه، وقد صح أمر النبي ﷺ به، وأصح الأقوال وجوبه على من أجنب في حال كفره ومن لم يجنب، وذلك أن الطفيل كان يأمر كل من استجاب لدعوته بالغسل.

ثانيًا: لا ينبغي للعاقل تقليد الناس في المدح والذم، ولا سيما تقليد من يمدح بهوى، ويذم بهوى، فكم حال التقليد بين القلوب وبين الهدى، ولم ينج منه إلا من سبقت له من اللَّه الحسنى.

ثالثًا: أن المدد إذا لحق بالجيش قبل انقضاء الحرب أسهم له.

رابعًا: وقوع كرامات الأولياء، وأنها تكون لحاجة في الدين، أو لمنفعة للإسلام والمسلمين، وسببها متابعة الرسول، ونتيجتها إظهار الحق وكسر الباطل، وضدها الأحوال الشيطانية، ونتيجة.

خامسًا: التأني والصبر في الدعوة إلى اللَّه، وأن لا يعجل بالعقوبة والدعاء على العصاة.



(١) زاد المعاد (٣/٦٢٧).

في السيرة النبوية :

مواقف حاسمة(١)

المنّ على العمل صنو الرياء من حيث إنه عامل على إحباط العمل وضياع أثره وحرمان صاحبه من نتائجه وثماره، وأوضح ما يصور ذلك قول اللّٰه سبحانه موجهًا عباده إلى الإخلاص وإطراح المنّ فيما يبذله العبد من خير وبر وصلة للفقراء والبؤساء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٤] أي: أن البر والإحسان المتبوع بالمنّ والأذى للمحسن إليه؛ باطل لا أثر له ولا جزاء، وشبه سبحانه المنان بالخير يبذله بالمرائي الذي يعول على مدح الناس، وحمدهم لبذله، وإنفاقه لا يقصد وجه اللّٰه وثوابه وكريم جزائه، فالمنّ خصلة ذم ونقيصة لا يجمل بمن يضع اللبنات في أوجه الخير أو يستبق ميادين العمل الصالح.

نسوق هذه المقدمة بين يدي بحثنا في تسجيل المواقف الحاسمة لرسول الهدى ﷺ؛ لمناسبة قدوم وفد بني أسد على رسول اللّٰه ﷺ مذعنين للإسلام ممتنين به على سيد الأنام شامخين بأنوفهم؛ لأنهم قدموا على رسول اللّٰه ﷺ بطيب نفس دون أن يبعث لهم؛ كشأنه مع من لم يعط الطاعة من قبائل العرب، ولأنهم لم يقاتلوا الرسول كغيرهم، ولقد كان للرسول ﷺ جملة مواقف حاسمة مع هذا الوفد سوف نأتي عليها تباعًا.

أولاها: موقفه تجاه المنّ عليه بالإسلام، وقد أنزل اللّٰه سبحانه في ذلك قرآنًا يتلى فيه النذارة والتحذير عن هذا الخلق الشائن، وخاصة إذا كان المنّ على أمر ليس فيه للمرء يد، أو يمكن أن يدركه بكسبه، فيجهد النفس للحصول عليه،

(١) مجلة الحج - ١٣٨٣هـ.

كالهداية للإسلام وشرح الصدر فيه ؛ فإن ذلك ليس في مقدور بشر أن يصنعه ، حتى الرسول المبعوث بالهدى ﷺ ، عندما حاول مع عمه أبي طالب في اللحظات الأخيرة من عمره أن يهديه إلى الإسلام ويحمله على أن يستشهد شهادة الحق ، لم يستطيع ذلك ، ومات أبو طالب على دين قومه ، وأنزل الله بصدد ذلك قوله تعالى مخاطبًا أكرم خلقه : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: الآية ٥٦]

فهل يصح بعد هذا البيان الواضح أن يمن أحد بإسلامه ، إنه تجن على الحقيقة والواقع ؛ ولذلك كان موقف الرسول ﷺ من هذا الوفد ومنّه بالإسلام ، موقف الحزم والصرامة .

ولنستعرض القصة أولًا فيما رواه ابن كثير في تفسيره[1] بالسند عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك . فقال رسول الله ﷺ : « إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم » . ونزلت هذه الآية : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: الآية ١٧]

وكذلك كل من يسلك هذا المسلك في المنّ بالعمل الصالح على اختلاف ألوانه يكون قد ارتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه هذا الوفد ؛ لأن التوفيق إلى العمل الصالح والتمكين من ذلك ليس هو من كسب العبد ، بل مرد ذلك إلى الله سبحانه .

وأما ما روي في كتب الأخبار عن هذا الوفد فننقل منه عن ابن القيم رحمه الله في كتابه « زاد المعاد »[2] حيث إنه وهو يستعرض الوفود التي كان لها شرف

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢١٩- ٢٢٠. والحديث أخرجه البزار (٥١٤١) - ومن طريقه الضياء في المختارة (٣٧٤) .

(٢) زاد المعاد ٣/ ٦٥٤.

المثول بين يدي الرسول الكريم للإسلام والإفادة من تعاليمه، قال: وقدم على رسول اللّه ﷺ وفد بني أسد عشرة رهط، فيهم: وابصة بن معبد، وطليحة بن خويلد، ورسول اللّه ﷺ جالس مع أصحابه في المسجد، فقال متكلمهم: يا رسول اللّه، إنا نشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، جئناك يا رسول اللّه، ولم تبعث إلينا بعثًا، ونحن لمن وراءنا.

قال محمد بن كعب القرظي: فأنزل اللّه على رسوله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحُجرات: الآية ١٧]، وإلي هنا ينتهي الموقف الأول لرسول اللّه ﷺ مع هذا الوفد.

وأما مواقفه الأخرى معه، فقد كانت مواقف المعلم ...[(١)] المشفق، وهي في الوقت نفسه من المواقف التي حسم فيها الباطل، وقرر الحق الواجب احتضانه والسير عليه، ونبذ ما سواه من عقائد وتقاليد عرفية أو دينية مأخوذة عن الأسلاف، وقد كان مما سأل عنه الوفد يومئذ العيافة والكهانة وضرب الحصى، أي: يطلبون أن لا يقف الإسلام بينهم وبين تعاطيها؛ إذ كانت من الأمور التي توارثوها كابرًا عن كابر، ولم تبرح النفوس بها ...[(١)] على اعتبار أنها وسائل صحيحة للكشف عن ...[(١)] المحجوب من أمر المستقبل، وذلك في نظرهم أمر ...[(١)] للسير يقف في مضامير الحياة، على ضوء ما توحي به ...[(١)] فوقف رسول الهدى ﷺ من هذه المطالب موقفًا حازمًا صارمًا، ونهاهم عن معالجتها ...[(١)] وعن الأخذ بها واحتضانها كمبدأ؛ إذ إنها تناهض الدين الإسلامي، وهو إناطة علم الغيب بعلام الغيوب، لا يعلمه ...[(١)] ويعلم المخبوء في المستقبل غيره، وأن البحث هنا أن نلقي ضوءًا ونلمع إلماعة إلى الاتجاه الجاهلي ...[(١)] الثالوث.

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

أما العيافة فهي زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وغدواتها وروحاتها، والتشاؤم بميامنها ومياسرها، يعقدون على ذلك الآمال ويتصرفون حسب حركات العجماوات من الطيور والظباء وغيرها فيما أرادوه، وعقدوا العزم عليه من الأمور الحيوية بالنسبة لمصالحهم الدنيوية، كالتجارة، والسفر، وعقد الزواج، وغير ذلك مما يكون به قوام حياتهم، وتتوقف عليه مصالحهم. فالسانح من الطيور والظباء ما ولي الزاجر ميامنه، والبارح ما ولاه مياسره، وما جاء من الأمام فهو الناطح والنطيح، وما جاء من الخلف فهو القاعد والقعيد، وكل ذلك من مذاهب الجاهلية وأوضاعها المتداعية المبنية على الوهم لا الحقيقة، أو الدراسة العلمية الصحيحة، وقد قوض الإسلام بنيانها من أساسه؛ لأن الإسلام دين الفطر السليمة والعقول المستقيمة، لا تقوم تعاليمه وقضاياه إلا على أسس سليمة صحيحة معقولة. لا أثر فيها للوهم، ولا سبيل للتضليل.

وأما الكهانة: فهي لون آخر، ووسيلة لاكتشاف حجب الغيب والتنبؤ بما يكون في المستقبل؛ سواء بالنسبة للمجموع وما لعله أن يكتنفه من متاعب ومصاعب، كالحروب، والأمحال، وخراب الديار، أو العكس: السلم، والراحة ببُلَهْنِية[1] العيش، أو بالنسبة للأفراد وما يصادفهم من توفيق ورخاء، أو العكس ما يمنون به من أزمات وصدمات.

ولقد كان في العرب كهان وعرّافون يقصدون لذلك، أو للتحاكم وفصل الخصومات على اعتبار أنهم ملهمون أو مكاشفون بما وراء سجف الغيب، وتزم[2] إليهم المطايا أيضًا للتعبير عن الرؤي والتعليق على الأحداث، إذ تبدو الظواهر المفاجئة. كما حدث يوم الميلاد النبوي من ارتجاف إيوان كسرى.

(١) البُلَهْنِية: الرخاء وسعة العيش والرفاهية. القاموس المحيط، والمعجم الوسيط: (بلهن).
(٢) زمَّ: زمًّا: تقدم في السير المعجم الوسيط: (ز م م).

وإرساله بعبد المسيح إلى سطيح الكاهن؛ لسؤاله عن هذه الظاهرة، وعن رؤيا الموذبان، وخمود نار فارس، فتكهن له سطيح بقوله: إنه يملك منهم- أي من الفرس- ملوك وملكات على عدد الشرفات الساقطة من القصر، وكما نفست قريش على عبد المطلب- جد النبي ﷺ- حين قام بحفر زمزم، واختص بهذا الأمر دونهم، فاتفقوا على أن يحكموا في حل النزاع كاهنة بني سعد هذيم، وهكذا كان للكهانة والكهان سوق رائجة وصولة ودولة، حتى جاء الإسلام فأبطل التكهن، وأعلنها حربًا عوانًا عليه.



مواقف حاسمة

ما برحنا كلما حانت مناسبة إسلامية نقطع ما وصلناه في سلسلة بحثنا عن تسجيل المواقف الحاسمة في حياة الرسول ﷺ ، إسهامًا فيما يجب الإسهام فيه .

وكان آخر المناسبات السعيدة التي أسهمنا بالكتابة فيها مناسبة الحج إلى بيت اللّه الحرام ، وما يجب له من التصون والتعرف إلى المناسك وما إليه ، ثم مناسبة ذكرى الهجرة النبوية في الشهر الحرام محرم ، وما كان للهجرة من أثر في تحديد الشخصية الإسلامية ، وتكوين رابطة الإسلام ودولة الإسلام .

واليوم نعود إلى وصل ما قطعناه ، وقد كان آخر ما سجلناه من المواقف الحاسمة لرسول الهدي ﷺ موقفه مع الطفيل بن عمرو الدوسي زعيم قومه وقائدهم ورائدهم إلى الإسلام .

ونستأنف اليوم الكتابة عن وفد نصارى نجران ، وما كان لرسول الهدي ﷺ مع هذا الوفد من مواقف انتهت بالمصالحة ، وفرض الجزية عليهم ، وكتابة كتاب لهم ؛ يأمنون به ومن وراءهم ممن أوفدهم من قومهم على الأنفس والأموال والمراكز وعلي بِيعهم وطقوس عبادتهم ، لا يغير عليهم من ذلك شيء .

ومن غريب الصدف أن تقع كتابتنا عن نجران وتأمين الرسول لأهل نجران والإبقاء على ديانتهم ؛ إذ لم يكونوا قد أذعنوا للإسلام . أقول : تقع كتابتنا عن نجران وأهل نجران في هذه الفترة التي لم ترع بعض الدول الإسلامية في أهل نجران إلّا ولا ذمة ، بل تقذفهم بالقنابل المحرقة ، وتشيع فيهم الذعر وتقض مضاجعهم بهدم دورهم وإحراق زروعهم ، وهم إخوة في الدين ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم .

والحديث عن نصارى نجران يتشعب إلى شعب ، حسب الروايات الواردة

عنه ، والتي قد يلوح فيها التضارب ، ففي رواية ابن إسحاق[١] : أن وفد نصارى نجران وفد على رسول اللّٰه ﷺ بالمدينة ، ودخلوا عليه بالمسجد بعد العصر ، فحانت صلاتهم فقاموا يصلون في المسجد النبوي على طريقتهم فاستقبلوا المشرق ، وأراد الناس منعهم فنهاهم رسول اللّٰه ﷺ - إلى آخر الرواية ، وسنعرض لها بالتفصيل إن شاء اللّٰه .

وفي رواية أخرى عن ابن إسحاق وغيره من كتاب « السير »[٢] : أن رسول اللّٰه ﷺ بعث خالد بن الوليد سنة عشرة من الهجرة إلى بني الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم - ثلاثًا - فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم ، وسوف نعرض لهذا الرواية أيضًا بالبسط مستقبلًا .

والجمع بين الروايتين ، أو بين كل ما ورد عن أهل نجران في قدومهم على الرسول ﷺ ، أو إرسال الرسل إليهم كما حققه ابن القيم رحمه اللّٰه ، حيث يقول[٣] : إن أهل نجران كانوا صنفين ؛ نصارى ، وأميين ، فصالح النبي ﷺ النصارى على ما سيأتي بيانه ، أما الأميون فبعث إليهم خالد بن الوليد فأسلموا ، ثم قدم وفدهم على رسول اللّٰه ﷺ إلى آخر القصة .

وعلى هذا نبدأ أولًا ببحث وفد النصارى من نجران الذين قدموا على رسول اللّٰه ﷺ ، وأخذوا في صلاتهم في المسجد النبوي على مرأى من النبي ﷺ وأصحابه ، وتذكر الرواية أنهم ستون راكبًا بينهم أربعة وعشرون رجلًا من أشرافهم ؛ منهم ثلاثة يؤول إليهم الأمر ، وتذكر بعض الروايات في سبب قدومهم على رسول اللّٰه ﷺ أنه كتب يدعوهم إلى الإسلام ، ويقول في كتابه : « أما بعد ، فإني أدعوكم إلى عبادة اللّٰه من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية اللّٰه من ولاية

(١) كما في سيرة ابن هشام (١/ ٥٧٣، ٥٨٤) .
(٢) سيرة ابن هشام (٥٩٢/٢) .
(٣) زاد المعاد ٣/ ٦٤٥.

العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب ، والسلام » .

وكان هذا أول موقف حاسم حازم وقفه رسوله الهدى من نصارى نجران ، أعلنهم فيه بمبادئ دينه ، وهو مضمون ما جاء في الآية الكريمة : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ٦٤] ، وفي نهاية هذه الدعوة أنذرهم بحرب لا هوادة فيها ؛ ليكون الدين كله لله ، وليتم ما أراده الله للإسلام من الظهور على سائر الأديان ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٣] .

وكان لهذا الكتاب أثر بالغ في نفوس أهل الرأي والحل والعقد بينهم ، حيث ألقي فيهم الذعر وجعلهم يجتمعون للتشاور في المخرج الذي يخلصون منه إلى السلامة والأمن ، دون أن يغير عليهم الدين الجديد ودعوة الرسول في طقوس عبادتهم ومذاهبهم شيئًا ، دون أن تنالهم الحرب بيأسها وتستذل كبرياءهم ، فقرروا إيفاد الوفد آنف الذكر من خيرة رجالهم وذوي الرأي والمكانة فيهم ، غير أن الوفد لم يكن لديه من الكياسة ما يجعله يكسب الموقف لأول وهلة ؛ ذلك لأنه جنح إلى التعالي وإظهار الأبهة ، فعمد إذ وصل المدينة إلى وضع ثياب السفر ، واستعاض عنها بالحلل الحرير طويلة الأذيال من الحبرة يجرونها خيلاء ، وتختموا بالذهب ؛ إيغالًا في الكبر والعجب ، ثم قصدوا الرسول الكريم وسلموا عليه في المسجد ، فانصرف عنهم ، ولم يعبأ بهم ، وتصدوا للتحدث إليه طويلًا فأعرض عن الاستماع إليهم فشق عليهم ذلك ، وكان من حقهم لو كانوا حصفاء[1] أن يستبدلوا العظمة والكبرياء والعُنجهية بالذل والاستكانة وخفض

(١) الحصفاء : العقلاء ، يقال : استحكم عقله فهو حصيف . انظر « القاموس المحيط » : (الحصف) .

الجناح ؛ لأن النذر التي وجهت إليهم بالحرب ؛ إما أن تكون موجهة إليهم من ملك له صولة ترهب الخصوم ، ودولة تستذل المناوئ ، أو تكون من نبي مرسل ، فهو مؤيد من الله ، مكفي المؤنة بالنصر ، أضف إلى ذلك ما كانوا يعلمونه حقيقة من كتبهم عن بعث نبي من ولد إسماعيل تكون رسالته شاملة خاتمة للرسالات ، وذلك مما يحملهم على التطامن[١] .

ولقد شق عليهم موقف الرسول منهم والتمسوا أن يصلوا إلى غاية فاتصلوا بعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنهما ، إذ كان لهم بهما صلة سابقة ، وشكوا إليهما ما لقياه من موقف السلب الذي وقفه منهم الرسول ، وقالوا : إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له ، فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا ، وتصدينا لكلامه نهارًا طويلًا فأعيانا أن يكلمنا ، فما الرأي منكما ، أنعود ...[٢] فاستشار عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، على بن أبي طالب في أمر القوم فمحضهم النصح ، وأشار عليهم بما يعلمه من خلق الرسول الكريم وأنه يبغض كل هيئة أو خلق يتنافى مع ما جاء به من الحق ودين الله ، وقال : أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ، ثم يأتون إليه . ففعلوا ثم قصدوا رسول الله ﷺ فسلموا فرد عليهم ، ثم أخذوا في معالجته وسؤاله بغية إفحامه وإحراجه واستطلاع ما وراءه إن كان النبي المنتظر الذي وعدوا به ، أم كانت دعوته لأهداف معينة ، أو لمجرد الظهور والسيطرة والاستعلاء ؛ شأن الملوك والحكام .

والواقع الذي لا مرية فيه أن علماء أهل الكتاب أو قسسهم وأحبارهم ليعلمون حق العلم بما نصت عليه كتبهم من وصف نبي يخرج في آخر الزمان ، وأنه

---

(١) التطامن : هو الخضوع . انظر « مختار الصحاح » : (خضع) .

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل .

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ولكن حقدهم أن يكون نبي من العرب حملهم على إخفاء وصف الرسول وعدم متابعته والتمادي مع قومهم فيما هم فيه من ضلال ؛ خشية أن يسلبوهم مراكزهم ، وما حبوهم به من رعاية مادية وأدبية ، يؤيد ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٧]

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية[١] : هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك .

ولقد كانت نقطة الخلاف بينهم وبين الرسول ﷺ التي ما برحوا يناضلون عنها ويجادلون في عيسى ابن مريم ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، إذ كانوا يعظمون فيه الفرية ، ويزعمون أنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، ويحتجون بأنه الله ؛ لأنه كان يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمة والأبرص ، ويخبر بالغيب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيرًا ، والواقع أن كل ذلك بأمر الله ، وليجعله الله آية للناس .

ويحتجون في قولهم : إنه ابن الله ؛ بأن السنة أن لا يكون ولد بغير أب يعلم ، وأنه لو تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله ، ويحتجون بأنه ثالث ثلاثة بقوله تعالى : فعلنا وأمرنا وخلقنا . يقولون : ولو كان واحدًا لم يأت على صورة الجمع ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

وقد وضع الله سبحانه لهذا الجدل العقيم والعقيدة الزائفة ، التي تتنافى مع

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٣٦) .

كمال الربوبية والتأليه حدًا ، وأنزل صدر سورة آل عمران ، وهو يربو على الثمانين آية ، كانت هي القول الفصل في قصة مريم ، وحملها ، ووضعها ، وولادتها لعيسى ، وضرب المثل في خلقه من غير أب ، بآدم الذي خلقه بقدرته الصالحة لخرق السنن ، خلقه من غير أب وأم .

وفي رسالة عيسى وتأييده بالآيات من إبراء الأكمة والأبرص ، إلى تمام القصة ، عبر وآيات ومعجزات باهرة ، وكان من ضمن ذلك آية المباهلة التي تقطع دابر الكاذبين ، قال تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠] أي : هذا هو القول الحق في عيسي الذي لا محيد عنه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ثم بدأ آية المباهلة بقوله : ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ٦١] أي : نحضرهم جميعًا لنبتهل إلى الله ، ونطلب في ضراعة أن يجعل لعنته على الكاذب منا في أمر عيسي ، وبدهي أن الكاذب هم القسس وأتباعهم ، وكل من احتضن عقيدتهم في التثليث ، وحاد عن الحق الذي جاء عن الله .

وكان هذا الموقف أروع موقف حاسم وقفه رسول الهدى ﷺ منهم لم يجدوا مهربًا منه ، إلا أنهم استمهلوا إلى الغد ؛ لينظروا في أمرهم ويقروا ما يجمع عليه رأيهم في قبول المباهلة أو عدمها وفي الانضمام إلى جماعة المسلمين أو البقاء على دينهم مع قبول الجزية التي يضربها الرسول ﷺ عليهم .

وانطلقوا يأتمرون ويرجعون الأمر في الفصل للعاقب أميرهم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدر القوم إلا عن رأيه ، وقد أدرك العاقب خطورة الموقف ، وقال لقومه إذ ردوا الأمر إليه : والله إني أرى أمرًا مقبلًا ، وأرى والله إن كان هذا

الرجل ملكًا مبعوثًا فكنا أول العرب طعن في عينه وردًا عليه أمره ، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى يصيبونا بجانحة ، وإني لأري القرب منهم جوارًا ، وإن كان هذا الرجل نبيًا مرسلًا فلا عناه فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفرًا إلا هالك ، والرأي تحكيمه ، فإني أرى رجلًا لا يحكم شططًا أبدًا .

ولقد أردف رسول اللّٰه ﷺ الموقف الأول الحاسم في طلب المباهلة بموقفه في التنفيذ ، حيث أقبل في اليوم الثاني على القوم مستصحبًا الحسن والحسين سبطيه ، تتبعها أمهما تسعى لموقف المباهلة فاعترضه رائد القوم ، يطلب منه العدول عن المباهلة إلى ما هو خير منها ، قائلًا : أحكمك اليوم إلى الليل ، وليلته إلى الصباح ، فمهما حكمت فينا فهو جائز .

ثم انفصل القوم عن المدينة يحملون كتاب رسول اللّٰه ﷺ ، وفيه فرض الجزية ، وضمانات لصالحهم ، يعيشون في ظلالها في دعة وأمن شامل ، وفيما يلي نص الكتاب النبوي الكريم :

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمد النبي رسول اللّٰه لنجران- إذ كان عليهم حكمه- في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق ، ما فضل عليهم ، وترك ذلك كله على ألفي حلة في كل رجب ألف حلة ، وفي كل صفر ألف حلة ، وكل حلة أوقية ما زادت على الخراج ، أو نقصت على الأواقي بحسابه ، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بحساب ، وعلى نجران مثواة رسلي ومنعتهم بها عشرين فدونة ، ولا يحبس رسول فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعًا ، وثلاثين فرسًا ، وثلاثين بعيرًا ، إذا كان كيد باليمن ومغدرة ، وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسلي حتى يؤديه إليهم ،

ولنجران وحسبها جوار اللّٰه وذمة محمد النبي على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه ولا يغيروا حق من حقوقهم ولا ملتهم ولا يغيروا أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا وقهة من وقهيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم ريبة ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار اللّٰه وذمة محمد النبي رسول اللّٰه حتى يأتي اللّٰه بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم. شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة.

وإنه لكتاب كريم، ووثيقة وثق لهم بها الحقوق، وأعطاهم الضمانات الكفيلة بإقامة سياج منيع حولهم؛ للصيانة والرعاية والوفاء بما التزم نحوهم، ولم يكتف بكل ذلك، بل أشهد على الوثيقة، وهو الصادق الأمين والرسول ...[1] الذي لا ينكث في عهد ولا يخس بوعد قطعه، لم يرض أن يشهد على التزاماته وعهده نفرًا من أتباعه، ولم يستنكر من ذلك، وهو سبيل رسمه للأمة لحفظ الحقوق وضمان الالتزامات.

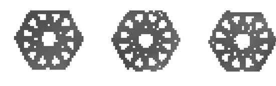
وإنه لموقف من أجلّ المواقف الحاسمة، أحرزت به الدولة الإسلامية الفتية كسبًا متعدد الجوانب؛ كسبًا في المجال العلمي، وقرع الحجة بالحجة، ونجاح المناظرة، وكسبًا في المجال السياسي؛ حيث أخضع الخصوم لإرادة الرسول ﷺ، ونزلوا على حكمه، فأملى عليهم شروطه، وفرض عليهم الجزية، وكسبًا في المجال المادي، حيث كانت الجزية ركيزة لتدعيم النشاط الحربي في دولة الإسلام وعدة للمجاهدين.

---

(١) كلمة غير واضحة.

وحسبنا هذه الصفحات عن المواقف الحاسمة التي وقفها رسول الهدى من نصارى نجران، وما كان من قدومهم على الرسول الكريم في المدينة عاصمة الإسلام، وما صاروا إليه من اطمئنان على مصيرهم، وأمن شامل على أرواحهم وأموالهم وملتهم وطقوس عبادتهم، وسوف نعرض مستقبلًا للمواقف الحاسمة التي وقفها المصطفى ﷺ من الأميين من أهل نجران الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد؛ لدعوتهم إلى الإسلام وقتالهم إن أبوا ذلك.

وسوف نوفي البحث حقه في ذلك إن شاء الله في مقال آخر.



فهرس الكتاب

